وقائع بحوث المؤتمر الدولي الأول

تحت شعار

فلنحيينه حياة طيبة

المنعقد تحت عنوان

معالم الحياة الطيبة عند أهل البيت عليهم السلام

العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

جمعية العميد العلمية الفكرية

جمعية العميد العلمية والفكرية (كربلاء، العراق). معالم الحياة الطيبة عند اهل البيت عليهم السلام (الاول : ٢٠٢٤ : كربلاء، العراق)، مؤلف.
وقائع بحوث المؤتمر الدولي الأول تحت شعار فلنحيينه حياة طيبة : المنعقد تحت عنوان معالم الحياة الطيبة عند اهل البيت عليهم السلام.ـ كربلاء، العراق : جمعية العميد العلمية والفكرية، قسم النشر، ١٤٤٥ هـ. = ٢٠٢٤.
٥٥٠ صفحة : رسوم بيانية، اشكال ؛ ٢٤ سم
ردمك : ٩٧٨٩٢٢٦٨٢٦٤٤
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
النص باللغة العربية ؛ ومستخلصات باللغة العربية.
١. الحياة الدينية--الاسلام--مؤتمرات. ٢. الاخلاق الاسلامية (شيعة)--مؤتمرات. أ. المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية (النجف، العراق). معالم الحياة الطيبة عند اهل البيت عليهم السلام (الاول : ٢٠٢٤ : كربلاء، العراق)، مؤلف. ب. العنوان.

LCC : BP194.7 .A8365 2024

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

الفهرسة اثناء النشر

٠٦٣ / ٩٥٦

م ٤٩٨ المؤتمر الدولي (١ : ٢٠٢٤ : جمعية العميد . كربلاء)
وقائع بحوث المؤتمر الدولي الأول تحت شعار : فلنحيينه حياة طيبة / المؤتمر ، مجموعة باحثين . -

ط١ . - كربلاء : جمعية العميد العلمية ، ٢٠٢٤.

٥٥٠ ص . ؛ ٢٤ سم .

١. التاريخ الاسلامي – مؤتمرات . أ. العنوان

٢٨٤٢/ ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٨٤٢) لسنة ٢٠٢٤

ISBN: ٩٧٨-٩٩٢٢-٦٨٠-٧٧-٤

دار الكفيل
للطباعة والنشر والتوزيع

المحتويات

أ	كلمة المتولّي الشرعي للعتبة العباسيّة سماحة السيّد أحمد الصافي (دامت بركاته)	
ز	كلمة افتتاح المؤتمر	
ط	البيان الختاميّ والتوصيات العلميّة	
١٧	الحياة الطيّبة في القرآن الكريم	السيد محمد حسين العميدي أستاذ في الحوزة العلميّة / النجف الأشرف
٣٧	مفهوم الحياة الطيّبة ومعالمها في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام	الشيخ أحمد قبلان باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / المفتي الجعفري الممتاز في لبنان
٦٥	المباني النظريّة للحياة الطيّبة	الشيخ حسن أحمد الهادي باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / لبنان
١٠٧	دراسة تحليليّة في مفهوم الحياة الطيّبة ومبادئها من منظور القرآن والروايات	السيّد الدكتور عبد الكريم حسن پور باحث في التأريخ الاسلامي / أستاذ جامعي / إيران
١٢٩	معالم الحياة الطيّبة في الحياة الأُسريّة للإمام علي والسيّدة الزهراء عليهما السلام	السيد نبيل الحسني باحث في الفكر الإسلامي وأستاذ في الحوزة العلمية / كربلاء
١٥١	أثر معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده في الحياة الطيّبة	الشيخ سامر توفيق عجمي باحثٌ في العلوم الفلسفيّة والدينيّة وأستاذ في الحوزة العلمية / لبنان
١٨٥	الإيمانُ بالآخرة وأثرُه على الحَياة الطيّبة من خلالِ القرآنِ الكريم وروايات أهلِ البيت عليهم السلام	د. محمد مرتضى أستاذ الفلسفة الغربية في جامعة المعارف / لبنان

٢١٥	الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام وأثره في تحصيل أسباب الحياة الطيّبة	الشيخ الدكتور لقاء جواد الكعبي باحثٌ في الفكر الإسلامي / أستاذ جامعي / جامعة الكوفة / النجف الأشرف
٢٣٧	أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة	الشيخ الدكتور عدنان فرحان القاسم باحثٌ في الفكر الإسلامي وأستاذٌ جامعي / الجامعة المستنصرية
٢٥٣	مكارم الأخلاق من حقيقة الوحي دُربة الإنسانية إلى التوحيد والعدل والحياة الطيّبة	د. محمود حيدر أستاذ محاضر في الفلسفة والإلهيات / لبنان
٢٨٣	زيارة الأربعين أنموذجٌ لمجتمع تراحمي نقيض الفردانية الحداثية	د. طلال عتريسي أستاذ العلوم الاجتماعية / جامعة بيروت / لبنان
٣٠٥	أثر العلاقات الاجتماعية في الحياة الطيّبة من منظور أهل البيت عليهم السلام -قراءة في كتاب العشرة من أصول الكافي-	محمدرضا الخاقاني (بيگ) باحث في الفكر الإسلامي / جامعة طهران / ايران
٣٢٧	موانع الحياة الطيّبة في ضوء الفطرة والعقل	الدكتور علي خضر الشكري أستاذ جامعي / جامعة الكوفة
٣٥٣	طلب الراحة ودوره في المنع من الحياة الطيّبة في روايات أهل البيت عليهم السلام	الشيخ عليّ سعدون الغزيّ باحثٌ في الفكر الإسلامي وأُستاذ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف
٣٦٥	أثر الذنوب في فقدان الحياة الطيّبة الإعراض عن الذكر أنموذجًا	الشيخ صباح عباس حسن باحثٌ وأستاذٌ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف
٣٩١	تداعيات الحرب الناعمة في عصر ما قبل الظهور على الحياة الطيّبة قراءة تحليلية	الشيخ الدكتور وليد حميد فرج الله باحثٌ في الفكر الإسلامي وأستاذٌ جامعيّ / جامعة الكوفة / النجف الأشرف

٤١١	الحياة الطيّبة في الدولة المهدوية	الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف
٤٥٣	نمط الحياة الطيّبة بين الإسلام والغرب (دراسة مقارنة)	أ.د. حسن خليل رضا باحثٌ في العلوم العقلية والدينيّة / أستاذٌ في الجامعة اللبنانية
٤٧٥	الحاكميّة ودورها في بناء الحياة الحضارية الطيّبة للأمة	السيد الدكتور علي محمد جواد فضل الله أستاذٌ في الحوزة العلمية ومحاضرٌ جامعي في الفلسفة والكلام / جامعة المصطفى / لبنان
٥٣٥	الحياة والموت في عاشوراء: (إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جميلًا)	أ.د. بتول زين الدين دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال / أستاذةٌ جامعية في كلّية الإعلام / الجامعة اللبنانية / لبنان

كلمة المتولّي الشرعي للعتبة العباسيّة سماحة السيّد أحمد الصافي (دامت بركاته)

نُحييكم ابتداءً في هذه الأيام المباركة، ونسأل الله تعالى أنْ يوفقنا وإيّاكم لاستقبال شهر الله الأعظم شهر رمضان المبارك، وأنْ يتقبّله منا ومنكم، سائلين ثانيةً بحرمة ليلة النصف من شعبان أنْ يكحل أعيننا بالطلعة البهيّة لوليه صاحب الأمر والزمان.

بدءًا أيضا نشدُّ على أيد الأخوة في المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة، وجمعية العميد لهذه الباكورة الطيّبة في مسألة الحياة الطيّبة، وإنْ شاء الله تعالى يكون هذا المؤتمر نافعًا وواسعًا، وتُؤسس فيه وتؤصّل بعض القواعد المهمّة لإحياء هذه الحياة الطيّبة. لا يخفى على الأخوة الأعزّاء مسألة الحياة عمومًا، يعني ما دمنا في الدنيا نتكلّم عن الحياة الدنيا، وكيف يمكن أنْ تخلو من مشاكل، في الحقيقة هي لا تخلو من مشاكل جمّة، وهذه المشاكل تتفاوت سعةً وضيقًا وتعقيدًا، بحسب ما نبلغ نحن من رؤيا إزاء هذه الحياة. في بعض الحالات قد لا تستدعي المسألة منّا أنْ نتعب ونتشنّج فيها كثيرًا، ونحمل همها كثيرًا، لكنّنا قد لا نفهم طريقة حلّ هذه المشكلة، فتزداد تعقيدًا، كمن يرفع رجله من الوحل، ثمّ يضع الأخرى فيه، وهكذا الدوامة تستمر.

واليوم عندما تعاني الدنيا من هذه التعقيدات، فجزءٌ مهمٌّ منها، ولعلّه الجزء الأهم، هو ابتعادها عمّا بيّنه الله تعالى من نهجٍ يوضّح كيف نعيش في هذه الدنيا. فالذي خلقنا لم ينسَ حاشاه أنْ يعطينا رؤيةً عن كيفية العيش في هذه الدنيا بحسب ما قدر لله تعالى من أعمار، ثم ننتقل إلى عالمٍ آخر أبدي. في هذه الحقبة، حقبة الدنيا، قد لا نعلم ولا نفهم ما هي الأسس التي يمكن أنْ نعيشها حتى نتجنب أكبر خسارةٍ ممكنةٍ في مشوارنا الحياتي، الإنسان إذا كان لا يعرف فلا شكّ في أنّه سيكون في تيه، وفي ظلال، وإنْ خرج من مشكلةٍ دخل في أخرى، وهكذا ينهي عمره بالانتهاء من مشاكل والدخول في أخرى إلى أنْ يموت، أمّا الذي يفهم كيف نتعامل مع هذه الدنيا، ما هي القواعد العامة التي بيّنها الله تبارك وتعالى لنا كي نحيا فيها؟ مع أنّنا بشر وما يحتاجه البشر هو غريزة حب البقاء، وأيضًا غريزة حب الذات موجودة، وهنا جاء الشارع المقدّس وقنّنها، وفصّل الأمر، فهذا الشي يشبع حياتك، وذاك الشي ينظّم أفكارك، وهكذا.. وفق ما بيّنه الأنبياء

وجاء به القرآن، وبتطبيقه ستعيش حياةً طيّبة.

والطيّب مقابل الخبيث، والخبيث يشمل المادة، فلست أتحدث عن الهيأة فقط ، بل حتى مادة الخبيث مقززة، الشيء الخبيث مُنفّر لجميع الطبائع البشرية باختلاف الشرائع والأديان، فكل أفرادها تتنفّر من الشيء الخبيث. والقرآن الكريم استعمل هذا المصطلح، فشجرةٌ طيّبة تقابلها شجرةٌ خبيثة، الطيّب لا يتزّوج إلّا طيّبة، مقابل الخبيث ومشتقاته. الخُبث يُولّد حالةً من النفرة، فكيف إذا كانت الحياة كلّها توسم بأنّها حياةٌ خبيثة؟! وفي المقابل تكون الحياة حياةً طيّبة. الحياة الطيّبة لا تعني ألّا توجد مشاكل فيها، لكن هذه المشاكل كيف تواجه؟ طبعًا التنظيم الأسري كتنظيم مجتمعي قطعًا يحتاج منا إلى منهجية، وكمثال، أنا أؤمن أنّ الرسالة العملية هي منهج حياة كامل، أنا أؤمن به، لكن صياغة الرسالة العملية إلى منهج تحتاج إلى تعديل؟ إذا أردنا أنْ نتجاوز جوانب المسائل الفردية إلى قضايا الحياة العامة، فهي تحتاج إلى صياغة أيضًا، المادة باقية لا نمسها، لكن الصياغة تحتاج إلى تعديل.

عندنا كنز كبير جدًّا من المعارف التي تؤسّس للحياة طيّبة، أنا قرأتُ أولًا ملخصات بحوث المؤتمر بحمد لله تعالى، العنوانات جيدة، والمعنون إنْ شاء الله تعالى يكون أفضل، و تريد كلّها أنْ تصل بنا إلى الحياة الطيّبة، التي ينبغي أنْ يعيشها الإنسان من ولادته إلى مماته. إنّ لدينا موادّ جيدةً وجديرةً جدًّا بأنْ تكون منهجًا للحياة، نعم، ربما مازلنا نحتاج إلى الصياغات، ولعله مع الأخوة الأعزاء مؤسّسي هذا المؤتمر نستفيد من كلام الأئمّة ﷺ، فهم يقولون نحن نلقي الأصول وعليكم التفريع. قطعًا القضية غير خاصة بالفقه، بل هي عامة لجملة من الأشياء التي لا نعرفها؛ لأنّ كلامهم ﷺ بشؤون الحياة جميعها من الولادة إلى الممات، وجاء الأئمّة الأطهار ﷺ وبيّنوا كثيرًا من الأمور التي يحتاجها الإنسان حتى يعيش هذه الحياة الطيّبة، ولعلنا أخذنا مثالًا فيما سبق، ولا بأس بإعادته الآن بنحو لا نتجاوز فيه الوقت المحدد إن شاء الله.

كلكم ترون أنّنا في دعائنا نستقبل القبلة، ونوفر صفات وحالات الكمال للدعاء، كالوضوء والجلوس على السجادة واختيار الوقت المحبب لإجابة الدعاء، واختيار

المكان الذي يستجاب فيه الدعاء، ثمّ ندعو الله تعالى، وهذه من الحالات التي ندب إليها الشارع المقدس، ولا شك في أنّ هذه حالة ممتازة، إذ إنّ الله تبارك وتعالى لولا دعاؤنا لا يعبأ بنا، والله أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. في سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام هناك حالة ما وراء ذلك، حيث إنّ بعض المفاهيم أُدخلت في الدعاء نتيجة ظروف الآل، وهي غير خافيةٍ على حضراتكم، فالآل عليهم السلام لم يعيشوا الحياة العادية، وإنّما عاشوا حياةً فيها ضغط، لا أعبّر بأكثر من هذا التعبير، يعني فيها ضغط، لم يجدوا فسحة ليعبّروا عن كلّ ما جاءت به السُنّة المطهّرة على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله، ليس معلومًا الألف باب التي أعطاها النبيّ لأمير المؤمنين عليه السلام، وكلّ بابٍ يُفتح منه ألف باب، ليس معلومًا أنّها ظهرت إلى الناس، فهي عند الإمام عليه السلام موجودة، لكنْ هل ظهرت إلى الناس جميعًا، وليس معلومًا ذلك، فإنّ هناك بعض الروايات ما زالت مرهونةً عند صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

لكن الأئمّة طرحوا بعض المفاهيم من خلال الدعاء، وهذه صياغةٌ خاصةٌ بهم، يعني غير حالة الوقوف بين يدي الله تعالى وطلب الرحمة والاستزادة، غير هذا طرحوا مفاهيم كبيرةً لتقويمنا وأيضًا للحفاظ علينا، ومن جملتها لعله أدعية الإمام السجاد عليه السلام، ففيها كنزٌ من المعارف الكبيرة جدًّا، واستنطاق هذه الكنوز يحتاج أنْ يكون من قبل المختصين، كي يؤسس لمنهج خاص في مقام التربية. دعاء مكارم الأخلاق من الأدعية الراقية جدًّا حتى إنّ كثيرًا من العلماء - أنا قرأت بعض إجازات العلماء - كانوا يوصون بدعاء مكارم الأخلاق ودعاء التوبة، للإمام السجاد عليه السلام، وبعضهم كان يوصي مثلًا بالاهتمام بنهج البلاغة. أمير المؤمنين عليه السلام أعطى قواعد كثيرة في قصار الحكام، مثلًا رواية تصدر عن الأئمة الأطهار عليهم السلام مضمونها أنّ الناس مجبولةٌ على محبّة من أحسن إليها، هذا مضمون الرواية وليس نصّها، لاحظوا هذا مفهومٌ راقٍ جدًّا لا يتكلم عن الإحسان القربيّ إلى الله تعالى، بل يتكلّم عن الطرف الآخر، أي إنّ الناس تحبّ من أحسن إليها. النبيّ يوسف عليه السلام كان في السجن ويقول له من معه: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فإذًا الإحسان إلى الآخرين يُولّد حالةً من المحبّة. علم النفس الآن عندما يدرس عملية التواصل مع الآخرين،

يطرح مفاهيم متعددة لغرض التواصل، كيف تكسب الاحترام؟ كيف تكسب المحبّة؟ تأتي كلمةٌ مختصرةٌ من أئمتنا عليهم السلام تقول هذا المقدار اهتموا به، تريدون أنْ تحصلوا على المحبّة أحسنوا إلى الناس، ولاحظوا ما فائدة التجمّع في التواصل العائلي، وفي التواصل الأقربائي، وفي التواصل الاجتماعي، بهذه الكلمة، كلمة الإحسان، أنّ الإنسان سيكون قطعةً من الإحسان، وهكذا.

ألّف ديل كارنيجي أحد علماء الغرب في الأربعينات أو الخمسينات من القرن الماضي كتابًا اسمه (كيف تكسب الأصدقاء؟)، وهو كتاب ذو عنوان شيّق، خصوصًا للشابّ في بداية مراهقته، فالشابّ يحبّ أن يتعلّم هذه الأمور، فهو وضع خطوطًا عريضةً عن كيفية كسب الأصدقاء، وطرح مباني يرى أنّها فعلًا تؤدّي الغرض، قرأه أحد علمائنا وألّف كتابًا بالعنوان نفسه (كيف تكسب الأصدقاء؟)، لكن جعل المناط ليس ما قال هذا العالم الغربيّ، وإنّما المناط ما جادت به روايات أهل البيت عليهم السلام بحيث دخلت هذه المسألة حتّى في تفاصيل المناداة، هل من الأفضل أن تسمّي صاحبك باسمه تقول له (يا محمد)، أم تقول له (يا أبا فلان)؟ وقال إنّ الكنية بالنسبة للشخص أحبّ، فالشباب بينهم هذا يكنّي هذا، أوقع في قلبه وزيادة في المحبّة لهذه الدرجة، وتناول المصافحة وأثرها اجتماعيًا، وبدأ يؤسّس منهجًا من خلال هذه الروايات الشريفة، وهذا المنهج قد يتعارض مع ذلك المنهج، وهذا المنهج دائم.

الإنسان يحبّ نفسه سواء كان قبل ألف سنة أم الآن أم بعد ألف سنة، هو يحبّ نفسه، وإذا أحبّها، كما يختار الطيّب من الطعام أيضًا يختار لها الطيّب من الفكر، وبيّن أنّ هذه تصنع شخصيةً مهمّةً وتعزّز الثقة بالإنسان، وفعلًا الآن الشابّ عندما تكنّيه يشعر بالاحترام أكثر، يشعر بالرجولة أكثر، يشعر بأنّك تحبّه وتحترمه، بينما هو فعل وكلمة صغيرة. ذُكِر في الحديث أنّ (المؤمن هشّ بشّ)، وقد كان بعض الناس حين يزور عالِمًا، عندما يزوره لمرّةٍ واحدةٍ يتكلّم عنه ويقول هذا صديقي!! هو يذكر عن العالِم هذا صديقي!!، يسألونه كيف صديقك؟! قال: ابتسم في وجهي وسألني عن العائلة. هذا الأخ كان يتصوّر أنّ العالِم يعرفه، بينما هذا العالم سجيّته هكذا، وهذا بالنتيجة حقّق هذه

المحبّة التي لا تزال وتبقى منطبعة وبسهولة كصورةٍ جيّدة في ذهن هذا الشخص تجاهه.

أمامنا الوضع الاجتماعي، لاحظوا - والعياذ بالله - نسبة الطلاقات الهائلة! يعني المجتمع الآن يخرج بانفصالاتٍ أسرية؛ لأنّه لم يتحمّل أحد الزوجين الآخر في أشياء جدًا جدًا بسيطة، لا أسرة الزوج تفهم كيف تعالج الأمور، ولا أسرة الزوجة تفهم كيف تعالج الأمور، ويكون هؤلاء ضحية هذا الافتراق، حياتهم لا تتجاوز الأشهر أصلًا، لماذا؟ لأنّهم لم يتعلّموا كيفية أنْ تكون الحياة طيّبة، يتصوّرون هذا الموجود الآن في الدنيا على ضوضاء الأفكار وعلى تزاحم الثقافات، ليس عنده حالةٌ رصينةٌ يعرف كيف يواجه هذه المشاكل، فتحدث المشكلة. فلنأتِ إلى رأس المشكلة ونحلّها، هذه المسألة مهمّة أنْ نرجع بالأمور إلى لبّ المشكلة، أين لبّ المشكلة؟ وهذه الأمور الباقية هي النتاج للمشكلة الرئيسة، وليست المشكلة. الطبيب عندما يأتيه شخصٌ ويقول له ارتفعت درجة حرارتي، يحاول أنْ يصل إلى المشكلة، ليصف العلاج، فأين المشكلة؟ اقضِ على المشكلة، فينقضي هذا الأثر، المؤثّر على هذه الضوضاء.

كثير من هؤلاء الناس انسلخوا حقيقة من الدين؛ لأنّ لديهم مشكلات تحتاج حلًّا، والمشكلات طُرحت لهم بغير منهج الدين، فلم تُحلّ، أو الناس تشدّدوا بالدين بطريقةٍ لا يرضى بها الله ورسوله، فنفّروا الآخرين من الدين، فأصبح الدين ضحيةً بين منسلِخٍ عنه ومتشَدِّدٍ فيه. أمّا الجادّة الوسطى، والطريقة الوسطى، فقليلٌ من يمارسها، وهذا القليل صوته أيضًا واطئ، الصوت النشاز الآن لمن انسلخَ عن الدين ولمن تشدّد في الدين، أمّا الحالة الوسطى التي هي تريح الإنسان، وتعلّمه وتحلّ مشاكله، تهدّئ من هذه الضوضاء، وتجعل الإنسان أفكاره منظّمة، وطريقته منظّمة.

ولذا نريد أن نؤسّس في هذا المؤتمر المبارك إنْ شاء الله تعالى بجهد جميع الباحثين لوضع الحلول، بعد أنْ نفهم أين المشكلة، حتى يُؤسَّسَ لهذه الحياة الطيّبة تأسيسٌ حقيقيّ، فيه قواعد عامة مَن شذّ عنها هو يتحمّل خروجه، ومَن التزم بها يُضمَن له أنْ يعيش حياةً طيّبة، حياةً ملؤها الأمل والاستقرار والطمأنية. ولا أقول لا توجد مشاكل، فالحياة مليئةٌ بالمشاكل، لكن أيضًا المشاكل تُحلّ بطريقةٍ عقلائيةٍ تربوية، وقد تصنع المشاكل للإنسان

حالةً من حالات التكامل عنده.

على العموم أترك البحث الآن للإخوة الأعزّاء فيما يجودون به علينا إنْ شاء الله من بحوثهم الطيّبة، أسأل الله تعالى دوام التوفيق للجميع، وأجدّد الشكر لكم أيّها الإخوة الحضور الكرام، وأيضًا للمركز الإسلامي ولجمعيّتنا العزيزة جمعية العميد، سائلًا الله تبارك وتعالى أنْ يوفّق الجميع، وأنْ يُحيينا ما دام في العمر بقيّةٌ حياةً طيّبة، بمحمّد وآله، وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمدٍ وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

كلمة افتتاح المؤتمر

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ وصلّى اللهُ على سيّدِنا وقائدِنا رسولِ اللهِ محمّدٍ وعلى أهلِ بيتهِ الطيبينَ الطاهرين.

أمّا قبلُ: فالسادةُ الحضورُ الكرام، سماحةُ المتولّي الشرعيِّ للعتبةِ العباسيةِ المقدّسة، السيّدُ الأمينُ العامُّ ونائبُه، السادةُ أعضاءُ مجلسِ الإدارة، رؤساء الأقسام، الباحثونَ الكرام، الضيوفُ الأعزّاء؛ السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتِه.

وأمّا بعدُ: فمن دواعي الاعتزازِ أنْ نلتقيَ في انعقادِ المؤتمرِ الدوليّ الأوّلِ الذي يُقام بالاشتراكِ بين جمعيةِ العميدِ العلمية والفكرية، والمركزِ الإسلاميّ للدراساتِ الاستراتيجيةِ، في أروقةِ العتبةِ العبّاسيّةِ بدءًا من يومِ الجمعةِ الأوّل من شهر آذار لعام وأربعةٍ وعشرينَ وألفين ١/ ٣/ ٢٠٢٤ الموافق للتاسعَ عشرَ من شعبانَ من عامِ خمسٍ وأربعين وأربعمائةٍ وألفٍ ١٤٤٥ بعد الهجرة. وتحت شعار (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة)، وبعنوان: معالمُ الحياةِ الطيّبة عند أهلِ البيتِ عليهم السلام.

تمثّلُ العودةُ إلى أهلِ البيتِ عليهم السلام بوصفهم المرجعيةَ الأمينةَ في بناءِ الحياةِ السليمة ضرورةً مُلحّةً، فرضتها العنايةُ الإلهيةُ واللطفُ الربانيّ بوجود هذه الذوات المقدّسة. وتتأكد هذه الضرورة بعد فشل التيّارات الفكريّة والمذاهب الاجتماعية المختلفة على امتداد الحقب الزمانية المتعاقبة في إيجاد منظومةٍ متكاملةٍ تبني وتدير حياةً كريمةً للإنسانِ وتقودُهُ حيثُ الفلاحُ في دنياهُ وآخرتهِ. زيادةً عن شيوع الأفكار الظلامية والقوى الهدامة وتمددها؛ لذا دعت الحاجةِ إلى العودة بنحوٍ جادٍّ إلى حصنٍ فكريّ دينيّ قويمٍ لبناء الوعي والبصيرة والسلوك الصالح، والعيش الكريم، الذي أساسُهُ الشريعةِ، وجوهرُ القيمِ الإسلامية وآدابِها، وروحُ القرآنِ وهَدْيُه، وتعاليمُ أهلِ البيت عليهم السلام.

وكان وما يزال المشروعُ الدينيّ في حفظِ العقيدةِ والدفاعِ عنها لمواجهةِ الأفكارِ الضلالية، وفقًا للأسس والثوابت الأمينة في الفكر الإسلامي، المهمة الأكبر لرسالةِ العتبةِ العباسيةِ المقدّسةِ بتشكيلاتِها ومشاريعِها الفكريةِ كافة، بعد قراءةٍ واعيةٍ للتراث، وفهمٍ عميقٍ لأثره، ورصدٍ دقيقٍ للمشكلاتِ العَقَديّة في الوسط الاجتماعي والفكري؛ ممّا يضع الجميع أمامَ مسؤوليةٍ ثقيلةٍ واستشرافٍ مستقبليّ

بصير يبني خطاه على المساحةِ الآمنةِ التي شيّدها أهلُ البيتِ عليهم السلام في سيرتهم المباركة.

ههنا تلتقي جميعةُ العميدِ الفكرية والثقافيةُ والمركز الإسلاميّ للدراساتِ الاستراتيجيةِ تحت أفياء العتبةِ العباسيةِ المقدّسةِ ورعايةِ متولِّيها وإدارتِها؛ لتضعَ مرتكزًا عامًا للوقوفِ على أهميةِ العودةِ إلى القرآنِ وحَمَلَتِهِ وهم أهلُ البيت عليهم السلام، ولاستلهامِ القواعد التي وضعوها في بناءِ حياةٍ طيّبة كريمةٍ، فجاء هذا المؤتمرُ بمحاورهِ الرئيسةِ للإسهام في تحقيقِ ذلك.

وقد قُسّمت موضوعاتُه التي يهدف إلى تحقيقِها الى أربعةِ محاورٍ أساسيةٍ تغطي موضوعَ معالمِ الحياةِ الطيّبة عند أهل البيت عليهم السلام، وهي (مفهومُ الحياةِ الطيّبة ومرتكزاتُها وأسسُها، وأثرُ الإيمانِ والاعتقادِ في تكوينها، وسيرةُ أهلِ البيتِ بوصفهم النموذجَ الحضاريّ للحياةِ الطيّبة، والمجتمعُ والحياةُ الطيّبة). وقد استقبلت الهيأةُ العلميةُ للمؤتمرِ (٤٦) ستّة وأربعين بحثًا، تم قبول تسعة وعشرين (٢٩) منها، موزعةً على محاور المؤتمر الرئيسة، والاعتذار عن البحوث الأخرى؛ لمخالفتها المعايير العلميّة الخاصّة بموضوع المؤتمر وغرضه. وقد تنوّعت مشاركة الباحثين من الدول الإسلامية، من العراق، ولبنان، وسوريا، وإيران.

وفي ختام الكلمة تقدّمُ إدارةُ المؤتمرِ وهيأتاهُ العلميةُ والتنظيميةُ وافرَ شكرِها وخالص تقديرها إلى كلّ من أسهم في انعقاده، ابتداءً من المتولّي الشرعيِّ سماحةِ السيّدِ أحمد الصافي، فالأمينِ العامِّ للعتبةِ السيّد مصطفى آل ضياء الدين، والمشرفِ العامِّ على قسمِ الشؤونِ الفكريّةِ السيّدِ ليث الموسوي، ورئيسِ قسمِ الشؤونِ الفكريّةِ السيّدِ عقيل الياسري - فشكرًا لهم لما قدّموه من تسهيلاتٍ في سبيل انعقاده، وتذليلِ صعوباتٍ كانت في طريقه.

كما تُقدّمُ شكرَها البالغَ للباحثينَ الكرامِ على ما جادتْ بهِ أقلامُهم في مشاركاتِهم البحثيةِ وما تحمّلوهُ من جهد السفر وأتعابه، وخالصَ احترامها لمن تمّ الاعتذار منهم لأسبابٍ علميةٍ خالصةٍ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدكتور عمّار عبد الرزّاق الصغير

نائب مدير المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة

البيان الختاميّ والتوصيات العلميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أبدعَ ما أوجد، وأتقنَ ما صنَع، فكلُّ شيءٍ لجبروته ذلَّ ولعظمته خضَع وفي عفوه طمع، وكم من خيرٍ أفاضَ ومكروهٍ دفَع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعالى في مجده، وأشهد أنّ سيّدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله أفضلُ مُقتدًى به وأكملُ مُتَّبَع، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه وعلى آله أهل الفضلِ والتّقَى والورَع.

أمّا بعدُ، فمن رحاب القداسة والطهر، ورحاب الشهادة والنصر، من كربلاء العلم والنور انطلقت فعّاليّات مؤتمر معالم الحياة الطيّبة عند أهل البيت عليهم السلام الدوليّ الأوّل، الذي أقامه المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية بالتعاون مع جمعية العميد العلمية والفكرية وتحت رعايةٍ كريمةٍ من العتبة العباسيّة المقدّسة، لدراسة موضوع الحياة الطيّبة عند أهل البيت عليهم السلام وأثرها في مواجهة التحدّيات المعاصرة التي فرضت نفسها على كثيرٍ من حنايا المجتمع الإسلامي اليوم، فضلًا عن الغزو الثقافي الناعم على المستويَينِ الفكري والقيمي للمجتمعات الإسلامية كافة، ولا سيّما في ما يتعلّق بنمط حياتها، ولأجل ذلك وحفاظًا على الهوية الأسرية والاجتماعية انبثقت فكرة إقامة هذا المؤتمر لاستلهام مقوّمات تلك الهوية من معالم حياة أهل البيت عليهم السلام، وقد ناقش الباحثون من علماء الحوزة الأجلّاء والأساتيذ الفضلاء على مدى يومَينِ عشرات البحوث التي ألقيت، وتداولوا في معطياتها التاريخيّة والعلميّة والاجتماعية والتربويّة والنفسية والاقتصاديّة واللغويّة المنبثقة من مفاهيم شعار المؤتمر ومضامين عنوانه، مُستَقْرين ما في بطون الأسفار من نصوصٍ وتحليلاتٍ واستنتاجاتٍ بعلميّةٍ وموضوعيّة.

هذا وقد أوصى المشاركون في هذا المؤتمر بما يأتي:

التوصية الأولى: الاستمرار في إقامة المؤتمر للأعوام القادمة لما نتج في هذه النسخة من بحوثٍ ودراساتٍ علميّة، تغني المكتبة الإسلاميّة بمزيدٍ من الرؤى التي تخدم المشروع الثقافيّ والاجتماعيّ العام لأتباع أهل البيت عليهم السلام، مع ضرورة أنْ يُسلّط الضوء في كلّ عامٍّ على مفردةٍ من مفردات الحياة الطيّبة وإشباعها بالبحث والتنظير.

التوصية الثانية: إقامة الورش والندوات التثقيفية في الحوزات العلمية والجامعات، للاطّلاع على نمط الحياة الإسلامية المنبثقة من تعاليم القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام، وتطبيقها في حياتنا اليوميّة.

التوصية الثالثة: مناقشة خطّة التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠ التي أطلقتها الأمم المتّحدة، وتسليط الضوء على تعاليم أهل البيت عليهم السلام.

التوصية الرابعة: تشجيع الباحثين على كتابة الدراسات المبنيّة على منهج أهل البيت عليهم السلام في مجالات متنوّعة، لإعداد برامج تربويّة قادرة على مواجهة التحدّيات المعاصرة وبمستويات مختلفة، تعنى بترسيخ الهويّة الإسلاميّة ترسيخًا تربويًا بالإفادة من سير الأئمّة المعصومين عليهم السلام والموروث الشريف من كلماتهم وتوصياتهم وتوجيهاتهم في المجالَينِ الفكريّ والعقديّ.

التوصية الخامسة: تقديم قراءةٍ تحليليةٍ نقديةٍ لسائر المدارس التي تعتمد نمطًا للحياة لا يتطابق مع رؤية القرآن الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام.

التوصية السادسة: العمل على إصدار مجلةٍ تخصّصيةٍ تُعنى بنمط الحياة والحياة الطيّبة عند أهل البيت عليهم السلام.

التوصية السابعة: تدوين وثيقة الحياة الطيّبة على وفق تعاليم القرآن الكريم والعترة الطاهرة، ومفاتحة وزارة التربية العراقية ومجموعة العميد التعليمية ومجموعة الوارث التربوية لتضمين بنودها ضمن مقرّراتهم الدراسية الإثرائية، تعزيزًا لقيمها وسلوكها في نفوس المتعلّمين.

ومن الله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدكتور أحمد صبيح الكعبي

نائب رئيس جمعية العميد العلمية والفكرية

الحياة الطيّبة في القرآن الكريم

السيد محمد حسين العميديّ

أستاذ في الحوزة العلميّة / النجف الأشرف

ملخص البحث

إنَّ لهذا البحث غرضين:

الأوّل يصبّ في الجانب النظريّ وهو الكشف عن مبادئ القرآن التي تمهد للوصول إلى الحياة الطيّبة، وهو يكشف عن رؤية الدين الإسلامي عن هذا الجانب الحياتيّ الاجتماعيّ المهم.

والثاني يصبّ في الجانب العمليّ، وهو قائم على توفير المعرفة بكيفيّة تحقيق الحياة الطيّبة، أو كيفيّة جعل الحياة طيّبة.

وتحقيق هذين الغرضين في البحث يتوقّف على بيان مقدّمةٍ ومسائل.

أمّا المقدّمة فتشتمل على أمور، الأوَّل عن تعيين موضوع البحث والمشتمل على مفهومين هما الحياة والطيّب، والثَّاني سيكون عن المبنى الفكريّ لطلب الإنسان للوصول إلى الحياة الطيّبة، والثَّالث سيكون عن الموارد التي تعرض فيها القرآن للحياة الطيّبة؛ لتكون مادّةً أوليّةً للبحث.

أمّا المسائل فستكون في تعيين عالم الحياة الطيّبة، وجهات الطيّب فيه، والقول المختار في هذا البحث.

والآن نشرع في بيان تفصيل البحث إنْ شاء الله تعالى.

تمهيد

إنَّ البحث عن الحياة الطيّبة التي ذكرها القرآن يتعلّق بجهتين:

الجهة الأولى: تعيين العالم الذي تتحقّق به الحياة الطيّبة للمؤمن، ومنه يُعلم هل أنَّ العالم الذي تتحقّق به الحياة الطيّبة للمؤمن الذي يعمل صالحًا هل هو عالم الآخرة فحسب، أمْ عالم الدنيا والآخرة.

الجهة الثَّانية: تعيين معالم الحياة الطيّبة أينما كان تحقّقها في أيِّ عالمٍ من العالَمَينِ الدنيا والآخرة.

والبحث عن هاتين الجهتين يشتمل على مقدّمةٍ ومسائل ثلاث.

المقدّمة

وهذه المقدّمة تشتمل على أمورٍ ثلاثة:

الأمر الأوَّل: موضوع البحث

إنَّ موضوع هذا البحث يتضمّن مفهومي: الحياة، والطيّب، وفيما يأتي بيانهما في المطلبين الآتيين:

المطلب الأوَّل: مفهوم الحياة

إنَّ شدة ارتباط بعض المفاهيم بالحياة اليوميّة للإنسان، وكثرة تداول الألفاظ الدالّة عليها، يجعل من الصعب وضع تعريفٍ فنّي لها؛ لصعوبة وضع صياغةٍ فنيّةٍ للمفاهيم الوجدانيّة التي يكون حضورها في الإنسان حضورًا قويًّا وفعّالًا، والأسلم - والحال كذلك - إحالة تعريف تلك المفاهيم إلى وجدان الإنسان وما يرتكز فيه، ومع ذلك لا مانع من السعي إلى وضع تعريفٍ يقرّب ذلك المعنى إلى الحضور الذهني والاستعمال اللفظي قدر الإمكان، وإنْ كنا نخمّن - في مثل هذه المجالات - عدم خلوّ هذه التعاريف عن الخلل والثغرات.

وهنا جانبٌ آخر كان له آثرٌ في التعاريف يرتبط بالثقافات البشريّة، فإنَّ الإنسان يضع الألفاظ عادةً لما يألفه من محيطه الاجتماعيّ من موجوداتٍ مادّيّةٍ وحسّيّة، ثُمَّ يتطوّر الاستعمال ليشمل الجوانب المعنويّة والاعتباريّة.

وأوَّل ما يصادف الإنسان من مصاديق الحياة هو ما يتعايش معه من موجودات تكون حيّةً ثُمَّ ما تلبث أنْ تفقد الحياة، وتصبح لديه مقارنةٌ بين هذين الحالين لذلك الموجود، فيستقي معنى الحياة إمّا ممّا يقابلها الذي هو الموت فيَعرف أحدهما بالآخر، وإمّا أنْ يأخذ بمظاهر الحياة المادّيّة الطبيعيّة، ومن هنا قيل إنَّ الكائن الحيّ هو الذي يشتمل على صفاتٍ أساسيّةٍ هي النمو، والتغذيّة، والتكاثر، وهذا القدر كافٍ في التعريف بالنسبة إلى المنظومات الفكريّة القائمة على محور الطبيعة والمادّة.

وأمّا المنظومات الدينيّة فلا يسعها أنْ تقف عند هذا الحدِّ من التعريف؛ إذْ تشتمل هذه المنظومة على الإقرار بموجودات غير مادّيّة، سواء كانت موجودات تقع ضمن دائرة المخلوقات، أم موجود

هو خالق تلك المخلوقات، وهذه الموجودات المجرّدة لا تنطبق عليها الخصائص الثلاث، أَيْ: النمو والتغذية والتكاثر، وإذا ما أمكن تأويل انطباق تلك الصفات على المخلوقات المجرّدة، فهي لا تصلح لتعريف صفة الحياة في الخالق قطعًا؛ ولذا تمَّ تعريف الحياة بالنسبة إلى الخالق باجتماع صفتين هما العلم والقدرة التي يساوق معناها في علم الكلام الاختيار.

ويمكن أنْ يُقال: إنَّ كنه الحياة مجهولٌ لا يمكن إدراكه، وكلَّ ما قيل في تعريفها فهو تعريفٌ بلوازمها، وإنَّ لوازم الحياة تختلف بحسب مراتب الحياة؛ ولذا اختلفت التعاريف لها، وعلى كلَّ حال فإنَّ حضور هذا المفهوم لدى عامّة الناس يُغنينا عن الدخول في تفاصيل بحثه، ونكتفي بما هو مركوز عنها.

نعم، يمكن أنْ يكون لمعنى الحياة جهةٌ أخرى تستعمل في البحث هي ظرف الحياة، أو مدّتها، لا الحياة نفسها، فيقال: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وبهذا يختلف شأن الطيّبات بالنسبة إلى الحياتين ولو من جهة من الجهات، فينبغي أنْ يكون كلامنا تارةً عن الحياة الدنيا، وأخرى عن الآخرة.

المطلب الثاني: مفهوم الطيّب

والكلام في هذا المطلب قريبٌ من الكلام في المطلب السابق؛ فإنَّ مفهوم الطيّب لا تحقّق له بذاته بالخارج، بلْ هو من المفاهيم الإضافيّة النفسيّة.

ويمكن تعريف الطيّب بأنّه ما يلائم النفس، ومنه يُعرف أنَّ ما يقابل الطيّب - وهو الخبيث - هو ما يتنافر مع النفس، والمقصود بالنفس هنا الطبائع والأمزجة والمشاعر الوجدانيّة، كما أنَّ المقصود منها الطبيعيّة منها، أَيْ: غير المريضة، وغير المنحرفة عن فطرتها الأولى، وتُعرف الفطرة الأولى بالسلوك الأوّلي للإنسان، الذي يصدر عنه بشكل عفويّ وطبيعيّ.

ولَمَّا كان التقابل بين الطيّب والخبيث هو تقابل الملكة والعدم، فإنَّ الموجودات بالنسبة إلى النفس البشريّة ثلاثة: طيّبة، وخبيثة، وموجودات لا طيّبة ولا خبيثة.

أمّا الموجودات الطيّبة فهي التي تتقبّلها النفس الطبيعيّة وتنشرح لها، والموجودات الخبيثة هي التي تنفر منها النفس الطبيعيّة، وتنزعج منها، وتنقبض عنها، أمّا الموجودات التي لا

تتوفّر فيها هذه الملكة ولا عدمها فهي التي لا تنشرح النفس لها ولا تنقبض عنها.

هذا هو خلاصة الكلام في بيان موضوع البحث.

الأمر الثّاني: التحليل الفكريّ لمنشأ الملائمة والنفور

تقدّم أنَّ مقياس الحكم على شيء بأنّه طيّبٌ أو خبيثٌ قائمٌ على الشعور النفسيّ تجاهه، وهذا يحتاج إلى تحليل يبيّن العلّة في اختلاف طبائع النفس بالنسبة إلى قبول الأشياء.

والبحث المألوف في مثل هذا المجال هو الخلاف في رجوع تلك العلّة إلى عوامل خارجيّة تخصّ التربيّة والتقاليد، أو عوامل نفسيّة كامنة في الجبلة الطبيعيّة للإنسان، ولكن حتّى على القول بأنّها ترجع إلى طبيعيّة الإنسان يبقى البحث عن منشأ تلك الطبيعة، والخلاف سيكون حينئذٍ بين المذاهب المادّيّة والمذاهب الدينيّة، ويبقى على الطرفين بيان الوجه في وجود تلك الطبيعة.

وقد يقال: إنّه بناءً على مبادئ المنظومة المادّيّة فإنَّ ما يكمن في النفس من طبائع منشأه يرتبط دائمًا بإدامة الحياة، والابتعاد عن المخاطر والمهالك، فإنَّ نفس الكائن الحيّ قد تدرّجتْ في قبول ما يديم حياتها، والنفور ممّا يؤدي بها إلى الهلاك.

وأمّا بناءً على مبادئ المنظومة الدينيّة فإنَّ الخالق قد أودع ذلك كلَّه في طبع الإنسان، من أجل أنْ يستجلبه إلى ما يكون صالحًا له، وينفرّه عمّا يكون ضارًّا له.

وعليه فإنَّ النظر في المنظومتين يمكن أنْ يكون متقاربًا من حيث إنَّ ما تقبله النفس يصبُّ في مصلحتها، وما تنفر منه النفس يكون فيه ضرر لها، وإنّما الخلاف بين المنظومتين سيكون حول تلك الطبيعة، وهل أنّها قد نشأتْ بشكل طبيعيّ متدرج في الكائن الحيّ، أمْ جُعلت فيه من قبل من خلقه وأوجده؟

ولكنَّ التأمّل الجيّد في هذا الجانب من الموضوع يقتضي أنْ يكون للبحث هنا خصوصيّة أكثر من الكلام المتقدّم، فإنَّ عنوان الطيّب والخبيث لا يقتصر على الجوانب التي ترتبط بدوام الحياة وتجنب الهلاك، بلْ إنَّ بعض الموارد لها تأثير واضح على القبول والنفور ولكنَّها لا ترتبط بالحياة، ويمكن التمثيل لذلك بالعطور الطيّبة والروائح الكريهة، فإنَّها بحدِّ ذاتها لا يكون لها شأنيّة مباشرة في داوم الحياة، ومع ذلك فإنَّ الإنسان الطبيعيّ يجد من نفسه انشراحًا عندما يشمّ

الروائح الطيّبة، ويجد العكس في خلاف ذلك، وهكذا في جملة من موارد الطيّبات والخبائث، مع أنَّ بعض ما تكون رائحة طيّبة قد يجلب الهلاك للإنسان، وبعض ما تكون رائحته كريهة قد يكون فيه نفع للإنسان.

والذي يمكننا أنْ نقترحه في المقام وبشكل أوّلي – وقد يحتاج إلى مزيدٍ من البحث ممّا لا يتوفر لدينا الوقت لبيانه الآن – هو أنَّ الطبيعة الفطريّة للإنسان قد جعلتْ لتوافق الحياة الحقيقيّة للإنسان وهي الحياة الأبديّة في الآخرة وطبيعتها، فجُعل فيها ما يلائمها في تلك الحياة؛ لوضع الداعي للتشوّق له، وما لا يلائمها للتنفّر منه.

ومن هنا جاء الترغيب بنعيم الحياة الآخرة بجملة من الأمور التي تتشوّق لها نفس الإنسان لأنّها تلائم طبعه، والتنفير من عذابها بجملة من الأمور التي تنفر النفس منها.

ويبقى للكلام مجالٌ واسع في هذا القضية، وهي لا تمثّل محورًا لبحثنا بعد التسالم الفطريّ والاجتماعي على أنَّ الإنسان يميل نفسيًا إلى بعض الأمور، وينفر عن غيرها.

وهنا جهة أخرى ينبغي توضيحها عن هذا الجانب من الموضوع، وهي أنَّ بناء البحث على المعطيات القرآنيّة يجعل نطاق البحث في المجال الدينيّ، ومن المسلّم في هذا المجال أنَّ الله تعالى قد فطر الإنسان على طبيعة معيّنة، وأنّه دعاه لِمَا يلائم تلك الفطرة، ونهاه عمّا يتنافر معها، فهذا من مبادئ البحث وليس من مسائله.

الأمر الثَّالث: المعطيات القرآنيّة

وردت مادّة (طيب) وما هو قريبٌ من معناها، ومادة (خبيث) وما هو قريب من معناها، كثيرًا في القرآن.

وممّا جاء وكان معناه قريبًا لمعنى الطيّب: الصالح، والحسن، والرغد، والزلال، والسائغ، والسلسبيل، والعذب، واللذة، والمريء، وغير ذلك.

وممّا جاء قريبًا من معنى الخبيث: الآسن، والأجاج، والرديء، والسيء، والفاسد، وغير ذلك.

أمّا ما تعلّقت به صفة الطيّب فهي الحياة الطيّبة في الآخرة في قوله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[1]، والأكل الطيّب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٢]، ووصفٌ للناس أو فعالهم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٣]، ووصفٌ للصعيد الذي يُتيمم منه، وللزرق، والغنيمة، والذريّة، والقول، والكلم، والمساكن، والنكاح أو النساء، ولرضا النفس، والريح التي تجري بها السفن، والتحيّة، والبلد، والبلدة، والشجرة.

وأمّا الخبيث فقد تعلّق بالنفقة، والنهي عن القصد إليها، وما حرم الله تعالى، والكلمة، والشجرة الخبيثة، والعمل الخبيث الذي كانت تعمله قرية لوط، وفيما عدا ذلك فقد جاء في مقام المقابلة بين الخبث والطيّب ممّا جاء في الشأن الطيّب.

ويظهر من ذلك أنَّ هذين الوصفين – أَيْ: الطيب والخبيث – قد يتعلّقان بأشياء تكون في الدنيا، وقد يتعلّقان بأشياء تكون في الآخرة.

هذه هي المقدمّة بأمورها الثلاثة، ونشرع الآن في بيان المسائل الثلاث الأولى.

المسألة الأوَّلى: تعيين العالم الذي تكون فيه الحياة طيّبة

لا خلاف في أنَّ الله تعالى سَيَمُنُّ على المؤمنين بحياةٍ طيّبةٍ في الآخرة، وهو ما جاء في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤].

وقد جرى البحث حول حياة المؤمنين في الدنيا هل يمكن أنْ تكون طيّبةً أيضًا، أمْ أنَّ حياتهم لا تطيب إلّا في جنّة الآخرة؟

وللجواب عن هذا السؤال نقول: من المعلوم المُسلَّم عند المسلمين أنَّ القرآن قد ذكر وعدًا لله تعالى في أنْ يحيي الإنسان حياةً طيّبةً فيما لو التزم بالدين، وأخذ بالشريعة وعمل بها، وجاء ذلك في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والذي يظهر من هذه الآية أنَّ الله تعالى قد وعد الناس جميعًا – أَيْ: من غير أنْ يكون ذلك خاصًّا بأمّة دون أمّة، أو بجنسٍ دون جنس – أنَّ من توفّر فيه شرطان هما العمل الصالح والإيمان فإنَّ الله تعالى سيحييه حياةً طيّبة، ويجزيه بأحسن ما كان يعمل، وقد جاء هذا الوعد مؤكّدًا باللام والنون.

والبحث التفسيري الخاصّ بهذه الآية يتعلّق بجهتين:

الأولى: تعيين الحياة التي وعد الله تعالى أنْ تكون طيّبةً في هذه الآية، هل هي الحياة الدنيا، أم الآخرة، أم كلاهما معًا، وهو البحث الخاصّ بهذه المسألة.

الجهة الثانية: تعيين ماهية الطيّب الذي وعده الله تعالى أنْ يكون لهذه الحياة، وهو البحث الخاصّ بالمسألة الثّانية.

وهنا ينغي أنْ نكرر التنبيه على أنَّ حياة المؤمن الطيّبة في الجنّة أمرٌ مسلّم لا مناقشة فيه، وإنَّما الكلام عن حياته في الدنيا، هل هناك وعدٌ في هذه الآية بأنْ تكون طيّبة أمْ لا؟

أمّا فيما يخصّ الجهة الأولى وهي الخاصّة بتعيين الحياة التي وعد الله المؤمنين أنْ تكون طيّبةً فيما لو عملوا صالحًا فقد اختلف المفسّرون في تعيينها على رأيين:

الرأي الأوَّل: أنَّ الله وعد المؤمنين بحياةٍ طيّبةٍ في الدنيا فضلاً عن الآخرة

وقد استند أصحاب هذا الرأي إلى ما يأتي:

الأوَّل: إنَّ هذا هو المتبادر من الآية، فإنَّ الآية قد جاءتْ في مقام الحثِّ على العمل الصالح المقترن بالإيمان، والمؤمن إنّما يترقب من الله تعالى أنْ يعجل له الجزاء في الدنيا، مع ضمان الجزاء الأوفر في الآخر.

الثَّاني: أنَّ هذا هو مفاد العطف بالفاء، فهو يقتضي الفورية، والفورية إنّما تتحقّق في الحياة الدنيا.

الثَّالث: أنَّ هذا هو المروي عن ابن عباس وغيره كما سيأتي نقل ذلك عند بيان وجوه الطيّب في الحياة الدنيا في المسألة الثَّانية إنْ شاء الله تعالى.

الرأي الثَّاني: أنَّ الله وعد المؤمنين بحياةٍ طيّبةٍ في الآخرة فحسب

اختار بعض المفسّرين أنَّ الوعد بالحياة الطيّبة إنّما المقصود به هو الحياة الآخرة فحسب، فإنَّ الحياة الدنيا مهما كان حالها طيّبًا فإنَّ ذلك الحال لا يدوم، وإنَّ طيبها مقرونًا بالمنغصات، وكيف تطيب حياة يعلم الإنسان أنَّ الموت نهايتها، وأنَّ الكدر رفيقها.

قال ابن جرير الطبريّ: وقال آخرون: بل معنى ذلك: الحياة في الجنَّة.

عن الحسن: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة﴾ قال: لا تطيب لأحد حياة دون الجنَّة.. ما تطيب الحياة لأحد إلّا في الجنَّة.. عن قتادة: فإنَّ الله لا يشاء عملًا إلا في إخلاص، ويوجب من عمل ذلك في إيمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة﴾ وهي الجنَّة.. عن مجاهد: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة﴾ قال: الآخرة يحييهم حياة طيّبة في الآخرة.

قال ابن زيد: الحياة الطيّبة في الآخرة: هي الجنَّة، تلك الحياة الطيّبة، قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال: ألّا تراه يقول: ﴿يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتي﴾ قال: هذه آخرته"[٥].

ويمكن أنْ يكون مستند أصحاب هذا الرأي ما يأتي:

الأوَّل: إنَّ عنوان الحياة لا يصدق بالنسبة للمؤمنين إلّا على حياة الآخرة، وهو مفاد قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٦]، وقوله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[٧].

وما دام عنوان الحياة لا تحقّق له فعلًا إلّا في الآخرة فلا تحقّق لعنوان الطيّب المتعلّق بها إلّا في الآخرة أيضاً، فإنَّ وجود الصفة يكون في ظرف وجود الموصوف بها.

فيكون مغزى هذه الآية هو عين ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنَّة وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٨].

الثَّاني: إنّ الحياة في الدنيا يشوبها الكدر والتنغيص فكيف يمكن وصفها بالطيّبة، ولا أقلَّ من تنغصّها بالموت المرتقب في كلِّ حين، بينما الحياة في الآخرة فمع زيادة وجود النعيم فيها فإنَّ دوامها والخلود فيها يرفع عنها تنغيص الانقطاع.

الثَّالث: إنَّ الحياة في الدنيا تقترن بالحساب، والحساب يوجب الحذر، والحذر يعكر صفوها، بينما الحياة في الآخرة تكون جزاءً، ونعيم الجزاء لا يتكدر بترقّب الحساب.

هذا ما كان من الرأيين في تعيين عالم الحياة الطيّبة هل هو عالم الدنيا والآخرة، أمْ عالم الآخرة فقط، وسيأتي بيان المختار منهما في مسألة قادمة إنْ شاء الله تعالى.

المسألة الثَّانية: تعيين جهة الطيّب في حياة المؤمن العامل

إذا كان يمكن أتصاف الحياة الدنيا بالطيب، فما هو جهة الطيّب الذي يمكن أنْ يكون فيها؟ للمفسّرين في ذلك رأيان:

الرأي الأوَّل: إنَّ صفة الطيّب تتعلّق بمعاش المؤمن.

وبناءً على هذا الرأي فإنَّ الناس بالنسبة إلى مسألة الإيمان بالله تعالى على قسمين، فمنهم من آمن بالله تعالى وعمل صالحًا، وهؤلاء يجعل الله تعالى معاشهم في الحياة الدنيا طيّبًا، ومنهم من يعرض عن ذكر الله تعالى والإيمان به، وهؤلاء يكون معاشهم ضنكًا، وقد جاء ذلك في قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٩].

ولأصحاب هذا الرأي في تعيين وجه كون المعاش طيّبًا أقوال:

القول الأوَّل: إنَّ جهة الطيب في الحياة الدنيا هي الرزق الحسن الذي يرزقه الله تعالى لعباده المؤمنين في الدنيا، وهذا هو المنسوب إلى ابن عباس فيما رواه ابن جرير الطبري عنه في موضع تفسير هذه الآية من تفسيره بأنَّ الحياة الطيّبة هي الرزق الحلال، أو الرزق الحسن في الدنيا.

قال ابن جرير في (جامع البيان): قال ابن جرير الطبريّ في تفسيره: "اختلف أهل التأويل في الذي عَنى الله بالحياة الطيّبة التي وعد هؤلاء القوم أن يُحْيِيَهموها، فقال بعضهم: عنى أنّه يحييهم في الدنيا ما عاشوا فيها بالرزق الحلال.

ذكر من قال ذلك:

حدثني أبو السائب، قال: ثنا أبو معاوية، عن إسماعيل بن سَمِيع عن أبي مالك وأبي الربيع، عن ابن عباس، بنحوه.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن إسماعيل بن سَمِيع، عن أبي الربيع، عن ابن عباس، في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، قال: الرزق الحسن في الدنيا.

حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي، عن سفيان، عن إسماعيل بن سَمِيع ، عن أبي الربيع، عن ابن عباس: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾، قال: الرزق الطيب في الدنيا.

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ يعني في الدنيا"[١٠].

وقد أُعترض على هذا القول بأنَّ واقع الحال بالنسبة للمؤمنين ليس كذلك، فحياتهم تشوبها جملةٌ من الصعوبات والمعوقات، ويغلب على حال المؤمنين في كلِّ زمان الفقر، والخوف، والمرض، وما شابه ذلك من أحوال؛ لذا فقد عدل بعض المفسّرين عن هذا القول إلى أحد الأقوال الآتية.

القول الثَّاني: إنَّ الحياة الطيّبة لا تتعلّق بكمّية الرزق أو جنسه فيها، وإنّما المقصود بذلك هو ما في الرزق من جانب الحليّة التي تورث البركة فيه، فإنَّ الله تعالى ليس مالكًا للرزق فحسب، بلْ هو ذو قدرة أنْ يبارك فيه، فلا يكون فيه ما ينغصه، أو يسلبه، أو يجعله يهدر في بلاء يسلطه على الإنسان فلا ينتفع به، وبخلاف ذلك فلا بركة في الرزق وإنْ كثر.

كما أنَّ الرزق إذا كان بتخويل من الله تعالى ورضا منه، وأخذ من مصادره الشرعيّة يكون موافقًا لفطرة الإنسان البدنيّة والنفسيّة، فلا يتأذى به، ويكون أكله هنيئًا مريئًا.

وقد نُسب مثل هذا القول إلى الضحّاك فيما رواه ابن جرير عنه، قال: "وعن الضحاك: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة﴾، قال: الرزق الطيب الحلال.. قال: يأكل حلالًا ويلبس حلالًا"[١١].

فالمقصود بالحياة الطيّبة هي الرزق الحلال، ذو الخير والبركة، مع غضّ النظر عن كميته وجنسه، وقد يكون هذا هو المقصود بالقول الأوّل أيضًا، فيكون هذا القول بيانًا للقول الأوّل وشرحًا له.

وقد يرد على هذا القول أنَّ الحياة الطيّبة قد لا تتوقف على الرزق الطيّب، أو الحلال، أو المبارك فيه فقط، بلْ إنَّ طيبها ينبغي أنْ يكون متحقّقًا في جوانبها الأخرى، كالصحّة، والأمان، والعزّة، وغير ذلك من جوانب الحياة الكريمة التي يطمح لها الإنسان، وتوفر الرزق الطيّب مع اعتلال البدن، أو تمكن الخوف من الإنسان، أو ما يعيشه الإنسان من إذلال قد ينغص طيّبات الحياة من الرزق، ولا تكون حياة الإنسان في جملتها طيّبة.

القول الثالث: إنَّ الحياة الطيّبة هي القناعة، وهذا هو القول المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، قال ابن جرير الطبري: "عن عليّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة﴾، قال: القنوع"[١٢].

وهو المروي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: "كفى بالقناعة مُلكًا، وبحسن الخلق نعيمًا، وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة﴾ فقال: هي القناعة"[١٣].

وهذا هو المذكور في التفسير المنسوب إلى القُمّيّ، قال: "القنوع بما رزقه الله"[١٤].

وهو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام، فقد روى الشيخ الطوسيّ في أماليه، قال: "أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى الفحام بسر من رأى، قال حدثني أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبيد الله بن المنصور، قال: حدثني الإمام علي بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن موسى، قال: حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام، قال: قال سيدنا الصادق عليه السلام في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة﴾ قال: القنوع"[١٥].

وهو مختار ابن جرير الطبريّ، قال: "وأَولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنحيينه حياة طيّبة بالقناعة وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه ولم يعظم فيها نَصَبه ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها. وإنّما قلت ذلك أَولى التأويلات في ذلك بالآية؛ لأنّ الله تعالى ذكره أوعد قومًا قبلها على معصيتهم إيّاه إنْ عصوه أذاقهم السوء في الدنيا والعذاب في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا أيمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[١٦] فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، فهذا لهم في الآخرة. ثم أتبع ذلك ما لِمَن أوفى بعهد الله وأطاعه فقال تعالى: ما عندكم في الدنيا ينفد، وما عند الله باق، فالذي هذه السيئة بحكمته أنْ يعقب ذلك الوعد لأهل طاعته بالإحسان في الدنيا، والغفران في الآخرة، وكذلك فَعَلَ تعالى ذكره"[١٧].

وقد حمل قول ابن عباس – أَيْ: القول الأوَّل – عليه، قال: "وأما القول الذي رُوِي عن ابن عباس أنه الرزق الحلال، فهو محتَمَل أن يكون معناه الذي قلنا في ذلك، من أنّه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلال وإنْ قلّ فلا تدعوه نفسه إلى الكثير منه من غير حله، لا أنّه

يرزقه الكثير من الحلال، وذلك أنّ أكثر العاملين لله تعالى بما يرضاه من الأعمال لم نرهم رُزِقوا الرزق الكثير من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضيق العيش عليهم أغلب من السعة"[١٨].

وهو مختار الزمخشريّ في (الكشاف) أيضًا، قال: "﴿حَيَوةً طيّبة﴾ يعني في الدنيا وهو الظاهر، لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿فَاتَهُمُ الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلأَخِرَةِ﴾[١٩] وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح موسّرا كان أو معسّرا يعيش عيشًا طيبًا إن كان موسرًا، فلا مقال فيه. وإنْ كان معسرًا، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله. وأمّا الفاجر فأمره على العكس إنْ كان معسرًا فلا إشكال في أمره، وإنْ كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه"[٢٠].

وهو مختار ابن عاشور أيضًا، قال في (التحرير والتنوير): "التحرير: وهذا وعد بخيرات الدنيَا. وأعظمها الرضى بما قسم لهم وحسن أملهم بالعاقبة والصحّة والعافية وعزّة الإسلام في نفوسهم. وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عبادهُ المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم. ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا. وقد عُقب بوعد جزاء الآخرة بقوله تعالى ﴿لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢١]، فاختص هذا بأجر الآخرة بالقرينة بخلاف نظيره المتقدّم آنفًا فإنه عامّ في الجَزاءين"[٢٢].

هذا ما كان من الأقوال التي رأت أنَّ الحياة المذكورة في الآية هي الحياة الدنيا، وأنَّ المؤمن يُعجل له الخير فيما إذا عمل عملًا صالحًا، إمّا بسعة المعاش، أو بالخير والبركة، أو بالقناعة.

الرأي الثَّاني: إنَّ صفة الطيّب تتعلّق بالجوانب النفسيّة للإنسان

رأى بعض المفسّرين أنَّ أثر الدين يظهر على الإنسان في الحياة الدنيا ليس في المعاش، فإنَّ المؤمن قد يُبتلى في معاشه، ويضيّق عليه، وإنّما أثره يتحقّق في الجوانب النفسيّة للإنسان، والتي تتمثل في شعوره بحالة من الاطمئنان والاستقرار، ويبعد عنه الخوف والحزن والقلق، وهذه الحال تكون عند المؤمن مهما كان حاله المعاشي ضعيفًا أو ميسورًا.

وقد بُني هذا الرأي على أنَّ أثر الدين على الإنسان يكون بأنْ يكتسب حياةً حقيقة، هي غير ما يعيش بها عامّة الناس، فالآية لا تقول إنّ أثر الدين هو أنَّ الله تعالى يجعل الحياة طيّبة،

أَيْ: يجعل حياته التي عنده طيّبة، بل يهبه حياةً أخرى تكون طيّبة، وهذه الحياة لا تتعارض مع حياته المعاشية ولا ينسلخ بها عنها، بل هي مرتبة من الحياة تكون أعمق من الحياة التي يعيشها عامّة الناس.

وهذا هو رأي السيد الطباطبائي (طاب ثراه)، قال في (الميزان) في موضع تفسير هذه الآية: "وقوله: ﴿فلنحيينه حياةً طيّبةً﴾ الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه فالجملة بلفظها دالة على أنّ الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحًا بحياةٍ جديدةٍ غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيّبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل فلنطيّبنّ حياته.

فالآية نظيرة قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٢٣]، وتفيد ما يفيده من تكوين حياةٍ ابتدائيةٍ جديدة. وليس من التسمية المجازية؛ لأنّ الآيات المتعرضة لهذا الشأن ترتب عليه آثار الحياة الحقيقية كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[٢٤]، وكقوله في آية الأنعام المنقولة آنفًا: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٢٥] فإن المراد بهذا النور العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحق في الاعتقاد والعمل قطعًا. وكما أنّ له من العلم والإدراك ما ليس لغيره كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحق وإماطة الباطل ما ليس لغيره، وقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢٧]. وهذا العلم والقدرة الحديثان يمهدان له أنْ يرى الأشياء على ما هي عليها فيقسمها قسمين: حقًّا باقيًا وباطلًا فانيًا، فيعرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدنيا بزخارفها الغارّة الفتّانة، ويعتزّ بعزة الله، فلا يستذله الشيطان بوساوسه، ولا النفس بأهوائها وهوساتها، ولا الدنيا بزهرتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها. ويتعلّق قلبه بربه الحق الذي هو يحق كلّ حقّ بكلماته فلا يريد إلّا وجهه، ولا يحب إلّا قربه، ولا يخاف إلّا سخطه وبعده، يرى لنفسه حياةً طاهرةً دائمةً مخلّدةً لا يدبر أمرها إلّا ربّه الغفور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها إلّا الحسن الجميل، فقد أحسن كل شيء خلقه، ولا قبيح

إلّا ما قبّحه الله من معصيته. فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدّر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرقٌ في حياةٍ دائمةٍ لا زوال لها، ونعمةٍ باقيةٍ لا نفاد لها، ولا ألم فيها، ولا كدورة تكدرها، وخير وسعادة لا شقاء معها، هذا ما يؤيده الاعتبار وتنطق به آيات كثيرة من القرآن لا حاجة إلى إيرادها على كثرتها. فهذه آثار حيوية لا تترتب إلّا على حياةٍ حقيقيةٍ غير مجازية، وقد رتّبها الله سبحانه على هذه الحياة التي يذكرها ويخصّها بالذين آمنوا وعملوا الصالحات فهي حياةٌ حقيقيةٌ جديدةٌ يفيضها الله سبحانه عليهم"[٢٨].

المسألة الثَّالثة: القول المختار

إنَّ الآراء والأقوال التي مرَّ ذكرها يمكن أنْ تكون جميعها صحيحةً ولا إشكال فيها، فالمختار في تفسير هذه الآية أنْ تكون الحياة الطيّبة التي وعدها الله تعالى للمؤمن هي عموم الحياة، وجهة الطيّب فيها هو عمود الجهات، فحياة المؤمن طيّبة في الدنيا والآخرة، وهي طيّبة في المعاش وفي الجوانب النفسيّة أيضًا.

نعم إنَّ في الآية قد ذكرتْ مقتضي للحياة الطيّبة، وهذا المقتضي لا يكون فاعلًا إلّا إذا توفر شرطه، وانتفت موانعه، ومن هنا يتبيّن أنَّ تحقّق الحياة الطيّبة للإنسان تقتضي مقدّمات ثلاث:

المقدّمة الأولى: هي المقتضي، وقد حددتْ الآية هذا المقتضي بالعمل الصالح، وتعيين العمل الصالح يُرجع فيه إلى الفقه، فهو مجاله.

المقدّمة الثَّانية: هي الشرط، وقد حددت الآية ذلك بأنَّه الإيمان، فعملٌ صالحٌ من غير إيمانٍ لا قيمة له ولا أثر، والمقصود بالإيمان هنا هو الإيمان الحقّ، وتعيينه يُرجع فيه إلى العلم الخاصّ بالعقيدة وأصول الدين.

المقدّمة الثَّالثة: وهي عدم المانع، والمانع إمّا أنْ يكون إلهيًا، وإمّا حياتيّاً، وإما بشريًا، وإمّا شخصيّاً، فهنا أربعة موانع:

المانع الأوَّل: المانع الإلهي، وهو يكون في حال الابتلاء والامتحان والاختبار، فقد يضيّق الله تعالى على بعض المؤمنين، أو يبتليهم بمحن يكون الغرض منها هو رفع الدرجات، وامتحان الصبر، وهو مفاد قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ

وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[٢٩].

ولهذا المانع خصائص، فإنَّ الله تعالى لا يمتحن عباده إلّا بما هم مستعدون له، كما أنَّ يتعلّق بالطيّبات المعاشيّة، وقد لا يؤثر ذلك في إيمان الإنسان واطمئنانه النفسيّ، وأخيرًا فإنَّ لهذه الابتلاءات زمن محدود ومجال مخصوص، فإنَّ الله تعالى رحيمٌ بالمؤمنين.

المانع الثَّاني: هو المانع الحياتيّ، فإنَّ الحياة الدنيا مداره المشقة والعناء، وموجبها أنْ يسعى الإنسان لتحصيل معاشه بجهد وكدّ، وقد يرافق ذلك منغصات ترجع إلى ضيق الحياة الدنيا عن تلبية رغبات الإنسان، وتزاحم الناس عليها وفيها.

وقد كان هذا معلومًا لبني آدم من أوَّل الخليقة، فبعد أنْ قال الله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[٣٠]، تخلى الإنسان عن هذا النعيم، ونزل إلى أرض الشقاء والكدّ.

المانع الثالث: وهو المانع البشريّ، وهو ما يقع من ظلم الناس بعضهم بعضًا، فإنَّ المؤمن قد يمنُّ الله عليه بأفضالٍ ونعمٍ طيّبة، لكنّه يقع تحت طائلة الظلم والجور من الآخرين، وقد وعد الله تعالى أنْ ينتصر للمؤمنين وينتقم لهم في الدنيا والآخرة، وأمّا ما يقع بين المؤمنين بعضهم مع بعض فقد نهى الله تعالى عن الظلم والعدوان، وتوّعد المعتدي بالخذلان والعقاب ما لم يتبّ ويتراجع عن غيّه.

المانع الرابع: وهو مانع شخصّي، يكون من اختيار العبد المؤمن ويقع تحت إرادته، وهو على صور:

الصورة الأولى: هي الزهد في بعض نعم الله تعالى المادّيّة، وهو اختيار شخصّي يختاره بعض عباد الله تعالى ترجيحًا لنعيم النفس والروح على نعيم الجسد، فهو تخلّي عن طيّباتٍ لأمر يكون أطيّب منها، فما يلاحظ من حال بعض أولياء الله تعالى والصالحين من ضعف الحال وعسره وضيقه إنّما هو من هذا الباب.

الصورة الثَّانية: العقوبات على الذنوب والمعاصي، فإنَّ الله تعالى قد يرحم بعض المؤمنين

فيعجل لهم العقوبات في الدنيا، من خلال بلاء الفقر، أو المرض، أو الخوف، من أجل تزكيتهم وتنقيّتهم عن الذنوب التي ترتكب، فإنَّ بعض المؤمنين يصدق عليه قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣١).

الصورة الثَّالثة: هي سوء التدبير والتقدير الذي يقع فيه بعض المؤمنين، ومن ذلك اتخاذ القرارات الحياتية من غير تدبر أو تروٍّ أو دراسة، أو اتخاذ المواقف العاطفية التي تكون بعيدة عن حكمة التعقّل، أو استعجال النتائج والثمرات، أو غير ذلك من موارد ومصاديق.

وقد يكون هناك جانبٌ آخر لهذ الصورة، وهو ضعف الهمة والكسل والتواني عن إنجاز تكاليف الحياة، فهذه الأمور قد توقع الإنسان في حالةٍ من الضيق والتوّرط والصعوبات.

وقد أشار قوله تعالى إلى جميع ذلك بالتعبير: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣٢).

ختام البحث

لقد كرَّم الله تعالى بني آدم وسخّر لهم ما في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٣٣).

وكان مقتضى ذلك أنْ يقابلوه بالشكر والامتنان، لكنَّ منهم من شكر، ومنهم من كفر، فوعد الله الذين شكروا وآمنوا بالله وعبدوه بالرحمة والفضل والخير، وتوّعد الذين جحدوا وكفروا وعصوه بالعذاب والضيق والسوء.

وحياة المؤمن طيّبةٌ في رحمة الله ورضوانه، وإنْ أصابها بعض الكدر في الدنيا فهو من آثار الظلم، أو المعاصي، أو للامتحان، والمؤمن على كلِّ حال يرجو رحمة ربّه في الدنيا، وينتظر ثوابه في الآخرة، فيكون الأمر عليه هينًا، وعليه أنْ يسعى لرفع أسباب الضيق إنْ كانتْ أسبابها بيده.

أمّا الكافر فهو لا يرجو رحمة من الله ولا رضوانًا، فهو وإنْ كان في نعيمٍ ظاهرٍ إلّا أنَّ هذا النعيم منغّص بضيق النفس وكدروتها وتوقع زوال النعيم، وتيّقن أو احتمال حلول العذاب الأليم.

الهوامش

١- الرعد/ ٢٩.
٢- البقرة/ ١٦٨.
٣- آل عمران/ ١٧٩.
٤- التوبة/ ٧٢.
٥- الطبري، تفسير جامع البيان، الجزء ١٤، ص ١١٧.
٦- العنكبوت/ ٦٤.
٧- الفجر/ ٢٤.
٨- النساء/ ١٢٤.
٩- طه/ ١٢٤.
١٠- الطبري، تفسير جامع البيان، الجزء ١٤، ص ١١٦.
١١- م.ن، ص ١١٦.
١٢- م.ن، ص ١١٧.
١٣- نهج البلاغة، الجزء الرابع، ص ٥١.
١٤- القمّي، تفسير القمّي، الجزء الأوَّل، ص ٤١٦.
١٥- الطوسّي، الأمالي، ص ٤٦٠.
١٦- النحل/ ٩٢.
١٧- الطبري، تفسير جامع البيان، الجزء ١٤، ص ١١٧.
١٨- م.ن.
١٩- آل عمران/ ١٤٨.
٢٠- الزمخشريّ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الجزء الثَاني، ص ٤٢٧
٢١- النحل/ ٩٧.
٢٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء ١٣، ص ٢٢٠.
٢٣- الأنعام/ ١٢٢.
٢٤- المجادلة/ ٢٢.
٢٥- الأنعام/ ١٢٢.
٢٦- الروم/ ٤٧.
٢٧- المائدة/ ٦٩.
٢٨- الطباطبائيّ، تفسير الميزان، الجزء ١٢، ص ٣٤١.
٢٩- البقرة/ ١٥٥.
٣٠- طه/ ١١٧-١١٩.
٣١- التوبة/ ١٠٢.
٣٢- الكهف/ ٢٨.
٣٣- الإسراء/ ٧٠.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.
* ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الجزء ١٣، بيروت، الناشر: مؤسسة التاريخ العربيّ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
* الزمخشريّ، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الجزء الثَاني، مصر، دار النشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٢ هـ.
* الطباطبائيّ، السيد محمّد حسين، تفسير الميزان، الجزء ١٢، الناشر: شركة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٢ م.
* الطبريّ، محمد بن جرير، تفسير جامع البيان، الجزء ١٤، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٢ هـ.
* الطوسيّ، محمد بن الحسن، الأمالي، الناشر: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.
* القمّي، أبي الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، المصحح : السيد طيب الجزائري، الجزء الأوَّل، قمّ، الناشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الثَّالثة، ١٤٠٤هـ.
* نهج البلاغة، تحقيق الشيخ محمد عبده،، الجزء الرابع، قمّ – ايران، الناشر: دار الذخائر، الطبعة الأولى، ١٣٧٠ هـ.ش.

مفهوم الحياة الطيّبة ومعالمها

في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام

الشيخ أحمد قبلان

باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / المفتي الجعفري الممتاز في لبنان

ملخص البحث

بخلاصة الفهم والفكر وطبيعة استحضار الذات الثقافية وقدرة الانتماء وتطبيقات العقل الوجودي وأنماطه يمكن الحديث عن الحياة الطيّبة ومعنى الانتماء لها، وهو ما نطلق عليه اسم (**الحياة الطيّبة**) بسياق الخلاصات الوجودية ومنطق الانتماء كتجربة وواقع حياة (تجسيد القيم)، وهو مقصود ما ورد بباب دعاء عرفة من قوله عليه السلام: "**أسألك أنْ تصلّي على محمّدٍ وال محمد، وأنْ تقلبني فيه مفلحًا منجحًا بأفضل ما انقلب به من رضيت عنه، واستجبت دعاءه، وقبلته، وأجزلت حباءه، وغفرت ذنوبه، وأكرمته، ولم تستبدل به سواه، وشرفت مقامه، وباهيت به من هو خير منه، وقلبته بكلّ حوائجه، وأحييته بعد الممات حياة طيّبة، وختمت له بالمغفرة، وألحقته بمن تولاه**" [1]، يريد عليه السلام أنّ أعظم ما نريده بهذه الدنيا إدراك حقيقة الذات المخلوقة بداعي صلتها بالذات الغنية (خالق ومخلوق)؛ للقيام بالدور الوظيفي الذي يليق بالحياة الطيّبة ضبطًا على محلّ فعلنا من دنيانا (معرفة، قيم، فعل، نمط فردي وجماعي واجتماعي عام) بسعة محلّه من كفة جزائنا، وهذه لها علاقة بسعة الدنيا وواقعها وخياراتها والدور والوظيفة والإمكانات التي تتطلّبها حالاتنا الفردية والعامة ومقولة: ﴿**إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾، بما في ذلك كلّ ما له دخلٌ لعمارة الأرض وإحقاق الحقّ وإبطال الباطل وتأمين الشروط المجتمعية للكمال المقصود من الدور والوظيفة المجتمعية بسياق فلسفة الوجود، وهو عين مقصود الله تعالى من قوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[2]، واللسان هنا له محله من مقولة الشاغل للذمة والمطلوب على الوجود بسعة حيثية (الوجودي الغائي)، وفيه قال الامام علي عليه السلام: "**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمًى، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ، ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيءٍ﴾، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ ـ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ ـ عَلَى لِسَانِهِ ـ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، فَأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمِعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ**"[3]. ذلك كلّه نزولاً منه على المخلوقية وما يلزم عليها بطرق

مسارها من علام آخرتها وميزان أبديتها وبسعة الخبر النبوي العلوي: "**رحم الله امرأً عرف من أين وفي اين والى أين**"[٤]، كحيثيةٍ معرفية "للقبل" كعنوانٍ حاسمٍ لضبط "البعد"، بسعة البعدية من عالم القيامة على محلها من مطالب الوجود والعهود المأخوذ فيها (توفية النفس الفردية والجماعية) محلها من الحياة الطيّبة كأساسٍ دنيويّ للجزاء الأخروي وفق مقام (ما يجب باللطف) على الخالق العظيم.

والحمد لله ربّ العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمّدٍ وعلى آلهِ الطيبين الطاهرين.

تمهيد بنيوي لأولويات الحياة الطيّبة وطبيعة التأسيس لها في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام.

أولًا: فلسفة الوجود:

الروابط الوجودية: أعني بذلك فلسفة الوجود بما يلزم عليها من خلاصاتٍ تتعلق بطبيعة الحياة الطيّبة التي تمنع (مطلق الحياة)، بل مخصوصها وفقًا للوصف الانتزاعي للغة الخلق والتكوين والإيجاد، أعني عقلنة الوجود وضبط البراهين الضامنة لمفهوم الخلق والحياة، ويلزم عليه كدرجة ثانية عدم إمكانية الحديث عن الحياة الطيّبة بعيدًا عما نطلق عليه (محورية الذات)، بسبب الخصومة الفكرية بنفس الذات.

وهنا تتعارض المدارس القديمة، والحديثة حول تعريف الذات بين مادية وروحية ومنقطعة وإحاطية، ثم ما يلزم للربط بين العلة الذاتية والعلة المفتِقرة بخلفية الحديث عن مصدر الوجود وفق نموذج "الغنيّ بنفسه" (الإحاطة الكلية كمصدر نهائي)، والغني بغيره.

وهذا محور له علاقة بالشقّ الفلسفي حين يتعلق بسلسلة العلل، وهو ما نطلق عليه إسم (نهائية التفسير)؛ لأنّ الأشياء بين عدم مطلق (يعني صفر مطلق) وليس على طريقة فيزياء الكمّ ووجود مطلق؛ لذلك النقاش هنا ليس مخصوصًا بالوجود بما هو هو، بل بالوجود كمعلولٍ لعلّةٍ تُعيد ربطه بهويته وطبيعة نشأته وما يلزم على هذه النشأة بالشقّ المفاهيمي وقواعد السلوك وغايات الخلق على طريقة: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا**﴾[٥].

والمعركة تبدأ هنا، وهي ذات محاور بخلفية هرمية الخلق ومنطق فعلها وما يلزم على قلم الخالقية ولسان الوجودية (الأعمّ من صفة الذات وصفة الفعل)، وفق حيثية ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾[٦]، إقرارًا من إبليس بالمخلوقية قبالة الخالقية.

والموطن هنا موطنٌ إذعانيّ للعلة المصدرية من جهة خالقيتها، لا من جهة حكمتها، وهذه ورطة إبليس؛ لأنّه وقع بما نسمّيه (التماثل)، أي طابق بين علم الله وعلمه، ليخلص لعناصر التكوين: نار وطين، ثمّ يعيد تقسيم الفضيلة وفقًا لنزعة القوة كما يراها، وهنا تجلّت

مقولة (أناه المخلوقة)، والحوّاطة بمقدار رتبة المخلوقية قبالة الأنا المطلقة، أو الخالقة، أو الأنا اللامحدودة، والحواطة بسعة غناها اللامحدود.

وعليه، الحديث عن (الحياة الطيّبة) كأساسٍ دنيوي للجواب عن حقيقة (على ماذا أموت؟)، يبدأ من حقيقة (لمن أنا؟)، و (لماذا أنا؟)، وفقًا لقوله صلى الله عليه وآله: "**رحم الله أمرأً عرف من أين، وفي أين، وإلى أين**"[٧]، وبجذريته كقيمةٍ ثابتةٍ ومصدرٍ مفاهيميّ طبّقه أهل المعرفة بسعة الاصطفاء، ونزولًا الأمثل فالأمثل، فمنهم (حجر بن عدي الكندي) من قصته الشهيرة حين خيّره معاوية بين القتل أو البراءة من الإمام علي عليه السلام، فاندفع وأصحابه إلى القتل في سبيل تأكيد ولاية الإمام علي عليه السلام، بنحوٍ أدهش زبانية معاوية الذين سألوهم عن ذلك، فقالوا: "**من أيقن بالخلق جاد بالعطيّة**"[٨] وهو قول شهير للإمام علي عليه السلام ردّده حجر وأصحابه يوم مرج عذراء، والجواب هنا من مقولة فلسفة الوجود وما يلزم عليها، وما يقوم عليه الحقّ فعلًا وأثرًا من غير فصل عن ثواب الأبدية.

ومعه يصبح النقاش حول (كيف أعيش؟) موقوفًا على (لماذا أنا هنا؟)، كقيمةٍ وجوديةٍ لها ارتباطٌ وثيقٌ بمصدر الوجود، فإذا تمّ الجواب كما قرّرناه أعلاه يصبح الجواب عن (كيف أموت؟): كيف أعيش كعلة لتأبيد الذات، ومعه يتبيّن لك أنّ مقولة (كيف أعيش؟) ترتبط أشدّ ارتباطٍ بمقولة (من أين؟)، ومعه تتجذّر مقولة الإمام علي عليه السلام: "**لا تصلح دنياك بمحق دينك**"[٩].

الوجود الهرمي وهوية الذات:

لا شكّ في أنّ النقاش هنا هرمي، أي يدور مدار هوية الذات، فإذا تمّت حقيقتها لزمت قواعد فعلها، وهو ما نحتاجه للجواب عن الحياة الطيّبة (معارف وسلوك)، من هنا قلنا بأنّ قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[١٠] متأخر عن مقولة الجعل ومقولة الخلق، والجعل متأخّرٌ عن مقولة الخلق وهو قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[١١]، ولا جعل دون خلق، ولا سلوك دون وجود، ولا قسمة للحياة دون وجود المتباينين، أعني بذلك الفعل وهوية السلوك لا التكوين والإيجاد، وهو ما لحظه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[١٢] كنتيجة لمقولة: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ**

مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١٣]، وهي فرع المجاهدة والمجالدة، وكلتاهما دليل التباين بين (من زكاها) (ومن دسّاها)، وهو علة لمادة التشريع، أعني أنّ تباين قابليات النفس علّةٌ لوجوب بيان الشارع لما يزكّيها (من باب واجب اللطف على الله سبحانه وتعالى).

النشأة الموصوفة والقول فيها (الإنسان دور ونمط وغايات):

والنقاش هنا يصبح بالنشأة لا بما هي نشأة، بل بالنشأة الموصوفة، وفي ذلك مدرستان:

مدرسة تردّ النشأة للذكاء الذاتي، ثم تختلف بتفسير جوهر الذكاء الذاتي وطبيعته وقوامه (وغالبًا الهرميّة هنا ماديّة).

ومدرسة ثانية تردّه للذات الغنية عقلًا وقدرةً وحكمةً، بنحو لا يمكن أنْ يصدر عنها عبثٌ ولسانها لسان: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[١٤].

وبالمراجعة السردية نجد أنّ المدرسة الأولى تخبّطت بسبب غلق أبواب الإجابة؛ لأنّ لغة الفعل فرع لغة القدرة، وعبقرية الشيء دليل عبقرية مصدره، وذاتية الشيء دليل سبق الوجود على العدم والشيء على اللاشيء، فيلزم منه شيئية الغني بذاته والقادر بذاته الذي لا يصدر عنه عبثٌ مطلقًا، ويلزم عليه أنّ ما ينتج عنه حقّانيّ بعلّة وجوده وعلّة أهدافه، وهنا تأتي مقولة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[١٥].

الحقّ ومقادير الوجود وشروط الكمال الوجودي:

الأكيد أنّ الحقّ بمختلف نماذجه (سواء كان بمقولة التكوين أم الميزان أم مادة التشريع) صدّره الله تعالى كأساسٍ لإرادة الإطار والمضمون؛ لذا في جواب الله عن بعثة أنبيائه قال: ﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ﴾[١٦] وهو إطار حلّ الخصومة نفسه بلسان: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾[١٧]، وهو بنية ميزان الأنبياء بقول الله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[١٨]، وكذا هرمية قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[١٩]، ومثله مصدر المشيئة والإرادة بحيثية وصف الفاعل وفق قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[٢٠]، ومثله الابرام الأبدي يوم القيامة بين الخلائق وهو قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾[٢١]، ومثله القضاء الأبدي من قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢٢]، على أنّه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾[٢٣]

أعمّ من القضاء التشريعي بخلفية مفهوم الإبرام وقضاياه، ومفاده أصل الصدور الأعم من التكوين والتشريع.

ومن باب بيان إطار ما يؤول له كقيمةٍ حاكمةٍ في عالم نزاع البشر ورد قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا**﴾[٢٤]، ليحسم قضية الحق كإطار ابتدائي وجزائي في عالم الخلق والتكوين والخصومة، وما يلزم من أثر أعم من الاثنين معًا.

الحقّ بمعناه الوجودي والمعرفي كأساس للحياة الطيّبة:

بالضرورة اللازمة أنّ التأسيس للحياة الطيّبة لا بدّ أنْ يعتمد المعرفة؛ لأنّ الحقّ فرعها، وهذا يفترض تأسيس الذات والأسرة وتوليف حقيقة الانتماء بخلفية الخلاصة المعرفية للذات والأسرة، وبخلفية حسم هوية "**من أين؟ وإلى أين؟**"[٢٥]، وهذا ما أجبنا عنه أعلاه.

المعرفة والحقّ وأرضية الذات والأسرة للحياة الطيّبة:

التركيز على الأسرة هنا محلّه تحصيل هوية الذات، والاستثمار بالكثرة البشرية وفق صيغة الاجتماع المدني؛ لأنّ الأسرة تشكّل النواة الرئيسة في عالم الجماعة والاجتماع، وكلما صلحت الأسرة صلح المجتمع (لا على نحو الاستقلال، بل على نحو الغلبة).

وكمبدأ أول بالحياة الطيّبة يصبح اختيار (الزوج والزوجة) ضرورةً أوليةً في عالم التربية والتأسيس للحياة المقصودة، وأي خطأ في هذا المجال يعني فشلًا يساويه في مشروع الحياة الطيّبة.

ولأنّ هذا النحو ضروريٌ في التأسيس للهدف التكاملي؛ فقد تصدّى له النبي صلى الله عليه وآله وخصّه بطائفةٍ تُعدّ من الركنيات، فمنه قوله صلى الله عليه وآله: "**تزوّجوا في الحِجْز الصالح؛ فإنّ العِرقَ دَسّاس**"[٢٦]، وهو يريد هنا الجين الثقافي أكثر من مقصوده بالجين الكيميائي، ومثله قوله صلى الله عليه وآله: "**تخيَّرُوا لنُطَفِكُم فَانْكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وأَنْكِحُوا إِلَيهِم**"[٢٧].

وهنا اللسان لسان الولادة الثقافية ونمط الحياة وتلاقح العقل والفكر وليس أشباه إخوانهنّ وأخواتهنّ، وعليه قوله صلى الله عليه وآله: "**تخيَّرُوا لنُطَفِكُم، وانتخِبوا المناكحَ**"[٢٨]، يريد تعيّنوها على محلها من التربية الصالحة والبيوت التي تليق بمشروع الحياة الطيّبة (ثقافة، وجود، وغايات وجود)، ويطابقه ما قاله الإمام الصادق عليه السلام: "**إنّما المرأة قلادة؛ فانظر ما تتقلد، وأمّا صالحتهن فليس**

خطرها الذهب والفضة هي خير من الذهب والفضة، وأمّا طالحتهن فليس خطرها التراب، التراب خير منها"، وهنا أقول ليس المقصود أنّ الخيرة للرجل قبالة المرأة، بل الاثنين معًا؛ لأنّ المرأة مطالبةٌ بتخيّر شريكها ضبطًا على المفهوم الوجودي للحياة الطيّبة التي تعيد بنتيجة الأعمال حسم وجود الإنسان الأبدي بين جنّة ونار، وكذا الرجل، سوى أن لسان الأخبار ورد مورد غلبة البيئة آنذاك.

الحياة الطيّبة، رؤية وإمكانات: الأسرة كبيئة لبناء الأجيال مثالًا:

لأنّ التربية ثقافةٌ ومفاهيم وإمكانات، فإنّ الفصل بين هذه وتلك ينعكس فشلًا في الهدف المقصود، وهو الحياة الطيّبة، وهو فعليتيها وجدواها وطبيعة أثرها، من هنا قلنا بأنّ بناء الحياة الطيّبة ليس مجرد شراكةٍ بين زوجين صالحين، بل قدرات وإمكانات ونمط حياة أسرية ومجتمعية تراعي مراحل إعداد الأجيال، ومنها البرامج الأهلية، والحكومية، والسياسات ذات الصلة بالتنمية الأخلاقية والمجتمعية.

ومعها تصبح المدرسة والحيّ وأماكن الترفيه والوسائط الاجتماعية الإلكترونية والتلفزيون والساتلايت والانترنت وغيرها جزءًا من بناء عقل ومشاعر وهوية الطفل والأجيال بمختلف مراحل العمر؛ ولأنّ البيئة عنصرٌ مؤثّرٌ بطبع وهوية الأطفال والأجيال يلزم التركيز على نوعية السلطة ووظيفتها لأنّ فساد السلطة يتمدد إلى كلّ شيء، ويؤثّر بعمق في هيكل القطاعات التي يتأسّس عليها واقع المجتمع وعقله الجماعي وعاداته المختلفة، من هنا فإنّ السلطة ركنٌ يتصدر الأولوية ويتقدّم على غيره، وبهذا المعنى نفهم الأخبار التي ضبطت مصالح الفرد على مصالح الجماعة، وصدّرت القيم والمفاهيم والأعراف كمصالح عليا، وهي عين مقصود الله سبحانه وتعالى من قوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾[٢٩]، وعليها كلّ ما ورد في أخبار أهل البيت عليهم السلام حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيم الجماعية، وقد جمعها الشيخ الحرّ العاملي في باب كامل في كتابه (وسائل الشيعة).

الحياة الطيّبة والمصالح العليا للجماعة المؤمنة:

حين نناقش المصالح العليا التي يتكوّن منها النظام العام للجماعة نعني بذلك كل الحاجات الرئيسة التي لا تستقيم الحياة من دونها ماديًا ومعنويًا، ضبطًا على مراد مجتمع ما من الفلسفة الاجتماعية، ومنها (فلسفة الوجود)، وبمنطق الفلسفة الإلهية التي تضع الإنسان على سكة ملاقاة الله وتقدّم الدنيا كساحة اختبار، وتربط نتيجة ميزان الأبدية بالعمل الدنيوي، يجب أنْ نلتفت إلى الأمور التالية:

أولًا: الحياة الطيّبة ضرورةٌ دينيةٌ وفريضةٌ إلهيةٌ واجبة الالتزام (مقولة المعرفة ومقولة العمل).

ثانيًا: أكّد الله تعالى المسؤولية الفردية بالشراكة (المتفاوتة) مع المسؤولية الأسرية والمهنية والمجتمعية والحكومية وغيرها، وهنا تتعدد المسؤوليات وتتداخل.

ثالثًا: قدّم الله التربية ببيئتها، كما قدّم المؤمن بهيئته وقدراته الفاعلة، وبمنطق أن المؤمن لا يُسلّم للباطل، ولا يرضى أن يكون ضحية من ضحاياه، لذلك حين تتحوّل البيئة وحشًا يبتلع التديّن وفعالية الانتماء اليه فرض الله على من يقع ضحية الباطل أو الفساد (دون قدرة على المقاومة) تركَ تلك الناحية، وفيه قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾[٣٠]، قال ذلك بخلفية أنّ الخلاص من بيئةٍ ما قد يتوقّف على الخلاص من تلك المنطقة (حماية القيم بمقولة العمل).

رابعًا: قدّم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصيغة (أكبر الواجبات)، لأنّ تلك الفريضة تشكّل درع البيئة الاجتماعية وأداة الحياة العامة والأساس الرئيس للعقل العام.

وهنا أقول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ تحتاج إلى كتلة وبرامج وتنظيم سياسات وأدوات تتفق مع الأنماط القادرة على استيعاب الأجيال وبناء العقل العام وأعرافه، وقطعًا هي ليست فريضةً عشوائيةً أو مسؤوليةً فرديةً اعتباطية؛ لذلك قدّمها الله بلسان: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣١]، والمنيّة (منكم) هنا للتبعيض، أي يريد تأمين جهازٍ بشريّ مع كامل أدواته بسعة ما يتفق مع ظروف المجتمع والعالم، لتأسيس هوية الجماعة والاجتماع، وحماية الأجيال من بالوعة العالم الفاسدة.

الحياة الطيّبة بمنظار الفرد والجماعة والاجتماع العام (التنافسية العامة):

هنا يجب أنْ نلتفت إلى الأمور التالية:

أولًا: **الحياة الطيّبة** في الفلسفة القرآنية النبوية ضرورةٌ بنائيةٌ للفرد والجماعة والاجتماع.

ثانيًا: كما أنّ العقل الأُسري ضرورةٌ بنائيةٌ كذلك عقل الدولة والعقل الاجتماعي، ومعه يتضح أنّ الضرورة الفردية شديدة الصلة بعقل الدولة والقطاعات التربوية والمهنية والاجتماعية والسياسية، بما فيها الأسواق ومفاهيم إدارة الموارد والطاقات وتنمية الانسان نفسه.

وعليه، فأيّ خللٍ يصيب قطاعًا ما سينعكس على هوية وعقل وهيئة الجماعة والاجتماع العام لجهة تأثيره بأرضية إنتاجية الفرد والجماعة بسياق التكامل المقصود من الحياة (**الحياة الطيّبة**).

من هنا فإنّ الأقوى بفرض إمكاناته سيعيد ترتيب هوية الاجتماع العام، وسيؤثّر بطبيعة ونمط البناءات الفردية لعقل الأجيال الناشئة ومشاعرهم ومفاهيمهم أيضًا.

ثالثًا: لا يمكن ترك البيئة الاجتماعية للمطلق؛ لأنّها مفهوم ودور ووظيفة لها ارتباطٌ بالضرورة اللازمة لعقل الجماعة والاجتماع وعقل الأجيال بخاصيّة مفهوم محدد عن الوجود ومصدره، وهذا يعني أنّ بناء العقول الفردية ضرورةٌ وظيفية، وهو ما تقوم عليه مشاريع الأمم والدول وفقًا لما تؤمن به كهوية للدولة، ومفهوم للسلطة، والصيغة الاجتماعية العامة.

رابعًا: هذه كلّها لا تكفي دون سياسات دعم اجتماعية ورعائية، وهنا قول الإمام علي عليه السلام: "**من العصمة تعّذر المعاصي**"[٣٢]، يعني بناء قوّةٍ هيكليةٍ لنظام اجتماعيّ وسياساتٍ مضادّة للمعاصي والآثام (وفقًا لفلسفة الإثم ولائحة الحرام)، وبمقدار ما تتم الشراكة بين هذه المركّبات تبدو النتيجة ظاهرةً للحياة الطيّبة.

الحياة الطيّبة فردية وعامة ووجودية:

فلسفة الطريقة: المحسوم أنّ الحياة الطيّبة ليست فردية فقط، بل جماعية اجتماعية، وتمركزها الرئيس يكمن بالسلطة، وأيّ خسارة لنموذج السلطة ضبطًا على مرادنا من الحياة الطيّبة سينعكس بمقداره سلبًا على حياة الأفراد والجماعة.

كما لا يمكن فصل الحياة الطيّبة عن حقيقة الوجود وصلة الموجود بأصله، ومفهوم الوجود كوظيفةٍ دنيويةٍ ضبطًا على حكمة الربّ والسعة الوجودية المقدّرة بحكمة الله تعالى بعالم (ما قبل الدنيا وعالم ما بعد الموت)، وهذا وكلّه لا ينفصل عن الحاجات الوجودية وإلحاحاتها الفعلية.

وكما أنّ الإنسان في أصل وجوده بحاجةٍ للأكل والشرب، كذلك بحاجة للطريقة التي يعيش فيها كأساسٍ ضروريّ لميزان العالم الذي ربطه الله بدنياه وهو عالم الآخرة وحقيقة ميزانها الأبدي فلسفة (**من أين وفي أين وإلى أين**)[٣٣]، وهو ما نعبّر عنه بفلسفة الطريقة ضبطًا على حيثية عقل العلّة السببي وعقل الغاية الوظيفي كلازمٍ وجوديّ لميزان الخلق والتكوين، وهو ما اختصره النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: "**رحم امرأً عرف من أين وفي أين والى أين**"[٣٤].

ومعه فإنّ الحياة الطيّبة تترابط ترابطًا جذريًا بمقولة الوجود، والمادة التشريعية اللصيقة بمقولة الأنا الوجودية، والارتكاز التربوي والديني والإنساني، والإطار الثقافي للقيم الأخلاقية بسعة مفهوم الحياة الطيّبة وسياقات البناء الفردي والأسري والهيكل الاجتماعي وصيغة النظام السياسي (مفهوم النظام السياسي وعقل السلطة)، بما يتفق مع الضمانة العضوية أو المادية (السياسات والبرامج)، والبعد المعنوي للفرد والجماعة، والصيغ الجماعية بعالم الدولة والدول والعولمة كنتاج لمفهوم الحياة الطيّبة زمن القرية الكونية وقدرة النموذج الوجودي بصيغة فلسفة الثقلين على تكريس نفسه كمركزٍ قطبيّ بعالم المرجعيات الإنسانية والحضارية، وهذا يفترض تكريس المادة التشريعية التي تعكس فهم الوجود وفلسفة الخلق وعالم الإيجاد وغاياته.

المادة التشريعية (في عالم التنوع وتعدديّة الأمم) بخصوص الحياة الطيّبة:

بخصوص المادة التشريعية للحياة الطيّبة قدّم الله تعالى اللغة التشريعية (كليّات وعناوين) كضرورةٍ للحاجات البشرية الكمالية، وذلك في سياق النموذج الضامن للمصالح البشرية المأخوذ فيها عالم الأبدية وميزانها، وزاد عليها كبابٍ بَدَليّ مع عدم إمكان الباب الأول (أخلاقيات العقل النوعي)، كملاذٍ مرجعيّ بسياق مقولة التشريع الإسلامي (كمصدر أول).

وهنا بالذات قدّم الإسلام التشريع الضامن للحياة الطيّبة كقيمةٍ نوعيةٍ بسياق (لماذا أنا موجود؟)، دون أنْ يلغي خصوصية الزمان والمكان والأعراف التي لا تتعارض مع الكلّي

التشريعي، كما يتعايش مع الثقافات المختلفة وفقًا لسعة: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[٣٥]، وهو ما لفتت له طائفة نبوية ورسّخ بعض نماذجه النبيّ ﷺ ببعض وثائقه السياسية والاجتماعية ومنها الوثيقة التي وقّعها مع يهود المدينة بباكورة دولته النبوية.

أما سياقات العقل كلائحة قيمٍ مدركيةٍ فهو أساس في منطق مدرسة الثقلين المحمدية، ولا يختلف العقلاء بذلك سوى النقاش بما وراء التحسين والتقبيح العقليين، ويأتي تحته بدرجة النوعية العقلية الطويلة الأمد للعقلنة، وهو ما نعبّر عنه بالعقل النوعي المستدام أو الاخلاقيات التطبيقية ذات الجذور الأولية.

هنا تحلّ المساعي الفكرية والمفاهيمية ذات الأصل الأخلاقي دورَ (الضامن التداركي)، حال عدم التمكّن من تحصيل النسخة الإلهية لحقيقة الوجود والموجود والحاجات الوجودية ببصمة الإعجاز والمأخوذة بسياق العمل والنماذج والسياسات، والضابط هنا قول الإمام علي عليه السلام: "**واعذروا من لا حجة لكم عليه**"[٣٦]، كبابٍ على اللوائح العقلية النوعية، مع تأكيد العقل الأول كأصلٍ مدركي بعالم التحسين والتقبيح العقليين.

ومعه يلزم ما يلزم على قوله ﷺ: "**إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"[٣٧]، وحيثية ﴿**وإنّك لعلى خلق عظيم**﴾[٣٨]، كأساسٍ للقيمة النوعية الجذرية بهوية الإنسان أو جذرية الفطرة (ملاذات نوعية عابرة بين البشر).

ومثله رتبة التعذير على طلب الحقيقة كقول أمير المؤمنين عليه السلام: "**ليس من طلب الحق فأخطأة كمن طلب الباطل فأدركه**"[٣٩]، والأوّل معذور عقلًا (الساعي للحق إلا إنّه أخطأه)، فيلزم إثبات العذر الشرعي عليه، إلا أنّ هذا الفرد وتلك الجماعة مطالبةٌ بالضامن الأخلاقي أو العذر الأخلاقي بمقام الانتماء والعمل؛ لأنّه يمثّل جذور القيمة الأخلاقية التي تعود بطريقٍ ما إلى طابع التحسين والتقبيح العقلي.

وعنه يتفرّع مفهوم وعي الذات وحاجاتها، وتبديد الغموض، وتدارك المصالح، وهو ما يفترض تأمين إطار يتفق مع وجودية العوالم وجدلية الترابط بين (ما كان وما سيكون) من

جهة عقل الأشياء ولوازم الوجود بمقدار ميزان كل فرد وفئة، وهو ما نعبّر عنه بفئة الاسترشاد بالوجود ولوازمه، وحقائق الفطرة كقابل، والاشياء المتولدة مع الذات لجهة عاقليتها الأولى.

إلا أنّ هذا لا يكفي، فيلزم عليه التدارك بالمادة التربوية وسياساتها.

المادة التربوية (القيمة والنموذج):

تحت هذا العنوان لا يمكن تأمين تربية الذات والجماعة والأساس المادي والمعنوي من دون اعتماد مفاهيم الذات والوجود التي تمّ اثباتها بسياق إثبات هوية الانسان وجودًا وارتباطًا، والإرادة الكليّة للخالق كخالق لا عبث بفعله ومقاصده ليكون مجموع الجواب الأول أساسًا لمنطق الفعل والسلوك من الجهة التربوية، ومعه لا يمكن فصل الصدق والمحبة والمودة والرحمة والإنصاف والعدل وكفّ الظلم والطغيان عن قيمة الإنسان وتربيته (فردًا وجماعةً واجتماعًا).

والمنطق التربوي هنا يجب تقديمه عبر الاساسات الأولية للفرد والجماعة بما يعنيه الفرد والجماعة كنواة أولى: الأسرة، والأسرة كعنوان للكثرة الاجتماعية، وذلك بسياق برامج التلقين والتدريب الفردي والمجتمعي.

وهنا تتجذّر فكرة "كلكم لآدم وآدم من تراب" و "**كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته**"[٤٠]، و"**لا ضرر ولا ضرار**"[٤١]، و"**لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود**"[٤٢]، وهو لسان ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى**﴾[٤٣]، ولسان كليّة (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[٤٤]، إلا أنّ هذا فرع الأصل، والأصل له دخل بالقيمة الدينية ذات الجذر الأولي بخصوص ذات الإنسان، وفقًا لأصل خلقها وغاية وجودها، ومع التعارض تتقدم المادة القرآنية النبوية كأساسٍ للحياة الطيّبة، وكمثال فإنّ صيغة الأخلاقيات بخصوص الجنسين تختلف بدائرة الحرية الشخصية من بيئةٍ إلى بيئة، ومن عقلٍ قانوني إلى آخر، وتتسع وتضيق بحسب فلسفة الاجتماع تلك، واستقلال العقل هنا كليًا ممنوع، فيلزم اعتماد (ما تداركه الوحي على العقل)، لامتناع العقل هنا عن الإحاطة بهذه الجهة، أعني التراث النبوي والكليات القرآنية، ومعه تحسم المدرسة النبوية الأطر اللازمة للقيمة الأخلاقية، وواقع قواعدها بخصوص العلاقة بين الجنسين، وقواعد اللبس، ومنطق الجواز والمنع، وطبيعة تنظيم الرغبات والشهوات، وواقع الحياة

الزوجية، ومناطق الاشتراك والافتراق بين الجنسين، وهذا الاطار في غاية الأهمية وهو اليوم مركز المعارك الحقوقية في العالم؛ لأنّ التجربة العالمية المختلفة قدمت نتائج شديدة التفاوت وفقًا للحيثية المقصودة من مصالح الانسان بما هو اجتماعي وبما هو اجتماعي ووجودي.

واللافت أنّ كلتا المدرستين أقرّت بالنتائج المخيّبة للحرية الشخصية الواسعة على مستوى الرغبة والغريزة، والنتائج المعلنة للدراسات والتقارير الغربية متاحة وخير دليل على ما نعتمد ونقول.

من هنا قلنا بالقسمة الأولية وما يتلوها من نموذج كطريق على "الحياة الطيّبة" ومع تقريرنا لحقيقة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٤٥] إلا أنّ الآلة من دون برمجتها تفشل بتحقيق غاية وجودها، وكذا التكوين دون تشريع، ومنه التشريع الخطأ (كليًا أو جزئيًا).

ومعه ننتقل لحيثية الفعل من واقع صلته بمصالح الإنسان المادية والمعنوية، وهذا لا ينفصل عن طبيعة مفهوم الفعل، وصلًا على الذات ومصالحها؛ ولأنّ طابع المناقشة اجتماعيّ ثقافيّ فيلزم بيان ذلك من الجهة الاجتماعية الثقافية بسعة المجتمع وطبيعة العالم الذي نعيش.

المفاهيم الثقافية للحياة الطيّبة:

المحسوم أنّ المفاهيم الثقافية للحياة الطيّبة تأتي كدرجةٍ ثانيةٍ بجدول الخلاصة الوجودية، وحيثية العوالم وترابطها ومفهوم الجزاء من حقيقة السلوك (المصالح والمنافع والأخطاء وما يترتب عليها).

وهنا يأتي منطق الدنيا كطريقٍ على الأبدية، وواقع سلطانها كأساسٍ أول للحيثية الوجودية بسياق قدرة البشر على التطويع الذاتي والمجتمعي لمفهوم الواقع الأبدي، وما يلزم منه من حياة طيّبة.

ومعه يتسع معنى الأنا وحق الدفاع عنها بخلفية المفهوم والنتائج التي تتقاطع الأنا الوجودية الأوسع، فقتل النفس (أي التضحية بالذات) بسبيل الآخر أمر ممنوع وفقًا للذاتية الشخصية بمعناها المادي ولازمها الدنيوي، لكنّه سببٌ كبيرٌ لربحٍ أعظم وأكبر في عالم الأبدية وثوابها فيما لو تمّ في سياق المصالح العليا للإنسان وفقًا للفهم الوجودي لمصالح الإنسان.

وهـذا مـا عبّرنـا عنـه بالمفاهيـم الاسـتدلالية التـي ترتكـز عليهـا النـماذج التربويـة، وعليـه، فـإنّ قولـه صلى الله عليه وآله: "**فـوق كلّ ذي بـرٍّ بـرّ حتّـى يُقتـل الرجـل في سـبيل الله، فـإذا قُتـل في سـبيل الله فليـس فوقـه بـرّ**"[٤٦]، يوسّـع الأنـا الوجوديـة ويضعهـا بدائـرة أكـبر ثـواب أبـدي، ومعهـا نفهـم النـماذج التـي قدّمهـا المؤمنـون برسـالة النبـي صلى الله عليه وآله، ومعهـا تتضـح الحقيقـة العظمـى لطبيعـة وعمـق مـا قدّمـه الإمـام الحسـين عليه السلام في كربـلاء، ومعـه تتبـدّى رهبـة العظمـة التـي خصّ الله بهـا أبـا الفصـل العبّـاس في سـياق فهمـه للإمامـة، وحـدود التضحيـة في سـبيل كلمتهـا، وعميـق مجراهـا مـن كلمـة الله العظيـم.

ومـا قلنـاه أعـلاه مثـالٌ نموذجـي للعطـاء والخـير العـام والصدقـة والـشراكات المدنيـة والمجتمعيـة والماليـة والاقتصاديـة، وفقًـا لثقافـة الأنـا والعطـاء والمنـع والفعـل الفـردي والسـلوك العـام، بخلفيـة إعـادة تعريـف الأنـا وواقـع المصالـح والمنافـع ضبطًـا عـلى ميـزان الأربـاح الوجوديـة، وهـو مـا عبّرنـا عنـه بعقلنـة المفاهيـم وترسـيخ أخلاقياتهـا بالطبـع النفسـي، والملكـات الباطنيـة، والمظاهـر الاجتماعيـة.

إلا إنّ السـياق الثقـافي بحاجـةٍ إلى سياسـاتٍ وبرامـج بالصيغـة العامـة للجماعـة المدنيـة نفسـها، مـا يلـزم منـه تسـليط الضـوء عـلى مفهـوم السـلطة ومصالحهـا وطبيعـة غاياتهـا المقـررة، وهـذا مـا سـنتوقف عنـده إنْ شـاء الله.

إلا إنّ نوعيـة الفهـم الوجـودي ولوازمـه المفاهيميـة تشـكّل الأسـاس العميـق لمفهـوم الأنـا والربـح والخسـارة الفرديـة والعامـة، وبهـذا افترقـت المـدارس مـن طابـع أنـاني ذاتي (الليبراليـة بمعنـى فرديتهـا المحضـة) إلى طابـع الاشـتراكي (الاشـتراكية بصيغـة الملكيـة المشـتركة مـع بعـض الفرديـة) إلى الشـيوعية (بصيغـة منـع الملكيـة مطلقًـا) إلى مـا هنالـك مـن صيـغ بـين هـذه وتلـك، فضـلًا عـن تجـارب ونـماذج مـرّت عـبر التاريـخ.

والنمـوذج الإلهـي النبـويّ رغـم أنّـه أكّـد الملكيـة والخصوصيـة الفرديـة فإنّـه أعـاد تعريفهـا بـما يتفـق مـع (عـالم مـا بعـد الدنيـا وأربـاح ميزانهـا وثوابهـا)، ومعـه وسّـع إطـار الـذات ومنافعهـا وأرباحهـا ضبطًـا عـلى الجماعـة ومصالحهـا المشروعـة في عـالم الدنيـا، وهـو مـا نعـبر عنـه بالتضحيـة الماليـة والاجتماعيـة والجسـمانية وغيرهـا، ومعـه نفهـم قـول النبـي صلى الله عليه وآله: "**لـو أنّ الصدقـةَ جـرتْ عـلى يـدي سـبعين ألـف ألـف إنسـانٍ كان أجـرُ آخرهـم مثـل أجـر أوّلهـم**"،[٤٧] ومثلـه قـول الإمـام الصـادق

عليه السلام: "**لو جرى ثواب المعروف على ثمانين كفًّا لأوجروا كلّهم من غير أنْ ينقص من صاحبه من أجره شيئًا**"(٤٨)، وهذا وكلّه بطنٌ من بطون: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾(٤٩).

وبهذا المعنى تتبدّى المفاهيم الثقافية للحياة الطيّبة كدرجةٍ ثانيةٍ بجدول الخلاصات الوجودية، وحيثية العوالم، وترابطها ومفهوم الجزاء من حقيقة السلوك، ومنطق الأخذ والعطاء والتضحية والصبر والمجاهدة في سياق منطق الدنيا كطريقٍ على الأبدية وواقع سلطانها، وقدرة البشر على التطويع الذاتي والمجتمعي لمفهوم الواقع الأبدي.

وهذا يفترض إعادة تلقين الإنسان واقع وجوده وحيثية منطق الخلق والتكوين وفقًا لجداول الحجة والبرهان التي تعيد تطويع العقل الوظيفي للإنسان والتأثير بطبعه الباطني ووعيه الذاتي لحقيقة الذات والوجود وأرباح الآخرة بعالم الدنيا.

وهذا لا ينفصل عن مفهوم الدين وأخلاقياته كقيمةٍ برهانيةٍ لخلاصة المفاهيم وحقيقة الوجود وواقع الدنيا ومنطق الحياة والموت وواجبات الدور وميادين الفحص والاختبار للذات بهواها ورغباتها وغرائزها وقابلياتها في سياق الذات والذات الاجتماعية، والذات الوجودية الأوسع من مادية الحياة وواقعها المجسّم.

ومعه تتضح قيمة الدين المركزية؛ لأنّ الدين بحيثية البرهان الوجودي يتدارك ما يعجز العقل عن الإحاطة به، وكلّ ذلك يقدّمه الدين بمعايير البرهان العقلي أو ما يلزم على العقل ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ**﴾(٥٠).

هذا كلّه يفترض بيان (الأصل الأخلاقي والديني) كفرعٍ عن أصل فلسفة الوجود ومصدره وطبيعة الصلة اللازمة لوعي الأنا وعقلنة إشباعاتها (المفاهيم) في سياق الدور والوظيفة والإعداد والتلقين الذي يتفق مع حيثية الوجود ومنطق الربّ بالإنسان كدورٍ ووظيفةٍ إعدادية.

هذا يعني إنّ النقاش هنا يطال الدرجة الثالثة من هرم المعرفة الاجتماعية، ويتصل بصميم فلسفة الفعل، وجدوى المصلحة العملية، والمنطق المخصوص لعقلنة الرغبات والدوافع، والطبع الكسبي، وبناء الملكات النفسية والاجتماعية.

الأصل الأخلاقي للحياة الطيّبة:

أقول: الأصل الأخلاقي والديني هنا دور وظيفي وتلقيني وتدريبي، وفقًا للجداول العمرية وطبيعة البيئة الاجتماعية واقع المطالب الوجودية، لكن بالشقّ العملي، وهو لا ينفصل عن دور القطاعات التربوية والاجتماعية والترفيهية لبناء شخصية الأجيال، ضمن أطر من الإشباعات والضمانات التي تسهم بتأمين وحماية شخصية الفرد والجماعة والاجتماع العام، ولديها القدرة عل الدور والممانعة في سياق قوة تميّزها وثقتها بنفسها وهويتها وطبيعة انتمائها إلى مشروعها الأخلاقي.

والدمج بين الأخلاق والدين هنا ضرورةٌ في الأطروحة الإلهية؛ لأنّ فلسفة الأشياء وضبط السلوك والهوى والقابليات لا بدّ له من تلقين وعقلنة لها صلة بحقيقة الوجود وميزان الفعل وأثر ذلك من عالم القيامة، وهنا حسابات الربح والخسارة لها أثرٌ فعلي بعالم التلقين، وفي هذا السياق نفهم لغة القرآن بخصوص الجنة والنار وأثر ذلك على إعادة تكوين الطباع السلوكية من هذه الجهة، ويكفي تتبّع آلاف الدراسات الغربية حول أثر الدين العميق في صياغة الطباع والتأثير بنوع مدهش من التضحيات بخلفية الفهم الوجودي وعالم الثواب والعقاب وضبط الدنيا على الأبدية وقصة السقّاء والجرحى الذين امتنعوا عن الماء بخلفية أنّ كلّ واحدٍ منهم يريد أنْ يؤثر غيره على نفسه بغاية الدهشة حول أثر العامل الديني بطباع ودواعي فعل المتدين.

والثابت بالضرورة أنّ للدين أثرًا بالغًا بتربية الذات وتكوين طباعها والتأثير بدواعيها ودوافعها وأنماطها، وبسعة ما للدين من قدرة على التكوين الفردي ضبطًا على المراحل العمرية والطباع الاجتماعية تأتي النتائج، وفيه يصبّ قوله صلى الله عليه وآله: "**أكرموا أولادكم، وأحسنوا آدابهم، يغفر لكم**"[٥١]، ومثله قول الإمام علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام: "**إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية؛ ما ألقي فيها من شيءٍ قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أنْ يقسو قلبُك ويشتغل لبُّك**"[٥٢]، وعن إمامنا الصادق عليه السلام: "**بادروا أولادكم بالحديث قبل أنْ يسبقكم إليهم المرجئة**"[٥٣]، وهنا يريد من المرجئة كلّ فئة ضالّة، ويريد بالحديث أساليب التلقين والتربية التي تليق بظروف المرحلة، والتي تعيد إنتاج عقل القابليات عند الأطفال والأجيال في سياق الكمالات الوجودية، والتي تتجسد فيما بعد على شكل طريقة عيش، ونمط حياة يكرّس الطباع المكتسبة عبر المدرسة الأخلاقية التي تتولى تربية قلب الأجيال وعقلها وقابلياتها وأنماطها.

على أنّ سكوت الشارع عن برامج التربية وسياساتها مأخوذٌ فيه الأبعاد الاجتماعية والحياتية لكلّ جيل، وهذا ما نعبّر عنه بتكريس عقل العقلاء لتأمين العناوين الشرعية ومقاصدها، وهو بالضرورة يعني تكريس الأدوات والسياسات الكفيلة بتربية الأجيال وتأمين حضورها ووظيفتها وواقع قوتها الحضارية وفقًا لميزة الدين ونخبته من واقع الإنسان وتجربته.

على أنّ المعركة هنا تكمن بعقلنة الرغبات والدوافع والطبع الكسبي، وبناء الملكات النفسية والاجتماعية، وهي أهم مطالب إنتاج الفرد الجماعة وفقًا لفلسفة الدور والوظيفة، ومعه يصار الحديث عن بناء الفرد الاجتماعي؛ لأنّه الضرورة المأخوذة ببناء الأجيال بخلفية أنّ طبيعة الوجود الإنساني مأخوذ فيها الصيغة الاجتماعية.

البناء الفردي والأسري والمجتمعي والصياغات التشاركية للحياة الطيّبة:

الحديث عن البناء الفردي والبناء الأُسري التشاركي هنا مأخوذٌ فيه مفهوم المسؤولية التربوية الفردية والوظيفة الأُسرية في سياق شراكة المجتمع ومفهوم السلطة الاجتماعية.

ما يعني أنّ المبحث هنا أعمّ من التنظير؛ لأنّه من صميم مقولة (الحاجات وواقع أثرها)، ويلزم له تأمين سياسات وبرامج تستوفي الحاجات المادية والمعنوية بما يتفق مع حاجات الإنسان وظروفه، وواقع حياته، ومجموع التغيرات العميقة بما حوله، والحديث هنا حديث عن مشروع ومنظومة برامج، وطبيعة تكوين اجتماعي، تلحظ الفرد والجماعة من زاوية الفعل الفردي والمبادرات الأهلية، والمنظمات غير الحكومية، بما فيها التيارات والأطر المتخصصة ببناءات الفرد وحاجاته الاجتماعية والتربوية والأخلاقية، وما لهذا العنوان من أثر في مجال الحياة المدنية، على أننا نأخذ هذا العنوان منفصلًا عن البناء الفردي بإطار الصيغة السياسية أو منظومة العقل الاجتماعي للسلطة؛ لأنّ هذا ما سنتحدث بالفقرة التالية إنْ شاء الله، والمقصود هنا تدعيم التربية الأخلاقية والدينية بأطرٍ وكياناتٍ وتنسيقياتٍ وجمعياتٍ وتياراتٍ وصياغاتٍ مدنية تعيد توظيف الجهد الجماعي الأهلي بمنظومة التربية والبرامج التي تستهدف الأطفال والأجيال، وهذه ضرورةٌ في معركة انتاج صورة الجيل وتقديم النموذج وتسخير الإمكانات والطاقات الشبابية بمجالات تعيد تكوين القوة الشبابية والمجتمعية بصيغتها الأهلية ضبطًا على عالم النموذج والسلوك الأخلاقي والبناء الأسري.

ويصبّ في هذا المجال كلّ ما ورد عنهم عليهم السلام بلفظ: "تعاونوا، تضامنوا وسارعوا..."، المقصود منها إنتاج البيئة الاجتماعية الأهلية عبر الجهد المدني وفردياته وكتله المنظّمة، ومنه قول الإمام علي عليه السلام: "**فعل المعروف، وإغاثة الملهوف، وإقراء الضيف، آلة السيادة**"[٥٤]، وذلك في سياق تكوين جماعات فردية منظمة لتحقيق هذا الهدف وأمثاله.

ومنه أطر المعروف بكافة أشكالها التي تقّوي الحق الجماعي، وتوظف الإمكانات على العناوين الشريكة بالأجيال وعناوينها.

إلا إنّ هذا الجهد يتقاطع مع عقل السلطة ومنظومة الفلسفة السياسية للدور الاجتماعي، وفي هذا السياق لا بدّ من البناء الاجتماعي في سياق منطق النظام السياسي كضامنٍ معرفي يحتاج برامج وسياسات تحيط بالمصلحة الاجتماعية ذات الصلة المقصودة من النظام السياسي، وهو بذلك يطال مفهوم السلطة بخصوص الإنسان أو المواطن من زاوية المصلحة الاجتماعية التي تدور مدار وظيفة الانسان ودوره، وطبيعة الغاية الاجتماعية المقصودة من وجوده، وهذا يطال بطبيعته فلسفة الجماعة ووظيفة الدولة وفقًا للصيغة التي قدّمها الإسلام في سياق ريادة الدور الثقافي، توازيًا مع المسؤوليات الاجتماعية والاقتصادية التي يتكوّن منها عقل السلطة وهياكل مؤسساتها الدستورية، وأدوارها السياسية والاجتماعية.

سياسات السلطة ومسؤولياتها اتجاه مصالح المجتمع الإنساني أو المدني في سياق الحياة الطيّبة:

يجري هنا الحديث عن المشاريع التطبيقية للسياسات الاجتماعية، والبرامج الأخلاقية والمدنية، والدور الفاعل للأفراد كقيمةٍ ودورٍ ووظيفةٍ تمارس الحياة العامة بمجموع قطاعاتها لكن بخلفيةٍ أخلاقيةٍ ودواعٍ نبيلةٍ تتميّز بها عن غيرها بدائرة ما نسميه (عقل السلطة وبرامجها وعقيدتها) في سياق قيادة المجتمع وإدارة الموارد والسلطة والثروة والأفراد والعقول ضمن غايات ذات معانٍ وجوديةٍ، وهو ما قررناه كجذع أول مفاده (فلسفة الوجود)، والمطلوب هنا ابتكار سياسات تتفق والفلسفة الاجتماعية للسلطة.

ووفقًا للسلطة النبوية، لا يمكن للسلطة أنْ تكون بلا هوية اجتماعية ومسؤوليات اقتصادية وأخلاقية، وفي هذا المجال أخبارٌ نبويةٌ شديدة الأهميّة ويشهد لها ما ورد بـ (عهد مالك الأشتر)

لجهة ضبط مفهوم السلطة على المسؤوليات الاجتماعية والاقتصادية، بما تعنيه من أيديولوجيا خاصة للسلطة بالإسلام، وهي التي لا تنفصل عن حقيقة المفهوم الوجودي للإنسان، هنا يصبح الحديث عن الحياة الطيّبة لا بشقّها الفردي، بل بشقّها العام، أي وفقًا لعقل ومفهوم السلطة حول الانسان والوجود، وهذا يفترض الحديث عن الدور العضوي للدولة من مشاريع وبرامج كقيمةٍ خدميّةٍ مأخوذًا فيها الاجتماع المدني لقيمته ومؤسسة الدولة كمرجعٍ ضامنٍ في سياق تعزيز الإنسان وثقافة وجوده وحقوقه المأخوذ بها نظام العوالم وطبيعة الموازين.

الضمانات الهيكلية للفرد الاجتماعي في سياق الحياة الطيّبة:

مع هذا العنوان اللازم يدور منطق الحياة الطيّبة مدار الضمانة العضوية أو المادية (السياسات والبرامج كذراعٍ تطبيقي لتنمية الإنسان وحماية دوره ووظيفته المادية والمعنوية)، أي ما يجب أنْ تقوم به الدولة من جهة تنظيمها للسلطة والثروة والأسواق والموارد والمجالات الإعلامية والتجارية والتنموية والابتكارية، ومنه إشكالية العلاقة بين السلطة والثروة، وبين السلطة والأفراد، وبين الثروة والأسواق، وبين الثروة والأخلاقيات ذات الصلة بأجندة الدولة ومسؤولياتها الإنسانية قبالة مسؤولياتها الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما لفت له الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر كأساسٍ للقيمة الميثاقية، والذي بدأ بتوليفته حول الوجود، وفلسفة السلطة، وواقع الانتماء، وما يعنيه ذلك من عقل الدولة، ووظيفة الحاكم.

ومعه ظلّ العقل التشريعي للدولة ومفهوم السلطة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام مصرًا على تركيب الدور العضوي على الدور المعنوي بالتوازي، وذلك لتأكيد قيمة (ما بعد المادة)، أي الانسان ببعده الوجودي، وعلة مصدره، وطبيعة روابطه بالله الخالق، ليس كمواطن في دولة، بل كإنسانٍ مخلوقٍ وجماعةٍ بشريةٍ ومساحة أكبر من سلطة ووظيفة دنيوية.

وهنا يكمن الحديث عن الحياة الطيّبة عبر البعد المعنوي للفرد والجماعة والصيغ الجماعية في عالم الدولة، والدول التعدد الكياني (الأعم من الدول)، والعولمة كساحة للجدل الوجودي والسلوكي، وكنموذج لـ(عالم مزدحم بالمادية)، ولديه قدرات فائقة باجتذاب الأجيال والتأثير على القابليات النفسية والدواعي المشتركة والصفات العملية من باب (نمط الحياة وطريقة

العيش)، وهنا أعني القدرة المعنوية على إنتاج الإنسان قلب الإنسان ودوافعه السلوكية رغم القدرة الهائلة لحضارة الرغبات والغرائز التي يقدّمها الآخر على طول التاريخ؛ لضرب وتجويف الفلسفة الدينية عبر السيطرة على رغبات الشباب ونمط سلوكهم.

نخبوية الحياة الطيّبة بما وراء الحدود (العالمية):

هنا تبدو المسؤولية أكبر وأهمّ؛ لأنّ المطلوب هنا تجسيد التفرّد والتميّز كقيمةٍ لها علاقة بباطن الإنسان ضبطًا على طبيعة ممارسته لحرياته الشخصية والفكرية والاقتصادية والسياسية والريادية في عالم الفرد والجماعة بسعتها المعولمة.

والمقصود هنا الإنسان بعالميته وفردية أدواره، قبالة النموذج الحضاري، ويلحق به النموذج المجموعي للممارسة المدنية، وهو يطال الأمة أو الجماعة المدنية في سياق تقديم هويتها، ومنطق عقائدها السلوكية في عالم الإنسان ونوادي الأمم، وهو بذلك يعكس المفهوم الجماعي لقيمة الأمة وهوية الجماعة المدنية في سياق العالمية.

وبذلك المنطق نقدّم (الحياة الطيّبة) من زاوية القرية الكونية بخصوص النزعة الفردية، والمنظمات غير الحكومية، والقدرات الفائقة لرأس المال، والشركات العابرة التي تمتهن تكوين مفاهيم سلوكية وحضارية تجذّرها بسياق إلغاء)تعددية الثقافات(، أو ثقافة الآخر توازيًا مع ضغط الدعاية ومؤسسات العلاقات العامة، وترويج المحفّزات، وأساطيل الفكر الطاغي لمقولة نهاية التاريخ بالمنظار الثقافي، والتوليفة السلوكية غير القابلة للتصفية والفحص بسبب طغيان دعايتها، وتشريكها بالرغبة والغريزة، والقابليات النفسية والعضوية لدى الانسان.

هنا بالذات تكمن قيمة الفحص الحضاري من جهة الفرز الكياني للأطر والمنظمات غير الحكومية، وما تزدحم به الساحة الكونية من شركات ومال ونزعة عقل مهني واستهلاكي، فضلًا عن نزعة الإنتاج وعقلية الإلغاء، ومنه عالم الرغبات وتوظيفاتها، ونمط جهاتها ضبطًا على الداعي الأخلاقي أو الدافع الفردي، ذلك كلّه بسياق تحديد هوية الحياة الطيّبة وفقًا لفلسفة الوجود وحضورها ومدى قوتها بعالم إنتاج الانسان العالمي، ومنه الحضارة العالمية أو بعض أضلاعها.

ختامًا لمبحث الحياة الطيّبة:

بخلاصة الفهم والفكر، وطبيعة استحضار الذات الثقافية، وقدرة الانتماء، وتطبيقات العقل الوجودي، وأنماطه يمكن الحدث عن الحياة الطيّبة، ومعنى الانتماء لها، وهو ما نطلق عليه اسم (**الحياة الطيّبة**) بسياق الخلاصات الوجودية، ومنطق الانتماء كتجربة وواقع حياة (تجسيد القيم)، وهو مقصود ما ورد بباب دعاء عرفة من قوله عليه السلام: "**أسألك أنْ تصلّي على محمد وآل محمد، وأنْ تقلبني فيه مفلحًا منجحًا بأفضل ما انقلب به من رضيت عنه، واستجبت دعاءه، وقبلته، وأجزلت حباءه، وغفرت ذنوبه، وأكرمته، ولم تستبدل به سواه، وشرفت مقامه، وباهيت به من هو خير منه، وقلبته بكل حوائجه، وأحييته بعد الممات حياة طيّبة، وختمت له بالمغفرة، وألحقته بمن تولاه**"[٥٥]، يريد عليه السلام أنْ أعظم ما نريده بهذه الدنيا إدراك حقيقة الذات المخلوقة بداعي صلتها بالذات الغنية (الخالق والمخلوق)؛ للقيام بالدور الوظيفي الذي يليق بالحياة الطيّبة ضبطًا على محلّ فعلنا من دنيانا (معرفة، قيم، فعل، نمط فردي وجماعي واجتماعي عام) بسعة محلّه من كفة جزائنا، وهذه لها علاقة بسعة الدنيا وواقعها وخياراتها، والدور والوظيفة والإمكانات التي تتطلّبها حالاتنا الفردية والعامة ومقولة: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾، بما في ذلك كلّ ما له دخل في عمارة الأرض، وإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل، وتأمين الشروط المجتمعية للكمال المقصود من الدور، والوظيفة المجتمعية بسياق فلسفة الوجود، وهو عين مقصود الله تعالى من قوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٥٦]، واللسان هنا له محله من مقولة الشاغل للذمة والمطلوب على الوجود بسعة حيثية (الوجودي الغائي)، وفيه قال الإمام علي عليه السلام: "**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمًى، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ، ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَانًا، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ ـ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنفْسِهِ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ ـ عَلَى لِسَانِهِ ـ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، فَأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمِعْذِرَةَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ؛ فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ**"[٥٧]. ذلك كلّه نزولًا منه على المخلوقية، وما

يلزم عليها بطرق مسارها من علّام آخرتها، وميزان أبديتها، وبسعة الخبر النبوي العلوي: "**رحم الله امرأً عرف من أين وفي اين والى أين**"[٥٨]، كحيثية معرفية (للقبل) كعنوان حاسم لضبط (البعد)، بسعة البعدية من عالم القيامة على محلها من مطالب الوجود والعهود المأخوذ فيها (توفية النفس الفردية والجماعية) محلها من الحياة الطيّبة كأساس دنيوي للجزاء الأخروي وفق مقام (ما يجب باللطف) على الخالق العظيم.

والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش

١- الطوسي، محمد بن حسن، مصباح المتهجّد، ٦٧٠ / المفيد، محمد بن النعمان، المزار، ١٥٣.
٢- الذاريات/ ٥٦.
٣- نهج البلاغة، ١ / ١٠٩.
٤- الريشهري، محمد، العلم والحكمة في الكتاب والسُنّة، ٢٨٣.
٥- آل عمران/ ١٩١.
٦- الإسراء/ ٦١.
٧- الريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، ٢/ ٣٠١.
٨- نهج البلاغة، ال٤، ١٣٤.
٩- التستري، نورالله، إحقاق الحقّ.
١٠- الذاريات/ ٥٦.
١١- البقرة/ ٣٠.
١٢- الزلزلة/ ٧- ٨.
١٣- الشمس/ ٩- ١٠.
١٤- المؤمنون/ ١١٥.
١٥- الذاريات/ ٥٦.
١٦- الصافات/ ٣٧.
١٧- ص/ ٢٢.
١٨- م.ن/ ٢٦.
١٩- الزمر/ ٢.
٢٠- م.ن/ ٥.
٢١- م.ن/ ٦٩.
٢٢- م.ن/ ٧٥.
٢٣- غافر/ ٢٠.
٢٤- م.ن/ ٢٥.
٢٥- الريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، ٢ / ٣٠١.
٢٦- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مكارم الأخلاق ، ١٩٧ / الريشهري، محمد، ميزان الحكمة ٢/ ١١٨٣.
٢٧- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٢/ ١١٨٣.
٢٨- م.ن. الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال، ١٦/ ٣٠٢.
٢٩- آل عمران/ ١١٠.
٣٠- النساء/ ٩٧.

٣١- آل عمران/ ١٠٤.
٣٢- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٠/ ٣٦٤/ الحر العاملي، محمد بن حسن، وسائل الشيعة، ١٥/ ٢١٢-٢٩١.
٣٣- الريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، ٢/ ٣٠١.
٣٤- م.ن/ ٣٠١.
٣٥- الحجرات/ ١٣.
٣٦- نهج البلاغة، ١/ ١٥٤.
٣٧- فلسفي، محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية، ١/ ١٩٢ - ١٩٣ / الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٩/ ٣٧٦.
٣٨- القلم/ ٤.
٣٩- المجلسي محمد باقر، بحار الانوار ، ٣٣/ ٤٣٤.
٤٠- المكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ١٨/ ٤٦١.
٤١- الصدوق، محمّد بن عليّ، المقنع، ٥٣٧ - ٥٣٩ / رسائل الشريف المرتضى، ١ / ١٧٨.
٤٢- المكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ١٨ / ٤٦١.
٤٣- الحجرات/ ١٣.
٤٤- الإسراء/ ٧٠.
٤٥- م.ن.
٤٦- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٥ / ٥٣.
٤٧- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٢/ ١٦٠٣.
٤٨- م.ن، / ١٦٠٣.
٤٩- البقرة/ ٢٦١.
٥٠- النساء/ ١٦٥.
٥١- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ٢١ / ٤٧٦.
٥٢- نهج البلاغة، ٣ / ٤٠.
٥٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٦/ ٤٧.
٥٤- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٣ / ١٩٣٠.
٥٥- الطوسي، محمد بن حسن، مصباح المتهجّد، ٦٧٠ والمفيد، محمد بن النعمان، المزار، ١٥٣.
٥٦- الذاريات/ ٥٦.
٥٧- نهج البلاغة، ١ / ١٠٩.
٥٨- الريشهري، محمد، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ٢٨٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

* ابن أبي الحديد المعتزليّ، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، الجزء: ١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٨- ١٩٥٩ م.

* ابن إدريس الحلي، محمّد بن منصور، السرائر، الجزء: ٢، تحقيق: لجنة التحقيق، الطبعة: الثانية، قم، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٠.

* ابن زهرة الحلبي، غنية النزوع، تحقيق الشيخ إبراهيم البهادري / إشراف: جعفر السبحاني، الطبعة الأولى، قم، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤١٧.

* ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الثانية، قم، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ ش.

* ابن عابدين (علاء الدين)، محمد، تكملة حاشية رد المحتار، الجزء: ١، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، الطبعة: جديدة منقحة مصححة، بيروت – لبنان، الناشر: دار الفكر، ١٤١٥ - ١٩٩٥م.

* الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، الجزء: ٢، المجموعة: مصادر الحديث السنية . قسم الفقه، تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

* الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة آل البيت، الجزء: ١٥، الطبعة: الثانية، قم، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بقم المشرفة، ١٤١٤.

* الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، تذكرة الفقهاء (ط.ج)، الجزء: ٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

* ــــــــــ، الجزء: ٥، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، قم، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٥.

* ــــــــــ، منتهى المطلب (ط.ج)، الجزء: ٣، الطبعة: الأولى، إيران – مشهد، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، ١٤١٤.

* الريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلامية، الجزء: ٢، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث، الطبعة: الأولى، ايران: قم

المقدسة، الناشر: دارالحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٥ - ١٣٨٣ش.

* ـــــــــــ، ميزان الحكمة، الجزء: ١و٢، تحقيق: دارالحديث، الطبعة: الأولى، الناشر: دار الحديث، ١٤١٦.

* الزمخشري، جارالله، الفائق في غريب الحديث، الجزء: ١، الطبعة: الأولى، بيروت، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ - ١٩٩٦ م.

* الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، الجزء: ١، تحقيق وتقديم: السيد أحمد الحسيني، إعداد: السيد مهدي الرجائي، قم، الناشر: دار القرآن الكريم، ١٤٠٥.

* الصدوق، محمد بن علي (ابن بابويه القمي)، أخبار الرضا عليه السلام، الجزء: ١، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، بيروت – لبنان، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م.

* ـــــــــــ، علل الشرائع، الجزء الفقه، تقديم: السيد محمد صادق، النجف الأشرف، الناشر: منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٣٨٥.

* ـــــــــــ، المقنع، تحقيق: لجنة التحقيق التابعة لمؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، الناشر: مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، ١٤١٥.

* الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، الجزء: ١٩، قم المقدسة، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

* الطبرسي، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل، تفسير مجمع البيان، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٥ - ١٩٩٥ م.

* ـــــــــــ، مكارم الأخلاق، الطبعة: السادسة، الناشر: منشورات الشريف الرضي، ١٣٩٢ - ١٩٧٢ م.

* الطوسي، محمد بن الحسن، الخلاف، الجزء: ٣، المحققون: السيد علي الخراساني، السيد جواد الشهرستاني، الشيخ مهدي طه، الطبعة: الجديدة، المشرف: الشيخ مجتبى العراقي، قم، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١١.

* ـــــــــــ، تهذيب الأحكام، الجزء: ٧، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، الطبعة: الرابعة، طهران، الناشر:

دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ ش.
* فلسفي، محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية، الجزء: ١، تحقيق، تعريب وتعليق: فاضل الحسيني الميلاني، الطبعة: الثانية، ايران - قم المقدسة، الناشر: مكتبة الأوحد، ١٤٢٦ - ٢٠٠٥م.
* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الجزء: ٤، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة، طهران، الناشر: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٣ ش.
* المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار، الجزء: ١، تحقيق: يحيى العابدي، الطبعة: الثالثة المصححة، بيروت – لبنان، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.
* المعزي الملايري، إسماعيل، جامع أحاديث الشيعة، الجزء: ١٤، قم، الناشر: المهر، ألف تحت إشراف آية الله العظمي حاج حسين الطباطبائي البروجردي، ١٣٩٩.
* المنتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، الجزء: ٤، الطبعة: الأولى، قم، الناشر: دار الفكر، ١٤١١.

المباني النظريّة للحياة الطيّبة

الشيخ حسن أحمد الهادي

باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / لبنان

ملخص البحث

الحياة الطيّبة هي الوضعية المنشودة لحياة البشر؛ في الأبعاد الإيمانية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية، والجسمية، والبيئية، والجمالية، والعلمية، والإدارية. ووفقًا لرؤيتنا الإسلامية لا مجال لفصل الحياة الطيّبة بأبعادها ومراتبها كافة عن الإيمان والعمل الصالح الوارد في في القرآن الكريم على نحو التلازم، وإنّ الوصول إلى الحياة الحياة الطيّبة هي المصداق الحقيقي لتسامي الإنسان وقربه من الله تعالى، بل ويشكّل الوصول إلى الحياة الطيّبة المصداق الحقيقي للغاية من وجود الإنسان، فهي تمثّل أحد تجلّيات القيمة الغائية النهائية للحياة أي القرب من الله تعالى والتي لاتتّم إلا بالالتزام الكامل بالنظام القيمي الإسلامي، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]. وإنّ النتيجة الطبيعية للعمل الصالح والحسن الفاعلي في الحياة الدنيا هي أنْ يحيا الإنسان حياةً طيّبة.

يتناول هذا البحث المباني والأسس النظرية للحياة الطيّبة، إذ يعالج هذه المباني على وفق رؤيةٍ جامعةٍ للأبعاد العشرة التي تشكّل المنظومة التربوية التي يجب أنْ يتربّى عليها الإنسان، ولا يقتصر على بُعدٍ دون آخر، إذ حاصل التربية على هذه الأبعاد مجتمعةً يؤسّس للحياة الطيّبة في المجتمع الإسلامي.

ويتضمّن إضافةً إلى المقدمة، مدخلًا في خصائص الحياة الطيّبة، ومبحثين؛ عالج الأول القيم والمبادئ التربويّة الحاكمة على تشكيل نمط الحياة الطيّبة، بينما فصّل المبحث الثاني المباني والأبعاد النظرية للحياة الطيّبة وهو العمدة في هذا البحث.

وقد تمّت هذه المعالجات بالاستناد إلى المنهج الوصفي، الذي يسعى الباحث فيه إلى دراسة الواقع كما هو، ووصفه وصفًا دقيقًا والتعبير عنه تعبيرًا كيفيًا أو كمّيًا، تمهيدًا لفهم الظواهر وتشخيصها، وتحليليها، وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين ظواهر أخرى، فالبحث الوصفي، إذًا، لا يقف عند حدود وصف الظاهرة، إنّما يذهب إلى أبعد من ذلك، فيحلّل ويفسّر ويقارن ويقيّم.

ولله الحمد

المقدّمة

الحياة الطيّبة هي الوضعية المنشودة لحياة البشر؛ في الأبعاد الإيمانية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية، والجسمية، والبيئية، والجمالية، والعلمية، والإدارية. ووفقًا لرؤويتنا الإسلامية لا مجال لفصل الحياة الطيّبة بأبعادها ومراتبها كافة عن الإيمان والعمل الصالح الوارد في في القرآن الكريم على نحو التلازم، وإنّ الوصول إلى الحياة الحياة الطيّبة هي المصداق الحقيقي لتسامي الإنسان وقربه من الله تعالى، بل ويشكّل الوصول إلى الحياة الطيّبة المصداق الحقيقي للغاية من وجود الإنسان، فهي تمثّل أحد تجلّيات القيمة الغائية النهائية للحياة أي القرب من الله تعالى، والتي لاتتّم إلا بالالتزام الكامل بالنظام القيمي الإسلامي، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢]. وإنّ النتيجة الطبيعية للعمل الصالح والحسن الفاعلي في الحياة الدنيا هي أن يحيا الإنسان حياةً طيّبة.

يتناول هذا البحث المباني والأسس النظرية للحياة الطيّبة، إذ يعالج هذه المباني على وفق رؤيةٍ جامعةٍ للأبعاد العشرة التي تشكّل المنظومة التربوية التي يجب أن يتربّى عليها الإنسان، ولا يقتصر على بُعدٍ دون آخر، إذ حاصل التربية على هذه الأبعاد مجتمعةً يؤسّس للحياة الطيّبة في المجتمع الإسلامي.

ويتضمّن إضافةً إلى المقدمة، مدخلًا في خصائص الحياة الطيّبة، ومبحثين؛ عالج الأول القيم والمبادئ التربويّة الحاكمة على تشكيل نمط الحياة الطيّبة، بينما فصّل المبحث الثاني المباني والأبعاد النظرية للحياة الطيّبة وهو العمدة في هذا البحث.

وقد تمّت هذه المعالجات بالاستناد إلى المنهج الوصفي، الذي يسعى الباحث فيه إلى دراسة الواقع كما هو، ووصفه وصفًا دقيقًا والتعبير عنه تعبيرًا كيفيًا أو كمّيًا، تمهيدًا لفهم الظواهر وتشخيصها، وتحليليها، وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين ظواهر أخرى، فالبحث الوصفي، إذًا، لا يقف عند حدود وصف الظاهرة، إنّما يذهب إلى أبعد من ذلك، فيحلّل ويفسّر ويقارن ويقيّم. ولله الحمد

مدخل

في خصائص الحياة الطيّبة

الحياة الطيّبة هي حصيلة السعي الواعي والاختياري للإنسان في التشكّل والتسامي في هذه الحياة الدنيا، بإضفاء الصبغة الإلهيّة عليها، وعليه فهي أثر يعيشه الإنسان نتيجة الإيمان والعمل الصالح، وأحد تجلّيات الغاية النهائيّة للإنسان، أي: القرب من الله تعالى، وهذه الحياة الطيّبة تمتاز بأربع خصائص:

الأوّلى العمومية: تحيط الحياة الطيّبة بجميع الأبعاد الفردية والأسرية والاجتماعية لحياة الإنسان، ولها حيثيات متعدّدة تتحقّق من خلال التفاعل فيما بينها، بالارتكاز على الأبعاد العشرة لتربية الإنسان، وهي البعد الإيماني (التربية الاعتقادية، والفقهية، والأخلاقية)، والبعد الجهاديّ، والجسميّ، والاجتماعي، والسياسيّ، والاقتصاديّ، والبيئيّ، والإداريّ، والعلميّ-التقنيّ، والجماليّ-الفنيّ.

الثانية: تعدّد المراتب: إنّ الحياة الطيّبة ليست ذات مرتبةٍ واحدة، بل لها مراتب متعدّدة ومتفاوتة، تبدأ من المرتبة الدنيا (الطيبات)، وكلّما نال الإنسان مرتبةً منها، استطاع بالسعي والحركة أنْ ينال مرتبةً أسمى وأعلى في سلّمها على طريق تحقيق سائر المراتب الأخرى؛ ولهذا فالسعي لنيل الحياة الطيّبة لا يختصّ بالإنسان المتديّن، وإنّما كلّ إنسانٍ يسعى حسب فطرته إلى نيل الحياة الطيّبة، وإنْ كان حسب سعيه لا ينال إلّا المرتبة الدنيا منها (السلامة الجسدية، والسعة الاقتصادية، إلخ)؛ لأنّ نيل المراتب الأخرى للحياة الطيّبة مشروطٌ بالالتزام التام بالنظام القيمي الإسلامي والدين الحق.

ومن هنا، يمكن بل يجب أوّلًا، بمقتضى الفطرة الصافية وحكم العقل السليم ونداء الوجدان، دعوة جميع أفراد المجتمع إلى تحقيق مراتب الحياة الطيّبة هذه. وبما أنّ حياة البشر،حتّى في شكلها الطبيعي والأدنى، لا يمكن أنْ تستمرّ من دون نيل هذه المراتب، ينبغي للدعوة إلى تحقّق الحياة الطيّبة أنْ تبدأ من هذه المراتب، حتّى تمهّد الأرضية المناسبة لجذب جميع أفراد المجتمع ورغبتهم في تحقيق مراتب أعلى من الحياة الطيّبة على أساس الإيمان، أي الاختيار

الواعي والحر للنظام القيمي الإنساني والديني والالتزام به.

بل إنّ الوصول إلى بعض المراتب المقدّماتيّة والضروريّة للحياة الطيّبة، كالتلبية المتوازنة للحاجات الحياتيّة والطبيعيّة لأفراد المجتمع، أو مراعاة بعض القيم الأخلاقيّة المقبولة عمومًا (كالإنصاف، والتحرّر، والعدالة، والصدق، والوفاء بالعهد، والأمانة) هو مراد كلّ شخص ذي عقلٍ مستقيمٍ وفطرةٍ سليمة؛ ولهذا فإنّ تحقّق هذه المراتب المقدّماتيّة للحياة الطيّبة، غير مشروطٍ بالاختيار الواعي والحرّ للدين الحقّ، بل إنّ رعاية هذه المجموعة من القيم، حتّى لو تحقّقت بدوافع دنيويّةٍ وغير دينيّة، سوف تحقّق المراتب الأوّليّة للحياة الطيّبة.

الثالثة: الوسطية والتوازن والاعتدال: إنّ الوسطية والتوازن والاعتدال من أهم ميزات وثوابت الحياة الطيّبة في أبعادها المختلفة، وهذا يجب أنْ يتحوّل إلى جزءٍ مقوِّمٍ ورئيسٍ من صفات الفرد أو المجتمع الذي يحيا الحياة الطيّبة، بنحوٍ تكون الوسطية والتوازن والاعتدال هي العنصر الحاكم في السلوك الفردي والاجتماعي، بعيدًا عن أيّ إفراطٍ أو تفريط في جميع الأبعاد المذكورة. ويُعدّ النظام القيمي المبتني على الدين الحقّ بمنزلة معرّف لحدّ التوازن والاعتدال في جميع أمور الحياة الطيّبة وشؤونها، وإنّ اتّباع نظامٍ قيميّ أصيلٍ بهذه الخصائص سيمنع من حاكميّة الرغبات الفردية والشخصية والاعتبارات الاجتماعية التي تؤدّي إلى الاختلال وعدم التوازن والظلم والجور، وإضعاف نمط الحياة الطيّبة أو سقوطه.

الرابعة: البعد الاجتماعي: تؤكّد الحياة الطيّبة على البعد الاجتماعي للتربية، إضافةً إلى البعد الفردي، ويشمل البعد الاجتماعي للحياة الطيّبة العديد من القيم، من قبيل: التعاون والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[٣]، والإحسان والرأفة والأخوّة والوحدة الاجتماعية والاعتصام بحبل الله، قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بنعمته إخوانا** ﴾[٤]، وإقامة القسط ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[٥]، والعدالة الاجتماعية، ورعاية حقوق الناس ﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا**

بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيم ﴾[٦]، والتواصي بالحق ﴿ **وتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبر** ﴾[٧]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ** ﴾[٨]، ومحاربة الظلم والاعتداء ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ** ﴾[٩]، والدفاع والجهاد ﴿ **وَقَاتِلُوا في سبيل الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ** ﴾[١٠]، والعزة والنصر والصلح ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** ﴾[١١]، والعمران ﴿ **هُوَ انشأكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها** ﴾[١٢]، والنظم والانضباط الاجتماعي، والكسب الحلال وحسن المعيشة ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَلُوا مِمَّا فِي الأرض حلالًا طيبًا** ﴾[١٣]، ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بيْنَكُم بالباطل إلَّا أن تكون تجارةً عن تراضٍ** ﴾[١٤]، والإيثار ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾[١٥]، والمداراة، التولّي والتبرّي ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ...** ﴾[١٦] (محبة أولياء الله ومعاداة أعداء الله)، والاستقلال، والمشورة ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[١٧]، والإنفاق ﴿ **وانفقوا في سبيل الله** ﴾[١٨]، فيمكن أن تعدّ جميعها بمنزلة مميزات المجتمع الإسلامي المطلوب، أي المجتمع الصالح.

وخلاصة القول: إنّ التربية عمليّة تحصل داخل مجتمعٍ معيّن، وهذا يقتضي توفير النظام التربوي الاجتماعي الذي يعمل على نشر القيم الاجتماعية للنظام القيمي الإسلامي، وتهيئة الأرضيّة الضروريّة لهداية أفراد المجتمع من خلال المؤسّسات الاجتماعية المطلوبة من أجل تشكيل المجتمع الصالح، وتقدّمه المستمر، وهذا ما نقصده بالبعد الاجتماعي للعملية التربويّة.

المبحث الأول:

القيم والمبادئ التربويّة الحاكمة على تشكيل نمط الحياة الطيّبة

مدخل

ليس ثمّة شك في أنّ الإسلام كدين يحمل معه، منذ ظهوره نظامًا متكاملًا للقيم، وهو "مجموعة من المعتقدات والتشريعات والغايات والوسائل والضوابط والمعايير لسلوك الفرد والجماعة مصدرها الله عزّ وجلّ"[١٩].

ولا يخفى على الباحث الرزين أنّ التشريع الإسلامي قد قدّم للبشرية نظامًا متكاملًا في القيم، التي كانت على الدوام، أو يفترض فيها أنْ تكون، دليل المسلم في الحياة، وذلك على أساس أنّ القيم من القضايا المرتبطة في جميع مجالات الحياة، وتبرز على شكل اتجاهات ودوافع وتطلّعات، وتتمظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تتطلّب ارتباط هؤلاء الأفراد والمجتمعات فكريًا وعمليًا على امتداد الحياة وبكل تحدّياتها بمرجعية لا يمكن الحياد عنها، وهي بمثابة الأصول المعيارية التي نحكم بها على الأفكار، والأعمال، والموضوعات، والمواقف الفردية والجماعية، من حيث حسنها وقيمتها والرغبة بها، أو من حيث سوؤها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو في منزلة معينة بين هذَين الحدين[٢٠].

ومن خصوصيات النظام القيمي في الإسلام أنّه مضمون ومحفوظ من خلال أصل الوجود الفكري والعقائدي، والمنظومة التشريعية والقانونية الواسعة في الدين الإسلامي، وأنّها صادرة عن علم إلهي بوساطة الوحي والأنبياء، محيط إحاطة تامة بكلّ شؤون الخلق وحاجاتها الدنيوية والأخروية.

وإنّ ارتباط القيم بمنظومةٍ فكريةٍ وعقديةٍ تتمثّل في الإسلام؛ يجعلها تستمد قوّتها ورسوخها في النفس منه، إذ لا مجال لفهم التشريعات التفصيلية بمعزل عن قيمتها الأم المتمثلة بالبعد العقدي السماوي، التي نستمدّ منه وعلى أساسه رؤيتنا للكون والإنسان.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أننا عندما نتحدَّث عن القيم بهذا المفهوم الواسع والرحب، لا نحصرها بالقيم الأخلاقية، وإنْ شكّلت القيم الأخلاقية محور وغاية بعثة النبي الأعظم

ﷺ بين أنبياء الله "إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق"[٢١]؛ وذلك لأنّ المحتوى التشريعي للنظام الإسلامي، وهو أحكام الشريعة الإسلامية؛ يهدف إلى التربية الشاملة للإنسانية في كل مجالات حياتها ونشاطها، وهذا أعم وأشمل من القيم الأخلاقية. هذا مع التسليم بأنّ التربية الأخلاقية الإسلامية هي منهج متداخل مع جوانب التشريع، وفي جميع مجالات الحياة؛ وذلك لأن التربية الأخلاقية في الإسلام إنما تقوم على تزكية النفس، والتحلّي بمكارم الأخلاق لتصبح طاهرةً نقية، ويكون صلاحها في الفرد عنوان صلاح المجتمع.

وبناءً عليه يتّضح أنّ تحقّق الحياة الطيّبة في المجتمع يجب أنْ يقترن بتحقّق الأصول والأهداف والقيم والمبادئ التربويّة الإسلامية المطلوبة كافة، والحاكمة على تشكيل نمط الحياة الطيّبة، والتي يجب أنْ تكون مرتبطةً ومنسجمةً مع الأصول والمرجعيات المعيارية الآتية:

١. **الربانيّة**: إنّ الله سبحانه وتعالى هو المربّي الحقيقي للبشر، وكافّة الأنشطة والإجراءات التربويّة الهادفة إلى إيصال الإنسان إلى كماله المستعد له، إنّما تتحقّق تكوينًا وتشريعًا في ظل ربوبيّته عزّ وجلّ، وينبغي أنْ تكون النظرة التوحيديّة هي الحاكمة على فكرهم وعملهم، ويجب أنْ تنطلق النظريّات والعمليّات التربويّة من خلال الارتباط بالله تعالى علمًا وعملًا، واستمداد العون من ألطافه تعالى من أجل إيصال الإنسان إلى الربّانيّة، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ **كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** ﴾[٢٢]، وهي القيمة الأعلى للإنسانيّة جمعاء.

٢. **العدالة**: تعدّ العدالة قيمةً أخلاقيةً واجتماعيةً أساسية في النظام الإسلامي. وهي من أهمّ القيم الأخلاقية – الاجتماعية في حركة الإنسان والمجتمع نحو مرتبة القرب من الله. والعدالة من القيم الثابتة الكلية الدائمة الشاملة الراسخة التي لا تقبل أي تغيّر أو تبدّل بحسب الظروف والأحوال والأشخاص والمحيط والبيئة. وتتحقّق العدالة من خلال إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقه، وإعطاء كلّ ذي استعدادٍ ما هو مستعدّ له من الكمالات.

وإنّ العدالة من أهمّ القيم والسمات المميِّزة للتربية الإسلاميّة، وهي عبارةٌ عن إعطاء كل ذيّ حقٍّ حقّه، وإعطاء كلّ ذي استعداد ما هو مستعدّ له من الكمالات، في ضوء منظومة التشريعات والأحكام الإسلاميّة والقيم المستندة إلى الوحي والعقل والفطرة والتجربة، أو المنسجمة معها،

والتي تحدّد للإنسان ما ينبغي فعله، وما لا ينبغي في كافة أبعاد حياته.

٣. الكرامة الإنسانيّة: يتمتّع الإنسان بكرامةٍ ذاتيّةٍ من قبل الله تعالى[٢٣]، والتكريم هو تخصيص الإنسان بالعناية وتشريفه بما لا يوجد في غيره من المخلوقات، فقد خلقه الله عزّ وجلّ في أحسن تقويم[٢٤]، واختاره لحمل الأمانة[٢٥]، وجعله خليفةً في الأرض[٢٦]، وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض[٢٧]... إلخ، والتربية الإسلاميّة تقوم على حفظ كرامة الإنسان الفطريّة، وترفع من منزلته الوجوديّة في الكرامة الاكتسابيّة، أي الكرامة الخاصّة التي يستطيع أنْ يحصّلها الإنسان بوساطة إرادته الحرّة واختياره من خلال سلوك طريق التربية على التقوى[٢٨]، فكرامة المتربّي هي قيمةٌ إنسانيّةٌ وأمانةٌ إلهيّة يجب حفظها من قبل المربّين.

٤. الارتقائيّة: إنّ الكمال الإنساني ليس منزلةً محدّدةً مسبقًا بنحو يولد الإنسان في مرتبةٍ معيّنة، لا يستطيع أنْ يتعدّاها أو يتجاوزها إلى مرتبةٍ أخرى، بل كلّ إنسانٍ قادرٍ على الترقّي والعروج تدريجيًّا في سلّم الكمال الوجودي. ومن مميّزات التربية الإسلاميّة أنّها تأخذ بيد المتربّي في طريق التسامي والارتقاء في مراتب الكمال بما يتلاءم مع استعداداته وقابليّاته، وبذلك يصبح من شأن المتربّين أنْ يختلفوا فيما بينهم في الكمال شدّة وضعفًا، ويتفاوتون في المنزلة الوجوديّة، وكلّما وصل المتربّي إلى منزلةٍ، أمكنه أنْ يحرز مراتب أعلى. وبناءً عليه، على التربية الإسلاميّة أنْ تكون ارتقائيّة بمعنى أنْ تعمل على الانتقال بالمتربّي من مرتبةٍ أدنى إلى مرتبةٍ أعلى على طول خطّ الحياة البشريّة في مسار تكاملي.

٥. العقلانيّة[٢٩]: إنّ اعتماد التربية الإسلاميّة على الارتباط بالله تعالى هو بعينه تفعيل للعقل، ولا يعني تجميد دور العقل في الإنسان؛ لأنّ العقل حجّةٌ باطنة، زوّد الله تعالى الإنسان بها، ودعاه إلى الاستناد إليه، وفي هذا السياق، ينبغي على المربّين تنشيط العقلانيّة في ميدان التربية، وعمليّات التخطيط التربوي، واتّخاذ القرارات، ووضع السياسات والإجراءات التربويّة، فضلًا عن تفعيل العقل الجمعي، وعصف الأفكار، والاستفادة من إنجازات العلوم الإنسانيّة المختلفة، ونتائج الأبحاث والدراسات المتنوّعة التي لها علاقة بتراكم التجربة البشريّة، والتي تنسجم مع النظام المعياري الإسلامي. وعلى المربّين أيضًا الاهتمام بالتفكير العقلاني والنقد لتصوّراتهم وعمليّاتهم التربويّة.

٦. **الحريّة**: ميّز الله ﷻ الإنسان عن سائر الكائنات المشاركة له في الحياة، بأنّه قادرٌ على صناعة هويّته بالإرادة والاختيار، فيما تتصرّف الكائنات الأخرى حسب الطبيعة والغريزة التي فطرت عليها بنحو جبري. والتربية الإسلاميّة تعمل على تنمية ملكة الاختيار وتصليب الإرادة الحرّة عند المتربّي؛ لأنّ جوهر الحريّة عبارةٌ عن سلوك طريق العبوديّة لله بالتحرّر من كلّ ما سوى الله تعالى الذي هو الهدف النهائي للتربية فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "من ترك الشهوات كان حرًّا".[٣٠] وتتحقق الحرية الحقيقية للإنسان من خلال التحرّر من كافة القيود والموانع الداخلية والخارجية أمام تساميه وتعاليه.

وفي الواقع، إنّ حرية الإنسان الحقيقيّة تعني نفي طاعة كلّ ما سوى الله، والعبوديّة والخضوع للكمال والجمال المطلق، أي لا معبود إلا الله. وبعبارةٍ أخرى، الحريّة بمعناها الواقعي تعني إزالة جميع الموانع الداخليّة والخارجيّة لتكامل الإنسان وتساميه، والتحرك الواعي باتجاه تفتح الفطرة الإلهية، وتنمية الاستعدادات الطبيعية، بحيث تستوفي الحرية معناها الحقيقي من خلال الاختيار الواعي.

٧. **التوازن**: إنّ لشخصية المتربّي جوانبًا متعدّدة منها الذهنيّة والوجدانيّة والجسميّة... وغيرها والحياة الإنسانية فيها أبعاد مختلفة: اقتصاديّة وسياسيّة واجتماعيّة وصحيّة...، والتربية الإسلاميّة تعمل على تنمية جميع هذه الجوانب والأبعاد بنحوٍ متوازن.

٨. **الشموليّة**: إنّ الإنسان مخلوقٌ متعدّد الأبعاد، وفي الوقت نفسه هو كلّ منسجم، وحركة تساميه تستلزم التحوّل في مختلف أبعاده الوجوديّة، ومع أنّ المتربّين يختلفون فيما بينهم بالاستعدادات والقدرات، ويتفاوتون في السمات الشخصيّة، والمتربّي نفسه تتعدّد خصائصه بتنوّع مراحله العمريّة، ولكن التربية الإسلاميّة هي عامّة من حيث الأفراد والجماعات والأزمان والأماكن، فهي تشمل جميع أفراد الإنسان وجماعاته، فلا تختصّ بفردٍ دون آخر، ولا بجماعةٍ أو طبقةٍ اجتماعيّةٍ دون أخرى، ولا بمرحلةٍ عمريّةٍ دون أخرى، ولا بزمانٍ دون آخر، أو بيئةٍ مجتمعيّةٍ دون أخرى، ولكنّها تلحظ وتراعي في الوقت نفسه الاختلاف في الاستعدادات والقدرات.

٧. **المرونة**: إنّ التربية الإسلاميّة، بالرغم من انطلاقها من قيمٍ ثابتةٍ ومسلّمةٍ غير قابلةٍ للتبدّل والتغيّر كالعدالة مثلًا، فإنّها في الوقت نفسه مرنة، تأخذ بعين الاعتبار المتغيّرات التي يتعرّض لها الفرد أو المجتمع، وتنظر إلى تبدّل العوامل والظروف والتحوّل الذي يطرأ على البيئة والمحيط، وتتفاعل معها في ضوء المبادئ الثابتة.

٨. **الواقعيّة**: التربية الإسلاميّة تربيةٌ واقعيّة، بمعنى أنّها تربية تنظر إلى قابليّات الإنسان الواقعيّة في إيصاله إلى الكمال المستعدّ له، فلا تحمّل المتربّي فوق طاقته، ولا تكلّفه إلّا على قدر وسعه، كما أنّها تربيةٌ تأخذ بعين الاعتبار ظروف الواقع والمجتمع والبيئة، فلا تطمح إلى ما لا يمكن تحقيقه في الواقع، وتتّخذ القرارات، وتضع السياسات والإجراءات في ضوء معطيات الواقع، وبما يتناسب مع الواقع العملي القائم لذلك.

٩. **الوسطيّة والاعتدال**: تتميّز التربية الإسلاميّة بقيمتي الوسطيّة والاعتدال، فخير الأمور الوسط من دون إفراطٍ ولا تفريط[٣١]، فالوسطيّة هي التي تجعل المتربّي يسلك الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾.[٣٢]

١٠. **الاستمراريّة**: من القيم والسمات الرئيسة للتربية الإسلاميّة الاستمرار من حيث الزمان، فهي تربيةٌ مستمرّة، لا تقف عند مرحلةٍ عمريّةٍ من دون أخرى؛ لأنّ الإنسان مهما بلغ من الكمال لن يصل إلى قمّته وذروته، وخصوصًا أنّ الكمال درجات بعضها فوق بعض، والإنسان يحتاج دائمًا إلى الصعود تدريجيًّا في سلّم الكمال، وهذا ما يتمّ في ضوء التربية الإسلاميّة.

١١. **الانسجام**: إنّ القيم التربويّة التي ينبغي تربية الإنسان عليها، بالرغم من كونها متعدّدةً ومتنوّعة، وكون بعضها ثابتًا وبعضها متغيّرًا، وبعضها غائيًّا وبعضها وسيليًّا، فإنّ هناك انسجامًا فيما بينها في منظومةٍ قيميّةٍ واحدة، وهذا يؤدّي إلى رفع التناقض عن هوية المتربّي أثناء عمليّة التربية على القيم.

المبحث الثاني

المباني والأبعاد النظرية للحياة الطيّبة

نقصد بالمباني النظرية للحياة الطيّبة التي يتمحور هذا البحث حولها؛ مجموعة المباني التي من المفترض أنْ تبنى الحياة الطيّبة وفقها، وتقوم على أساسها وفق رؤيتنا الإسلامية، وهي المباني: الإيمانيَّة، الجهاديَّة، الجسميَّة، الاجتماعية، السياسيَّة، الاقتصاديَّة، البيئيَّة، الإداريَّة، العلميَّة ، الجماليَّة-الفنيَّة. ووجه طرح هذه المباني أنّها تشكّل المنظومة التربوية التي يجب أن يتربّى عليها الإنسان، ولا يقتصر على بُعدٍ دون آخر، إذ حاصل التربية على هذه الأبعاد مجتمعةً يؤسّس للحياة الطيّبة في المجتمع.

أولًا: مباني التربية الإيمانيّة

التربية الإيمانية هي عملية هداية المتربّي إلى الاعتقاد الواعي والاختياري بالدين الإسلامي الحقّ، والإيمان القلبي به، والالتزام العملي بتشريعاته الفقهيّة وقيمه الأخلاقيّة، ببناء خطوط علاقاته مع الله تعالى، والنفس، والآخر (أفرادًا ومجتمعات) ومع العالم والطبيعة، للوصول إلى مقام القرب من الله تعالى، وتحقيق الحياة الطيّبة بجميع مراتبها. وتتكوّن التربية الإيمانية من الأبعاد الآتية: البعد العقائدي، البعد الفقهي، البعد الأخلاقي.

رسم بياني(١): مباني التربية الإيمانية للحياة الطيّبة

ثانيًا: مباني الحياة الطيّبة في الجوانب الأخرى

وتشمل الآتي:

١. مباني التربية الجهادية للحياة الطيّبة

٢. مباني التربية الجسميَّة للحياة الطيّبة

٣. مباني التربية السياسيَّة للحياة الطيّبة

٤. مباني التربية الاقتصاديَّة للحياة الطيّبة

٥. مباني التربية البيئيَّة للحياة الطيّبة

٦. مباني التربية الإداريَّة للحياة الطيّبة

٧. مباني التربية العلميَّة-التقنيَّة للحياة الطيّبة

٨. مباني التربية الجماليَّة للحياة الطيّبة

٩. مباني التربية الفنيَّة للحياة الطيّبة

ثالثًا: تفصيل مباني التربية الإيمانيّة

تمهيد

تتمحور التربية الإيمانية حول معرفة الله والإيمان به، والاعتقاد بالنبوة والتصديق بالمعاد، وسائر الأصول الدينيّة، والاختيار الواعي والحرّ للدين الحقّ كدستور للحياة، والالتزام العملي الواعي والاختياري بالتشريعات الإسلامية في شؤون الحياة كافة، والسعي الدائم لبناء النفس ومعالجتها على أساس النظام لقيمي الإسلامي. ولمّا كان الهدف الأساس للدين هو تنظيم الحياة الإنسانية وهدايتها على صعيد العلاقات الأربعة الأصيلة والثابتة، فينبغي لكلّ إنسانٍ كفرد واعٍ ومسؤولٍ ومختارٍ أنْ يهتم بتلك العلاقات ويحقّقها في حياته، وهي: العلاقة مع الله تعالى، العلاقة مع الذات والنفس، العلاقة مع الآخرين، العلاقة مع الطبيعة والعالم من حوله. وبما أنّ العقل الإنساني والتجربة البشرية بسبب محدوديّتهما وعدم قدرتهما على الإحاطة بجميع الواقعيّات والحقائق المرتبطة بهذه العلاقات، لا يمكنهما تولي مهمّة تنظيمها وتدبيرها بنحو يوصل الإنسان إلى كماله اللائق، كانت الحاجة إلى هداية الوحي الإلهي والدين الحق؛ وعليه

فتخصيص هداية النظام التشريعي الديني ببعض شؤون الحياة دون بعض يتنافى مع الهدف من إنزال الدين كدستور شاملٍ للحياة؛ لذا ينبغي إعطاء أولوية خاصة في الحياة الطيّبة للبعد الإيماني - بأبعاده الاعتقادية، الفقهية، والأخلاقية - بلحاظ أنّ هذا النوع من الحياة، يستقيم بمعرفة الله والإيمان به وعبادته الخالصة، وبمعرفة النفس وتهذيبها، وبالطاعة الواعية لأحكام الدين وقيمه والالتزام العملي بها.

وبناءً على أصالة هدفية الدين في تنظيم حياة الإنسان وفق الرؤية الإسلامية الشاملة، يتمحور الجانب الإيماني للحياة الطيّبة في أبعاد ثلاثة، هي: البعد العقائديّ، البعد الفقهي، البعد الأخلاقي. وتشكّل مجتمعةً المباني النظرية الإيمانية للحياة الطيّبة.

١ .البعد العقائدي (التربية العقائديّة):

إنّ الأبعاد والأصول الإيمانيّة والعقديّة والفكريّة والثقافية، وما يرتبط بها أو يترتّب عليها، والتي يجب أنْ تتربّى وتُبنى عليها شخصيَّة المسلم المؤمن من صفات وخصائص يتفرّد بها وتميّزه عن غيره، ويتجسّد في السلوك العملي للمؤمن في كلّ مجالات الحياة وأبعادها. وهذه الهوية المميّزة للمؤمن بلحاظ ما يمكن أنْ يكون عليه بوساطة إرادته الحرة واختياره، أي الصورة التي يمكن أنْ يصنعها لنفسه في المستقبل ويمكن أنْ يكون عليها. وإنّ العناصر المكوّنة لهذه الشخصية الإيمانية من الناحية العقائدية تستند إلى:

* الإيمان الاختياري لا يقبل الإكراه، بمعنى احترام مبدأ حرية التفكير في البحث عن الحقائق الدينيّة.

* الإيمان المُنجي هو الذي يتبعه العمل الصالح، ما يعني التأكيد على اقتضاء الإيمان للعمل الصالح وتلازمهما، ضرورة تثبيت الإيمان وترسيخه بالعمل الصالح وديمومته ليكون إيمانًا مستقرًا، واعتماد الوعي والاختيار وتحمّل المسؤوليّة كمحددات لدرجات الإيمان، والتوجيه نحو كون حقيقة العمل الصالح تتمثل بالتزام الأوامر والنواهي الإلهية.

* العقل حجّة معرفيّة يدرك الحسن والقبح والكمال والنقص ذاتًا، ولا يقع التعارض بينَ ما يقطع به والنص. وهذا يتطلّب اعتماد مدركات العقل لتحديد الفعل حُسنًا أو قُبحًا، وتنمية

دور العقل في إدراكه للحسن والقبح وتحصينه من الشبهات المانعة عن ذلك، وتأويل أو رفض كل نَصّ مخالف لأحكام العقل القطعي.

* التوحيد الإلهي يتحقّق في ذات الله وصفاته وأفعاله. بمعنى الاعتقاد بالتوحيد الذاتي، أي إنّ الله تعالى واحدٌ أحدٌ لا شريك له في ذاته، ولاتركيب فيه، والاعتقاد بالتوحيد الصفاتي بمعنى أنّ صفات الله الذاتية هي عين ذاته، فهي متغايرةٌ مفهومًا، متّحدة مصداقًا، والاعتقاد بالتوحيد الفعلي، بمعنى أنّ كلّ ما يصدر في الكون هو فعل الله بلا شريك، والاعتقاد بأنّ التوحيد الأفعالي ينسجم مع نظام الأسباب والمسبّبات الحاكم على عالم الوجود، والاعتقاد بأنّ التوسّل والشفاعة وسيلتان للتقرّب من الله، ومنسجمتان مع توحيده. والاعتقاد بأنّ من معاني التوحيد تساوي جميع الناس في العبودية بين يديه تعالى.

* الله تعالى واجد لجميع صفات الكمال والجلال، ومنزَّه عن أيّ نقصٍ وحاجةٍ ومثيل. بمعنى تنزيه وصف الله عزّ وجلّ عن الصفات الكمالية المحدودة للمخلوق، وتنزيه وصف الله تعالى عن صفات النقص، كالجسمانية والحدوث والتغيّر، وتأويل كل ما يتنافى في النصوص الدينية مع كمال الذات الإلهية.

* علم الله مطلق أزليّ، وارادته تتعلّق بكلّ الوجود بدون منافاةٍ مع الاختيار الإنساني. وهذا يستلزم الاعتقاد بتعلّق العلم الإلهي بكلّ ما يجري في هذا الكون قبل الإيجاد وبعده، واستحضار العلم الإلهي والشعور به دائمًا كأهم رادع للإنسان عن ارتكاب المعصية، والاعتقاد بحاكمية الإرادة الإلهية على كل عالم الوجود، وبأنّ الإرادة الإنسانية في طول الإرادة الإلهية، ولا تتنافى معها، وبأنّ اختيار الإنسان مؤثّرٌ في تغيير مصيره، بأنّ حرية الإنسان واختياره مقيّدان بالإرادة الإلهية ونظام الأسباب والمسببات.

* الله تعالى حكيم، لأفعاله غايات لا عبثَ فيها. وهو ما يتطلب ترسيخ الاعتقاد بالحكمة الإلهية من خلال النظر في تناسق الكون وجماله، وتأكيد التكامل في النظام الكوني بين الدنيا والآخرة، والإيمان بأنّ الخير يترتب عن النظام الكوني من حيث المجموع.

* الله تعالى عدل في عطائه وحسابه ولا ظلم في فعله. ما يعني الاعتقاد بأنّ عطاء الله تعالى

عامٌّ لجميع خلقه من دون حظر، وبأنّ الله تعالى لا يكلف نفسًا إلّا على قدر وسعها وما آتاها، والاعتقاد بأنّ الشفاعة تنسجم مع العدل والحكمة الإلهية، ولا بدّ من ترسيخ التوجه نحو التخلّق بأخلاق الله تعالى، لا سيّما صفة العدل.

* الربوبية الالهيّة شاملة لكلّ الوجود التكويني والتشريعي. ما يعني الاعتقاد بأنّ الربوبيّة التشريعيّة من لوازم الربوبيّة التكوينيّة، وبأنّها شاملة لكل أبعاد وميادين الحياة الإنسانية،وترسيخ الاعتقاد بأنّ الربوبيّة الإلهيّة شاملة لكلّ حاجات الإنسان عبر السنن والقوانين والوسائط.

* الكون قائمٌ على قانون السببيّة في الأسباب المادية والغيبيّة. ما يعني الاعتقاد بحاكميّة الأسباب (الأعم من الماديّة والغيبيّة) على النظام الكوني بما يشمل المعجزات والكرامات، مع التأكيد على تقارن الأخذ بكلّ الأسباب الماديّة مع الأسباب الغيبيّة للوصول إليالنتائج.

* الأنبياء معصومون منزّهون عن ارتكاب المعاصي والأخطاء وكلّ ما يسلب الوثاقة بنبوّتهم رسالات، والأنبياء وأشخاصهم دلائل طريق الكمال الإنساني، والمعجزة طريقٌ رئيسٌ مثبتٌ لاتصال الأنبياء بالغيب، وغير متنافٍ مع نظام العليّة.

* النبي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله أكمل الخلق، والأئمّة الاثنا عشر عليهم السلام هم خلفاء رسول الله محمد صلى الله عليه وآله المعصومون المنصوبون بالنص لحفظ الدين وقيادة الأمة.

* الإسلام هو الرسالة الإلهيّة الخاتمة والكاملة والخالدة.

* القرآن الكريم معجزة الله تعالى الخالدة، مصونةٌ من التحريف في الزيادة والنقيصة.

* المعاد جسماني وروحاني معًا، والدنيا مزرعة الآخرة.

* الموت هو حالة انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، وأنّه شروق في نشأة بعد غروب في نشأة، والاعتقاد بأنّ حياة الإنسان تستمر بعد موته في عالم البرزخ، ثم القيامة، ثمالجنة أو النار، وبأنّ الحياة الحقيقية التي تطلبها النفس البشرية هي في الآخرة.

٢. البعد الفقهي (التربية الفقهية):

إنّ طاعة الأولياء الإلهيين، وتوليهم والالتزام بشرائعهم هو الطريق الأفضلُ في سبيل تحقيق الحياة الطيّبة بصورتها التامة والكاملة. يقول الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٣٣)

، ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٣٤] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٣٥]، فإنّ التأسّي بالرسول ﷺ وطاعته واتباعه هي التي تجعل الإنسان يحيا حياةً طيّبة؛ لأنّ الرسول يدعو الفرد أو المجتمع إلى ما يحييه، وعلى هذا الأساس يصبح قبول ولاية الإنسان الكامل الذي يشكل الرسول ﷺ والأئمّة المعصومون صلوات الله عليهم -المصداق الأكمل والأتمّ له-، واجب على كلّ من يريد السير والوصول إلى الحياة الطيّبة؛ لأنّه لا يمكنه الوصول إليها إلّا بهم صلوات الله عليهم. وإنّ الطريق الأقوم بعد تحقّق التربية العقائدية بكلّ عناصرها، لتحقيق هذه الطاعة يكون باتباع الشريعة التي جاؤوا بها، وذلك من خلال التربّي على أنّ:

* المصدر التشريعي الوحيد هو الدين الذي تنحصر مداركه في القرآن الكريم والسُنّة الشريفة، بالإضافة إلى العقل القطعي. ما يعني اعتماد القرآن الكريم كمرجعيةٍ أولى إلى جانب مرجعية السُنّة الشريفة محرزة الصدور لمعرفة التشريعات الإسلاميّة.

* النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام هم القدوة والنموذج، بمقتضى عصمتهم، وحجيّة قولهم وفعلهم وتقريرهم. ما يتطلّب التربية على الاقتداء بالنبي الأكرم ﷺ وآل بيته المعصومين عليهم السلام من بعده، وعلى أنّ السُنّة الشريفة تشمل القول والفعل والتقرير، والاعتقاد بأنّ التقرير يشمل السلوك الفردي الخاص والاجتماعي العام.

* الفقه الإسلامي يستند إلى مصادر التشريع الثابتة والخالدة، ويلبّي الحاجات الانسانية التشريعية كافة، مهما تبدّل الزمان والمكان، والاعتقاد بأنّ الحاجات الفطريّة الثابتة تستلزم وجود أحكام شرعيّة ثابتة، وأنّ مرونة التشريع تفرض تلبية الفقه لحاجات الإنسان الفرديّة والاجتماعية كافة.

* الاجتهاد الفقهي هو السبيل للوصول إلى تحديد التكاليف الشرعيّة في عصر الغيبة، وبالتالي تنحصر المرجعيّة الشرعيّة بالفقهاء. وإنّ مرجعيّة الفقهاء تقتضي توافر شروطٍ مناسبةٍ مع الموقع والدور مثل صفة العدالة والتقوى والورع والزهد والتنزّه عن متعلقات الدنيا والتسلّط على النفس.

* الهدف الأسمى لأحكام الشريعة إقامة الدين، ما يعني تطبيق الأحكام الشرعية على

المستويين الفردي والاجتماعي، والتعبّد بالأحكام الشرعيّة أصل، لقصور العقل غالبًا عن إدراك ملاكات الأحكام (الأحكام التعبّديّة).

٣. البعد الأخلاقي (التربية الأخلاقية):

بعد تحقّق التربية العقائدية بكلّ عناصرها، وفهم متطلّبات التربية الفقهية والالتزام العملي بها، يكون قد اكتمل بُعدانِ أساسيانِ في الشخصية الإسلامية، هما البعد الإيماني العقائدي، والبعد الحقوقي الفقهي، ولتكتمل أبعاد الشخصية في الرؤية الإسلامية عدّ الإسلام البعد الأخلاقي القيمي لا يقلّ أهميةً عن البعدين الإيماني والحقوقي؛ وذلك باعتبار أنّ هذا البعد يحيي في المؤمن جنبة استشعار الرقابة الإلهيَّة الدائمة، فيسعى لتهذيب نفسه، وضبط غرائزها وتعديل مشاعرها وميولها وتقوية إرادتها، ويعمل على حفظ كرامته، وعزّة نفسه، واكتساب الفضائل؛ ومن جملتها التقوى والعدالة والصدق والعفة والحياء والصبر والحلم والشجاعة والقناعة، وحفظ النعم، وتكريم الوالدين والعلماء والمعلّمين، وخدمة الناس، وتثمين الحياة الأسرية وحسن المعاشرة، والإحسان والمداراة والإيثار والرأفة والاحترام، والعيش الحلال، والاستقلال، والإدارة والتخطيط لأموره الشخصية والحياتيّة والعملية، والنظم والانضباط. ويعمل بجد على الوقاية من الرذائل ومن جملتها؛ حب الدنيا، والظلم، والجهل، والعصبية المذمومة، والخمول، وإضاعة الوقت والنفاق والضعف والتكبّر. ولهذا كان من الواجب والضروري العمل لتحقيق الأبعاد الثلاثية للشخصية، ولا يكون ذلك إلا بفهم متطلّبات التربية الأخلاقية، وذلك من خلال الاستناد إلى المبادىء والأصول الآتية:

* يتمتّع الإنسان بتكريمٍ إلهيّ خاصٍّ بين المخلوقات، ما أهّله لحمل الأمانة الإلهية، وهو ما يتطلّب الحفاظ على العقل، والعمل على تنميته، كمعيار للتكريم الإلهي للإنسان، وتوظيف العقل بنحو يكون أساسًا لعبادة الرحمن، واكتساب الجنان، والعمل بالتكاليف الإلهية كسببٍ موصِلٍ إلى تحقيق الهدف الذي خُلِق الإنسان لأجله، وحفظ الإنسان، وصيانة الكرامة الإنسانية.

* الإنسان لديه قابليّة التكامل الاختياري الأعلى بين المخلوقات، ما يستلزم الاستفادة من القابليات كافة في سبيل الوصول إلى الكمال وتحقيق الأهداف، والسعي في التكامل في جميع

أبعـاد الهويّـة الإنسـانيّة.

* التكامـل متـاحٌ للإنسـان في شـتّى الظـروف، مـا يسـتدعي تربيـة الإنسـان عـلى أنّـه أقـوى مـن الظـروف (السـلبية) المحيطـة بـه ويسـتطيع التغلّـب عليهـا، وتقويـة الإرادة الإنسـانية في مواجهـة الظـروف السـلبية المختلفـة، والتأكيـد عـلى تحمّـل الإنسـان مسـؤولية أفعالـه الاختياريـة في كافـة الظـروف.

* تشـكّل التنشـئة الاجتماعيـة عامـلًا مؤثّـرًا بنحـوٍ غـير قاهـرٍ في تكامـل الإنسـان أو تسـافله. مـا يتطلـب العمـل عـلى خلـق بيئـةٍ صالحـةٍ للتربيـة السـليمة للإنسـان، وسـعي الإنسـان نحـو تغيـير البيئـة الفاسـدة الموجـودة، والحـدّ مـن تأثـير البيئـة الفاسـدة المؤثّـرة عـلى الإنسـان عنـد عـدم إمكانيـة تغييرهـا.

* النفـس الإنسـانية ميـدان التجـاذب بـين القـوى العقليـة والشـهوية والغضبيـة والوهميـة، وانتصارهـا يكـون باعتـدال القـوى الثـلاث بخضوعهـا للعقـل والـشرع. وهـذا يسـتدعي الاسـتفادة مـن جميـع قـوى النفـس، وعـدم تعطيلهـا في خـط طاعـة الله عزّ وجلّ، وجعـل العقـل قائـدًا للقوّتـين الشـهويّة والغضبيّـة، ومتحكّـمًا بهـما، ومسـيطرًا عليهـما، وإخضـاع قـوى النفـس للعقـل بـما يضمـن تحقيـق مصلحـة الإنسـان وسـعادته في الدنياوالآخـرة.

* الالتـزام بالقيـم والتشريعـات الدينيـة في عمليـة اعتـدال قـوى النفـس، وقيـادة العقـل لسـائر القـوى. وخلـق حالـة التـوازن والاعتـدال بـين قـوى النفـس المختلفـة، وتعريـف المتربّـين عـلى معيـار الوسـطية والاعتـدال بـين قـوى النفـس المختلفـة.

* تحتـاج النفـس في تكاملهـا - بتطويـع العقـل لسـائر القـوى - إلى تدبـير خالقهـا وذلـك باتبـاع التعاليـم الإلهيّـة لوصـول النفـس إلى كمالهـا، والعمـل عـلى أن تكـون الأفعـال الأخلاقيّـة بنيّـة التقـرّب إلى الله تعـالى، والتربيـة عـلى أنّ التدبـير الإلهـي في إيصـال الإنسـان إلى كمالـه يشـمل عالمـي التكويـن والتشريـع.

* ظاهـر الشريعـة هـو معيـار تزكيـة النفـس، والميـزان الصحيـح لتكامـل الإنسـان، وهـذا يسـتدعي التعـرّف عـلى طريـق الكـمال بالعـودة إلى مصـادر التشريـع، والتمسّـك بظاهـر الكتـاب والسـنة،

للتعرّف على الطرق والسبل السليمة لتزكية النفس،واتباع منهج الفقهاء المعتمد على ظواهر الشريعة، والحذر من الابتعاد أو الميل عن ظاهر الشريعة نحو التأويلات والاستحسانات الذوقية.

* تزكية النفس فعل مستدام يرافق الإنسان في كلّ مراحل حياته، وهو محور كلّ القضايا الدينية والأخلاقيّة، ويتطلّب مشارطة النفس ومراقبتها ومحاسبتها مهما بلغ الإنسان من درجات العلو الأخلاقي، والتذكير المستمر للنفس بأنّ الغرض الأساس من التشريعات والقوانين، هو البناء الصحيح للنفس، والسعي الدائم لتزكية النفس في بعديها الفردي والاجتماعي.

* الغاية من تزكية النفس الوصول إلى مقام عبودية الله تعالى وحده. ما يعني استحضار هدفيّة العبوديّة لله تعالى في جميع مراحل تزكية النفس، والتربية على أنّ تزكية النفس ليست هدفًا بحدّ ذاته.

* التكامل الإنساني لا يتمّ إلا بالتوازن بين تزكية النفس والمسؤولية الاجتماعية. ما يتطلّب الاهتمام بالمسؤولية الاجتماعية، وعدّها وسيلةً لتزكية النفس، واعتبار التخلف عن القيام بالمسؤوليات الاجتماعية من موانع التزكية الصحيحة للنفس، والامتناع عن اتخاذ تزكية النفس ذريعةً للاعتزال والرهبانية، والامتناع عن عدّ القيام بالدور الاجتماعي عائقًا أمام تزكية النفس.

* تزكية النفس تستنزل الهداية الإلهيّة الخاصة، ما يعني الاستعانة الدائمة بالله تعالى على الهداية، والعمل الصادق على مجاهدة النفس وتزكيتها، كطريقٍ للحصول على التوفيق الإلهي والهداية الربّانية في مسيرة التكامل.

* للأخلاق جذورٌ فطريّةٌ مُودَعة في نفس الإنسان، بالتأكيد على أنّ كافة النظم الأخلاقيّة الإسلاميّة تتناسب مع فطرة الإنسان، وأنّ الأخلاق الإسلاميّة ثابتة لثبات الفطرة الإنسانية، وضرورة مراجعة الفطرة الإنسانية في تمييز المعايير الأخلاقية الصحيحة.

* قوام التربية الأخلاقيّة إيجاد الحصانة الأخلاقيّة المتغلبة على المؤثرات الخارجية. وذلك بتوفير البيئة المانعة واللازمة للتحصين الأخلاقي على المستويين الفردي والاجتماعي، وتطوير أساليب التحصين الأخلاقي بما يتناسب والظروف المحيطة، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر كآليّتين لإيجاد الحصانة الأخلاقيّة في المجتمع.

* ليس للشيطان سلطان قهري على النفس، وإنّما ينفذ من خلال إغواء النفوس الضعيفة. وهو ما يستدعي التعرّف على أساليب الشيطان وحبائله، وتقوية روحيّة القدرة والاستطاعة بالتغلب على وساوس الشيطان.

* الأسوة والقدوة الحسنة عامل أساس في التربية الأخلاقيّة. وذلك من خلال التعرّف على النماذج السلوكية والقدوات الإسلاميّة الحسنة للاقتداء بهم، واتخاذ النبي الأكرم ﷺ والمعصومين عليهم السلام قدوات حسنة للتأسي بهم في كل زمان ومكان.

رابعًا: تفصيل بقية مباني الحياة الطيّبة

مدخل

ذكرنا في طيّات هذا البحث أنّ المباني النظرية للحياة الطيّبة التي يتمحور حولها هذا البحث ترتبط بالمنظومة التي تشكّل محور تربية الإنسان في الأبعاد العشرة، وبنائه وفق رؤيتنا الإسلامية، وعلى رأسها ما يتعلّق بالبعد الإيماني من النواحي العقائدية والفقهية والأخلاقية، وقد تمّ الكلام حوله، واستكمالًا لعناصر هذه المنظومة نستكمل البحث في بقية المباني، وهي: الإيمانيَّة، الجهاديَّة، الجسميَّة، الاجتماعية، السياسيَّة، الاقتصاديَّة، البيئيَّة، الإداريَّة، العلميَّة، الجماليَّة- الفنيَّة.

١. **البعد الجهادي**: الناظر إلى الجهاد الأصغر في مقاتلة العدو، والدفاع عن الأمّة الإسلامية ومقدّساتها، وإحياء الحق وإقامة العدل، باعتباره فريضة إلهيّة، تستمدّ مشروعيّتها من كتاب الله تعالى، وسنّة النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام. ونقصد بالتربية على وفق البعد الجهاديّ (الجهاد الأصغر)، عمليّة تشكيل هويّة المجاهد المؤمن بالله تعالى وقدرته ودفاعه عن الذين آمنوا، ونصره لهم، والممهِّد لدولة العدل، والمتميّز بمواصفات ذهنيّة ونفسيّة ومسلكيّة خاصّة، تُهيِّئُه للتكيّف مع مختلف بيئات العمل الجهادي وظروفه الصعبة. وللتربية الجهادية العديد من العناصر، من أهمّها:

* **الأوّل**: إنّ الله تعالى قويّ عزيز، يدافع عن الذين آمنوا، وهو على نصرهم لقدير، وأنّه تعالى لا يخلف وعده بنصر المؤمنين الذين ينصرونه.

* **الثاني**: يقوم الجهاد على بذل أقصى الجهد في إعداد القوّة، والأخذ بأسبابها في مختلف الأبعاد الجسميّة والماديّة، والسعي إلى امتلاك كلّ أسباب القوّة الممكنة والمتاحة المتناسبة مع مقتضيات العمل الجهادي، وتعزيز الإيمان بأنّ التدريب والتأهيل عامل ضروري، لتشكّل هويّة المجاهدين وتساميها، ومقدّمة رئيسة للعمل الجهادي.

* **الثالث**: غاية الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى، وإحياء الحقّ، وإماتة الباطل، وإقامة العدل، والدفاع عن المظلومين، لتحقيق مراتب الحياة الطيّبة، وإقامة العدل والقسط في الأرض، ومقارعة الظلم والجور، والدفاع عن مصالح الناس، والحفاظ على كرامتهم وحريّتهم واستقلالهم، وحماية الوطن، والحفاظ على ثرواته ومقدراته وسلامة أبنائه وأراضيه.

* **الرابع**: السنن الإلهيّة والمدد الغيبي ركيزة أساسيّة في العمل الجهادي، وعليه فإنّ مقدّمات العمل الجهادي تكليف إلهي للمجاهدين والنتائج بيد الله تعالى، والعمل في ضوء ذلك، والإيمان بأنّ النصر والغلبة غير مرتبطين بقوّة العدّة والعدد فقط، بل التوكّل على الله تعالى، والتحلّي بالصبر، والشعور بالمعيّة الإلهيّة للمجاهدين الصابرين، والإيمان بالتسديد الإلهي في ميدان المعركة.

* **الخامس**: الجهاد ركن رئيس في الانتظار الإيجابي والتمهيد لدولة صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف. وهو ما يتطلّب الارتباط الروحي بصاحب العصر والزمان، والتعامل مع كلّ جهد يُبذل في العمل الجهادي، كمقدّمةٍ لتعجيل ظهوره الشريف.

* **السادس**: تشكّل التجربة الجهاديّة للنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام نموذجًا للعمل الجهادي، وهو ما يتطلّب تحصيل المعرفة بالسيرة الجهاديّة للرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله، والأئمّة الأطهار عليهم السلام في حروبهم المتعدّدة، والإحاطة بالمفاهيم والقيم التي أرساها النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمّة الأطهار عليهم السلام في تجربتهم الجهاديّة في مختلف المراحل والظروف، والاقتداء بأخلاقيّات القتال التي مارسها النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام في حروبهم وغزواتهم.

* **السابع**: يستمدّ الجهاد روحيّته من النموذج المشرق للجهاد الحسيني الكربلائي؛ ولذا وجب تعزيز الارتباط الروحي والجداني بالإمام الحسين عليه السلام والاقتداء بشخصيّته النموذجيّة والقياديّة في كافّة أبعادها، واستلهام العبر والقيم العاشورائيّة، لا سيّما التضحية والإيثار والتسليم بمشيئة الله تعالى، والرضا بقضائه في حياتنا الجهاديّة.

* **الثامن**: البناء الثقافي والروحي القيمي للمجاهد ركيزة أساسيّة في العمل الجهادي. وإنّ التميّز على مستوى المواصفات الذهنيّة والمسلكيّة في الأفراد المجاهدين، وخصوصًا القادة الجهاديّين، حاجة ضروريّة للعمل الجهادي. وهو يتطلب تحقيق التوازن والاعتدال على مستوى الصفات الذهنيّة والمسلكيّة. والتحلّي بالانضباط، وحسّ المسؤوليّة، وطاعة الأوامر والتكاليف كافّة.

* **التاسع**: البصيرة من أهمّ مقتضيات العمل الجهادي؛ ولذا يجب تحصيل البصيرة بالأهداف المحدّدة، وتشخيصها بشكل واضح، والتعرّف إلى العدو وتاريخه وأهدافه وأساليبه ووسائله وقدراته، واليقظة الدائمة تجاه مؤامراته ومخطّطاته في مختلف الساحات.

* **العاشر**: يتقوّم العمل الجهادي بإعداد وتأهيل المجاهدين والمضحّين وأسرهم لحياة أسريّة طيّبة، ورعايتهم وحفظ كرامتهم من قبل المجتمع.

* **الحادي عشر**: الجهاد ميدان عبادة وساحة امتحان إلهي للمجاهدين، والتعامل مع ميدان الجهاد على أنّه فرصةٌ لتزكية النفس وإصلاحها والتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

* **الثاني عشر**: النصر هدف للعمل الجهادي، وتوفيق إلهي يفيضه الله تعالى على من ينصره.

* **الثالث عشر**: الشهادة كرامة من الله تعالى، وعاقبة حُسنى للمجاهدين، ما يتطلب الاستعداد الدائم لنيل الشهادة بالتقرّب من الله تعالى، والدعاء إليه بحسن العاقبة. والاعتزاز والافتخار بالشهيد، والحزن عليه بعين الرضا بقضاء الله تعالى وقدره.

٢. **البعد الجسمي**: الناظر إلى الحفاظ على السلامة والصحّة الجسميّة والنفسيّة للذات وللآخرين، والارتقاء بها وبهم، تعزيز القوى الجسميّة والنفسيّة، مواجهة عوامل الضعف والمرض، والحفاظ على البيئة واحترام الطبيعة. ونقصد بالتربية الجسمية عملية تكوين المعرفة

لـدى المتربّين بطبيعـة أجسـامهم وحاجاتهـا، وتهيئـة الأرضيـة والظـروف المناسـبة، لرعايـة أجسـامهم ووقايتهـا وتهذيبهـا، وتطويـر قدراتهـم ومهاراتهـم الجسـمية، وتلبيـة حاجاتها، بشـكلٍ صحيّ وسـليم، يؤمّـن تـوازن القـوى الجسـمية وتكاملهـا إلى جانـب الملـكات النفسـيّة. وتتشـكل مـن العديـد مـن العنـاصر، مـن أهمهـا:

*الأول: الإنسـان مخلـوقٌ ومملـوكٌ لله تعـالى، ومؤتمـنٌ عـلى تلبيـة حاجاته الجسـمية الفطريـة، وكذلك رعايـة جسـمه وتهذيبـه وتطويـره بـما ينسـجم مـع النظـام القيمـي الإسـلامي، وهـو مـا يتطلّـب تكوين المعرفـة لـدى الفـرد بالحاجـات الفطريـة لجسـمه ومتطلّباتـه، وكيفيـة إشـباعها وترسـيخها سـلوكيًا، بـما ينسـجم مـع النظـام المعيـاري الإسـلامي.

* الثـاني: الإنسـان موجـود لـه بعـدان؛ جسـمي وروحـي، والعلاقـة بينهـما تفاعليـة، فكـما أنّ القـوى والفضائـل المعنويـة للإنسـان تسـهم في التربيـة الجسـميّة، فـإنّ التمرينات والأنشـطة الجسـميّة المختلفة تسـهم في تقويـة هـذه الفضائـل، وتزكّيهـا، وتهذبهـا. وهـذا يسـتدعي تعزيـز العـادات والسـلوكيات الاجتماعيـة التـي تسـاهم في التربيـة الجسـميّة، والعمـل عـلى تعديـل وتقويـم العـادات والسـلوكيات المضرّة بهـا وتعديلهـا.

* الثالـث: الإنسـان مخلـوقٌ يمتلـك إمكانـاتٍ جسـميّة طبيعيّـة متعـددة ومتنوعـة، وعنـده اسـتعدادات ومميـزات جسـميّة مشـتركة، وأخـرى تختلـف مـن فـرد إلى آخر. وهـذا يتطلـب تطويـر ثقافـة الفـرد ونظرتـه إلى ذاتـه بأنّـه يمتلـك إمكانـاتٍ جسـميّة طبيعيّـة ومتعـدّدة ومتنوّعـة، وتعزيـز اتجاهاتـه نحـو تنميـة تلـك القـدرات.

* الرابـع: إنّ التـوازن والاعتـدال في ميادين تربيـة الإنسـان الجسـميّة كافـة مـن أهـمّ مميـزات الحيـاة الطيّبـة في أبعادهـا المختلفـة.

* الخامس: إنّ سلامة البعد الجسميّ للإنسان، مدخل أساس لسلامة البعد العقلي والروحي.

* السادس: الرياضة الدائمة، والتمرينات العملية المستمرة، تقوّي البعد الجسمي للإنسان.

* السـابع: توجـه الأحـكام والآداب الإسـلامية الإنسـان للمحافظـة عـلى سـلامته الجسـمية، والوقايـة مـن الأمـراض بـكل أنواعهـا.

* **الثامن**: تُشكل التربية الجسميّة مدخلًا لمعالجة كثيرٍ من المشكلات الاجتماعية أو النفسية، فضلًا عن المشكلات الصحيّة.

٣.**البعد السياسي**: الناظر إلى التفاعل اللائق مع مؤسّسات الحكومة وسائر المؤسّسات المدنيّة والسياسيّة (مراعاة القانون، تحمّل المسؤوليّة، المشاركة الاجتماعية والسياسيّة، الحفاظ على القيّم الاجتماعية)، واكتساب العلم والأخلاق الاجتماعية والمهارات التواصليّة والحياتية ومهارات التفكير، وذلك على أساس أنّ العمل السياسي هو جزء لا يتجزأ من العمل الرسالي الإيماني الجهادي الذي يهدف إلى خدمة الناس، وإدارة شؤون العباد والبلاد، للسير بهما نحو تحقق الحياة الطيّبة.

ونقصد بالتربية السياسية عملية بناء المتربّي المعتقد بحاكمية الله تعالى، المرتبط بالمرجعية الدينية، كامتداد لخط النبوة والإمامة فكرًا وممارسة، لتشكيل الوعي والبصيرة السياسية التي تمكّن المتربّي من المشاركة الفعّالة في الحياة السياسية، وتنمية الحسّ الوطني عنده في عين اهتمامه بقضايا الأمة والمستضعفين. وتتشكل من مجموعة عناصر، أهمها:

* **الأول**: الإيمان بحاكمية الله تعالى فكرًا وممارسة، والإعتقاد بأنّ خط النبوة من النبي آدم (عليه السلام)، وصولًا إلى خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله) يجسّد حاكمية الله تعالى في الحياة الإنسانية، والإلتزام بخط الإمامة والولاية، وتعزيز الشعور بالمسؤولية تجاه الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

* **الثاني**: إنّ الدولة في الإسلام دينية شعبية، تستند في شرعيتها إلى الحاكمية الإلهية (المعصوم، والنص)، وتعتمد في مقبوليتها وتحقّقها الفعلي على الإرادة الحرَّة للشعب، وتفترض المسؤولية الوطنية إقرار المشاركة الشعبية كحقٍّ لكلّ مواطنٍ يمكن أنْ يشعر من خلالها بقيمته الإنسانية، وبقيمته الوطنية، وبحقّه في التعبير.

* **الثالث**: إنّ الحق والعدالة والحرية من أهم القيم السياسية الثابتة في ضوء النظام الإسلامي، وهذا يستلزم التخلّق بالعدالة كقيمةٍ رئيسةٍ بكلّ أبعادها المتنوعة (الشرعية – السياسية – الإقتصادية– الاجتماعية...)، وعدّها غايةً رئيسة، يتمّ بسطها على المستوى العالمي ضمن سياق نظرتنا للدولة العالمية الموعودة مع الإمام الحجّة (عجل الله تعالى فرجه الشريف). وتبنّي القضايا الخاصة بحقوق الإنسان

وفق معاييرنا الإسلامية، وفي طليعتها حقّه بالحرية المسؤولة، لا سيما حرية التعبير.

* **الرابع**: تشكّل الهوية منشأً لـ فرادة الإنسان أو تنوّعه، ضمن جماعات وقوميّات وإثنيات وحضارات، وهي ليست معطى نهائيًا يتخذ شكلًا واحدًا، بل متحرّكة تتسع وتضيق.

* **الخامس**: ضرورة التأكيد على أنّ الهوية الإنسانية والعربية والوطنية لا تتعارض مع الهوية الإسلامية والإيمانية (وهي طولية وليست عرضية). والتمسّك بقيمة التنوّع في الهويات، بوصفها مصدر غنىً وعطاءٍ بنّاء، ومنشأ للوحدة والتماسك، وإطارًا لتفاعل العقول والأرواح والمشاعر.

* **السادس**: لا تعارض في هويتنا السياسية بين انتمائها الوطنية وانتمائها الديني من جهة، وبين انتمائها الوطنية وانتمائها إلى أمتها من جهة أخرى، فهي هوية منفتحة على أبعادها المتنوعة من وطنية وقومية وإسلامية وإنسانية. وهو ما يتطلب الاعتصام بحبل الله والوحدة بين مختلف أبناء المذاهب الإسلامية. ورفض التفرقة وإثارة النعرات الطائفية والإثنية والمذهبية. والوقوف في وجه التجزئة ومحاربة محاولات تفكيك الأوطان والدول العربية والإسلامية.

* **السابع**: يشكّل الجهد والدفاع المقدّس قاعدتين مركزيتين لسياستنا الدفاعية، وخطابها لاستنهاض الأمة وتحريرها من مشاريع الهيمنة والإحتلال والإرهاب.

١. البعد الاجتماعي

يتناول هذا البعد عمليّة تشكيل هويّة المتربّين المتبصّرين بقيم مجتمعهم وآدابه وعاداته وتقاليده، المتحلّين بالقيم واللّياقات والآداب الاجتماعية الحسنة، والذين يتحمّلون مسؤوليّتهم الاجتماعية، ويقومون بدورهم ووظيفتهم، ويشاركون بفعاليّة في بناء المجتمع الإسلامي الصالح، في ضوء روابط الأخوّة الإيمانيّة والنظائريّة في الخلقة الإنسانيّة. وتتكون من مجموعة من العناصر، من أهمها:

* **الأوّل**: تكوين المجتمع وتشكيل المؤسّسات المجتمعيّة حاجةٌ رئيسة للناس، وضرورةٌ لبناء الحضارة الإنسان، وهذا يستدعي تحمّل الفرد المسؤوليّة المجتمعيّة، والعمل على إصلاح مجتمعه والمشاركة الفاعلة فيه. واحترام تقاليد المجتمع وعاداته، بما ينسجم مع النظام الإسلامي وإبراز المظاهر الإسلاميّة في أنماط الأنشطة الاجتماعية وأنواعها وإيجاد البيئة المكانيّة والفكريّة والثقافيّة

التي تؤسّس لنموذج حضاري إسلامي في بعدها الاجتماعي، والعمل على دعمها وتطويرها.

* **الثاني**: تشكّل الأسرة النواة الأولى لبناء مجتمعٍ متماسكٍ وسليم. وهذا يتطلب بناء أسرةٍ متماسكة، ورعايتها وصيانتها من مختلف المشكلات والمفاسد التي تعترضها. وتعزيز القيم والتشريعات الإسلاميّة في العلاقات الأسريّة وتمكينها من القيام بوظائفها، وقيم الإحسان والبر والطاعة والاحترام للوالدين والرفق والرحمة والعطف على الأبناء، والاهتمام ببناء هويّتهم في كافة الأبعاد، وقيام الروابط الأسريّة بين الأخوة والأخوات على المحبة والاحترام المتبادلين، وتعزيز التكامل بين أدوار كل من الزوج والزوجة في الأسرة ومشاركتهما معًا في التربية الأسرية.

* **الثالث**: يقوم المجتمع على مبدأي التعاون في المنافع والحاجات، والاشتراك في العقائد والأهداف، وهو يتطلب تعزيز قيم التعاون والتعاضد والتآزر في مختلف الفعاليات الاجتماعية، بما يؤدّي إلى التكامل في عمل المؤسّسات والأفراد. وتعزيز العمل التعاوني في مختلف الفعاليّات الاجتماعية، وتعزيز مبدأ التكافل الاجتماعي بين مختلف أفراد المجتمع ومؤسّساته، لأجل التكامل الداخلي للمجتمع. والعمل التطوّعي وروحيّة العمل الجماعي والمبادرة الاجتماعية لدى مختلف أبناء وشرائح المجتمع، وإيجاد الأطر والآليات والأساليب والطرق المسهّلة لذلك.

* **الرابع**: إنَّ التنوّع أو التعدّد في المجتمعات البشريّة سُنّةٌ طبيعيّة، وهدف الإسلام توحيدها تحت كلمة التوحيد، وتقوم العلاقات الاجتماعية على قاعدتَي الإخوة والنظائرية وتراعي مبدأي القسط والبر. وهو ما يتطلّب تربية أبناء المجتمع البشري على القيم الإنسانيّة المشتركة، كقيم: التراحم، والألفة، والبرّ، إلخ...

* **الخامس**: إنّ دين الحقّ (أي الإسلام) يملك النظام الاجتماعي الأصلح لقيادة المجتمعات البشريّة نحو الحياة الطيّبة في جميع أبعادها (الفرديّة والاجتماعية، والماديّة والروحيّة).

* **السادس**: المجتمعات البشريّة متغيرةٌ تسير إمّا نحو التسامي والتكامل، وإمّا نحو الانحطاط والتسافل، ويشتمل كمال المجتمع وسعادته على البعدَيْن: الروحي والمادي تحت مظلّة السعي للقرب من الله تعالى.

* **السابع**: السنن الإلهيّة الاجتماعية[٣٦] حاكمةٌ على حياة المجتمعات البشريّة، والمجتمع

قادر بالبصيرة والعمل الجادّ المصاحب للإيمان والتقوى والاستغفار على إحداث التحوّلات والتغيّرات المطلوبة لخدمة أهدافه.

* **الثامن**: يشكّل المجتمع عاملًا مؤثّرًا في مسيرة تسامي الفرد وتكامله، من دون أنْ يكون عنصرًا جبريًّا له في عقائده وقيمه ومواقفه وخياراته في الحياة. وهو ما يتطلب العمل على توفير البيئة الاجتماعية الصالحة لتربية الأفراد على العقائد، والقيم السليمة. وتقوية الإرادة الفاعلة لأبناء المجتمع على مواجهة كافّة الظروف المؤثرة سلبًا، وعدم الانهزام أمام مؤثرات المجتمع الفاسدة. وتعزيز روحيّة القدرة على إحداث التغييرات المطلوبة في المجتمع، بما يضمن مسيرة تكامله، وتساميه.

* **التاسع**: يتحمّل المجتمع مسؤولية أفعاله خيرًا أو شرًّا من زاوية الروح والإرادة الواحدة، والأجيال المتعاقبة فيه تؤثّر بعضها بالبعض الآخر، كتأثير عمل الجيل السابق على الجيل اللاحق.

* **العاشر**: إنّ بناء المجتمع التوحيدي، والتقوائي، وتكوين المجتمع المجاهد (بقسمَيْه: الأكبر والأصغر) من أهم أهداف النظام القيمي الإسلامي. ما يتطلّب التربية على التقوى الاجتماعية كضابطةٍ حاكمةٍ على مختلف العلاقات الاجتماعية والسلوكيات المشتركة. وتعزيز دور الأفراد والمؤسّسات في عملية المواجهة المفتوحة للحرب الناعمة وأدواتها المتنوّعة.

* **الحادي عشر**: يقوم المجتمع الإسلامي على رابطة العقيدة والأخوة الإيمانيّة بين أبنائه، وجعل التقوى والإيمان معيارَيْنِ مهمين وأساسيين للتفاضل عند الله تعالى بين أبناء المجتمع. والابتعاد عن التفاضل على أساس روابط الدم، والجغرافيا، والعرقواللون، واللغة...ورفض كافّة أشكال التمييز العنصري بين أفراد المجتمع.

* **الثاني عشر**: تُعدّ العدالة الاجتماعية القيمة الأهم في حركة المجتمع نحو تحقيق مراتب الحياة الطيّبة.

* **الثالث عشر**: يشكّل الأمن الاجتماعي بكافة أبعاده مظهرًا رئيسًا للحياة الطيّبة.

* **الرابع عشر**: الاقتداء بالمثل العليا والقدوة الحسنة حاجة ضروريّة للمجتمع في وصوله إلى الحياة الطيّبة. بالتمسك بالسيرة الاجتماعية للنبيّ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام فكرًا وممارسة..التآسي

بالقدوات والأسوات الحسنة. ومواجهة النماذج السيّئة والقدوات المزيّفة، مثل: نجوم السينما، وأبطال الرياضة، والمطربين.

* **الخامس عشر**: تسير المجتمعات الإنسانيّة نحو تشكّل مجتمع عالمي واحد يسود فيه العدل والقسط والأمن، ويرتفع منه الظلم والجور والخوف. وتعزيز التربية التي تكسب روح الأمل الواعد بالتغيير الحتميّ للمجتمع في المستقبل نحو الصلاح والعدالة.

٤ .**البعد الاقتصادي**: الناظر إلى تنمية القدرات الإنسانية في تدبير أمر المعاش والجهد الاقتصادي والمهني (إدراك وفهم المسائل الاقتصادية، إدراك وامتلاك المهارة المهنيّة، الالتزام بالأخلاق المهنيّة، القدرة على الإبداع، اجتناب البطالة، مراعاة الإنتاجية، السعي للحفاظ على يالثروة وتنميتها، الاهتمام بنشر العدالة الاقتصادية، مراعاة قوانين التكسّب والعمل، أحكام المعاملات، والالتزام بالأخلاق والقيم في العلاقات الاقتصادية).

ونقصد بالتربية الاقتصادية عملية ربط المتربّي بمالكية الله تعالى للكون فكرًا وممارسة، وتشكيل الوعي الإقتصادي، وتعزيز روح المقاومة الإقتصادية لديه، وهدايته للإلتزام بالتشريعات والقيم الاقتصادية الإسلامية في كافة معاملاته الإقتصادية والمالية إنتاجًا وتوزيعًا واستهلاكًا، وتشجيعه على تضمين أنشطته الإقتصادية أهدافًا رسالية تسهم في الدعوة إلى الدين، والترغيب فيه ويتضمّن العديد من العناصر من أهمها:

* **الأول**: الإنسان (فردًا وجماعة) مستخلَف من قبل الله عزّوجلّ في الأرض، وعلى خيراتها، ومكلّف بعمارتها، ومسؤول أمام الله والناس عنها. وهو ما يلزم الإنسان (المستخلَف) أنْ يتصرّف في الأرض وخيراتها (المستخلَف عليه) وفق إرادة الله تعالى (المستخلِف)، ويلتزم بالتعاليم والتشريعات التي حدّدها له. وبالإستخدام الأمثل (الإستثمار الأمثل) للموارد الطبيعية، والاستفادة منها بالمقدار الذي يحقق الكفاية .وتقوية حسّ المسؤولية في التعاطي مع الموارد المادية المالية باعتبارها أمانة إلهية مسخّرة لخدمة الإنسان ورقيّه ورفاهيّتهِ، وتحقيق كماله، ولتحقيق الأهداف الإلهية. (عدم التبذير والإسراف وتلف الموارد المالية والمادية الخاصة والعامة).

* **الثاني**: الإنسان هو هدف النشاط الإقتصادي، وتشكّل العدالة محورًا من محاور خلافته في الأرض، والقيمة العليا التي تنبثق منها الحقوق الاجتماعية والإقتصادية وتراعيها.

* **الثالث**: يُشكل القرآن الكريم، وسُنّة النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، والدليل العقلي القطعي، المرجعيات الوحيدة التي تعبّر عن حاكمية الإسلام في التشريعات والقوانين والسياسات والقيم الإقتصادية والتنموية.

* **الرابع**: يقوم السلوك الإقتصادي للوحدات الاجتماعية المختلفة إنتاجًا وتوزيعًا واستهلاكًا على المبادئ الإنسانية والقيم والفضائل الأخلاقية والتشريعات الإسلامية.

* **الخامس**: يحترم الإسلام حرية الأفراد في تحديد خياراتهم الإقتصادية بما يوافق الأحكام والقيم الإلهية ومنظومة الحقوق الإسلامية التي تراعي عدالة التوزيع، وتحقق التوازن بين المصلحتين العامة والخاصة.

* **السادس**: كلّ عملٍ منتجٍ ومتقنٍ ويوافق الأهداف والتشريعات والقيم الإسلامية يرقى إلى مرتبة العبادة، ويحقّق هدفًا من استخلاف الإنسان في الأرض من قبل الله عزّ وجلّ.

* **السابع**: تقوم العملية الإقتصادية والتنمية في المجتمع الإسلامي على أساس رؤية الاقتصاد التعاوني، وهو ما يتطلّب تشجيع المجتمع الإسلامي على التعاون في الإنتاج والخدمات الاجتماعية التي تساهم في رفع المستوى الاجتماعي وتحسينه، وتعزيز الثروة العامة.

* **الثامن**: إنّ زيادة القدرة الإقتصادية للمجتمع الإسلامي، وتعظيم الإنتاج، هدفان أساسيان في النشاط الإقتصادي، لتحقيق الحياة الطيّبة، وعمارة الأرض.

* **التاسع**: يقوم المجتمع الإسلامي على مبدأي التكافل والتوازن الاجتماعي، بما يكفل العيش الكريم في إطار الحياة الطيّبة.

* **العاشر**: يتفاعل المجتمع الإسلامي مع المجتمعات الأخرى اقتصاديًا، بطريقة متكافئة، تحقق المكاسب المشروعة، وتضمن مصلحة الاقتصاد الوطني، وتراعي مبدأ الاستقلال الاقتصادي ورفض الهيمنة والتبعية، وبنحو يخدم الدعوة إلى الله عزّ وجلّ.

* **الحادي عشر**: الإنتاج والتطوّر المعرفيّ والعلميّ والتكنولوجيّ، وتوطينهما، من أهم عوامل

التقدّم الدائم على المستوى الاقتصادي في المجتمع الإسلامي في إطار النظام الإسلاميّ.

* **الثاني عشر**: الإدارة السليمة والرشد الإقتصادي ركيزتان أساسيتان للنشاط الاقتصادي في المجتمع الإسلامي (أفرادًا أو أسرًا أو مؤسسات).

* **الثالث عشر**: يسهم النشاط الاقتصادي في المجتمع الإسلامي في بناء النموذج الحضاري الإسلامي الجديد.

٥. **البعد العلمي والتقني**: الناظر إلى قدرة أفراد المجتمع في المعرفة، الانتفاع وتطور النتائج العقلانية والتجارب البشريّة المتراكمة في المجال العلمي والتقني (فهم وإدراك أنواع العلوم المفيدة واللازمة للحياة، اكتساب مهارة الازدياد من العلم، استخدام منهج التفكّر العلمي والمنطقي في معالجة مسائل الحياة، القدرة على التفكير الانتقادي، الخلّاقيّة والإبداع في أنواع العلم، اكتساب العلم، النظر والتفكير التقني لتحسين نوعيّة الحياة اليومية)، كل ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار الأخلاق العلمية.

ونقصد بالتربية العلميّة – التقنيّة عمليّة تشكيل الهويّة العلميّة للمتربّين، بنحو يعزّز لديهم الاعتقاد بأنّ العلوم التجريبيّة التقنيّة تسهم في الكشف عن آيات الله تعالى وأسراره الكونيّة، وفي الدفاع عن المنهج الديني التوحيدي، ويمكّنهم من الاستفادة الواعية من العلوم التجريبيّة والتقنيّة في حلّ مشكلات المجتمع، وتحقيق تقدّمه. ويتكون من مجموعة من العناصر من أهمها:

* **الأوّل**: الكون مستودع لآيات الله، والعلوم التجريبيّة تسهم في الكشف عن تلك الآيات، والتعريف بها، وهو ما يتطلب تعزيز حاكميّة الرؤية الكونيّة التوحيديّة على البعد العلميّ – التقنيّ كبعد إنساني للتربية. والاهتمام بالعلوم التجريبيّة التقنيّة التي يحثّ ويدعو إليها المنهج الإيماني الواقعي .

* **الثاني**: إنّ قيمة العلوم التجريبيّة ليست بنفسها، وإنّما هي في كيفيّة توظيفها واستثمارها في ما يخدم الحياة الطيّبة. وهو ما يتطلب الاستفادة الواعية من العلوم التجريبيّة والتقنيّة من دون استغلالها لخدمة الأهداف المنحرفة أو الهدّامة. والتمحيص والتدقيق في الأخذ بالعلوم التجريبيّة والتقنيّة الحديثة والمعاصرة، وبما ينسجم مع النظام المعياريّ الإسلاميّ.

* **الثالث**: للعلوم التجريبيّة والتقنيّة دور أساس في بناء الحضارة الإسلاميّة. وهو ما يستلزم الأخذ بالعلوم التجريبيّة التقنيّة كعامل أساس من أسباب قوّة ومنعة ونهوض المجتمع. والاستفادة من العلوم التجريبيّة التقنيّة لتحقيق التنمية والرفاه والتقدّم للمجتمع.

* **الرابع**: العلوم التجريبيّة هي نتاج بشري، وحاصل تراكم الخبرات البشريّة المختلفة عبر التاريخ. وهذا يتطلب الاستفادة من العلوم التجريبيّة التقنيّة الحديثة، وعدم الاتباع الأعمى، أو الانبهار بالمُنتِج.

* **الخامس**: للعلماء مكانة إنسانيّة تستحق التكريم، وفقًا لمستوى نتاجهم من العلم النافع. وهذا ما يتطلب رعاية الإبداعات والاختراعات العلميّة التقنيّة، وتحويلها إلى خطوط الإنتاج المناسبة. وتوفير مستلزمات البحث وأجوائه المناسبة، لإنتاج العلوم التجريبيّة التقنيّة، وتنظيم الأطر والحواضن التي تقدّم للعلماء، بما يساعد على التطوّر المستمرّ في قوّة ونهضة المجتمع.

٦. **البعد الجمالي والفني**: الناظر إلى فعّالية القوّة المتخيّلة، والاستفادة من المشاعر والأحاسيس والذوق الجمالي (القدرة على إدراك الموضوعات والأفعال ذات الجمال المادّي أوالمعنوي، وتقديرها)، والقدرة على إنتاج الآثار الفنيّة وتقدير الآثار والقيم الفنّيّة. ولما لذلك كله من تأثيرٍ في تثبيت القيم المختلفة.

ونقصد بالتربية الجمالية الفنية عملية تشكيل الوعي الجماليّ الكونيّ لدى المتربّي، وتنمية الحس الجماليّ الفطريّ عنده، وتوجيهه نحو المسار المستعدّ له، بنحو يعزّز دوره في الحفاظ على جماليّة الخلق الإلهي في الطبيعة، ويشجعه على الإنتاج الفنّي الهادف، وتجسيد القيم الإسلاميّة بصورةٍ جماليّةٍ فنّية، تسهم في تعزيز الإيمان التوحيديّ لديه. وتتضمن مجموعة من العناصر من أهمها:

* **الأول**: إنّ الله جميل يحب الجمال، وهو منشأ كلّ أنواع الجمال. وهذا يتطلب التربية على التفكر بأسماء الله وصفاته الجماليّة. وتعزيز النظر في جمال آيات الله تعالى وأفعاله. والدور الإنساني في المحافظة على جماليّة الخَلق الإلهي.

* **الثاني**: يدور مستوى الجمال في الأشياء مدار اشتداد الوجود وضعفه. وهو ما يتطلب تنمية

الوعي بوجود علاقة شدة وضعف بين مرتبة الوجود والمستوى الجمالي، فكلما سما الوجود، اشتدّ جماله، وكلما تسافل الوجود، ضعف جماله. والسعي المستمر نحو التسامي والتكامل في مراتب الوجود.

* **الثالث**: يتحقق الجمال بركنين: تناسب الموجودات مع قصد الخلقة، وتناسب أجزاء الموجودات فيما بينها. وإدراك هدفيّة الظواهر والحوادث الكونيّة وموقعها في النظام الكلّي للوجود. والسعي نحو إحكام الأعمال وإتقانها بما يزيد ويرفع من جماليّتها.

* **الرابع**: الجمال أمرٌ فطريّ يحبّه الإنسان، ويطلبه بما هو إنسان. وهذا يستلزم العمل على نموّ وازدهار الحسّ الجماليّ الفطريّ. وتوجيه وترشيد الميول الفطريّة الجماليّة المختلفة وتقوية روح الملاحظة والتأمل المساعدتين على التذوق الجمالي.

* **الخامس**: الجمال ماديّ ومثاليّ وعقليّ تدركه النفس الإنسانيّة بجميع مراتبه.

* **السادس**: إنّ قيمة أيّ عملٍ جميل يتحقق بتوفر الحسن الفعلي والفاعلي. فلا بدّ من نشر ثقافة هدفية الأعمال الجماليّة والفنيّة. واحترام القيم الجماليّة والفنيّة طبقًا للنظام المعياريّ الإسلاميّ، وتجميل وتزيين وتنقية المحيط من الشوائب الماديّة والمعنويّة.

* **السابع**: ينجذب الإنسان فطريًّا إلى الإسلام لبعده الجماليّ، وهو ما يتطلب إبراز الوجه الجماليّ للإسلام فكرًا وقيمًا وسلوكًا. وتقديم الإسلام بصورةٍ جماليّةٍ ومحبّبة.

* **الثامن**: القرآن الكريم كتاب الهداية والتربية الإلهيّة يمثل أنموذج الجمال الأسمى في جميع جوانبه. وهو ما يستدعي تنمية النظرة الجماليّة إلى القرآن الكريم لفظًا ومعنى، وإبراز الجوانب الجماليّة التربويّة في القرآن الكريم. والعمل على التخلّق بالقيم الجماليّة للقرآن الكريم وتجسيدها.

* **التاسع**: خَلق الإنسان للجمال هو هبة إلهيّة ميزه الله بها عن سائر الموجودات. وهو ما يتطلب تنمية الشعور بالتمايز النوعيّ الجماليّ للإنسان .

* **العاشر**: الفن بجميع أشكاله هو التعبير الأبلغ عن إحساس الإنسان بالجمال، وهو التجسيد الأقوى لقضاياه وآماله وأحلامه.

* **الحادي عشر**: إنّ جماليّة الشكل متلازمةٌ مع حقانيّة المضمون. وهو ما يتطلب نشر ثقافة

التأثير والانسجام والمواءمة بين جماليّة الشكل وحقانيّة المضمون. وإبراز الجمال الروحيّ الإنسانيّ بحسن المظهر الخارجي. وتحسين المظهر الجمالي الخارجي للإنسان، بما ينعكس على جماليّة الروح.

* **الثاني عشر**: يشكل الجمال والفن الإسلامي بُعدين أساسين في تقديم النموذج الحضاريّ الاسلاميّ، ما يتطلب مراعاة المعايير الجماليّة الإسلامية بمختلف أبعادها الإنسانية في العملية التربويّة، وإظهار التراث الجماليّ والفنّي الإسلامي وإحياءه.

٧. **البعد البيئي**: الناظر إلى الحفاظ على البيئة والاهتمام بها، ونقصد بالتربية البيئيّة عمليّة بناء المتربي المعتقد بالاستخلاف الإلهي له على الأرض وخيراتها وثرواتها، والمستفيد منها بمقدار الكفاية بنحو أمثل، والساعي نحو عمارتها والحفاظ على مواردها بنحوٍ متوازن، والمتبصر بمشكلات البيئة، والمشارِك في الحدّ منها. وتتكون من مجموعة عناصر من أهمها:

* **الأوّل**: الله سبحانه وتعالى هو المالك الحقيقي للكون وما فيه، والإنسان (فردًا وجماعة) مستخلَف ومستأمن من قبل الله عزّ وجلّ في الأرض، وعلى خيراتها، ومكلَّف بعمارتها، والانتفاع من الموارد البيئيّة، كحقّ عام. وهو ما يوجب رعاية البيئة، والحفاظ على ما تحويه من مخلوقات الله تعالى، كالحيوانات والنباتات والأشجار والتربة والمياه والهواء. وعمارة الأرض، وتحسين سُبل التصرّف في الكون وما فيه من خيرات وموارد. وعدّ المحافظة على البيئة جزءًا من العبادات الواجبة في الإسلام.

* **الثاني**: جميع الموجودات في عالم الطبيعة مخلوقات لله تعالى في غاية الإحكام والإتقان، ومتكاملة في نفسها، وفي ما بينها، والاستخدام والاستثمار الأمثل للموارد الطبيعيّة بشكل لا يخُلّ بالمنظومة البيئيّة وتوازنها، والاستفادة منها بالمقدار الذي يحقّق الكفاية، والمحافظة على المنافع البيئيّة والأملاك العامّة المشتركة بين الناس.

* **الثالث**: تعاليم الإسلام وأحكامه هي المصدر للقيم البيئيّة وما تتضمّنه من قيمٍ اقتصاديّةٍ وجماليّةٍ وصحيّة إلخ...

* **الرابع**: الإنسان مؤثّرٌ في محيطه البيئي بشكل واعٍ، ومُتأثّر فيه بنحو تفاعلي متبادل.

وهـو مـا يسـتلزم تعزيـز التوعيـة والتربيـة البيئيّـة ومواجهـة كافّـة ملوّثاتهـا (السـمعيّة والبصريّـة والإلكترونيّـة...) لـدى مختلـف شرائـح المجتمـع (أفـرادًا ومؤسّسـات). والاهتـمام الجـدّي بالبيئـة والمحافظـة عليهـا، ومعالجـة المشـاكل المرتبطـة بهـا، ومنـع ظهـور مشـاكل جديـدة أخـرى. وتوجيـه سـلوك الأفـراد نحـو ترشـيد اسـتهلاك المـوارد البيئيّـة.

* **الخامـس**: التربيـة البيئيّـة عمليّـة مسـتمرّة ومتجـدّدة، تسـهم في تحقيـق الحيـاة الطيّبـة للفـرد والمجتمـع، وتقديـم النمـوذج الحضـاريّ الإسـلامي.

٨. **البعـد الإداري**: الناظـر إلى القيـم الحاكمـة عـلى العمـل الإداري في المؤسسـات والمنظمـات المختلفـة. ونقصـد بالتربيـة الإداريـة عمليّـة إعـداد المتربي، وبـذل الجهـد للاسـتفادة الأمثـل مـن الطاقـات الفرديّـة والجمعيّـة والمـوارد والإمكانـات الأخـرى، في سـبيل إنجـاح العمـل المؤسّسـاتي الإسـلامي، وبـما يـؤدّي إلى رفـع الكفـاءة عـلى مسـتوى نظـم الأمـر، والاسـتفادة مـن مختلـف الجوانـب والمهـارات الإداريّـة التـي تتوافـق والنظـام المعيـاري الإسـلامي، بعيـدًا عـن أهـداف الإدارة العلمانيّـة الغربيّـة، أو غـير الإسـلاميّة التـي تنظـر إلى الإنسـان نظـرة أحاديّـة ماديّـة. **وتتشـكل مـن مجموعـة مـن العنـاصر مـن أهمهـا**:

* **الأوّل**: تتحقّـق العبوديّـة الشـاملة مـن خـلال تكامـل الإنسـان ورقيّـه في إطـار الوحدانيّـة الخالصـة لـه سـبحانه في سـائر الأعـمال، وعـبر إدارتـه لذاتـه، وللآخريـن، وللنعـم الإلهيّـة المسـخّرة لـه. وهـو مـا يتطلـب ترسـيخ وتعزيـز عقيـدة التوحيـد الله سـبحانه في كافّـة الأفـكار والأفعـال والأعـمال والأنشـطة الإداريّـة. وتنميـة حسّ الرقابـة الإلهيّـة في الفكـر والقـول والفعـل، وتعزيـز استشـعارهذه الرقابـة باسـتمرار لا سـيّما في مجـال الأعـمال والأنشـطة الإداريّـة.

* **الثـاني**: يشـكّل القـرآن الكريـم وسـنّة النبـي ﷺ وأهـل البيـت عليهم السلام، وتشـخيصات مراجـع الديـن، المرجعيّـة الحاكمـة عـلى القيـم والغايـات والأهـداف والسياسـات والأنشـطة الإداريّـة كافـة.

* **الثالـث**: الإدارة القائمـة عـلى القيـم الإسـلاميّة، وعـلى الروحيّـة الجهاديّـة، تسـهم في تحقيـق الحيـاة الطيّبـة، وهـي مـن أهـم سـبل اسـتثمار الفـرص، ومواجهـة المخاطـر والتحديـات المختلفـة.

* **الرابـع**: يُعـدّ خدمـة النـاس، وتلبيـة احتياجاتهـم، وحفظكراماتهـم، محـور العمـل بالمؤسّسـات الرسـاليّة المبتَنِيـة عـلى تعاليـم الإسـلام وقيمـه. واعتبـار خدمـة النـاس مسـؤوليّة إنسـانيّة عامّـة،

وترقى إلى مستوى المسؤوليّة الشرعيّة الواجبة لمن نُصِّب أو كُلِّف في مواقع خدمة الناس بنحوٍ مباشرٍ أو غير مباشر.

* **الخامس**: القيادة القدوة (الخادمة، الحكيمة، ...) من الضرورات الحتميّة لاستنهاض الأمّة والمجاهدين، وإطلاق طاقاتهم الكامنة وتحريك دوافعهم، وتحقيق تعاونهم وتكاملهم لبلوغ الغايات السامية. وهذا يتطلب تجسيد عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه في العلوم الإداريّة والقياديّة، واختيار القادة وتنصيبهم وفق أسس ومواصفات إسلاميّة، وبالأخص الاستفادة من نموذج الرسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام في اختيار القادة والولاة.

* **السادس**: الإدارة الإسلاميّة تسعى لتحقيق الغايات والأهداف القائمة على البصيرة النافذة.

* **السابع**: التواصل الإداري الفعّال وفق منظومة الأخلاق والآداب الإسلاميّة ضمانةٌ حتميّةٌ لتحقيق التعاون والانسجام والتماسك بين العاملين وتحقيق الأهداف.

* **الثامن**: إنّ الإتقان والجودة والتميّز في أداء المهام والأعمال سمةٌ لتألّق الأفراد والمنظّمات والمجتمعات، وعنصرٌ رئيسٌ في نجاحها وتقدّمها ورفاهيّتها.

* **التاسع**: يشكّل استثمار الوقت بكفاءةٍ وفعاليةٍ واغتنام فُرَصه الملائمة كافة واحدًا من أهم تجلّيات المنظّمات الجهاديّة والرساليّة المتقدّمة والمتطوّرة.

* **العاشر**: تشكّل إدارة المعلومات مصدرًا لإلهام الإنسان، وهدايته نحو الحقيقة والصواب، وبلوغ البصيرة والحكمة في اتخاذ القرارات والكفاءة والفعالية في تحقيق الأهداف.

* **الحادي عشر**: إنّ عمليّة اتخاذ القرارات على وفق البصيرة النافذة والمنهجيّة العلميّة تشكّل جوهر العمليّة الإداريّة التي يتحدّد في ضوئها مسار المنظمة وبيئتها ومصيرهما .

* **الثاني عشر**: إدارة التغيير والتحوّل الكفوءة والفعالة -المرتكزة إلى البنية العقديّة والقيميّة والفقهيّة- تمكّن من مواكبة واستثمار المتغيِّرات والتغيُّرات وتجعل المنظّمة في مصافّ المنظّمات الرياديّة المتجدّدة.

* **الثالث عشر**: إنّ بناء وتقديم النموذج الإداري الإسلامي الحضاري من أهم سبل الدعوة للإسلام، وللتمهيد لدولة العدل الإلهي.

الخاتمة

١. لقد قارب هذا البحث قضية المباني النظرية للحياة الطيّبة باعتبارها الأصل والمنطلق، بل والمرجعية الحاكمة التي يُستند في كلّ العمليات التربوية الخاصة ببناء مجتمع إسلامي وفق معايير الحياة الطيّبة.

٢. إنّ الحياة الطيّبة هي الوضعية المنشودة لحياة البشر؛ في الأبعاد الإيمانية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية، والجسمية، والبيئية، والجمالية، والعلمية، والإدارية.

٣. وفقًا لرؤويتنا الإسلامية لا مجال لفصل الحياة الطيّبة بأبعادها ومراتبها كافة عن الإيمان والعمل الصالح الوارد في في القرآن الكريم على نحو التلازم.

٤. إنّ الوصول إلى الحياة الحياة الطيّبة هي المصداق الحقيقي لتسامي الإنسان وقربه من الله تعالى، بل ويشكّل الوصول إلى الحياة الطيّبة المصداق الحقيقي للغاية من وجود الإنسان.

٥. الحياة الطيّبة هي حصيلة السعي الواعي والاختياري للإنسان في التشكّل والتسامي في هذه الحياة الدنيا، بإضفاء الصبغة الإلهيّة عليها، وعليه فهي أحد تجلّيات الغاية النهائيّة للإنسان، أي: القرب من الله تعالى.

٦. تمتاز الحياة الطيّبة بالعديد من الخصائص من أهمها أربع خصائص، وهي: الأولى العمومية، الثانية تعدّد المراتب، الثالثة الوسطية والتوازن والاعتدال، الرابعة، البعد الاجتماعي.

٧. النظام القيمي الإسلامي مرجعية رئيسة للمجتمع القائم على الحياة الطيّبة، ومن أنّه مضمون ومحفوظ من خلال أصل الوجود الفكري والعقائدي، والمنظومة التشريعية والقانونية الواسعة في الدين الإسلامي.

٨. إنّ مصدر قوة المنظومة القيمية في الإسلام كونها ترتبط بمنظومةٍ فكريةٍ وعقائديةٍ تتمثّل في الإسلام؛ يجعلها تستمد قوّتها ورسوخها في النفس منه، إذ لا مجال لفهم التشريعات التفصيلية بمعزل عن قيمتها الأم المتمثلة بالبعد العقدي السماوي.

٩. لقد بات من الواضح أنّ تحقّق الحياة الطيّبة في المجتمع يجب أنْ يترافق مع تحقّق كافة الأصول والأهداف والقيم والمبادئ التربويّة الإسلامية المطلوبة، والحاكمة على تشكيل نمط

الحياة الطيّبة، والتي يجب أنْ تكون مرتبطةً ومنسجمةً مع الأصول والمرجعيات الآتية: الربانيّة، العدالة، الكرامة الإنسانيّة، الارتقائيّة، العقلانيّة، الحريّة، التوازن، الشموليّة، المرونة، الواقعيّة، الوسطيّة والاعتدال، الاستمراريّة، الانسجام.

١٠.إنّ المباني النظرية للحياة الطيّبة التي يتمحور حولها هذا البحث ترتبط بالمنظومة التي تشكّل محور تربية الإنسان في الأبعاد العشرة، وبنائه وفق رؤيتنا الإسلامية، وهي المباني: الإيمانيَّة، الجهاديَّة، الجسميَّة، الاجتماعية، السياسيَّة، الاقتصاديَّة، البيئيَّة، الإداريَّة، العلميَّة ، الجماليَّة- الفنيَّة.

١١. البعد الجهادي: الناظر إلى الجهاد الأصغر في مقاتلة العدو، والدفاع عن الأمة الإسلامية ومقّدساتها، وإحياء الحق وإقامة العدل، بوصفه فريضةً إلهيّة، تستمدّ مشروعيّتها من كتاب الله تعالى، وسُنّة النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

١٢.البعد الجسمي: الناظر إلى الحفاظ على السلامة والصحّة الجسميّة والنفسيّة للذات وللآخرين، والارتقاء بها وبهم، تعزيز القوى الجسميّة والنفسيّة، مواجهة عوامل الضعف والمرض، والحفاظ على البيئة واحترام الطبيعة.

١٣.البعد السياسي: الناظر إلى التفاعل اللائق مع مؤسّسات الحكومة وسائر المؤسّسات المدنيّة والسياسيّة .

٤١. البعد الاجتماعي: يتناول هذا البعد عمليّة تشكيل هويّة المتربّين المتبصّرين بقيم مجتمعهم وآدابه وعاداته وتقاليده، المتحلّين بالقيم واللّياقات والآداب الاجتماعية الحسنة، والذين يتحمّلون مسؤوليّتهم الاجتماعية، ويقومون بدورهم ووظيفتهم، ويشاركون بفعاليّة في بناء المجتمع الإسلامي الصالح.

١٥.البعد الاقتصادي: الناظر إلى تنمية القدرات الإنسانية في تدبير أمر المعاش والجهد الاقتصادي والمهني.

٦١. البعد العلمي والتقني: الناظر إلى قدرة أفراد المجتمع في المعرفة، الانتفاع وتطور النتائج العقلانية والتجارب البشريّة المتراكمة في المجال العلمي والتقني.

١٧. البعد الجمالي والفني: الناظر إلى فعّالية القوّة المتخيّلة، والاستفادة من المشاعر والأحاسيس والذوق الجمالي.

١٨. **البعد البيئي**: الناظر إلى الحفاظ على البيئة والاهتمام بها، ونقصد بالتربية البيئيّة عمليّة بناء المتربي المعتقد بالاستخلاف الإلهي له على الأرض وخيراتها وثرواتها، والمستفيد منها بمقدار الكفاية بنحو أمثل، والساعي نحو عمارتها والحفاظ على مواردها بشكل متوازن.

١٩. **البعد الإداري**: الناظر إلى القيم الحاكمة على العمل الإداري في المؤسسات والمنظمات المختلفة.

الهوامش

١- النحل/ ٩٧.
٢- م.ن.
٣- المائدة/ ٢.
٤- آل عمران/ ١٠٣.
٥- المائدة/ ٨.
٦- الاسراء/ ٣٥.
٧- العصر/ ٣.
٨- آل عمران/ ١١٠.
٩- البقرة/ ١٩٤.
١٠- البقرة،الآية ١٩١. و﴿ أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَبِأَنَّهُمْ ظُلِموا ﴾. الحج/ ٣٩.
١١- النساء/ ١٢٨.
١٢- هود/ ٦١.
١٣- البقرة/ ١٦٨.
١٤- النساء/ ٢٩.
١٥- الحشر/ ٩.
١٦- التوبة/ ٧١. ﴿ وإنَّ الظّالمين بعضهم أولياء بعض ﴾. الجاثية/ ١٩.
١٧- الشورى/ ٣٨.
١٨- البقرة/ ١٩٥.
١٩- سعد الدين، محمد منير، من أبحاث مؤتمر القيم المنعقد في بيروت.
٢٠- الكيلاني، ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية.
٢١- الصدر، محمد باقر، ومضات، ١٠٥.
٢٢- آل عمران/ ٧٩.
٢٣- يقول عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾. الإسراء/ ٧٠.
٢٤- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾. التين/ ٤.
٢٥- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾. الأحزاب/ ٧٢.
٢٦- ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. البقرة/ ٣٠.
٢٧- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾. لقمان/ ٢٠.

٢٨- يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾. الحجرات/ ١٣.

٢٩- العَقلانيّة هنا تعني ما يستسيغه العقل ويقابله اللاعقلانيّة، وليس المقصود منها مذهب العقلانيّة الفلسفي التي نادى بها ديكارت وغيره من أتباع هذه الفلسفة.

٣٠-. ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ٨٩.

٣١-- عن أمير المؤمنين : "اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة"، ومن هنا يمكن اعتبار أن النص الوارد عن النبي الله ﷺ: "خير الأمور أوسطها" يشير إلى هذه الميزة في المجتمع الإسلامي.

٣٢- الأنعام/ ١٥٣.

٣٣- الأحزاب/ ٢١.

٣٤- النساء/ ٥٩.

٣٥- آل عمران/ ٣١.

٣٦- هي القوانين الإلهيّة الحاكمة على حركة البشرية والمجتمعات، والتي تقع وتتكرر بوقوع مقدماتها وعللها؛ لذلك فإنّ هذه السنن حتمية، بمعنى أنّها لا تختلف ولا تتخلف عن تلك المقدمات والعلل، فمن أخذ بها وصل. ومن طبيعة هذه السنن أيضًا أنّها ثابتة وحتميّة وهي قوانين نافذة على حركة المجتمع والأمة.

دراسة تحليليّة في مفهوم الحياة الطيّبة ومبادئها من منظور القرآن والروايات

السيّد الدكتور عبد الكريم حسن پور

باحث في التأريخ الاسلامي / أستاذ جامعي / إيران

ملخص البحث

إنّ الإنسان ككائنٍ حي، بجانب الحياة العادية التي يشترك فيها مع جميع الحيوانات، يتمتع أيضًا بإمكانية تحقيق حياة أعلى وأفضل، والتي يشير إليها القرآن باسم (حياة طيّبة). هذه الحياة الخاصة تعتمد على الإيمان والعمل الصالح، والتي هي النقطة المعاكسة للحياة السائدة في المجتمعات الغربية. لاستيلاء الحياة الطيبة على الحياة الغربية لا بدّ من معرفة المكونات لها والأسس الحاكمة عليها. إنّ تحليل الأسس التي تحكم مثل هذه الحياة من رؤية القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام أمرٌ ضروريّ ومهم لمزيد من الفهم للحياة الطيبة وتحقيقها على أرض الواقع.

فالغرض من هذه الدراسة هو استكشاف مبادئ الحياة الطيبة من منظور القرآن الكريم، وتقديم تعريف لها، ثم بيان العوامل والمكونات الرئيسة لها من خلال الآيات والروايات؛ لأنّ معرفة هذه المبادئ والمكونات تسهل الطريق للسعي نحو حياةٍ طيّبة، والوصول إليها يجعل حياة الإنسان التائه في دوامة المشاكل، مليئةٌ بالمعنى والأمل، ويؤدّي إلى التغيير في منهج حياته، وفي نظره إلى العالم وكيفية تفاعله مع الله وباقي المخلوقات. اعتمدنا في منهج البحث على استخدام أسلوب الاستقراء فى جمع المعلومات، ثم التحليلي في تحليل البيانات المكتبية. تصل نتائج هذا البحث إلى حقيقة مهمة وهي إنّه يمكن سوق المجتمع الإسلامي نحو المعنوية والعدالة و الحق عن طريق اتباع أصول وضوابط معينة التي ما دامت جاريةً في المجتمع على مستويات مختلفة، فإنّ المجتمع يسير نحو السعادة والنجاة الحياة الطيبة وإنْ كان غير ذلك فينحرف المجتمع عن السعادة نحو الشقاوة والضلالة.

المقدّمة

تُعدّ الحياة الطيبة مفهومًا جوهريًا وأساسيًا في الشريعة الإسلامية، إذ تمثّل قاعدةً أخلاقيةً وروحيةً التي تغطي جميع المسائل والقيم من حياة الإنسان بشمولها الكامل. فيتطلّب فهم جميع جوانبها إجراء بحثٍ شاملٍ وواسعٍ من مختلف الجوانب الدينية والسياسية والعلمية والعملية.

الإيمان والعمل الصالح هما الشرطان الأساسيّان لتحقيق الحياة الطيبة. ولابدّ للإنسان أنْ يأتي بهذين الشرطين المبدئيين لوصله إلى هذه الحقيقة الإلهية، وأنْ يكون مؤهلًا لتلقى الأنوار الإلهية. الإيمان هو معرفة الله بالقلب، والعمل الصلاح هو الفعل الذي يتناسب مع الإيمان بوجود الخالق والمبدأ والمعاد.

ومن جانب آخر إنّ الحياة الطيبة والمفاهيم المرتبطة بها إضافةً إلى وجودها في التصريحات والإشارات القرآنية، نجد أنّ لها جذورًا في روايات الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وآثار المفكرين الإسلاميين. فقد تم تسليط الضوء على هذا المفهوم تحت عنوانات مثل الرزق الحلال، والرزق اليومي، والقناعة، والعبادة المرتبطة بالرزق الحلال، والرضا بالقسمة، والتوفيق في طاعة الله، والسعادة، والجنة، ومعرفة الله، والإستغناء عن الخلق، وعدم الإعتماد إلا على الله[1].

وهناك نقطة مهمة لايمكن غض النظر عنها بأنّ تحقق المجتمع الصالح يعود الى الاستعداد المتوفّر عند آحاد المجتمع إلى الحياة الطيّبة. وتوضيح ذلك حيث كان استعدادًا اختياريًّا لدى كلّ فردٍ من افراد المجتمع لتحقيق مراتب الحياة الطيّبة، سيتم تحقيق هذا النوع من الاستعداد في مجمل المجتمع أيضًا. ونظرًا لما سبق ذكره، يكون الاهتمام بفهم الجانب الروحي للحياة فعّالًا في تنمية المواهب الفطرية للإنسان؛ لذلك يُشعر بالحاجة إلى التعرف على أبعاد الحياة الطيّبة وخصائصها ومبادئها، وكذلك استكشاف معناها من وجهة نظر دينية.

ولمّا كانت قيمة الحقيقية للإنسان تكمن بطريقةٍ ما في إطار هذا النوع من الحياة، يُطرح هذا السؤال الأساسي: ما هو مفهوم الحياة الطيّبة، وما هي القواعد والأبعاد والمبادئ التي تتضمنها، وما هي المستلزمات والعقبات التي تواجه تحقيق هذه الحياة الجديدة؟

ما يظهر في النصوص الإسلامية بشكلٍ واضحٍ أنَّ الحياة الطيّبة هي نوعٌ حقيقيٌ من الحياة وراء هذه الحياة الظاهرية. بالفعل، تعدّ الحياة الطيّبة ناتجةً عن ارتفاع مستوى الحياة الطبيعية للإنسان من خلال منحها الطابع الإلهي، وهي بحاجةٍ إلى إقامة علاقةٍ واعيةٍ واختياريةٍ مع حقيقة الكائن (الإيمان بالله تعالى)، وتعزيز العلاقة معه في جميع جوانب الحياة على أساس الإيمان (العمل الصالح).

كما يشير العلّامة الطباطبائي في تفسيره للآية الشريفة ٩٧ من سورة النحل إلى أنّ إعطاء الحياة الطيّبة وعدٌ جميل، وهي مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى في هذه الدنيا ويشمل جميع جوانب حياة الأفراد والمجتمع الشخصية والاجتماعية لجميع الرجال والنساء المؤمنين الذين يعملون بالأعمال الصالحة، وثمرتها الطبيعية التي تظهر في الحياة الآخرة هي الجنة ورضا الله تعالى[٢].

إنّ الإنسان إذا كان بلا (الحياة الطيّبة)، يكون في رتبة الحيوانات الأخرى، وفي الواقع يعيش في دائرة الحياة الحيوانية. وأمّا الإنسان الذي يمتلك موهبة الحياة الطيّبة، على الرغم من أنّ ظواهر حركاته وأفعاله تكون مشابهة للآخرين، إلا أنّه يمتلك شعورًا وإرادةً تتفوق على البقية في حياتهم النباتية والحيوانية، بأنّه يتمتع بحياةٍ إنسانيةٍ نقية، ومن هذه الناحية، ما قد يؤرق أو يوجّع الفاقدين للحياة الطيّبة، لا يسبب خوفًا أو حزنًا في نفسه؛ لأنّه شد حياته بجميع جوانبه إلى المبدأ الأبدي والأزلي فلا تخضع للتدمير أبدًا، ولا يتعرض لأيّ ضررٍ يؤثر على سعادته ونجاحه. ومن هذا المنطلق رغم وجود مشاكل مادية في الدنيا، حياة هذا الإنسان الذي يخضع لولايةٍ إلهيةٍ مليئةٍ بالحيوية والأمان والصحة واللذة والنجاح. وهي وعد الله الجميل والمبشر إلى جميع المؤمنين سواء كانوا رجالًا أم نساء، وهي سُنّة لا تتغير فيها بما يتعلق بحياة الإنسان الصالح؛ ولهذا فإنّ البحث في هذا النوع المتفوق من الحياة التي كانت هدف وغاية الأنبياء والرسل الإلهية والأولياء والصالحين، يصبح ضروريًا بنحوٍ مضاعف.

فيهدف هذا البحث إلى دراسة وتحليل أبعاد الحياة الطيّبة ومبادئها، مستندًا إلى الآيات القرآنية مع التركيز على قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾، وروايات أهل البيت عليهم السلام.

١ .بيان المسألة

مفهوم (الحياة الطيبة) هو أحد المفاهيم القرآنية. ورغم أنّ كلمتي (الحياة) و(الطيبة)، قد تكررت بشكلٍ منفصلٍ في القرآن عدّة مرات، إلا إنّ التركيب الوصفي(حياة طيبة) جاء في القرآن الكريم مرة واحدة فقط فى الآية ٩٧ من سورة النحل. في هذه الآية، تُعتبر حياة "طيبة" نوعًا من أنواع الحياة التي تُمنح للمؤمنين الصالحين بغض النظر عن كونه ذكرا أو أنثى.

في هذا البحث، نسعى إلى الغوص بتعمق في آيات القرآن وروايات أهل البيت (عليهم‌السلام)، الذين يُعتبرون المفسرين الحقيقيين للقرآن، وكذلك النقاط التي استفاد منها من حياة (طيبة)، والوصول إلى إجابات لهذه الأسئلة الرئيسية: ما هو طابع حياة "طيبة" من الناحية القرآنية والروايية؟ هل هذا النوع من الحياة (حياة طيبة) مخصص لفئة معينة من الناس أم يمكن لجميع البشر الاستفادة منه؟ هل تتحقق حياة طيبة في الدنيا أم في الآخرة؟ وما هي المبادئ والمكونات الأساسية لتحقيق حياة طيبة؟

٢ . مفهوم الحياة الطيبة

يتكوّن هذا المصطلح (الحياة الطيبة) من جزئين رئيسين: (الحياة، والطيّبة). تعني كلمة (الحياة) ما يقابل الموت، وتشير إلى القوة الناشئة والحركة والإحساس والعمل، والازدهار والفرح بعد الحزن، والعيش المستدام، والإنسان العاقل والفهيم، والبقاء والحفاظ على الحياة، وإحياء الآخرين، والبقاء دائمًا[٣].

الحياة في منظور القرآن الكريم تشمل الحياة النباتية، والحيوانية، والبشرية. تعني الحياة في مقابل الموت، ومن آثارها الحركة والإحساس (مصطفوي، المجلد ٧، الصفحة ٣٧٦)، وهي خاصية في الكائن تكون مصدرًا للإدراك والنشاط[٤].

لكن الواقع هو أنّ تقديم تعريفٍ كاملٍ وشاملٍ لكلمة (حياة) والوصول إلى معناها الدقيق أمرٌ صعبٌ للغاية وربما يكون غير قابل للتحقيق. والتعاريف الموجودة التي تم تقديمها من جانب المفكرين والمؤلّفين لم تتجاوز توضيح الألفاظ والمصطلحات، وليست إلّا بعض الخصائص والسمات الظاهرية للحياة كما يلي:

يعرِّف أبو حيان التوحيدي الحياة بأنّها هي عامل الارتباط بين الحركة والإحساس والعقل والنمو والتكاثر وأنّها ضد الموت[٥].

إنّ ملّا صدرا، يعدّ وجودًا مميزًا للحياة ويعتقد أنّ الإدراك في حق معظم الحيوانات يتمثّل في الإحساس، بينما في حق الإنسان، يتم استكمال الحياة من خلال الإدراك الذي يتضمّن الإحساس إلى جانب الفعل. الفعل والإدراك ينبعان من قوتين، إحداهما هي القوة المدركة والأخرى هي قوة المحرّكة[٦].

من خلال رؤية الملّا صدرا، يمكن أنْ نفهم أنّ الحياة لها درجات، أي إنّها أمر تشكيكي والكائنات التي تتمتع بمزيد من خصائص الحياة يمكن تسميتها بأنّها حيّة بشكل أفضل. يعدّ في موضع آخر أنّ مستوى الحياة في أي موجود يعود إلى مدى ترتب آثاره الوجودية.

من وجهة نظر العلّامة الطباطبائي في رؤية عامة، تعني الحياة وضع شيء في حالة يترتب عليها الآثار المتوقعة من ذلك الظاهرة، والموت يقع في النقطة المقابلة لتلك الحالة. وبناءً على هذا الخصوص، أولًا يمكن لأيّ ظاهرة - حتى الأشياء الجامدة - أنْ تكون لها حياة، ثانيًا حياة كلّ واحدةٍ منها متميزة عن الأخرى. على سبيل المثال، حياة وجود الأرض تعني أنّها تكون خضراء وجميلة، وحياة الكلمة تعني وجود تأثير إيجابي على السامع، وحياة الإنسان تعني وجوده على الطريق الطبيعي لهدايته، مثل وجود عقل سليم وروح نقية. يظهر أنّ الأمثلة المذكورة تضع الموت في نقطةٍ مقابلةٍ للحياة[٧].

ويعرفها العلّامة محمد تقي الجعفري بأنّها إحساسٌ بالحركة والمتعة والألم وإنتاج الذرية والعثور على مكان للوجود[٨].

في تلخيص عام للآراء المذكورة حول الحياة، يمكن تعريفها بأنّها العامل المرتبط بالحركة والإحساس والإدراك، وتكون منشأً ومصدرًا للآثار الوجودية.

كلمة (طيّب) تأتي من جذر (طاب) وتعني النقاء والنظافة والجاذب والمحبوب وذات أخلاق حسنة[٩]. ويُستخدم (الطيب) أيضًا للإشارة إلى النقاء المادي والروحي من العيوب، والحلال والنقي، والخالي من الدنس والجهل والفسق والأعمال القبيحة. كما أنّه يستخدم

بمعنى الخير والنقاء، ويعدّ ضدًّا لمصطلح (الخبيث)[١٠].

في دراسةٍ تحليليةٍ للبحوث المنجزة حول مفهوم الحياة الطيبة، وجدنا مجموعةً متنوعةً من الدراسات، وقد اعتمدت كلّ واحدةٍ منها منهجًا واتجاهًا معينًا فيما يتعلق بالحياة الطيبة، ومكوناتها، وجوانبها. ومن هنا يظهر أنّ هذا الموضوع في المصادر الإسلامية يشمل طيفًا واسعًا من التعاريف والتعبيرات وتكوين المفاهيم، ويُظهر هذا التنوع أهمية فهم هذا المفهوم وضرورته.

قد فسّر الطبرسي (الحياة الطيّبة) بأنّها رزقٌ وعيشٌ حلال، وحياةٌ شريفةٌ تتميز بالقناعة والرضا، وجنةٌ جميلة، وحياةٌ سعيدةٌ هناك، وحياةٌ سعيدةٌ في البرزخ[١١].

يشير تفسير النصوص الدينية للإنسان إلى أنّه يمثّل تكاملًا من الجسم والروح، أو الفعل والمعنى، حيث يتم تجسيد ظاهرة الحياة في هاتين الساحتين وتمتد فيهما. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين الجانبين من الحياة الإنسانية بوصفهما (الحياة الدنيا) و(الحياة الطيّبة)، من مظاهر الحياة الدنيوية والمادية التي يدركها الجميع، يمكن الإشارة إلى التغذية، والنمو، والتطور، والجهد، والتحول، والارتفاع، الذي في نهاية المطاف ينحدر إلى الضعف والزوال.

أمّا المقصود من (الحياة طيّبة) هو نوعٌ من الحياة الخفية وغير المحسوسة المتعلقة بالروح والجانب الروحي للإنسان، حيث يكون متحلّي بالنورانية للإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الحميدة. إنّها البعد الروحي والمعنوي الذي يتحقّق عندما يكون الإنسان ملتزمًا بالأخلاق الحسنة التى تمهّد تحقيق اقترابه من الله.

في الفكر القرآني، تحمل الحياة معاني وأبعادًا أوسع ممّا يمكن للإنسان أنْ يدركه سطحيًّا. على سبيل المثال، إذا نظرنا إلي الحياة بشكلٍ سطحي، فإنّها تعني الحياة الدنيوية من لحظة الولادة حتى لحظة الموت، وهي مدّةٌ متزامنةٌ مع الوعي والإرادة الفعّالة التي يمكن العثور عليها أيضًا في الحيوانات. ومع ذلك، يتحدث الله سبحانه وتعالى عن شيءٍ أكثر من هذه الحياة الدنيوية، حيث يشير إلى وجود حياة أخرى للإنسان، والنتيجة المترتبة على ذلك هي تحقيق الكمال لوجود الإنسان وتحقيق الأغراض الروحية والمعنوية للإنسان بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(١٢).

تشير هذه الآية بوضوح إلى وجود حياةٍ خاصّةٍ للأفراد الذين بالفعل يكونون أحياء، ومن المفهوم أنّ هذه الحياة والإحياء تكون ناتجةً عن استجابة دعوة الله ورسوله. إنّها حياة تختلف الحياة الروتينية والمألوفة للبشر.

كما أشار الشهيد مطهّري إلى الموضوع بقوله هذه: "إحدى الآيات التي قسّمت الناس إلى فئتين بشكلٍ رسمي، فئة الأحياء وفئة الأموات، وجعلت القرآن سبب الحياة وجعل النبي محييًا، أي معرفًا بالحياة والممنوح للحياة. إنّها آية قد تكون أوضح آيات القرآن في هذا السياق. تقول الآية إنّ هذا النبي قد أتى إليكم بالحياة وأنتم أموات في حياتكم"(١٣).

إنّ الإنسان الذي يتمتع بحياةٍ طيّبةٍ كهذه لا يرى سوى الخير والسعادة. عقله وإرادته تعمل في هذه الحياة على أفقٍ بعيدٍ عن متناول الآخرين، على الرغم من أنّ هذه الوقائع لا تظهر بوضوح لديهم؛ لذا يكون هذا الشعور والإرادة فوق شعور وإرادة الآخرين، ويتأتى ذلك من مصدرٍ لازم له، وهو حياةٌ طيّبةٌ للإنسان.

فالأشخاص الذين يمتلكون المعرفة والإيمان، والذين يعرفون ربّهم وينقطعون بشكل تام عن غيره، يمتلكون حياة تتجاوز حياة البشر العاديين. هؤلاء يفعلون أمورًا خارج إمكانيات وقدرات الآخرين، ويصرفون أمورًا يعجز الآخرون عن إرادتها. وقد أطلق الله تعالى على هذه الحياة اسم (حياة طيّبة) في القرآن الكريم. يقول الله: **﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**(١٤).

وفوق ذلك، أكد الله للمؤمنين بأنّ لديهم روحًا خاصة، قائلًا: **﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾**(١٥).

ويقول العلّامة الطباطبائي في إشارته إلى هذا الموضوع: "من الواضح أنّ قولنا إن للمؤمن حياة ونور آخر، ليس مجازًا واستعارةً، بل هو حقيقةٌ ووجودٌ حقيقي في الشخص المؤمن

التي لايمتكلها الآخرون، وهذه الحقيقة هي التي تكون أحقّ بتسمية الحياة بالنظر إلى الحقيقة الموجودة لدى الأخرين التى تسمّى بالحياة الحيوانية في مقابل الحياة النباتية"[١٦].

في بداية الآية ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾[١٧] يتحدث الله عن الأشخاص الذين أعطاهم الله حياة خاصة ونورًا خاصًا، وفيما بعد في الآية يُخاطب الكافرين. يظهر من هذا التباين أن الكافر يُعتبر في ثقافة القرآن كالميت. يبدو أنه بسبب فقدان هذه الحياة العظيمة والنقية الروحانية، يُعتبر الكافر في القرآن الكريم كالميت.

التأمل في الآية الشريفة ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[١٨]. يتضح أنّ الحياة الطيبة ليست مختصّةً بالآخرة، بل يمكن أنْ تتحقق في هذا العالم، حيث إنّ الإيمان والعمل الصالح يندرجان ضمن الأمور الروحية التي تتحقق في هذا العالم. وبشكل طبيعي، يتم تحقيق الحياة الطيّبة من خلال الإيمان والعمل الصالح في هذا العالم. ومع ذلك، تظهر آثار هذه الحياة الروحية في الآخرة، حيث يمنح الله من نعمه المعنوية لعباده في الآخرة. وتظهر نتائج نعم الحياة الروحية في هذا العالم، كما يتضح من خلال الآية الكريمة التي تتحدث عن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة بأفضل ما كانوا يعملون. هذا التعبير يظهر أنّ ثمار الأعمال الصالحة تتجلّى في الآخرة.

٣.سمات الحياه الطيبة من منظور القرآن والروايات

الحياة الطيّبة هي حياةٌ نقيةٌ وطاهرةٌ، يعدّها القرآن نابعةً من الوحي الإلهي، التي يمكن أنْ يحصل عليها الإنسان من خلال اتباع أوامر الله وابتعاد عن نواهيه. إنّ دعوة الأنبياء والرسل الإلهية والحياة المطلوبة والمثالية في الأديان الإلهية تتجسد في تحقيق الحياة الطيّبة التي تسعى إلى تطوير وتوجيه البشر، ويسير البشر فيها نحو الله بنور الإيمان وروح العبودية والخضوع. تتميز هذه الحياة بأنّها أشرف وأكمل من الحياة العادية والمادية، وأكبر قيمةً منها. ولا تحتوي على لهو ولعب، بل يتزين الجميع فيها بزينة الدين وروح الخلق الحسن، ويصبحون جميعًا فيها من طائفة الصالحين بفضل الأعمال الصالحة. يقول الله في القرآن الكريم: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ** ﴾[١٩]، أي أفضل في كل شيء، أفضل حياة، أفضل نعم، أفضل راحة، أفضل إحسانات الله[٢٠].

سنستعرض بعض السمات للحياة الطيبة في ما يلي:

١-٢. العقل والتفكير الديني: واحدٌ من خصوصيات التي تمهّد لتحقيق الحياة الطيّبة في الإنسان هي تحقيق الرفعة الروحية والمعنوية وتطوير العقل والفهم بطريقة دينية. العقل هو ركيزة أساسية مخبوءة في الإنسان وأساس شخصيته. كلّما جعل الإنسان هذه الركيزة متطوّرة، وصل إلى تحقيق الرفاه الروحي والحياة الطيّبة. قد ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السلام ما مؤدّاه أنّ أساس شخصية الإنسان هو العقل، فالذكاء والفهم والذاكرة والمعرفة ينبعون من العقل. يكمّل العقل الإنسان ويوجهه ويكون مرشدًا ومفتاحًا لأموره. فمن يكون عقله مؤيدًا بنور إلهي، فإنّه يكون عالمًا وحافظًا وعاقلًا وفهيمًا؛ فلذا يعرف كيف ولماذا ومن أين ويستطيع التعرف على الخير والشر والانفصال والتمييز بينهما. وعندما يعرف ذلك، يكون مؤهلًا للاندماج والاعتراف بالولاء لأمر الله والانقياد له. ومن خلال هذا التحقيق، يستطيع تعويض الأمور المفقودة ويتسلط عليها ويستشعر من الوجود. يدرك من أين جاء وما هي الغاية من وجوده وإلى أين يتجه. كل هذه تأكيدات للعقل[٢١].

التعرف على العلاقة بين العقل والدين يستند إلى معرفة الله تعالى وخالق الكون. بلا شك، العقل هو مصباح الفهم واكتساب المعرفة في هذا المسار، وبدون إشعاعه، لا يمكن الاستفادة من كتاب الله وسُنّة الأئمّة الطاهرين. يتفق جميع أهل العقل والتفكير على أهمية وجود العقل كمصباح[٢٢].

العقل والدين يجب أنْ يكونا جنبًا إلى جنب لتحقيق حياةٍ عاقلةٍ ومستنيرةٍ دينيًا، حيث يؤدّي نقص أحدهما إلى آثارٍ خطيرةٍ وخلق توتر وقلق؛ لأنّ الذين يعيشون بلا أخلاق لا يربطون أنفسهم بأيّ مبدأ أخلاقي ويضحون بكلّ شيء في مذلة حب الدنيا. في مواجهة الدين والدنيا، يسهل على بعضهم الوصول إلى الدين بسهولة وأحيانًا يستخدمونه كأداةٍ لتحقيق المطامع المادية والشهوانية بالتزوير والخداع. الحياة الدينية تحصل على معنى إلى جانب العقل، حيث يجب على الإنسان دائمًا العمل بناءً على معايير الإسلام، وعدم وجود العقل في الحياة يعني عدم الوجود.

٢-٢. جامع الدين والدنيا: الحياة الطيّبة التي تظهر في ظل الإيمان والعمل الصالح تعدّ واحدةً من خصائص تنظيم حياة الإنسان في الدنيا والآخرة. قد يظنّ بعض الأشخاص أنّ الإيمان والتقوى

هما فقط لبناء بيت في الآخرة وراحة بعد الموت، وأنّ الأعمال الصالحة تعدّ مجرد وسيلةٍ للوصول إلى دار الآخرة. ولكن من بين مهمات الأنبياء كانت رفع مستوى حياتهم المادية. وفقًا للآيات القرآنية وأقوال أهل البيت عليهم السلام، يتم التركيز على الدنيا والآخرة توأمان، ولا يمكن نفي أحدهما على حساب الآخر. كما هو الواضح في سورة القصص: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[٢٣].

الحياة الطيبة يمكن تحقيقها من خلال الاستفادة والإستمتاع من نعم الله، ومن الواقع أنّ حرمان الإنسان نفسه من طيبات ما رزقه الله سبحانه لا يُقبل بأيّ حالٍ من الأحوال. بل هو حقيقة، ويتعين على الإنسان أنْ يدرك حياته في الدنيا تمثل استعدادًا لحياته في الآخرة، وتتحقق سعادة الآخرة من خلال العمل والجهد في الدنيا. ويُظهر ذلك بأداء الأعمال الصالحة والمساعي الشريفة، ممّا يُتيح للإنسان الوصول إلى مراتب أعلى في الآخرة، كما ذُكر في قول أمير المؤمنين عليه السلام: "واعلموا عباد الله أنّ المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهلَ الدنيا في دنياهم، ولم يُشارِكهم أَهلُ الدنيا فِي آخرتهم"[٢٤].

وقد أشار الله تعالى فى سورة المائدة الى نعمه بقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** ﴾[٢٥]. تشير هذه الآية الشريفة إلى أنّ أهل الكتاب، لو اتبعوا الحقيقة المتعلقة بالكتاب وبرامج السماء، وقاموا بعقائدهم وسلوكهم وفقًا لذلك، لكان الله قد جعلهم أغنياء في حياتهم الدنيا. وقد عبّر الله عن فرحهم بهذا الإحسان بجملةٍ قصيرةٍ وذات معنى في هذه الآية، ﴿ **لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** ﴾، إذ يعبّر استعمال لفظ (الأكل) في الآية الشريفة عن التمتع والاستمتاع، سواءً كان ذلك من خلال الأكل أم بوسائل أخرى. وفي هذه الآية، يتم استخدام ﴿ **مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ** ﴾ بشكل عام للدلالة على السماء والأرض؛ لذا في هذه الآية الشريفة، بدلًا من أنْ تقول إنّ أهل الكتاب كانوا سيصبحون متمتعين بنعمٍ سمائيةٍ وأرضيةٍ إذا اتبعوا الأوامر التي كانوا يحملونها، عبّرت بالكناية عن ذلك بالقول إنّهم سيأكلون من فوق رؤوسهم ومن تحت أقدامهم[٢٦]. في تفسير القمي، تُفَسَّر عبارة (مِن فَوْقِهِم) بالأمطار، وعبارة (مِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم) بالزرع.[٢٧]

بناءً على ذلك، يؤدّي الإيمان والعمل الصالح إلى رفاهية وازدهار المجتمع، بينما الكفر والعصيان يؤديان إلى الانهيار والزوال؛ لذلك، إذا ألتزمنا بتنسيق حياتنا مع الآيات القرآنية وعملنا وفقًا لمشيئة الله، فإنّنا نجعل حياتنا تكون حياةً طيّبةً ونقيةً ورفيعة الجودة.

٣-٢. نعمة باقية ونور الهداية: حياةٌ طيّبةٌ نعمةٌ دائمةٌ لا تنتهي ولاتزول، ولذةٌ صافيةٌ بلا ألمٍ أو انزعاج. إنّها حياةٌ كاملةٌ لا يمكن اختراقها بالدنس أو القذارة أو الفساد. يقول الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ** ﴾[٢٨].

رجال ونساء المؤمنين بالحياة الطيّبة التي عاشوها لأنفسهم، اشتروا نور الخلود وأعدوا لأنفسهم في هذه الحياة الهادئة التي تنسجم مع داخلهم، وبصبرهم وتحملهم، صنعوا لأنفسهم الخلود والفوز العظيم في الآخرة من ثمرات العيش الطيب وحياة طيّبة، قلبهم مطمئن وهادئ في هذا العالم المليء بالصعوبات والحرية من الظلمات في بركان الإيمان. إنّ هذه النورانية تنمو وتتطور في قلب الحياة الطيّبة. إنّ هذه النورانية، التي يسلكها الإنسان، هي الطريق إلى التقدم. قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[٢٩].

قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[٣٠].

ويقول لإمام السجاد عليه السلام في دعائه: "اللهم هب لي نورًا أمشي به في الناس"[٣١]، أي اللهم انعمني بنورٍ يمكنني من التحرك والسير بين الناس.

٤. طرق الوصول إلى الحياة الطيبة

الأنبياء والأئمّة الإلهيين، الذين يُعَدون أفضل مثالًا للإنسان الكامل، هم الذين تمتعوا بأعلى مراتب القدسية ويحظون بمرتبةٍ شامخةٍ من روح القدس؛ إذ تُعَدُّ روحهم فعلًا محضًا وفقًا لهذه القاعدة، قاموا بتحقيق أعلى مستوى من الحياة الطيّبة. وبفضل هذه الدرجة من الروح وهذه المرتبة من الحياة، احتوت معارفهم العلمية على جميع ذرات العالم، وتكشفت جميع الحقائق في رؤيتهم.

الإمام الخميني يقول: "بالنسبة للأنبياء والأوصياء، هناك موقفٌ شامخٌ من الروحانية، ويُقال عنها إنّها من روح القدس، وتحظى بتلك المناصب بتحيز علمي يحيط بكلّ جزء من كائنات الكون. وفي هذه الروح، لا يوجد مجال للغفلة أو النوم أو الإهمال أو النسيان أو أي عيوب ملكية أخرى، بل هي منفصلة عن العالم الغيبي ومعزولة عن الجبروت الأعظم"[٣٢].

أعلى درجات الحياة الطيّبة تكمن في الإنسان الكامل الذي هو بذاته كلمة (طيّبة)، هو تكوين إلهي. الإنسان الكامل هو حيٌّ متصلٌ بالله وقد تمت إحاطته بالفعل النقي، وقد حاز على أعلى المراتب الروحية حيث تكون الروح القدس. جميع البشر يحملون حياةً مشتقةً من هذا النفخ ﴿ **ونفختُ فيه من رُوحي** ﴾ وهي متكئة على هذه الحياة. المؤمن، على طول الخلود، يستند إلى روح تصديق ومؤيد ﴿ **أيّدهمْ برُوحٍ منه** ﴾ وهو يتمتع بحياةٍ طيّبةٍ مستمدةٍ منها.

ومع ذلك، فإنّ المرحلة العالية والكاملة للروح، وهي الروح القدس، تم وضعها وديعة لدى للأنبياء والأئمّة من قبل الله. هذه الروح، التي لا تفصل عن وجودهم، هي حقيقة رفيعة المستوى جدًا تعطي لهم أعلى درجات الحياة الطيّبة، وتؤدّي إلى فائض البركات المتوقّع لهذه الحياة الملكوتية المرتبة[٣٣].

في الأحاديث يُذكر أنّ هناك ثلاثة أنواع من الأرواح: روح القوة، وروح الشهوة، وروح الجسم، التي تكون مشتركةً بين جميع البشر. أمّا المؤمنون، فيكونون مُزوّدين بروح الإيمان إلى جانب هذه الأرواح الثلاث، والمعصومون يستمدون من روح القدس إضافةً إلى الأرواح الأربع السابقة.

يؤدّي المعصومون بفضل روح الإيمان عبادة الله ولا يشركون به، وبفضل روح القوة يجاهدون أعداءهم ويتدبّرون في قضية معاشهم، وبفضل روح الشهوة يستمتعون بطعامٍ لذيذ، وبفضل روح الجسم يتحرّكون. يمكن أنْ تكون هذه الأحاديث معقّدة، إلا أنّها تعتمد على روح القدس[٣٤].

روح الإيمان هي روح السكينة التي ينزلها الله في قلوب الذين يؤمنون به، ليدعمهم ويحميهم بذلك. وفيما يلي أهم السبل لتحقيق الحياة الطيبة، حيث يتم تهيئة البيئة لتنمية الفضائل الأخلاقية والوصول إلى الحياة النقية، ممّا يقرب الإنسان تدريجيًا إلى الله.

١-٣. معرفة النفس: تصحيح العلاقة بين الإنسان ونفسه وواجباته في هذا السياق لا يكون ذا أهميةٍ كبيرةٍ فقط، بل يكون له تأثير أيضًا في تصحيح العلاقات مع الآخرين. معرفة النفس أو فهم الذات يعدّ الواجب الأول للإنسان في تفاعله مع نفسه. يجب على الإنسان أنْ يقوم بفحص نفسه من جوانب متعددة للوصول إلى فهمٍ صحيحٍ لها ومن ثم تحديد موقفه في عالم الكيان وتعامله مع الأخرين. وبهذه الطريقة يتعرف على وضعه بالنسبة لخالقه ويدرك إمكانياته وكيفية تكوين وجوده وعلاقتها ببعضها، بالإضافة إلى معرفة توجهاته ورغباته ونقاط قوته وضعفه وعجزه. في هذا السياق، يأخذ الإنسان فهمًا شاملًا لنفسه يعمل على بناء العلاقات بشكلٍ صحيح مع الله ومع الآخرين. وفي مدى أهمية الوعي بالذات، يقول الإمام علي: "مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ"(٣٥).

القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى التأمل في آيات الله في ذاته؛ لأنّه يعدّ أقرب الكائنات إلى الإنسان. ومن جهة أخرى، تكون آيات قوة وحكمة الله في خلق الإنسان أكثر وضوحًا بالنسبة له من غيرها من الآيات الإلهية. ﴿ **فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾(٣٦).

التعرف على النفس يساعد الإنسان على الوعي بموقفه في عالم الكائنات وقدراته وكراماته، وعلى النعم والإمكانيات التي وهبها الله له. يمكن للإنسان، كأعلى مخلوق على وجه الأرض ووارث الله، استعادة مكانته الرفيعة والخاصة به من خلال اتخاذ المسار الصحيح للاستفادة من الإمكانيات والحفاظ على كرامته. الإنسان هو أعلى المخلوقات ووارث الله في الأرض، وتتيح قدرته الوجودية له أنْ يكون قائدًا للملائكة ويأمر بهم بالسجود لآدم، ويعلمهم جميع الأسماء. الإنسان، بألف عين وأذن، إلخ، التي وهبها الله لفهم العالم، يجد كرامته وتأهبه للقتال ضد جهله عند خروجه من رحم أمه، ويكون جاهزًا لذلك وفق ما قال الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾(٣٧).

الإنسان، مهما كان مبدعًا وكانت الوسائل متاحة له توفرًا، لا يمكنه إنكار حقيقة أنّه ليس سيدًا لنفسه، ولا يمتلك استقلالًا في تدبير حياته. لو كان ذلك ممكنًا، لكان قادرًا على تجنب الموت والآلام والمحن الأخرى في الحياة، وإذا كان مستقلًا في تدبير حياته، لم يكن بحاجة إلى الخضوع لإرادة الله في

مقام الخالق؛ لذلك، يكتب الفقر والاحتياج فوق جبين الإنسان، وهو حقيقة يعترف بها كل إنسان، بغض النظر عن مستواه العلمي أو العمري؛ ولذلك، يرى الإنسان في كلّ مرحلةٍ من مراحل حياته بوضوح أنّ لديه مالكًا ومدبرًا وخالقًا، حتى لو لم يكن يروج إلى الله، إلا أنّه يشعر بحاجته الأساسية بوضوح. لذلك، معنى الآية الشريفة هو أننا جعلنا الإنسان على علم بحاجته واعترافه بربوبيتنا[٣٨].

٢-٣. الإيمان والعمل الصالح: إحدى الطرق الرئيسة لنيل الإنسان الحياة الطيّبة هو الإيمان والعمل الصالح. يقول الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبة وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٣٩]. إذ تصّرح هذه الآية الشريفة بوضوح أنّ الحياة الطيّبة تعتمد على الإيمان والعمل الصالح، وهما من الجوانب الرئيسة والأساسية للحياة الروحية والطيّبة. نعم، الله هو مصدر الحياة، ولكن الله تعالى ينعش هذه الحياة للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة. ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طيّبةً**﴾. يقول الإمام علي: "بالإيمان يُرتقى إلى ذروة السعادة ونهاية الحبور"[٤٠].

الإيمان والعمل الصالح هما شرطان أساسيان للوصول إلى الكمال والاستمتاع بالحياة الطيّبة. يمكن لمجموعةٍ جيدةٍ من الفعل الذي يأتي من إيمانٍ متيقنٍ ونفسٍ مؤمنةٍ بالمعارف الإلهية، وفعلٍ جيدٍ يتناسب مع التوجيهات الوحيية والرسالية، أنْ تكون مفتاحًا للإنسان لتحقيق الحياة الطيّبة[٤١].

بعبارةٍ أخرى: هناك شرطان ضروريان للوصول إلى الحياة الطيّبة، أحدهما حسن الفعل، والآخر حسن الفاعل. إذا كان لدى شخص إيمان، أي إنّه مقتنع ومؤمن بالمبدأ والمعاد، فإنّه يكون مؤهلًا للتمتع بالحياة الطيّبة. الإيمان هو المنبع والأساس للعمل، حيث يكون الإيمان مثل جذر شجرة قوية في إسلامه، والعمل الصالح هو ثمرته وفاكهته؛ لذا يكون الإيمان والعمل الصالحان ضروريين ومترابطين مع بعضهما البعض. وما يُهيئ الأرضية لتحقيق الحياة الطيّبة هو وجود نفسٍ نقيةٍ والقيام بالأعمال الصالحة[٤٢].

يقول الإمام علي عليه السلام في معنى الإيمان: "الإيمان معرفةٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان"[٤٣]. وبناءً على هذا التعريف للإيمان، يكون للإيمان ركنان، الركن الأول في الجانب المعرفي والعقائدي، والثاني في

الجانب العملي، حيث إنّ القول أيضًا يعدّ جزءًا من العمل.

الله تعالى يتحدث عن العواقب الدنيوية للأعمال في القرآن الكريم: ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾[٤٤].

في هذه الآية الكريمة والعديد من الآيات الأخرى، يُشدد على أنّ الإيمان والأعمال الصالحة يتداخلان ويتشابكان معًا، ويخلقان الظروف لتحقيق حياة طيّبة. يعدّ القرآن الكريم السعادة والحياة الطيّبة في إطار مجموعة الإيمان والأعمال الصالحة. المقصود من (الإيمان) هو الإيمان بذات الربوبية القدسية، إذ يعني الإيمان به يعني الإيمان بجميع حقائق الكون. إنّ أحد أركان حياة الإنسان هو أنْ يكون مؤمنًا بأصل، وأنْ يكون قائمًا على الحقيقة ويعتقد فيها، ويكون مطيعًا لها ويستسلم لها، ويظهر الالتزام بها والتفاني والتضحية من أجلها. يكون الأمر الذي يكون محل إعجاب واعتقاد الإنسان فوق جميع القدسيات وجميع الأمور الرفيعة بحيث يكون الإيمان به شاملًا للإيمان بجميع حقائق الحياة.

الركن الثاني أيضًا سيكون عملًا صالحًا، نقيًا، وصافًا لروح الإنسان، إذ إنّ للإنسان روحًا وجسمًا وقلبًا، والإيمان يجب أنْ يكون ثابتًا في منطقة الروح والقلب. يجب أنْ يكون للإنسان الثقة والإيمان في هذه المناطق وألا يكون متحيرًا أو مرتبكًا، مما يجعل الروح تكون صالحة.

فسعادة الإنسان تكمن في الركينين الإيمان والأعمال الصالحة. الإيمان بأقدس وأعلى الحقائق، الذي يتضمن الإيمان بالكائن الواحد الذي هو مصدر المعرفة والقوة والنظام والحكمة والحياة والسعادة. وكذلك العمل الصالح واللائق والنافع الذي يكمل الإنسان ويدعمه ويؤدي إلى تحقيق تأثيراتٍ إيجابيةٍ وجيدة.

إنّ العديد من الروايات تشهد لهذا الأمر، أنّه للوصول إلى الحياة الطيّبة يجب أن يكون الإيمان والعمل الصالح مقترنين معًا ليصبحا مفيدين: "الإيمان والعمل إخوان توأمان ورفيقان لا يفترقان، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه"[٤٥]. إنّ الإيمان والعمل يحملان بعضهما البعض، وهما رفيقان لا ينفصلان أبدًا، ولا يقبل الله أحدهما بدون الآخر.

ملخّص الكلام هو أنَّ الإيمان يظهر ثماره عندما يترتب عليه عمل صالح. وفي أهمية العمل، يجب أنْ يعرف أنّه من وجهة نظر القرآن الكريم، يُثْمِر العمل الصالح في رفعه و صعوده إلى السماء: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[٤٦].

القرآن الكريم، في العديد من الآيات، يصف نتائج الإيمان والعمل الصالح بأنّها الفرار من الظلمات إلى النور، والدخول الجنة، والمأوى في جنان الجنة، ومكافأة غير محدودة. وتلك المكافأة غير المحدودة تتمثل في حياةٍ طيّبةٍ ودائمة؛ لذا، ما يجعل فضل الله ورحمته تعالى تُمنح لعباده الصالحين بلا جدارة هو إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

٣-٣. الصلاة: أفضل العمل الصالح عند الله والأنبياء وأولياء الله هو الصلاة، وقد تم توجيه الأمر بأداء الصلاة وحفظها في جميع الأوقات، وقد تم تعريف الصلاة كأفضل الأعمال وعماد الدين. فيما بين العبادات والطقوس الإلهية، تكتسي الصلاة طابعًا جامعًا وعبوديًا، وتعدّ وسيلةً لصعود الإنسان إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني.

يجدر بالذكر أنّ الحياة الطيّبة في حد ذاتها تحمل درجاتٍ ومراتب، وكلّما زاد إيمان الإنسان وأعماله الصالحة، زادت حياته الطيّبة من وجود وتعقيد، وزادت مراتبها وتفوقها الروحي. في الواقع، تتمتع الحياة الحقيقية للإنسان بمراتب وعمق، وقد تم وضع هذه المراتب بشكلٍ ثابتٍ في جوهر الإنسان وتزيينها بجوهر الدين. ومن خلال تحقيق درجات ومستويات الدين، تزهر القدرات الفريدة للإنسان نحو تحقيق أعلى مراتب الحياة.

جاء في حديثٍ منقولٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الصلاة قُربان كل تقي". (مجلسي، ج ٢٠، ص ٣٠٣). في هذا السياق، تُعد الصلاة وسيلة للتقرب إلى الله والاقتراب منه، ووسيلة للتحلي بالتقوى والتورع. تحول الصلاة إلى حاجز يحمي الإنسان ويبتعدها من الفحشاء والمنكرات والأعمال القبيحة والمذمومة، ويُشدد على أنّ الصلاة التي لا تحفظ الإنسان من الفحشاء، أو لا تمنعه منها، أقلّ قيمةً من عدم أدائها.

فالصلاة هي العمل الأهم للوصول إلى حياة طيّبة وسعادة في الدنيا والآخرة. لهذا السبب، كان للرسول الأكرم والأئمة المعصومين اهتمام كبير بالصلاة، وكانت الصلاة هي أغلى وأحب الأعمال إليهم. وفقًا للتعبير النبوي، تنتزع الصلاة الذنوب كما تنسلخ أوراق الخريف، وتفتح قيد الذنوب مثل الأطواق والزنازين.

وفي تشبيه النبي صلى الله عليه وآله للصلاة، قال إنّها مثل ينابيع الماء الدافئة، حيث إذا غمر الإنسان وجهه بها خمس مرات في اليوم، فإنّه لن يترك أي أثر من الأوساخ والشوائب على جسده، وسيبقى جسده نقيًا وخاليًا من الأوساخ وستبقى حياته الطيّبة خالية من النجاسة.

٤-٣. التقوى: للوصول إلى الحياة الطيّبة الإنسان بحاجة إلى أنْ يكون متّسمًا بالتقوى، حتى يحافظ على نفسه وروحه بوساطة التقوى. فيما يتعلق بالتقوى، يقول الإمام الصادق عليه السلام: "أنْ لايَفْقِدَكَ اللهُ حَيْثُ اَمَرَكَ، وَلايَراكَ حَيْثُ نَهاك"(٤٧)

هذه الجملة تظهر أهمية وجود التقوى في جميع جوانب الحياة، إذ يجب على الإنسان أنْ يلتزم بأوامر الله في كل مكان وزمان، وأنْ يتجنب ما نهى الله عنه. التقوى تعني الامتثال لأوامر الله وتجنب النواهي الإلهية، وهي أساس للحفاظ على نقاء النفس والروح.

جاء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَّ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٤٨).

مصطلح الفرقان يعبّر عن شيء يفرق بين اثنين، وفي هذه الآية يشير إلى السياق الذي يرتبط بالتقوى كوسيلة للتفريق بين الحق والباطل سواء في المعتقدات أم في الأعمال. في المعتقدات، يتعلق (الفرقان) بفصل الإيمان والهداية عن الكفر والضلال، وفي الأعمال، يرتبط بتفريق بين الطاعة وأيّ عملٍ يحظى برضا الله عنه وبين المعصية وأيّ عملٍ يؤدي إلى سخطه. الفرقان ينطبق أيضًا على التمييز بين الفكر السليم والفكر الباطل في الآراء والأفكار. هذه الجوانب كلّها تعد ثمرةً ونتيجةً تنمو من شجرة التقوى(٤٩).

إنّ هذه الآية تسلط على أهمية التقوى وآثارها في مصير الإنسان. الفرقان هو شيء يفصل الحق عن الباطل بشكل جيد، وقوة عقل الإنسان تكون كافيةً لفهم الحقائق. ومع ذلك، تظهر أوتار من الطمع والشهوة والحسد والعشق الزائد للمال والنساء والجاه والمكان، مثل سحابة سوداء أمام عين العقل، أو كغبارٍ كثيفٍ يغطي المحيط المحيط. ويظهر أنّه في هذا البيئة المظلمة، يصعب على الإنسان رؤية وجوه الحق والباطل، ولكن إذا تم تنظيف هذا الغبار بوساطة ماء التقوى، يتم إزالة هذه السحابة السوداء والظلام، ممّا يجعل رؤية وجه الحق سهلة، ويجلب حياة نقية ونقية. على مر العصور، نرى رؤى واضحة للرجال والنساء الزاهدين الرشيدين الذين استطاعوا رؤية الكثير من الأحداث التي لم يكن بإمكان العقل العادي فهمها. إنّهم رأوا الوجوه الشيطانية لأعداء الحق من خلال الستائر اللبنة، وحصلوا على هذا الفرقان نتيجة لتحصيل التقوى. هذا التأثير العجيب للتقوى تم ذكره في العديد من الآيات والروايات؛ لذا فالإنسان الذي يفتقر إلى التقوى يصبح جلبة لفقدان التمييز أو سوء التمييز، وتتحول حياته إلى حياة خبيثة(٥٠) .

النتائج

١. إنّ الحياة الطيّبة التي تحدث عنها القرآن الكريم، لا تعني أنّ الحياة الإنسان قد تغيرت من الحياة الخبيثة إلى الحياة الطيّبة، أو تغيّرت صفة من صفاتها، بل هي حياةٌ جديدةٌ تُهديها الله للإنسان.

٢. عنوان وتسمية (حياة طيّبة) لا تكون مجازية، بل هي عنوان حقيقي؛ نظرًا لأنّ آثارها هي آثار حقيقية

٣. هذه الحياة الجديدة والخاصة، ليست منفصلةً عن الحياة العادية التي يشترك الجميع فيها، وعلى الرغم من أنّها لها طبيعة مختلفة، إلّا أنّها مصاحبة لها. إذًا، صاحب الحياة الطيّبة يتمتع بحياة العادية التي تكون لها تأثيرات أكثر قوةً ووضوحًا.

٤. حياة طيّبة تكون مختصّةً فقط بالأفراد الذين يتحصلون عليها من خلال العمل الصالح المستند إلى الإيمان به، ولا يكون هناك طريقٌ للآخرين للوصول إليها.

٥. الحياة الطيّبة تتجلى في هذا العالم، ويمكن للإنسان أنْ يحقّقها في العالم المادي أنْ يجعل حياته الدنيوية خاليةً من أي شوائب أو تلوث وتزينها بالحياة الطيّبة من خلال الاعتماد على الإيمان بالوجود الحقيقي (الإيمان)، وكذلك السلوك الصالح (العمل الصالح).

٦. من وجهة نظر القرآن الكريم، يتحقق الوصول إلى الحياة الطيّبة عن طريق الالتزام بمسار الإيمان بمعناه العقائدي والعملي، وتحقيق نتائج عملية للإيمان من خلال العمل الصالح.

٧. بناءً على الروايات المتعددة التي نقلها الأئمّة، يكون الإيمان مستندًا على ثلاثة أسس رئيسة: المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان والعمل بالأركان.

الهوامش

١- الشريف الرضي، نهج البلاغة، حكمة ٢٢٩؛ الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٢/ ٤٩١- ٤٩٣؛ المكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ٢/ ٣٩٤؛ چراغي، ١٣٩٠، ١٥

٢- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان فى تفسير القرآن، ١٢/ ٤١٩.

٣- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٤/ ٢١١؛ الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ١/ ١٦٨؛ الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ١/ ٤١١.

٤- قرشي، علي أكبر، قاموس القرآن، ٥/ ٢١٣.

٥- التوحيدي، أبو حيّان، المقابسات، ٣١٤.

٦- السجادي، سيد جعفر، فهرس المصطلحات الفلسفية لملّا صدرا، ٣٢٠.

٧- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٠/ ٥١.

٨- جعفري، محمد تقي، تفسير نهج البلاغة، ١٣/ ١٠٥.

٩- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ١/ ٥٦٣.

١٠- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ٣/ ٤٣٨؛ مصطفوى، حسن، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ٧/ ١٥٧؛ قرشي، قاموس القرآن ، ٥/ ١٥.

١١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ٧/ ٧٣٤؛ الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ٧/ ٤٦٧.

١٢- الأنفال/ ٢٤.

١٣- مطهري، مرتضى، مجموعة الآثار، ٢٥/ ٤٤٩.

١٤- النحل/ ٩٧.

١٥- المجادلة/ ٢٢.

١٦- الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ١٢/ ٤٩٢.

١٧- الأنعام/ ٢٢.

١٨- النحل/ ٩٧.

١٩- الرعد/ ٢٩.

٢٠- مكارم الشيرازى، ناصر، تفسير الأمثل، ١١/ ٥٦.

٢١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي،١/ ٢٥.

٢٢- جوادي الآملي، عبدالله، تفسير الموضوعى، ٢٠٤.

٢٣- القصص/ ٧٧.

٢٤- نهج البلاغة، كتاب ٢٧.

٢٥- المائدة/ ٦٦.

٢٦- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن،٢/ ٣٣٥.

٢٧- القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي،١/ ١٧١.
٢٨- إبراهيم/ ٢٤.
٢٩- الحديد/ ٢٨.
٣٠- الأنعام/ ١٢٢.
٣١- الصحيفة السجادية دعاء ٢٢.
٣٢- الخميني، روح الله، شرح أربعين حديث،٥٤٨.
٣٣- جوادي الآملي، عبدالله، تسنيم، ١١/ ١٦٥؛ الحسيني الطهراني، امام شناسى، ١٦/ ٢٥.
٣٤- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٢٨١.
٣٥- الليثي الواسطي، على بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، ٤٣٠.
٣٦- الذاريات/ ٢٢٠-٢١.
٣٧- النحل/ ٧٨.
٣٨- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٢/ ٣٠٧.
٣٩- النحل/ ٩٧.
٤٠- آمدي، عبد الواحد، غرر الحكم و درر الكلم، ١/ ١٣٠.
٤١- الطباطبائي، محمدحسين، الميزان ، ١٢/ ٦٤.
٤٢- جوادي الآملي، عبدالله، تسنيم، ١١/ ١٨٧.
٤٣- نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٧.
٤٤- الروم/ ٤٥.
٤٥- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ١/ ١٢٧.
٤٦- الفاطر/ ١٠.
٤٧- المجلسي محمد باقر، بحار الانوار، ٦٧/ ٢٨٥.
٤٨- الأنفال/ ٢٩.
٤٩- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ٩/ ٧١.
٥٠- مكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ٧/ ١٤٢-١٤٣.

المصادر والمراجع

القرآن كريم

* نهج البلاغة

* الصحيفة سجادية

* ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار الإحياء التراث العربي،١٤٠٨.

* آمدي، عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، طهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، ١٣٧٨ ش.

* التوحيدي، أبو حيان، المقابسات، تحقيق: حسن سندوبي، مصر، المكتبة التجارية، ١٩٢٩م.

* الجعفری، محمد تقی، ترجمه وتفسير نهج البلاغه، طهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، ١٣٧٦ ش.

* الجوادی الآملی، عبد الله، تفسير موضوعی قرآن كريم، قم، اسراء، ١٣٧٨.

* الحسينی الطهراني، محمد حسين، امام شناسی، مشهد، نشر علامه طباطبائی،١٤٠٤ق

* الخمينی، سيد روح الله، شرح اربعين حديث، طهران، موسسه تنظيم و نشر آثار امام خمينی، ١٣٩٠.

* راغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، بيروت، دارالعلم،١٤١٢.

* السجادی، سيد جعفر، فرهنگ اصطلاحات فلسفی ملا صدرا، طهران، انتشارات وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامی، ١٣٧٩ش.

* الطباطبائی، السيد محمد حسين، الميزان فی تفسير القرآن، قم، دفتر انتشارات اسلامی جامعه المدرسين، ١٣٧٩.

* القرشی، سيد علی اكبر، قاموس قرآن، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٢ش.

* القمی، علی بن إبراهيم، تفسير القمی، تصحيح وتقديم: جزايری، طيب، قم، دارالكتاب، ١٣٧٩.

* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الجزء: ٤، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة، طهران، الناشر: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٣ ش.

* المصطفوی، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، طهران، الناشر: بنگاه ترجمه و نشر كتاب، ١٣٤٠.

* المطهری، مرتضی، مجموعه آثار، طهران، الناشر: صدرا، ١٣٨٨ ش.

* المكارم الشيرازی، ناصر، تفسير الأمثل، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٢ش.

* واسطی، علی بن محمد ليثي، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين حسنی بيرجندی، قم، موسسه فرهنگی دارالحديث،١٣٧٤.

معالم الحياة الطيّبة في الحياة الأُسريّة

للإمام علي والسيّدة الزهراء عليهما السلام

السيد نبيل الحسني

باحث في الفكر الإسلامي وأستاذ في الحوزة العلمية / كربلاء

ملخص البحث

تمثّل الحياة الأُسرية في بيت علي وفاطمة عليهما السلام الأنموذج الأمثل لمقتضيات الحياة الطيّبة التي حددها القرآن الكريم في ركنين أساسيين وهما العمل الصالح والإيمان، وقد أظهرت النصوص التاريخية والحديثية معالم هذين الركنين في حياتهما عبر جملة من القواعد الحياتية التي كوّنت أصول العلاقة الزوجية والأُسرية فكان سمتها القناعة والطيب والهناء.

ومن ثَمَّ: فالبحث يناقش معالم الحياة الطيّبة عبر المواشجة بين النصّ القرآني وما سعت إليه الدراسات المعاصرة في علم اجتماع الأسرة وعلم اجتماع العائلة ، فضلًا عن تنوع الدراسات التربوية والنفسية، وذلك أنّ مفهوم مصطلح العمل الصالح عام وشامل وغير مقيد وهو يصلح لجميع الأُسر بغض النظر عن المعتقدات والثقافات؛ ولذا عممه القرآن على الذكر والأنثى، فكل عمل صالح يحقق النمو لكنه لا يكوّن حياة طيّبة وذلك لخلوها من الإيمان؛ ولذا كان بيت علي وفاطمة عليهما السلام مثالًا للحياة الطيّبة الفاضلة.

المقدّمة

"الحَمْدُ لله عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُكْرُ عَلى ما أَلْهَمَ، والثَناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمُومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغُ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، "[1].

والصلاة والسلام على خير النّعم ومكامن القيم أبي القاسم محمّدٍ وعلى آله "أساس الدين وعماد اليقين"[2] وسلّمَ تسليما كثيرًا.

وبعد:

فإنّ من أهمّ النّعم الإلهيّة على الإنسان أنْ خلق له من نفسه زوجًا، وجعل له سكنًا ليلتجئ إليه، وعيشًا ليهنئ فيه، فجللّه بالمودة والرحمة، وأوثقه بالإيمان، وقيّده بالمعروف والإحسان[3]، فجعل فيما يفضي أحدهما للآخر بالميثاق الغليظ[4]؛ ليكون عيشهما مسومًا بالصلاح، ويثمر بالفلاح ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

وقد قدّم الإسلام عِبّر الحياة الأسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام مثالًا للبشرية في تكوين الأسرة التي تتسم بالحياة الطيّبة، وذلك عِبْر جملة من القواعد الحياتية التي سنّها النبي صلى الله عليه وآله لهما، والتي ترتكز على سِمة الصلاح والإيمان بالله تعالى لينال بذلك ما وعد الله به الذكر والأنثى من إحرازهما الحياة التي وسمها (جلّ شأنه) بالطيّبة، وليتبلور بهذا المنهاج القناعة بالعيش المشترك، وتقاسم الواجبات وبلوغ الحياة الفاضلة.

فضلًا عن ذلك فقد كشفت هذه القواعد والمنهاج الذي سنّه النبي صلى الله عليه وآله عن الحلول الناجعة ومعرفة الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى ورود المصاعب والهموم والمشاكل على كثيرٍ من الأسر وذلك لخلوها من العمل الذي قيّده القرآن بالصالح ومن الإيمان بما فرض الله تعالى على الرجل والمرأة من واجباتٍ وما أعطاهما من حقوق.

ومن ثَمَّ، فقد اشتمل البحث على تمهيد ببيان معنى مفردات العنوان ومناهله المعرفية، وثلاثة مباحث تتفرع إلى بعض المسائل، وخاتمة بالنتائج.

فأمّا المبحث الأول: فقد خُصّص لبيان معنى الأسرة ومفهومها في القرآن والسُنّة والمواثيق الدولية، وذلك لدفع كثير من المفاهيم المغلوطة في تكوين الأسرة، ولاسيّما ما يشهده كثير من المجتمعات الغربية في عالم اليوم.

والمبحث الثاني: تناول القواعد التي وضعها رسول الله ﷺ لتأصيل الحياة الأسرية وأثرها في تكوين معالم الحياة الطيّبة، وتشمل (قاعدة التكافئ الزواجي)، و(قاعدة المودة والرحمة).

والمبحث الثالث: تناول بيان منهاج النبيّ ﷺ بتقسيم المسؤوليات الحياتية بين علي وفاطمة عليهما السلام وأثره في تكوين معالم الحياة الطيّبة، ويشمل مراعاة وضع المرأة البدني والنفسي، والإنصاف في تقسيم المسؤوليات والمساواة بينهما، وتقديم الجانب الإنساني في التقسيم.

فإنْ أصبت فذلك مبلغ علمي ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾(٦)، ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾(٧).

التمهيد: معنى مفردات العنوان ومناهله المعرفية.

أولًا ـ معنى المَعْلَم .

ترشد معاجم اللغة إلى أنّ معنى المَعْلَم بسكون العين وفتح اللام، هو: العلامة، والدلالة، والأثر الذي يرشد الإنسان إلى مقصده سواء كان في الطريق أم الفعل أم السمة، فقولهم: "مَعْلَمُ الطريق: دَلالتُه، وكذلك مَعْلَم الدِّين على المثل. ومَعْلَم كلِّ شيء: مظِنَّتُه، وفلان مَعلَمٌ للخير كذلك، وكله راجع إلى الوَسْم والعِلْم، وأَعلَمْتُ على موضع كذا من الكتاب عَلامةً. والمَعْلَمُ: الأَثرُ يُستَدَلُّ به على الطريق، وجمعه المَعالِمُ"(٨).

ثانيًا ـ معنى مصطلح (الحياة الطيّبة) ومفهومه في القرآن والسُنّة.

١ـ معنى مصطلح الحياة الطيّبة في القرآن.

يتكون المصطلح من مفردتَي (الحياة) و(الطيّبة) وبالرجوع إلى معناهما اللغوي يتضح مفهوم وسم القرآن للحياة بالطيّبة وخصوصية انحصارهما في العمل الصالح والإيمان في قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٩).

فقد أرشدت اللغة إلى أنّ معنى "الحياة: ضد الموت، والحي: ضد الميت، والمحيا: مفعّل من الحياة"[١٠]. ومعنى: "الطيِّبُ من كلّ شيءٍ: أَفضَلُه. والطَّيِّباتُ من الكلام: أَفضَلُه وأَحسنُه"[١١].

ومن ثمَّ: فدلالة النصّ القرآني للحياة الطيّبة يراد بها: الحياة الفاضلة، أو تقديم ما هو الأفضل في الحياة أو أنْ يعيش الأنسان الحياة الأفضل في كلّ شيء، وعند عرض هذا المفهوم على الحياة الأسرية للإمام علي وفاطمة عليهما السلام فإنّها سمتها وعلامتها بأنّها أفضل أسرة يحتذى بها لتكوين الحياة الطيّبة والأمثل في معْلَمَيّ العمل الصالح والإيمان.

٢ ـ معنى الحياة الطيّبة في السُنّة.

ترشد النصوص الشريفة عن العترة النبويّة عليهم السلام إلى أنّ الحياة الطيّبة التي نصّ عليها القرآن وحَدَّها بالعمل الصالح والإيمان بأنّها: القناعة. فقد روى الشريف الرضي (رحمه الله) (ت٤٠٦هـ)، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه سُئل عَنْ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّه حَياةً طيّبة﴾؟ فَقَالَ: "هِيَ الْقَنَاعَةُ"[١٢]. وروى الشيخ الطوسي (رحمه الله) (ت٤٦٠هـ) بسنده عن الإمام علي الهادي، عن الجواد، عن الرضا، عن الكاظم عليهم السلام، قال: قال سيدنا الصادق عليه السلام) في قوله: ﴿**فلنحيينه حياة طيّبة**﴾؟ قال: "**القنوع**"[١٣].

وروى الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، والبيهقي (ت٤٥٨هـ) كلاهما عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن قوله تعالى: ﴿**فلنحييه حياة طيّبة**﴾، قال: "القنوع"، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو، فيقول: "**اللهم أقنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير**"[١٤].

٣ ـ المفهوم التركيبي لمصطلح الحياة الطيّبة بين القرآن والسُنّة وأثره في الحياة الأسرية.

إنّ النصوص الكاشفة عن مفهوم (الحياة الطيّبة) ومعناه في السُنّة لا تعني المغايرة مع المعنى اللغوي الذي مرّ بيانه، وإنّما تقدم السُنّة مفهومًا تامًا عن الحقيقة الشرعية للحياة الطيّبة للرجل والمرأة؛ وذلك أنّ اجتماع المفهومين للحياة الطيّبة في القرآن والسُنّة ينتج عنه بيان السِمة والعلامة التي اتسمت بها الحياة الأُسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام، وهي القناعة بما خصّ الله الرجل والمرأة من واجبات، والرضا والتسليم لما حدّد لهما من مهامٍ ومسؤولياتٍ ليُكمّل كلٌّ منهما الآخر في بناء الحياة الأسرية الأمثل، وهو ما سنعرض له عبر المباحث ومسائلها، وهي على النحو الآتي:

المبحث الأول: معنى الأسرة ومفهومها في القرآن والسُنّة والمواثيق الدولية.

يعدّ أمر الوصول إلى تعريفٍ جامعٍ مانعٍ للأسرة ومفهومها من الأمور العسيرة على الرغم من "أنّ مدلول الأسرة معروفٌ لدى جميع الناس، وموجودٌ في كلّ مكان"[١٥]؛ وذلك لاختلاف المفاهيم والثقافات المجتمعية قديمًا وحديثًا، بل أننا لنجد أنّ الثقافات المعاصرة لأعسر في الوصول إلى معنى الأسرة ومفهومها ولاسيّما ما يشهده العالم من تصدير لمصطلحات تستظلّ بمظلة أحقيّة الفرد في حرية الاختيار في تكوين الأسرة وبغض النظر الى النوع والجنس وإنْ كانت تتعارض مع الثوابت الشرعية للديانات السماوية المقتضية اجتماع الرجل والمرأة برابطٍ شرعي تحت سقفٍ واحد .

وقد أرجع المختصّون في علم اجتماع العائلة الصعوبة في الوصول إلى تعريفٍ الأسرة إلى أنّه يكمن في دلالة المفردة نفسها، "فهل الأسرة النواة الصغيرة، الزوجان وأطفالهما؟ هل العلاقات بين الزوج والزوجة، أم العلاقات القائمة بين الوالدين والأطفال هي عماد الأسرة؟ هل تضمّ الأسرة كلّ شجرة الأسرة، جميع الأقارب الأعمام والعمات، الأخوال والخالات، والجدود والجدات، إضافةً إلى الزوجين وأطفالهما وأبناء هؤلاء الأطفال وبقية الأقارب من الدرجة الثانية والثالثة، أو ما نطلق عليه العائلة أو العيلةهي الأسرة؟"[١٦].

بينما يصبّ أحد الباحثين تساؤلاته عن: "العناصر التي يمكن إغفالها عند تعريف الأسرة هل هي: روابط الدم، روابط الزواج، معيشة الأفراد مع بعضهم البعض وشعورهم بالولاء، وبالمماثلة والتطابق، أم هي بعض هذه العناصر؟ وكيف تختلف قيمة تجربة الحياة في جماعات نطلق عليها أُسر، في جماعات أخر لا نعدّها أسرية؟ وهل يمكن تطبيق تعريف معين للأسرة على كلّ الثقافات، وفي كلّ العصور التاريخية"[١٧]؟

ولذلك كلما تقدّم الزمن ازداد مفهوم أو تعريف الأسرة صعوبة، ولاسيما في العصر الحديث، حيث ظهرت (الأسر العصرية) التي: "لا تأتلف رابطتها من أجل الإنجاب، بل قد يتعاقد الزوجان على إقصائه، كما لا تكون مكوناتها هي الأب والأم والأولاد، ولا تربطها علاقة أب وأم"[١٨] والعياذ بالله.

ومن ثَمّ: تتجلى لدينا الحكمة في تقنين القرآن للحياة الطيّبة التي يسعى إلى نيلها الرجل والمرأة على حدٍّ سواء بالعمل الصالح والإيمان بالله تعالى، وتتجلّى لدينا أهمية دراسة معالم

الحياة الأسرية للإمام علي والبضعة النبوية فاطمة عليهما السلام بوصفها الأسرة الأفضل والأثر الأمثل الذي يحتذى به للوصول إلى الحياة الطيّبة المثمرة. ولاسيّما عند دراسة التعاريف والمفاهيم التي صدرت عن المنظمات الدولية والحقوقية وما عقدته من مواثيق ومعاهدات ركزت على الحريات الشخصية وأهملت الصلاح لبني الإنسان والحفاظ على قيمته وسمته الإنسانية .

ومن ثمَّ، لا بدّ من المرور بهذه التعريفات لنصلّ إلى معرفة تقنين الإسلام لنظام الأسرة، والحرص على وسمها بالحياة الطيّبة، وهي على النحو الآتي:

المسألة الأولى: الأسرة لغةً

هي: الدرع الحصينة، وأهل الرجل وعشيرته، ورهطُه الأَدْنَوْنَ؛ لأنّه يتقوى بهم. وتطلق على الجماعة يربطها أمرٌ مشترك، وجمعها: أُسر[١٩].

المسألة الثانية ـ مفهوم الأسرة في القرآن والسُنّة.

١ـ مفهومها في القرآن.

يتسق المعنى اللغوي مع القرآن والسُنّة في بيان مفهوم الأُسرة ومعناها بأنّه الآل والأهل والعشيرة، فقد أشارت الآيات في قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٢٠].

وقوله : ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[٢١]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[٢٢]، وغيرها من الآيات إلى مفهوم الأسرة.

٢ـ مفهومها في السُنّة.

أمّا السُنّة، فقد صرّحت بلفظ الأسرة ومعناه في أهل الرجل وآل بيته، ومنها:

١ ـ قوله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين الذي أخرجه مسلم النيسابوري في صحيحه عن زيد بن أرقم، قال: "قام رسول الله صلى الله عليه وآله يومًا فينا خطيبًا بماء يُدعى خمًّا... إلى أنْ يقول: فحثّ على كتاب الله ورّغب فيه، ثم قال صلى الله عليه وآله: "**وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي**". فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس..."[٢٣].

ويكشف النصّ عن معنى الأسرة عند العرب وارتكازه في آل الرجل، وهم ولده، وممّا يدلّ عليه:

٢ ـ قول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في صفة النبيّ صلى الله عليه وآله: "**حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ الله سُبْحَانَه وتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فَأَخْرَجَه مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتًا، وأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِسًا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَه، وانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَه، عِتْرَتُه خَيْرُ الْعِتَرِ، وأُسْرَتُه خَيْرُ الأُسَرِ**"(٢٤).

ومن ثَمَّ، يتحدد مفهوم الأسرة ومعناه في القرآن والسُنّة مع اللغة في الآل والأهل والعشيرة، لكنّه يتفاوت في القرب والبعد مع تعاريف علم اجتماع العائلة والمنظمات الدولية التي تعنى بحقوق الإنسان والأسرة، وهو كما يلي:

المسألة الثالثة: مفهوم الأسرة في علم الاجتماع والمواثيق الدولية.

١ـ تعريفها في علم الاجتماع.

تتعدّد المفاهيم التي تناولت موضوع الأُسرة في علم الاجتماع، إلاّ أنّ المفهوم الذي قدمته السيدة ديان كارو (Diane Gareau) الكندية، يكشف عن رؤيةٍ تتناغم مع الحسّ الروحي الذي جاء به قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾(٢٥)، فتقول: "هناك حيث تبدأ التربية، وهناك، حيث تتشكل قيمنا الأخلاقية، وهناك، حيث يتحسس البشر بيئته الاجتماعية، وهنا حيث يحتضن المودة، فذلكم هو ما ينبغي أن تكون عليه الأسرة"(٢٦).

ويخلص التعريف والمفهوم إلى الركائز التي حثّ عليها الإسلام في بيان معالم الحياة الطيّبة عبر القيم الأخلاقية والتربية عليها، والتي تجمعها المودة كما سيمر بيانه في الحياة الأسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام.

٢ ـ تعريفها في وثيقة الاتحاد الدولي لمنظمات الأسرة (U.I.O.F)

لم تغفل المنظمات الدولية عن أهمية الأسرة وأثرها في تكوين المجتمعات والقيم التي تسودها فهي ـ أي الأسرة ـ: النواة التي تكوّن المجتمع وأخلاقياته، فقد جاء في المادة الأولى من المشروع الذي أعدّه الاتحاد الدولي لمنظمات الأسرة، Union Intrenationale Des Organisations (Dela) Famille تعريف جامع لمفهوم الأسرة ومحدّد لمسؤولياتها ووظائفها، فالأسرة "هي العنصر الأساسي للمجتمع، يمارس أعضاؤها وظائف، ولهم حقوق، وعليهم واجبات.

والأسرة: حقيقة واقعة لا يمكن الاستغناء عنها، وهي تضطلع بمسؤولية التربية والتكوين والتثقيف، وتساهم في بناء الاقتصاد، وإرساء قواعد المجتمعات. وهي: إطارٌ طبيعيّ لتوفير تربية وعيش رغيد لأعضائها، وهي: مكانٌ متميّزٌ للتبادل والأخذ والعطاء بين مجتمعاتها"[٢٧].

ومن ثَمَّ: تتوافق هذه المفاهيم مع المفاهيم التي جاء بها الإسلام في بيان معنى الأسرة ومفهومها وما يترتّب عليها من مهامٍ وواجباتٍ، وما يناط بها من وظائف يتقاسمها الرجل والمرأة بوصفهما العنصرين الأساسيين لتكوين الأسر، وسبل الترابط مع غيرها لتكوين المجتمعات، سواء بمكونها العشائري أم القبلي أم المجتمعي .

لكن هذه التعاريف لم تركز على أثر العمل الصالح والإيمان في تكوين الحياة الأسرية التي تنعم بالطيب والهناء، وإنْ اقتربت في بعض عناصرها من المفاهيم الإسلامية.

من هنا: نجد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قدّم للأمة الأنموذج الأمثل للحياة الطيّبة التي تسود الأسرة، وذلك عبر الحياة الأسرية التي جمعت تحت مظلتها الإمام علي وبضعة النبوة فاطمة عليهما السلام، كما في المبحثين الآتيين:

المبحث الثاني: القواعد التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله لتأصيل الحياة الأُسرية وأثرها في تكوين معالم الحياة الطيّبة

تدور معالم الحياة الطيّبة في النصّ القرآني في العمل الصلح والإيمان، وعند عرضهما على منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وضعه لبيت علي وفاطمة عليهما السلام بالمعنى الأخص، ولجميع الأسر بالمعنى الأعم نجده يشمل (قاعدة التكافئ الزواجي)، و(قاعدة المودة والرحمة).

فهاتان القاعدتان تستندان إلى العمل الصالح، وبذلك تصلحان لجميع الأسر وبغض النظر عن الدين أو الثقافة التي يحملها الذكر والأنثى، كما نصت عليه الآية المباركة – موضع البحث – فالتكافئ بين الرجل والمرأة هو في أصله يقود إلى صلاح الحياة الأسرية بين الزوجين، وكذا المودة والرحمة، ولكنّهما لا تكفيان لخلق الحياة الأُسرية الأمثل لخلوهما من الركن الثاني وهو الإيمان بالله تعالى والامتثال لما أمر به، والنهي عما نهى عنه في الحياة الأُسرية.

ومن ثَمَّ، فقد رّكزت الدراسات المعاصرة في علم اجتماع الأُسرة والعائلة والنفس وغيرها على أهمية (التوافق الزواجي)، و(المودة بين الزوجين) في إنجاح الحياة الأسرية، والذي عُرف

في السُنّة النبويّة بـ (التكافؤ الزواجي) وقاعدة (المودة والرحمة) بوصفهما معلمين أساسين في الحياة الأسرية التي تسعى إلى الحياة الطيّبة.

المسألة الأولى: قاعدة (التكافؤ الزواجي) في السُنّة وما يقابلها من قاعدة (التوافق الزواجي) في العلوم الاجتماعية.

ترجع قاعدة التكافؤ الزواجي في السُنّة إلى إعراض النبيّ ﷺ عن جميع الذين تقدّموا لخطبة فاطمة عليها السلام وردّهم ، وتزويجها للإمام علي عليه السلام. وقد كشفت الروايات عن العلّة في ذلك، فضلًا عن بيانها لقاعدة التكافؤ الزواجي وأهميتها في الحياة الأُسرية.

ومن ثَمَّ، فقد قدمتها السُنّة النبوية بوصفها أحد أهم معالم الحياة الطيّبة في الحياة الأسرية، وذلك لأرتكازها على القناعة المتبادلة بين الرجل والمرأة وفق مبدأ التكافؤ الشخصي والاجتماعي بينهما.

فقد أخرج الكليني والشيخ الصدوق (رحمهما الله) عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: "**لَوْ لَا أَنَّ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى خَلَقَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِفَاطِمَةَ عليهما السلام مَا كَانَ لَهَا كُفْوٌ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ آدَمَ وَمَنْ دُونَه**"[٢٨] .

ومن ثَمَّ، توّجه الرواية الرجال والنساء إلى ضرورة اختيار شريك الحياة الكفؤ ولاسيما أنّ الثقافة المجتمعية غالبًا ما تظهر اعتناء الرجال بالاختيار والبحث عن المرأة الكفؤ، لكنها ـ أي هذه الثقافة المجتمعية ـ تهمل اعتناء المرأة في اختيار الكفؤ لها ممّا يؤثّر سلبًا على خلق الحياة الطيّبة في الحياة الأسرية.

إذ يشكل التكافؤ بين الزوجين الأرضية التي تنمو فيها جذور الحياة الطيّبة وذلك لسعة دائرتها المعاملاتية بين الزوجين أبتداءً من فهم الذات وانعكاسه على فهم الآخر، وانتهاءً بالسمات الشخصية والمجتمعية والعلمية؛ وذلك لما يترتب على التكافؤ الزواجي من تكوين معالم الحياة الطيّبة بين الزوجين.

من هنا، أهتمت الدراسات المعاصرة بقاعدة (التوافق الزواجي) لتكون بموازات قاعدة (التكافؤ الزواجي) التي قننتها السُنّة النبويّة وبيّنتها روايات أهل البيت عليهم السلام، وإنْ أختلف معنى (التوافق) مع (التكافؤ) في اللغة إلاّ أنّهما يتسقان في المفهوم.

فالتوافق بين الزوجين بصفةٍ عامة "يريده الإنسان هدفًا ويتخذه وسيلةً لتحقيق هذا الهدف، وهو يستهدف الرضا من النفس وراحة البال، والاطمئنان نتيجة الشعور بالقدرة الذاتية على التكيف مع البيئة والتفاعل مع الآخرين، وحسن التعامل مع الغير"[٢٩].

ولو رجعنا إلى (التكافؤ) لوجدناه يتّسق مع (التوافق) في الوصول إلى الهدف، إي الحياة الطيّبة ومعالمها في الرضا وراحة البال والاطمئنان، "والتحرّر النسبي من الصراع والاتفاق النسبي بين الزوجين على الموضوعات الحيوية المتعلقة بحياتهما المشتركة، وكذلك المشاركة في أعمال وأنشطة مشتركة وتبادل العواطف"[٣٠].

"والتوافق الزواجي لكونه يقوم على أساس علاقةٍ متبادلةٍ بين زوجين لكلّ منهما تنظيمه الخاصّ للشخصية من حيث سماتها وإطارها المرجعي الذي يحدد الميول والاتجاهات والقيم وأساليب المعاملة الزوجية؛ لذا لا تخلو الحياة الزوجية السعيدة من بعض الاختلافات التي تتحول بالتفاهم والمصارحة إلى مدعم جيد ومنشط بين الزوجين، وعلى قدر نجاح الزوجين في تحقيق هذه المهمة يكون التوافق الزواجي".

ومن ثمّ، فقد أوضحت الدراسات المعاصرة: "أنّ التوافق الزواجي يتوقف على عوامل شخصية واجتماعية" [٣١]. وهو المفهوم نفسه الذي تدعو إليه السُنّة النبوية في قاعدة التكافؤ واثرها في تكوين معالم الحياة الطيّبة في الحياة الأُسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام عبر التكافؤ في شخصيتيهما، وأنّ القناعة بينهما في قبول الآخر والعيش المشترك يرتكز على عنصر التكافؤ المقنن، بمعنى لم تكن القناعة التي يعبر عنها كثير من الرجال والنساء في عالم اليوم مرتكزة على حرية الرأي المنفلت من الضوابط الشرعية والشخصية والاجتماعية، وإنّما على جملةٍ من الضوابط التي قننت معنى القناعة وحقيقتها اللغوية والشرعية والاجتماعية.

المسألة الثانية: قاعدة المودة والرحمة

في التأصيل للركن الثاني في السّنة النبوية المتضمن لقاعدة المودة والرحمة وأثرها في تكوين معالم الحياة الطيّبة وإبرازها في الحياة الأسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام بنحوٍ خاصّ وذلك بوصفها الحياة الأمثل لما قننته الآية المباركة والسّنة النبوية، وللحياة الأُسرية بين الرجل والمرأة بنحوٍ عامّ.

فإنّ الدراسات المعاصرة لم تغفل أثر هذه القاعدة في بناء الحياة الأسرية التي تسعى إلى النماء وإضفاء الهدوء والاستقرار والتفاعل بين الشريكين وصولًا الى تحقيق جانب من الهناء الأُسري،

وذلك "أنّ هذا الأسلوب يقوم على احترام ذاتية الآخر واعتباره شريكًا وليس تابعًا يعتمد على الأخذ والعطاء المتبادل، المشاركة الوجدانية، الانسجام والتفاهم، في ظلّ هذا الأسلوب يتم مبادلة الآراء واحترامها، وتبادل الثقة وتدعيمها، فتنمو العواطف نموًا سليمًا، وتستقيم الحياة الزوجية ويكتب لها النجاح والتوافق الزواجي السوي"(٣٢).

وهذه المشاركة الوجدانية حينما تقوم على الإيمان بما خصّ الله الأسرة من كرامةٍ ومنزلةٍ وعنايةٍ، فإنّ معالم الحياة الطيّبة تكون ظاهرةً وجليةً فيها ولاسيّما فيما يرتبط بالمسؤوليات الحياتية بين الرجل والمرأة بوصفهما ركني الأسرة وعنصري الحياة فيها، وهو ما سنتناوله في المبحث القادم.

المبحث الثالث: منهاج النبي صلى الله عليه وآله بتقسيم مسؤوليات الحياتية الأُسرية بين علي وفاطمة عليهما السلام وأثره في تكوين معالم الحياة الطيّبة

لم يزل النبيّ صلى الله عليه وآله يُشرف على سير بناء الحياة الأُسرية للإمام علي وسيّدة النساء فاطمة عليهما السلام وتقديمها للأمة بوصفها الأسرة الأمثل والسبيل لبلوغ الحياة الفاضلة.

ومن بين أصول هذا البناء وأسسه المتينة التي شكلت معالم الحياة الطيّبة هو تقسيم المسؤوليات الحياتية بين الرجل والمرأة ومراعاة السمات الشخصية لكلٍّ من منهما، ومن ثَمَّ فقد شمل المنهاج:

١ـ مراعاة وضع المرأة البدني والنفسي.

٢ـ الإنصاف في تقسيم المسؤوليات، والمساواة في أنجاز الأعمال بينهما.

٣ـ تقديم الجانب الإنساني في التقسيم.

٤ـ ربط الوظائف الأسرية بالروح الإيمانية، وأثره في تكوين شخصية المرأة الفاضلة.

وعليه: فقد عالج المنهاج النبوي كثيرًا من المشاكل التي تقع في الأسرة بفعل الاتكال على الرجل وتحميله المسؤولية أو العكس فتكون المرأة هي من يتحمل عبء الحياة الأسرية أو التغرير بها عبر زرع بعض المفاهيم التي تتقاطع مع سماتها الشخصية والبدنية، فتضيع بذلك سمات الحياة الطيّبة ومعالمها في كثير من الأسر، ولاسيما ما نشهده اليوم من مفاهيم تجر بالأسرة إلى التردي الوظيفي، ووأد القيم التي كانت الأصل في تكوينها، والهدف من وجودها.

المسألة الأولى: مراعاة وضع المرأة البدني والنفسي في تقسيم المسؤوليات الأُسرية.

إنّ أوّل أصلٍ زرعه النبيّ صلى الله عليه وآله في تكوين الحياة الفاضلة للحياة الأسرية بين الإمام علي وفاطمة عليهما السلام فكان من معالم الحياة الطيّبة، هو مراعاته لوضع المرأة البدني والنفسي، وبما يتناسب مع تكوينها والمهام التي ستوكل إليها في عملية بناء الأسرة، وتحقيق أهدافها.

فقد كشف التراث الروائي لأهل البيت عليهم السلام عن هذا الأصل عبر الرواية التي أخرجها الحميريّ القمي عن الصادق، عن أبيه الباقر عليهما السلام، قال: "تقاضى عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فِي الْخِدْمَةِ، فَقَضَى عَلَى فَاطِمَةَ عليها السلام بِخِدْمَتِهَا مَا دُونَ الْبَابِ، وَقَضَى عَلَى عَلِيٍّ عليه السلام بِمَا خَلْفَهُ، قَالَ: فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: فَلا يَعْلَمُ مَا دَخَلَنِي مِنَ السُّرُورِ إِلاّ اللهُ بِإِكْفَائِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله تَحَمُّلَ أَرْقَابِ الرِّجَالِ"((٣٣)).

وقد روى ابن أبي شيبة الكوفي الحديث مختصرًا عن ضمرة بن حبيب، قال: "قضى رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته فاطمة عليها السلام بخدمة البيت، وقضى على علي عليه السلام بماء كان خارجًا من البيت من الخدمة"((٣٤)).

ويظهر النصّ الشريف تحديد المسؤوليات لكلٍّ من الرجل والمرأة ضمن نطاق الحياة الزوجية التي جعلها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إحدى القواعد لتكوين الحياة الطيّبة، ولاسيما أثرها في تحقيق التوافق الزواجي، فجعل ما دون الباب وإلى داخل الدار هو من مسؤوليات المرأة وما خلف الباب، أي الخارج هو من مسؤوليات الرجل.

ومن ثَمَّ، فإنّ سياق الرواية يفيد بأنّ سرور فاطمة عليها السلام لم يكن لتحقق الراحة وكف العناء عنها بما يقوم به الرجل من جهدٍ في حمل الماء والحطب والطعام واستحصال موارد العيش، وإنّما لمكوثها في دارها وعدم تعرّضها للتعامل في كثير من المواطن التي يتحقّق فيها وجود الرجال، بدلالة استخدام النبي صلى الله عليه وآله، للفظ (الباب) بكونه الحد الفاصل في تحديد هذه المسؤوليات والتي تنسجم مع تكوين الرجل والمرأة من الناحية النفسية والبدنية فضلًا عن انسجام هذا التقسيم مع ما يترتب على المرأة من تكاليف شرعية، كالحجاب ومخاطبة الأجنبي وغيرهما.

وعليه، يكشف سرور فاطمة عليها السلام الكبير الذي عبّرت عنه بقولها: " فَلا يَعْلَمُ مَا دَخَلَنِي مِنَ السُّرُورِ إِلاّ اللهُ "، **هو لتحقق حشمتها، ودفع الضرر عنها، وهو ما ينبغي لكل امرأة الامتثال له كي تضمن حياةً أسريةً طيّبة.**

المسألة الثانية : الإنصاف في تقسيم الأعمال الحياتية

ترشد النصوص الشريفة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى بيان أهمية اعتماد الإنصاف في تقسيم المسؤوليات بين الرجل والمرأة والمساواة بينهما في الأعمال الحياتية، وبما يتناسب مع البنية الجسدية والنفسية والتكاليف الشرعية المناطة بهما؛ فمّما قنّنته الشريعة من ضوابط عليهما يقتضي مراعاته في تقسيم الأعمال، وذلك لما له من أثار على خلق الحياة الفاضلة بينهما، فمنها:

١ـ أخرج الكليني (رحمه الله) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أنّه قال:

"كان أمير المؤمنين عليه السلام يحتطب، ويستقي، ويكنس، وكانت فاطمة عليها السلام تطحن، وتعجن، وتخبز"[٣٥]. **وتدلّ الرواية بوضوحٍ على التقسيم السوي في مسؤوليات الحياة الزوجية بين علي وفاطمة عليهما السلام، فثلاثة أعمال يقوم بها الإمام علي عليه السلام، تقابلها ثلاثة أعمال تقوم بها فاطمة عليها السلام.**

٢ ـ أمّا ما يرتبط بالإنفاق، وسعي الرجل لتوفير لوازم العيش، فقد قنّنه الإسلام وبما يتناسب مع قدرة الرجل ووسعه على الإنفاق، قال تعالى:

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٣٦].

وهنا يبرز أثر المرأة في مؤازرة الزوج وسعيها في إظهار معالم الحياة الطيّبة عِبْر القناعة بما قسم الله لهما من الرزق، فقناعتها كاشفة عن إيمانها بالله تعالى، وبها يتحقق الركن الثاني في تكوين الحياة الطيّبة، وهو ما حدّده النصّ القرآني بقوله تعالى:(وهو مؤمن).

وقد دلت النصوص الشريفة عن أئمّة العترة عليهم السلام عن هذا المَعْلَم في الحياة الأُسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام في عدم تحميلها زوجها أدنى لوازم العيش وهو الطعام، فقد روى العياشي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: " إِنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام ضَمِنَتْ لِعَلِيٍّ عليه السلام عَمَلَ الْبَيْتِ وَالعَجِينَ وَالخُبْزَ وَقَمَّ الْبَيْتِ، وَضَمِنَ لَهَا عَلِيٌّ عليه السلام مَا كَانَ خَلْفَ الْبَابِ؛ نَقْلَ الْحَطَبِ، وَأَنْ يَجِيءَ بِالطَّعَامِ، فَقَالَ لَهَا يَوْماً: يَا فَاطِمَةُ، هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لاَ، وَ الَّذِي عَظَّمَ حَقَّكَ، مَا كَانَ عِنْدَنَا مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ شَيْءٌ نَقْرِيكَ بِهِ. قَالَ: أَفَلاَ أَخْبَرْتِنِي؟ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله نَهَانِي أَنْ أَسْأَلَكَ شَيْئًا، فَقَالَ: لاَ تَسْأَلِي ابْنَ عَمِّكِ شَيْئًا، إِنْ جَاءَكِ بِشَيْءٍ عَفْوًا، وَإِلاَّ فَلاَ تَسْأَلِيهِ"[٣٧].

تقدّم هذه الرواية أحد أبرز المعالم الدالة على الحياة الطيّبة في الحياة الأسرية للإمام علي وسيدة النساء فاطمة عليهما السلام عبر القناعة بما يقدّمه زوجها من وسائل العيش وإنْ كانت في حدود الطعام، فالأصل فيه هو الإيمان بما قدّر الله تعالى لزوجها من الرزق.

المسألة الثالثة: تقديم الجانب الإنساني في التقسيم

إنّ من البداهة بمكان أنْ يكون تقديم الجانب الإنساني في تقسيم المسؤوليات والأعمال من بين أهم المعالم الدالة على الحياة الطيّبة في الحياة الأسرية للإمام علي وبضعة النبوة فاطمة عليهما السلام وذلك للسير على الطريق الذي حدده القرآن والسُنّة النبوية في خلق الحياة الفاضلة بين الزوجين، أي قاعدة المودة والرحمة والاهتمام بالمرأة ورعايتها وهو أمرٌ تضافرت به النصوص، ومنها ما أوصى به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام، وهو يضع له جملة من الضوابط والمعالم التي يسير عليها لخلق الحياة الطيّبة، فقد روى الشيخ الكليني (رحمه الله) عنه عليه السلام، قوله: "**لَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنَ الْأَمْرِ مَا يُجَاوِزُ نَفْسَهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْعَمُ لِحَالِهَا، وأَرْخَى لِبَالِهَا، وأَدْوَمُ لِجَمَالِهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ ولَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ**"(٣٨).

ومن ثَمَّ، ترشد النصوص الشريفة إلى تقديم الجانب الإنساني في التعامل مع المرأة ولاسيما الزوجة بوصفها أحد ركني الحياة الأسرية، وهو ما ظهر جليًّا في تعامل الإمام علي عليه السلام مع شريكة حياته وأمّ عياله فاطمة عليها السلام، فقد روى الشيخ الكليني (رحمه الله) عن الإمام الصادق عليه السلام عَنْ زَيْدِ بْنِ الْحَسَنِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: "**كَانَ عَلِيٌّ عليه السلام أَشْبَه النَّاسِ طِعْمَةً وسِيرَةً بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، وكَانَ يَأْكُلُ الْخُبْزَ والزَّيْتَ، ويُطْعِمُ النَّاسَ الْخُبْزَ واللَّحْمَ**"؛ قَالَ: "**وكَانَ عَلِيٌّ عليه السلام يَسْتَقِي ويَحْتَطِبُ، وكَانَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام تَطْحَنُ وتَعْجِنُ وتَخْبِزُ وتَرْقَعُ**"(٣٩).

ويظهر النصّ الشريف مراعاة الجانب الإنساني في هذا المنهاج الأسري في تحمل المسؤوليات، فقد اختار عليه السلام العمل الذي يتسق ومقام الرجولة ويتلاءم مع تكوين الرجل البدني والنفسي في آنٍ واحد. فالمرأة بطبيعتها البدنية والنفسية لا تنسجم مع الاحتطاب، أي: تقطيع الحطب وحمله إلى البيت، أو أنْ تذهب لتحمل الماء وتأتي به إلى الأسرة، فضلًا عن ما يحتاجه الإنسان من كمية الماء في استخداماته الشخصية والأسرية ممّا يتطلب تكرار حمل الماء في اليوم الواحد أكثر من مرّة.

ومن ثَمَّ: فالضابطة الموضوعة في تقسيم الأعمال والمسؤوليات الأسرية ترتكز على الصلاح

لشأن الأسرة عبر معْلَم الأنصاف والمساواة ومراعاة المرأة.

المسألة الرابعة ـ ربط الوظائف الأُسرية بالروح الإيمانية وأثره في تكوين شخصية المرأة وخلق الحياة الطيّبة

من البداهة بمكان أن تأخذ الوظائف الأسرية مكانها من جسد المرأة وروحها، ولا سيما تعدّد هذه الوظائف وتنوعها ضمن عنوان الزوجية والأمومة، فضلًا عن تداخل الوظائف الأخرى حينما تكون المرأة ضمن دائرة العيش المشترك مع أهل الزوج كما يشهده المجتمع العراقي وغيره من المجتمعات وإنْ تفاوتت النسب والظواهر الاجتماعية، ممّا رتّب تراكمًا في الوظائف على عاتق المرأة وخاصّةً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الترويح عن المرأة مرهونٌ بإذن الزوج في الخروج من الدار.

ومن ثمّ فإنّ معالم الحياة الأسرية الطيّبة لأمير المؤمنين والسيّدة الزهراء عليهما السلام لم تكن بمعزلٍ عن هذه الظاهرة، أي تراكم الوظائف على عاتق المرأة، وآلية معالجتها عبر اللجوء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذ تفيد النصوص الروائية في مصادر الفريقين أنّ أمير المؤمنين عليه السلام رأى تراكم الوظائف الأسرية على بضعة النبوة فاطمة عليها السلام دون أنْ تشتكي إليه من ذلك، فأشار عليها أنْ تذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وتطلب منه أنْ يوفر لها خادمًا يعينها على أداء هذه الوظائف. لكن الأمر المفاجئ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عالج الأمر عبر ربط هذه الوظائف المتراكمة على عاتق المرأة بالروح الايمانية لها، وذلك لخلق الحياة الطيّبة بين الزوجين ضمن العيش المشترك المرتكز على ركني الإيمان والعمل الصالح الذي حددته الآية المباركة.

إذ ليس بإمكان كلّ زوجٍ أو أهل أنْ يعينوا ابنتهم على توفير ما يعين المرأة على أداء وظائفها وواجباتها الأسرية سواء عبر العامل البشري كالخادم أم عبر الوسائل الكهربائية الحديثية التي تستعين بها المرأة في عالم اليوم.

ومن ثَمّ فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله عالج الأمر وقنّنه على مستوى التأصيل لمنهاج بناء الروح الإيمانية والعبادية للمرأة فهما الكفيلان بتقوية روح المرأة وتحملها على أداء واجباتها، وتكوين شخصياتها بمستوى أهل الفضل حتى عدّ حسن تبعلها جهادًا في سبيل الله لا يقلّ عن ضرب السيوف وتشاجر الرماح في معسكر الرجال.

وهو ما رواه رئيس المحدثين الشيخ الصدوق (رحمه الله) في الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال

لرجلٍ من بني سعد: " أَلَا أُحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَنْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدِي فَاسْتَقَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَ فِي صَدْرِهَا، وَ طَحَنَتْ بِالرَّحَى حَتَّى مَجِلَتْ يَدَاهَا، وَكَسَحَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا، وَأَوْقَدَتْ تَحْتَ الْقِدْرِ حَتَّى دَكِنَتْ ثِيَابُهَا، فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ ضُرٌّ شَدِيدٌ، فَقُلْتُ لَهَا لَوْ أَتَيْتِ أَبَاكِ فَسَأَلْتِهِ خَادِمًا يَكْفِيكِ حَرَّ مَا أَنْتِ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ. فَأَتَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله، فَوَجَدَتْ عِنْدَهُ حُدَّاثًا؛ فَاسْتَحْيَتْ فَانْصَرَفَتْ، فَعَلِمَ صلى الله عليه وآله أَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ لِحَاجَةٍ، فَغَدَا عَلَيْنَا وَنَحْنُ فِي لِحَافِنَا. فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَسَكَتْنَا وَاسْتَحْيَيْنَا لِمَكَانِنَا. ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَسَكَتْنَا. ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَخَشِينَا إِنْ لَمْ نَرُدَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصَرِفَ، وَ قَدْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَيُسَلِّمُ ثَلَاثًا فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا انْصَرَفَ.

فَقُلْنَا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ الله، ادْخُلْ. فَدَخَلَ، وَجَلَسَ عِنْدَ رُؤُوسِنَا، ثُمَّ قَالَ: يَا فَاطِمَةُ، مَا كَانَتْ حَاجَتُكِ أَمْسِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ؟

فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ نُجِبْهُ أَنْ يَقُومَ، فَأَخْرَجْتُ رَأْسِي، فَقُلْتُ: أَنَا وَالله أُخْبِرُكَ يَا رَسُولَ الله، إِنَّهَا اسْتَقَتْ بِالْقِرْبَةِ حَتَّى أَثَّرَ فِي صَدْرِهَا، وَجَرَتْ بِالرَّحَى حَتَّى مَجِلَتْ يَدَاهَا، وَكَسَحَتِ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا، وَأَوْقَدَتْ تَحْتَ الْقِدْرِ حَتَّى دَكِنَتْ ثِيَابُهَا، فَقُلْتُ لَهَا: لَوْ أَتَيْتِ أَبَاكِ فَسَأَلْتِهِ خَادِمًا يَكْفِيكِ حَرَّ مَا أَنْتِ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ.

قَالَ: أَفَلَا أُعَلِّمُكُمَا مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنَ الْخَادِمِ، إِذَا أَخَذْتُمَا مَنَامَكُمَا فَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً.

فَأَخْرَجَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام رَأْسَهَا وَقَالَتْ: رَضِيتُ عَنِ الله وَعَنْ رَسُولِهِ، رَضِيتُ عَنِ الله وَعَنْ رَسُولِهِ"[٤٠].

ورواه البخاري وغيره مختصرًا بهذا اللفظ: حدّثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن الحكم سمعت ابن أبي ليلى قال حدثنا علي عليه السلام: "إنّ فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبيّ صلى الله عليه وآله سبيٌ، فانطلقتْ فلم تجده، فوجدت عائشة، فأخبرتها فلما جاء النبيّ صلى الله عليه وآله أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبيّ ـ صلى الله عليه وآله إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبتُ لأقوم قال: على مكانكما. فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: ألا أعلمكما خيرًا ممّا سألتني إذا أخذتما مضاجعكما تكبّرا أربعًا وثلاثين، وتسبّحا ثلاثًا وثلاثين، وتحمدا ثلاثةً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم"[٤١].

ترشد الرواية الشريفة إلى بيان أثر استعانة الزوجين بذكر الله ولا سيّما المرأة على تحمل أعباء الوظائف الأُسرية وإنْ تراكمت وتضاعفت في خلق الحياة الطيّبة وذلك عبر بناء الروح الإيمانية لكلٍّ منهما؛ فيتحقّق بذلك الركن الأول لبناء الحياة الطيّبة وعبر إداء الوظائف الأسرية وأنجاز تكاليفهما معًا يتحقّق الركن الثاني

النتائج

١ـ كشفت المناهل المعرفية لمعنى مصطلح الحياة الطيّبة ومفهومه هو العيش الأفضل الذي يكون سمةً ودليلًا للآخرين في الاحتذاء والاقتداء، وهو ما قدمه الإسلام عبر الحياة الأسرية للإمام علي وسيدة النساء فاطمة عليهما السلام إلى الناس الكافة.

٢ـ إنّ التطوّر في علوم الاجتماع ولاسيّما علم اجتماع الأسرة والعائلة وغيرها من العلوم المهتمة بالنفس والتربية قد أظهرت أهمية (التوافق الزواجي) و (المودة بين الزوجين) في إنجاح الحياة الأُسرية الذي عُرف في السُنّة النبوية بـ (التكافؤ الزواجي) و قاعدة (المودة والرحمة) بوصفهما معلمين أساسين في الحياة الأسرية التي تسعى إلى الحياة الطيّبة وهو ما نراه سمةً وعلامةً للحياة الفاضلة في بيت علي وفاطمة عليهما السلام.

٣ـ إنّ تقسيم مسؤوليات الحياة الأُسرية الذي وضعه النبيّ صلى الله عليه وآله للإمام علي وسيدة النساء فاطمة عليهما السلام يرتكز على مراعاة السمات الشخصية لكلٍّ منهما، والمساواة بينهما في الأعمال، وتقديم الجانب الإنساني في التقسيم قد شكل أصولًا لبناء الحياة الفاضلة ومعالمًا للحياة الطيّبة التي أرادها تعالى مثالًا للأسرة المسلمة.

٤ ـ إنّ الإستعانة بذكر الله تعالى على أعباء الحياة يعد عنصرًا أساس في تحقق الحياة الطيّبة بين الزوجين وذلك عبر ربط الوظائف الأسرية بالروح الإيمانية وهو ما نراه شاخصًا في الحياة الأُسرية لعلي وفاطمة عليهما السلام، فقد قنّنَ النبيّ صلى الله عليه وآله لهما الإلتجاء إلى ذكر الله تعالى بتعليمها ما هو خير لهما من الخادم، أي التسبيح الذي عرف بين المسلمين بتسبيح فاطمة عليها السلام فكان من بين أهم معالم الحياة الطيّبة.

تم بحمد الله تعالى وصلى الله على محمّدٍ وآله الطاهرين.

الهوامش

١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، الاحتجاج: خطبة الزهراء عليها السلام، ١/ ١٣٢.
٢- نهج البلاغة، الخطبة الثانية.
٣- لقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة/ ٢٢٩].
٤- لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء/ ٢٠ -٢١].
٥- الروم/ ٢١.
٦- يوسف/ ٧٦.
٧- هود/ ٨٨.
٨- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٢/ ٤٢٠.
٩- النحل/ ٩٧.
١٠- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ٦/ ٢٣٢٣.
١١- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، / ٥٦٦.
١٢- نهج البلاغة، الشريف الرضي: الحكمة (٢٢٩).
١٣- الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، ٢٧٥.
١٤- الحاكم النيسابوري، محمدبن عبدالله، المستدرك، ٢ / ٣٥٦ ؛ شعب الإيمان، البيهقي، ٧ / ٢٩١.
١٥- عقلة، محمد، نظام الأسرة في الإسلام، ١٨.
١٦- م.ن.
١٧- بيري، الوحيشي أحمد، علم الاجتماع العائلي، ٥٨.
١٨- بوطالب، عبد الهادي، أزمة القيم ودور الأسرة في تطوير المجتمع المعاصر، فصل: مفهوم الأسرة ووظيفتها، ١٥٨.
١٩- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ٤/ ١٩ - ٢٠ الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ١٣/ ٦٠ ؛ المعجم الوسيط في اللغة، ١/ ١٨ ، جميعا في مادة: أسر.
٢٠- آل عمران/ ٣٣ - ٣٤.
٢١- الشعراء/ ٢١٤.
٢٢- التحريم/ ٦.
٢٣- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، باب: من فضائل علي عليه السلام، ٧/ ١٢٣.
٢٤-نهج البلاغة، الشريف الرضي: الخطبة (٩٤).
٢٥- الروم/ ٢١.
٢٦- بوطالب، عبد الهادي، أزمة القيم ودور الأسرة في تطوير المجتمع المعاصر، فصل: مفهوم الأسرة ووظيفتها، ١٧٦.

٢٧- م.ن، ١٧٥.
٢٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١ / ٤٦١ ؛ الصدوق، محمّد بن علّي، الأمالي، ٦٨٨
٢٩- دسوقي، كمال، علم النفس ودراسة التوافق، ٣٨٥.
٣٠- الخولي، سناء، الزواج والعلاقات الأسرية ، ١٩٠.
٣١- بيومي، محمد، سيكلوجية العلاقات الزوجية ، ١٧.
٣٢- م.ن، ٢٩.
٣٣- الحميري القمي، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد ، ٢٥.
٣٤- ابن أبي شيبة، أبو بكر، المصنّف، ٦/ ١٠، برقم (٢٩٠٦٩).
٣٥- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨/ ١٧٦؛ الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي ص٦٦١.
٣٦- الطلاق/ ٧.
٣٧- العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ١/ ١٧١.
٣٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٥ / ٥١٠.
٣٩- م.ن، ٨ / ١٦٥.
٤٠- العاملي، بهاء الدين محمد بن حسين، مفتاح الفلاح، ٢٧٦؛ الصدوق، محمّد بن علّي، علل الشرائع، ٢/ ٣٦٦؛ الصدوق، محمّد بن عليّ، من لا يحضره الفقيه، ١/ ٣٢١؛ الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ١٢/ ٦٧؛ الطباطبائي، تفسير الميزان، ٦/ ٣١٢.

٢. أخرجه البخاري في أكثر من باب، وهي: باب دعاء النبيّ ﷺ، وباب مناقب المهاجرين والأنصاري، وباب النفقات، وفي كتاب الدعوات؛ وأخرجه أحمد في المسند: العطاردي، عزيزالله، مسند علي بن أبي طالب عليه السلام: ١/ ٩٦؛ ابن حبّان، علي بن بلبان، صحيح ابن حبّان، فارسى، ١٢؛ البيهقي، أبو بكر، شعب الإيمان، ١/ ٤٢٦، برقم ٦٠٨.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.
* **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، ط١، ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م، بيروت.
* ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، قم ـ إيران، مطبعة نشر أدب الحوزة، محرم الحرام ١٤٠٥هـ.
* ابن حبّان، محمد بن حبّان، صحيح ابن حبّان، المحقّق: شعيب الأرنؤوط، بيروت، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣.
* الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، عمر سلامي، عبد الكريم حامد، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
* البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول، ١٩٨١م.
* بوطالب، عبد الهادي، أزمة القيم ودور الأسرة في تطوير المجتمع المعاصر، الرباط/ المغرب، ٢٠٠١م.
* بيري، الوحيشي أحمد، علم الاجتماع العائلي، الطبعة الأولى، طرابلس ـ ليبيا، الناشر: منشورات الجامعة المفتوحة الجماهيرية العربية الليبية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.-
* البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: محمد سعيد بسيوني، ط١، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار الكتب العلمية.
* الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح ـ تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: د. اميل بديع يعقوب، ط١، بيروت لبنان، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ.
* الحاكم النيسابوري، أبوعبد الله محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار المعرفة.
* الحر العاملي، محمد بن حسن، مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة من الواجبات والمستحبات والآداب، بيروت – لبنان، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
* الحر العاملي، محمد بن حسن، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل بيت عليهم السلام لإحياء التراث.
* الحميري القمي، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، قم المقدسة ـ إيران، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
* خليل، محمد محمد بيومي، سيكلوجية العلاقات الزوجية، القاهرة ـ مصر، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
* الخولي، سناء، الزواج والعلاقات الأسرية، الإسكندرية ـ مصر، الناشر: دار المعرفة الجامعية، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
* دسوقي، كمال، علم النفس ودراسة التوافق، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار النهضة، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
* الصدوق، محمد بن علي ابن بابويه القمي من لا يحضره الفقيه، الشيخ، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة الطبعة: الثانية.
* ـــــــــ، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، قم المقدسة ـ إيران، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
* ـــــــــ، علل الشرائع، النجف، الناشر: منشورات

المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.
* الطبرسي، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل، الاحتجاج، تحقيق: الشيخ إبراهيم البهادري، الطبعة السادسة، قم المقدسة ـ إيران، الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
* الطوسي، محمد بن الحسن بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، قم المقدسة- إيران، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
* عقلة، محمد، نظام الأسرة في الإسلام، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار الرسالة للطباعة والنشر والإعلام، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
* العياشي، أبو النصر محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، الناشر: مؤسسة العلمي للمطبوعات، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
* الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، الكافي، ط٥، طهران ـ إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٩هـ.
* الكوفي، ابن أبي شيبة، المصنّف، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام، ط١، بيروت – لبنان، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م.
* مصطفى، إبراهيم، وأحمد حسن الزيات، ومحمد علي النجاء المعجم الوسيط، الطبعة الأولى، تركيا، دار الدعوة لسنة، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
* النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار الفكر.

أثر معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده في الحياة الطيّبة

الشيخ سامر توفيق عجمي

باحثٌ في العلوم الفلسفيّة والدينيّة وأستاذ في الحوزة العلمية / لبنان

ملخص البحث

يلحِظ الراصد لكلمات الفلاسفة والعلماء، أنّه ثمّة إقرار بالعجز عن معرفة كنه الحياة في ذاتها، ولذا تنزّلوا إلى تعريفها بآثارها، كالإدراك والفعاليّة، ويقابلها الموت، فهو انتفاء الحياة وفقدان آثارها في الكائن الّذي من شأنه أنْ يتّصف بها. فكلّ حصّةٍ خاصّةٍ من الحياة يقابلها حصّةٌ خاصّةٌ من الموت، فالكائن الواحد قد يتّصف بأنّه حيٌّ باعتبار، وميتٌ باعتبار.

ويمكن افتراض نوعين من الحياة: الخالية من الفقدان الذي من شأن الكائن الحيّ أنْ يتّصف به. والحياة التي يجامعها نقيضها من الأعدام: الصّحة/ المرض، الأمن/ الخوف، الغنى/ الفقر، الفرح/ الحزن، الجهل/ العلم... فالحياة الطيّبة هي سنخ حياةٍ يتمكّن الإنسانُ معها من تأمين حاجاته ورفع الفقدان.

وأهمّها مطلقًا: تحقيق الهدف الوجودي الذي خُلِق الإنسان من أجله، وإلّا مهما أشبع الإنسان من حاجاته الماديّة والنفسيّة والفكريّة و...، ولم يُحقِّق غرض خَلْقِه، لن يصل إلى الكمال المُستعدّ له، وبالتالي لن يشعر بالسعادة الحقيقيّة.

وقد بيّنت النصوص الدينيّة أنّ الله تعالى خلق الإنسان بهدف معرفته وتوحيده وعبادته. وقد جبل الله تعالى النفس البشريّة على جذبة العشق إلى الله تعالى، وفطرها على معرفته وتوحيده. فإذا كان مقوِّم الحياة الطيّبة تأمين الحاجات الفطرية، فعدم تلبية الفطرة التوحيديّة بمعرفة الله تعالى والانجذاب إليه، يصيب الإنسان بحالات اضطرابٍ نفسيّ وقلقٍ وكآبةٍ وحزنٍ وعدم الشعور بالتوازن.

فالكافر مثلًا يتّصف بحصةٍ خاصّةٍ من الحياة، وهي الحياة البيولوجيّة الماديّة، وموته الفيزيقيّ يعني فقدان هذه الحصّة من الخاصّة من الحياة، ولكنّه لكونه يملك استعداد نوعٍ آخر من الحياة الحقيقيّة، وهي الحياة التي تُفاض على الإنسان بسبب التوحيد ومعرفة الله، فهو ميّت بلحاظ فقدانه هذه الحصّة؛ ولذا يصدق عليه بأنّه: (ميّت الأحياء)، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: "**وآخر قد تسمّى عالمًا وليس به... فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميت الأحياء**".

وفي ضوء هذا الفهم للحياة، تتجلّى معاني النصوص الدينيّة، مثل: "**لا حياة إلّا بالدِّين، ولا موت إلّا بجحود اليقين**"، "**التوحيد حياة النفس**"، "**بالعلم تكون الحياة**"، و"**الجاهل ميت بين الأحياء**".

المقدّمة

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "**اعلموا أنّه ليس من شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملُّه، إلّا الحياة، فإنّه لا يجدُ في الموت راحةً، وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة القلب الميّت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصمّاء، وروي للظمآن، وفيها الغنى كلّه والسلامة**"[1].

الحياة أعظم نعمةٍ يعتقدها الإنسان لنفسه، إذ ليس وراء الحياة إلّا العدم والفناء، فغير الحيّ لا وجود له معرفيًّا، فهو بمنزلة العدم بالنسبة إلى عالم الإدراك والشعور؛ لأنّ أخصّ آثار الحياة هي المعرفة والفعاليّة. ولكن ليست أيّ حياةٍ هي التي تعلو قيمتها على كلّ قيمة، ونعمتها على كلّ نعمة، بل هي خصوص الحياة التي يعيشها الإنسان مع الله تعالى، في ظلّ معرفته وتوحيده وطاعته، فمن ذاق حلاوة محبّة الله تعالى وأنس بقربه لا يروم عنها بدلًا ولا يبتغي عنها حِولًا؛ لأنّه كما ورد في مناجاة العارفين: "**ما أَطْيَبَ طَعْمَ حُبِّكَ، وَما أَعْذَبَ شِرْبَ قُرْبِكَ**"، وهي التي اصطلح عليها القرآن الكريم (الحياة الطيّبة)، إذ قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[2]، وهذه الحياة ليست حياةً مجازيّة، بل هي حياةٌ حقيقية، يفيضها الله تعالى (فلنحيينّه) على من تلبّس بالإيمان والعمل الصالح، وليس الإحياء بالمعنى الصفتيّ، أي بإضافة صفةٍ جديدةٍ إلى حياة المؤمن تعرض على الحياة المشتركة بتبديلها من الخبث إلى الطيب مع بقاء أصل الحياة على ما هي عليه، وإلّا لقال تعالى: (فلنطيّبنّ حياتَه)، بل هي عبارة عن إنشاء نحوٍ خاصٍّ من الحياة الجديدة الابتدائيّة المختلفة عن الحياة العامة التي يشارك بها المؤمن سائر الناس.

هذه الحياة الطيّبة وقعت مُتعلَّقًا لأدعية الإمام زين العابدين عليه السلام، فقال في دعاء عرفة: "**فَأَحْيِنِي حَيَاةً طَيِّبَةً تَنْتَظِمُ بِمَا أُرِيدُ، وَ تَبْلُغُ مَا أُحِبُّ مِنْ حَيْثُ لَا آتِي مَا تَكْرَهُ، وَ لَا أَرْتَكِبُ مَا نَهَيْتَ عَنْهُ**".

وقال عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي: "**وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ اَطَلْتَ عُمْرَهُ، وَحَسَّنْتَ عَمَلَهُ، وَاَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ، وَرَضِيتَ عَنْهُ وَاَحْيَيْتَهُ حَياةً طَيِّبَةً في اَدْوَمِ السُّرُورِ، وَاَسْبَغِ الْكَرامَةِ، وَاَتَمِّ الْعَيْشِ**".

وإذا كانت الحياة الطيّبة تتقوَّم بمعرفة الله تعالى وذكره وحضوره في حياة الإنسان، ففي المقابل فإنّ الإعراض عن معرفة الله تعالى وذكره وحضوره في حياة الإنسان يؤدّي إلى الحياة

الخبيثة التي اصطلح عليها القرآن الكريم: (معيشة ضنكًا)، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[٣].

فمن نسيَ ربّه وانقطع عن ذكره، لم يبقَ له إلّا أنْ يتعلّق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتمّ بإصلاح معيشته والتوسّع فيها والتمتّع منها، والمعيشة التي أوتيها لا تسعه سواء كانت قليلة أم كثيرة؛ لأنّه كلّما حصل منها واقتناها لم ترضَ نفسُه بها، وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع، من غير أنْ يقف منها على حدّ، فهو دائمًا في ضيق الصدر وحنق مما وجد، متعلِّق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهمّ والغمّ والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل وعروض العوارض من موتٍ، ومرضٍ، وعاهةٍ، وحسد حاسدٍ، وكيد كائدٍ، وخيبة سعي، وفراق حبيب[٤].

وهذا البحث، يتكفّل بإثبات الفكرة المُتقدِّمة، بأنّ الحياة الطيّبة لا يتمكّن الإنسان من أنْ يعيشها إلّا في ظلّ معرفة الله تعالى وتوحيده، معتمدًا على العقل والنصّ في الوصول إلى الخلاصات والنتائج المطلوبة، خصوصًا أحاديث النبيّ وأئمّة أهل البيت (صلوات الله عليهم أجمعين).

أوّلًا: تحليل طبيعة الحياة الإنسانيّة في ضوء الفلسفة والعلم والوحي

يلحِظ الراصد لكلمات الفلاسفة والعلماء، أنّه ثمّة إقرار بالعجز عن معرفة كنه الحياة في ذاتها، فلا العقل البشري تمكَّن من تحليل أجزاء ماهيتها، ليُعرِّفها تعريفًا منطقيًّا حديًّا ضمن شروطه وضوابطه، ولا الملاحظة الحسيّة والتجربة العلميّة اكتشفت عناصرها بالأجهزة التقنيّة في المُختَبر.

إلّا أنّه رغم هذا وذاك، كلّ فرد منّا -بوصفه كائنًا حيًّا- يُدرِك واقع الحياة بالمعرفة الحضوريّة والكشف الوجدانيّ، فلا يحتاج في معرفتها إلى الحدِّ المنطقيّ أو المعادلة العلميّة. نعم، إنّما يفتقر إلى ذلك لتكوين صورة مفهوميّة منطقيّة أو علميّة عنها، مع أنّه -أيضًا- يمكن للفرد أن يُشكِّل ذاتيًّا تصوّرًا إجماليًّا بسيطًا عن (الحياة)؛ لأنّ الله تعالى خلق الذهن البشريّ بكيفيّة خاصّة، يتمكّن معها من انتزاع صورٍ علميّةٍ عن الحالات الوجدانيّة التي يعيشها، فثمّة مرتبةٌ من مراتب الذّهن وظيفتها بالنسبة إلى صقع النفس، كوظيفة الذّهن اتجاه الواقع الخارجيّ، فكما أنّه يستطيع بأدوات معيّنة النظر إلى الخارج وانتزاع صورة خاصّة عنه، كذلك تلك المرتبة وظيفتها النظر إلى ما في صقع النفس، وانتزاع صور عن

الحالات الوجدانيّة والمعارف الحضوريّة التي تعيشها النفس، فكلُّ فردٍ يشعر بالحبّ، والشوق، والخوف، والحزن، والقلق... ويملك صورة إجماليّة عنها، وإنْ افتقد القدرة على التعبير عنها، فالعجز عن بيان الصور الذهنيّة والحالات الوجدانيّة بألفاظٍ خاصّةٍ لا يعني غياب الإدراك لها حضورًا وحصولًا.

وقد عرَّف الفلاسفة والمتكلّمون والطبيعيّون الحياة بلحاظ آثارها ولوازمها التي يلاحظها الإنسان عادة في الكائن الحيّ، إذ مع استحالة أو صعوبة فهم العقل البشري لواقعيّة ما بالكنه، يتنزّل إلى معرفتها بالوجه، ومعرفة وجه الشيء معرفته بوجه، -على حدِّ تعبير صاحب الكفاية[٥]- ويقول العلامة المُظّفر: "لا يصحُّ الحكم على الشيء إلّا بعد تصوره ومعرفته بوجه من الوجوه ولو على نحو الإجمال؛ لأنّ تصوّر الشيء قد يكون بنفسه وقد يكون بوجهه... وهو كافٍ لِصِحّة الحكم على الشيء. وهذا بخلاف المجهول محضًا، فإنّه لا يمكن الحكم عليه أبدًا"[٦].

وقد أجمع أعلام المدارس الفلسفيّة الإسلاميّة (المشائيّة، والإشراقيّة، والحكمة المتعالية)، على أنّ الحياة تُعرَف بوساطة توفّر عنصرين: الإدراك والفعاليّة (كالنمو والتنفّس والتغذي والتكاثر...)[٧]، والمتكلمون على توفّر العنصرين ذاتيهما مع اختلاف التعبير: القدرة والعلم[٨]. فالفلاسفة والمتكلّمون استدلوا على تلبّس موجودٍ ما بصفة الحياة بمنهج الكشف الإنّي بالانتقال من اللازم الأخصّ، أي: الدرّاكيّة والفعاليّة أو العلم والقدرة، إلى الملزوم أي الحياة.

وكذلك نلاحظ هذا الاتجاه في الفلسفات الطبيعية[٩] - مثل الفيزيقية، والحياتية، والعضوانية - إذ فسّرت الحياة بما لاحظه العلماء من آثار منبثقة عنها، كالحركة، الانفعال، الارتقاء، التخلّق المُتعاقِب، النمو، الإحساس، التجديد التعويضي، التكاثر، التكيّف، قابلية التحليل إلى جزئيات غير عضوية بسيطة، التعضّي، أي: التمتّع بأنظمة معقّدة ومنضبطة.

وعلى الضفة المقابلة للحياة، يقع الموت الذي يقابلها تقابل عدم الملكة، فالموت انتفاء الحياة وفقدان آثارها - الإحساس والفعاليّة - في الكائن الّذي من شأنه أنْ يتّصف بها. وعليه، إذا افترضنا كائنًا لا يتّصف بالحياة، فإنّه لا يتّصف بالموت. يقول السهروردي: "الموت انتفاء الحياة عمّا من شأنه أنْ تكون فيه"[١٠]. ويقول الطباطبائي: "... أما الموت فهو فَقْدُ الحياة وآثارها من الشعور والإرادة عمّا من شأنه أنْ يتصف بها"[١١].

وبناءً عليه، يمكن القول: إنّ كلّ حصّةٍ خاصّةٍ من الموت تقابل حصّةً خاصّةً موازيةً لها من الحياة، وبالتالي: إنّ فقدان حصّة خاصّة من الحياة مع قابليّة الموجود لها لا يعني مطلق الموت، بل موت خاص، فالكائن الواحد قد يتّصف بأنّه حيٌّ باعتبار وجدانه لحصّة خاصّة من الحياة، وأنّه ميت باعتبار فقدانه لنحوٍ آخر من الحياة من شأنه أنْ يتّصف بها ويملك استعدادها؛ وذلك لأنّ الحياة واقعيّةٌ اشتداديّةٌ لها مراتب مختلفة، فيكون الكائن القابل للاتّصاف بالمرتبة الأعلى متّصفًا بالموت بلحاظها لفقدانه لها مع استعداده لنيلها.

وإذا كانت المعرفة من لوازم الحياة، فغير الحيّ لا وجود له معرفيًّا، فهو بمنزلة العدم بالنسبة إلى عالم الإدراك والشعور. فـ"الحياة أنعم نعمة وأغلى سلعة يعتقدها الموجود الحيّ لنفسه، كيف لا؟! وهو لا يرى وراءه إلا العدم والبطلان"[١٢]. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **"اعلموا أنّه ليس من شيء إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملُّه، إلّا الحياة، فإنّه لا يجدُ في الموت راحةً، وإنّما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة القلب الميّت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصمّاء، وروي للظمآن، وفيها الغنى كلّه والسلامة"**[١٣].

فالكافر مثلًا يتّصف بحصةٍ خاصّةٍ من الحياة، وهي الحياة البيولوجيّة الماديّة، وموته الفيزيقيّ يعني فقدان هذه الحصّة من الخاصّة من الحياة، ولكنّه لكونه يملك استعداد نوعٍ آخر من الحياة الحقيقيّة، وهي الحياة التي تُفاض على الإنسان بسبب التوحيد والإيمان ومعرفة الله والتديّن، فهو ميّت بلحاظ فقدانه هذه الحصّة؛ ولذا يمكن أنْ يصطلح ويصدق عليه حقيقة لا مجازًا بأنّه (ميّت الأحياء)، فهو حيٌّ من جهة بيولوجيّة، وميّتٌ من جهةٍ روحيّةٍ معنويّة، موتًا يتّصف به حقيقةً لا مجازًا، كما سيأتي بيانه.

فإذا كانت الحياة لا تُعرَف بذاتها بل بآثارها، وإذا كانت آثار الحياة تختلف من موجودٍ لآخر، كاختصاص الحياة الإنسانية بالتفكير العقليّ، والحياة الحيوانيّة بالإحساس والحركة، والنباتيّة بالنمو والتكاثر...، وإذا كانت ثمّة آثارٌ للحياة يمكن أنْ تكون ملحوظةً بالحواس، أو بالتحليل العقليّ، فإنّه ثمة آثار للحياة هي طور فوق طور العقل، لا يستقل بإدراكها، إلّا بمعونة نور الوحي، فعدم الوجودان الحسيّ أو العقليّ لأثرٍ من آثار الحياة ليس دليلًا على عدم وجوده واقعًا،

وعدم الدليل ليس دليلًا على العدم. فخفاء آثار حياة خاصّة في موجود لا تدلّ على نفيها عنه، فالعقل يحتاج في الكشف عن بعض أنواع الحياة إلى مصادر معرفيّة خارجيّة كالوحي الدينيّ أو الذوق الوجدانيّ تُلهمه وجودها بآثار خاصّة لها، فإذا تحقّقت تلك الآثار يمكن الاستدلال على تحقّق تلك الكيفيّة الخاصّة من الحياة بالمنهج الإنّي بالانتقال من المعلول إلى العلّة.

وهذا يعني أنّ الحياة من الحقائق المشكّكة، تقبل الشدّة والضعف، فبعض الموجودات الحيّة أولى بانطباق الحياة عليه بحسب المعنى[١٤]، فأشدية الحياة في مرتبةٍ من مرتبةٍ أخرى، لا تنفي عن الأدنى أنْ يكون مصداقًا للحياة، بل هو حيّ بحياةٍ تناسب مرتبته الوجوديّة.

وبناءً عليه، يكون الموت تشكيكيًّا في مقابل الحياة، فكلّ حصّةٍ خاصّةٍ من الموت تقابل حصّةً خاصّةً موازيةً لها من الحياة، فالشيء الواحد قد يتّصف بأنّه حيٌّ باعتبار وجدانه لحصّة خاصّة من الحياة، وأنّه ميتٌ باعتبار فقدانه لنحوٍ آخر من الحياة من شأنه أنْ يتّصف بها ويملك استعدادها، وهذا أصلٌ بنيويّ.

وفي ضوء هذا الفهم للحياة، تتضح كثيرٌ من الروايات عن الحياة والموت، منها:

قول أمير المؤمنين عليه السلام: "**لا حياة إلّا بالدِّين، ولا موت إلّا بجحود اليقين**"[١٥].

أو قوله عليه السلام: "**التوحيد حياة النفس**"[١٦]. أو قوله عليه السلام في صفة الزّهّاد: "**ويرون أهل الدّنيا يُعظِّمون موت أجسادهم، وهم أشدّ إعظامًا لموت قلوب أحيائهم**"[١٧]. وكذلك قوله عليه السلام: "**الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**"[١٨]. وقوله عليه السلام: "**بالعلم تكون الحياة**"[١٩]. ويقابله: عنه عليه السلام: "**الجاهل ميت بين الأحياء**"[٢٠].

وكذلك الأحاديث الواردة في الموت، منها:

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: "**ليس من مات فاستراح بميت، إنّما الميت ميت الأحياء**"[٢١]. وعنه عليه السلام: "**وآخر قد تسمّى عالمًا وليس به... فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميت الأحياء!**"[٢٢]. إلخ من التعبيرات، فهي محمولةٌ على الحقيقة لا المجاز.

ثانيًا: تحديد مفهوم الحياة الطيّبة في ضوء الهدف الوجودي: معرفة الله والتوحيد

يمكن افتراض نوعين من الحياة التي يعيشها الإنسان ويتمتّع معها بالمعرفة والشعور والقدرة والفعاليّة:

١-الحياة الخالية من أيّ لونٍ من ألوان الفقدان الّذي من شأن الكائن الحيّ أن يتّصف به، ولا يجامعها نقيضها الذي هو الأعدام المختلفة. وهذا القيد: "شأنيّة الاتصاف بالفقدان"، ضروريّ؛ لأنّ فقدان أيّ كائنٍ حيّ لصفة من الصفات الوجوديّة على قسمين:

الأول: ما يكون صفة كمال، مع شأنيّة اتّصاف الكائن الحيّ بها، ففقدان صفة الكمال هذه، من شأنه أنْ يُشعره بالنقص وضغط الحاجة والتوتّر والاضطراب مع عدم تأمينها؛ لأنّه يفقد ما من شأنه أنْ يكون مالكًا له.

والثاني: ما يكون صفة كمال، ولكنّ لا يملك الكائن الحيّ قابلية الاتّصاف بها، فلا تُعدّ بالنسبة إليه عدم ملكة، وبالتالي، لا يكون هذا الفقدان بالنسبة إليه مُوجِبًا لتنغيص العيش وتكدير صفو الحياة والشّعور بالنّقص، فهو لا يفقد ما من شأنه أنْ يملكه، فليس ثمّة حاجةٌ لم تُلَبَّ كي يشعر بالضّغط النفسيّ والقلق والخوف أو الحزن والكآبة، الخوف ممّا هو آتٍ بلحاظ المآل، والحزن ممّا هو فائت بلحاظ الحال. وإلّا، فإنّه لا توجد حياةٌ خاليةٌ من أيّ لونٍ من ألوان الفقدان مطلقًا، إلّا الحياة التي تتلبّس بها الذات الإلهية المُقدَّسة؛ لأنّ الإمكان بحدّ ذاته هو نوع من الفقدان والفقر الوجودي، ولو كان مُطلق الفقدان مُوجِبًا لتنغيص العيش وتكدير صفو الحياة، لكان ذلك مرافقًا للإنسان حتّى في الجنّة، وهذا خلاف ما هو معلوم الثبوت من المنطق القرآنيّ.

٢-وممّا تقدَّم، تتبلور طبيعة القسم الثاني، وهو: الحياة التي يجامعها نقيضها، أي: الأعدام والفقدانات، التي من شأنها أنْ يتّصف بها الكائن الحي، كالحياة التي يعيشها الإنسان في الدّنيا، فإنّ من خصائصها: أنّها تشكّل لحظة وجود بين عدمين، عدم سابق وعدم لاحق: (**كنتم أمواتًا**) (**فأحياكم**) (**ثم يميتكم**) (البقرة: ٢٨). وأنّها سنخ حياة يجامعها نقيضها؛ لأنّها مُحاطةٌ بالفقدان وممزوجةٌ بالأعدام: الصّحة/ المرض، الأمن/ الخوف، الغنى/ الفقر، الفرح/ الحزن، الطمأنينة/ القلق، اليأس/ الرجاء، الضعف/ القوة، الجهل المركّب/ العلم، الظلم/ العدل...

وحياة هكذا نحو وجودها، من شأنها أن تولِّد مشاعر: الكآبة والقلق والاضطراب واللاتوازن النفسيّ والشعور المستمر بالحاجة والنقص...

فالحياة الطيّبة هي سنخ حياةٍ يتمكّن الإنسانُ معها من تأمين حاجاته وتلبية متطلباته ورفع النقص عن ذاته. والمقصود بالحاجات، ليست تلك التي تتعلَّق بالجانب الماديّ والبدني من الهوية الإنسانيّة، بل الأهم منها، تلك التي ترتبط بالجانب النفسيّ والروحيّ، فإنّ إقصاءها وعدم تلبيتها يضغط على الإنسان بشكل أشدّ.

وأهمّ الحاجات البشريّة التي تقع على رأس هرم الحاجات الإنسانيّة فلا تعلو عليها حاجة مطلقًا، هي: تحقيق الهدف الوجودي الذي خُلِق الإنسان من أجله، وإلّا مهما أشبع الإنسان من حاجاته الماديّة والنفسيّة والفكريّة و...، ولم يُحقِّق غرض خَلْقِه، لن يصل إلى الكمال المُستعدّ له بحسب الطبيعة، وبالتالي لن يعيش الشّعور بالسعادة الحقيقيّة؛ لأنّ السّعادة - على حدّ تعبير أبي نصر الفارابي-: "هي غاية ما يتشوّقها كلُّ إنسان"، وهي: "نهاية الكمال الإنسانيّ"[٢٣]، وقد عرَّف علماء الأخلاق السّعادة بأنّها: "وصول كلّ شخص بحركته الإراديّة النفسانيّة إلى كماله الكامن في جبلّته"[٢٤]، والمستعدّ له في فطرته، والكمال هو الانتهاء إلى الغاية والوصول إلى الهدف، لكن لا مطلقًا، بل خصوص الغاية التي خُلِق لأجلها وليس وراءها غاية[٢٥].

قال الراغب الأصفهانيّ: "كمال الشيء حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل: كَمُلَ، فمعناه حَصَلَ ما هو الغرض منه"[٢٦]. فالحياة الطيّبة والسَّعيدة إنّما تتحقّق في ظلّ وصول الإنسان إلى كماله الفطريّ الواقعيّ، وحقيقة الكمال حصول الغرض الّذي لأجله خُلِق الإنسان، وإلّا ستكون حياته محاطةً بالنقص والعبثيّة؛ لأنّ العبث من لوازم عدم تحقيق الهدف.

وقد ثبت في مباحث علم النفس الفلسفيّ أنّ كمال الإنسان في قوتيه النظريّة والعمليّة يحصل بالتوحيد والتخلّي عمّا سوى الله تعالى.

قال المحقق النراقي: "فاعلم أنّها [أي النفس الإنسانيّة] إمّا ملتذة متنعمة دائمًا أو معذّبة متألمة كذلك. والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصّها، ولمّا كانت لها قوتان النظريّة والعمليّة، فكمال القوة النظريّة: الإحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها، والاطّلاع على الجزئيات غير المتناهية بإدراك

كلياتها. والترقّي منه إلى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكلّ، حتى يصل إلى مقام التوحيد، ويتخلَّص عن وساوس الشيطان، ويطمئن قلبه بنور العرفان. وهذا الكمال هو الحكمة النظريّة. وكمال القوة العمليّة: التخلّي عن الصفات الرديّة، والتحلّي بالأخلاق المرضيّة، ثم الترقّي منه إلى تطهير السرّ وتخليته عمّا سوى الله سبحانه. وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها"[٢٧].

فثنائية الهوية الإنسانيّة -المادة والروح-، تجعل الجانب المادي من الطبيعة البشرية لا يمثِّل إلّا المستوى المنخفض من الحياة، وبالتالي مهما بلغت درجة إشباع الإنسان حاجاته البيولوجيّة والفيزيولوجيّة، فهو لا تلبّي إلّا جزءًا يسيرًا من حاجاته العامّة، فضلًا عن أنّها إشباعات لن يصطحبها معه إلى حياته الأبدية، وعلى حدّ تعبير ملّا صدرا: "بالموت يتجرّد النفس عن البدن، وليس يصحبها شيء من الهيئات البدنية"[٢٨]. مما يعني، أنّ تنمية الحياة الروحية من الهوية الإنسانية التي هي حقيقة وجوده، هي العنصر الأهم فيما يتعلّق بالحياة الطيّبة.

ثالثًا: تحديد الهدف الوجودي في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

يقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٢٩].

ويقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[٣٠].

ويقول تعالى: ﴿**وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٣١].

تبيّن هذه الآيات القرآنية الكريمة أنّ الله تعالى خلق الإنسان بهدف جعله خليفةً في الأرض، وعبادته، ونيله فيض انبساط الرَّحمة الإلهيّة. وهذا الاختلاف في بيان الهدف، من باب تعدد الألفاظ لشمول المعاني، فكلّ واحدٍ منها يشير إلى جانب من جوانب هذا الهدف.

وقد أكّدت الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام هذه الهدفيّة؛ سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام عن الآية الأولى، فقال: "**خلقهم ليأمرهم بالعبادة**"[٣٢].

وعنه في روايات عدّة: "**خلقهم للعبادة**"[٣٣]. وسأله عن الآية الثانية، فقال عليه السلام: "**خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون [به] رحمته، فيرحمهم**"[٣٤].

فبضميمة هذه الرواية، وعودة اسم الإشارة: (لذلك) إلى ما هو أقرب: (رحم ربُّك)، وكون اللام في (لذلك) هي لام التعليل، يكون مفاد الآية: إنّ الله تعالى خلق الناس ليستوجبوا رحمته.

والعلة الغائية لا يلزمها القصر الحقيقيّ الحصريّ، فيكون القصر في الآية إضافيٌّ، فيكفي حينها أنْ تكون (الرحمة) واحدةً من غايات الفعل، أي الخلق، وقد تكون معها غايات أخرى، لا تتنافى معها، كالعبادة، والتي هي بنفسها أيضًا من موجِبات الرحمة التي كتبها الله على نفسه ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[٣٥]، والتي لا ينالها إلّا من حقّق الهدف الوجودي ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...**﴾[٣٦].

والخلاصة، أنّ الإنسان لا ينال الحياة الطيّبة إلا بتحقيق الهدف الذي خُلق لأجله، وبسببه يستوجب الرحمة الإلهية، بأنْ ينتمي إلى مشروع الخلافة الإلهية، ويُنصِّب نفسه في مقام العبوديّة بين يدي ربّ العالمين عزّ وجلّ، بمعرفته، ومحبته، وشكره، وطاعته والخضوع له.

ومخّ العبادة يقوم على مبدأ التوحيد، قال تعالى: ﴿**يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[٣٧]، وفي سورة هود على لسان هود، وصالح، وشعيب: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[٣٨]... إلخ من الآيات الكثيرة.

وعن الإمام الباقر عليه السلام في أخذ الله تعالى ميثاق الربوبيّة على ذريّة آدم، قال عليه السلام: "... **فنظر آدم إلى ذريّته، وهم ذرٌّ قد ملأوا السّماء، فقال آدم عليه السلام: يا ربِّ، ما أكثر ذريّتي!! ولأمرٍ ما خلقتَهم، فما تريد بأخذك الميثاق عليهم؟**

قال الله عزّ وجلّ: ﴿يعبدونني، ولا يشركون به شيئًا، ويؤمنون برسلي، ويَتْبعونهم﴾"[٣٩].

رابعًا: أقسام معرفة الله تعالى

تطلق (معرفة الله تعالى) على معانٍ، تتقاطع فيما بينها:

١. **القسم الأوّل: معرفة الله الفطريّة**، بمعنى: أنّ الله تعالى خلق النفس البشريّة بكيفيّة خاصّة، تعيش الجذبة إلى الله تعالى والشعور بعظمته وقوته، وكما أنّ النفس البشرية مصمّمةٌ بطريقةٍ تنجذب فيها إلى الله تعالى، كذلك هي مُصمَّمةٌ على أنّ المجذوب إليه بحسب الفطرة هو واحد

لا متعدّد، فالإلحاد والشرك والتثليث... على خلاف مقتضى الفطرة البشرية السليمة. وهذا ما أكّده القرآن الكريم ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * ... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٤٠].

وكذلك أحاديث النبيّ وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، منها:

- عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): "**كلّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ...**"[٤١].

- وعن حفيده الإمام الصّادق (عليه السلام): "**ما من مولودٍ إلّا يُولد على الفطرة، فأبواه اللّذان يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه**"[٤٢].

- وعنه (عليه السلام)، قال: "**قال موسى بن عمران (عليه السلام): يا ربِّ، أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال (عزّ وجلّ): حبّ الأطفال، فإنّي فطرتهم على توحيدي، فإنْ أمَتّهُم أَدْخَلْتُهم برحمتي الجنّة**"[٤٣].

وسيأتي بيان هذه النقطة بشكل أوسع في المبحث الخامس.

٢. **القسم الثاني: معرفة الله العقلية**، بمعنى الوصول إلى معرفة الله تعالى وتوحيده بواسطة الأدلة العقلية والبراهين الفلسفية والكلاميّة، وهي سنخ معرفةٍ مفاهيميّةٍ تصوّريّة، تُشبع حاجة الإنسان إلى الإجابة عن الأسئلة الوجوديّة التي تثير القلق والحيرة والاضطراب والدهشة...، إذ كلّ إنسانٍ عندما ينظر في هذا الكون يُصاب بالدّهشة أمام عظمته، ويعايش ما أشرنا إليه سابقًا من الموت والألم والفقدان والعدم و...، فتطرح نفسه عليه بنحوٍ قهري جملة من الأسئلة الوجودية التي تُقلق تفكيره مهما كان بسيطًا في الحياة، من أين قدمت؟ من أوجدني في هذا العالم؟ إلى أين سأذهب؟ ... كما في الكلام المنسوب إلى أميرِ المؤمنينَ (عليهِ السلام): "**رحمَ اللهُ امرأ عرفَ: مِن أينَ؟ وفي أين؟ وإلى أين؟**"[٤٤]، هذه الأسئلة التي تلحّ على صاحبها بالتدبّر والنّظر في الآفاق والأنفس، ولن يرتاح باله إلّا بالإجابة عنها، وليس بأيّ إجابة، فإنّ الإجابة القائمة على أساس منطق العدميّة والعبثيّة واللاشيئيّة لن تُهدِّئ من رَوْعه وقلقه واضطرابه...، بل خصوص تلك الإجابة القائمة على أساس معرفة الله تعالى والإيمان به؛ لأنّه بها يحصل الاطمئنان وسكون النفس.

والخلاصة أنّ الله تعالى جهّز الإنسان فطريًّا بمعرفته وتوحيده، وكذلك زوّده بالطاقة العقليّة التي تمكنه من ممارسة النشاط الذهنيّ المطلوب لإدراك هاتين الحقيقتين. يقول السيّد

الخوئي: "لا يوجد الجاهل القاصر بالنسبة إلى وجود الصانع إلّا نادرًا، ... وكذا الحال بالنسبة إلى التوحيد، فإنّ كلَّ إنسانٍ ذي شعورٍ وعقلٍ كما يدرك أنّ له صانعًا يُدرِك بحسب ارتكازه الفطريّ أنّ الخالق (جلّ ذكره) واحد لا شريك له"(٤٥).

٣.**والقسم الثالث: معرفة الله الشهودية**، الحاصلة بصورتها البسيطة عند كلّ إنسان، يقول العلامة الطباطبائي: " العلة حاضرة بوجودها لمعلولها الرابط لها القائم بها المستقل باستقلالها، فهي معلومةٌ لمعلولها علمًا حضوريًّا إذا كانا مُجرَّدَيْن"(٤٦)... كما الفطريّة، بل قد تكون هي هي، فهي بصورتها الأوّليّة التكوينيّة ليست معرفةً اختياريّةً بل قهريّة. لكن، هناك نوعٌ آخر من المعرفة الحضوريّة والشهوديّة، وهي التي تحصل بالاختيار، بالتحلية والتخلية والتجلية، فيقوى الشعور الوجداني بحضور الله تعالى في النفس ويزداد، فتكون مرتبة معرفة الله الحضورية متناسبةً مع مرتبة العروج الروحيّ للإنسان، وتنمية هذه المعرفة حاجة ملّحة للشخصية الإنسان؛ لأنّه في ظلّها يعيش الإنسان أبرز مظاهر تجلي الهدف الوجودي الذي خُلِق لأجله.

خامسًا: المعرفة الفطرية التوحيدية والحياة الطيّبة

سنركّز البحث على خصوص معرفة الله الفطرية، إذ أكّدت الروايات الواردة عن النبيّ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام على (المعرفة الفطرية بالله تعالى) باعتبار كونها حقيقةً تكوينيّة، خصوصًا في ضوء المنطق القرآني، كما اتّضح وسيتضح في النصوص التي سنعرضها، حيث إنّها اقترنت بالاستشهاد بالآيات أو تفسيرها.

١.عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: "سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيرَ مُشرِكِينَ بِهِ**﴾(٤٧)؟

قال عليه السلام: "**الحنيفيّة من الفطرة التي فطر الله النّاس عليها، لا تبديل لخلق الله. قال: فطرهم على المعرفة به**... وقال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **كلّ مولود يُولَد على الفطرة، يعني المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه، كذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾**(٤٨)"(٤٩).

٢.عن زرارة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾(٥٠)؟

قال عليه السلام: "**فطرهم على معرفة أنّه ربّهم، ولولا ذلك لم يعلموا -إذا سُئلوا- من ربّهم، ولا من رازقهم**"(٥١).

٣.وعن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "قلت: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾؟ قال عليه السلام: "**التوحيد**"(٥٢).

٤.وعن زرارة، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: "أَصْلَحك اللهُ، قول الله عز وجل في كتابه: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾؟

قال عليه السلام: "**فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته أنّه ربُّهم**... "(٥٣).

والمقصود بالميثاق كما تفيده الروايات: قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾(٥٤).

وعن الأصبغ بن نباتة، عن علي عليه السلام قال: أتاه ابن الكوّاء (عبد الله بن عمرو اليشكري، من الخوارج) فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن الله تبارك وتعالى: هل كلَّم أحدًا من وُلْد آدم قبل موسى عليه السلام؟ فقال علي عليه السلام: "**قد كلَّم الله جميع خلقه، برّهم وفاجرهم، وردّوا عليه الجواب**". فثَقُل ذلك على ابن الكوّاء، ولم يعرفه، فقال له: كيف كان ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام له: "**أوَما تقرأ كتاب الله! إذ يقول لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، فقد أسمعهم كلامه، وردّوا عليه الجواب كما تسمع في قول الله - يا بن الكوّاء -: (قالوا بلى). فقال لهم: إنّي أنا الله لا إله إلا أنا، وأنا الرّحمن، فأَقرُّوا له بالطّاعة والربوبيّة، وميَّز الرّسل والأنبياء والأوصياء، وأمر الخلق بطاعتهم، فأَقرُّوا بذلك في الميثاق، فقالت الملائكة عند إقرارهم بذلك: شهدنا عليكم يا بني آدم أن تقولوا يوم القيامة إنّا كُنّا عن هذا غافلين**"(٥٥).

وفي الآية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: "... **فقال الله: يا آدم، هؤلاء ذريّتك، أخرجتهم من ظهرك، لآخذ عليهم الميثاق لي بالربوبيّة، ولمحمد بالنبوة، كما آخذه عليهم في السماء (...) قال آدم: يا ربِّ، فما تريد منهم في الميثاق؟ قال الله عز وجل: أن لا يشركوا بي شيئًا**... "(٥٦).

وعن الإمام الصادق عليه السلام في الآية: "**ثَبتت المعرفة في قلوبهم، ونسوا الموقف، وسيذكرونه يومًا، ولولا ذلك لم يدرِ أحدٌ من خالقه ولا من رازقه**"(٥٧). وعن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام في

الآية: قال عليه السلام: "**كان ذلك معاينة لله، فأنساهم المعاينة، وأثبت الإقرار في صدورهم، ولولا ذلك ما عرف أحدٌ خالقه ولا رازقه، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾**(٥٨)"(٥٩).

وقد أطلقت بعض الآيات على (الفطرة التوحيدية) اسم: (صبغة الله)، قال تعالى: **﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾**(٦٠). فالإنسان مخلوقٌ بلونٍ خاصٍّ من الميول والمعارف الممزوجة في جوهر ذاته، وليس كائنًا بلا لون وبلا صبغة، ومن أهمّ الميول الفطريّة التي تلوّنت وصُبغت بها نفس الإنسان بأصل التكوين، هي المعرفة بالله تعالى وتوحيده(٦١).

في المحصّلة يتبيّن مما تقدّم، أنّ:

١. معرفة أصل وجود الله تعالى فطريّةٌ مجبولةٌ في داخل الإنسان بأصل الخلقة والتكوين.

٢. التوحيد - بمعنى الانجذاب إلى كون الخالق والرازق والمغيث والقادر على تلبية الحوائج هو واحد - أمرٌ فطريّ في النفس البشريّة.

٣. هذه المعرفة (الفطرية التوحيديّة) ليست من سنخ المعارف الاختيارية التي تحصل بالكسب والتثاقف والتعليم، بل هي معرفة قهرية اضطراريّة ثابتة مستمرّة الحضور، وبالتالي لا يمكن انتزاعها من النفس البشرية. عن الحسن بن زياد قال: "سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**(٦٢)، هل للعباد بما حبّب صنع؟ قال عليه السلام: "**لا، ولا كرامة**"(٦٣).

وفي هذا السياق، نلحظ أنّه مهما حاول الإنسان دسّ الفطرة التوحيديّة في تراب الانغماس في اللذائذ الماديّة والمتعة الحسيّة، فإنّها تطفو على السطح وتظهر بين حين وآخر، خصوصًا في لحظات الشدائد والضعف والانكسار والشعور بالخوف والحاجة و... والتي تشكّل منبّهات لإثارة الفطرة وإيقاظها من غفلتها، بنحو لا يستطيع الإنسان أنْ يحافظ على عنصر الغفلة عن معرفة الله دائمًا **﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**.

قال رجل للإمام جعفر الصّادق عليه السلام: "يا ابن رسول الله، دلّني على الله ما هو؟ فقد أكثر عَليّ المجادلون وحيَّروني. فقال له: "**يا عبدَ الله، هل ركبتَ سفينةً قط؟**". قال: نعم. قال: "**فهل كُسِرت بكّ حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟**".

قال: نعم. قال: "**فهل تعلَّقَ قلبُك هنالك أنّ شيئًا من الأشياء قادرٌ على أنْ يُخلصّك من ورطتك؟**". قال: نعم. قال الصّادق عليه السلام: "**فذلك الشّيء هو الله، القادر على الإنجاء حيث لا مُنجي، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث**"(٦٤).

فالحياة التي تكدّر صفوها الشدائد وتنغّص عيشها لحظات الانكسار يمكن تحويلها من تهديد ومن حياة غير طيّبة إلى حياة طيّبة بالعودة إلى فطرة معرفة الله والاتصال بالله تعالى والارتباط به والانجذاب إليه. وروي عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام: "**الله هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّدائد كلُّ مخلوقٍ عند انقطاع الرّجاء من كلِّ مَنْ دونه وتَقطُّعِ الأسباب من جميع من سواه**"(٦٥).

نعم، وإنْ كانت قهريّة، لكنها تحتاج إلى التربية والتثاقف للتنبيه عليها مقابل الغفلة، كما تقدّم في الأحاديث عن أنّ كلّ مولودٍ يولد على فطرة التوحيد، ولكن قد يشرك فيكون نصرانيًّا بالتربية الوالديّة. كما تحتاج هذه الفطرة التوحيديّة إلى تزكية النفس وتهذيبها لتنميتها؛ لأنّها معرفةٌ اشتداديّةٌ لها مراتب مشككة قوةً وضعفًا بالاختيار.

فالله تعالى وإنْ جهّز وجدان الإنسان بمعرفته، لكنّ الفطرة بحدّ نفسها ليست عنصرًا مستقلًّا وكافيًا في ذلك؛ ولذا، يبقى الإنسان في وصوله إلى معرفة الله يحتاج إلى أمور:

الأوّل: التربية وهداية المربّي، الذي يعمل على إنضاج تلك الفطرة كطاقة داخليّة في نفس الإنسان؛ لأنّ البيئة والتربية تؤدّيان دورًا مهمّا في دسّ الفطرة أو تشويهها، كما في الحديث النبوي "**أبواه يهوّدانِه أو ينصّرانِه أو يمجّسانه**". وعن الإمام الصادق عليه السلام: "**احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدونهم؛ فإنّ الغلاة شرّ خلق الله، يصغّرون عظمة الله، ويدّعون الربوبيّة لعباد الله. والله إنّ الغلاة شرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا**"(٦٦).

ولذا نلاحظ ضرورة التربية على التوحيد، مما يؤشّر إلى عدم كفاية الفطرة على نحو العلية التامة وإنْ كانت مقتضيًّا، ولكن تحتاج إلى تحقق الشرط وهو التربية الحسنة، والإرادة، وارتفاع الموانع وهي البيئة الفاسدة وغير الصالحة.

روى عبد الله بن فضالة، عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام، قال: سمعته يقول: "**إذا بلغ الغلام**

ثلاث سنين، يقال له: قل: لا إله إلا الله سبع مرّات. ثم يُترك حتّى يتمّ له ثلاث سنين وسبعة أشهر وعشرون يومًا، فيقال له: قل: محمّد رسول الله سبع مرّات. ويُترك حتّى يتمّ له أربع سنين، ثم يقال له: قل سبع مرات: صلّى الله على محمّد وآله... "[٦٧]. وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله: "**إذا أفصح أولادكم، فعلّموهم لا إله إلا الله...**"[٦٨].

وأفصح الطِّفل في منطقه إفصاحًا، إذا فَهِمْتَ ما يقول في أوّل ما يتكلّم[٦٩]، وهو عادة ما يحصل في سنّ الثالثة. وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله، قال: "**من ربّى صغيرًا حتّى يقول: لا إله إلا الله، لم يحاسبه الله**"[٧٠].

والثاني: الإرادة الذاتيّة في الحفاظ على الفطرة السليمة، بتهذيب النفس وتزكيتها.

الحياة الطيّبة وضرورة تلبية نداء الفطرة

إذا كانت معرفة الله تعالى فطريّةً ــ بمعنى أنّها داخلةٌ في صميم ذاته ــ وجزءًا جوهريًّا في تكوينه النفسي، ومن خصائص الشّعور الفطري أنّه:

أ.ثابت لا يقبل التغيّر والتبدّل.

ب.ضروري لا يقبل الزّوال والانفكاك.

ج.كلّي شامل لعموم أفراد البشر.

د.دائم في كلّ زمان وجميع الأحوال.

وإذا كان الإنسان يحتاج إلى تلبية نداء الفطرة وتأمين حاجاتها، فالنتيجة أنّه: من أركان الحياة الطيّبة تأمين الحاجات الفطرية للنفس البشرية، وتلبيه ندائها؛ لأنّ العمل على خلاف مقتضى نداء الفطرة هو شذوذ؛ لأنّ تعريف الشذوذ أنّه ما كان على خلاف مقتضى الطبيعة، والشذوذ هو حالة مرضيّة، فعدم تلبية الحاجة الفطرية التوحيديّة بتفتح وتنمية معرفة الله تعالى والشعور به والجذبة إليه، يصيب الإنسان بحالات اضطرابٍ نفسيّ وقلقٍ وكآبةٍ وحزنٍ وعدم الشعور بالتوازن كما عند الملحدين واللاأدريين.

يقول كارل يونج –عالم النفس السويسريّ ومؤسِّس علم النفس التحليلي-: "انعدام الشّعور الدِّيني يُسبِّب كثيرًا من مشاعر القلق والخوف من المستقبل والشّعور بعدم الأمان والنّزوع

نحو النّزعات الماديّة البحتة، كما يؤدِّي إلى فقدان الشّعور بمعنى ومغزى هذه الحياة ويؤدِّي ذلك إلى الشّعور بالضياع"[٧١].

وقد أجرى البروفيسر Bertolote Manoel José – مشرف مسؤول في منظّمة الصّحة العالميّة – دراسةً تدرس نسبة المنتحرين حسب الدّين. فكان الملحدون على رأس قائمة الّذين قتلوا أنفسهم ليتخلَّصوا من حياتهم وتعاستهم، بنسبة (٤٠٪)، يليهم البوذيون (٢٤٪)، من ثمّ المسيحيون (١٨٪)، وفي ذيل القائمة يأتي المسلمون (١٪)[٧٢].

وبهذا تتبين سذاجة رأي الفيلسوف اللاأدري برتراند رسل حيث يقول: "يقوم الدِّين، برأيي، بصورةٍ أساسيّةٍ وأوليّةٍ على الخوف، إنّه جزئيًا الخوف من المجهول... إنّ الخوف هو أساس الأمر كلِّه – الخوف من كلّ ما هو غامض، الخوف من الهزيمة، والخوف من الموت، إنّ الخوف هو أبو القسوة وأمها؛ لذا، لا عجب إذا ما كان الدِّين والقسوة يسيران يدًا بِيَد"[٧٣].

مُعتَبرًا أنّه اليوم، وبعد تطوّر عقل الإنسان واكتشف بوساطة العلوم التجريبية العلاقات القائمة بين الظّواهر الطّبيعيّة وأسباب حدوثها، فلم يعد هناك داعٍ للخوف منها، فعلى الإنسان والحال هذه أنْ يتحرّر من الاعتقاد بالله، والحلّ يكمن في الإيمان بالعلم وقدرته على تغيير حياة الإنسان. لذا يتابع رسل قوله: "العلم يستطيع أنْ يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشري لأجيال عديدة"[٧٤].

ولو تجاوزنا نقطة أنّه لو كان ما تطرحه هذه الشُّبهة – من أنّ الخوف من الطبيعة هو العلّة التامّة أو المُقتضي لنشوء الانجذاب إلى الله تعالى– صحيحًا، إلّا أنّ منطق قانون السّببيّة –القائم على أساس أنّه عندما يوجد السّبب يوجد المسبَّب، وعندما ينتفي السّبب ينتفي المسبَّب – يستلزم أنْ يكون المجتمع الأكثر إيمانًا بالله تعالى هو المجتمع الأكثر خوفًا، فأينما يوجد الخوف يوجد التديّن، وعندما ينتفي الخوف ينتفي التديّن وتكثر النّزعة الإلحاديّة، مع أنّ الأمر على العكس تمامًا.

يقول الشهيد الصدر: "توصّل الإنسان إلى الإيمان بالله منذ أبعد الأزمان، وعبده وأخلص له، وأحسّ بارتباط عميق به ... ولم يكن هذا الإيمان وليد مخاوف وشعور بالرعب تجاه كوارث الطبيعة وسلوكها المضادّ، ولو كان الدين وليد خوف وحصيلة رعب لكان أكثر الناس تديّنًا

على مرّ التاريخ هم أشدّهم خوفًا وأسرعهم هلعًا، مع أنّ الذين حملوا مشعل الدين على مرّ الزمن كانوا من أقوى الناس نفسًا وأصلبهم عودًا. بل إنّ هذا الإيمان يعبّر عن نزعة أصيلة في الإنسان إلى التعلّق بخالقه، ووجدان راسخ يدرك بفطرته علاقة الإنسان بربّه وكونه"[٧٥].

نلحظ أنّ الإيمان بالله مصدر طمأنينةٍ وشعورٍ بالسكينة كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: ٢٨) وكما اتضح ممّا ورد في الروايات بأنّ الإنسان في لحظة الخوف لا يمكن أن يشعر بالطمأنينة إلّا في ظلّ المعيّة الإلهية، التي تكسبه الشعور بالقوّة في الحياة، والشجاعة والثقة بالنفس، وهذا ما نلمسه في حياة الأنبياء عليهم السلام والأولياء، فيوسف عليه السلام، ذلك الطِّفل الذي كان في التاسعة من عمره، حين ألقاه إخوته في غيابت الجُبّ، والتقطه بعض السيّارة وأُخرج عليه السلام من البئر، قال لهم قائل: استوصوا بهذا الغريب خيرًا، فقال لهم يوسف: "**من كان مع الله فليس عليه غربة**"[٧٦]، فالشعور بالمعية الإلهية وجذبة العشق إلى الله تعالى تدفع عن الإنسان الوحشة والغربة والوحدة والقلق والاضطراب.

أمّا الملحد يعيش القلق الوجودي والخوف والكآبة والتشاؤم نتيجة الشعور بلا معنائية الحياة والعبثية واللاهدفية. بل هذا الشّعور بالخوف - كما اتّضح سابقًا - هو أحد الدّوافع التي تحرّك المُلحد والمشكك والفاسق نحو الله تعالى، عندما تتقطّع به الأسباب الماديّة التي كان يتوسّل بها ليشعر بالأمان، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾[٧٧]، ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[٧٨].

معرفة الله والحياة الطيّبة في الروايات

سادسًا: معرفة الله والحياة الطيّبة في ضوء نصوص أهل البيت عليهم السلام

هناك آياتٌ قرآنيّةٌ كثيرةٌ تربط بين الإيمان بالله تعالى ومعرفته وبين الحياة الطيّبة، الحياة التي تملؤها الطمأنينة، والسكون النفسي، وتخلو من الخوف والحزن...

يقول تعالى:

﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[٧٩].

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٨٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٨١).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٨٢).

ولكن بحثنا في مدرسة أهل البيت، ولذا سنقتصر البحث على ما ورد في الروايات.

أ.أثر معرفة الله تعالى في أنْ تصغر الدّنيا في عين المؤمن، فلا يمدّ عينيه إلى ما متّع الله تعالى به الأعداء من زهرتها

عن الإمام الصادق عليه السلام: "**لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عز وجل ما مدّوا أعينهم إلى ما متّع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا، ونعيمها، وكانت دنياهم أقلّ عندهم مما يطأونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفة الله عز وجل، وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله، إنّ معرفة الله عز وجل أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم**"(٨٣).

من أهم آثار الحياة الطيّبة هي أنْ ينظر الإنسان إلى ما يتمتّع به أعداء الله في الدّنيا من نعيم: كالبيت الفاخر، والسيارة الفارهة، وكثرة المال، و.... بعين الاستصغار، فعندما يعظم الخالق في نفس المؤمن يصغر ما دونه في عينه، نعم هذا لا يعني ألّا يسعى الإنسان المؤمن من حلال إلى تحصيل البيت الواسع، والسيارة الجميلة، والراحة الماديّة، ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾(٨٤). فإنّ ذلك ممّا أكّدت عليه الروايات، و"قد روي في الصحيح عن ابن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّا لنحبُّ الدنيا!!

فقال لي: "**تصنع بها ماذا؟**"

قلت: أتزوج منها، وأحجُّ، وأنفق على عيالي، وأنيل إخواني، وأتصدق.

قال لي: "**ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة**"(٨٥).

فالمؤمن أحقّ بنعمة الله تعالى في الدّنيا من الكافر والفاجر، فعن مسعدة بن صدقة، قال: دخل سفيان الثوريّ على أبي عبد الله عليه السلام، فرأى عليه ثياب بيض كأنّها غُرقئ البَيْض(٨٦).

فقال له: إنّ هذا اللباس ليس من لباسك. فقال عليه السلام له: "**اسمع مني، وَعِ ما أقولُ لك، فإنّه خير لك عاجلًا وآجلًا، إنْ أنت متَّ على السُنّة والحقّ ولم تمت على بدعةٍ، أُخبِرك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مُقفِر جدب، فأمّا إذا أقبلت الدنيا فأحقُّ أهلها بها أبرارها لا فجارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها، فما أنكرت يا ثوري!! فوالله إنّني لمع ما ترى، ما أتى عليَّ مذ عقلت صباح ولا مساء، ولله في مالي حقٌّ أمرني أن أضعه موضعًا إلّا وضعته**"[٨٧].

وفي بعض الروايات أنّه عليه السلام استدلّ بتلك الآية أيضًا.

فهذه الروايات واضحة الدلالة على أنّ المؤمن أحقّ أنْ يتمتع بنعم الله تعالى من غيره، لكن، بشرطها وشروطها، بأنْ يكون ذلك في حلال، وبأنْ يخرج ما لله تعالى في ماله من حقوق... إلخ.

وقد مرّ الصادق عليه السلام بمواقف عدّة نتيجة كونه يلبس جُبَّةُ خَزٍّ وَطَيْلَسَانُ خَزٍّ أو غير ذلك، فيوجّه بعض الناس إليه اللوم والعذل والعتاب كما تقدّم عن سفيان الثوري، فيستدل عليه السلام بتلك الآية، ويجيب مثلًا: "**إِنَّ اللهَ عزّ وجلّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيْهِ**".

ويستشهد بأفعال الأنبياء وصحابة النبيّ، مثل:

أنّ عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ لَمَّا بَعَثَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِلَى الْخَوَارِجِ يُوَاقِفُهُمْ، لَبِسَ أَفْضَلَ ثِيَابِهِ، وَتَطَيَّبَ بِأَفْضَلِ طِيبِهِ، وَرَكِبَ أَفْضَلَ مَرَاكِبِهِ، فَخَرَجَ، فَوَاقَفَهُمْ، فَقَالُوا: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، بَيْنَا أَنْتَ أَفْضَلُ النَّاسِ، إِذْ أَتَيْتَنَا فِي لِبَاسِ الْجَبَابِرَةِ وَمَرَاكِبِهِمْ! فَتَلاَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ...

وكذلك مرّ قبله أبوه الباقر وبعده حفيده الرضا وغيرهما من الأئمّة عليهم السلام بهذه المواقف، وكانوا يستدلون بهذه الآية ومواقف الأنبياء عليهم السلام كيوسف وسليمان[٨٨]...

ب. أثر معرفة الله تعالى في الأنس من الوحشة والشفاء من كلّ سقم والقوة من كلّ ضعف:

تقدّم في الرواية عن الصادق عليه السلام أنّ معرفة الله تعالى تنعكس إيجابًا على حياة الإنسان بأن يعيش حالة الأنس، والقوة، والصّحة، وقد ربطت الروايات بين معرفة الله تعالى وبين هذه الآثار، منها:

ج. أثر معرفة الله في الصبر على البلاء:

د. أثر معرفة الله في التسليم لقدره والرضا بقضائه:

ذكرنا أنّ الحياة الطيّبة، هي تلك الحياة التي لا يجامعها نقيضها من الفقدان، ولكن، على فرض معاناة المؤمن ومقارنة حياته بالفقدانات في المستوى المنخفض من الوجود الماديّ، وهو أمر حاصلٌ كثيرًا، حيث تقترن حياته بالفقدان، كأن يمرض، أو يكون فقيرًا، أو يفقد حبيبًا، أو يخسر مالًا...، وهذه سنّة من سنن الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**﴾(٨٩)، فإنّ ذلك وإن كان خسارة بالمنظار الماديّ والمقاييس الدنيويّة الظاهريّة، إلّا أنّه إذا كان كان ذلك في سبيل الله مع الصبر على بلائه والتسليم لقدره والرضا بقضائه، فإنّه ظاهره العذاب والفقدان، ولكن باطنه من قِبَله الرحمة والوجدان، ولذا تعقّب الآية: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾(٩٠)، فتكون في الحقيقة حياة طيّبة باطنًا وإنْ كانت غير ذلك بالنظر البدويّ ظاهرًا.

فمن آثار معرفة الله تعالى هي التسليم لقضائه:

عن الإمام الباقر عليه السلام: "**أحقُّ خلق الله أنْ يسلِّم لما قضى الله عزّ وجلّ: من عرف الله عزّ وجلّ**"(٩١). وعن الإمام الصادق عليه السلام: "**إنّ أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عزّ وجلّ**"(٩٢).

ويترتّب على ذلك العيش الهنيئ والراحة والحياة الطيّبة؛ لأنّها مملوءةٌ بالرّضا والتسليم والطمأنينة والسلام الداخليّ وصلوات من الله ورحمة، وارتفاع الخوف والحزن وطرد الهم والغم.

عنه عليه السلام: "**إنّ أهنأ الناس عيشًا من كان بما قسم الله له راضيًا، من رضي من الله بما قسم له استراح بدنه**".

وعنه عليه السلام: "**ارضَ، تسترحْ**".

وعنه عليه السلام: "**الرضا ينفي الحزن**".

وعنه عليه السلام: "**نعم الطارد للهم، الرضا بالقضاء**"(٩٣).

هـ.من آثار معرفة الله أنّها تحرّك الإنسان نحو طلب الحياة الطيّبة الأبديّة:

عن الإمام علي عليه السلام: "**عجبتُ لمن عرف ربَّه كيف لا يسعى لدار البقاء؟!**"(٩٤).

و.عن الإمام الرضا عليه السلام يبيّن فيه آثار الإقرار بالله تعالى في الحياة الطيّبة الخالية من الظلم

والفساد والاعتداء: "... **من لم يقرَّ بالله (عزَّ وجلّ)، ولم يجتنب معاصيه، ولم ينتهِ عن ارتكاب الكبائر، ولم يراقب أحدًا فيما يشتهي ويستلذ عن الفساد والظلم، وإذا فعل الناس هذه الأشياء وارتكب كلّ إنسانٍ ما يشتهي ويهواه من غير مراقبة لأحد كان في ذلك فساد الخلق أجمعين ووثوب بعضهم على بعض فغصبوا الفروج والأموال... ومنها: أنّا وجدنا الخلق قد يفسدون بأمورٍ باطنةٍ مستورة عن الخلق، فلولا الإقرار بالله وخشيته بالغيب لم يكن أحد إذا خلا بشهوته وإرادته يراقب أحدًا في ترك معصية**"[٩٥].

سابعًا: لخرجوا من حدود الإنسانيّة إلى حدّ البهيميّة[٩٦]

خلق الله تعالى بحكمته - كونه لا يفعل العبث ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾[٩٧]- لهدف خاصّ، ومعرفته وعبادته وشكره ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٩٨]، ومكَّن الإنسان من الأدوات التي تجعله قادرًا على تحقيق هذا الهدف، كالعقل والقلب والجوارح، ليتدبر ويتعقّل ويفقه ويتفكّر ويشكر.

قال تعالى: ﴿**وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٩٩]، ﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾[١٠٠]، ﴿**نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾[١٠١]، ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾[١٠٢]، ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾[١٠٣].

وأوضح منها في بيان الهدف، ما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[١٠٤]. فحقيقة الشكر متقوّمةٌ بأنْ يستثمر الإنسان هذه الأدوات التي جهّزه الله تعالى به في الهدف الّذي خلقه لأجله المُنعِم[١٠٥].

يقول العلامة الطباطبائي: "إنّ النعمة - وهي الأمر الذي يلائم المُنعَم عليه ويتضمن له نوعًا من الخير والنفع - إنّما تكون نعمة بالنسبة إلى المُنعَم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع، وأمّا لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمةً بالنسبة إليه، وإنْ كانت نعمة بالنظر إلى نفسها. وقد خلق الله تعالى الإنسان وجعل غاية خلقته التي هي سعادته ومنتهى كماله، التقرب العبودي إليه، كما قال: ﴿**وما خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلّا ليعبدون**﴾[١٠٦] وهي الولاية الإلهية لعبده، وقد هيّأ الله سبحانه له كلّ ما يسعد وينتفع به في سلوكه نحو الغاية التي خلق

لها وهي النعم فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. فاستعمال هذه النعم على نحوٍ يرتضيه الله وينتهي بالإنسان إلى غايته المطلوبة هو الطريق إلى بلوغ الغاية وهو الطاعة، واستعمالها بالجمود عليها ونسيان ما وراءها غيّ وضلال وانقطاع عن الغاية وهو المعصية"[١٠٧].

وفي ضوء ما تقدّم، نُدرِك لميّة اطلاق القرآن ألفاظ مثل: الدّواب، الأنعام... على الأشخاص الّذين عطّلوا إدراكهم وشعورهم وقدرتهم وفعاليّتهم (التي هي مؤشّرات الحياة الإنسانيّة)؛ لأنّهم نزلوا بالإرادة الحرّة إلى أسفل سافلين في مراتب الوجود[١٠٨].

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ*...* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[١٠٩]. ويقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[١١٠]. وكذلك قوله تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا**﴾[١١١].

ويحدّثنا الإمام زين العابدين عليه السلام عن الربط الوثيق بين الحياة الحيوانية وبين عدم الشكر والحمد الذي هو مقتضى الهدف الوجودي للإنسان، فيقول: "والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة؛ لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه، وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حدّ البهيمية، فكانوا كما وصف في محكم كتابه: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا**﴾"[١١٢].

وبناءً على هذا التحليل، يتضح معنى (الميت الحيّ) الّذي تقدّم في رواية الإمام علي عليه السلام: "... **فالصورةُ صورةُ إنسان، والقلبُ قلبُ حيوان، لم يعرفْ بابَ الهدى فيتبعه، ولا بابَ العمى فيصدَّ عنه، فذلك ميّت الأحياء**"[١١٣]. وما روي عنه عليه السلام: "**إنّ الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوةً بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقلُهُ شهوتَه فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوتُهُ عقلَه فهو شرٌّ من البهائم**"[١١٤].

الخاتمة

البحث عن الحياة الطيّبة هو بحث عن الهدف الوجودي الذي خُلِق لأجله الإنسان، فلا يعلوه بحث، إذ ليس بعد الغاية النهائية قضيّة أهم، فكلّ ما عداها هو دونها، ويمكن أنْ نخلص إلى مجموعةٍ من النتائج التي تمكّن البحث أنْ يبلورها بشكلٍ واضح:

- ليس من شيءٍ إلّا ويكاد صاحبه يشبع منه ويملُّه، إلّا الحياة الطيّبة، فالحياة أعظم نعمةٍ يعتقدها الإنسان لنفسه، إذ ليس وراء الحياة إلّا العدم والفناء، فغير الحيّ لا وجود له معرفيًّا، فهو بمنزلة العدم بالنسبة إلى عالم الإدراك والشعور.

- الحياة الطيّبة سنخ حياةٍ خاصّةٍ تتقوَّم بالخلو من الفقدانات والأعدام والنواقص التي تنغّص عيش الإنسان وتكدّر صفوه، وبتلبية حاجاته التي تتحرّك به نحو الهدف الوجودي.

- النفس الإنسانية مجبولةٌ بالفطرة على معرفة الله تعالى والانجذاب إليه والخضوع أمام عظمته.

- إذا كان مقوِّم الحياة الطيّبة تأمين الحاجات الفطرية، فعدم السعي إلى معرفة الله تعالى والخضوع له يصيب الإنسان بحالات اضطرابٍ نفسيّ وقلقٍ وكآبةٍ وحزنٍ وعدم الشعور بالتوازن، فلا حياة طيّبة بدون معرفة الله تعالى وتوحيده.

- أكّدت الروايات على أنّ حقيقة الحياة الطيّبة لا تتقوَّم إلّا بالتوحيد، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: "لا حياة إلّا بالدِّين، ولا موت إلّا بجحود اليقين"، "التوحيد حياة النفس".

- تتقوّم الحياة الطيّبة بالتوحيد الفعليّ لله تعالى أي طاعة أوامره ونواهيه والخضوع لها، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام، في دعاء عرفة: "**فَأَحْيِنِي حَيَاةً طيّبة تَنْتَظِمُ بِمَا أُرِيدُ، وَ تَبْلُغُ مَا أُحِبُّ مِنْ حَيْثُ لَا آتِي مَا تَكْرَهُ، وَ لَا أَرْتَكِبُ مَا نَهَيْتَ عَنْهُ**".

- الإعراض عن معرفة الله تعالى وذكره وحضوره في حياة الإنسان يؤدّي إلى الحياة الخبيثة التي اصطلح عليها القرآن الكريم: (معيشة ضنكًا)، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[١١٥].

- الكافر لكونه غير موحّد، ولم يأتمر بها أمره الله تعالى ولم ينتهِ بما نهاه عنه فإنّه يتّصف بحصة خاصة من الحياة البيولوجيّة الماديّة، ولكنّه يفقد الحياة الطيّبة الحقيقيّة، التي تُفاض على الإنسان

بسبب معرفة الله وتوحيده، فهو (ميّت الأحياء).

- وقد أكّدت الروايات على فكرة (ميّت الأحياء)، عن أمير المؤمنين عليه السلام: "**وآخر قد تسمى عالمًا وليس به... فالصورةُ صورةُ إنسان، والقلبُ قلبُ حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميت الأحياء!**".

الهوامش

١- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة:١٣٣.

٢- النحل/ ٩٧.

٣- طه/ ١٢٤.

٤- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٤/ ٢٢٥.

٥- الخراساني، محمد كاظم، كفاية الأصول، ١/ ١٠.

٦- المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، ١/ ٥٥.

٧- ابن سينا، الحسين بن عبد الله، المباحثات، ٢٩٩. السهروردي، يحيى، كتاب التلويحات، ٧٥. الشيرازي، محمد بن ابراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ٦/ ٤١٣. والطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، المرحلة ١٢، الفصل ١٥. والميزان، ٢/ ٣٤٥-٣٤٦.

٨- الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ٥٤. يقول: " إذا ثبت كونه قادرًا، وجب أن يكون حيًّا ". الطوسي، (المعروف بنصير الدين)، الطوسي، محمد بن محمد بن الحسن، تجريد الاعتقاد، ١٩٢. والإيجي، شرح المواقف، ٨/ ٨٠. يقول: " في أنّه تعالى حي هذا ما اتفق عليه الكل؛ لأنّه عالم قادر". التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد، ٤/ ١٣٨. يقول: " ودلّ العلم والقدرة على الحياة".

٩- مايـر، إرنست، هذا هو علم البيولوجيا- دراسة في ماهية الحياة والأحياء، ١٥/ ٤٠. يقول مايـر [مدرّس علم الحيوان في جامعة هارفرد الأمريكية]: "... هذه الخصائص المميزة للكائنات الحية المتعضّية تحقّق لها عددًا من القدرات التي لا وجود لها في الأنظمة غير الحيّة، منها: القدرة على التطور- القدرة على الاستنتساخ الذاتي- القدرة على النمو والتمايز على أساس برنامج جيني، القدرة على النشاط الأيضي- القدرة على التنظيم الذاتي... القدرة على التجاوب مع المؤثرات... القابلية للتغير الازدواجي... كل هذه الخصائص المميزة للكائنات الحيّة المتعضّية تؤهلها لأنْ تحتل مرتبة متميّزة عن الأنظمة غير الحيّة".

١٠- السهروردي، يحيى، المشارع والمطارحات، ٣١٧.

١١- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٧/ ٣١٣.

١٢- م.ن، ٩/ ٤٢.

١٣- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة:١٣٣.

١٤- الشيرازي، محمد بن إبراهيم ، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، ٦/ ٤١٣.

١٥- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد ، ١/ ٢٩٦.

١٦- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ١/ ٧١٠.

١٧- الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ٢٣٠.

١٨- م.ن، الخطبة: ٣٤.

١٩- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ١/ ٧١٠.

٢٠- م.ن، ٤/ ٢٩٧٤. عن غرر الحكم: ٢١١٨.

٢١- الطوسي، محمد بن الحسن، الامالي ، ٢٨.
٢٢- الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة: ٨٧.
٢٣- الفارابي، أبو نصر، رسالة السعادة، ٤٧ و٤٩.
٢٤- النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ١/ ٥٧.
٢٥- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ٨/ ١١١. ابن فارس، أحمد، معجم المقاييس في اللغة، ٥/ ١٣٩. و الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ٥/ ١٨١٣. والزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس ، ١٦/ ٧٦.
واصطلاحًا انظر: الشيرازي، محمد بن إبراهيم، المبدأ والمعاد، ٣٣٨. وابن سينا، الحسين بن عبد الله، الإشارات والتنبيهات، ٣/ ٣٤٠. وابن الفناري، محمد بن حمزة،، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، ٢٢٥.
٢٦- راغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ٧٢٦.
٢٧- النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ١/ ٣٥.
٢٨- الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، ٢٨٦.
٢٩- الذاريات/ ٥٦.
٣٠- هود/ ١١٨-١١٩.
٣١- البقرة/ ٣٠.
٣٢- الصدوق، محمّد بن عليّ، علل الشرائع، ص١٣، ح١٠.
٣٣- الصدوق، محمّد بن عليّ ، التوحيد، ص ٣٥٦، ح٣.
٣٤- م.ن، ح١١.
٣٥- الأنعام/ ٥٤.
٣٦- الأعراف/ ١٥٦- ١٥٧.
٣٧- النور/ ٥٥.
٣٨- هود/ ٥٠، ٦١، ٨٤.
٣٩- الصدوق، محمّد بن عليّ، علل الشرائع، ص١٠، ح٤.
٤٠- الروم/ ٣٠-٣١.
٤١- البخاري، محمد بن أسماعيل، صحيح البخاريّ، ٢/ ١٠٤.
٤٢- الصدوق، محمّد بن عليّ ، من لا يحضره الفقيه، ٢/ ٤٩، ح١٦٦٨.
٤٣- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ٢٩٣.
٤٤- الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الأسفار الأربعة، ٨/ ٣٥٥. والريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلاميّة، ٢/ ٣٠١.
٤٥- الخوئي، أبو القاسم، ، مصباح الأصول، ١/ ٢٧٦.

٤٦- الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، المرحلة: ١١، الفصل: ١١، ص٣١٨.
٤٧- الحج/ ٣١.
٤٨- لقمان/ ٢٥.
٤٩- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ١٢.
٥٠- الروم/ ٣٠.
٥١- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ٢٤١.
٥٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ١٢.
٥٣- الصدوق، محمّد بن علّي، التوحيد، ص٣٣٠.
٥٤- الأعراف/ ١٧٢.
٥٥- العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي ، ٢/ ٤١.
٥٦- المصدر نفسه، ص٢١٩.
٥٧- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ٢٤١.
٥٨- لقمان/ ٢٥.
٥٩- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ٢٨١.
٦٠- البقرة/ ١٣٨.
٦١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ١٤.
٦٢- الحجرات/ ٧.
٦٣- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ١٩٩.
٦٤- الصدوق، محمّد بن علّي، معاني الأخبار، ص٥.
٦٥- م،ن، التوحيد، ص٢٣١.
٦٦- الطوسي، محمد بن الحسن، الامالي ، ص٦٥٠.
٦٧- الصدوق، محمّد بن علّي، من لا يحضره الفقيه، ١/ ٢٨١، ح٨٦٣.
٦٨- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمّال، ١٦/ ٤٤٠.
٦٩- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ٢ ص٥٤٤.
٧٠- الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، ٨/ ١٥٩. والطبرانّي، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، ٥/ ١٣٠.
٧١- نقلاً عن: العيسوي، عبد الرّحمن، دراسات في تفسير السّلوك الإنساني، ص١٩٣.
72- Is religion protective against suicidal behaviour for LGBT individuals? (netecr.org)
٧٣- رسل، برتراند، لماذا لست مسيحيًّا، ص٢٦.
٧٤- م.ن، ٣٥.
٧٥- الصدر، محمد باقر، المرسل الرسول الرسالة، ص١٣-١٤.

٧٦- الزمخشري، جارالله، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ٣/ ٥.
٧٧- يونس/ ١٢.
٧٨- العنكبوت/ ٦٥.
٧٩- النحل/ ٩٧.
٨٠- البقرة/ ١١٢.
٨١- الأحقاف/ ١٣.
٨٢- الرعد/ ٢٨.
٨٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨/ ٢٤٧.
٨٤- الأعراف/ ٣٢.
٨٥- المجلسي محمد باقر، بحار الانوار، ٧٠/ ٦٢.
٨٦- الغرقئ، كزبرج، القشرة الملتزمة ببياض البيض، أو البياض الذي يؤكل. القفر: خلو الأرض من الماء. والجدب: انقطاع المطر ويبس الأرض.
٨٧- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٥/ ٧٣، ح١.
٨٨- انظر حول هذه الروايات: البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، ٢/ ٥٣٥ وما بعد.
٨٩- البقرة/ ١٥٥.
٩٠- البقرة/ ١٥٥-١٥٧.
٩١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٦٢.
٩٢- م.ن، ص٦٠.
٩٣- انظر لهذه الأحاديث: الريشهري، محمد، ميزان الحكمة ، ٢/ ١٠٩٤.
٩٤- الواسطيّ، عليّ بن محمّد الليثيّ، عيون الحكم والمواعظ، ص٣٢٩.
٩٥- الصدوق، محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ٢/ ٩٩، ح١.
٩٦- للتفصيل حول هذه الفكرة، انظر: عجمي، سامر توفيق، التربية بنظرة فلسفيّة، ص١٧٩-١٨٠. وعجمي، سامر توفيق، الحياة الطيّبة في القرآن الكريم، قراءة في فكر العلامة الطباطبائي، مجلة الاستغراب، العدد٢٣.
٩٧- المؤمنون/ ١١٥.
٩٨- الذاريات/ ٥٦.
٩٩- البقرة/ ٧٣.
١٠٠- م.ن/ ٢٦٦
١٠١- الأنعام/ ٦٥.
١٠٢- النحل/ ٦٥.
١٠٣- الذاريات/ ٢٠-٢١.
١٠٤- النحل/ ٧٨. وانظر: الملك/ ٢٣. المؤمنون/ ٧٨. السجدة/ ٩.

١٠٥- الطباطبايي، محمد حسين، الميزان، ٤/ ٣٨.
١٠٦- الذاريات/ ٥٦.
١٠٧- الطباطبايي، محمد حسين، الميزان، ٢٠/ ٣٩٧-٣٩٨.
١٠٨-م.ن، ٩/ ٣٩. و١٥، و٢٤٢.
١٠٩- الأنفال/ ٢٢-٢٤.
١١٠- الأعراف/ ١٧٩.
١١١- الفرقان/ ٤٤.
١١٢- الصحفية السجادية، الدعاء الأول، التحميد لله عزّ وجلّ.
١١٣- الشريف الرضي، نهج البلاغة، ١/ ١٨١.
١١٤- الصدوق، محمّد بن عليّ، علل الشرائع، تقديم ص٥.
١١٥- طه/ ١٢٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
* الصحفية السجادية
* نهج البلاغة
* ابن الفناري، محمد بن حمزة، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، تصحيح وتقديم: محمد خواجوي، ط١، ١٤١٦هـ.
* ابن سينا، حسين بن عبد الله، الإشارات والتنبيهات، مع شرح نصير الدين الطوسي، تحقيق سليمان دنيا، ط١، دار النعمان، بيروت، ١٩٩٢م.
* ـــــــــ، المباحثات، تحقيق وتعليق محسن بيدارفر، ط١، قم، انتشارات بيدار، ١٤١٣هـ.
* ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٤هـ.
* ابن منظور، محمد بن مكرّم، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
* الأخوند الخراساني، محمد كاظم، كفاية الأصول، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، ١٤٠٩هـ.
* الإيجي، عبد الرحمن، شرح المواقف، تحقيق: السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، ويليه حاشيتي السيالكوتي والجلبي، الطبعة الأولى، منشورات الشريف الرضي، ١٣٢٥هـ -١٩٠٧م.
* البحراني، هاشم، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، ط١، قم، مؤسسة البعثة.
* البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاريّ، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
* البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.
* التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد، تحقيق وتعليق مع مقدمة في علم الكلام للدكتور عبد الرحمن عميرة، تصدير فضيلة الشيخ صالح موسى شرف، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.
* الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
* الخوئي، أبو القاسم، مصباح الأصول، (بقلم محمد سرور الواعظ الحسيني البهسودي)، ط٦، قم، مكتبة الداوري، ١٤٢٠هـ.
* الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ط١، دمشق/ بيروت، دارالقلم، الدار الشاميّة، ١٤١٢هـ.
* رسل، برتراند، لماذا لست مسيحيًّا؟ ترجمة عبد الكريم ناصيف، ط١، دمشق-بيروت، دار التكوين، ٢٠١٥.
* الريشهري، محمد، موسوعة العقائد الإسلاميّة، تحقيق مركز بحوث دار الحديث، ط١، دار الحديث، ١٤٢٥هـ.
* ـــــــــ، ميزان الحكمة، ط١، دار الحديث، ١٤١٦هـ.
* الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، بيروت، دارالفكر، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م.
* الزمخشري، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٢هـ.

* السهروردي، يحيى (المعروف بشهاب الدين)، المشارع والمطارحات، مجموعة مصنفات شيخ الإشراق، تصحيح ومقدمة هانري كُربن، طهران، الناشر: بزوهشكاه علوم انسانى ومطالعات فرهنكي، ١٣٨٠هـ.ش.
* ـــــــــ، كتاب التلويحات، مجموعة مصنفات شيخ الإشراق، تصحيح ومقدمة هانري كُربن، طهران، الناشر: بزوهشكاه علوم انسانى ومطالعات فرهنكي، ١٣٨٠هـ.ش.
* الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، خرج مصادره الشيخ حسين الأعلمي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
* الشيرازي، محمد بن إبراهيم (المعروف بصدر المتألهين)، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٤، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
* الشيرازي، محمد بن إبراهيم (المعروف بصدر المتألهين)، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، مع حواشي الحكيم المحقق الحاج ملا هادي السبزواري، تعليق وتصحيح وتقديم السيد جلال الدين الآشتياني، ط٢، المركز الجامعي للنشر، مؤسسة التاريخ العربي، ١٩٨١م.
* ـــــــــ، المبدأ والمعاد، تقديم وتصحيح جلال الدين الآشتياني، ط٣، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٢هـ.
* الصدر، محمد باقر، المرسل الرسول الرسالة، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
* الصّدوق، محمد بن علي، التوحيد، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
* ـــــــــ، علل الشرائع، تقديم محمد صادق بحر العلوم، النجف الأشرف، منشورات مكتبة الحيدرية، ١٣٨٥هـ -١٩٦٦م.
* ـــــــــ، معاني الأخبار، تعليق علي أكبر الغفاري، تقديم حسين الأعلمي، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
* ـــــــــ، من لا يحضره الفقيه، بيروت، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.
* الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٢هـ.
* ـــــــــ، نهاية الحكمة، بتعليقة محمّد تقي مصباح اليزدي، بيروت، دار الكتاب الإسلامي.
* الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ط٢، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
* ـــــــــ، الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ط١، قم، مؤسسة البعثة، ١٤١٤هـ.
* ـــــــــ، تجريد الاعتقاد، حققه محمد جواد الحسين الجلالي، ط١، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٧هـ.
* عجمي، سامر توفيق، التربية بنظرة فلسفيّة، مركز الأبحاث والدراسات التربوية، ط١، بيروت، دار البلاغة، ١٤٣٩هـ -٢٠١٨م.
* ـــــــــ، الحياة الطيّبة في القرآن الكريم- قراءة في منظومة العلامة الطباطبائي، مجلة الاستغراب، العدد٢٣، ربيع ٢٠٢١م.
* العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، طهران، المكتبة العلمية الإسلامية.
* العيسوي، عبد الرّحمن، دراسات في تفسير السّلوك الإنساني، بيروت، دار الرّاتب الجامعية، ١٤١٩هـ.

* الفارابي، أبو نصر، التنبيه على سبيل السعادة، دراسة وتحقيق سحبان خليفات، ط١، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٨٧م.
* ـــــــــــ، رسالة السعادة، تحقيق جعفر آل ياسين، دار المناهل.
* الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزمي وإبراهيم السمرائي، ط٢، إيران، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، ١٤٠٩هـ.
* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تعليق علي أكبر الغفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية.
* ماير، إرنست، هذا هو علم البيولوجيا- دراسة في ماهية الحياة والأحياء، ترجمة عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٧٧، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٢م.
* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٢، بيروت، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
* المظفر، محمد رضا، أصول الفقه، ط٢، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
* المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ط٢، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، بيروت، دار المفيد للطباعة، ١٤١٤هـ.
* النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر، جامع السعادات، بيروت، دار المرتضى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
* الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمّال في السنن والأقوال والأفعال، ضبط بكري حياني، تصحيح صفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.
* الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.
* Zortea, Tiago, Is religion protective against suicidal behaviour for LGBT individuals? https://netecr.org/2017/09/15/religion-lgbt/ netecr.org

الإيمانُ بالآخرة وأثرُه على الحَياة الطيّبة
من خلالِ القرآنِ الكريم وروايات أهلِ البيت عليهم السلام

د. محمد مرتضى

أستاذ الفلسفة الغربية في جامعة المعارف / لبنان

ملخص البحث

يعدُّ الايمان بالآخرة ركنًا أساسيًا من أركان الإيمان في الإسلام، وهو إيمانٌ له أثره الفاعل على تكامل البناء الحياتي للإنسان المسلم، عبر انعكاسه الإيجابي على سلوك هذا الفرد في علاقاته وتعاملاته في الدنيا.

في هذا البحث ناقشنا دور هذا الإيمان في بناء معالم الحياة الطيّبة للفرد والمجتمع المسلم وتمكينه وجوديًا من خلال العمل الصالح؛ حيث سلطنا الضوء في **المبحث الأول** على مفهوم الآخرة وأهميته من خلال القرآن الكريم وروايات اهل البيت ﷺ. وفي **المبحث الثاني** تحدّثنا عن دور هذا الإيمان في تمكينِ معالمِ الحَياة الطيّبة عند الإنسان المسلم مع تحليل لآياتٍ قرآنيةٍ ونصوصٍ روائية. وفي **المبحث الثالث** تطرّقنا إلى مجالات الحياة الإنسانية الطيّبة المُستندة إلى عقيدة المعاد، وهي مجالات تتصل بمعيشة الإنسان وصفاء نفسه وسكينة روحه، وأثر هذا الإيمان على تربيته وجهاده وفلاحه الحياتي وتحقيق غاية العدل والكرامة الإنسانية.

توصّل البحث إلى أنّ الإيمان بالآخرة - وما له من منعكسات إيجابية على حياة الفرد وبناء حياته انطلاقًا من المثل الدينية العليا - لا يمكن أنْ يعطي ثماره الطيّبة على هذا الصعيد إلّا من قيمة هذا الربط الحيوي والفعال بين الدنيا والآخرة، والتي عدّها الإسلام جسرًا يتواصل بلا انقطاع بين حياتين، إحداهما نتيجة للأخرى (الدنيا مزرعة الآخرة)، وذلك حتى يعيش المسلم في ظلِّ قيم الله تعالى ومفاهيمه وأخلاقياته، متسلحًا في دنياه بنور الإيمان بالله في توحيده والالتزام بمقتضياته الشرعية، وإخلاص النية له في كلّ حركةٍ وسكونٍ وفعل.

المقدّمة

الآخرةُ بحسب العقيدة الإسلامية، عالمٌ خاصٌّ يأتي بعد نهاية الدنيا، وموت الحياة البشرية وغير البشرية؛ وذُكرتْ الآخرة بمعنى المعاد، إذ وردتْ دلائلُ نقليةٌ وبراهينُ عقليةٌ وفلسفيةٌ كلاميةٌ إثباتًا لها (برهان الحكمة وبرهان العدالة). وفي سياقِ ترسيخ الأدلة ذُكرت لها مجموعة سماتٍ وخصائص منها الخلود، والعدل المطلق، ورؤية نتائج أعمال الدنيا، والانتفاع حسب الاستحقاق الدنيوي.. وكما يؤكّدُ السيد الطباطبائي في تفسيره، فإنَّ نظامَ الحياة في جميع شؤونها في الآخرة غير نظامها في الدنيا؛ فالدار الآخرة دار أبدية فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاؤون أو محض الشقاء، وليس لهم فيها إلّا ما يكرهون، والدار الدنيا دار فناء، وزوال لا يحكمُ فيها إلّا الأسباب والعوامل الخارجية الظاهرية مخلوط فيها الموت بالحياة، والفقدان بالوجدان، والشقاء بالسعادة، والتعب بالراحة، والمساءة بالسرور، والآخرة دار جزاءٍ ولا عمل، والدنيا دار عملٍ ولا جزاء، وبالجملة النشأة غير النشأة[1]. ونحنُ لا نريدُ أنْ نسترسلَ ونستطرد هنا في الحديث عن حقيقة الآخرة، حيثُ إنَّ في ذلك تفاصيل ليسَ محلّها هنا. وما يهمّنا هنا - في بحثنا هذا - هو أثر الإيمان بالآخرة في ترسيخ قيم وأخلاقيات وسلوكيات الحياة الطيّبة في الدنيا والعمل بها.

ولقد حفلَ كتاب الله (القرآن الكريم) بالكثير الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي استفاضتْ وتوسّعتْ في الحديث عن الآخرة، ليس فقط كركنٍ إيمانيّ إسلامي- بل كحقيقةٍ واقعةٍ لا ريب فيها، مؤصلةً للربط بين الآخرة والدنيا، مع جعل الآخرة هي الهدف الأساس الذي ينبغي العمل له. ورغم كونها (أي الآخرة) غيبًا زمنيًا ومكانيًا بالنسبة للإنسان[2]، ولكن كلام الله تعالى وحديث رسوله الكريم صادقٌ مصدقٌ ولا يحكي إلا الحقائق الواقعة، ويجب التسليم به وهذا من شروط إيمان المرء وصحته. وهو أهم مسألة دينية بعد التوحيد. وهذا ما يمكن أنْ نجده ونستفيده ممّا جاءَ في القرآن الكريم، حيث أشار وبصراحةٍ بالغةٍ إلى أنّ الأنبياء بعثوا لكي يجعلوا الناس تؤمن بحقيقتين جوهريتين، الأولى هي الله (المبدأ - التوحيد)، والثانية هي القيامة أو المعاد (الآخرة).

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا البحث سينطلق من مبادئ ثلاثة:

الأوّل: إنّ الآخرة هي الأساس الذي ينبغي للإنسان أنْ يسعى إليه ويحضّر له. ويقول تعالى: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾**[٣].

الثاني: إنّ لكلّ عملٍ أثرٌ في الدنيا. **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾**[٤]. وقال تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾**[٥]. وممّا لا شك فيه أنّ الحياة الطيّبة والمعيشة الضنكا هي من آثار العمل، كما أنّ المقصود من الحياة الطيّبة هي الحياة الخالية من الخبائث وإنْ كانت مليئة بالتعب، فيما المعيشة الضنكا هي المعيشة المليئة بالخبائث وإنْ كانت خاليةً من التعب.

الثالث: وهي تجسّد أعمال الإنسان في الآخرة. قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾**[٦]. إذ من الواضح أنّ حشر المُعرض عن ذكر الله أعمى إنّما هو الصورة الأخروية للإعراض عن ذكر الله، والذي صورته صورة الأعمى.

وبناءً على هذه المبادئ، فلا شك في أنّ للإيمان باليوم الآخر مدخليةٌ في سلوك الإنسان، وتلبّسه بالصفات التي يقتضيه هذا الإيمان.

المبحثُ الأوّل: دورُ الإيمان بالآخرة في تمكينِ معالمِ الحَياة الطيّبة عند الإنسان المسلم (تحليل لآياتٍ قرآنيةٍ ونصوصٍ حديثيّة)

عندما نتحدثُ عن الحياة الطيّبة ودور الإيمان بالدار الآخرة في تمكين معاييرها وخصائصها دنيويًا في حياة الفرد المسلم، لا بدّ أولًا من فهم معنى هذه (الحياة الطيّبة) في طبيعتها وماهيتها. فالحياة الطيّبة هي الحياة التي يعيش فيها المسلم في ظلِّ قيم الله تعالى ومفاهيمه وأخلاقياته، متسلحًا فيها بنور الإيمان بالله في توحيده والالتزام بمقتضياته الشرعية كلّه، وإخلاص النية له في كلّ حركةٍ وسكونٍ وفعل.

والحياة الطيّبة رغبة ومطلب كلّ إنسانٍ يمتلك وعيًا وحكمة ومسوؤلية، ويعي معنى الوجود الذي أفاضه الله. وبطبيعةِ الحال ما من إنسانٍ في هذه الحياة إلّا وتراه يسعى ويكدح ويضني نفسه ويجهدها بحثًا عن تمثّل بعض معالم الحياة الطيّبة وطمعًا في الحصول عليها ولو بحدودها

الدنيا. لكن الواضح أنّ الله تعالى - مالك الملك والوجود كله - حددّ بدقةٍ في كتابه الكريم معنى هذا المفهوم وأشار إلى خصائصه في عدة آياتٍ قرآنيةٍ صريحة، يقول تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾(٧). والعمل الصالح هنا هو العمل الذي يقوم به الإنسان في علاقاته ومعاملاته الخاصّة والعامة في ظلّ إيمانه بالله تعالى ومرضاته الله تعالى، والالتزام بأحكام شرعه وقيمه الدينية مخلصًا لله فقط.

ولا شكَّ في أن ذروة العمل الصالح عند الفرد المسلم لا تأتي إلّا عبر إيمانه العميق بالآخرة، وهذا الإيمان هو الذي يعمل بدوره على تمكين وتثبيت أسس ومعالم الحياة الطيّبة في الحياة الدنيا لهذا الفرد انطلاقًا من ذاته في تنميتها على الفضائل والأخلاقيات والقيم الدينية الخيرة. فالدنيا مزرعة الآخرة بحسب ما تحدّث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، بمعنى أنّ ما يفعله المرء في دنياه سيلقى حصاده في الآخرة؛ ولهذا ينبغي أنْ يكون العمل والفعل في الدنيا خيرًا وطيبًا وصالحًا حتى يعيش في دنياه حياة طيّبةً معطاءةً متوازنةً ومسؤولةً في كل ما يتصل بحركته ووجوده وعلاقاته، يعكس فيها إيمان الإنسان بآخرته وبدينه ككل.

وقد أضاءت لنا الآياتُ القرآنية وكذلك الأحاديث الشريفة، طريق الحياة الطيّبة وصولًا لآخرة ينال فيها جزاءً حسنًا، من خلال أمورٍ جليلةٍ وعظيمةٍ عديدةٍ أوجبتها علينا، وهي:

أولًا- الإيمانُ بالله تعالى وتوحيده، وهذا يتطلّبُ من المسلم ما يلي:

١- **الإيمانُ اليقيني البعيد عن الظن والتوهم والتخمين**: فاليقين وحسن الظن بالله من أسباب الحياة الطيّبة، ومن أهمّ معالمها في حياة الفرد المسلم، وهما لا يتوفران عنده - في سلوكه وشصخيته - من دون تقوى ذاتيةٍ وعمليةٍ يجب أنْ يقوَّمَ حياته بالاستناد إليها. يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا*وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾(٨).

إنّها التقوى إذًا التي تأتي على رأس الالتزامات الأخلاقية التي يجب تأسيس النفس ذاتيًا عليها، والتمسك بها وأداء استحقاقاتها الخارجية في بناء الحياة الطيّبة على أسس العدل

والمساواة والإخاء الإنساني. وهذه الرؤية الأخلاقية الإنسانية المتطلعة لبناء حياة صالحة وطيّبة على الأرض بين الناس، لا تثمر من دون إيمانٍ بيوم تتحقّق فيها العدالة المطلقة، ويحاسب الناس على أعمالهم، أي من دون إيمان باليوم الآخر أو بالدار الآخرة.

قال الإمام علي عليه السلام: "**سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، قَالَ: تَقْوى الله وَحُسْنُ الخُلُق. وسُئِل عن أكثر ما يُدخل به النار قال: أجوفان، البطن والفرج**"(٩). وفي قولٍ آخر يعدّ الإمامُ علي عليه السلام أنَّ "**التقوى دواءُ داءِ قلوبكم، وشفاء مرضِ أجسادِكم، وصلاحُ فسادِ صدورِكُم، وطهورُ دَنسِ نفوسِكُم**"(١٠).

إنَّ تأكيدَ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، والإمام علي عليه السلام على التّقوى وعدّها بمنزلة الدّواء الشافي للناس، خاصّة لأولئك الذين يعانون من أمراض الروح والنفس والأجساد المتعبة، لم يكنْ أمرًا اعتباطيًا، بل هو أمرٌ مرتبطٌ بغايةٍ نبيلةٍ وهدفٍ سامٍ، إذ يريد من خلالِ ذلكَ أن يتصدّى بقوةٍ للنزعة المادية الصّنمية، ويواجه ما يحدث في أمته من (طغيان الرؤية المادية) - والنزعة الحياتية اليومية - على واقع المجتمع كله. خصوصًا أنّها أدت إلى اضمحلال مشاعر التدين الصحيح بين الناس، وانحراف تصوراتهم الإسلامية العملية القائمة أساسًا على قاعدة التقوى. كما كان يستهدفُ إرشادهم إلى كيفية تأسيس حياتهم وإدارة مختلف مواقعهم وشؤونهم بالاستناد أولًا إلى قيمة التقوى بوصفها مدخلًا للفضيلة، وقاعدةً ومعيارًا للتعامل الذاتي الداخلي والموضوعي الخارجي، وسبيلًا للفلاح والنجاح من خلال ترويض النفس وتهذيبها وكبح جماحها عن الشهوات والظلم والعدوان. يقولُ الإمام عليه السلام: "**فليكنْ أَحَبّ الذّخائر إليكَ ذخيرة العملِ الصّالح. فامْلِكْ هَواكَ وشُحّ بنفسِك عمّا لا يَحِلُّ لكَ، فإنّ الشحَّ بالنّفس الإنصافُ منها فيما أحبتْ أو كرهتْ**"(١١).

والناس لو تأمّلوا سننَ الله الكونية وجليل حكمته تعالى، وعظيم عنايته بالإنسان وتكريمه له؛ لدفعهم ذلك إلى سلوك طريق التقوى، والانفتاح على ما تتطلبه من قواعد إيمانيةٍ وعلى رأسها الإيمان باليوم الآخر، وحينئذٍ لا تطلّ الأنانية بوجهها البغيض، ولا يكون تكالب على الحياة الدُّنيا، بل التعاون على البرِ والصلاح الفردي وبالتالي المجتمعي. وهذا ما أكّده

الإمام علي عليه السلام في قوله: "**اتقوا الله تقيةَ من أيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فازدجر، وبصر فاستبصر، وخاف العقاب وعمل ليوم الحساب**"[١٢].

٢-التوكلُ على الله تعالى في أفعاله وعلاقاته وتصرفاته: فالتوكل على الله تعالى مقام من مقامات العبودية والعمل الصالح، وهو صفةٌ إيمانيةٌ من صفات المؤمن بالله وبالآخرة. وهو يعني أنْ يستعين المرء بالله، وأن يفوّضَ المرء أموره وشؤونه كلّها إليه، مع السعي والعمل وليس مع التقاعس والقنوط. والتوكل على الله دليل صحة إيمان العبد وصلاح قلبه، وهو اعتراف العبد بربوبية الله، وتسليمه كلّ أموره للخالق الواحد، المتصرف بجميع أموره، والمدبّر الوحيد لأحواله، صغيرها وكبيرها.

يقول تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[١٣].

﴿**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا**﴾[١٤].

﴿**..فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ..**﴾[١٥].

جاء عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: "**الطِّيرةُ شِرك، وما منّا إلّا، ولكنّ اللهَ يُذهبُهُ بالتوكل**"[١٦].

وجاء عن الإمام علي عليه السلام: "**يا أيّها الناس توكلوا على الله وثقوا به، فإنّه يكفي ممّن سواه**"[١٧].

٣-العيشُ في ظل حالة الرضا بقضاء الله وقدره:

إنّ من يتحرّك ساعيًا باتجاه الرضا، وجده والتقاه، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾[١٨]، خاصة مع علم الإنسان المؤمن مسبقًا وقناعته الإيمانية الذاتية أنّ كلّ مَقاليد أمُور الخَلق، وتصاريف وجودهم وكلّ أقدارهم هي بيد العادل العظيم سبحانه وتعالى، فهو مالك الملك، الباسط والقابض للخير، يَرزق مَن يشَاء، ويصرفُ عمّن يشَاء، فإنْ أعطَاك أغنَاك، وإنْ منعَ عَنك أرضَاك، فحقيقةُ الرضَا بقضَاء الله وَقدره تَكمنُ في المَنازل العَصيبة، فإنْ رَضي المَرء بقضَاء الله بمَا فيهِ مِن عُسرٍ وَيسر، خَففّ الله مَصابه وَهمّه، وأذهبَ حَسرات نَفسه، وعاش في دنياه حياة صالحة، بسط الله

تعالى له فيها راحةً نفسيةً واطمئنانًا قلبيًا، وبشّره بحياةٍ طيّبةٍ صالحة. وهذا الإيمان بالقضاء والقدر هو مَعْلَم من معالم الحياة الطيّبة الهانئة في الدنيا. قالَ الله تَعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[١٩]، أي المُطمئنين، والرَاضين بقضَاء الله، والمُستسلمينَ لأمرِه.

وأمّا مَن توغّر صَدره واستشَاط غَضبًا بقضَاء الله ألبسَه الله اليَأسَ والحُزنَ، فالانتقَائية بالإيمَان بالقَضاء والقَدر ليسَت مِن صِفات المُؤمن، وهيَ أن ترضَى بقضَاء الله في الرَخاء، وأنْ تسخَط في البَلاء، قالَ الله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾[٢٠]، فالرضَا بَابُ الدينِ الإسلاميّ، ومشكَاة الاطمئنَان والاستقرَار.

جاء عن الرسول الكريم ﷺ: "**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**"[٢١]. وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: "**نعم الطارد للهم، الرضا بالقضاء**"[٢٢]. وجاء في روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام:"**ارضَ بما قسمَ اللهُ لكَ تكنْ غنيًّا**"[٢٣]. وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: "**من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الأغنياء**"[٢٤].

إنّ إيمان المرء بقضاء الله وقدره في عيشه الدنيوي عيشة راضية صالحة، يتعمّق ويترسّخ ويتعزّز أكثر مع إيمانه باليوم الآخر، وإدراكه لما فيه من ثوابٍ وعقابٍ وجزاءٍ عن الأعمال، ليكون هذا الإيمان إشعاعًا موجّهًا لسلوكيات الإنسان الحقيقية نحو فعل العمل الخير والطاعة لله، وليس هناك أيّ قانونٍ من قوانين البشر يستطيع أنْ يجعل الإنسان مؤمنًا بقضاء الله – وقيم الله – مثلما يفعله الإيمان باليوم الآخر. وهذا ما نراه في حياتنا حيث إنّ الإنسان المؤمن بالدار الآخرة يعمل وهو ناظر لقيم الله وحسابه وميزان عدله في الآخرة، فيستقيم سلوكه، وتعتدل حركته، ويتقوى إيمانه، فيصبر ويثبت مبتغيًا أجر ثواب الله في الآخرة؛ لأنّ ما عند الله باقٍ لا ينفد. وهذا ما يجعله يعيش في دنياه متصالحًا مع نفسه، فلا يعيش التخبط والعبثية واللا جدوى، بل تتحقق له الحياة الطيّبة الهانئة.

٤ – الالتزام بمكارم الأخلاق الدينيّة (الاستقامة على قيم الله) والبعد عن معاصيه:

لأنّ الحياة الدنيا ليستْ مجرد مدّةٍ زمنيةٍ عبثيةٍ تعاشُ بلا ضوابط ولا أدنى التزامات قيمية أخلاقية، بل هي حياةٌ يجب أنْ تكون مضبوطةً بنظم وقوانين ومعايير أخلاقية دينية، تقوم على

أسسٍ اجتماعيةٍ وسلوكيةٍ اعتقاديةٍ إيمانيةٍ صاغتها العقيدة التي أنزلها تعالى، والله أرشدنا فيها إلى أنّه خلقنا وخلق الحياة لغايةٍ واضحةٍ مقصودةٍ، وحكمةٍ منشودة. قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾(٢٥). وقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون**﴾(٢٦).

ثانيًا-عملُ الصّالحات (ترسيخُ مبادئ العمل الصالح) استنادًا للشّرع وقيم الدين:

إنَّ أهم مبدأ لعمل الصالحات وترسيخها في واقع حياة الفرد المسلم، هو أنْ تكون وفقًا لشرعه تعالى، وذلك وفقًا لما يلي في علاقات الناس مع بعضها:

١-الإحسان إلى الناس والتواصل معهم انفتاحًا ووعيًا وأخلاقيات عملية:

حضّ الإسلام في قيمه التربوية الأخلاقية على ضرورة أنْ يقومَ تعامل المسلمين مع بعضهم ومع غيرهم على الأخلاق الحسنة والنوايا الطيّبة، وجعلَ ذلك عنوانًا بارزًا على صحة إيمانهم، ومَعْلَمًا من معالم حياتهم الطيّبة وإيمانهم بعقيدتهم. ومكارم الأخلاق الدالة على الأعمال الصالحة كثيرة، وهي من أولويات تعاليم الإسلام. قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ*وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(٢٧).

وقال تعالى في خطابه التربوي لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله ومنه للأمّة كلّها: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾(٢٨).

- وجاءَ في الروايات أنَّ النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله قالَ لأبي ذر: "**يا أبا ذر اتّقِ الله حيثما كنتَ، واتّبع السّيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**"(٢٩).

- وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: "**مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم كمَثَلِ الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**"(٣٠).

- ويقول الإمام علي عليه السلام: "**مكارم الأخلاق عشر خصال: السخاء، والحياء، والصدق، وأداء**

الأمانة، والتواضع، والغيرة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والشكر"[٣١].

إنّ مكارم الأخلاق الدينية عند الفرد، هي بالأساس أخلاق فطرية، وهي تحتاج على الدوام للإيقاظ والتفعيل والحضور في حركة الفرد المسلم، وهذا أمرٌ يحقّقه الإيمان بالآخرة وبالمعاد بالدرجة الأولى، فيندفع الإنسان لإيقاظ مواقع وعناصر الخير والصلاح والفضيلة والكمال في نفسه وفي أسرته ومجتمعه؛ فتطيب حياته في الدنيا ويستعد بها لحياة طيّبة خالدة في الآخرة. كما أن هذا الإيمان بالمعاد يحيي الأمل في حياة المؤمنين فيسعون إلى الإعمار والإصلاح في الأرض وترسيخ قيم الأخلاق والدين وهم يتطلعون إلى الحياة الآخرة. جاء في الدعاء عن الرسول الكريم ﷺ: "**وأصلحْ لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح آخرتي التي إليها معادي**"[٣٢].

٢-السّعي في طريق الخير والحرص على تمثّل قيم الدين الإنسانية فكرًا وعملًا :

الإنسان الذي يتطلع لبناء حياةٍ طيّبةٍ تعكس إيمانه بدينه وقيمه وبالدار الآخرة، هو إنسانٌ خيّرٌ ومعطاء، يستفيد من فطرته ويستثمر فيها عمليًا، ويعيش حالة الوعي لوجوده ومسؤولياته في الأرض كخليفة مؤتمن، يسعى في طريق الخير ليس فقط لبناء ذاته وتنميتها على طريق التمكين الأرضي الصالح، المنتج والفعّال على صعيده الشخصي، بل أيضًا على الصعيد العام لإعمار الأرض والإصلاح فيها وترسيخ قيم الدين والأخلاق الحميدة. وبالنظر لأهمية هذا الموضوع قرن القرآن الكريم بين العمل الصالح والإيمان بالله تعالى، وتحدث عن العطاء الذي ينتظر من يقرن بينهما فكرًا وعملًا، قولًا وفعلًا. يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾[٣٣]. ويقول: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[٣٤].

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**﴾[٣٥].

- وجاء عن الرسول الكريم ﷺ: "**إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ**"[٣٦].

فالبُشرى للمؤمن الذي جعل الخير والأخلاق غاية في حياته، والويل والثبور للكافر الذي سار على طريق الشر ومحاربة قيم الله وسعى في الأرض خرابًا وإفسادًا. والجزاء لا يتحقّق كلّه في الدنيا بل في الآخرة، بمعنى أنّ الحياة الطيّبة الكاملة والمطلقة في خلودها لا تتحقّق إلّا في الدار الآخرة، حيث العدالة الكاملة ثوابًا وعقابًا. إضافةً إلى أنّ بعض الأعمال الصالحة، والطالحة جزاءً، لا يسع له - بحسب الشيخ جعفر السبحاني- نطاق هذا العالم[٣٧]. فمثلًا هناك من ضحّى بنفسه في سبيل الحق والخير والقيم الدينية والعقيدة الإسلامية، وأيضًا هناك من خضب الأرض بدماء المسلمين؛ ولهذا لا بد من وجود عالمٍ آخر يتحققُ فيه العدل الإلهي الكامل في ضوء الإمكانات غير المتناهية. كما قال: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[٣٨]. ويقول أيضًا: ﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**﴾[٣٩].

إذًا الإيمانُ بالآخرة - وما يترتب عليه من التزاماتٍ وسلوكيات - هو القاعدة الأساس لبناء حياةٍ طيّبةٍ صالحةٍ في الدنيا. وبناءً عليه هناكَ نتائج وآثار تترتب على هذا الإيمان بالآخرة والمعاد:

أ. هداية وصلاح للمؤمن من خلال اعتقاده الراسخ بوجود حكمةٍ غيبيةٍ تحملُ الإنسان على الامتثال لسنن الله في الحياة الطيّبة، وتدفعه إلى تطبيق أحكام الشريعة الإلهية على واقع حياته وعلاقاته، فتحيا نفسه حياة طيّبة في الدنيا يسير فيها على صراطٍ مستقيمٍ بهديه تعالى، ويجعلها مزرعةً لحياةٍ طيّبةٍ خالدةٍ في الآخرة. يقول تعالى: ﴿**وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[٤٠].

والهداية الإيمانية درجات، فقد جاء عن أبي عمرو الزبيدي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "**الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التامّ المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه**". قلت: إنَّ الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟! قال عليه السلام: "نعم". قلت:.. فمن أين جاءت زيادته؟ فقال عليه السلام: "قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم**

مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[٤١]. وقال: **﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾**[٤٢]. ولو كان واحدًا لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحدٍ منهم فضل على الآخر، ولاستوت النعم فيه ولاستوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرّطون النار"[٤٣].

ب.الحياة الطيّبة للمؤمن تختلف عن حياة الرفاه عند غير المؤمن، لأنّ للمؤمن رادعًا ذاتيًا لا ينحرف به في سره وعلانيته، أمّا غير المؤمن فرادعه القانون الوضعي، وهو غير كافٍ لاكتمال حياة طيّبة في دنياه فضلًا عن آخرته.

إنّ حياة المؤمن الناظر ليوم المعاد حيث الحياة الخالدة، تحتاج إلى عملٍ وسعي وبذل جهد على طريق ذات الشوكة، وهي تأتي ثمرة جهاد للنفس، وإنابة إلى الله، واستمساك بعروته الوثقى وإرشاده ووحيه. يقول تعالى: **﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾**[٤٤].

أمّا حياة غير المؤمن (الفاسق والكافر) فتراه فيها غارقًا في شهواته وملذاته مستغرقًا في زخارفه الدنيا وفواحشها، زاعمًا أنّها حياة طيّبة، مع أنّها حياةٌ بهيميةٌ لا أخلاق فيها ولا أدنى خوفٍ وخشيةٍ من يومٍ آخر يحق فيها الحق. والله تعالى عندما يحذر وينهى عن الفسوق والفحشاء، فتحذيره هنا لا يأتي فقط لأنّها فواحش ستكون نتيجتها السقوط في جهنم الآخرة، بل لأنّها تؤدي إلى السقوط في هذه الدنيا، والعيش البهيمي على هامش الحياة بلا هدف ولا غاية. يقول الإمام علي عليه السلام: **"لو كنا لا نرجو جنةً، ولا نخشى نارًا ولا ثوابًا ولا عقابًا لكان ينبغي لنا أنْ نطلب مكارم الأخلاق، فإنّها ممّا تدل على سبيل النجاح"**[٤٥]. ويقول عليه السلام: **"من أحبَّ المكارمَ اجتنبَ المحارم"**[٤٦].

ج.السعي في سبل الرزق الحلال وطلب الخيرات:

يقول تعالى: **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾**[٤٧].ويقول: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾**[٤٨]. وقوله تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾**[٤٩].

من ثمار وآثار هذا الإيمان بالآخرة كأساسٍ لإقامة حياة طيّبة على الأرض، يأتي موضوع السعي للرزق الحلال المباح على هذه الأرض التي أمرنا الله تعالى - كما جاء في آياته - بالسعي الحثيث عليها، والسير في أرجائها طلبًا لخيراتها ومواردها وثرواتها التي أودعها تعالى فيها، وهي ثرواتٌ ونِعمٌ لا تُعدّ ولا تحصى. فهو تعالى ذلَّل للناس - الجادين الساعين- الأرض بكلّ خيراتها التي جعلها شديدة وكثيفة التنوع بحسب تنوع العصور والأزمان، وبمقدار تنوع حاجات الإنسان ومطالبه، فمن يرغب في زيادة ربحه وكثرة فائدته، فعليه بالسعي والاجتهاد في اجتناء الخيرات، وأنْ يستشعر الجد والنشاط، وأنْ يطرح العجز والكسل والتواني، وهي سُنّة الله في خلقه، ولن تجد لسُنّة الله تبديلًا.

قال تعالى في إشارةٍ إلى موضوع الحثّ على طلب الرزق والسعي للعيشِ الطيب، حيثُ جعله من أهم العبادات التي يُبتغى بها وجهُ الله عزّ وجلّ فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾[٥٠]، وقال تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾[٥١].

والإنسان المؤمن، يدرك بل ويعتقد بأنّ الرزق مُقدَّرٌ من الله وهو بيده، مثل أي شيءٍ آخر بيده، وأنّ عليه واجب السعي والمثابرة والاستفادة القصوى من الإمكانيات والقدرات التي يملكها والفوارق التي قد تتاح له. يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: "**لو أنّكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**"[٥٢].

وجاء عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "**إنّ الرزقَ رزقانِ: رزقٌ تطلبه، ورزقٌ يطلبك، فإنْ أنتَ لمْ تأتِه أتاكَ**"[٥٣].

د.الاعتقاد بالمعاد تربية وأخلاق ودافع لمراعاة حقوق الناس وإرساء قواعد التعامل الصحيح

القائم على الإنصاف والصدق والأمانة والمبادرة الى العطاء والسيرة الحسنة وعمل الصالحات الذي تترتب عليه الحياة الطيّبة في الدنيا وتتصل بها في الآخرة.

وفي هذا المجال يتحدّث الشيخ الآملي في كلام له عن أثر وتأثير الاعتقاد بالمعاد على تهذيب النفس وتربية الروح على الفضائل والأخلاق، حيث يؤكّد على أنّه فيما لو أجريت الأحكام

الإلهية وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور، فتحت أيّ عامل؟ هل أنّ العامل الأهم هو وجود الحديد والسيف؟ ﴿**أَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾(٥٤) أم أنّ هناك شيئًا آخر؟. نحن نريد هنا أنْ نثبت أنّ العامل الأشد تأثيرًا هو ذكر الآخرة ويوم الحساب (المعاد)؛ لأنّ تنفيذ الحدود يمكن أنْ يثبت نظامًا صوريًا فقط، ولكن تربية الروح وتهذيبها لا يمكن أن يتم بالحديد، فالإنسان قد لا يرتكب عملًا خلافيًا في العلن، ولكن يصدر منه أيّ عمل في الخلوة. وعلى هذا الأساس قلّما نجد سورةً لا تذكر أحداث القيامة والاعتقاد بيوم الحساب، والثواب والعقاب والجنة والنار، وعندما يذكر الأنبياء على نحو التعظيم يقول إنّ ذكر القيامة هو الذي أوصلهم إلى هذا المقام. واليوم كذلك فإنّ ما جعل جبهاتنا مليئةً بالحماس والعطاء هو التعلق الشديد بالشهادة وهي العلاقة بالحياة الأبدية(٥٥).

بما يعني أنّ من أهم وأبرز آثار ذكر المعاد هو العمل على إقامة العدل والقسط الفردي والمجتمعي، وفي السبيل نفسه تكون التربية الأخلاقية وتزكية النفس، يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "**من تذكّر بعد السفر، استعد**"(٥٦). والاستعداد هو التربية والعمل والالتزام بالأخلاق الدينية. ويقول عليه السلام أيضًا: "**واذكرْ قبركَ، فإنَّ عليه ممرّك**"(٥٧). ثم يقول مخاطبًا مالك الأشتر: "**ولنْ تحكم ذلكَ من نفسك حتى تكثرَ همومكَ بذكرِ المَعاد إلى ربّك**"(٥٨). وفي المقابل فإنّ من أهم آثار نسيان المعاد هو الضلال والظلم الفردي والاجتماعي.. يقول الإمام علي عليه السلام: "**لا يؤمن بالمعاد من لا يتحرج عن ظلم العباد**"(٥٩).

ومن يتمعّن في كثيرٍ من آيات القرآن وروايات وأحاديث كثيرة أخرى للأئمّة يجد دعواتٍ صريحةً للاستعداد الروحي والعملي ليوم المعاد، وذلكَ من خلال أنْ يفكّر الإنسان المؤمن في صنع حياةٍ طيّبةٍ على الخير والصلاح في أسرته لتربية ذرية صالحة تسهم في تكوين مجتمعٍ صالحٍ حيث لا ضمان للإنسان غير عقيدة المعاد تصلح لبناء حياة طيّبة. حيث إنّ الإيمان بالمعاد لا ينتج حياةً طيّبةً وحسب بل ينتج نفسًا مطمئنة، وينزل السكينة على الأفئدة والخواطر ويبعث فيها الأمل الذي لا يتوقف إلّا عند خالقها، وهو إيمان يجعل الإنسان يراقب نفسه وسلوكه

وتصرفاته حتى تكون منسجمةً مع الإيمان بالله وقيمه، وتحقُّق غاية رضاه. يقول تعالى: ﴿**من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[٦٠]. وهم أصحاب النفوس المطمئنة وحياتهم الطيّبة هي ثمرة أعمالهم الصالحة، وكلاهما جسر إلى ثواب المعاد.

وعن عبد الله بن عباس قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "**أيّها الناس: بسط الأمل متقدّم حلول الأجل، والمعاد مضمار العمل، فمغتبط بما احتقب غانم، ومتيسر بما فاته نادم**"[٦١].

والعمل يعني البناء والتجهيز الأخلاقي والنفسي والسلوكي بما يرضي الله وعدم الانجرار وراء الهوى وطول الأمل. ولا حلّ معهما سوى بإدراك حقيقة الدنيا القصير الأمد، والإيمان بالآخرة والمعاد، بما يدفع الإنسان لكي يخافَ ويرجو. كما يقولُ الإمامُ جعفر الصادق عليه السلام: "**لا يكونُ المؤمنُ مؤمنًا حتّى يكونَ خائفًا راجيًا، ولا يكون خائفًا راجيًا حتّى يكونَ عاملًا لما يخاف ويرجو**"[٦٢].

المبحثُ الثاني: مجالاتُ آثار الحياة الإنسانية الطيّبة المُستندة إلى عقيدة المعاد

ينظرُ الإنسان المؤمن إلى الحياة الدنيا - بالاستناد إلى قناعته الإيمانية العقديّة-على أنّها ممّر وجسر العبور إلى الآخرة، ولا بدّ - للوصول إليها بسلامةٍ روحيةٍ وجسدية - من تحقّق العبور الآمن والمطمئن. ولكن دون هذا العبور عمل وجهد ومثابرة وتدريب، فالحياة هنا يتحكم فيها الأجل والمدة والأسباب والتقييدات والسعي الدائم على كل المستويات. ولعلّ من أولى وأهم شروط السعي والعمل، هو بناء الشخصية الإيمانية الأخلاقية. ولكن كما قلنا هذا البناء القيمي الأخلاقي للفرد المسلم لا يمكن أنْ ينمو ويتجسد واقعيًا من دون عقيدة، لها منعكسات تطبيقية في البعد الاجتماعي الدنيوي، وهي عقيدة الإيمان بالمعاد. إذ إنّه عندما يدرك الإنسان، ويقتنع قناعةً تامة أنّه بعد دنياه هذه - بكلّ ما فيها من شؤونٍ وشجونٍ وأعمالٍ وجهودٍ ومشاقٍّ وتعبٍ وكدحٍ وغيرها - يوجد يومٌ سيوفيه الله حسابه، فإمّا السعادة وإمّا الشقاء، فلا بدّ له من مراقبة ما يصدر عنه من قولٍ أو فعلٍ اتقاء لحسابٍ قادم. وهذه المراقبة تكون في الدنيا، وحتمًا ستؤثر إيجابًا على قيمه، فيعتدل سلوكه وعلاقاته ليؤسسها على كلّ ما يرضي تعالى فقط، بما ينعكس على صعيد بناء حياته الطيّبة الإنسانية[٦٣].

فما هي هذه المنعكسات والآثار على هذا الصعيد التي تنطلق أساسًا من موضوع الإيمان بالمعاد الذي كرّسه الله تعالى يومًا للعدل المطلق؟!

أولًا- مجالُ معيشة الإنسان المؤمن:

الإنسانُ المؤمنُ بالمعاد كعقيدةٍ إسلامية ثابتة، يقوم دائمًا وبشكلٍ مستمرٍ بتنظيم أعماله وشؤونه الخاصة والعامة كافة طبقًا للأحكام الشرعية، في كلّ ما يتصل بعلاقاته والتزاماته وكسبه الحياتي، فتزدهر حياته المعاشية، وتنعكس ثمارها على مجتمعة، حيث يحتاط كلّ فردٍ فيه في مصدر عيشه وماله، من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟

ونظافة العمل الذي يقوم على ميزان الاعتقاد بحساب المعاد عملًا بقول الرسول الكريم ﷺ: "**لا تَزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسأَلَ عن عُمُرِه فيمَ أفناه؟ وعن عِلْمِه فيمَ فعَلَ فيه؟ وعن مالِه؛ من أين اكتسَبَه؟ وفيمَ أنفَقَه؟ وعن جِسمِه فيمَ أبلاه؟**"(٦٤).

وهكذا فالمجتمع الذي يعتقدُ بالمعاد، يمتنع عن الأعمال السيئة الشريرة، ويندفع نحو أعمال الخير والتراحم بين أفراده، وتسوده قيم المودة والتفاعل المنتج، ولا تجد الصّراعات الجانبية إليه سبيلًا. وتلك هي مقومات الحياة الطيّبة التي وعد بها القرآن بصيغة التأكيد: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوةً طيّبة وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾(٦٥)، وهذا الوعد بالحياة الطيّبة في الدنيا والآخرة، مشروطٌ بالأعمال الصالحة للذكر والأنثى، وهي أعمالٌ تنطلق من الإيمان بالعقيدة والأحكام الشرعية وضبط الأفعال على ميزان حدود الله تعالى. يقول تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ الله وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(٦٦).

الالتزام بالقيم والأخلاق والأحكام الدينية الإسلامية كمقدمة للحياة الطيّبة، لا يعني بأيّ حالٍ قمع الإنسان لشهواته ورغباته، طالما بقيت في إطارها الشرعي وضوابطها الحَكَمية المسؤولة، لتتحقق عملية التوازن بين مطالب الروح والجسد. يقول تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهَّ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾(٦٧).

ثانيًا- أثرُ الاعتقادِ بالمعاد على صَفاء النّفس وسكينتها وسموها الرّوحي الأخلاقي:

إنَّ الإيمانَ بالمعاد يدفعُ الإنسانَ للزّهد الإيجابي في هذهِ الحياة، فتصغرُ الدنيا وزخارفها في عينيه، ساعيًا إلى كلِّ ما يسمو بذاته وروحه. والنفس تسمو بالذكر والعبادات، وترتقي بالجهاد النفسي والسلوكي. يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٦٨). إنّها سبل الله وتوفيقاته للوصول إلى طريق الاستقامة التي هي رضاه تعالى. وهي لا تأتي إلّا بسلوك طريق التقوى، والمجاهدة والصبر على أداء الطاعات، وعلى رأسها مخالفة هوى النفس ومخافة الله. يقولُ الرسول الكريم: "**خيرُ الزّاد التّقوى، ورأسُ الحِكمة مَخافة الله**"(٦٩). ويقول صلى الله عليه وآله حول الزهد: "**الزّهدُ ليس بتحريمِ الحلال، ولكن أنْ يكون بما في يدي الله أوثق منه بما في يديه**"(٧٠).

كما جاءَ عن الإمام علي عليه السلام في دعوته إلى سلوك طريق التقوى للسمو بالنفس والارتقاء بها وذلك للنجاة وتحقيق غاية المعاد. يقولُ عليه السلام: "**إنّ تقوى الله مفتاحُ سداد وذخيرةُ معاد، وعتقٌ من كلّ ملكة ونجاة من كلّ هلكة**"(٧١).

وسمو النفس كدرجةٍ روحيةٍ متقدمةٍ وعاليةٍ يصلها الإنسان المؤمن التقي الزاهد، تجعل الإنسان المؤمن متسامحًا صابرًا كاظمًا للغيظ، متطلعًا لبناء حياة إنسانية طيّبة فاضلة مع الآخرين، لكي ينعم المجتمع كلّه بالخير والمودة والتراحم. وتتحقق السّكينة والاطمئنان النفسي. قال تعالى: ﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٧٢)، ويُضاف إلى القلب، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (النساء/ ٦٥).

ثالثًا- اكتسابُ المعنى والغاية (المعاد يعطي للحياة معنىً وغايةً):

لا يمكنُ لهذا العالم الذي نعيش فيه أنْ يكون صندوقًا مغلقًا أو سجنًا نهائيًا للبشرية، يتحرك الناس ضمنه تائهين بلا معنى أو غاية نبيلة أو مقاصد إنسانية قيمية عليا. وكلّ إنسانٍ منا عندما يعيش مدّةً من الزمن قدّرها له تعالى، ويتقلب في الدنيا تعبًا ومشقة، ومتحملًا كثيرًا من صنوف العذاب فيها، في سعيه وجهاده لتحصيل معاشه، لا بدّ من أنْ يكون لديه في عمق روحه إحساسٌ عميقٌ فطري، يخاطبه بأنّ هناك حياةً أبديةً خالدةً تنتظره، وأنّ هذه الدنيا هي

مجرد مزرعةٍ يبذر فيها هناك ليحصد هناك النتائج الطيّبة، بما يقتضي أنْ يكون البذْر والبذار صالحة وفي التربة الطيّبة الملائمة للنمو والبناء والتكامل. ولا شكّ في أنّ هذا الشعور الفطري يتدعّم ويترسّخ أكثر بالعقيدة (عقيدة المعاد) التي تعطي للحياة في الدنيا معناها، وتدفع الإنسان المؤمن ليعد نفسه للآخرة انطلاقًا من فترة إعدادٍ تمهيديةٍ في هذه الدنيا وصولًا ليوم المعاد والحساب، يوم العدل المطلق. يقول تعالى: ﴿**وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المُجْرِمِيْنَ مُشْفِقِيْنَ مِمّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيلَتَنا ما لِهَذَا الكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيْرَةً إلاّ أحْصَاها**﴾(٧٣).

نعم، إنَّ الايمان بالمعاد يمنحُ الحياةَ معنى ومفهومًا وغاية نبيلة أصيلة، ويخلصها من (الاضطراب) و(القلق) و(العبثية)، واللا معنى، لا سيّما إذا كان إيمانًا مبنيًا على العقيدة القائلة بوجود محكمة عدل مطلقة في الدار الآخرة، لها قاضٍ غني عن العالمين، مطلق العدالة، ولا يضاهيه في عدالته أعدل العادلين.. إنه الله تعالى العليم الخبير، المالك القهار، العادل المطلق.. علة الخلق والوجود والحياة الذي يعطي الإيمان به - وبما يفيضه على الحياة - معناها الحقيقي بحيث يجعل الإنسان يتحرك في حياته بمسؤولية عالية وحساب دقيق لخياراته وعلاقاته ومختلف توجهاته الخاصة والأمة، فلا يظلم ولا يفتري ولا يتهم ولا يرتكب، ولا يتحرك في أي سبيل إلّا إذا كان لله فيه رضا. يقول الإمام علي عليه السلام: "**والله لأنَّ أبيت على حسك السعدان مسهدًا، أو أجر في الأغلال مصفدًا، أحبّ إليَّ من أنْ ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالمًا لبعض العباد، وغاصبًا لشيء، من الحطام**"(٧٤).

وهذا هو معنى الحياة في وعي أهل البيت عليهم السلام وبالذات في وعي ومنهج الإمام علي عليه السلام، إنّه معنى لا يكتمل إلا بلحاظ العدل في الآخرة. أي إنّ معنى الحياة لا يكتمل إلّا بالنظر للمعاد، وعندها يمكن للمرء أنْ يستثمر طاقاته ويستفيد من إمكاناته ومواهبه التي منحه إياها تعالى (من القوى الجسدية والروحية والنفسية) من أجل إعلاء كلمة الله والعمل على نيل رضاه والسير في طاعته تعالى. يقول الإمام الصادق عليه السلام (بعد أنْ جاءه رجلٌ سئم الحياة وتمنى الموت): "**تَمَنّ الحُيَاةَ لتطيعَ لَا لتعصي؛ فُلَأن تَعِيش فتطيع خَيْرٌ لَك مِنْ أَنَّ تَمُوتَ فَلَا تَعْصِي ولَا تُطِيع**"(٧٥).

رابعًا- الإيمانُ بالمعاد تربيةٌ رصينةٌ على بناء حياةٍ طيّبة:

لا شكَّ في أنّ الحياةَ الطيّبة في أحدِ أهم معانيها العملية تعني الالتزام بأُسسِ العمل الصالح وشرائطه الروحية والسلوكية. أي أنّها تأتي كنتيجةٍ طبيعيةٍ لقيام المؤمن بما يتطلبه منه العمل الصالح النابع من الإيمان بالله من خلال العقيدة الحقة الصحيحة والالتزام بأحكامها؛ وحينها سيعيشُ المجتمعُ البشري حياةً هادئةً مطمئنةً ملؤها الرفاه والسلم والمحبّة والتعاون، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانية التي تملأ الدنيا ظلامًا وظلامات[٧٦]. هذا إضافة إلى الجزاء الأحسن في عالم الآخرة، عندما يقيمُ اللهُ تعالى موازينَ القسط والعدل المطلق.

إذًا، الحياة الطيّبة نتاج مباشر للعمل الصالح، والعمل الصالح يحتاجُ لتربية منذ الصغر ترتكزُ على ما تتربّى عليه شخصية الإنسان في الجوانب العقائدية والإيمانية والروحية؛ لذلك سيتعلّق قلب الإنسان منذ فترات حياته الأولى بربّه الحقّ الذي هو يُحقّ كلّ حقٍّ بكلماته، فلا يريد إلّا وجهه ولا يحبّ إلّا قربه، ولا يخاف إلّا سخطه وبعده. يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[٧٧]. فإنّ الخطوة الأولى في التربية نحو الله، تتمثّلُ في بناء النفسِ المنفتحة على الله وقيمه، وتركِ حبّ النفس، ومحاربة الأنانية والذّاتية والنفعية، والتطلع الدائم نحو الدار الآخرة استعدادًا للقاء الله تعالى. فيصل إلى حياة طاهرة دائمة مخلّدة لا يدبّر أمرها إلّا ربُّه الغفور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها إلا الحسن الجميل، فقد أحسن كلّ شيءٍ خلقه، ولا قبيح إلّا ما قبحه الله من معصيته. فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها ونعمة باقية لا نفاد لها ولا ألم فيها ولا كدورة تكدرها، وخير وسعادة لا شقاء معها[٧٨].

والتربية على قيم العمل الصالح الموصلة لحياة طيّبة يربط فيها الفرد المؤمن بين دنياه وآخرته توازنًا ومسؤولية، لا تأتي لوحدها بل تحتاج إلى تدريبٍ روحي وقيمي، أي للالتزام بالعبادات. خاصّة على صعيد إخلاص النية فيها؛ لأنّ نسبة النيّات إلى الأعمال كنسبة الأرواح إلى الأبدان والنفوس إلى الأجساد. ولا تُقبل عبادة البتّة عند الحقّ المتعالي من دون نيّة خالصة.

ورد في الحديث الشريف قال: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(٧٩). قال: "**القَلْبُ السَّليمُ الَّذي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ سِواهُ**". قال: **وَكُلُّ قَلْبٍ فيهِ شِرْكٌ أَوْ شَكٌّ فَهُوَ ساقِطٌ وَإِنَّما أرادَ بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيا لِتَفْرَغَ قُلُوبُهُمْ لِلآخِرَةِ**"(٨٠).

ونحن اليوم نعيش في عالمٍ ماديّ بحتٍ، أُصيبَ فيه كثير من البشر بأمراضٍ نفسيةٍ وسلوكيةٍ كبيرةٍ وعميقةٍ من الكبر والاستعلاء والحسد والضغينة والكره والرياء وغيرها، أثّرت سلبًا على وعيهم ومسؤولياتهم الحياتية، وأعاقت قيامهم بدورهم الاستخلافي الرصين، فباتَ عمى البصيرة وعمى القلوب واتباع الهوى مرافقًا لهم في كثيرٍ من مواقع حياتهم، ممّا أوقعهم في براثن الارتكاب وفساد الأحوال وسوء الأوضاع، والعيش بلا معنى. بالتالي صلاح القلوب التي وصف الله تعالى مرضَها في كتابه الكريم في قوله: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾(٨١)، هو بداية العلاج التربوي الحقيقي لكلّ تلك الأمراض، ليس لكونه أمرًا ملزمًا فقط من الناحية الشرعية، بل لأنّه يشكل في العمق جسرَ النجاة للإنسان من عواقب الأمور في يوم عظيم، هو يوم المعاد. قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ*إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(٨٢). أي قلبٌ مؤمنٌ خالٍ من العلّة والمرض، ويشهدُ بأنّ لا إله إلا الله. يقول الرسول الكريم ﷺ في وصفةٍ تربويةٍ للعلاج القلبي الروحي، "إنّ الإيمانَ يَبلى في القلوبِ فجدّدوا إيمانكم، قيلَ يا رسول الله وكيف نُجدد إيماننا، قالَ: أكثروا من قول لا إله إلا الله"(٨٣).

إنّ الإيمان بهذا اليوم العظيم المهول هو الذي يمكنه أنْ يثير ضمير الإنسان، ويحرك الحافز الأعمق في داخل كينونته لكي يجدّ السير في خط الاستقامة والوعي والمسؤولية في الدنيا، والتزام قيم العمل الصالح، بما يؤمن له الاطمئنان القلبي والهدوء النفسي والروحي إلى رضاه تعالى. يقول عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾(٨٤). ويقول: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ**﴾(٨٥).

خامسًا- الجِهاد والاستشهاد في سبيل الله من مصاديق الحياة الطيّبة ومن آثار الاعتقاد بالمعاد:

يعدُّ الجهادُ واجبًا شرعيًا إسلاميًا فرَضَه اللهُ على المسلمين في أصل الحكم لكي يدافعوا عن مقدساتهم ويصونوا مواقعهم، ويحافظوا على سيادة مجتمعاتهم وتأمين مصالحهم في وجه من يحاول سلبها منهم أو الاعتداء عليهم. والجهاد ليس حالةً مزاجيةً للحاكم أو للقائد، بل هو ركنٌ جوهريّ أساسيّ في الدين له دواعيه ودوافعه ومبرراته وشرائطه ومناخاته السياسية والعملية، يقول تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾[٨٦]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٨٧].

وقد عظَّمَت السنَّة الشريفة في رواياتٍ مستفيضةٍ أمرَ الجهاد في سبيل الله تعالى بما يجعل المجاهد المخلِص في عداد الخواصّ. فقد جاء عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنّه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟! قال صلى الله عليه وآله: "**الإيمان بالله، والجهاد في سبيله**"[٨٨]. وجاءَ عن الإمام علي عليه السلام: "**الجِهادُ بابٌ من أبوابِ الجنةِ فتحهُ اللهُ لخاصّة أوليائه وهو لباسُ التقوى ودرعُ الله الحصينة وجنته الوثيقة**"[٨٩].

ولاشكَّ في أنَّ من نتائجِ خوضِ المسلمين لمعارك الجهادِ سقوط شهداء وقتلى، ولكن هؤلاء خصَّهم اللهُ تعالى بثوابٍ لا يضاهيه ثواب بالنظر لتضحياتهم الجسام. والإسلامُ هنا ينظر إلى التضحية مقدّمةً للعيشِ الأبدي في الآخرة، وضرورةً حيويةً لبناء حياةٍ طيّبةٍ على الأرض، وليسَ فناءً وعدمًا، إذ إنّ الوصول إلى الحياة الحقيقية يوم المعاد والظفر بدرجة في الجنة، لا تنالُ إلّا بالشهادة، بل إنْ قام المؤمن بقتل عدو لله ورسوله فقد أحيا نفسًا بإخراجها من وديان القهر الظلم والجور. بما يعني أنّ الجهاد هو فعل وجود وحياة في الإسلام وليس فعل موت وفناء؛ لأنّه يسهم في صون الإسلام والمسلمين وحماية كلّ ما يقوّي وجودهم

وسعيهم لإقامة حياتهم الطيّبة الإنسانية القائمة على العدل والمساواة.

نعم، إنّ من أهم شروط قيامة الدول والمجتمعات وتطورها وعيشها الصحيح الآمن، وجود قوة تحميها وتدافع عنها في مواجهة كثيرٍ من التحديات والمطامع؛ ولهذا شرع الإسلام للعنف (وقنّنه) من خلال الجهاد، ورخّص لاستخدامه ضد كلّ الطامعين ممن يريدون شرًا بأمة الإسلام.

وقد قدّم المسلمون الأوائل نماذج عليا في التضحية والموت دفاعًا عن العقيدة والمقدّس، وحمايةً للحياة الإسلامية. فالموتُ في طريق خدمة الأهداف الكبيرة الإسلامية والمبادئ الحقة (وعلى رأسها إقامة الحياة الطيّبة الصالحة)، هو وصول إلى الكمال المنشود، والكمال هو حقيقة السعادة الدنيوية والأخروية، بينما الحياة مع الظالمين لا تطاق، فهي في حقيقتها جحيم وظلام. كما يقولُ الإمام الحسين عليه السلام الذي ضرب نموذجًا عاليًا في الشهادة: "**إنّي لا أرى المَوتَ إلاّ سَعادَةً، والحَياةَ معَ الظالِمِينَ إلاّ بَرَما**"(٩٠).

ولا شك في أنّ المصداق الأعلى المتطابق مع ضرورات تأسيس وبناء معايير الحياة الطيّبة على الأرض وعقيدة المعاد سيتمثّل في الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الذي سيجسد هذه المعادلة الجامعة بين الدنيا والآخرة في دولته الموعودة، ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعد أنْ مُلئتْ ظلمًا وجورًا(٩١).

سادسًا- الحياةُ الطيّبة والفلاح والفوز القرآني لتحقيق غاية العدل:

عندما نقرأ القرآن الكريم ونتمعن في آياته ونتأمل في أحاديث السُنّة النبوية وما صدر عن أهل البيت عليهم السلام، وندرك حقيقة معاني وأبعاد تلك النصوص الشريفة، فإنّنا نجد أنّ هناك مصطلحًا ومفهومًا مشتركًا بينها يحدد طبيعة الغاية والهدف والوجهة النهائية للإنسان في حياته الدنيوية وصولًا لحياته الأخروية، وهو مفهوم ومصطلح الفلاح الذي يعني الفوز والنصر والنجاح. وتزداد أهمية النظر في هذا المفهوم من حيث ارتباطه بصورة وثيقة مع مفهوم الحياة الطيّبة.

فالحياة الطيّبة تتقوم بالعمل الصالح القائم على الإيمان وتوطيد العلاقة مع الله تعالى (فرديًا ومجتمعيًا)، ومردود هذا العمل يصرف وينفق كله في بناء الحياة السعيدة والهانئة المفترض أنْ تستند إلى قيم الوعي والحق والمسؤولية، والعلاقات الطيّبة بين الناس، وتعزيز الترابط والتماسك معها انطلاقًا من الالتزام بالمحددات والضوابط بالقواعد والأنظمة الشرعية التي أقرتها الشريعة في أصولها المعروفة؛ ممّا ينعكس في النهاية أمنًا وسلامة وطمأنينة على حياة الناس في سعيها الدائم وكدحها الارتقائي المستمر نحو الله تعالى تحقيقًا للمساواة والإنصاف والعدل، كغايةٍ أنزلت من أجلها الرسالات جميعًا. يقولُ تعالى: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾(٩٢). ويقولُ تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾(٩٣)، والقسط هنا كناية عن العدل، عدل الإنسان مع نفسه ومع غيره، وعدل الحاكم، وعدل القانون، وعدل القضاء، وعدل كلّ مفردات الحياة التي تتصل بحركة الإنسان في الواقع. ويقول الإمام علي عليه السلام: "**الذي صَدَقَ في ميعادِهِ، وارتَفَعَ عن ظُلْمِ عبادِهِ، وقامَ بالقِسْطِ في خَلْقِهِ، وعَدَلَ عليهم في حُكْمِهِ**"(٩٤). ولا بدّ لهذا العدل أنْ يتحرك في حياة الإنسان في كلّ مواقعه وامتداداته، كي ينعم الناس والمجتمعات بالسلام والأمان والتماسك وإلّا تحولت إلى عبثٍ وفوضى وصراعاتٍ واحترابات، يقول الإمام علي عليه السلام: "**العدل قوام الرعية وجمال الولاة**"(٩٥)، ويقول أيضًا "**ثبات الدول بإقامة سنن العدل**"(٩٦). ولهذا جاء تركيز القرآن على العدل والفضائل الأخلاقية وصولًا إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة بعد سلوك طريق الإيمان والطاعة. يقول تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾(٩٧). والفلاح في الآية يعني الفوز والنجاح في السعي والكدح الحياتي للفرد المسلم في إقامة حياة طيّبة انطلاقًا من خُلُقِ القرآن وقيمه وهداه ومبادئه التي شرعها تعالى. فمن يتخلق بهذه الأخلاق ويزكي نفسه بها سينجح ويفلح ويظفر بالسعادات والهناء ليس فقط على صعيده الفردي بل على صعيد المجتمع ككل من خلال بنائها على أسس الإيمان والفضيلة والقيم الإنسانية. يقول تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ**

يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٩٨]. ويقول عزّ وجلّ: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[٩٩].

والإيمان بالله تعالى هو الذي يوصل للفلاح والفوز والنجاة وإقامة الحياة الطيّبة. يقول تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[١٠٠].

الهوامش

١- الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ٢٠/ ١٤٨.

٢- لا شك في أنّ موضوعَ الإيمان بالغيب هو قضيةٌ جوهريةٌ ومركزيةٌ في الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية. وهو - بحسب ما جعله الله تعالى- من أهم صفات المؤمنين المتقين في مطلع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة/ ٢-٣). وهذا الإيمانُ بالغيب الزماني والمكاني هو من أساسيات الإيمان، والإيمان بالآخرة جزءٌ رئيسٌ وأساسيّ منه، وهذا الإيمان لا تقوم العقيدة الدينية الإسلامية إلّا به، حيثُ يطمئن قلب المؤمن وتأنس روحه ويحلو عيشه وتطيب حياته. وكلّ من يفقده أو يتركه تتحول حياته إلى مجرد عبث وفوضى وتهتك اجتماعي، ممّا يدخله في مزالق الدنيا من حيرةٍ واضطرابٍ ومصادمة الفطرة النقية.

٣- القصص/ ٧٧.

٤- النحل/ ٩٧.

٥- طه/ ١٢٤.

٦- م.ن.

٧- النحل/ ٩٧.

٨- الطلاق/ ٢-٣.

٩- الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ١/ ٤١.

١٠- نهج البلاغة.

١١- م.ن، ٤٠٤.

١٢- الآمدي، عبد الواحد بن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ح ٦٥٩٨.

١٣- المائدة/ ١١.

١٤- الأحزاب/ ٤٨.

١٥- آل عمران/ ١٥٩.

١٦- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٤/ ٣٦٦٠.

١٧- المتّقي الهندي، علاء الدين بن حسام، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ح٨٥١٣.

١٨- آل عمران/ ١٤٥.

١٩- الحج/ ٣٤.

٢٠- م.ن/ ١١.

٢١- الترمذي، أبو عيسى محمد، سنن الترمذي، ٤/ ٥٧٤، ح ٢٣٤٦، وراجع: مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، ١١٥.

٢٢- الآمدي، عبد الواحد بن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ٤١٠، ح٩٩٠٩، ٣٣٩٧.

٢٣- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٧/ ١٦٩.

٢٤- الفيض الكاشاني، محسن، الوافي في أصول الفقه الإسلامي، ٣/ ٧٩.
٢٥- المؤمنون/ ١١٥.
٢٦- الذّاريات/ ٥٦.
٢٧- النور/ ٥٥-٥٦.
٢٨- آل عمران/ ١٥٩.
٢٩- الخرائطي، محمد بن جعفر، المنتقى من مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، ٢٨.
٣٠- م.ن، ص٢٨.
٣١- ابن أبي الحديد المعتزلي، ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ، ج٢٠، ص٢٧٥.
٣٢- محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح الأدب المفرد، ٦٦٨.
٣٣- البينة/ ٧.
٣٤- البقرة/ ٢٥.
٣٥- البروج/ ١١.
٣٦- الألباني، محمد بن ناصر، سلسلة السيرة الصحيحة، ٣/ ٣٢٠.
٣٧- السبحاني، جعفر، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت، ٢٢٧.
٣٨- ص/ ٢٨.
٣٩- يونس/ ٤.
٤٠- م.ن/ ٢٥.
٤١- التوبة/ ١٢٤-١٢٥.
٤٢- الكهف/ ١٣.
٤٣- الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، ٢/ ٣٣-٣٧.
٤٤- محمد/ ١٧.
٤٥- النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ١١/ ١٢٣، ح١٢٧٢١.
٤٦- الآمدي، عبد الواحد بن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ح٤٧١٢.
٤٧- النجم/ ٣٩-٤١.
٤٨- الجمعة/ ١٠.
٤٩- التوبة/ ١٠٥.
٥٠- الملك/ ١٥.
٥١- المزمل/ ٢٠.
٥٢- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٢/ ١٠٧١.
٥٣- ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ، الحكمة٤٣١، والكتاب ٣١.

٥٤- الحديد/ ٢٥.
٥٥- الجوادي الآملي، عبد الله، المعاد في القرآن، ١/ ٢٢ وما بعدها.
٥٦- ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، الحكمة ٢٨٠.
٥٧- م.ن، الخطبة ١٥٣.
٥٨- م.ن، الرسالة ٥٣.
٥٩- الآمدي، عبد الواحد بن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ٢/ ٤٠٩-٣٦٤.
٦٠- البقرة/ ٦٢.
٦١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٤/ ١٨٣.
٦٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٧١.
٦٣- جاء عن الإمام عليعليه السلام: "أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيصَ، عَنْكَ وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ.. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ.. وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ". (أنظر: ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، خطبة ١٠٩).
٦٤- الذهبي، محمد بن أحمد (شمس الدين)، سير أعلام النبلاء، ٩/ ٣١٦.
٦٥- النحل/ ٩٧.
٦٦- النساء/ ١٣.
٦٧- الأعراف/ ٣٢.
٦٨- النحل/ ٩٧.
٦٩- الصدوق، محمد بن علي، من لا يَحْضُره الفَقِيه، ٤/ ٣٧٦.
٧٠- المجلسي، بحار الأنوار، ٧٧/ ١٧٢.
٧١- شرح النهج، الخطبة ٢٣٠.
٧٢- النساء/ ١٣.
٧٣- الكهف/ ٤٩.
٧٤- ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ١١/ ٢٤١.
٧٥- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٦، ص١٢٨.
٧٦- مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله، ٨/ ٣١٤.
٧٧- الكهف/ ١١٠.
٧٨- الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج١٢، ص٣٤٢.
٧٩- الشعراء/ ٨٩.
٨٠- الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص١٦.
٨١- الحج/ ٤٦.
٨٢- الشعراء/ ٨٨-٨٩.

٨٣- الألباني، محمد بن ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم١٥٨٥.
٨٤- الأنعام/ ١٥.
٨٥- م.ن/ ٥١.
٨٦- الأنفال/ ٦٠.
٨٧- التوبة/ ١١١.
٨٨- مغنية، محمد جواد آل، أبو ذر الغفاري رمز اليقظة في الضمير الإنساني، ١٦٥.
٨٩- ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ج١، ص٦٧.
٩٠- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٤/ ٣٨١.
٩١- في إشارة للحديث الشريف المشهور: "لو لْم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل اللهُ ذلكَ اليوم حتى يخرجَ رجلٌ من أهلِ بيتي يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما مُلئتْ ظلمًا وجورًا". (أنظر: م.ن، ٥١/ ٧٤).
٩٢- النساء/ ٥٨.
٩٣- الحديد/ ٢٥.
٩٤- ابن أبي الحديد المعتزلّي، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨٥.
٩٥- النجفي، هادي، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ٧/ ١١٩.
٩٦- م.ن.
٩٧- الشمس/ ٧-١٠.
٩٨- التغابن/ ١١.
٩٩- الأعراف/ ٩٦.
١٠٠- م.ن/ ١٥٧.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

* ابن أبي الحديد المعتزليّ، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، إيران/ قم، الناشر: مكتبة آية الله العظمى مرعشي النجفي، طبعة عام ١٩٨٦م.

* آل مغنية، محمد جواد، أبو ذر الغفاري رمز اليقظة في الضمير الإنساني، لبنان/ بيروت، دار التعارف للمطبوعات، طبعة عام ١٩٩٠م.

* الألباني، محمد بن ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصّحيحة، لبنان/ بيروت، مكتبة المعارف، طبعة عام ١٩٩٥م.

* البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح الأدب المفرد، طبعة أولى، السعودية/ الرياض، مكتبة الدليل، عام ١٩٩٤م.

* الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي (الجامع الكبير)، لبنان/ بيروت، دار الغرب الإسلامي، طبعة عام ١٩٩٦م.

* الجوادي الآملي، عبد الله، المعاد في القرآن، ترجمة: علي الحاج حسن، ط١، العراق/ بغداد، المركز الاستراتيجي للدراسات الإسلامية، عام ٢٠٢٣م.

* الحلواني، حسين بن محمد، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، طبعة أولى، إيران/ قم، طبعة مدرسة الإمام المهدي، عام ١٩٨٦م.

* الخرائطي، محمد بن جعفر، المنتقى من مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، لبنان/ دمشق، دار الفكر، طبعة عام ١٩٨٦م.

* الذهبي، محمد بن أحمد (شمس الدين)، سير أعلام النبلاء، طبعة٣، لبنان/ بيروت، مؤسسة الرسالة، عام ١٩٨٥م.

* الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، لبنان/ بيروت، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة عام ٢٠٠١م.

* السبحاني، جعفر، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت، لبنان/ بيروت، دار التعارف للمطبوعات، طبعة عام ٢٠١٣م.

* الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، طبعة أولى، إيران/ قم، الناشر: هجرت، لعام١٩٩١م.

* الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضاعليه السلام، لبنان/ بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، طبعة عام ١٩٨٤م.

* ـــــــ، من لا يَحْضُره الفَقِيه، إيران/ قم، الطبعة الثالثة، الناشر: انتشارات إسلامي التابعة لجماعة المدرسين، عام ١٩٩١م.

* الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، لبنان/ بيروت، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة عام ١٩٩٧م.

* الطوسي، نصير الدين، تلخيص المحصّل المعروف بنقد المحصل، لبنان/ بيروت، دار الأضواء للطباعة والنشر، طبعة عام ١٩٨٥م.

* الفيض الكاشاني، السيد محسن، الوافي في أصول الفقه الإسلامي، ط١، لبنان/ بيروت، دار الرسالة، عام ٢٠٠٠م.

* الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، لبنان/ بيروت، دار المرتضى، طبعة عام ٢٠١٧م.

* المالكي، أبو الحسنين ورّام بن أبي فراس تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، تقديم: محمد صادق بحر العلوم، العراق/ النجف، المكتبة الحيدرية، طبعة عام ١٩٦٤م.

* المتّقي الهندي، علاء الدين بن حسام، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ط٥، لبنان/ بيروت،

مؤسسة الرسالة، عام ١٩٨١م.
* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٧، طبعة٢، لبنان/ بيروت، طبعة مؤسسة الوفاء، عام ١٩٨٣م.
* المحمدي الكَيلاني، محمد، تكملة شوارق الإلهام للمولى عبد الرزاق اللاهيجي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، طبعة عام ١٩٩٩م.
* مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله، طبعة أولى، إيران/ قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، عام ١٩٨٨م.
* النجفي، هادي، موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، طبعة ١، لبنان/ بيروت، دار إحياء التراث العربي، عام ٢٠٠٢م.
* النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، لبنان/ بيروت، دار المؤرخ العربي، طبعة عام ١٩٩١م.

الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام
وأثره في تحصيل أسباب الحياة الطيّبة

الشيخ الدكتور لقاء جواد الكعبي

باحثٌ في الفكر الإسلامي / أستاذ جامعي / جامعة الكوفة / النجف الأشرف

ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق وعلى السراج المنير وعلى آله الطاهرين وبعد.

تحتل مسالة الانتماء مساحةً كبيرةً من حياة الانسان فهي حاجةٌ نفسيةٌ تشتد في المواقف، على الرغم من أنّ الفرد يولد محاطًا بمجموعةٍ من الانتماءات فبمجرد أنْ يأتي للحياة يجد نفسه منتميًا إلى أسرةٍ تمثّل الأب والأمّ والإخوة، ومنتميًا إلى عائلةٍ كبيرةٍ تشكّل الأقارب، ومنتميًا إلى وطنٍ ولد على أرضه، ومنتميًا إلى لغته وقوميته.

ومن جانبٍ آخر فإنّ علماء الاجتماع وصفوا الإنسان بأنّه كائنٌ اجتماعي الطبع ، فهو يميل إلى أنْ يكون ضمن مجموعة، ولا يحبّذ العيش الفردي، إلّا في حالاتٍ خاصة؛ ولذا عُدّ التوحّد حالةً مرضية.

ومن صور الانتماء التي تنشأ من شعور الإنسان بعجزه واحتياجه إلى ما يدفع عنه المخاطر ويلبي باقي احتياجاته أو يسهم في تيسير أسباب الوصول إليها، الانتماء الديني والارتباط بالإله يعتقد أنّ الانتماء إليه يحقّق صورةً لحياةٍ خاليةٍ من المشكلات حياة طيّبة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النتيجة الإيجابية بقوله تعالى ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ فمع كلّ حاجةٍ تظهر للفرد يجد صعوبةً في تلبيتها تتجدد الحاجة إلى الانتماء ومع كلّ مشكلةٍ خاصّة كانت كالأمراض، أو عامة بيئية أو مرضية أو سياسية، تظهر الحاجة إلى الارتباط بمصدر معرفة يحيط بأسباب المشكلة ويدرك الحلول المثلى لها، بل ويمتلك أدوات الحلول.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث ، لتسلّط الضوء على أثر الانتماء إلى أهل آلبيت عليهم السلام وأثره في إنتاج الحياة الطيّبة، وقد انتظم البحث في تمهيدٍ في الحاجة إلى الانتماء وصوره، ومبحثٍ أوّل جرى فيه الحديث عن الانتماء في القرآن الكريم وأهميته ودوره في الحياة الطيّبة، ثم المبحث الثاني عن الانتماء الإيجابي في روايات أهل البيت عليهم السلام وآثاره في الحياة الطيّبة.

التمهيد

ينبع الانتماء من مجموعة حاجاتٍ للفرد، فمن حاجاتٍ ماديةٍ يعجز الفرد عن تحقيقها، إلى حاجاتٍ نفسيةٍ تولّد ضغطًا يسعى للخروج منه، فيلجأ إلى مجموعةٍ من البشر - يربطهم رابط الانتماء إلى شيء واحدٍ - يطمح في مساعدتهم، أو إلى جهةٍ يعتقد فيها القدرة.

يوجد العديد من المواقف التي يشعر فيها الأشخاص بالحاجة إلى الانتماء، وأحد المواقف التي تسبب احتياجًا أكبر إلى الانتماء هو عند الضغط، فالمواقف التي تضم الخوف تجعل الأشخاص غالبًا يرغبون في الاقتراب من بعضهم وتولد الحاجة إلى الانتماء [١].

وهنا يجب أنْ نعرف ما هو الانتماء ليتسنّى لنا بعد ذلك معرفة صوره ودوافعه، ولنقف على صوره في القرآن الكريم والحديث الشريف، ولنستخرج آثار الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام، وكيف يؤدّي إلى حياةٍ طيّبة، تسعى إليها جميع المجتمعات البشرية.

وقد عرف الانتماء بأنّه " النزعة التي تدفع المرء للدخول في إطارٍ اجتماعيّ فكريّ معين، بما يقتضيه هذا من التوقف على معايير وقواعد هذا الإطار ونصرته والدفاع عنه في مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية الأخرى " [٢].

وقد ورد في معجم العلوم الاجتماعية " أنّ الانتماء هو ارتباط الفرد بجماعة، حيث يرغب في الانتماء إلى مجموعةٍ قويةٍ يتقمص شخصيتها، ويَعدُّ نفسه ممثّلًا عنها، ويوحد نفسه بها مثل الأسرة، أو النادي، أو الشركة"[٣].

وعليه يمكن أنْ يتزايد أو يتناقص مستوى حاجة الفرد إلى الانتماء، وذلك اعتمادًا على ظروف معينة؛ ولذا يرى ياكوف روف " أنّ الحاجة للانتماء تعتمد على ما إذا كان تواجد الفرد مع الآخرين مفيدًا للموقف أم لا، فإذا كان تواجد أشخاص آخرين مفيدًا في تخليص الفرد من بعض الجوانب السلبية لعامل الضغط، ستجد رغبة الفرد للانتماء تتزايد، غير أنّه إذا كان التواجد مع الآخرين يمكن أنْ يزيد الجوانب السلبية مثل إضافة إمكانية تصعيد لعامل الضغط الموجود بالفعل، ستجد رغبة الفرد في الانتماء تتناقص" [٤].

صور الانتماء وأنواعه:

لما كان الانتماء يعني الارتباط والتمسّك بالأصول والدفاع عنها والتمسك بها، وهو كذلك مشاعر داخلية تحرّك في الإنسان وجوب دعم شخصٍ أو منظمةٍ أو فكرةٍ أو كيان ما، فهو يمثل اداة تساعد المنتمي الى تخطي كثير من مشكلات الحياة ، بل هو يغرس في المنتمي حالة من الطمأنينة " الإنسان بدون أصل وجذور قوية يركن إليها لا يكون قادرًا على مواجهة أصغر مشكلة تواجهه في الحياة، وللانتماء أنواع عدة، وهي كلّها مهمة وضروريّة لحياة الفرد وحياة الأمم والشعوب أيضًا " (٥).

وقد قال بعض العلماء: "الملاحظ لأصناف العلاقات بين بني الإنسان يجد أنّ هناك نوعًا من الإضافة تتمثل في نسبة أحد الطرفين للآخر، وهذه العلائق تتمشى في طبيعة المجتمع مع بدايات تكونه، وتستمر كوجود متميز، ومنه تنشأ ما يسمى بالانتماءات المختلفة من اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وغيرها، فالانتماء إذن: علاقة منطقية بين الفرد والصنف أيًّا كان " (٦).

وعليه صار للانتماء صور عديدة منها:

١- الانتماء الوطني: وهو أحد صور الانتماء التي ليس للفرد في بداياتها اختيار؛ فهو يحب البلد الذي ولد فيه، وكذلك الناس من حوله يغذونه بهذا الحب والانتماء " وهو يعني التمسّك بالوطن والدفاع عنه، والخوف على خيراته ومصالحه؛ وذلك لأنّ الوطن هو الذي يحمي الإنسان الذي يعيش فيه ويدافع عنه، ويبعد عنه الشرور والأذى والضرر من القوات الخارجية التي تحاول احتلاله والسيطرة على عقله " (٧).

يقول الغزالي: "والبشر يألَفُون أرضَهم على ما بها، ولو كانت قفرًا مستوحَشًا، وحبُّ الوطن غريزةٌ متأصِّلة في النفوس، تجعل الإنسانَ يستريح إلى البقاء فيه، ويحنُّ إليه إذا غاب عنه، ويدافع عنه إذا هُوجِم، ويَغضب له إذا انتقص". (٨)

٢ـ الانتماء السياسي: وهو أنْ ينتمي الفرد إلى مجموعةٍ يربطها رابطٌ حزبيّ أو تنظيمي معين، "الانتماء السياسي قد يجمع الأفراد من أوطانٍ مختلفةٍ تحت مظلّة مذهبٍ واحدٍ أو توجّهٍ فكري سياسي واحد، وذلك يعني قوة أكبر، ولا بدّ لكلّ إنسانٍ من انتماءٍ سياسي يساعده في تحديد

وجهته في الحياة، ويبني عليه تطلعاته نحو المستقبل، شريطة ألّا يكون هذا الانتماء السياسي متعارضًا مع الانتماء الديني العقائدي للإنسان "[٩].

يقول الدكتور شاكر كتاب: "من المعاني السياسية للانتماء هو اتفاق المنتمي ليس فقط مع الرؤيا والأفكار إنّما مع أساليب العمل المقترحة من قبل المنظمة سواء من حيث شكل التنظيم أو النشاط الهادف مباشرة إلى تحقيق الأهداف من ذلك كيفية الوصول إلى السلطة؛ لذلك ننوه هنا إلى اشتراط الكثير من الأحزاب في أنظمتها الداخلية على العضو أنْ يقرّ برنامجها ونظامها الداخلي وأنْ يعمل في إحدى منظماتها" [١٠].

٣- الانتماء الفكري: وهو يمثّل صورة إشباع الفرد لحاجته للمعرفة، فتأخذه هذه الحاجة إلى اتباع مدرسة فكرية معينة، وتبني آراء تلك المدرسة الفكرية والدفاع عنها ونشر معالمها وبراهينها " من الأمثلة على الانتماء الثقافي أو الفكري هي مجموعة المثل والمقاصد والنماذج التي صاغتها الفلسفات والتوجهات الفكرية والتزم بها الإنسان ضمن مجموعةٍ معينةٍ وحددت له طريقة تفكيره، ومن خلالها استطاع أنْ يحدد توجهاته وتطلعاته المستقبلية الثقافية، ومن المهم أنْ يكون الإنسان المنتسب ثقافيًا مرنًا، يقبل الرأي الآخر ويسمعه ويفيد منه، فانتماؤه الثقافي لا يعني أنّ الثقافات الأخرى خاطئة وغير صحيحة " [١١].

وللانتماء الفكري سلطةٌ تأثيريةٌ قويةٌ على الفرد غالبًا ما تمنعه من الموضوعية، وتجعله يصطف مع المدرسة التي ينتمي إليها حتى لو كانت على خطأ، ومن أمثلة قوة سلطة الانتماء الفكري، ما ذهب إليه الفيلسوف الأمريكي فرانسيس فوكوياما، عندما صرّح ضمنيًا بأنّ (التاريخ مفتوح)، وهذا إقرارٌ ضمني بالخطأ الذي ارتكبه في مؤلّفه (نهاية التاريخ)، إلّا إنّه برغم هذا الإقرار بانفتاح التاريخ، لم يقدّم اعترافًا صريحًا بوقوعه في خطأ فكرة النهايات، وبدلًا من ذلك مارس هروبًا للأمام عندما صرّح في مؤلّفه (بداية التاريخ)، بأنّه قد أجرى مراجعاتٍ كثيرةً للمفاهيم التي وضعها في مؤلفه السابق، وبشكل أقل حدة، عاد لترجيح الديمقراطية الليبرالية في سياق البحث عن مجتمع عصري، لكنّه يرى أنّ هذا النظام الديمقراطي الليبرالي الذي يدعو إليه غير محصن.

ولـذا يجـد الباحـث في هـذا السـياق كثـيرًا مـن الآراء الفكريـة جـاءت مرتبكـةً تمامًـا، كونهـا لم تتحـرّر مـن هـذا الانتـماء الـذي يشـكل معتقـلًا للأفـكار، حتـى في حـال مراجعتهـا نقديًـا مـن المفكّـر نفسـه، فإنّـه ورغـم كشـفه لبعـض مكامـن الخطـأ في نظراتـه السـابقة، إلّا إنّـه وبطبيعـة الحـال سـوف يغـض الطـرف عـن أخطـاءٍ أخـرى؛ لأنّهـا تنسـجم مـع انتمائـه الإيديولوجـي.

٤- الانتـماء القَبَـلي (العشـائري): وهـو أحـد صـور الانتـماء التـي تكـون بداياتهـا مفروضـة عـلى الفـرد، فهـو لمـا يولـد يكـون قـد انتمـى إلى تلـك الأسـرة التـي ولـد فيهـا، كـما في الانتـماء الوطنـي؛ فإنّـه حـين يولـد الفـرد عـلى أرض يشـعر بالانتـماء إليهـا، وإنْ لم يكـن لـه اختيـار في اختيـار هـذا الانتـماء.

فالانتـماء القَبَـلي قـد يـأتي إشـباعًا لحاجـة الفـرد إلى القـوة، ورد عـن أمـير المؤمنـين ﷺ في وصيـةٍ لـه "وأكـرم عشـيرتك فإنّهـم جناحـك الـذي بـه تطـير، وأصلـك الـذي إليـه تصـير، ويـدك التـي بهـا تصـول" [١٢]. وقـد علّـق الشريـف الـرضي عـلى هـذه الوصيـة وعـلى وصـفٍ آخـر للإمـام لهـذا النـوع مـن الانتـماء بقولـه: " مـا أحسـن المعنـى الـذي أراده ﷺ بقولـه: (ومـن يقبـض يـده عـن عشـيرته) إلى تمـام الـكلام؛ فـإنّ الممسـك خـيره عـن عشـيرته إنّـما يمسـك نفـع يـد واحـدة، فـإذا احتـاج إلى نصرتهـم واضطـر إلى مرافدتهـم، قعـدوا عـن نـصره، و تثاقلـوا عـن صونـه، فمنـع ترافـد الأيـدي الكثـيرة وتناهـض الاقـدام الجمـة " [١٣]. وقـد يـأتي الانتـماء القبـلي بدافـع إشـباع الطبـع البـشري في الاجتـماع، وهنـا تشـكّل القرابـة دافعًـا لهـذا التكتـل والاجتـماع، ويولـد هـذا الانتـماء.

٥- الانتـماء الدينـي السـماوي : وهـو انتـماء الفـرد إلى عقيديـة سـماوية يلبـي مجموعـة حاجـات الفـرد، فمـن حاجـة الارتبـاط بقـوي يدفـع عـن الإنسـان المخاطـر ويحقـق أمنياتـه ، إلى حاجـة الفـرد إلى معـارف ومعلومـات تشـكّل منظومتـه المعرفيـة التـي تنتـج سـلوكه الحيـاتي العـام " إنّ الانتـماء الدينـي هـو أحـد أهـم أنـواع الانتـماءات التـي ينبغـي التمسـك بهـا والحفـاظ عليهـا، وهـو يعنـي أنّ يرتبـط المـرء بدينـه ويحافـظ عـلى قيمـه ومبادئـه وأخلاقـه وأوامـره ويلتـزم بهـا، ويبتعـد عـن نواهيـه، فهـذا الانتـماء هـو الـذي يحقـق للفـرد العـزة والكرامـة ويحافـظ عـلى هويتـه وشـخصيته بعيـدًا عـن عثـرات المجتمـع وأخطائـه ومهاويـه التـي يقـع فيـه بسـبب غيـاب هـذا الانتـماء الدينـي" [١٤].

وإذا كان مـن مشـاكل بعـض الانتـماءات أنّهـا تولّـد حالـةً عدائيـةً عنـد الإنسـان، فهـو يحـب

المجموعة التي ينتمي اليها، أو التي تشاركه ذلك الانتماء، فإنّ الانتماء السياسي يدفع الفرد إلى معاداة من ينتمي إلى مجموعةٍ أخرى تخالفه ذلك التوجّه، وكذلك التوجّه العشائري فإنّه يولّد تنافسًا مع باقي العشائر وهكذا باقي الانتماءات، إلّا الانتماء الديني فإنّه غالبا ما يشبع باقي الانتماءات فيوصي بحبّ الأوطان (حب الأوطان من الإيمان) فيشبع الانتماء الوطني، وكذلك يأمر بصلة الرحم (صلة الأرحام منماة في الرزق ومنساة في الأجل) يشبع الانتماء القبلي، ويشبع الانتماء السياسي من خلال الولاء لأولياء الله والكينونة معهم.

وإذا كان الانتماء فطريًا أو اكتسابيًا لأنّ"الإنسان كتلة من المشاعر الانسانية بعضها موجود بالفطرة، والآخر مكتسب ومصقول بالخبرة والمعرفة والثقافة، ويحمل الإنسان مشاعر متناقضة حب وكراهية، أنانية وعطاء، أي إنّه يحمل أخلاقيات الخير في مواجهة مفاهيم مضادّة تمثل الشر، والانتماء إذا اختلط بهذه المشاعر يقع الفرد في صراع الولاء" [١٥]، فالإنسان الفطن هو الذي يشبع جميع صور الانتماء عن طريق انتمائه الديني، فهو لا يتقاطع مع أي صورةٍ من الانتماء، فبالنسبة للانتماء الوطني فالدين يحثّ المؤمنين على حبّ الوطن حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: "من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحفظه قديم إخوانه" [١٦]، وبالنسبة للانتماء القبلي فالإسلام يؤكد على صلة الأرحام، حتى ربطها تكونيًّا بأهم أمرين في حياة الفرد: عمره، ورزقه. فورد في الأثر: عن الرضا عليه السلام قال: "قال أبو عبد الله عليه السلام: صلْ رحمَك ولو بشربةٍ من ماء، وأفضل ما يُوصل به الرحم كفُّ الأذى عنها، وقال: صلة الرحم منسأة في الأجل، مثراة في المال، محبة في الأهل " [١٧]، ومعنى منساة في الأجل: أي تَمدّ في العمر وتطيله حتى يتأخر أجل الانسان، وأوان موته.

دوافع وأسباب الانتماء:

إنّ الانتماء وإنْ كان في بعض صوره قسريًّا مفروضًا على الفرد ينشأ معه ويتشربه دون أنْ يشعر، كما في الانتماء إلى الأسرة، والانتماء إلى الوطن، ولكنّه في صورٍ أخرى اختياري، والفرد هو من يحدّد نوع ومدى انتمائه لهذه الجهة أو تلك، ولهذه المدرسة الفكرية أو غيرها، فالفرد في النوع الاختياري من الانتماء تحركه مجموعة دوافع منها:

الخوف: وهو من المشاعر المهمة التي تخالج الانسان بسبب ما يفكر فيه أو ما يتعرض له، فقد يحمل الفرد فكرةً سلبيةً عن حيوان معين أو رقمٍ معينٍ، تثير عنده التشاؤم والخوف، أو قد يتعرض لأحداثٍ يخسر فيها ما يحب تثير عنده الخوف من تكرار الحادثة، أو أنْ يرى الحياة من حوله فيها القوي وفيها الضعيف، وأنّ الضعيف يغلب ويقهر ويؤخذ حقه، فيحاول الفرد دائمًا أنْ ينتمي إلى مجموعةٍ قويةٍ أو يشكل معها عنصر قوةٍ يدفع به الخوف عن نفسه.

الرغبة: للفرد مجموعة من الرغبات منها التقدير الاجتماعي، الذي هو عبارةٌ عن حاجة الفرد للحصول على التقدير المناسب من المحيطين به، خصوصًا إذا كان نوعًا من أنواع شكر المجموعة له عمّا يقدّم من خدمات، والأنسان أيضًا كائن اجتماعي الطبع كما يصفه علماء الاجتماع، فهو يبحث دائمًا عن مجموعاتٍ يشكل معها لحمةً تنطلق من رؤيةٍ مشتركةٍ، وإنْ اختلفت الأعمار، وتغيرت القناعات الشخصية.

الحب: يشعر الإنسان منذ طفولته بعواطف جيّاشةٍ تجاه بعض الناس والأشياء والقيم، فالطفل يحبّ والديه، وكذلك يحبّ ألعابه، ويحبّ بيته، وكلما اقترب من الإدراك والتمييز ازداد تعلّقه بإمورٍ ذات قيمةٍ عاليةٍ في نفسه كما في وطنه، وهذا الحب يجره إلى الشعور بالانتماء، فحبّه لوطنه يحفّز عنده الانتماء الوطني، وحبّه لعائلته يشعره بالانتماء الأسري.

الانتماء في القران الكريم

لمّا كان الإنسان اجتماعي الطبع، وهو يأتي إلى هذا العالم محاطًا بمجموعة انتماءات، فمن انتماء أسري إلى انتماء إلى البلد الذي ولد فيه، ثم تحيط به دوافع الانتماء لتدفعه للانتماء إلى مجموعةٍ ما، وهنا قد يختار انتماءً خاطئًا أو سلبيًّا يؤثر على حياته سلبي؛ ولذا جاء حثّ السماء للمسلم على الانتماء إلى الجماعة الصالحة، وفي آياتٍ عديدةٍ منها:

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾. ذكر الفخر الرازي في تفسير الآية " أَنَّ قَوْلَهُ :﴿**وكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ**﴾ أَمْرٌ بِمُوافَقَةِ الصّادِقِينَ، ونَهْيٌ عَنْ مُفارَقَتِهِمْ، وذَلِكَ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الصّادِقِينَ وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلّا بِهِ فَهو واجِبٌ، فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلى وُجُودِ الصّادِقِينَ، فَهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واجِبٌ عَلى جائِزِ الخَطَأ كَوْنُهُ مَعَ المَعْصُومِ عَنِ

الخَطَأِ حَتّى يَكُونَ المَعْصُومُ عَنِ الخَطَأِ مانِعًا لِجائِزِ الخَطَأِ عَنِ الخَطَأِ، وهَذا المَعْنى قائِمٌ في جَمِيعِ الأزْمانِ، فَوَجَبَ حُصُولُهُ في كُلِّ الأزْمانِ " (١٨).

ويقول العلامة المجلسي معلِّقًا على الآية: "القرآن يفسّر بعضه بعضًا، فأمر الله تعالى في آية سورة التوبة بالكون مع الصادقين والتبعية معهم، وفى آية سورة البقرة بين معنى الصادق ومصداقه بقوله: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ ومن أهم مصاديق هذه الصفات أول من آمن واستقام في إيمانه، وهو الذي أعطى الزكاة في الركوع كما سبق تفصيله، وأعطى قوته المسكين واليتيم والأسير لوجه الله وعلى حبه، وهو الصابر في البأساء والضراء، والذاب عن رسول الله في الهيجاء، وهو الصادق حقًّا الذي أمر الناس بالكون معه، فتقديم غيره إنكار للقرآن وتكذيب بآياته، ومن أظلم ممّن كذب بآياته؟ إنّه لا يفلح الظالمون " (١٩).

فالآية إذا في مقام الأمر بالانتماء للصادقين، ولزيادة الرغبة بهذا الانتماء جاءت الاية التي بعدها تشير الى نتائج هذا الانتماء الطيّبة في الحياة قال تعالى ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ التوبة ـ ١٢٠.

يقول الطباطبائي معقّبًا على الآية: "الرغبة ميلٌ خاصٌ نفساني والرغبة في الشيء الميل إليه لطلب منفعةٍ فيه، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه، والباء للسببية فقوله: ﴿**وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ**﴾ معناه وليس لهم أنْ يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الأسفار ودعثائها، ويقعدوا للتمتع من لذائذ الحياة، والظمأ العطش، والنصب التعب والمخمصة المجاعة، والغيظ أشد الغضب، والموطئ الأرض التي توطأ بالاقدام، والآية تسلب حق التخلّف عن النبي صلى الله عليه وآله من أهل المدينة والأعراب الذين حولها،

ثم تذكر أنّ الله قابل هذا السلب منهم بأنّه يكتب لهم في كلّ مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوعٍ وعطشٍ وتعبٍ وفي كلّ أرضٍ يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملًا صالحًا فإنّهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين " (٢٠).

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ الكهف ـ ٢٨ .

وقد فهم المفسّرون من الآية وجوب الانتماء لهذه المجموعة " ودلت الآية على أنّ الذي ينبغي أنْ يطاع، ويكون إمامًا للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربّه، فقدّمها على هواه، فحفظ بذلك وقته، وصلحت أحواله ، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك أنْ يتبع ويجعل إمامًا " (٢١).

ولما كان أحد دوافع الانتماء الحب والرغبة، فلعل هذه الدوافع تجر الفرد إلى الرغبة في الانتماء إلى الجماعة المترفه الغنية واحتقار الفقراء، فجاء هذا النص ليثير هذه القضية أنّ المظاهر ليست دائمًا عاكسة للسعادة الحقيقية بل إنّ السعادة في الارتباط بمصدر الخير وبأوليائه الذين لا ينقطعون عن ذكره " من الدروس التي نستفيدها من قصّة أصحاب الكهف أنّ مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهري أو بالثروة، بل عند ما يكون المسير في سبيل الله يتساوى الوزير و الراعي، والآيات التي نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمّة وتعطي للرّسول ﷺ هذا الأمر: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ إنّ استخدام تعبير (اصْبِرْ نَفْسَكَ) هو إشارة إلى حقيقة أنّ رسول الله ﷺ كان قد تعرّض إلى ضغط الأعداء المستكبرين والمشركين حتى يبعد عنه مجموع المؤمنين الفقراء؛ لذلك جاءه الأمر الإلهي بالصبر والاستقامة أمام هذا الضغط المتزايد وألّا يستسلم له " (٢٢).

ومن إعجاز القرآن الكريم اختيار الكلمات المعبّرة عن تمام المعنى المرتبط بما يحتاج إليه الموضوع الذي تناقشه الآية ، فلما كان هوى النفس هو بالارتباط بأصحاب المال والنفوذ؛ لأنّها تظنّ أنّ الوصول الى الحياة السعيدة يكون عن طريق العلاقة مع هذه الشريحة، فأشارسبحانه

إلى الصفة التي يحتاجها الفرد في هذا الموقف وهي الصبر وحمل النفس على هذا الأمر، ولو كان عندها قناعات مغايرة، فمن أهم ما أودع الله سبحانه في النفس البشرية القدرة على التكيف، فليس من أمر بعصي على النفس إنْ روضت عليه، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: "من استدام رياضة نفسه انتفع "[٢٣]. والإمام هنا يشير إلى اهمية الاستمرارية والمداومة في وصول الفرد الى ما يريد .

الحياة الطيّبة في القران الكريم

كل البشر يتمنون أنْ يرفلوا بحياةٍ طيّبةٍ، ولكنّهم قد يخطئون في تحديد معالمها، فعندما نفكر بطبيعة الحياة التي نتمناها لا بدّ ألّا ننسى أنّنا في عالمٍ ونشأةٍ تحكمها قوانين وضعها الخالق، فمثلًا هذا العالم هو عالم الابتلاء فلا يخلو إنسان من أنْ يبتلى ويمتحن، فعلينا أنْ نكيّف أنفسنا مع طبيعة الحياة وألّا ننفعل سلبيًا مع المتغيرات، قال تعالى: ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾. الحديد ـ ٢٣.

وليس معنى هذا عدم وجود حياة طيّبة، بل هي موجودة، قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ النحل ـ ٩٧ . فهذه الآية ترتب الحياة الطيّبة على مقدمتين، الأولى هي الإيمان (مع تعدّد ما يجب على الفرد الإيمان به، فمن الإيمان بالغيب وأهمه الإيمان بالله وبالملائكة، ثم الإيمان بالحجج على الخلق أنبياء كانوا أم أوصياء الى الإيمان بيوم القيامة)، والثانية هي العمل الصالح الذي هو انعكاس للإيمان، أمّا عن معنى الحياة الطيّبة فيشير أمير المؤمنين عليه السلام عندما يُسأل عن قوله تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ فيقول: "هي القناعة"[٢٤].

وذلك لأنّ الفرد غير القنوع مهما أتاه الله لن يشعر بالسعادة؛ لأنّه سوف يفكر ويتمنى ما عند الآخرين، وقد ذكر السيد الطباطبائي في تفسير الآية: "هذه الآية المشرفة تدلّ على أنّ الله – سبحانه وتعالى– يكافئ الشخص المؤمن الذي يقوم بالأعمال الصالحة، ويكرمه بحياةٍ جديدةٍ تختلف عن الحياة المعتادة للناس ويعطيه العلم والقدرة ، و هذا العلم و القدرة الحديثان يمهدان له أنْ يرى الأشياء على ما هي عليها فيقسمها قسمين حقٍّ باقٍ و باطلٍ فانٍ، فيعرض

بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدنيا بزخارفها الغارة الفتانة ويعتز بعزة الله فلا يستذله الشيطان بوساوسه ولا النفس بأهوائها وهوساتها ولا الدنيا بزهرتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها " (٢٥).

خصائص الحياة الطيّبة

من مهمات خصائص الحياة الطيّبة، التوفيق من الله تعالى، لما فيه رضاه تعالى، وهذا بدوره يفتح على الفرد بابًا واسعًا من الخيرات التي تجعل حياته طيّبةً وسعيدة.

ومن خصائصها خلوها من المشاكل سواء الطبيعية منها (كالزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير والعواصف وغيرها)، والتي قد تنتج من ذنوب الناس، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾الروم ـ ٤١. أم غيرالطبيعيّة كالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وهذه أيضًا قد تأتي من ذنوب الناس؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ... ﴾ الشورى ـ ٣٠ ، وقد تأتي من عقائد باطلة أو أفكار خاطئة يحملها الفرد تؤثر سلوكه، كما لو تشائم من شيءٍ من غير مبرر أو اعتمد على خرافات وأكاذيب، أو كانت طريقته في اكتساب المال غير شرعية أو كان مسرفًا أو مبذّرًا.

ومن خصائصها أيضًا الأمن من الخوف، وهذا يتحقق بأن يلجأ الفرد الى ركنٍ وثيقٍ يشعر معه بالطمأنينة، وقد يكون بأخذ أقصى درجات الحذر والحيطة، أو تعلّم ما يجعل الفرد في حصنٍ من الأذى.

ومن خصائصها وفرة الرزق، وهذا يأتي بتقوى الله أولًا، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ الطلاق / ٢ـ٣.

ومن خصائصها البركة فيما عند الإنسان من عمرٍ وزوجةٍ ومالٍ وذريةٍ، وبركة المال إمّا تكون بعينه وإمّا بمنافعه.

الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام في الحديث الشريف

لقد جاءت الأحاديث الكثيرة لتبيّن أنّ صمام الأمان للأمة، والضمانة الحقيقة لبقاء المسلمين على الدين الحقّ هي باتباع أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّ غيرهم لا يُؤمَن منه ادخال البدع في الدين

وإبعاد الناس عن شرعة الله سبحانه، روى الحاكم النيسابوري بسنده الى أبي ذر الغفاري قال: " سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: "**ألا إنّ مَثَل أهل بيتي فيكم كمَثَل سفينة نوح من قومه؛ من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق**" [٢٦]. وهذا الحديث يرويه عددٌ من الصحابة بأسانيد مختلفة، وهو ما يدلل على تكرار صدروه من النبي بقرينة الاختلاف ببعض ألفاظه وإنْ كان المؤدّى واحدًا، فيكون النبي صلى الله عليه وآله أراد ارتكاز معنى هذا الحديث في أذهان الصحابة وتكثر طرق نقل لضمان وصوله الى الأمة، ثم استعمال صيغة التشبيه البلاغي بمثل تاريخ مشهور بين المسلمين حادثة سفينة النبي نوح عليه السلام له بالغ الأثر في فهم المعنى ورسوخ معناه.

أما بالنسبة لدلالة الحديث فهو واضح الدلالة ـ كما استفاد ذلك جملة من شرّاح الأحاديث ـ على عصمة أهل البيت عليهم السلام، وإلّا يكون الأمر باتباع أهل البيت والانتماء إليهم سببًا في ضلالٍ محتمل، فكيف يأمر النبيّ المسلمين بالانتماء إلى من يضلهم ؟!!

وأيضًا من الدلالات التي يحملها الحديث أنّ النجاة من المشاكل التي تتعرض لها الأمة ـ وهو أمرٌ طبيعي في دار البلاء والامتحان ـ بالرجوع الى أهل بيته، فالتشبيه بسفينة نوح يحمل هذه الدلالة، فعند الطوفان لم يكن شيءٌ قادرٌ على الحفظ والأمان إلّا السفينة التي حصر الله تعالى النجاة في ركوبها، وإلّا فابن نوح كان يظنّ أنّ الوضع اعتيادي كأيّ فيضانٍ يمكن النجاة منه بصعود الجبل؛ فقال لأبيه: ﴿**سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾ [٢٧]. والواقع العقدي كان قد قضى بحصر النجاة في الانتماء الى بني نوح، وهكذا هو الحال في حصر النجاة بعد النبي بالانتماء والاتباع لأهل بيته الأطهار (صلوات الله عليهم).

وهذا الذي جرى بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله فما مرّت الأمة بمشكلة أيًّا كان نوعها إلّا وكان الحلّ عند آل رسول الله، حتى عرف عن صحابة الرسول قولهم: "اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب " [٢٨]. وهذا يدلّ على أنّ الأمان للأمة كان بعلي عليه السلام، حتى كبار القوم وعليتهم كان مصدر أمانهم من طوارق الزمان بالرجوع إليه عليه السلام، وعند قراءة قضاء الإمام علي عليه السلام نجد فيه الكثير ممّا يؤكد أنّ طريق النجاة في الرجوع إليه، والعمل بقوله.

ومن الأحاديث النبوية الأخرى الدالة على وجوب الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام، وعلى دورهم في أخذ الأمة الى الحياة الطيّبة حديث النبي الاكرم: " أمالي الطوسي: الحفار عن إسماعيل بن علي الدعبلي عن أبيه عن أخي دعبل عن حفص بن غياث عن أبيه عن جابر وأبي موسى الأشعري وابن عباس قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : "النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لامتي، فإذا ذهب النجوم ذهب أهل السماء، وإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض " (٢٩).

لما كان من خصائص الحياة الطيّبة أنّها حياة ترفل بالأمان، فالنبي يبين أنّ الطريق إلى هذه الحياة هو اتباع أهل البيت عليهم السلام، بل إنّ وجودهم نفسه هو أمان تكويني لأهل الأرض، ولكن الذي يحصل على كامل الأمن ببركة وجودهم هم أوليائهم؛ لأنّهم عند الفزع يلجأون إليهم، ويتوسلون بهم، أمّا غير المنتمين لهم، فيبحثون عن أسبابٍ أخرى للنجاة.

الحديث الثالث : ما رواه الحرّ العاملي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: "إني تارك فيكم الثقلين ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" (٣٠). ولو تأمّلنا هذا الحديث نجد فيه دعوةً واضحةً للتمسك بالقرآن الكريم وبأهل البيت، والانتماء إليهم، وأنّهما معًا الضمان الحقيقي للنجاة من الضلال على جميع الأصعدة، والبعيد عن الضلال يعيش الحياة الطيّبة.

الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام دوافعه ونتائجه

عرفنا فيما مضى من البحث دوافع الانتماء العامة، كالحب والخوف والرغبة والطبع وكيف أنّ مقدمات الانتماء وبداياته عند الإنسان فطرية، ثم يأتي الانتماء الاكتسابي، أمّا تخصيص البحث بدوافع الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام فنقول:

إنّ أهم دوافع الانتماء إلى أهل البيت هو الأمر الإلهي بذلك، فهم الصادقون الذين أمرنا الله بالكون معهم، وهم الذين أنعم الله عليهم الذين نسأل الله في اليوم والليلة على أقل تقدير عشر مرات أنْ يوفقنا للسير على هديهم ونهجهم، وهم الذين أمرنا الله بمودتهم، وهم عدل القرآن الذين لا يفترقون عنه، وهم أمان أهل الأرض، أما باقي الدوافع وهي:

الحب: لما كان احد دوافع الانتماء الحب ، فقد جاء الامر بحبهم في القران الكريم وعلى

لسان النبي الاكرم ، اضافة الى صفاتهم واخلاقهم التي تدعو الناس لحبهم ، فالمجتمع يحب المتواضع وهم من اهم صفاتهم التواضع والمجتمع يحب من احسن اليه وهم اهل الاحسان وقد مدح الله فيهم ذلك والمجتمع يحب العلم والعلماء وهم اهل العلم واصله ومعدنه ، وهذا الحب هو ما سيدعو الناس للانتماء اليهم .

الخوف: لمّا كان من دوافع الانتماء الخوف من تقلبات الدنيا وتغيّر أحوالها أو الخوف من الفردية مقابل الجماعات، فإنّهم عليهم السلام أمان الخائفين، وعرف أجدادهم بنجدة الضعفاء والدفاع عنهم، وهم بما لهم من منزلة عند الله يدفعون عن أوليائهم كلّ ما يخافون منه بحسب درجة طاعتهم لله وانتمائهم لهم.

الرغبة: لمّا كان من طبع الإنسان أنْ يبحث عن تقدير الذات واحترام الآخرين له، فعند الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام، مع ما لمذهب أهل البيت من مكانةٍ علميةٍ وسيرةٍ عمليةٍ طيّبةٍ سوف يحصل على ذلك الاحترام بين من يشاركه ذلك الانتماء وعند غيرهم عند معرفة ما يحمل من أخلاق نتيجة ذلك الانتماء.

أما بالنسبة لنتائج الانتماء إليهم فهو تابعٌ لواجبات الموالي لهم والمنتمي إليهم، والتي منهم طاعتهم فقد ورد أنّ رجلًا قال لزوجته: اذهبي إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فاسأليها عني أنّي من شيعتكم أم ليس من شيعتكم؟ فسألتها فقالت: "قولي له: إنْ كنت تعمل بما أمرناك، وتنتهي عمّا زجرناك عنه، فأنت من شيعتنا" [٣١]. ومنها الارتباط بهم في فرحهم وحزنهم فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "رحم الله شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا وعجنوا بماء ولايتنا، يحزنون لحزننا ويفرحون لفرحنا" [٣٢]. وكذلك إتيان قبورهم فقد روى ابن قولويه في كامل الزيارات، قال: " حدَّثني الحسن بن عبد الله بن محمد بن عيسى، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن عاصم بن حميد الحنّاط، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: "مَن لم يأتِ قبر الحسين عليه السلام من شيعتنا كان منتقص الإيمان، منتقص الدين، وإن دخل الجنّة كان دون المؤمنين في الجنّة " [٣٣].

ويترتب على كلّ واحدٍ من هذه المظاهر للانتماء إليهم عليهم السلام آثار مهمة تورث الحياة الطيّبة، فمن تلك الآثار الخلاص من آثار الذنوب الذي قد يكون بالتوبة منها وبطلب غفرانها من

الله تعالى، وأحد أهم أسباب المغفرة هو الطلب من أهل البيت عليهم السلام التدخل والشفاعة عند الله لذلك، ورد في الزيارة "يا ولي الله إنّ بيني وبين الله ذنوبًا لا يأتي عليها إلا رضاكم" (٣٤).

فإذا شفع الإمام عليه السلام لزائره عند الله سبحانه وغفرت ذنوبه صار حياته طيّبةً بزوال آثار الذنوب من نقمٍ نازلةٍ أو بلاءٍ أو انقطاع رجائه لله، أو غيرها من منغصات الحياة بسبب الذنوب.

وكذلك شفاعة الأمة في قضاء حوائجه عند التوسل بهم ـ وهذا التوسل إنّما يصدر غالبًا من المنتمي إليهم ـ فتقضى الحوائج ويوفق الفرد ويبارك له في حياته.

وعلى العموم فإنّ للانتماء إلى أهل البيت مجموعة لوازم، كالسعي لتعلم علومهم، وهذا ما يجري للفرد مجموعة كبيرة من المنافع، تسهم في جعل حياته طيّبةً كما في تعلم توصياتهم في ما يرتبط بالعافية وأسبابها، أو العبادة وكيفيتها وأفضل أوقاتها، أو أسرار الدعاء، وغير ذلك من صور أسرار السعادة ومفاتيحها التي تسهم في طمأنينة الفرد. ورد في المحاسن: عن عمر بن عبد العزيز، عن أبي داود الحداد، عن موسى بن بكر قال: " كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فقال رجل في المجلس: أسأل الله الجنة فقال أبو عبد الله عليه السلام: "أنتم في الجنة فاسألوا الله ألّا يخرجكم منها". فقالوا: جعلنا فداك نحن في الدنيا؟ فقال: "ألستم تقرون بإمامتنا؟". قالوا: نعم، فقال: "هذا معنى الجنة الذي من أقرّ به كان في الجنة فاسألوا الله ألّا يسلبكم " (٣٥).

نعم، فولي أهل البيت والمنتمي إليهم في في جُنة من الضلال، وفي جنة من استناده إلى ركنٍ وثيقٍ في هذا العالم المليء بالمخاطر، فمن ارتبط بهم ضمن شفاعتهم بالدعاء لهم عن الحاجة، فضلًا عن إتيان قبرهم وما يورث من أسباب الخير والرزق والبركة وكشف الهموم والغموم. روى المفيد عن فضيل بن يسار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : "إنَّ إلى جانِبِكُم لَقَبرًا ما أتاهُ مَكروبٌ إلّا نَفَّسَ اللهُ كُربَتَهُ، وقَضى حاجَتَهُ ـ يَعني قَبرَ الحُسَينِ بنِ عَلِيٍّ عليهما السلام " (٣٦).

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: "مُروا شيعَتَنا بزيارة قَبرِ الحسين عليه السلام؛ فإنّ إتيانه يَزيدُ الرِّزق ويَمُدُّ في العُمر ويَدفَع مدافع السّوء" (٣٧). فأي حياةٍ طيّبةٍ لا تتصف بتلك الصفات زيادة الرزق وطول العمر وخالية من مدافع السوء، وهذه آثار زيارة الإمام الحسين التي هي مظهر من مظاهر الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام.

النتائج

بعد هذه الرحلة البحثية بين آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وروايات أهل البيت عليهم السلام، وبعد استطلاع كلمات أهل الاختصاص في علم النفس وعلم الانثروبولوجا حول الانتماء ودوافعه ومظاهره وصوره، ودورها في جعل حياة الفرد طيّبة تعرض البحث إلى أصول دوافع الانتماء إلى أهل البيت فوجدنا أنّ الحب هو الدافع الأسمى وذلك لأمر الله تعالى بحبهم، وتأكيد الرسول على أنّ أهم عُرى الإيمان هي حبّهم، وأيضًا أنّ الدافع الثاني خوف الفرد من بعض المعضلات ومن تفرد الآخرين به، وهذا أيضًا يدفع الفرد لولائهم؛ ليكونوا له خير سندٍ وملجأ.

وعندها وقف البحث على أهم صفات الحياة الطيّبة، وهي خلوها من المشاكل وسعة الرزق والأمان من المخاوف البركة فيما عند الإنسان، وعند البحث عن وجوه العلاقة بأهل البيت عليهم السلام، وواجبات هذه العلاقة والانتماء وجدنا أنّ من تلك الواجبات طاعتهم، وهي تجعل الفرد متقيًا لله، وهذا يورث البركات من السماء والأرض، ومن الواجبات إتيان قبورهم، وهو يورث زيادة الرزق ودفع مدافع السوء، وأيضًا إنّ سبب مشاكل الناس هو آثار ذنوبهم غالبًا، وأفضل ما يخلص الإنسان من آثار الذنوب هو غفرانها، وأكثر الطرق اختصارًا لذلك هو شفاعتهم لأوليائهم في غفران ذنوبهم، وهنا تزول الآثار والمشكلات.

وأخيرًا فإنّ البحث عن مصادر الحياة الطيّبة لهو بيغة كلّ عاقل، وإنّ أفضل الطرق إلى ذلك هو حسن الاعتقاد وصالح العمل، وهو ما يجسده الانتماء إلى أهل البيت عليهم السلام.

الهوامش

١- Kassin، S.، Fein، S.، & Markus، Social Psychology Seventh Edition.
٢- عمارة، محمد، الانتماء الثقافي، ٥.
٣- سناء، محمد سليمان، سيكولوجية الحب والانتماء، ١٥٥.
٤- Rofe، Y.، Stress and affiliation: A utility theory، ٢٣٥-٢٥٠.
٥- عماره، محمد، الانتماء الثقافي، ٨.
٦- آل عبد الجبار، محمد، الشهب الثواقب، ٩.
٧- منصور، حسن، انتماء والاغتراب، ١٢٢.
٨- محمد الغزالي ، حقيقة القوميو العربية ٨٦
٩- مصطفى، ناديه وآخرون، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، ٧- ٩.
١٠- كتاب، شاكر، محاولة تنظيرية في الإنتماء السياسي.
١١- عمارة، محمد، الانتماء الثقافي، ٨.
١٢- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام، ٣/ ٥٧.
١٣- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣١٣.
١٤- راتانسي، علي، التعددية الثقافية، ١.
١٥- سناء، محمد سليمان، سيكولوجيا الحب والانتماء، ١١٣.
١٦- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٤/ ٣٦٦.
١٧- المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار، ٧١/ ٨٨.
١٨- الرازي، محمد بن عمر، تفسير مفاتيح الغيب، ١٦/ ٢٢٠.
١٩- المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، ٣٥/ ٤٠٨.
٢٠- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ٩/ ٤٠٣.
٢١- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تفسير السعدي، ٥/ ٩٥٨.
٢٢- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٩/ ٢٥٦.
٢٣- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ٢/ ١١٣٦.
٢٤- نهج البلاغه ، الكلمات القصار ٢٢٩.
٢٥- الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان.
٢٦- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک، ٣/ ١٥١، وايضا المغربي، نعمان، شرح الأخبار، ٢/ ٢٦٩.
٢٧- هود/ ٤٣.
٢٨- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلى، تذكرة الخواص، ٨٧ ، ونقله الخوارزمي في المناقب ٥٨.
٢٩- الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، ٢٤١.
٣٠- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة.

٣١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٦٥/ ١٥٥.
٣٢- الحائري، محمد مهدي، شجرة طوبى، ١/ ٣.
٣٣- ابن قولويه القمي، جعفر بن محمد كامل الزيارات، ٣٥٥. وأُنظر: الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ١٤/ ٤٣٠.
٣٤- القمي، عباس ، مفاتيح الجنان الزيارة الجامعة الكبيرة.
٣٥- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١٦١.
٣٦- المفيد، محمد بن النعمان، المزار، ٣٤.
٣٧- ابن قولويه القمي، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ٢٨٤.

المصادر والمراجع

* القران الكريم
* ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد إبراهيم، ط١، دار الكتاب العربي ، بغداد ٢٠٠٧ م.
* ابن قولويه القمي، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، ط ٢، قم المقدسة، مؤسسة نشر الفقاهة، ١٤١٤هـ.
* ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلى، تذكرة الخواص، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، ط٣، قم المقدسة، الناشر: منشورات الشريف الرضي، ١٤١٨ هـ.
* ابن حيّون، نعمان بن محمد (القاضي المغربي)، شرح الأخبار، تحقيق: محمد حسين الجلالي، ط٢، قم، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٤ هـ.
* ابن طاووس، علي بن موسى، كتاب الإقبال، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، ط١، قم المقدسة، ١٤١٤ هـ.
* البرقي، محمد بن خالد، المحاسن، تحقيق: مهدي الرجائي، ط٣، قم، المجمع العالمي لأهل البيت، ١٤٣٢ هـ.
* الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، مستدرك الصحيحين، ط٣، بيروت - لبنان، دارالكتب العلمية، ١٤١١هـ.
* الحائري، محمد مهدي، شجرة طوبى، ط٥، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٣٨٥ هـ.
* الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: فاضل محمد، ط٢، بيوت-لبنان، دار الامين، ١٤٣٤هـ.
* الخوارزمي، أحمد بن محمد، المناقب والمثالب، ط١، دارالبشائر للطباعة والنشر، ١٩٩٩ م.
* راتانسي، علي، التعددية الثقافية، ترجمة: لبنى عماد تركي، ط١، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر، ٢٠١٣ م .
* الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ط١، قم المقدسة، تحقيق وطباعة ونشر: دار الحديث، ١٤١٦ هـ.
* السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط١، طبعة دار السلام، ٢٠٠٢ م.
* سناء، محمد سليمان، سيكولوجية الحب والانتماء، القاهرة، عالم الكتب.
* الشريف الرضي، السيد محمد بن الحسين، نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام، ط ٢، دارالكتاب اللبناني، ٢٠٠٩ م.
* الشيرازي، ناصر مكارم، تفسير الأمثل.
* الطباطبائي محمد حسين، الميزان في تفسير القران .ط١ ، بيروت – لبنان، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ١٩٩٧م .
* الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، ط١، الناشر: مؤسسة البعثة، ١٤١٤ هـ.
* عبد الجبار، محمد بن علي، الشهب الثواقب، تحقيق: حلمي السنان، ط١، بيروت، مطبعة دار الأعلمي، ١٤٢٤ هـ.
* عمارة، محمد، الانتماء الثقافي، ط١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠٠٥ م.
* الفخر الرازي، محمد بن عمر، تفسير مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، ط١، بيروت، الناشر: دار الفكر، ١٤٠١ هـ .
* القمي، عباس، مفاتيح الجنان، المحقق: الشيخ علي آل كوثر، ط٣، الناشر مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة، ١٤٢٣ هـ .

* كتاب، شاكر، محاولة تنظيرية في الإنتماء السياسي، جريدة المدى العراقية، العدد ٧٠٠، ٢١/ ٠٦/ ٢٠٠٦.
* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٢، لبنان، مؤسسة الوفاء.
* مصطفى، ناديه، وآخرون، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، ط١، الناشر: دار البشير، ١٤٣٤ هـ.
* المفيد، محمد بن النعمان، المزار، تحقيق: محمد باقر الأبطحي، ط٢، مؤسسة الأعلمي، ١٤١٤ هـ.
* منصور، حسن، الانتماء والاغتراب، ط١، بيروت- لبنان، الناشر: دار أمواج، ٢٠١٤ م.
* المقالات الاجنبية:
* Kassin S. Fein S. & Markus H. Social Psychology Seventh Edition. Boston: Houghton Mifflin Company
Rofe Y. (١٩٨٤). Stress and affiliation: A utility theory. Psychological Review ٩١ ٢٣٥-٢٥٠

أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة

الشيخ الدكتور عدنان فرحان خميس القاسم

باحثٌ في الفكر الإسلامي وأستاذٌ جامعي / الجامعة المستنصرية

ملخص البحث

يعدّ الدعاء من أنجح الوسائل للوصول إلى الحياة الطيّبة التي أرادها الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين. وللدعاء والتضرع إلى الله سبحانه مساحةٌ واسعةٌ في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة المروية عن النبي ﷺ، وأهل البيت عليهم السلام.

ولقد أمرنا الله بالدعاء؛ وضمن لنا الإجابة، فقال سبحانه: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر:٦٠]. وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة:١٨٦].

وجاء في الحديث الشريف، فيما وعظ به الله عيسى عليه السلام: "يا عيسى، أدعني دعاء الحزين الغريق الذي ليس له مغيث، ولا تدعني إلّا متضرعًا إليّ، وهمك همًّا واحدًا، فإنّك متى تدعني كذلك أجبتك"[١].

وللدعاء والتضرع آثارٌ كثيرةٌ من أهمها الوصول إلى الحياة الطيّبة التي أرادها الله بلطفه لعباده الصالحين. وفي هذا البحث المختصر سوف نستعرض ومن خلال الأدلة القرآنية والروائية (أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة).

وفيما يلي فهرست لمفردات البحث ونتائجه:

الكلمات المفتاحية للبحث:

١ـ الدعاء: هو أنْ تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دعوت، أدعو، دُعاءً[٢]، ودعوته: إذا سألته وإذا استغثه ... ﴿**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ ...[الأعراف: ٥٦][٣].

ومفهوم الدعاء هو طلب تهيئة الأسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الانسان، وهذا الطلب يتجه به الإنسان إلى من قدرته لامتناهية، ومن يهون عليه كلّ أمر[٤].

٢ـ التضرع: يعني التذلل والاستكانة لطاعة الله، أو التذلل والمبالغة في السؤال والرغبة، أو الجهر بالدعاء، قال سبحانه ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا**﴾ [الأعراف:٥٥] أي مظهرين الضراعة وهي شدّة الفقر الى الله تعالى، وحقيقته الخشوع[٥].

٣ـ الحياة الطيّبة: يقال: طابَ الشيءُ يطيبُ طيبًا، فهو طيب، وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس[٦].

المبحث الأول: مقومات الحياة الطيّبة:

للحياة الطيّبة التي يبتغيها الإنسان المؤمن حين يقف بين يدي الله داعيًا ومتضرعًا إليه، مقومات متعددة ينبغي على السالك طريق العروج الى الله أنْ يسعى جاهدًا لاكتسابها والتحلّي بها، وفيما يلي أهم هذه المقومات والتي ترشدنا اليها آيات القرآن الكريم، وأحاديث أهل البيت عليهم السلام:

١. الإيمان الراسخ:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[النحل:٩٧]. و قد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق سورة النحل، لتؤكد على الإيمان كشرطٍ أساسي من شروط العمل الصالح، ثم تبين بعد ذلك نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان والتي يؤدّيها الإنسان المؤمن، وبأيّ صورةٍ كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة.

إذن فالحياة الطيّبة، في هذه الدنيا هي النتاج الطبيعي للعمل الصالح النابع من الإيمان، أي أنّ المجتمع البشري سيعيش حينها حياةً هادئةً مطمئنةً ملؤها الرفاه والسلم والمحبة والتعاون، بل وكلّ ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانيّة، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانية التي تملأ الدنيا ظلامًا وظلامات؛ وعلاوة على كلّ ما تقدّم فإنّ الله سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون[٧].

وهذا الإيمان الذي ينبع منه العمل الصالح ينبغي أنْ يكون إيمانًا راسخًا؛ لأنّ الباعث الإيماني، ما لم يُحرز فغالبًا ما تكون الأعمال المنجزة ملوثةً ومشوبةً بآفات؛ العجب والرياء والغرور...وغيرها من الآفات والأفرازات النفسية السيئة، وأمّا إذا ارتوت جذور شجرة العمل الصالح من ماء التوحيد والإيمان بالله، فنادرًا ما يصيب هذا فعل من هذه الآفات؛ ولذلك نرى القرآن الكريم غالبًا ما يربط بين هذين الأمرين لما لأرتباطها من واقعية[٨].

ولهذا يتجّه العبد الى الله بالدعاء والإستغاثة طالبًا منه سبحانه الإيمان الراسخ الباعث على العمل، والذي ينال به الحياة الطيّبة في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة. قال سبحانه: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾[المؤمنون:١٠٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[السجدة:١٦].

٢. العمل الصالح

الذي يلفت النظر في القرآن الكريم هو هذا الاقتران الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح، إذ نجد هذا الاقتران والتلازم بين المصطلحين في عشرات الآيات؛ وفي كثيرٍ من سور القرآن الكريمة، بل لا يكاد يفترق أحدهما عن الآخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾[البقرة:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾[الطلاق:١١].

وهكذا عشرات الآيات الكريمة التي تقرن الإيمان بالعمل الصالح، وتعد - ووعد الله حقّ- من اجتمعت فيه الصفات الإيمان والعمل الصالح بالجنة وعدم الخوف، والمغفرة، والاستخلاف في الأرض، والحياة الطيّبة وغيرها من فيوض الرحمن والجزاء الأوفى فما هو السر في ذلك؟!

يقول أحد أعلام التفسير في جواب هذا التسائل: "لأنّ الإيمان والعمل يكمل بعضها الآخر، ولو نفذ الإيمان الى أعماق النفس لتجلّت آثاره في الأعمال حتمًا، مثله كمثل مصباح لو أضاء في غرفةٍ شعّ نوره من كلّ نوافذ الغرفة، ومصباح الإيمان كذلك، لو شعّ في قلب إنسانٍ لسطع شعاعه من عين ذلك الإنسان، وأذنه ولسانه ويده ورجله".

ثمَّ يضيف: "فالإيمان بمثابة جذر شجرة، والعمل الصالح ثمرتها، ووجود الثمر السليم دليلٌ على سلامة الجذر، ووجود الجذر السليم يؤدّي الى نمو الثمر الطيب".

ويضيف أيضًا: "من الممكن أنْ يصدر عملٌ صالحٌ أحيانًا من أفراد ليس لهم إيمان، ولكن ذلك لا يحدث باستمرار حتمًا، فالذي يضمن بقاء العمل الصالح هو الإيمان المتغلغل في أعماق وجود ذلك الإنسان، الإيمان الذي يضع الإنسان دومًا أمام مسؤولياته"[٩] .

والإنسان المؤمن لما يتجه الى الله بالدعاء والاستقامة كي يجذر الإيمان في قلبه، كذلك يدعو الله لحسن التوفيق للعمل الصالح: قال ربي﴿... **أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**...﴾[الأحقاف:١٥]

٣ـ الانقطاع الى الله سبحانه:

الإنقطاع الى الله سبحانه لا يعني الانعزال عن المجتمع والإنزواء والعزلة عن الحياة

الاجتماعية كما يفعله بعض مدعي التصوف السلبي، أو مدعي الرهبنة، فالإنسان اجتماعي بطبعه ولا يستغني عن أخيه الإنسان في جميع تفاصيل حياته، وكما يقول المعري:

الناسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ.

فإذن ينبغي أنْ نفهم ونعي مفهوم (الإنقطاع الى الله) كما فهمه الأنبياء والأئمّة وأولياء الله الصالحين عليهم السلام، فهؤلاء كانوا مع الله في كلّ حركاتهم وسكناتهم وشؤون حياتهم، واصطفاهم الله لنفسه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران:٣٣].

هؤلاء وأمثالهم من عباد الله كانوا يعيشون وسط المجتمع ومع الناس في جميع شؤون حياتهم، وهكذا ينبغي أنْ يكون عليه من يبتغي الحياة الطيبة، فهو ذائب في ذات الله ومنقطع اليه، وفي الوقت نفسه شاخص في مجتمعه، يعيش معهم كأحدهم.

٤ـ التوكل على الله، وتفويض الأمر اليه، والاعتصام به والقناعة:

التوكل، والتفويض، والإعتصام بالله، والقناعة من أهم المقومات والقيَّم التي ينبغي اكتسابها والسعي اليها للوصول إلى الحياة الطيبة. وهي منظومةٌ أخلاقيةٌ قرآنيةٌ وردت في عشرات الآيات القرآنية الكريمة، وحثّ الله فيها المؤمنين على اكتسابها والتمسّك بها للوصول الى رضوان الله واكتساب الحياة الطيّبة.

ولآيات التوكّل في القرآن الكريم دلالاتٌ واضحةٌ كأداة، كما أَنَّ للتوكل فلسفته الخاصة، وعندما نراجع آيات القرآن الكريم والتي تضمّنت آيات التوكل تتضح لنا بجلاء فلسفة التوكل على الله سبحانه، فالتأمل في قوله تعالى:

﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[آل عمران:١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[آل عمران:١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النحل:٩٩].

فبالتأمّل في هذه الآيات الكريمة وغيرها من الآيات المشابهة لها من حيث المحتوى، ومن

خلال التأمّل في الأجواء والمناسبات التي تزلت بها، نجد "أنَّ القصد من التوكّل هو ألّا يحسّ الإنسان بالضعف مقابل المشكلات العظيمة، بل بتوكّله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحًا ومنتصرًا، وبهذا الترتيب فالتوكّل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب في زيادة المقاومة والثبات، هذا أولًا.

وثانيًا: إنّ التوكل ينجي الإنسان من التبعية التي هي أصل الذلّ والعبودية، ويمنحه الحرية والإعتماد على النفس"(١٠).

هذه هي فلسفة التوكل، ولا تعني بحالٍ من الأحوال عدم التوجّه الى العلل والأسباب والعوامل الطبيعية – وهو ما يعرف (بالتواكل) – لأنّ العوامل والعلل الطبيعية لا تنفصل من إرادة الله سبحانه، فهي تسير بأوامره ومشيئته سبحانه، وغير مستقلة عن إرادته كما وأنّ (التوكل) و(القناعة) لها جذور مشتركة، وفلسفتها متشابهة، وفي نفس الوقت متفاوتة، ورواية الامام عليه السلام توضح هذا المعنى إذ يقول: "إنّ الغنا والعزَّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا"(١١). فالتوكّل في حديث الإمام يعني موطن العزة وعدم الحاجة للآخرين، وقد ورد في الدعاء: "اللهم اني أسألك صدق التوكل عليك"(١٢).

٥ـ استحضار معية الله وقربه:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[التوبة:٤٠] .

نزلت هذه الآية الكريمة من سورة التوبة في حادثة خروج النبي صلى الله عليه وآله مهاجرًا الى المدينة بعد أنْ أطلع بمكيدة قريش لقتله، فخرج مع صاحبه، فتبعتهم قريش حتى انتهوا إلى غار ثور واختبئا فيه.

فكانت هذه الأجواء من أشد اللحظات حرجًا في هذا السفرة التاريخي، وفي غار ثور أضطرب (صاحبه) وحزن، فأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله يسرِّي عنه ويقول له: "لا تحزن إنّ الله معنا" فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنودٍ لم تروها [التوبة:٤٠].

ولا نريد أنْ ندخل في الجدل الطويل بين مفسّري الشيعة وأهل السُنّة في شأن الصاحب في هذا

السفر من هو؟ وعلى من نزلت السكينة، وهل هذه الصحبة فضيلة للصاحب في السفر أم أنها مذمة...! وكلّ يذهب إلى جهةٍ بإسهاب ممّل[١٣]. وإنّما الحديث عن معية الله التي قالها النبيّ ﷺ، وردّدها القرآن الكريم إذ إنّ هذه المعية من الصفات الثابتة لله سبحانه، وهي على نحوين:

١ـ معية عامة: شاملة لجميع المخلوقات، وتشمل كلّ أحدٍ من المؤمن والكافر، ومن مقتضياتها: الإحاطة بجميع المخلوقات علمًا وقدرة، فهو سبحانه مع كلّ شيءٍ بعلمه وقدرته، وقهره وإحاطته، يقول تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[الحديد:٤] وغيرها من الآيات.

٢ـ المعية الخاصة: وهي معية النصر والتأييد، والحفظ والعناية كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[النحل:١٢٨]،

وقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة:١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة:١٩٤]

ولكلا المعيتين (العامة والخاصة) آثار جليلة وعظيم؛ إذ يشعر الإنسان برقابة الله فتربي فيه روح المهابة من معصية الله، وفي المعية الخاصة يستشعر العبد المؤمن أنّ الله معه ولا يمكن أنْ يطلبه أحدٌ، فلا وحشة ولا ضعف باستشعار معية الله كما قال موسى عليه السلام لما حاصره فرعون وجنوده: ﴿**قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[الشعراء:٦٢]. وجاء في الحديث القدسي عن النبي ﷺ: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني" أي بالتوفيق والمعونة[١٤].

واستشعار معية الله من أهم مقومات الوصول الى الحياة الطيّبة التي أرادها الله سبحانه وتعالى لعباده.

٦ـ الشوق الى لقاء الله:

من المقومات الأساسية للحياة الطيّبة عامل الشوق الى لقاء الله سبحانه، ودافع هذا الشوق هو الحب المعنوي من العبد لربه ومن الرب لعبده، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: "مَن أَحَبَّ لقاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لقاءَه، ومَن كرِه لقاءَ الله كرِه اللهُ لقاءَه"[١٥]. وفي غرر الحكم عن علي عليه السلام من كتابه عليه السلام الى أهل مصر: "وإني إلى لقاء الله لمشتاقٌ، ولحسن ثوابهِ المنتظرٌ راجٍ"[١٦].

والـذي يتشـوق للقـاء الله سـبحانه، يبتغـي اليـه الوسـيلة ويتقـرب اليـه بالأعـمال الصالحـة وخاصـة الصـبر والصـلاة، يقـول سـبحانه وتعـالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[البقـرة:٤٥-٤٦].

والمقصـود بلقـاء الله ليـس هـو اللقـاء الحـسي كلقـاء أفـراد البـشر مـع بعضهـم؛ لأنّ الله ليـس بجسـم، ولا يحـدّه مـكان، بـل المقصـود مشـاهدة آثـار قـدرة الله، أو أنّ المقصـود الشـهود الباطنـي القلبي؛ لأنّ الانسـان يصـل الى درجـة كأنّـه يـرى الله ببصيرتـه أمامـه، بحيـث لا يبقـى في نفسـه شـك أو تـردد، وهـذه الحالـة قـد تحصـل للأفـراد نتيجـة الطهـر والتقـوى، والعبـادة و تهذيـب النفـس في هـذه الدنيـا[١٧].

وقـد ورد في القـرآن الكريـم أيضًـا: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[الكهـف:١١٠]. ويعقـب أحـد المفسّريـن عـلى هـذه الآيـة الكريمـة بقولـه: " إنّ العمـل الصالـح الـذي ينبـع مـن أهـداف إلهيـة، ويمتـزج بالإخـلاص ويتفاعـل معـه هـو الـذي يكـون جـوازًا للقـاء الله تبـارك وتعـالى...". ثـم يضيـف "والعمـل الصالـح لـه مفهـوم واسـع للغايـة، وهـو يشـمل أي برنامـج مفيـد وبنـاء، فـردي واجتماعـي، وفي أي قضيـة مـن قضايـا الحيـاة"[١٨].

ثـم إنّ الشـوق - وهـو سـفر القلـب الى المحبـوب أحـث السـفر - مـن مراتـب المحبّـة، فالمحبـة عـلى درجـاتٍ منهـا الشـوق، وأطيـب العيـش وألـذّه عـلى الإطـلاق عيـش المحبـين المشـتاقين، والمستأنسـين، فحياتهـم هـي الحيـاة الطيّبـة، ولا حيـاة للعبـد أطيـب ولا أنعـم ولا أهنـأ منهـا، وهـي الحيـاة الطيّبـة المذكـورة في قولـه تعـالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[النحـل:٩٧].

وخلاصـة الأمـر في المبحـث الأول: أنّ أقـصى مـا يتطلـع اليـه الإنسـان المؤمـن السـالك الى الله طريـق التكامـل هـو (الحيـاة الطيّبـة)، وأنّ لهـذه الحيـاة مقومـات أساسـية ينبغـي عليـه تحصيلهـا لكـي يكـون أهـلًا لفيـوض الرحمـن والوصـول الى الحيـاة الطيّبـة التـي وعـده الله بهـا.

المبحث الثاني: أثر الدعاء والتضرع في الحياة الطيّبة:

للدعاء ولتضرع الى الله سبحانه آثار كثيرة في حياة الإنسان، والإنسان المؤمن من شأنه التطلع والسعي الى الحياة الطيّبة التي وعده الله سبحانه بها، فهل للدعاء كوسيلة أثرٌ في الحياة الطيّبة؟ نعم للدعاء آثارٌ كثيرةٌ، وهي آثار للحياة الطيبة نفسها، منها:

أولًا: الوصول الى رتبة النفس المطمئنة:

ممّا لا شك فيه أنّ الدعاء وسيلةٌ للتقرب الى الله، ووسيلة للتكامل الروحي والنفسي والإخلاقي، وبوساطة الدعاء يستطيع الإنسان أنْ يعرج الى الله، ويتكامل ويرتقي بنفسه الى أعلى مراتب السالكين، ويصل بها الى مرتبة النفس المطمئنة التي يأتيها نداء الملائكة عند الاحتضار: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾[الفجر:٢٧-٣٠] .

والوصول إلى هذه الرتبة السامية يحتاج إلى جهدٍ، وجهادٍ كبير، بل هو الجهاد الأكبر كما ورد في الروايات: "أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه"[١٩]. والدعاء ذكر، ووسيلة يبتغي من خلاله العبد الداعي الوصول الى طمأنينة النفس، ففي الزيارة المعروفة بأمين الله، وهي زيارة غاية في الاعتبار مروية في جميع كتب الزيارات: "اللهم فاجعل نفسي مطمئنةً بقدرك، راضيةً بقضائك، مولعةً بذكرك ودعائك"[٢٠]، فالإمام السجاد عليه السلام يدعو الله ويطلب منه سبحانه أنْ يجعل نفسه مطمئنةً، راضيةً، مولعةً بذكرك ودعائك.

وورد في دعاء أبي حمزة الثمالي، وهو من الأدعية المعتبرة أيضًا ويُتلى في أسحار شهر رمضان المبارك: "اسألك اللهم من خير ما سألك منه عبادك الصالحون، يا خير من سُئل، وأجودَ من أعطى، أعطني سُؤلي في نفسي... وأصلح جميع أحوالي، واجعلني ممّن أطلت عُمرهُ وحَسَنتَ عَمَلهُ.. وأَحييتهَ حياةً طيّبة في أدومَ السُّرُور، واسبغ الكرامة وأتم العييش، إنّك تَفعلُ ما تشاءُ ولا يَفعَلُ ما يشاءُ غيرك"[٢١].

ثانيًا: الدعاء، عزة، وقوة، ومنعة وعدة:

ورد في أكثر من حديث شريف روي عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام التعبير عن الدعاء بأنّه

(سلاح)، وأنّه (ترس)، فقد روي عن النبيّ ﷺ: "الدُعاء سلاحٌ، وعَمود الدين، ونور السماوات والأرض"[٢٢]. وروي عن علي عليه السلام: "الدعاءُ تُرسُ المؤمن"[٢٣]. وعن الإمام الرضا عليه السلام: "عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال: الدعاء"[٢٤].

ومن الواضح أنّ السلاح رمز قوة المؤمن في مواجهة الأعداء، فينبغي إعداد هذه القوة كما أمرنا الله بذلك: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾ [الانفال:٦٠]. كذلك الدعاء (سلاح، وترس، وقوة، وعدة) للإنسان المؤمن، وقد ورد في الأدعية الشريفة التعبيرعن الدعاء بالمفزع: "يا مَفْزَعِي عِنْدَ كُرْبَتي، وَيا غَوْثي عِنْدَ شِدَّتي اِلَيْكَ فَزِعْتُ، وَبِكَ اسْتَغَثْتُ، وَبِكَ لُذْتُ لا أَلُوذُ بِسِواكَ وَلا أَطْلُبُ الْفَرَجَ إِلَّا مِنْكَ، فَأَغِثْني وَفَرِّجْ عَنّي، وَرَضِّني مِنَ الْعَيْشِ بِما قَسَمْتَ لي يا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ" [٢٥].

والحياة الطيّبة، تستلزم هذه القوة والمنعة، والتي يستمدها ويطلبها الإنسان المؤمن من منبعها وهو الله سبحانه وتعالى، فيدعوه ويستغيث به، وهو عند حسن ظن عبده

ثالثًا: الدعاء يورث القناعة والرضا بقضاء الله وقدره:

القناعة: راحة نفسية، وصفة إيمانية، ومن أهم معالم الحياة الطيّبة، وقد ورد في تعريفها:

القناعة: الاجتزاء بالتيسير من الأعراض المحتاج اليها، يقال: "قَنَع يَقنعُ قَناعةً وقنعانًا" إذا رضي، وَقَنَعَ يَقنَعُ قنوعًا: إذا تسأل: قال تعالى: ﴿**وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**﴾[الحج:٣٦]، قال بعضهم: "القانعَ هو السائل الذي لا يلح في السؤال، ويرضى بما يأتيه عفوًا"[٢٦].

وعندما سئل الإمام علي عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[النحل:٩٧] قال: هي القناعة[٢٧].

ولا شك في أنّ هذا التفسير لا يعني حصر الحياة الطيّبة (بالقناعة)، بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضحة جدًا، حيث إنّ الإنسان لو أعطيت له الدنيا بكاملها، وسلبت منه روح القناعة، فإنّه والحال هذه سيعيش دائمًا في عذابٍ وألمٍ وحسرة، وبعكس ذلك، فإذا امتلك الإنسان القناعة وترك الحرص والطمع فإنّه سيعيش مطمئنًا راضيًا على الدوام.

وقد ورد في رواياتٍ أخرى تفسير الحياة الطيّبة، بمعنى الرضا بقسم الله، وهذا المعنى قريب الأفق مع القناعة[٢٨].

والقناعة تعني غنى النفس وأنّ يكون الإنسان متحررًا من أسر شهواته، قانعًا بما قسم الله، ولا يكون منقادًا لدنيا تسيره وتجعل منه عبدًا ذليلًا لأطماع لا تنتهي عند حد يقول الشاعر:

العَبْد حرٌّ إن قَنَعْ والحُرّ عبدٌ إنْ طَمَعْ

فأقنَعْ ولا تَطْمعُ فما شيءً يشينُ سوى الطَمَعْ[٢٩]

وعندما نعود الى أدعية أهل البيت عليهم السلام نجد التأكيد على صفة القناعة أو (قناعة النفس) بوصفها عنوان شخصية الإنسان الذي يعيش الحياة الطيّبة. جاء في مقاطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، وهو من أعظم الأدعية في هذا اليوم الشريف، وتصف الرواية حالة الإمام عليه السلام. ثمَّ اندفع في المسألة واجتهد في الدعاء، وقال وعيناه سالتا دموعًا:

"اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك، وأسعدني بتقواك، اللهم أجعل غناي في نفسي... الهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟"[٣٠].

رابعًا: الدعاء: كشف للفقر المطلق في ساحة الغني المطلق:

يستعمل مصطلح الفقر في القرآن الكريم على أوجه متعددة منها:

١ـ وجود الحاجة الضرورية: وذلك عام للإنسان ما دام في دار الدنيا، بل عام للموجودات كلها، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[فاطر: ١٥].

ومنها الفقر الى الله، وإيّاه عني بقوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾[٣١] [القصص: ٢٤].

فلو فسّرنا (الفقر) بالحاجة، فالله تعالى يعطي عباده بسبب فقرهم، بل يعطي الكون كلّه بسبب الفقر والحاجة إليه، فالإنسان والملائكة والجن والحيوان والجماد والنبات، كلهم يرزقهم الله بفقرهم وحاجتهم.

والفقر منازل رحمة الله سبحانه وتعالى، ورحمة الله تهبط عند الحاجة والفقر، فالطفل الرضيع حينما يجوع، يعطفا الله سبحانه عليه قلب أُمه فترضعه؛ فالفقر والحاجة من منازل رحمة الله سبحانه أدركها العبد أم لم يدركها.

ونحن نقرأ في الدعاء المعروف في شهر رجب: "يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأَله، ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة، أعطني بمسألتي إياك جميع خير الدنيا وجميع خير الآخرة"[٣٢]. وهكذا في دعاء الافتتاح الوارد في شهر رمضان المبارك: "فكم يا إلهي من كربةٍ قد فرجتها، وهموم قد كشفتها، وعثرةٍ قد أقلتها، ورحمةٍ قد نشرتها، وحلقةِ بلاءٍ قد فككتها"[٣٣].

فالله (عزَّ وجلَّ) يمّن علينا، وينزل علينا بركاته وخيراته ويفرج عنا كروبنا، ويطعمنا، ويشفينا، ويكسونا، ويشفينا، ويؤوينا، لا لشيء سوى فقرنا من جانب، وكرمه من جانب آخر. هذا هو عنصر الحاجة في (الفقر) فأننا محتاجون ومفتقرون إلى رحمة الله تعالى دائمًا وأبدًا فتنزل من قبله تعالى الرحمة علينا. إلا إنّ هنالك عنصرًا آخر في (الفقر)، وهو (وعي الفقر)، فالإنسان الواعي لفقره، يجتذب ويستنزل من رحمة الله ما لم يستنزله الفقر الذي لا يعيه صاحبه.

والإنسان على كل حال فقير الى الله بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[فاطر:١٥]. فإذا كان الإنسان يفقه فقره ويعيه يكون على بصيرة من أمره، ويستنزل من رحمة الله وبركاته في هذا المنزل، ما لا يستنزل له في منزل الفقر والحاجة المجردة من الوعي، ومنزل وعي الفقر أقرب الى الله من منزل الفقر.

وهنالك العنصر المهم في (الفقر) هو الدعاء، والذي يعني رفع الفقر الى الله سبحانه، ويعرض العبد فقره وحاجته على ربه، وذلك حينما يطلب من الله، ويسأله ويستغيث به، ويتوسل إليه تبارك وتعالى.

وهذه الحالة هي أرفع منازل العبد بين يدي الله، يكون فيها العبد من المضطرين إليه، والمحتاجين لرحمته يرفع إليه تعالى فقره وحاجته واضطراره بقوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[النمل:٦٢].

وهذا الآية المباركة تبين بشكل واضح كيف يرفع العبد فقره الى الله سبحانه في الاضطرار ويبثّه بين يدي ربّه، فالمضطر هو الذي يستنزل رحمة الله، ويستجيب الله تعالى له.

هـذه هـي العنـاصر الثلاثـة التـي يتألـف منهـا الدعـاء، بـل هـي قلـب الدعـاء وروحـه، ولولاهـا يكـون الدعـاء فقـط لقلقـة لسـان[٣٤].

والفقـر والغنـى وإنْ كثـرت الروايـات فيهـا بـين المـدح والـذم أو تفضيـل أحدهمـا عـلى الآخـر، ومحاولـة الجمـع بـين أخبارهـا والتـي قـد تبـدوا فيهـا بعـض التعـارض[٣٥]؛ إلا إنّ الأفتقـار الى الله سبحانه وطلـب الحاجـة منـه عـزة للإنسـان المؤمـن وصونًـا لكرامتـه ومـاء وجهـه مـن أنْ يـذل عنـد النـاس، و لهـذا يطلـب العبـد مـن ربـه ويتذلـل بـين يديـه، كـما جـاء في الدعـاء الـروي عـن أمـير المؤمنـين عليه السلام في نهـج البلاغـة: "اللهـم صُـنْ وَجهِـي باليَسَـارِ، ولا تبـذل جَاهِـي بالإقتـار، فأسـترزق طالبـي رزقـك. واسـتعطِفَ شرار خلقـكَ، وأُبْتَـلَى بحمـد مـن أعطـاني، وأفتتـن بـذم مـن منعنـي، وأنـت مـن وراء ذلـك كلّـه، ولي الإعطـاء والمنـع، إنّـك عـلى كلّ شيء قديـر"[٣٦].

وعنـد كلمـة سـيد البلغـاء في نهـج البلاغـة نتوقـف، وعـن شرح مفرادتهـا نحجـم؛ لأنّهـا واضحـة الدلالـة بليغـة المعنـى.

وبهـذا الحديـث ننهـي بحثنـا عـن أثـر الدعـاء والتـضرع في الحيـاة الطيّبـة، والله نسـأل حسـن التوفيـق والسـداد لحيـاة طيّبـة في الدنيـا، وعاقبـة حسـنة في الآخـرة، إنّـه سبحانه ولي التوفيـق والسـداد والحمـد الله رب العالمـين.

الهوامش

١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٩٣/ ٣١٨.
٢- ابن فارس، أحمد، معجم المقاييس في اللغة، ٣٥٦.
٣- راغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، مادة دعا.
٤- المكارم شيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ١/ ٥٣٢.
٥- م.ن، ١ / ٥٦٠.
٦- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: طيب.
٧- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٣١٣.
٨- م.ن، ٨/ ٣١٦.
٩- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ١/ ١٣١.
١٠- م.ن ، ٧/ ٤٧ بتصرف.
١١- الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: يرويها الكليني بإسناد، أصول الكافي: المجلد الثاني باب التفويض الى الله والتوكل عليه، الحديث: ٣.
١٢- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: أدعية شهر رجب.
١٣- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦/ ٥٦ وما بعدها.
١٤- البيضاوي، عبدالله بن عمر، تحفة الأمراء في شرح مصابيح السُنّة.
١٥- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال، حديث رقم: ٤٢١٢١.
١٦- الآمدي، عبد الواحدبن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ٨٤٢٥.
١٧- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١/ ١٩٤.
١٨- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، ١/ ٤٢٩.
١٩- الآمدي، عبد الواحدبن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة: ٣٢٣٢.
٢٠- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: ٥١٤-٥١٥، زيارة أمين الله.
٢١- م.ن، ٣٠٥-٣٠٦، من دعاء أبي حمزة الثمالي.
٢٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٤٦٨، الحديث الأول.
٢٣- م.ن، ٢/ ٤٦٧ الحديث الثامن.
٢٤- م.ن، ٢/ ٤٦٦ الحديث الثالث.
٢٥- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان: ٣١٣ دعاء يا مفزعي.
٢٦- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات الفاظ القرآن، ٦٨٥ مادة قنع.
٢٧- نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٩.
٢٨- المكارم الشيرازي، ناصر، تفسير الأمثل، ٨/ ٣١٨.
٢٩- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ٦٨٥ (الحاشية) مادة:قنع.

٣٠- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان، ٣٩٧ وما بعدها دعاء الإمام الحسين في عرفة.
٣١- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ٦٤؛ و المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٢/ ٢٦-٣١.
٣٢- القمّي، عباس، مفاتيح الجنان، أعمال شهر رجب، ٢٢٥.
٣٣- م.ن، ٢٨٢، أعمال شهر رمضان.
٣٤- الآصفي، محمد محمدي، الدعاء- وصلاة الليل، وآثارها على الفرد والمجتمع.
٣٥- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٢/ ٣١-٢٦.
٣٦- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ١١/ ٢٥٥.

المصادر والمراجع

* ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، لبنان، مطبعة دار إحياء التراث العربي.
* أبن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، لبنان- بيروت، الناشر: دار الفكر.
* ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب بن سعد، مدارج السالكين، بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) تحقيق: محمد البغدادي، بيروت- لبنان، مطبعة دار الكتاب العربي، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
* الآصفي، محمد مهدي، الدعاء- وصلاة الليل، وآثارها على الفرد والمجتمع حوار شامل، حاوره عبد الحسين خضير، قم، الناشر: انتشارات بخشايش، ١٤٣٤هـ
* الآمدي، عبد الواحدبن محمد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، بيروت- لبنان، الناشر: مطبعة دارالقارئ.
* البيضاوي، القاضي، ناصر الدين عبدالله بن عمر، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، الكويت، مطبعة ونشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
* الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن الفضل، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، قم، طبعة ذوي القربى، ١٤٣١هـ.
* الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، التفسير الكبير أو (مفتاح الغيب)، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، طبعة دار الفكر، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
* القمي، عباس بن محمد رضا، مفاتيح الجنان، قم، طبعة مؤسسة انصاريان، ١٤٢١هـ.
* الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، المجلد الثاني، قم، طبعة دار الكتب الإسلامية.
* المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مطبعة مؤسسة الرسالة.
* المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة والأطهار، ط٢، بيروت لبنان، طبعة دار احياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.
* المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، قم، طبعة مدرسة أمير المؤمنين، ١٤٢١هـ.

مكارم الأخلاق من حقيقة الوحي دُربة الإنسانية إلى التوحيد والعدل والحياة الطيّبة

د. محمود حيدر

أستاذ محاضر في الفلسفة والإلهيات / لبنان

ملخص البحث

تتغيا هذه الورقة تظهير الصلة بين الأسس الوحيانية التي تقوم عليها مكارم الأخلاق، ومبدأي التوحيد والعدل كأصلين من أصول الدين الخاتَم. والمقصود من هذه الغاية، لا المقارنة بين أمرين متناظرين - قد يُظن أنّهما على تباين وانفصال - وإنّما لتبيين هندسةٍ معرفيةٍ تقوم على واحدية القضية وتكاملها. مقتضى هذا الأمر، النظر إلى الأخلاق النبوية بوصفها رسالةً توجيهيةً وتدبيريةً تستظهر الاعتناء الإلهي بعالم الإنسان، وهدايته إلى كماله الوجودي وحياته الطيّبة.

ثمّة عروة وثقى تصل التوحيد بحقيقة البعثة النبوية وخاتميتها. وإنّ شرط الإيمان بهذه الواحدية، أمرٌ موقوف على إدراك البعد الوحياني لمكارم الأخلاق كقيمة عليا مؤسِّسة للدين الخاتم، ومتمِّمة لمقتضيات الوحي وقوانينه السارية على غير انقطاع في التاريخ البشري؛ لهذا قال فيها مولى الموحِّدين الإمام علي عليه السلام: "**إنْ الله جَعلَ مَكارِمَ الأخْلاقِ ومَحاسِنها وصلًا بينَنا وبَينَهُ**".

وعليه، ينظر بحثنا إلى مكارم الأخلاق بوصفها نظامًا نبويًا هاديًا للحياة الإنسانية وراعيًا لها. فللأخلاق النبوية المسدَّدة بالتأييد الإلهي، ماهيتَها الأصيلة والمفارقة في الآن عينه: هي من جهة، نافيةٌ لأخلاقيات العقل الدنيوي المحكوم إلى النسبية، والمسكون بالهوى والمنفعة والأنانية، ومن جهة موازية، عطاءٌ رحمانيٌ يفيض تخلُّقًا ورحمةً للعالمين. ومن أجل ذلك سنبتني رؤيتنا إلى مكارم الأخلاق بوصفها إعلانًا إلهيًا عن النبوة الخاتمة وكمال الدين. وتأسيسًا على ذلك يواصل البحث مسعاه إلى تأصيل نظرية معرفةٍ أخلاقيةٍ وحيانيةٍ تفلح في مواجهة التحديات الكبرى للإنسانية المعاصرة. ولتظهير هذه الغاية والتعرف على بواعثها سنحاول متاخمتها من ثلاثة أوجه: من وجهٍ أول، هي دعوة معرفية إلى التوحيد، ومن وجهٍ ثانٍ دعوة سلوكية تطبيقية تأخذ بنداء الشريعة وتلتزم به ظاهرًا وباطنًا. وهي من وجهٍ ثالث دعوة توجيهية اهتدائية قوامها الإقناع الرضي بالأمر الإلهي. ولقد ورد ما يشير إلى تلازم هذه المعاني الثلاثة كأركان أساسية في مكارم الأخلاق. كما في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**النحل - ١٢٥**].

وهكذا، جاز القول إنّ الآية المذكورة توحي إلى منهج بيِّنٍ للمعرفة الأخلاقية، قوامه ثلاث طرق متصلة ومتلازمة بغية الوصول إلى ما نسميه بقواعد علم التربية الوحيانية:

أ- طريق الحكمة، ومؤداه إقامة الخطاب مقام التناسب بين الموضوع والمخاطب. فلا يزيد ولا ينقص ممّا يقتضيه الموضوع وما هي عليه الجهة المخاطبة. وبذلك يكون اللقاء على أتمه بين الكلام المرسل وقابلية المخاطب للفهم والقبول للمخاطب.

ب- طريق الموعظة الحسنة، ويعني المخاطبة المسدَّدة بألطاف الكلام الإلهي ومقاصده. بها يستشعر المخاطَبُ صدق الذي يخاطبه؛ لأنّه قول منقول عن الله. وعلى هذه النشأة تكون الدعوة إلى سبيل الحق دعوة الحق بلسان العبد، فلا تخالطها أنانية الداعي وغرضيته.

ج-طريق الجدل الأحسن، ويعني إبداء الحجة والبرهان أمام المخاطَب على نحو اللطف والإحسان، لا على سبيل الاختصام والإفحام قصد الغلبة عليه.

١-في ماهية مكارم الأخلاق ومعناها وصفاتها

وجدنا أنْ ندخل إلى فهم مكارم الأخلاق بوصفها الأصل الذي منه كانت البعثة النبوية، لجهة انحصار مهمتها في هداية الإنسانية الجامعة إلى التوحيد الأكمل. وقوله ﷺ :"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". هو كشف للمقصد الأعلى من الرسالة. أي جلاء حقيقة التوحيد والعدل من خلال الكتاب الإلهي والشريعة المقدسة. فالمقصود الإلهي ممّا نُزِّل على النبي هو دعوة العالمين إلى توحيد الله، والارتقاء بهم من حضيض الجاهلية إلى كمال المعرفة. ما يشير إلى أنّ ثمّة تناسبًا لا تباين فيه بين ختم تاريخ النبوات التي بُعثت بها مع نبيّ الإسلام ﷺ وتمام مكارم الأخلاق رسولًا للعالمين. وذلك متحصلٌ منطقيًا، من أنّ الشيء حين يُختم يبلغ تمامه. ومكارم الأخلاق التي بعث النبي الخاتم ليتمِّمَها هي عين الخاتمية، وجوهرها كمال الدين، وكمال الدين معرفة الله. ولمزيد من استيضاح البنية المعرفية نتوقف عند طائفةٍ من صفاتها وركائزها:

لمكارم الأخلاق صفات تمنح لها بحسب مقاصدها وتنزلاّتها. ولنا أنْ ندرج بعضًا منها تحت عناوين مجملة سنمر على تفصيلها لاحقًا:

أولًا – إنّها صفة النبي نفسه، حيث بلغت به مآلها الأعظم، واستحق بها رتبة الآدمي الأكمل.

ثانيًا – إنّها صفة الإنسان الذي بعث من أجله النبيّ الخاتم ليتمم له إنسانيته. فإذا جرى هذا الإنسان مجراها، بالتصديق والتوحيد والإيمان والتخلّق حصَّل الحكمة. ومن علامات حكمته أنّه أنزل كلّ شيءٍ منزلته، فلا يتعدّى به مرتبته، وأعطى كلّ ذي حقّ حقّه، ولا يحكم في شيءٍ بغرضه ولا بهواه، ولو تدرَّج الإنسان بالسير والسلوك والمجاهدة والتعقُّل اتسعت آفاق نفسه، وتهيّأت لتلقي المعارف الإلهية والعلوم اللدنية التي بها ترتقى نفسه إلى الملأ الأعلى بعناية الله وتسديده. وهذه الحكمة – المركبة من العلم والعمل – هي تلك التي يُعبَّر عنها تارة بالقرآن، وتارة بالنور، وهي من فضل الله يؤتيها من يشاء، ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة-٢٦٩].

ثالثًا – إنّ مكارم الأخلاق هي صفة للصراط المستقيم. فمن مشى على الصراط والاستقامة، فأدركها بالتقوى والورع والزهد. فمن اتقى الله علمه الله وأدخله في درعه الحصين، وجعل له نورًا يمشي به في الظلمات. كما تعبّر الآية الكريمة: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾ [الأنعام-١٢٢].

رابعًا – إنّها صفة الأمة الوسط، التي قال الله فيها مخاطبًا نبيه: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ** ﴾ [آل عمران-١١٠]، ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة-١٤٣].

خامسًا – إنّها صفة للأبعاد المعنوية الباطنية التي تختزنها الشريعة المقدسة. وهي الأبعاد المتممة للبعثة النبوية.

سادسًا – إنّها الصفة التي يظهر فيه قول أهل العصمة على تمامه حين أشاروا إلى مبدأ (الأمر بين الأمرين) كمبدأ مؤسس لعلم التوحيد، والتعرُّف إلى العدل الإلهي في خلق العالم. فإذا كانت غاية ختم النبوّة حفظ مختزنها الإلهي بالمكارم، فقد تحصَّل لدينا السبيل إلى التوحيد والعدل على الوجه الأتم. وكان لنا من هذا السبيل الوقوف على أرض الاعتدال الأكمل لنميّز وجه اللطف والتدقيق بين الإفراط والتفريط وبين الجبر والتفويض، وبين القضاء والقدر.

والأمر بين الأمرين هو نفسه ما قيل في معنى الصراط والميزان والحكمة البالغة. وهو نفسه كذلك، الأمر الوسط الذي تتجلى فيه مكارم الأخلاق كغاية عليا للشريعة المقدسة.

وأنى تكن صفات المكارم ونعوتها، فقد كثرت الأحاديث في تحقيقها وبيان حدّها وتعريفها، إلا إنّها آيلة إلى الغاية من الإيجاد الإلهي للإنسان. وإلى هذا، ما كان للنبي الخاتم أنْ يعين مبدأ بعثته المقدسة ومنتهاها بمكارم الأخلاق، لولا ارتباطها بالغرض الأصلي من إيجاد الإنسان. فلو تقرر أنّ الغاية الإلهية من إبداع النوع الإنساني إستخلافه في الأرض، عرفنا العلّة الأصلية من وراء خلقه، وهي معرفة الخالق. وباصطفاء محمد صلى الله عليه وآله نبيًا خاتمًا، وهاديًا، ورحمة للعالمين، يكون قد خَتَمَ سبحانه شريعته في العالمين وتمَّمها بمكارم الأخلاق. ثم لتستأنف من بعد المصطفى صلى الله عليه وآله حركتها الهادية عبر ورثة الحقيقية المحمدية من أئمّة الهدى وصولًا إلى الحجة البالغة.

يقتبس المحدِّث الحسن بن محمد الديلمي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، وهو الإمام الخامس في سلسلة أئمة أهل البيت عليهم السلام ما يفصِّل الأركان التي تنبني عليها مكارم الأخلاق النبوية قوله: "إنّ من آداب المؤمن حفظ الأمانة، والمناصحة، والتفكر، والتقية، والبر، وحسن الخلق، وحسن الظن، والصبر، والحياء، والسخاء، والعفة، والرحمة، والمغفرة، والرضا، وصلة الرحم، والصمت، والستر، والعفة، والرحمة، والمغفرة، والمواساة، والتكريم، والتسليم، وطلب العلم، والقناعة، والصدق، والوفاء، والعزم، والنصفة، والتواضع، والمشاورة، والاستقامة، والشكر، والحياء، والوقار". ثم ذكر الخصال التي يجب على المؤمن تجنّبها، وهي: "البغي، والبخل، والدناءة، والخيانة، والغش، والحقد، والظلم، والشره، والخرق، والعجب، والكبر، والحسد، والغدر الفاشي، والكذب، والغيبة، والنميمة، والمكايدة، وسوء الظن، ويمين البوار، والنفاق، والمنّة، وجحود الإحسان، والعجز، والحرص، واللعب، والإصرار، والقطيعة، والمزاح، والسَّفَه، والفحش، والغفلة عن الواجب، وإذاعة السر"[1].

سنجد في الحكمة المتعالية للحكيم الإلهي صدر الدين الشيرازي تأصيلًا إماميًا للحديث النبوي: "إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". جاء فيه ما يلي: "وكما أنّ للإنسان صورة ظاهرة، حسنُها بحسن الجميع واعتداله، وقبحها بقبح البعض فضلًا عن الجميع، وكذلك صورته الباطنة فإنّ لها أركانًا

لا بد من حسن جميعها حتى يحسن الخلق وتحصل الحكمة والحرية. ثم وضع لها أربعة معانٍ هي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العقل، فإذا استوت هذه الأركان الأربعة التي هي مجامع الأخلاق التي تتشعب منها أخلاق غير محصورة اعتدلت وتناسقت وحصل حسن الخلق. أما قوة العلم فأعدلها وأحسنها أنْ تصير بحيث تدرك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأعمال، فإذا انصلحت هذه القوة واعتدلت من غير غلو وتقصير، حصلت منها ثمرةٌ هي بالحقيقة أصل الخيرات ورأس الفضائل وروحها. ومعنى حسن الخلق في جميع أنواعها الأربعة وفروعها هو التوسط بين الإفراط والتفريط، والغلو والتقصير، فخير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ومهما انحرف بعض هذه الأمور عن الاستقامة إلى أحد الجانبين لم تتم مكارم الأخلاق. وممّا يجب أن يُعلم في هذا المقام أنّ قوة النفس غير شرفها كما أشير إليه وكلّ منهما قد يزيد في الآخر، وقد يتفق لوازمها. أما إنّ كلًّا من شرف النفس وقوتها قد يزيد على الآخر فلأن الشجاعة مثلا قد تصدر لكبر النفس واحتقار الخصم واستشعار الظفر به، وقد تصدر لشرف النفس والترفع عن المهانة والذلة، حيث النفوس الشريفة تأبى مقارنة الذلة، وترى حياتها في ذلك موتها، وموتها فيها حياتها"[٢].

٢ – في فهم ما يُقصد من تتميم مكارم الأخلاق

نرانا لا نجد من فصل بين ختم النبوّة وتتميم مكارم الأخلاق في محضر البحث عن معنى ومقاصد قول النبي ﷺ في الحديثين الشريفين: "**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**"، و"**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**". الحديثان متصلان ومتلازمان ويؤلفان وحدةً قوليةً لا تباين في وحدتها. فالنبي من حيث هو خاتم النبوة هو فاتح الولاية، لجهة أنّ الختم والفتح مرتبتان إلهيتان تنتظمان حقيقة البعثة المحمدّية، في مستهلها وختامها. وعلى قاعدة الإتصال والتلازم بين ختم التشريع وفتح الولاية تتحول الولاية إلى (نبوّة عامة) تستأنف حقائق (النبوة الخاصة)، وتنقلها إلى حقيقة هادية للعالمين. ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء-١٠٧].

ها هنا تستوى لدينا الخطوط المؤسسة لواحدية النبوة والولاية. فالنبيّ الخاتم هو الولي الفاتح. وهو جامع الحقائق الإلهية والحقائق الكمالية الإنسانية في آن. وهذا هو ما يصطلح عليه أهل

الحكمة بـ (الحقيقة المحمدّية). فلهذه الحقيقة المحمدية – كما يبيِّن الشيخ ابن عربي – الفردية الأولى؛ ومن هذه الفردية تفرعت الفرديات في جميع المراتب المعنوية والروحانية والإلهية والكونية وغيرها. ويقول: "إنّما كانت حكمته ﷺ فردية؛ لأنهّ أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولهذا بُدِئ به الأمر وخُتم، فكان نبيًا وآدم بين الماء والطين، ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين". ثم كانت له الفردية الجامعة بين البدء والفاتح والختام الواضح ونبوّة روحانيته بالكمال الراجح"[٣].

وبهذا المعنى لا تعود مكارم الأخلاق مجرّد رتبةٍ أو طورٍ في البعثة النبوية، وإنّما هي وعاء لا متناهٍ يشمل النبوّة والولاية معًا. فالختم هنا داخلٌ في التميم دخول الكلّ في الكل. ثم ليغدوا معًا شأنًا واحدًا في حقيقة إلهية جامعة. فالأخلاق متضمنة الشريعة، والشريعة متضمنة مكارم الأخلاق، حتى ليمسي هذا التضمين المتبادل إعرابًا بيّنًا عن وحدة مقاصد الغيب في البعثة المحمدية الشاملة. إذن، فنسبة مكارم الأخلاق إلى الشريعة المختومة، هي كنسبة الحقيقة إلى الشريعة. كلاهما يستبطن الآخر ويدل عليه. فالمكارم هي العطاءات التي تقدمها الشريعة لتبلغ تمامها، ثم لتعود تلك العطاءات لتغذيها باللطف والتسديد والتأييد وجمال التدبير. وبهذه المنزلة التي لمكارم الأخلاق يعرج الآخذ بالشرع من مقام الإقرار بالتوحيد إلى مقام التصديق به. وبمثل هذا العروج يتحقق المصدِّق بمكرمة الصدق التي تشكل الفتح الأعظم باتجاه التوحيد الأكمل. فلو أفلح المتخلِّق بالصدق بلغ القرب، ولو بلغ القرب كانت له الولاية، وحظي قدر سعته من علم الكتاب، ثم ليندرج بحق في منازل الحقيقة المحمدّية.

ولكي نتبين مقام الصدق في تحصيل التوحيد الأتم، تزودنا الآيات والأخبار بما لا حصر لفضائله. فهو أشرف الصفات التي على الموحِّد الأخذ بها لتصديق توحيده. والمخاطبة الإلهية صريحة في هذا المقام:

- ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب-٢٣].
- ﴿ **اتَّقُوا اللهَّ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة-١٢٠].
- ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات-١٥].

- ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾[البقرة-١٧٧].

وقال الرسول ﷺ: "تقبَّلوا إليّ بست أتقبّل لكم بالجنة: إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أئتمن فلا يخن، وغُضُّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم". وقال: "إنّ الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقًا"، وقال: "لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، ولو تركه لاستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته"، وقال ﷺ لبعض أصحابه: "انظروا إلى ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله، فالزمه.. فإنّ عليًا عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الأمانة"(٤).

والصدق – كما ينظر إليه العرفاء – على ثلاثة أركان بعضها من بعض: صدق النية، وصدق اللسان، وصدق العمل. وهذا التقسيم الثلاثي لمعنى الصدق مبعثه الإيمان الأعلى المسدد بالتخلّق. فأمّا صدق النية فهو أنْ يبديها القلب خوف عقاب، أو رجاء ثواب، ولا يريد الصادق بصدقة غير الله عز وجل. فإنّها بذلك حاصل يقين لاشِيَةَ فيه، بأنّ الحق يرى المضمرات ويعاين الضمائر المستترة. وصدق اللسان، فهو أنْ يطلقه إذا قام له شاهد من الحقّ، وكان التخلّف عن اللفظ وهنًا في صدقه. وهذا أيضًا عين التخلّق؛ لأنّ بوح الصادق ممسوكٌ بالتقوى، فإنّه لا يتلفظ بعبارةٍ ما لم يكن على درايةٍ بموافقتها الشيء المصدّق له.

وأمّا صدق العمل فيقوم على الإقبال الطوعي على ما عزم عليه بترك روح النفس، حتى يصير إلى ما عزم عليه من العمل، فيتمُّه بالحرص عليه، والانكماش، لا يقطعه عنه قاطع ولا يمنعه عنه مانع. وأصل صدق العمل عائد إلى فعلية التخلّق، حيث تصير الأخلاق الفاضلة بالنسبة لفاعلها ملكةً راسخةً في نفسه الفاضلة. ومتى صارت كذلك حثّت صاحبها على المجاهدة لبلوغ مقاصدها حتى لتزيده مشقة المجاهدة حرصًا على المضاعفة(٥).

ولمّا أنْ استوت مكارم الأخلاق على ما مرّ من أركان الصدق، فلا مناص لها لكي يترسخ استواؤها في نفس المتخلّق من اقتران العمل بالعلم. فإنّ أصل الصدق العمل به فضلًا عن التعرّف إليه. أي تعرّف الصادق على مكرمة الصدق بما هي مظهر من مظاهر التوحيد. فإنّ أصل الصدق المعرفة. لأنّك لا تصدِّق إلا من تعلم أنّه يراك ويسمعك، وهو قادر على

عقوبتك، وعلمك أنّه لا ينجيك منه إلّا الصدق له. فوقع حينئذٍ الصدق ضرورة. فالمعرفة أصل الصدق، والصدق أصل لسائر أعمال البر، وعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر. ومن قلة المعرفة بقدر الصدق ومنافعه ومواريثه وضعف اليقين. فإذا ضَعُفَ اليقين وَهْن الصدق، وقلت الرغبة، فلم يحتمل مؤن الصدق لما غُيب عنه من عذوبته، وقد قال تعالى: ﴿ **فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾ [محمد-٢١] فضمن لهم الخير بالصدق(٦).

ومن أجل هذا، صح القول: إنّ الصدق متى كان ثمرة التخلّق المتصل بالإيمان الأعلى، صار لصاحبه مقامًا، وحصيد هذا المقام الإخلاص، والإخلاص نظير القرب، ونظير القرب مقام العبدانية، وهو مقام الأنبياء والأوصياء والأولياء المقربين. وعلى هذا المقام استوى الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ فكان له من الرب شهادة العبد ﴿ **إنّك لعلى خلقٍ عظيم** ﴾، فقد نال النبي الأكرم لعظمة خلقه أعلى مراتب الدنو من الحضرة المقدسة. ﴿ **وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى *ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى *فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** ﴾ .[النجم-٧-٨-٩-١٠-١١].

لقد درج أغلب المفسرين على عدّ الآية الكريمة: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل - ١٢٥**]، تذكر طرقًا ثلاثة للدعوة على وجه العموم هي: (الحكمة) و(الموعظة الحسنة) و(المجادلة الحسنى)؛ وهذا التقسيم يوافق نظرتنا الى العقل، ذلك أنّ العقل عندنا على مراتب ثلاث: أعلاها (العقل المؤيّد) الذي يختص به صاحب الحكمة، وأوسطها (العقل المسدد)، ويختصّ به صاحب الموعظة الحسنة، وأدناها (العقل المجرد)، ويتميز به صاحب المجادلة الحسنة٢(٧)، إلا أنّ الدعوة إلى إحياء أخلاق الإسلام، وهي دعوةٌ خاصة، لا تكون إلاّ بالعمل، ويكون العمل في مرتبة الحكمة وصفًا قائمًا بصاحبها، أي حالًا دائمًا له، ويكون في مرتبة الموعظة الحسنى فعلًا حاصلًا لصاحبها من غير دوام؛ أما المجادلة الحسنى، فلا عمل فيها، إذ هي تجريد محض، فلا تكون طريقًا مستقلًا في الدعوة إلى رجوع الإسلام، وإنّما هي وسيلةٌ يستعان بها في بيان الحكمة والموعظة الحسنى أنفسهما متى وقع الاعتراض عليهما؛ وقد أشار

فخر الدين الرازي في التفسير الكبير إلى إمكان قصر الدعوة على الطريقتين الأولين من غير أنْ تكون نظرتنا إلى (المجادلة الحسنى) هي عين نظرته إليها، إذ حملها على المعنى الخاص المنقول عن اليونان، وهو (الإلزام والإفحام)، ونحن نحملها على معنى (العقل المجرَّد) في عمومه؛ وسنرى في موضعه كيف أن كثيرًا من الدعاة اليوم انتهوا إلى حصر الدعوة في المجادلة الحسنى باتباعهم طريق التجريد فيها، تأثرًا بمسلك خصومهم، فارتكبوا بذلك خطأين: أحدهما أنّهم جعلوا ما ليس طريقًا في الدعوة إلى عودة الإسلام طريقًا فيها؛ والثاني،أنّهم استغنوا به عن غيره ممّا هو أولى أنْ يكون طريقًا في هذه الدعوة.

وما يستظهره الأدب العرفاني من مقاماتٍ ومدارج لأرباب السير والسلوك يفضي الى التموضع في مقام الأخلاق. فهو المقام الجامع للمقامات العرفانية على الحملة كما تفصح المرجعيات المعجمية للأدب العرفاني. نقرأ- على سبيل المثال- في الرسالة القشيرية[٨] بيانات عن تسعة وأربعين مدرجًا ومقامًا تشكل بمجموعها المراتب التي ينبغي أنْ يقطعها العارف للوصول الى مقام مكارم الأخلاق وهي: التوبة – المجاهدة – الخلوة والعزلة – التقوى – الورع – الزهد – الصمت- الخوف – الرجاء – الحزن – الجوع وترك الشهوة- الخشوع والتواضع – مخالفة النفس – ترك الحسد – ترك الغيبة – القناعة – التوكل – الشكر- اليقين – الصبر – المراقبة – الرضا – العبودية – الإرادة- الاستقامة – الإخلاص – الصدق – الحياة – الحرية – الذكر – الفتوة- الفراسة – الخلق – الجود والسخاء – الغيرة – الولاية – الدعاء – الفقر – التصوف – الأدب – أحكام السفر – الصحبة – التوحيد – الخروج من الدنيا – المعرفة بالله – المحبة – الشوق – حفظ القلب – السماع[٩].

لعل أوّل وصف وحياني للنبي هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وإنّك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم-٤]. وعن العارف بالله أبي علي الدقاق أنّ الله تعالى خصَّ نبيه ﷺ بما خصّه به، ثم لم يثنِّ عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه. وقال الواسطي: وَصَفَه تعالى بالخلق العظيم؛ لأنّه جاد بالكونين، واكتفى بالله تعالى، وقال أيضًا: "الخلق العظيم ألّا يخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله"[١٠]. وفي شرحه لقوله تعالى: ﴿ **وثيابك فطهِّر** ﴾ [المدثر-٤] يقول

الحسن البصري بأنها تعني: "وخلقك فحسِّن"[١١]. ولما كانت صفة الإنسان الأكمل مخصوصة في إيمان المسلمين بالنبي محمد بن عبد الله ﷺ، فذلك يعني أنّ نبوّته الخاتمة هي علمٌ متفرِّد بذاته تنزَّل عليه وحيًا ليهتدي به الناس الى الحق في دنياهم وآخرتهم.

٣ - مكارم الأخلاق بين النبي الخاتم والولي الخاتم

من مكارم الله تعالى على العالمين أنْ خصَّهم بالنبي الخاتم وورثته من الأوصياء والأئمة والعلماء الربّانيين. وذلك لكي يبين لهم الحجة البالغة التي بها يدركون سعادتهم الدنيوية وخلاصهم الأخروي. والحجة البالغة هي المقصد الأعلى للنبوّة الخاتمة التي قال النبي الأكرم فيها بأنها تمام مكارم الأخلاق. ولئن كانت الحقيقة المحمدية هي الترجمة الإلهية للتطابق بين سُنّة التكوين وسُنّة التشريع، فتمام مكارم الأخلاق إنّما هو حاصل هذا التطابق المفضي إلى وحدة الغيب والشهادة. وتحقق هذه الوحدة، قيامُ الأوصياء والأولياء بعد ختم النبوة بمهمة إستكمال رسالة الوحي في التاريخ البشري وإعمار الأرض على نصاب القسط والعدل. فالسعادة التامة الخالصة – كما يبيِّن الحكماء – هي مهمة يتولاَّه أهل القرب من الحضرة الإلهية. وهؤلاء هم الذين جمعوا صراط التكوين إلى صراط التشريع، فكانت لهم مكارم الأخلاق نقطة الجمع والإلتقاء لينجز الله بوساطتهم سعادة الدارين. ولما كان الصراط التكويني هو الهندسة الإلهية الكلية لنظام الكون، وهو النظام الحافظ للوجود والمحيط بكل شيء، فإنّ الصراط التشريعي هو الوحي الذي تنزل على قلب النبي وظهر في قوله وعمله، لينتظم حياة الإنسان ويبيّن له الحدود الفاصلة بين الخير والشر، وبين الجميل والقبيح. ولأنّ الصراطين يعودان إلى أصلٍ واحد، هو وحي الله إلى نبيه الخاتم، فقد تجلّى هذا الأصل بالختم والفتح معًا. فهو ختم للنبوّة الظاهرة. وفتح للنبوة الباطنة وهو الولاية الحافظة لأمر الله ووحيه وسنّة نبيّه، وهي المتمِّمة من بعده مكارم الأخلاق التي بعث من أجلها.

يجمع العلماء الربانيون على أنّ الولايةَ تظهير مستأنف لباطن النبوة. وبهذا التظهير تكتمل الهندسة المعرفية التي تترجم الحضور الإلهي في الزمن البشري. ولئن كان الاستئناف دالًا على حركة بعد توقف لغةً واصطلاحًا، فهو في جدلية العلاقة بين النبوة والولاية يتخذ معناه

الخاص، ليشير إلى التواصل الباطني الذي ما انفك برهة عن الفعل. فَمَثَلُ هذا التواصل كَمَثَلِ حركة في الجوهر تنتظر من يدفعها الى الظهور لتقوم بمهمة توصيل معارف الوحي ومقاصد الشريعة الى الأفهام على امتداد الأزمنة المتعاقبة. ولما ذهب الأئمّة عليهم السلام وتبعُهم أكابر العرفاء إلى الأخذ بهذه الحقيقة، فقد كانوا على يقين لا شبهة فيه، من أنّ حقيقة الإيمان بالتوحيد يعادل الإقرار بالولاية، وأنّ التوحيد والولاية أمران لا ينفصلان، وأنّ الولاية هي الدليل على تجلّي الأسماء والصفات والأفعال الإلهية في كل طور من أطوار التوحيد.

تبعًا لما ذُكر تكون الولاية عنصرًا ذاتيًا من عناصر ختم النبوة. فالولي هو خليفة النبي، ومبيّن الشريعة من بعده، وهو الذي يتولّى صيرورة الدين الخاتم بعد ارتحال نبيّه إلى غاياته ومقاصده. بل إنه يؤكد بتبنّيه لأحكام الدين، استمرار الصلة بعالم الغيب في عهد انقضاء النبوة. ولأجل ذلك تحظى الوراثة النبوية التي للولي والوصي بدور حلقة الوصل بين الحق والخلق.

والتأسيس الرحماني للولاية، حاضر بالمجمل في الخطاب الإلهي: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ [المائدة- ٥٤] وفي التفسير أنّ الولاية هي لله بالأصالة، وللرسول وللمؤمنين بالتبع. فيكون التقدير كما في التفسير: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾. ليكون في الكلام أصل وتبع. ولا يخفى على المتأمل أن المآل واحد"[١٢].

ولما كانت الولاية واحدة ذات مراتب وفقًا لمبدأ التراتب الطولي القرآني، فلسوف تكتسب منازلها المتعددة صفة الأصالة المُفاضة عليها من لدن الولي الأعظم تعالى.

وتبعًا للإخبار الإلهي في ما جاءت به آية الولاية، سنكون أمام هرم وجودي يتوقف على فهمه وإدراك معانيه، عرفان جميل صنع الله ولطفه بخلقه.

من هذا النحو تتمظهر منازل الولاية على ثلاث مراتب وجودية هي: ولاية الله – ولاية النبي – ولاية الولي.

المرتبة الأولى – ولاية الله: وهي الولاية الحقيقية المطلقة، وتكون بالأصالة للولي الواحد الأحد على العالمين. وفي القرآن المجيد من الآيات البيّنات ما يشير إلى الأصالة الإلهية لولاية الله. وإنّ الله تعالى سمّى ذاته المقدسة بالولي؛ لأنّه المهيمن بأسمائه وصفاته على كلّ شيءٍ كما في

قوله تعالى: ﴿ **مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف- ٢٦]. وقوله: ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ** ﴾ [الشورى- ٩]. فالولاية له تعالى خاصة على الناس أجمعين، وهو الذي يعين للناس من يتولّى أمورهم.

المرتبة الثانية - ولاية النبي: وهي من الله. أي إنّها امتدادٌ لولايته تعالى ومن أمره، ولأنّ ولايته تعالى محيطة بكلّ شيء، ومدبّرة لنظام الخلق، وبسُنَنِها تنتظم هندسة الكون، فولاية النبي الخاتم ﷺ المستمدة من الرحمانية هي - بهذه الصفة الاستمدادية - ولاية للعالمين. ولكونها كذلك، فهي ظهورٌ لمشيئة الله وإرادته في عالم الإنسان: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأنبياء**- ١٠٧]. فهي إذن رسالة لجميع الناس وولاية الرسول حاكمة على العالمين، ومظهرةٌ للدين القيّم. كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [**سبأ**- ٢٨].

المرتبة الثالثة - ولاية الولي: وهي متصلة بالولايتين الأولى والثانية، وبها تتجلّى الحقيقة المحمدية في عالَمي الغيب والواقع، ومن خلالها يكشف الحق عن عنايته بشؤون الخلق. فإنّ أولياءه هم المكلَّفون بالمعاينة والمتابعة وحفظ الكتاب. وولاية الولي مصرّح عنها في القرآن الكريم بوجود شاهدٍ على المسلمين يتلو رسول الله: ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** ﴾ [**هود**- ١٧].

ومعنى (يتلوه) أي يخلفه، ومعنى خلافته له هو قيامه مقامه في كلّ شيءٍ ما خلا النبوة التي ختمت به ﷺ. ولقد عين الله سبحانه هذا الشاهد بالإشارة والوصف، فوصفه تارةً بأنّه من رسول الله كما في الآية. ووصفه تارةً أخرى، بأنّ عندَه - أي الولي - من عندِه (جلّ شأنه) علم الكتاب كما في الآية: ﴿ **قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ [**الرعد**- ٤٣]. وبهذا التقدير الإلهي سنجد كيف يحدد القرآن الكريم الإطار المعرفي لحركة الإنسان في الزمان التاريخي. وهو ما تظهره الآية: ﴿ **يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [**النساء**- ٢٦].

وإذا كانت المعرفة البشرية قد وضعت فهم التاريخ وحركته ضمن جدالية الحرية والضرورة، فقد انطوت الآيات على قوانين مقدّرة في إطار السنن الإلهية الكلية التي لا تقبل التبديل والتحويل.

من أجل ذلك لاحظنا كيف أنّ الآيات تختزن المقاصد الإلهية في البيان والبرهان والتعليم والتنبيه والتبشير والإنذار. وهذه المراتب كلّها على الجملة تجتمع في المقصد الأعلى الذي هو الهداية بمكارم الأخلاق. وبهذا نستطيع فهم مندرجات التدخل الإلهي في تاريخ الخلق. وهو تدخل يقوم على الدعوة إلى إدراك الواقع بما هو واقع، مثلما يقوم على الحثّ الإلهي نحو تغيير هذا الواقع.

وقد يكون الوجه الأكثر دلالةً وعمقًا للتدخل الإلهي هو الاعتناء والتدبير واللطف. فالدعوة الإلهية إلى التغيير التاريخي غير مقصورة على توفير عامل القوة لدرء الفساد في الأرض، وإنّما أساسًا على دعوة الإنسان إلى إجراء مراجعة أخلاقية معرفية في عالم المفاهيم والأفكار والثقافة التي يحملها. كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [**الرعد- ١١**]. وما ذاك إلّا لأنّ النقلة الحضارية من دائرة الفساد إلى فضاء العمران لا تبلغ غايتها من دون سياق تفكيري وسلوكي وأخلاقي يناسب ما قصدته الآية الكريمة: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ .[**محمد- ٧**] كما لو أنّ ثمّة تقابلًا شرطيًا بين الانتصار لله والانتصار للخلق١[١٣].

ولما كان الأمر كذلك، فإنّ مقتضى هذا التقابل الشرطي يكون في تحصيل التناسب بين إرادة الفاعل واستعداد القابل. وما ذاك أيضًا إلّا لأنّ التناسب والقيام على الصراط هو الذي ينجز العروة الوثقى بين الرب والعبد. فلو تعقل العبد اجتماعه وقانون الزمن الذي هو فيه، وعمل وفقًا لأحكام الشريعة المقدّسة، وكان من المتقين، لقابَلَه الشارع الأعظم بالاستجابة وسدّد أعماله وأيّده بالنصر.

٤ – تمام التخلُّق الرجوع إلى المبدأ

منتهى معراج المتخلِّق الواصل في رحلة التكليف لإصلاح عالم الكثرة، هو العودة الى المبدأ. وما دام كلّ أمرٍ متعلق بتوحيده تعالى فلا مناص من الرجوع اليه في كل شأنٍ متعلقٍ بتدبير الاجتماع الإنساني. وهو ما يبيّنه الموحّدون في قولهم: "إنّ النهايات هي الرجوع الى البدايات". وهذا القول يترجم أصل الميل والعشق لكلّ مخلوقٍ للرجوع الى أصله ومبدئه. وبعبارةٍ أخرى هو أصل عودة كلّ غريب الى وطنه. ويعتقد الأولياء أنّ هذا الميل الى المبدأ يشمل كلّ ذرات الوجود ومنها الإنسان، ومهمة التكليف الإلهي تظهير هذا الاعتقاد من خلال الإرادة والعزم

على أداء المهمة. والإرادة عند الأولياء تعدّ أول منازل السير الى الله عبر إصلاح شؤون الخلق. فلا فصل بين عبادة الحمد والتنزيه لله الواحد الأحد الصمد، وبين فعلية العبادة في الاجتماع الانساني. حيث تتمظهر اسماء الله وصفاته وأفعاله كشواهد وموازين في أعمال الناس وتجاربهم. وعلى هذا يجد السالك إلى الحق بمكارم الأخلاق، إنّه أمام مقتضيين، ينبغي له الأخذ بهما وهو يمضي في مسار التكليف:

ـ المقتضى الأول هو الخطاب الإلهي، وقوامه أنْ يعلم أنّ الحق يخاطبه في كلّ شيء، وأنّ هذه المخاطبة مستمرة باستمرار حياته، وأنّ نص هذا الخطاب إنْ حُفِظَ رسومًا في الصحف المطهرة، فمعانيه مودعة في نفس المكلف وفي الأكوان من حوله: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت- ٥٣]. وأنْ يعلم هذه الأكوان ما قامت ولا استقامت إلّا بهذه المعاني الإلهية التي على المكلف واجب طلبها، والتعرف عليها والتقرب بها إلى حضرة الله.

ـ المقتضى الثاني هو الرؤية والمراقبة، ومؤداهما أنْ يعلم المكلف أنّ الله يراه رؤية لا تنقطع، وأنّ هذه الرؤية، إنْ جاءته بالرضى عن أفعاله سعد سعادةً لا يشقى بعدها، وإنْ جاءته بالسخط شقي شقاوةً لا يسعد بعدها، وبذلك فهو مطالب بأنْ يراقب نفسه ويراقب الله في كلّ أفعاله.

ومن هذين المقتضيين الإجماليين، تتفرع ثلاثة مقتضيات تفصيلية تفترضها شروط العمل في ميادين التجربة التاريخية وهي (الاشتغال بالله)، و(التعامل مع الغير). و(التفاعل مع الاشياء او مع سائر الموجودات).

ـ في المقتضى الفرعي الأول يدرك المكلَّف أنّه مخلوق للاشتغال بالله، وأنّ الاشتغال بغيره ينبغي أنْ يذكره بالله دائمًا وأبدًا. فما يعقل المكلف شيئًا إلّا ويجعله هذا الشيء يعقل أمر ربّه فيه.

ـ في المقتضى الفرعي الثاني، أي التعامل مع الغير، فإنّ المكلَّف يأتي أعمالًا لصالحه يبنيها على اعتقاداته مُقِرًّا لغيره في ذات الوقت بحق الاتيان بمثل هذه الأعمال الصالحة، وبحق توجيهها بما عنده من اعتقادات، كما يرتب المكلَّف هذه الأعمال جميعًا بحسب ما يقتضيه الصالح العام.

ـ أما الثالث فهو مقتضى التفاعل مع الأشياء. ففيه يتجّه المكلَّف الى الموجودات من حوله قصد إرضاء حاجاته المشروعة، وحفظ حياته المادية، فيفعل فيها ويتصرف بها بحسب هذه

الأهداف، كما تفعل فيه هذه الموجودات هي الأخرى، وتؤثر فيه بما يوافق هذه الأهداف أو يعارضها ـ فتقوم بينهما علاقات الأخذ والعطاء والتأثر والتأثير[١٤].

بذلك تدخل مكارم الأخلاق دخولًا بيِّنًا في صميم هذه المقتضيات، سواء ما تعلق منها بالمستوى الإجمالي لجهة صلة المكلف بالحق الأول، أم ما يتعلق منها بالمستوى التفصيلي لجهة صلة المكلَّف بمنعطفات وتعقيدات وشواغل الاجتماع البشري.

يكون تمام مكارم الأخلاق إذن، بالتوحيد الخالص؛ ولذا فلا مناص لبلوغ التوحيد الحق من اتبِّاع الأدب الخالص مع الله تعالى. فلو عرفنا أنّ أصل العبادة حسن التأدّب، وختامها حسن التخلّق، سوف نهتدي إلى التعرف على مسار النبوات والعلل الإلهية التي حكمت اصطفاء النبيين. فلمّا أنْ تحقَّق النبي الخاتم بالأدب التام الخالص بلغ سدرة المنتهى، وكان من العرش قاب قوسين أو أدنى. فعلم نفسه وحقيقة نبوته بتأديب المولى الأعلى فكان قوله ﷺ: (أدّبني ربّي فأحسن تأديبي)[١٥]. إذن، فبمكارم الأخلاق التي بُعث بها النبي، وبها ختم تاريخ الأنبياء والرسل، فُتح السبيل لمعرفة الله تعالى، وكان محمد بن عبد الله ﷺ ومعه آله وأوصياءه مثالًا للإنسان الكامل المتحقِّق بجميع النعوت الإلهية الكمالية. فقد منَّ الله على النبي الخاتم بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) التي تحوي جوامع الكلم، ومكارم الأخلاق معًا. من أجل ذلك قال ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؛ لأنّ مكارم الأخلاق محصورة في الحقيقة الإنسانية الجامعة. وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها أهل الحق بالحقيقة المحمدية، حيث تكون جميع النشآت الوجودية ظهورات لهذه الحقيقة ويكون العالم صورة حقيقتها الجامعة. وبالتالي فإنّ جميع المظاهر من العقل الأول والروح الأعظم إلى الهيولي الأولى، إنّما هي رقائق لهذه الحقيقة، وبهذه الجامعية استحقت الخلافة.

ولما كانت للإنسان الكامل الظاهر في كل شيء، ظهورات وتدليات وتجليات في كلّ شيءٍ كان أول ظهوره في العقل الأول؛ ولذا قال ﷺ: "أول ما خلق الله نوري" وتلك إشارة منه إلى أنّ العقل حسنةٌ من حسناته ومكرمةٌ من مكرمات الله عليه. وبالجملة فإنّ هذا الإنسان يسري في جميع الموجودات؛ ولذا قال علي عليه السلام: "أنا القلم وأنا اللوح"، وقال في موضع آخر: "كنت مع

الأنبياء سرًا ومع محمد جهرًا" وأما سر معيّته عليه السلام مع الأنبياء سرًا ومع محمد جهرًا- كما يقول صاحب الحكمة المتعالية- فيعود إلى أنّ جميع الأنبياء كانوا من مظاهر وجوده، وكانت ولايتهم من شعوب ولايته وفروعه، وهو الظاهر في وجودهم، والظاهر مستور في المظهر، وإنْ كانت نفسه الزكية من مظاهر ولاية خاتم الأنبياء[١٦].

ولأنّ الحقيقة المحمدية هي نفس النبيّ مذ كان آدم بين الماء والطين كما في الحديث الشريف، فإنّها متجليةٌ في الأنفس المتسلسلة من آله المعصومين. الذين بهم تدوم الحقيقة المحمدية بمكارمها الجامعة، ثم ليفيض الله تعالى على العالم بواسطتها على العالمين بالرحمانية والرحيمية معًا.

من هاتين الرحمتين تسري مكارم الأخلاق على الفرد والجماعات، مثلما تسري على الأمم والحضارات المتعاقبة. وما في القرآن الكريم من البيّنات بصدد الاختلاف والتنوع وتكثُّر طرق معرفة الحق من خلال الأديان رسالات الوحي، ما يفضي الى بيان سلسلة الوجود وصولًا الى المصدر الأول والحق الأول. بحيث يغدو التكثُّر عين الحقيقة الواحدة في الأصل الإنساني، ذلك أنّ الاختلاف في الألوان والأعراق والألسن والثقافات والأديان هي من آيات الله وسُنَنه في الخلق؛ ولذلك كانت مكارم الأخلاق التامة غاية النبوة الخاتمة، وخاتمة الولاية المحمدّية المطلقة في العالمين.

متى عرفنا أنّ الأساس الأخلاقي في الإسلام مرجِعُه مبدأ التوحيد، أدركنا الغاية الإلهية القصوى من ختم النبوَّة. أي كمال الدين، حيث يستوى حضور الإنسان في حركة الزمن على نصاب الاعتدال بمكارم الأخلاق. وبهذا الاستواء المتحقِّق بنبوة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله يفتح الله بالشريعة المقدسة هداية البشرية، ويؤيُّدها بالتبصُّر والتخلُّق لتبلغ سعادتها العظمى.

لقد شهدت فلسفة الأخلاق الإسلامية تأسيسات مهمة في علم المعرفة الأخلاقية. نشير في هذا المقام إلى فيلسوف الأخلاق المسلم أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه الرازي (٣٢٠-٩٣٢م).

حدّد مسكويه الإطار الذي تعمل فيه الأخلاق ويفعل فيه المتخلّق وهو بذلك يضبط الشّروط التي تجعل من الفعل فعلًا خلقيًّا صادرًا عن الإنسان لا بوصفه إنتاجًا آخر غير ذاته، وإنّما بوصفه

فعلًا تنشئه الذّات معبّرة عن نفسها. وبما أنّ الأمر على هذا النّحو فإنّ الإنسان مجبولٌ على التّخلّق جبلّة استعداد، أو تهيّئ للفعل الخلقيّ، ولا يخرج الفعل إلى واقع الممارسة والظّهور إلاّ بالاكتساب والتّحصيل، وهنا يكون السّؤال الأوّل الذي طرحه مسكويه ضروريًّا ومبدئيًّا، أي سؤال بداية وتأسيس. كيف "نحصل لأنفسنا خلقًا تصدر به عنّا الأفعال كلّها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة ولا مشقّة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليميّ"(١٧).

إذا كان الأمر كذلك كما بيّنّا فإنّ مشروع التّفكير في تهذيب الأخلاق سيتعلّق بأمرين مهمّين:

-**أوّلهما**: السّؤال عن كيفيّة حصول النّفس على الخلق الحسن، أي كيف نجعل من أفعالنا جميلة؟

-**وثانيهما**: كيف يكون فعلنا الأخلاقيّ سهلًا لا كلفة فيه ولا مشقّة؟

هذان السّؤالان يخفيان أمرًا مهمًّا متعلّقًا بطبيعة الفعل الإنسانيّ (الخلق) أي الإجابة عن سؤال مهمّ خاض فيه كلّ من فكّر في الإنسان ألا وهو السّؤال عن حقيقة السّلوك المكتسب والسّلوك الفطريّ. وإنّ الخلق فعلٌ وسلوكٌ وهو ليس فطريّا؛ ولذلك يمكن التّفكير فيه على نحو يجعله ممكنًا وصادرًا عن الذّات الفاعلة بصورةٍ تلقائيّةٍ وكأنّه فعل فطريّ يعبّر عن السّجيّة والجبلّة وليس عن الاكتساب والتّعلّم. فالتّهذيب مصطلحٌ جيّدٌ وصنعه يكشف عن فطنة وحكمة، وهو أنّ السّلوك الإنسانيّ يحتاج إلى تهذيب، وهو التّعليم والتّدريب والإصلاح والتّوجيه وهو أيضًا تعلّم يحدث في الزّمان، أي زمان الفعل التّربويّ، فالتّهذيب تربيةٌ وسعيٌ إلى بناء إنسانيّة الإنسان وبناء قيمه والرّفع من شأنه في سلّم قيمه. وهذا ما يؤكّد ما كنّا قد ذهبنا إليه سابقًا لمّا أكّدنا الإنسانيّ في الإنسان. ومن ثمّ فإنّ الكشف عن شروط الفعل الأخلاقيّ وعن حقيقة الأخلاق أو الخلق لا يكون إلاّ بالنّظر في حقيقة الإنسان ما هي. وهذا ما دفع مسكويه إلى النّظر في سؤال الإنسان منذ مطلع كتابه تهذيب الأخلاق. "ولمّا كان لكلّ صناعة مبادئ عليها تبتني وبها تحصل وكانت تلك المبادئ مأخوذة من صناعة أخرى"(١٨)، فإنّ النّظر في الأخلاق والتّفكير في حقيقتها يحتاج إلى النّظر في المبادئ، والنّظر في المبادئ يحتاج إلى مجالٍ آخر من الحكمة هو الحكمة النّظريّة. فقد سبق أن بيّنّا أنّ مبادئ الحكمة العمليّة مأخوذة من الحكمة النّظريّة(١٩). وأنّ الحكمة تكمن في تحقّقهما نظريًّا وعمليًّا.

وهـذا التّحقّـق هـو الكـمال الـذي تصبـو إليـه كلّ نفـس، "فالإنسـان يصـير إلى كمالـه، ويصـدر عنـه فعلـه الخـاصّ بـه إذا علـم الموجـودات كلّهـا أي يعلـم كلّيّاتهـا وحدودهـا التـي هـي ذواتهـا لا أعراضهـا وخواصّهـا التـي تصيّرهـا بـلا نهايـة"[٢٠]. ومـن ثـمّ يصـير العلـم بالموجـودات ضرورة يطلبهـا العقـل تحقيقًـا لتـمام الإنسـانيّة فيـه، وفي هـذا بيـان مـن مسكويه بـأنّ علـم الوجـود وإنْ كان أرقـى المواضيـع فـإنّ الغايـة القصـوى منـه إدراك الكـمال الإنسـانيّ. فمعرفـة الله معرفـة أولى ومعرفـة الإنسـان معرفـة ثانيـة لأنّ "الـذي ينبغـي أنْ نعلمـه الآن أنّ وجـود الجوهـر الإنسـانيّ متعلّـق بقـدرة فاعلـه وخالقـه، تبـارك وتقـدّس اسـمه"[٢١]. وهكـذا لا يمكـن أنْ يُطلـب علـم الوجـود إلّا ويُطلـب معـه علـم الإنسـان[٢٢].

٥-مكارم الأخلاق كهادي إلى الغيرية الرحمانية

في الخطـاب القـرآني جـاء الإسـلام رحمـة للعالمـين: ﴿ **ومـا أرسـلناك إلّا رحمـة للعالمين** ﴾[الأنبيـاء- ١٠٧]؛ مـا يعنـي أنّـه خطـاب لـكلّ النـاس عـلى اختـلاف أجناسـهم وألسـنتهم وألوانهـم وانتماءاتهـم، يدعوهـم إلى مـا فيـه خيرهـم وصلاحهـم في الدنيـا والآخـرة، لكـن مـع وجـود هـذه الدعـوة تـرك لهـم الحريـة في الاختيـار، بحيـث يؤمـن مـن يؤمن بـه عـن إرادة حـرة، ويجحـد بـه مـن يجحـد عـن تلـك الإرادة أيضـا، مـن دون أن يكـره عليـه؛ مـا يعنـي أنّ الاعتقـاد بديـنٍ مـن الأديـان لا يمكـن أنْ يتم عـلى أسـاس الاجبـار والإكـراه ولا تحـت السـلطة والعنـف، لقولـه تعـالى: ﴿ **لا إكـراه في الدين** ﴾[البقـرة- ٢٥٦] ، وقولـه – سـبحانه-: ﴿ **ولـو شـاء ربـك لأمـن مـن في الأرض كلهـم جميعًـا أفأنـت تكـره النـاس حتى يكونـوا مؤمنين** ﴾[يونـس- ٩٩]. وبهـذا سـوف يـؤول الأمـر الى صنفين مـن النـاس، صنـف يتّخـذ من الاسـلام دينًـا لـه، وصنـف يتّخـذ لـه أديانًـا أخـرى، أو يختـار ألّا يكـون لـه أي دين.

ومـن الركائـز الأساسـية التـي يتأسـس عليهـا التعريـف بالديـن الاسـلامي والدعـوة إليـه، الحـوار مـع المختلفـين؛ ذلـك أنّ الدعـوة ليسـت عرضًـا جافًـا يقتـضي القبـول أو الرفـض في صمـت، وإنّما هـي (دعـوة حواريـة تفاعليـة)، تقـوم عـلى الاستفسـار والاسـتدلال، والقبـول والـرد، ومـا شـابه ليكـون الأمـر تدافعًـا في الـرأي ومقارعـةً بالحجـة، حتـى تسـتبين الحقيقـة لمـن يطلبهـا ويبتغيهـا، فـلا يكـون تضليـل ولا خـداع ولا تلبيـس، ولينتهـي الأمـر الى قبـول عـن قناعـة أو رفـض عـن قناعـة كذلـك.

وعندما يأخذ كلّ الموقع الذي ارتضاه عن إرادة وحرية، فإنّ الحوار لا ينقطع بين الجانبين، وإنّما يستأنف على مستوى آخر هو مستوى التعاون فيما هو مشتركٌ من الأمور المرتبطة بخدمة مصلحة الإنسان وتحقيق منفعته، بصرف النظر عن دينه ومعتقده؛ وهو حوار بقواعد تقوم على الاعتراف بالآخر واحترامه، وعلى صيانة كرامته الإنسانية من أنْ ينالها التحقير والتبخيس، أو أي ضرب من ضروب الانتهاك؛ إن معنويًا أم ماديا[٢٣].

وغنيّ عن البيان في هذا السياق أنّ "التعارف؛ باعتباره مسلكًا كونيًا، يتأسس في محدداته المعرفية الأولى على عنوان (وحدة الانسانية). وهذا المبدأ يشتق ويستمد قيمته من المبدأ الأعلى؛ أي (وحدانية الله سبحانه) بوصفه المبدأ والغاية في الوقت نفسه؛ فإنّ تكون موحّدًا معناه أنّك تعيش وضوح الرؤية في تصوّرك عن الكون والحياة، وما دامت الوحدانية صفة الله – عزّ وجلّ – وهو – سبحانه – الخالق، فلا بد أنْ تمتد صفة الوحدة الإلهية الى كلّ البشر؛ لأنّهم من خلقه"[٢٤]. وتأسيسًا على هذا، فالإسلام من حيث هو دينٌ كونيٌّ، ومن حيث هو أسبق من غيره من المذاهب والنحل في الدعوة الى العيش معًا، هو من عنده المقدرة التركيبية وإعادة المعنى والتدبير المعرفي لضوابط تدبير الاختلاف؛ لأنّ العناصر الوضعية والاصطفاءات الحصرية معوّقات لتشكل التعارف في عالم اليوم ومدعاة للتصادم والتنابذ[٢٥].

ومعنى هذا أنّ الأخذ بمسلك التعارف؛ كما رسمه الإسلام يقتضي ضوابط محددةً وشروطًا مخصوصة، بوجودها يتحقّق المقصد العام منه، وبغيابها يختل الفعل بأسره؛ ذلك أنّ التعارف المبني على التواصل والتعاون الذي تنشده الرؤية الاسلامية من العلاقة مع الآخر، يتعين أنْ يكون منضبطًا بمقتضيات قيم العدالة والمساواة والأخوة الإنسانية والحرية والوفاء بالعهود والالتزامات، وبالتالي، فإنّ أي إخلال بهذه القيم هو حكم ببطلان هذه العلاقة وفقدانها الشرعية الإلهية والمصداقية الانسانية؛ لأنّ القيم في النظرية الاسلامية لا تتجزأ ولا ينفي بعضها بعضًا[٢٦]. وإنّما هي بمنزلة منظومة تتفاعل عناصرها مجتمعه، ويؤثر كلّ عنصر ضمنها في بقية العناصر، مثلما يتأثر هو بها.

تتعذر الحياة الطيّبة في الإجتماع الإنساني في مناخٍ يسوده التوجّس والخوف من الآخر والناظرة اليه بعين الدونية والاحتقار، فليس يقدر على التعارف من ظن نفسه الافضل، أو

ليس للحياة أنموذج أسلم ولا أكمل من طريقته هو؛ فيمتنع السلوك الايجابي المتجاوب، وتتحول دواعي الاجتماع الكوني الانساني الى أسباب الافتراق والتباعد. وتبعًا لهذا، فإنّ من الضوابط الأساسية التي تعمل على توليد التعارف السليم المتوازن وتوطيده، إزالة الخوف من الآخر، ومحاولة معرفة ذاتيته في سياق الوحدوية العالمية، فضلًا عن تقاسم شرطيات الالتقاء والتذكير بها باستمرار على قاعدة السلم والسلام، والاعتقاد بأنّ مخزون البشرية قيميًا ليس محصورًا في نطاق أرضي واحد، وإنّما هو مبثوثٌ موزعٌ في جنبات الوجود العرضية جميعها[٢٧]. الأمر الذي من شأنه أنْ يخلق التحوّل الإنساني الى الكونية، بديلًا عن الموضعية والوضعية، فتتكون لدى الانسان نظرية وجود مرتبطة بالله – سبحانه – ، بوصفه خالقًا ومصدرًا للكتاب والحكمة، فتتشكل عقلية الانسان وأخلاقياته في ضوء هذا الارتباط الإلهي. ومن ثمّة يترفع هذا الانسان عن نزعته الغريزية البهيمية الدونية العابرة، ويصير مرتبطًا بمنظومة إلهي من القيم، هي نقيض التعالي في الأرض والإفساد فيها، مهما كانت المبررات النفعية، ونزعتها غير الأخلاقية، وتمركزها حول الذات الفردية.

في السياق المعرفي لجدلية التلازم بين مقاصد الشريعة ومكارم الأخلاق النبوية يبيِّن النظَّار مسلَّمتين رئيستين: مقتضى المسلَّمة الأولى للأخلاق الإسلامية أنّه لا إنسان بغير أخلاق؛ فلا يخفى أنّ الأخلاق الحسنة صفات مخصوصة الأصلُ فيها معانٍ شريفة أو قل قيم عليا؛ كما لا يخفى أنّه ليس في كائنات هذا العالم مثل الإنسان تطلعًا إلى التحقق بهذه المعاني والقيم، بحيث يكون له من وصف الإنسانية على قدر ما يتحقق به منها، فإذا زادت هذه المعاني والقيم زاد هذا الوصف وإذا نقصت نقص٣[٢٨]؛ تترتب على هذه المسلمة حقائق ثلاث، "أنّ هوية الإنسان أساسًا ذات طبيعةٍ أخلاقيةٍ؛ والثانية، أنّ هوية الإنسان ليست رتبةً واحدة، وإنّما رُتب متعددة، فقد يكون الواحد من الجماعة إنسانًا أكثر أو أقل من غيره فيها؛ والثالثة، أنّ هوية الإنسان ليست ثابتة، وإنّما متغيرة، فيجوز أنْ يكون الفرد الواحد في طورٍ من أطوار حياته إنسانًا أكثر أو أقل منه في طورٍ سواه.

أما مقتضى المسلمة الثانية فتقوم على أن لا أخلاق بغير دين؛ يكفي أنْ نشير إلى أنّ الأخلاق تَنبني على الدين بطريقين بطريقين اثنين؛ أحدهما الطريق المباشر، ويقوم في تلقي خبر هذه

الأخلاق من الوحي الإلهي والتأسي فيها الرسول الذي جاء بهذا الوحي؛ والثاني الطريق غير المباشر، ويقوم في اقتباس الأخلاق من الدين مع العمل على إخراجها عن وصفها الديني الأصلي أو مع التستِر المبيَّت على أصلها الديني كما يقوم في اللجوء إلى القياس على الأخلاق الدينية فيما يُستنبط من أخلاق وضعية.

على هاتين المسلمتين تترَّتب النتيجة المباشرة التالي: أنّه لا إنسان بغير دين، ممّا يجوز معه أنْ نعرّف الإنسان بأنّه الكائن الحي المتدين، فالهوية الإنسانية تكون في حقيقتها هوية دينية؛ فإذا قيل بأنّنا قد نجد بين الناس مَن لا يتدين أصلًا، فإنّنا نقول بأنّ هذا قول يحتاج إلى توضيح؛ ذلك أنّ المراد به هو أنّه لا يقر بأنّه يتدين بدين سماوي إلهي، لكن هذا لا يرفع، على ما ذكرنا، جواز أخذه من هذا الدين بطريق غير مباشر، محرّفًا لما أخذه أو متسترًا عليه أو متبعًا فيه طريق القياس كما إذا استبدل مكان الإيمان بالإله الإيمانَ بمطلق من عنده يقيمه بَدَلَه، عقلًا كان أو إنسانًا أو طبيعة أو مادة أو تاريخًا، إذا أصل الدين هو بالإيمان المطلق؛ ولا ينفع كذلك أنْ يقال بأنّ بعضهم لا يقول إلا بالنسبي وحده؛ ذلك لأنّ هذا البعض يكون قد جعل مطلقَه هو النسبية، فيقع في ما أنكر[٢٩]. وما من شك في أنّ هاتين المسلَّمتين تفتحان على أفق يفضي إلى الإستنارة بمكارم الأخلاق في نظم التعارف بين الأمم والجماعات والأفراد على نصاب الرحمانية.

٦- التعرُّف على الغير كمبدأ لمكارم الأخلاق

التعرُّف على الغير في عالم الإختلاف مفهومٌ أصيلٌ سابق على مفاهيم لاحقة تنتسب إليه، مثل الحوار والمفاوضة. فهذان المفهومان يعادلان الجدل المذموم الذي هو أداة هيمنة لا أداة معرفة. هو ليس الجدل الأحسن كما قرّره القرآن الكريم ليشير بـ(الأحسنية) الى التعرُّف المحمود. فهذا الأخير يختزن في داخله أفهامًا وقيمًا تؤلّف على الجملة البناء المعرفي لفلسفته، وهي بإيجاز على الوجه التالي:

أولًا – التعرُّف بما هو إرادة المعرفة بالموجود الأشرف كما تقرّره الحكمة الإلهية. والمقصود هنا الكائن الإنساني على وجه الخصوص. هذا النوع من إرادة المعرفة، قائم على مبدأ التآخي،

عن طريق متاخمة هذا الكائن قصد التعرف إليه كما هو. من دون فرض أو إكراه.

ثانيًا – التعرُّف بما هو الكشف عما هو مجهول في ذات المتعرف. إذ لا تستوي معرفة المتعرف بنفسه إلّا بالتعرف على ما هو محتجب في نفس الآخر.

ثالثًا – التعرُّف بما هو علم معاملة وفهم للغير. وهو علم التخلُّق العملي الذي ينظم الصلة بالغير، ويقيمها على التسامح والقبول والمعايشة الرحمانية.

رابعًا – التعرف بما هو إقبال المتعرِّف نحو الغير ابتغاء وَصْلِهِ على الود والإقبال والانفتاح.

خامسًا – التعرف كمقصدٍ دنيويّ وفوق دنيوي في آن:

– دنيوي؛ لأنّ المتعرِّف يروم الوصول بالسؤال والتساؤل الى فهم حقيقة الموجودات بما هي موجودات.

– وفوق دنيوي؛ لأنّه يبحث عن سر الوجود في كلّ موجود. أي العثور على السبيل الموصل الى الأصل الذي ظهر بسببه كلّ كائن. أي التعرف على الواجد، وهو أعلى مقامات العرفان. إذ تمتاز هذه الدرجة من الانهمام بالفهم أنْ يبلغ المتعرّف مقام التجلّي والشهود في الوجود.

سادسًا: التعرف بوصفه معطى إلهيًا أوجبته الأديان على مؤمنيها ليكون لهم سبيلًا للاهتداء الى الخالق عبر معرفة على مخلوقاته.

حين يتّصف المتعرف بهذه الأصول ويعمل بها، يفتح السبيل الى جعل المفهوم حركةً سارية في الحياة على نشأة العدل والتخلق الرحماني. المتعرِّف العادل المتخلّق، هو الذي يشاهد الغير في نفسه ويشاهد نفسه في الغير بعين اللحظة؛ كما لو كان هو والغير نفسًا واحدة. فلو تحقَّق له مقام الغيرية يكون قد قطع المسافة المكتظَّة بالريب حيال هذا الغير الذي هو نظير له في الآدمية. ولكي تنعقد موازين العلاقة بين الأنا والغير المختلف على نصاب التعرُّف، فلا مناص من قيامها على صفاء النية، وسمو القصد ولطف الاختلاف. وحين يأخذ التعرُّف سبيله الى حقول التنوع يثبُت الوصل بين الذات ونظيرها. حيث إنّ أفضل درجات هذا الوصل ما نشأ، ونما وسرى في متسعات الاختلاف والغيرية.

التعرُّف إذًا، وليد شرعي للتغاير. بل هو استجابة المتعرِّف لنداء العلم بكلّ من يغايره الفهم في الثقافة والايديولوجيا والمعتقد. وبقدر ما يتسامى التعرُّف على العصبيات والتحيُّزات والهويات المغلقة، بقدر ما يتصل بها جميعًا بوصفها ظاهرات اجتماعية، توجِبُ النظر إليها، والتعامل معها كوقائع يفترضها الاحتدام الطبيعي في عالم الناس. إلا أنّ فهم التعرّف على حقَّانيته يفترض تناظرًا متكافئًا لا رجحان فيه للذات على الغير ولا الغير على الذات. تناظرًا لا يلغي فيه أحدٌ أحدًا، بل الكل موصول بالكل على نحو التكامل والامتداد في المنفسح الانساني.

لما وضع أرسطو "كوجيتو المنطق" ربما لم يكن متنبّهًا للوهلة الأولى إلى تلك الجرعة الزائدة من سطوة الإيديولوجيا على دنيا الإنسان. راح يبيِّن أنّ الإنسان حيوان راغب بالمعرفة، بعدما خلع عليه نعت الحيوانية الناطقة. سوى أنّه لم يمضِ إلى المحل الذي منه تُستظهر غريزة الكائن الاجتماعي في مقام تحيُّزها. فالإنسان بالإضافة إلى كونه عاقلًا، هو كائن متحيِّز بفطرته إلى التسليم بيقين ما والإيمان به. وما ذاك إلا لتطمئن نفسه إلى نهايتها المحتومة. من هذا المحل الغائر في الأعماق تنهض الغريزة الإيديولوجية لتجتاح عوالمه كلها. ولأنّ الإنسان (حيوان كسول) كما طاب للحكمة اليونانية أنْ تقول، فقد أردفت قولها بتنبيه أهل المدن، "إمّا أنْ يختاروا الراحة وإمّا أنْ يكونوا أحرارًا". وما انبرى اليونان ليتقوَّلوا هذا، إلّا لفتح نافذة للحكمة، والتهيُّؤ لظهور الحكيم. فالحكيم وحده من يظهر إلى الملأ كراغب بالمعرفة والمتحيِّز إلى الخيريِّة التامة في آن.

الحكيم المتعرِّف في لحظة انهمامه بالكشف عمّا لا علم له به، لا يرفض اليقين الدنيوي كما تنشده الإيديولوجيا، إلا أنّه لا يتخذه قياسًا للأحكام. ينظر إلى الولاءات والعصبيات بعين الحكمة، يستحكيها بعقل بارد، يتبصَّرها بوصفها ظاهرة، ويتأولُها كنمط تفكير. ومن قبل أنْ يصدر حكمه، ينصرف إلى مساءلتها والاستفهام عن بواعثها وديناميات عملها. فليست مهمة الحكيم ـ بما هو حكيم إلا أنْ يكون في لحظة التعرَّف متساميًا على فتنة المتناقضات. وما ذاك إلا قصد التحرِّي والجمع وتظهير خط التواصل والامتداد في ما بينها بينها. ذلك لا يعني البتة

استقلاله السلبي أو حياده. هو ليس محايدًا بين الحكمة والضلالة. وبوصف كونه حكيمًا، فهو متحيِّز إلى الحكمة بما تفيض على سالكها من خيرية المعايشة. ولأنّ التعرُّفَ منفسحٌ يسمو فوق التحيُّزات، لا يلتجئ الحكيم إليه من أجل أنْ يكون محايدًا بين حق وباطل، وإنّما ليتحرَّى منازل الحقانية، والبطلان في مجمل التحيزات التي يعبر فضاءاتها.

والمتبصِّر بواجبية التعرُّف لا ريب لديه في قانون الاختلاف. فهو على دراية من أنْ تعرُّفًا بهذه الخصائص لا يضادّ الولاء لقضية وهوية ودين. ذلك بأنّ الولاء بلا عصبية، مُقِرٌّ بحقانية التنوع وحرية الاعتقاد. فالتعرُّف بما هو تعرُّف، من بديهيات الاجتماع البشري. ولأنّ الذي نسعى إلى تأصيل مبانيه وشرائطه، قائم على الجمع المتأنِّي بين التسامي على التعصُّب، والانتماء المُحِقِّ للهويات، أمكن أنْ ينفتح الأفق نحو تواصل خيِّرٍ بين الأديان والثقافات على تعدّدها واختلافها. بهذا يغدو التعرُّف جوهرًا أصيلًا في ذات المنتمي، يفيض من خلاله على الغير بما يختزنه من جميل، ثم ليستحثَّ هذا الغير الى إفاضة معاكسة هي أدنى الى ردّ الجميل بالجميل.

ولتظهير ما يمكن بوصفه هندسةً تفكيريةً لـ (فلسفة التعرُّف)، وجدنا أنْ نؤسس مسعانا على مبنَيَيْن رئيسين:

الأول: متصلٌ بالتلازم الوطيد بين التخلُّق والتعرُّف.

والثاني: متعلقٌ بالتبصُّر وسعة الصدر. وغايته تحقِّق الوصل الرحماني في عالم الإختلاف والكثرة. وعلى هذين المبنيين الكلام على التعرف والمحاورة الرحمانية يكتسبُ أهميته الاستثنائية. في سياق النقاش حول طبيعة الخطاب الديني. ولعل ما يمنح أطروحة التعرُّف أولويتها الخاصة، أنّها تكشف عن واحد من أهم وأبرز عوامل القطيعة بين الأديان الكبرى، وهو ما تعكسه الحالة النمطية من الحوار المعمول به على سيرة المجاملات العابرة. وهذا بالذات ما قصدناه بواجبيَّة الأخذ بقاعدة التعرُّف لتجاوز الجهل عبر معرفة الذات والآخر قبل الشروع بأي حوار.

الفضيلـة العليـا للتعـرف لا تتوقـف عـلى تنويـر مسـاحات الظلمـة التـي تحجـب بصـيرة المتحاوريـن وحسـب. بـل هـي تمتـد لتغمـر بفضائلهـا كلّ مـن يمـضي إليهـا أو يأخـذ بناصيتهـا. وكلّما مـضى المتعرِّف الى لقـاء نظيره عـلى خـط الرحمانيـة، كلـما انقشـعت عـن نفسـه غمامـة الجهـل، فعـرف نفسـه وعـرف نظـيره، وتعـرّف الى سـبيل الله في عـين الوقـت.

أمـا العائـدات التـي يحصّلهـا السـالك الى فهـم سـواه والتعـرُّف اليـه فهـي كثـيرة وجليلـة عـلى الجملـة:

اولًا: سـوف يسـاعده التعـرف في معرفـة دينـهِ بنحـوٍ أكثـر عمقًـا. وذلـك عـلى اعتبـار أنّ الحقائـق تـدرك بنظائرهـا، أو كـما يقـال "إنّ الاشـياء تعـرف بأضدادهـا". ففـي مسـار التعـرف الـذي يحفـر مجـراه عـبر التـداول والاسـتقراء والمسـاءلة، يتكشَّـف المزيـد ممـا هـو مجهـول علينـا مـن حيـوات الغـير. وهـو مسـار لـن يكـون لـه حـدود مـا دام مفتوحًـا عـلى الامتـلاء المسـتمر بالعلـم. لاسـيما إذا تشـكلت معلومـات ومعـارف هـي حصيلـة فهـم الآخـر لديـن المتعـرِّف ومعتقداتـه.

ثانيًا: سـوف يعينـه عـلى معرفـة مواطـن الخلـل التـي ينطـوي عليهـا سـلوكه الدينـي حيـال المنتمي إلى دينٍ آخـر. ونعنـي بمواطـن الخلـل: شـعور المؤمـن السـاعي الى المعرفـة بالـرضى والأمـان داخـل معزلِـهِ الدينـي (الطائفـي او المذهبـي)- والشـعور بالاكتفـاء الـذاتي وهـو يعيـش حبيـس قلعتـه المغلقـة- والنظـر الى معتقـده كطريـق خـلاص الى المدينـة الفاضلـة والى معتقـدات الغـير كموصـل الى الجحيـم.

ثالثـا: مـن نتائـج التعـرف أنْ يغـادر المتعـرف عقـدة الاسـتلاب الناتجـة مـن جهلـه بنظـيره حيـث لا يتوقـع منـه إلّا سـوء النيـة والـشر المسـتطير.

رابعًـا: سـوف يتوصـل المتعـرّف الى إدراك معنـى آخـر للحريـة. حيـث تكـف الحريـة في حالـة الادراك المتبـصِّر لأبعادهـا الإلهيـة والأخلاقيـة، عـن كونهـا مجـرد لعبـة تسـتباح فيهـا أفهـام ومعـارف ومعتقـدات الغـير. خصوصًـا حـين تتحـول الحريـة لديـه الى سـلوك بعـد أنْ اختـبرت في حقـل التواصـل الحميـم.

خامسًا: من فضائل التعرُّف أنّه يمنحك منفسحًا لتوسيع معارفك ممّا في معتقد غيرك من محاسن وكمالات لا تتوفر في مجال ثقافتك الدينية والاخلاقية.

سادسًا: إمكان التوصل عبر التعرُّف الى ملتقى مفتوح يمكّن المتعرفين، وكلّ من موقعيته من بلورة استراتيجية تفضي الى الخير العام في ميدان الفكر والثقافة الاجتماع والسياسة والتنمية ومقاومة الهيمنة الخارجية والاستبداد الداخلي.

في مناخ التحولات الكبرى التي تعصف بعالم القيم ومسارات المعرفة، يجد المؤمنون بأديان الوحي، أنّهم امام اختبار إيمانهم الديني من جديد في سبيل تنمية حياتهم المشتركة وحضارتهم الإنسانية الواحدة. وفي غالب الاعتقاد ليس من أمر أكثر واجبية من التعرُّف والفهم بين الأديان.

الهوامش

١- الديلمي، الحسن بن محمد، إعلام الدين في صفات المؤمنين، ١١٨- ١١٩.
٢- الشيرازي، محمد بن ابراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ٥/ ٨٨.
٣- الجندي، مؤيَّد الدين، شرح فصوص الحكم لإبن عربي، ص ٧٠٨.
٤- وردت هذه الأحاديث وسواها في أصول الكافي - باب الصدق وأداء الأمانة. وفي الوسائل (كتاب الحج - باب وجوب الصدق، وفي الحاكم النيسابوري، أبوعبد الله محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، ٢ / ٨٤ - ٨٩.
٥- المحاسبي، الحارث بن أسد، كتاب الوصايا، ص ٢٥٥.
٦- م. ن، ٢٥٦.
٧- عبد الرحمن، طه، العمل الديني وتجديدالعقل، ١٣٥.
٨- هي رسالة في علم التصوف دوّنها الشيخ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن محمد القشيري النيسابوري (٩٨٦- ١٧٠٣م)، وتعد إحدى أبرز وأهم المصنفات التي تحتوي على معارف الصوفية ومبادئ السير والسلوك.
٩- القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ٤٧٦.
١٠- م. ن، ٢٤٢.
١١- م. ن.
١٢- الألوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني، ٦/ ١٤٩.
١٣- حيدر، محمود، وأحدية الشرع والكشف في مهمة الولي الخاتم.
١٤- عبد الرحمن، طه، العمل الديني وتجديد العقل، ١٣٠.
١٥- حديث شريف.
١٦- الشيرازي، محمد بن ابراهيم، المظاهر الإلهية، ٨٦.
١٧- ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ٢.
١٨- م.ن، ٢.
١٩- ابن سينا ومسكويه والعلاقة بين الحكمتين ومبادئ كليهما.
٢٠- ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ٤١.
٢١- م. ن، ٣٨.
٢٢- لعلّه من الصّواب أنْ نفهم في هذا السّياق أنّ المبحث الأنطولوجيّ عند مسكويه مقترن بالمبحث الأنتروبولوجيّ فهو من جهة علم للوجود ومن وجهة نظر أنتروبولوجيّة، وهو من جهة ثانية علم بالإنسان من وجهة نظر أنطولوجيّة، وهي منزلة بين المنزلتين تكشف عن الموقع الذي يحتلّه علم الإنسان وعلم الوجود في سلّم المواضيع التي تتناولها الفلسفة، وكأنّهما علمان يتنافسان على المرتبة الأولى.
٢٣- آيت أحمد، مريم، جدلية الحوار، مقدمة الكتاب، ٣.
٢٤- الدراوي، العياشي، محددات العلاقة مع الآخر وضوابطها في التصور الإسلامي - مصدر مرّ ذكره.

٢٥- بلعقروز، عبد الرزاق، (نظرية الفعل التواصلي وحدودها: من العقل التواصلي الى الانسان التعارفي)، ٨٨.

٢٦- آيت أحمد، مريم، جدلية الحوار، ١٣٣.

٢٧- دواق، الحاج بن أحمنه، "التثاقف من مسلوبية الاحتواء الى معقولية التعارف"، ١٢٠-١٢٢.

٢٨- عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق، ١٤٧.

٢٩- م. ن، ص ١٤٨.

المصادر والمراجع

* ابن مسكويه أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، القاهرة، ط١، الناشر: المطبعة الحسينية، ١٩١٢.

* آيت أحمد، مريم، جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الاسلامي المعاصر، تقديم: عبد المجيد النجار، ط ١، المغرب، منشورات مجلة علوم التربية، العدد ٢٤، ٢٠١١م، مقدمة الكتاب.

* بلعقروز، عبد الرزاق، "نظرية الفعل التواصلي وحدودها: من العقل التواصلي الى الانسان التعارفي"، مجلة الكلمة، م.س، العدد ٦٤ ن، ٢٠١٠.

* الجندي، مؤيَّد الدين، شرح فصوص الحكم لابن عربي، صححه وعلّق عليه السيد جلال الدين الآشتياني، ط٢، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٣.

* حيدر، محمود، الفقيه الأعلى – واحدية الشرع والكشف في مهمة العارف الخاتم، بيروت، دار المعارف الحكمية، ٢٠١٥.

* دواق، الحاج بن أحمنه، التثاقف من مسلوبية الاحتواء الى معقولية التعارف، لبنان، مجلة الكلمة، العدد المجلد ١٧، العدد ٦٧ (٣١ مارس/ آذار ٢٠١٠)٢٥ص.

* الديلمي، الحسن بن محمد، إعلام الدين في صفات المؤمنين، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٣٩٧.

* الشيرازي، صدر الدين محمد بن ابراهيم – الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة.

* ـــــــــــ، المظاهر الإلهية، تحقيق: جلال الدين الأشتياني، قم، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٩هـ.

* عبد الرحمن، طه، العمل الديني وتجديد العقل، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧.

* ـــــــــــ، العمل الديني وتجديد العقل، ط٢، بيروت- الرباط، المركز الثقافي العربي.

* القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطجي، ط٢، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.

* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي – باب الصدق وأداء الأمانة. وفي الوسائل (كتاب الحج – باب وجوب الصدق)،

* المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد، كتاب الوصايا، تعليق وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

* النوري، حسين بن محمد تقي، المستدرك.

زيارة الأربعين أنموذجٌ لمجتمع تراحمي نقيض الفردانية الحداثية

د. طلال عتريسي

أستاذ العلوم الاجتماعية / جامعة بيروت / لبنان

ملخص البحث

باتت زيارة الأربعين موضع اهتمامٍ بحثي على المستويات الاجتماعية والثقافية والفكرية، وفي الأوساط الدولية وفي مراكز الدراسات المختلفة، وقد ترافق هذا الاهتمام مع التأكيد أنّ مثل هذه الزيارة هي حدثٌ غير مسبوقٍ في التاريخ البشري عبر العصور.

سيتناول البحث علاقة زيارة الأربعين بإحياء عاشوراء كحدثين مترابطين من حيث الأبعاد العقائدية والعاطفية والنفسية، ومن حيث الظروف التي واجهت الشيعة في إحياء هاتين المناسبتين. كما سيعالج البحث فكرةً مركزيةً هي الأنموذج الذي تقدّمه زيارة الأربعين، في تفاصيلها كافة على مستوى سلوك الآلاف ممّن يستضيف الزوّار، ويقوم بخدمتهم الواسعة والمتنوعة تطوعًا وهو لا يتوخى أيّ ربحٍ أو منفعةٍ مادية، بل التقرب إلى الله من خلال خدمة زوّار الحسين عليه السلام. وهذا ما يمكن أنْ نطلق عليه (المجتمع التراحمي) انسجامًا مع البعد القرآني: ﴿**مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمِهم**﴾.

يحاول البحث أنْ يبيّن أنّ هذا (المجتمع التراحمي) الذي هو أحد تعبيرات الحياة الطيّبة، يتناقض مع المجتمعات الحديثة المعاصرة، التي تتنامى فيها الفردانية التي تبرّر الأنانية وسطوة المال، وأولوية المنفعة، والتي يغيب عنها أيّ بعدٍ إنساني أو معنوي. ومع مقولات العولمة مثل الأقوى لا ينتظر الأضعف، والأسرع يلتهم الأبطأ.

يريد البحث أنْ يبيّن أنّ ظاهرة مشاركة الشباب في زيارة الأربعين تتعارض أيضًا مع المقولات التي تتهم هؤلاء الشباب بالعبثية وبالانصراف عن الدين وعن طقوسه وشعائره. ما يستدعي إعادة النظر في مثل هذه المقولات على المستويات الثقافية والاجتماعية، والتفكير فيها من منطلقاتٍ نظريةٍ مغايرةٍ، لها علاقة بواقع مجتمعاتنا وثقافة هذه المجتمعات على ضوء ما تقدمه تجربة زيارة الأربعين.

المقدّمة

لم يكن العالَم يعرف الكثير عن الزيارة التي يقوم بها الشيعة في العراق إلى كربلاء في الذكرى الأربعين لمقتل الامام الحسين (عليه السلام)، والتي اشتهرت بزيارة الأربعين. كان العالم مشغولًا في العقود القليلة الماضية بقضايا إسلاميّة يعدّها أكثر أهميةٍ مثل العنف والتطرّف، وما أُطلق عليه (الإرهاب)، خاصّة بعد صعود تنظيمات مثل طالبان والقاعدة وداعش وسواها من تنظيمات إسلامية شغلت الباحثين في مراكز الدراسات السياسية والفكرية والاستراتيجية في أنحاء مختلفة من العالم. وقد ذهب كثيرٌ من الباحثين في هذه المراكز إلى محاولة ربط عنف هذه التنظيمات بأصول الاسلام، وليس بالأصول الفكرية والفقهية لهذه التنظيمات؛ ليكون الإسلام نفسه كدين هو المسؤول عن العنف والإرهاب والتطرف. كما شُغل العالم في الوقت نفسه وليس بعيدًا من أدوار هذا (الاسلام المتطرف) وممارساته بالحرب في أفغانستان، وبالأوضاع الداخلية في البلدان العربية والاسلامية، وبما أطلق عليه (الثورات العربية). فلم تكن ظاهرةٌ اجتماعيةٌ فريدةٌ سلميّةٌ غير عنفية مثل ظاهرة الأربعين في أولويات الاهتمام الفكري أو البحثي في العقود الماضية.

إلا إنّ عاشوراء كحدثٍ تاريخي، أو كطقوسٍ وشعائر وممارساتٍ لم تغب عن اهتمام الباحثين في مجال الدراسات الاسلامية أو حتى في دراسات المستشرقين[1]. خاصّة أنّ إحياء هذه المناسبة لم ينقطع عبر التاريخ ، على الرغم من الظروف الصعبة والقاسية التي واجهها الشيعة، كما أنّ هذا الإحياء توسّع وازداد انتشارًا بعد انتصار الثورة الاسلامية في إيران عام ١٩٧٩م. وبعد سقوط النظام العراقي عام ٢٠٠٣ م، الذي كان قد مارس التضييق والمنع على العلماء وعلى سائر الراغبين في المشاركة في هذه المناسبة.

ما ينبغي الإشارة إليه وملاحظته سواء في تلك الدراسات الاستشراقية والتاريخية عن الشيعة وعقائدهم، أم عن عاشوراء وإحيائها، أنّ واقع الشيعة اليوم يختلف من حيث الفاعلية والدور والحيوية، عن تلك المراحل التي دُرست فيها عقائدهم وشعائرهم قبل عقود طويلة. ولا شك من منظور اجتماعي في أنّ تلك الفاعلية أو الحيوية تركت تأثيراتٍ مباشرة على إحياء مناسبات

الشيعة سواء عاشوراء نفسها أم زيارة الأربعين بما هي امتداد للإحياء العاشورائي. وحتى على طبيعة الصورة التي بات الشيعة أكثر حرصًا على تقديمها بشكل أفضل عن أنفسهم بعدما جعلتهم وسائل التواصل الالكترونية والتطورات التكنولوجية، تحت مرمى نظر العالم وسمعه وبصره. وربما نستطيع أنْ نربط بين تزايد الاهتمام السياسي والفكري والاعلامي بالشعائر العاشورائية وبزيارة الأربعين مع تزايد دور الشيعة وفاعليتهم الفكرية والسياسية والعلمية.

لم تكن زيارة الأربعين موضع اهتمامٍ بحثيّ أو إعلامي أو سياسي لأسبابٍ كثيرة. ففي العراق طوال حكم النظام السابق لم يكن من المسموح أصلًا للشيعة إقامة التجمعات أو إحياء المناسبات مثل عاشوراء، فكيف بزيارة الأربعين وما قد يجتمع فيها من حشود مليونية تتوجه سيرًا على الأقدام نحو مدينة كربلاء.

لقد استعاد العراقيون بعد سقوط النظام العراقي(٢٠٠٣م) إحياء زيارة الأربعين تدريجًا على الرغم من المخاطر الأمنية والتفجيرات المتنقلة التي كانت تهدد حياتهم وأرزاقهم، يدفعهم الى ذلك شعور عميق بالتعويض عن السنوات الطوال التي انقضت ولم يتمكنوا فيها من إحياء هذه المناسبة العزيزة عليهم التي باتت جزءًا من ثقافتهم الشعبية والدينية والاجتماعية. لذا امتزجت الدوافع الإيمانية بحوافز التعويض النفسي في وقتٍ واحد. كما بات لإحياء الأربعين دلالة سياسية غير مباشرة تتصل بسقوط النظام الذي كان يمنع احياء هذه الزيارة.

تحوّلت زيارة الأربعين تدريجًا إلى محل اهتمامٍ إعلاميّ عالميّ وعربيّ وإسلاميّ، ومحل اهتمامٍ بحثيّ وأكاديميّ على المستويات التربوية والسياسية والاجتماعية والنفسية، بعدما بدأت وسائل الاعلام تنقل حجم المشاركة الشعبية والجماهيرية في هذه الزيارة التي لا تقتصر على العراقيين وحدهم، بل تحوّلت الى أكبر تجمعٍ شعبي سنوي لملايين الشيعة (وحتى غير الشيعة) يُقّدر بنحوعشرين مليونًا من مختلف أنحاء العالم.

كان للبعد المذهبي الذي روجت له قنواتٌ إعلاميةٌ ومرجعياتٌ سياسيةٌ وفكريةٌ ودينية، وللفتن التي رُوّج لها، وعمليات القتل التي مورست بعناوين مذهبية ودينية، تأثيره أيضًا على الاهتمام بكل شعائر الشيعة وممارساتهم المختلفة في مناسباتهم الدينية. وقد أتى هذا الاهتمام

من الأوساط كافة، سواء من تلك التي تترصد الشيعة وكلّ ما يقومون به وتريد أنْ تثبت أنّ لديهم ممارسات لا تتوافق مع الاسلام، وتبرر بالتالي اتهامهم بالكفر، وبالخروج عن الدين، أو من تلك التي تريد أنْ تعرف مدى ما بلغه الشيعة من تطوّر في أوضاعهم الاجتماعية والثقافية من خلال ممارساتهم الدينية والعاشورائية تحديدًا؛ ولذا يثار النقاش في كلّ عامٍ حول ما يجري في عاشوراء من حضور ومشاركة شعبية، أو من ممارساتٍ مثل التطبير والضرب بالسلاسل، أو من مبالغاتٍ غريبةٍ ودموية ، أو حول ما يقال في السيرة من مضامين أخلاقية ودينية وتربوية، أو سياسية واجتماعية وثقافية.

لا يمكن أنْ نفصل بين هذا الاندفاع الواسع لإحياء زيارة الأربعين من داخل العراق وخارجه وبين ما تشهده مجالس عاشوراء في العالمين العربي والاسلامي وحتى في دول الغرب، من توسّعٍ ملحوظٍ للمشاركين فيها من الأوساط الاجتماعية كافة. بحيث يمكن أنْ نعدّ إحياء عاشوراء هو التمهيد المنطقي، والعاطفي، والنفسي للمشاركة في إحياء الأربعين.

لا شك في أنّ أي باحث، أو حتى أي مهتم ، يستطيع أنْ يلاحظ بسهولة كيف توسّع إحياء مجالس عاشوراء على امتداد جغرافيا العالم، في بلدانٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ وصولًا إلى أفريقيا وأوروبا، وحتى إلى الولايات المتحدة. وقد تزايدت أعداد المشاركين فيها ولم تتراجع بمرور السنوات، من المراحل العمرية كافة، على الرغم من عمليات قتل وتفجير حصلت في أكثر من مكانٍ في لبنان، وفي باكستان، أو حتى في العراق في السنوات القليلة الماضية.

ما تجدر الإشارة إليه هنا والتوقف عنده مليًا، وهو ينطبق على إحياء عاشوراء وعلى إحياء الأربعين، أنّ المقولات الثقافية السائدة خاصّة في الدراسات الاجتماعية كانت وما تزال توكّد على الترابط بين التطور التكنولوجي واستخدام التقنيات الحديثة، وبين ابتعاد الشباب عن القيم العائلية وعن الممارسات الاجتماعية التقليدية[٢]، خاصة وأنّ إحياء عاشوراء يعدّ ممارسةً تقليديةً متوارثةً جيلًا عن جيل. لكن ما نلحظه من المنظور الاجتماعي نفسه هو خلاف هذه المقولات تمامًا، ذلك أنّ مشاركة الشباب وحتى الفتيان، تتزايد في مجالس عاشوراء وحتى في زيارة الأربعين وليس العكس. ما يعني أنّ هذا الربط بين استخدام التقنيات الحديثة والتراجع

عـن الممارسـات التقليديـة الاجتماعيـة ليـس صحيحًـا في مـا يتعلـق بعاشـوراء والأربعـين. وهـي مقولـة افـترض أصحابهـا أنّهـا مقولـةٌ علميـةٌ يقينيـةٌ وثابتـةٌ وتصـح في كلّ زمـانٍ ومـكان. كـما يعنـي هـذا الأمـر مـن منظـورٍ بحثـيّ وعلمـي إعـادة النظـر في مثـل هـذه الأطروحـات والمقـولات التـي تتعـارض مـع مـا يجـري عـلى أرض الواقـع. وهـذا يحتـاج الى مقاربـاتٍ نظريـةٍ مختلفـةٍ لتفسـير هـذا الالتحـاق المتزايـد لأعـداد الشـباب ومشـاركتهم في ممارسـات تتناقـض تمامًـا مـع اتجـاه المجتمعـات نحـو التحديـث، وتتعـارض مـع نـزوع الأفـراد نحـو العزلـة والفردانيـة التـي نتجـت عـن اسـتخدام التقنيـات الحديثـة في المجتمعـات المعـاصرة.

أنموذج الفردانية الحداثية

أسـهمت عوامـل عـدّة، فلسـفية واجتماعيـة واقتصاديـة في نشـأة الفردانيـة وتطورهـا في الغـرب الحديـث. "كانـت الثـورة الصناعيـة في أوروبـا بدايـة التحـول الكبـير الـذي سيأخـذ الأفـراد والمجتمـع نحـو قيـم المنفعـة وتحصيـل المال...ومـع اسـتبعاد الديـن عـن منظومـة الحيـاة والتفكـير والمعرفـة، بـات الانسـان، وبمعـزل عـن أي مرجعيـة دينيـة، هـو الـذي يقـرر مـا يريـد ومـا لا يريـد. لقـد أصبـح الإنسـان هـو مركـز الكـون بعدمـا كان الله هـو هـذا المركـز"[٣].

هكـذا بـدأ مسـار الفردانيـة الـذي يُعـلي شـأن الفـرد ورغباتـه وحاجاتـه عـلى أيّ شـأنٍ دينـي أو اجتماعـي. أسـهم الصعـود الرأسـمالي الـذي واكـب عـصر النهضـة في تعزيـز قيـم الفردانيـة، بعدمـا دعـا (آدم سـميث) (تـوفي عـام ١٧٩٠م) في مؤلّفـه المعـروف (بحـث في طبيعـة ثـروة الأمـم وأسـبابها) (١٧٧٦)، والـذي اشـتهر اختصـارًا باسـم (ثـروة الأمـم) إلى تعزيـز المبـادرة الفرديـة، والمنافسـة، وحريـة التجـارة، بوصفهـا الوسـيلة الفضـلى لتحقيـق أكـبر قـدر مـن الثـروة والسـعادة. أي أن سـميث سـيكون مـن أبـرز الداعـين في مؤلفـه هـذا إلى الربـط بـين الفردانيـة وبـين تحصيـل الثـروة والتملـك وتحقيـق السـعادة. وسـتكون أطروحـة آدم سـميث في (ثـروة الأمـم) مـن أهـم مـا سـيتعرف عليـه ومـا سيدرسـه طـلاب الجامعـات في أنحـاء مختلفـة مـن العـالم في تخصـص الإقتصـاد. ولا شـك في أنّ المنافسـة، والتملـك، وتكديـس الثـروة الفرديـة كـشروط للسـعادة، بحسـب آدم سـميث لـن تتوافـق عـلى الإطـلاق مـع مـا يجـري في زيـارة الأربعـين، التـي سيشـعر المشـاركون فيهـا مـن زوار أو ممـن

يخدمونهم بالسعادة لأسباب مغايرة لا علاقة لها لا بالتملك ولا بالمنافسة ولا بتكديس الثروة.

وفي شرحه لطبيعة هذا النظام ينفي(آدم سميث) أي بعدٍ إنساني أو خيري أو أخلاقي عن ما يقوم الأفراد؛ لأنّ الهدف العقلاني هو المصلحة الخاصة، أي الفردانية. وها هو يقول على سبيل المثال: "إنّنا لا نتوقع أنْ نحصل على طعامنا نتيجة نزعة الخير عند الجزار أو الخباز لكن من منطلق رغبتهما في تحقيق مصالحهما الخاصة، هذه المصلحة الذاتية العقلانية، هي التي يمكن أنْ تؤدي إلى تحقيق الرخاء الاقتصادي"[٤].

ولكن ماذا لو كان هناك من لا يستطيع أنْ يدفع ثمن اللحم أو الخبز؟ هل سيشعر الخبّاز أو الجزّار حينها بالسعادة؟ وماذا لو قرر الخبّاز الذي لا يعمل وفق نزعة الخير كما يفترض آدم سميث أنْ يعطي بعض الخبز مجانًا بسبب وجود نزعة الخير عنده؟ فهل سيؤدي هذا الأمر إلى منع تحقق الرخاء الإقتصادي، كما يفترض آدم سميث؟

إنّ ربط السعادة بتحقيق المصالح الخاصة كما يعتقد آدم سميث، هو الذي ينفي أي احتمال للفعل الانساني، كأن يعطي الخبّاز خبزًا لأناسٍ لا يملكون المال مثلًا، أو أنْ يفعل الجزّار ذلك، فهذا غير متوقعٍ أصلًا في فلسفة الفردانية، وسلوكياتها.

صحيح أنّ هذا التوجه هو توجّهٌ اقتصادي، لكنّه في الوقت نفسه هو توجّهٌ فكريّ وفلسفيّ واجتماعي. ولانستطيع منهجيًا أنْ نفصل في أيّ عملية اقتصادية تستهدف الربح، والتحفيز على التملك وتعطيم المنفعة والتملك، وبين أبعادها الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية.

عندما نقول إنّ السمة الأساس للرأسمالية حسب تعريفات المفكّرين الاقتصاديين هي الدافع الى تحقيق الربح، فهذه التعريفات بُنيت على فكرة أنّ هدف الانسان في هذه الحياة هو تحقيق الربح والمنفعة الشخصية وعلى هذه الفكرة بُنيت نظرية الرأسمالية، بل نظريات أخرى في العلوم الإنسانية أيضًا عدّت هدف الإنسان في الحياة هو المنفعة واللذة والربح، وهي التي ستبرر الفردانية التي سيتمحور حولها وجود هذا الإنسان وأولوياته في الحياة[٥]. ومع تعاظم الفردانية ستتراجع بلا شكّ قيم التضحية والتطوع والقيم الانسانية والأخلاقية والمعنوية، كما ستتراجع معها حتى قيم الارتباط الأسري التي لم تعد ترى في هذا الارتباط سوى ضوابط وقيود تحدّ من الحرية الفردية للرجل والمرأة على حدٍّ سواء.

كيف تحوّل الإنسان إلى هذه الفردانية التي جعلت هدف الحياة هو الربح والتملك والاستهلاك والتي ربطتها نظرية سميث وسواه بالسعادة؟ "دعه يعمل دعه يمر"، هي التي بررت الفردانية وشجعت عليها. "دعه يعمل دعه يمر"، تعني لا تسأله عن شيء، ولا تحاسبه، ولا تقل له ماذا تعمل، دعه يعمل سواء في أمور مقبولة أم غير مقبولة، أخلاقية أم غير أخلاقية، مفيدة أم غير مفيدة، "دعه يعمل دعه يمر" هذا الشعار يجسد الغاية التي هي الربح والربح فقط ؛ لذا بإمكان الإنسان أنْ يعمل ما يشاء، لا أحد يحاسبه، ولا أحد يتدخل في ما يعمل، أي أنت حر، تختار ما تريد. هذا النظام الاقتصادي هو نتاج تغيّر في الجانب الفكري والفلسفي والاجتماعي، وهو نتاج ما حصل في الغرب من تهميش الكنيسة واستبعاد الدين وكما يسميه البعض استضعاف الدين، كما كان الوضع في بلادنا قبل نصف قرن. جاءت الرأسمالية بخلفياتها الفلسفية والاجتماعية لتقول إنّ الوعد الديني بالحياة الأخروية التي كانت تقدمه المسيحية والكنيسة، قد انتهى، وهو أصلًا لا وجود له، وإنّ الوعد الحقيقي هو في هذه الدنيا التي نعيشها، يعني لا تؤجل رغباتك، ولا تؤجل ما تحب أن تعمله، ولا تبذل أيّ جهدٍ إلا لتحقيق ما ينفعك ويحقق لك الملذات في هذه الدنيا. "وفي هذا المشهد الاقتصادي، لم تعد الأنانية والمادية تُرى كمشاكل أخلاقية، بل كأهداف جوهرية للحياة"[٦].

ما سبق من معايير لتحقيق السعادة، وأهداف الحياة الجوهرية، يتعارض تمامًا مع ما يجري في أثناء زيارة الأربعين، وما يُقدّم فيها من خدماتٍ وما يتطلع إليه المشاركون في الزيارة ومن يقدّمون الخدمات إلى هؤلاء الزوّار، من أهدافٍ لا تمت بصلة إلى قيم المنفعة وتأجيل الرغبة، والتعلق بالتملك والربح . إنّ (الأنا) وفردانيتها في ممارسات الأربعين تذوب تمامًا في الإنتماء إلى(الجماعة)، ليس من أجل تحقيق المنفعة الذاتية، بل من أجل الأجر والثواب والأمل بالشفاعة وتعظيمًا للإمام الحسين عليه السلام، من خلال خدمة الجماعة التي أتت لزيارته. أي أنّ (الأنا) تذوب في البعد المعنوي الإيماني المتعلق بالإمام الحسين عليه السلام عبر الخدمة التي تقدمها هذه (الأنا) لزوار الإمام.

إنّ المشقة التي تتسبب بها خدمة زوار الأربعين، هي التي تحقق السعادة والإطمئنان لمقدميها، لا تتفق على الإطلاق مع معايير السعادة الحداثية التي ربطت هذه السعادة بالتملك

والاقتناء والتفاخر، وبتحقيق المنفعة الذاتية.

وخلافًا للفردية المطلقة "التي أدّت إلى التشظي اللامتناهي للعقائد، والتي حطّمت الإجماع الديني الضروري للسلام والوئام الاجتماعي، وأدّت إلى فقدان أوروبا لاتجاهها الأخلاقي.."[٧]. تحولت زيارة الأربعين إلى وسيلةً للتضامن الاجتماعي والعقائدي، والإلتزام الأخلاقي، والانخراط في روح الجماعة وتقليص مساحة الفردانية والأنانية.

وفي كتابه عن (الثمن الباهظ للمادية) يقول تيم كاسر: "لقد تم إغراء عددٍ كبيرٍ منا بالإعتقاد أنّ امتلاك مزيدٍ من الثروة والممتلكات المادية أساسي للحياة الكريمة. لقد تشربنا فكرة أنّ الانسان، لكي يكون سعيدًا، يجب أنْ يكون ميسورًا أولًا. وقد تعلّم كثيرون منا عن وعي أو عن غير وعي، تقييم رفاهيتنا وإنجازاتنا ليس فقط من خلال النظر إلى الداخل إلى روحنا أو كمالنا، بل من خلال النظر خارجيًا إلى ما نملك وإلى ما نقدر على شرائه. وعلى نحو مشابه، لقد تبنينا نظرةً كونيةً لا يُحكم فيها على قيمة ونجاح الآخرين من خلال حكمتهم الظاهرة ولطفهم، أو مساهماتهم الاجتماعية، بل من خلال الحكم على ما يملكون مثل الملابس المناسبة والسيارة المناسبة وبشكل عام الأشياء المناسبة..."[٨].

ما يتحدث عنه (كاسر) من مواصفاتٍ لتحقيق السعادة مثل (الملابس والممتلكات المادية ، وعدم النظر إلى ما في داخلنا)، لا علاقة له بمعايير ما يجري في زيارة الأربعين التي يشعر فيها الناس بالسعادة من الزوار، وحتى ممّن يقدّمون لهم شتى الخدمات من خلال شعورهم الداخلي الباطني الذي لا يتعلّق بأيّ بعدٍ ماديّ أو شكلي، أو ملابسٍ مناسبة، أو أيّ مظهرٍ من المظاهر الاجتماعية، كما تفترض الحداثة الغربية.

كان هذا المنظور المادي الفرداني للسعادة بالتملك والنظر إلى الخارج، وليس إلى داخل الانسان، نتاج ما سبقت الإشارة إليه، عن عصر النهضة الأوروبية "الذي سيتقدم معه الإلحاد كخيار أقوى من الإيمان. هكذا أدخلت عقلية الفردانية العالم الغربي على وجه الخصوص في أزمة اكتئاب، وفقدان العلاقات الإنسانيّة الصادقة. هذه العقلية التي هي نتاج النهضة العلميّة والحداثة التكنولوجيّة قلبت أسلوب حياة الإنسان الغربي ومنهجه المعرفي رأسًا على عقب،

فصار ضحيّة العلاقات السطحيّة، والتحلّل الأخلاقي، وثقافة الاستهلاك والاستبدال وغيرها من الأزمات الاجتماعية وروحيّة"[٩].

وفي سياق هذا النقد لحداثة المجتمع الغربي يؤكّد (ألفن توفلر) أنّ "كلّ الجذور القديمة الثابتة كالدين، والأمّة، والمجتمع والأسرة، والمهنة تهتزّ الآن كلّها بقوّة تحت التأثير العاصف لدفعة التغيير المتسارعة"[١٠]. إنّ من أهم ما ينتقده (توفلر) في المجتمع الغربي هو تفشّي ثقافة الاستهلاك المادّيّة التي ولّدت بدورها ثقافة الاستبداليّة Replaceability، وعادة "التخلّص من الأشياء، حيث أصبح الإنسان المعاصر يستخدم الكثير من المنتجات التي يرميها بعد الاستعمال لمرّة واحدة، أو سرعان ما تنتهي صلاحيّتها. فلم يعُد الشخص يكتفي بالموجود وأصبح غارقًا في حالة (عدم الرضا)، وهو سببٌ آخر لتعاسة وكآبة الإنسان المعاصر. وهكذا يبقى الإنسان في دوّامة غير متناهيةٍ من الرغبات التي لا تشبعه. ولا يخفى أنّ هذه الدوامة بدورها تجرّ الإنسان لعدم الاستقرار النفسي وبالتالي توليد الاكتئاب[١١].

لم تقتصر الفردانية على هذه الرغبة بالتملك أوبالاستهلاك لجلب السعادة، بل تحولت الفردانية إلى حالة من القطيعة مع الآخر الذي لم تعد الحياة معه ضرورية، وهذا ما يفسّر كيف تراجعت الرغبة في بناء حياة أسرية مع (الآخر)، بعدما باتت الأسرة عبئًا على فردانية كلّ طرفٍ فيها، وكذلك بات إنجاب الأولاد عبئًا إضافيًا؛ لأنّ حقيقة العيش مع الآخرين لا يُنظر إليها عمومًا على أنهّا ضرورية؛ لأنّها تتعارض من منظور الفردانية مع أنانية الإنسان، وهذا ما يجعل الانسان في حال صراعٍ دائمٍ مع الآخرين، الذين ينازعونه على الإمكانيات، وقد لخّص جان بول سارتر هذا الصراع بمقولته الشهيرة "الآخر هو الجحيم".

"إن مثل هذا الصنف من الفردانية، الذي يغيّب البعد المتسامي للإنسان... يقع على الطرف النقيض لأيّ غيريةٍ، وأيّ عقلانيةٍ حقيقية. وعندما بلغ اكتفاء (الأنا) بذاتها درجات الذروة، شكّلت السبب الحاسم للانحطاط الراهن للغرب"[١٢].

الأنموذج التراحمي في زيارة الأربعين

الآخر في الأربعين ليس (الجحيم)، وليس المنافِس على الربح وعلى المنفعة الشخصية، الآخر في الأربعين أنموذجٌ غير فريدٍ يتسابق فيه الأفراد والجماعات على خدمته، لطلب الرحمة والتقرب ونيل الأجر والثواب. هو نقيض الآخر في منظور سارتر وفردانية النظام الرأسمالي والقيم الاستهلاكية. هو الآخر من المنظور القرآني الذي جعل بين الناس تواداًّ وتراحمًا مثل ما جعل بين أفراد الأسرة مودّةً ورحمة. الآخر هو أخ في الدين ونظير في الخلق كما قال الإمام علي عليه السلام، وليس جحيمًا.

إنّ زيارة الأربعين وما يجري فيها من عملٍ تطوعي فردي وجماعي، هو عملٌ لا يبغي الربح ولا التنافس، ولا التباهي، ولا أيّ مقابلٍ مادي، وهو بالنسبة إلى من يقوم به سلوكٌ تعبدي للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ولنيل الأجر، من خلال خدمة ملايين الزوار الذين يتوجهون لزيارة الإمام الحسين. أي إنّ الثقافة التي تظلل هذا السلوك وتحثّ عليه هي ثقافةٌ إيمانيةٌ بسيطةٌ غير معقّدةٍ تتصل بتقاليد وممارسات اجتماعية منغرسة في ثقافة العراقيين، لم تختف أو تزول، على الرغم مما أشرنا إليه من ظروفٍ صعبةٍ وقاسيةٍ عاشها العراقيون مع السلطات الحاكمة.

في الأربعين تختلف معايير السعادة تمامًا. السعيد هو من تمكّن من خدمة الزوار، وهو من استطاع أنْ يقدم هذه الخدمة إلى أوسع عددٍ ممكنٍ منهم، وكلٌّ بحسب استطاعته. ليس هناك معيار مادي لما يُقّدم، قد يكون كوبًا من الماء وقد يكون وجبة طعام، وقد يكون مكانًا للراحة أو للنوم. مقياس السعادة هنا هو الشعور بالرضا لتقديم الخدمة، والسعادة هي الشعور بالتقرب إلى الله بخدمة زوار الحسين عليه السلام. إنّه شعور داخلي باطني معنوي لا يمكن قياسه، بالمعايير التجريبية التي ذهبت إليها معظم الدراسات في العلوم الاجتماعية والنفسية التي عرفتها المناهج الغربية في دراسة الإنسان وتفسير سلوكه في العلوم الانسانية.

لم يكن لمنطق الفردانية الحداثية، وإعلاء شأن الأنا، ولمنطق تمجيد المصلحة الذاتية، ونظريات الربح وتكديس الثروة وتقديس قيم التملك والاستهلاك، التي لا تجعل للحياة سوى هدف البحث عن المنفعة، كما قدمته التجربة الحضارية الغربية خلال مائتي عام، أنْ يُحيط بمثل هذا

العمل التطوعي التعبدي الذي ينفي عن الفعل الإنساني أيّ هدفٍ لجني المال أو تحقيق الربح أو التنافس. فما تأسست عليه هذه الفردانية الحداثية هو نتاج منطق مغاير تمامًا لمنطق التعبد والتطوع وخدمة الناس (الزوار) من دون توقع أي مقابل.

إنّ جوهر ما يجري في زيارة الأربعين، يقوم على العمل التطوعي، والخدمة المجانية للزوّار. ومثل هذا العمل في خدمة ملايين الأشخاص في وقتٍ واحد، ومن دون أيّ مصلحة، أو رغبةٍ في ربح، أو في منفعةٍ ماديةٍ لن نجد له مثيلًا في التاريخ المعاصر، وربما حتى في التاريخ الإنساني.

ولاشك في أنّ مثل هذا العمل يترك أثرًا مهمًا في نفس المشارك المتطوع على مستوى ترفعه عن (الأنا)، فهو لا ينتظر تقديرًا من أحد، ولا يتوقع ربحًا. بل على العكس هو يبذل ممّا يملك. والهدف هو هدف معنوي يتصل بما يتطلع إليه من أجرٍ وثوابٍ على المستوى الديني؛ لأنّ أصل هذه الخدمة التطوعية التي قام بها وحصل عليها الزوار إنّما كانت من أجل الهدف الذي أتوا من أجله وهو زيارة الامام الحسين عليه السلام.

كما أنّ الزائر نفسه الذي يحصل على كلّ هذا الاهتمام والرعاية وحسن الاستقبال والود، ويرى بأم العين كيف يتنافس العراقيون على خدمته، من دون أيّ مقابلٍ مادي، ومن أجل هدف (مؤجّل) هو الأجر والثواب، سيصبح بلا شك، أكثر استعدادًا لتقبّل المشاركة بدوره في العمل التطوعي مستقبلًا، وفي أي عملٍ يمكن أنْ يحقق خدمة للناس وللمحتاجين في بلده وليس بالضرورة أنْ يكون ذلك في زيارة الاربعين فقط. وهذا يتعارض تمامًا مع تلك التوجهات التي تؤكّد على أولوية الفردانية وعلى حبّ الذات التي تبشر بها وتروج لها أدبيات الحداثة المختلفة.

إنّ ما يجري في زيارة الأربعين يتناقض تمامًا مع ما يجري في ما نسميه (مجتمع السوق) المجتمع الأربعيني يسهم في خلق (المجتمع التراحمي)، وهو نقيض (مجتمع السوق). هذا المجتمع هو مجتمع يحكم على أعضائه باعتبارهم مُستهلكين في المقام الأول، بل في المقام الأول والأخير. إنّه مجتمعٌ لا يرى الإنسان إلا مجموعة من الحاجات المادية البسيطة المجردة التي تحددها الاحتكارات وشركات الإعلانات والأزياء وفكرة تعظيم لذّة المستهلك وزيادة أرباح

الشركات"[١٣]. هذا المجتمع يَحكم على أعضائه ويقيّمهم بما لديهم من قدرةٍ استهلاكيةٍ وما يتبعونه من سلوكٍ استهلاكي. وهذه هي سمات(مجتمع الاستهلاك) الذي لا يعترف بقيم البساطة، والإكتفاء، والقناعة، وعدم الإسراف.

إنّ الثقافة التي تفضّل البعد الاقتصادي على أيّ بعدٍ آخر تربوي أو نفسي أو أمومي، والثقافة التي تقيّم عمل المرأة وتحدد قيمتها بما تنتجه من مالٍ، وتعدّ عملها المنزلي الأمومي بلا قيمة (غير منتج) هي في الواقع ثقافة الشركات والمؤسسات وثقافة السوق والعرض والطلب "التي أعادت صياغة الإنسان ذاته في ضوء معايير المنفعة المادية والجدوى الاقتصادية، وهو عنصر أساسي في منظومة الحداثة الغربية، زاد معه تسلّع الإنسان وتشيؤه (ما يعني إزاحته عن المركز على أنْ تحل السلع والأشياء محله). وتزايدت هيمنة القيم البرّانية المادية مثل: الكفاءة في العمل في الحياة العامة مع إهمال الحياة الخاصة، والاهتمام بالمرأة العاملة (البرّانية) مع إهمال دور المرأة الأم (الجوّانية)، والاهتمام بالإنتاجية على حساب القيم الأخلاقية والاجتماعية الأساسية (مثل تماسك الأسرة وحق الأطفال في توفير الطمأنينة لهم)، واقتحام وسائل الإعلام وقطاع اللذة مجال الحياة الخاصة، وإسقاط أهمية الإحساس بالأمن النفسي الداخلي، وإسقاط أهمية فكرة المعنى باعتبارها فكرة ليست كمّية أو مادية..." [١٤].

بل سينشأ علمٌ خاصٌّ لهذا التحريض على الشراء، سيربط بين الشراء والتملك وبين السعادة هو (علم اقتصاد السعادة) وسيوظّف عدد متزايد من الشركات (مديرين للسعادة)، وستنشأ تخصصات أكاديمية مثل (علم نفس المستهلك) من أجل فهم كيفية استجابة الإفراد وانفعالاتهم لإعلانات مختلفة. "ولو أرّخنا لبداية علم النفس الحديث بالعام ١٨٧٩، فما هي إلا عشرون عامًا أخرى قبل نشوء حقل (علم نفس المستهلك).. وبالتالي نحن بحاجة إلى فحص تاريخ علم النفس والنزعة الإستهلاكية باعتبارهما مشروعين متشابكين"... وقد أسفر الكثير من التقدم التقني عن طفرة علمية داخل منظومة أبحاث السوق" على أساس "أنّ الاستهلاك هو ما يولد الرفاهية العقلية العظمى"[١٥].

قدّمت الحداثةَ نفسها بديلًا من مَمْنُوعاتِ الدِّين، ومن تأجيلِ الرَّغبات، واختصرت معنى الوجود في السَّعادة الآنيَّة، وليس في أيِّ توقُّع آخر غيبيّ، أو ما بعد دنيويّ لتلك السَّعادة. ولعلّ هذا ما قصده نيتشه عندما قال: "لقد خطونا نحو عصر الظُّلمة الّذي لم يهرّب الآلهة فحسب"؛ بل أمات بارقة النُّور الإلهيّ في التَّاريخ... لقد حلّ "عصر انحطاط المعنويَّة"، وهيمنت الموضوعات الكمِّيَّة على الهواجس النَّوعيَّة، وتحوّلت كلّ الحياة إلى معادلةٍ اقتصاديَّةٍ نفعيَّةٍ. إنَّ الإنسان الحالي ينزلق من أزمةٍ إلى أزمةٍ؛ إنّ العصر الحديث هو "عصر نسيان الوجود". لقد تشكّل "عصر بلا فكرٍ تمامًا". إنّه "عصر اللّامعنى والعدميَّة"(١٦).

إنّ هذه الزيارة تقدّم أنموذجًا يتعارض تمامًا مع كلّ ما أنتجته الحداثة من قيمٍ ومفاهيم في العلاقات الانسانية، التي تراجعت تقنيات التواصل الحديثة على المستويات العاطفية والانفعالية. كما تراجعت كل الأفكار عن التسامح والتعاون ومدّ يد العون للضعيف وللفقير. باتت مؤسسات العولمة الدولية لا تعطي قروضًا إلّا إذا رفعت الحكومات المستدينة الدعم عن خبز الفقراء وطبابتهم ومساعداتهم الاجتماعية. أما ما يمكن أنْ يحدث بعد ذلك من توتّراتٍ اجتماعية ومن تدهورٍ في حياة الناس، وما يمكن أنْ يصيبهم من أمراضٍ ومن عجزٍ عن معالجة هذه الأمراض فلا أحد يهتم، فهذه ليست مشكلة البنوك الدولية. باتت العولمة الحداثية تقول للحكومات إنّ على كلّ فردٍ أنْ يتحمل وحده مسؤولية شيخوخته وصحته وتعليم أولاده. أرادت هذه الحداثية العولميّة بما أنتجته من قيمٍ ثقافيةٍ واجتماعية، ومن قوانين وشروط اقتصادية، أنْ تقضي لا على أيّ سياسةٍ تهدف الى تحقيق التضامن الرعائي من الجانب الحكومي فحسب، بل حتى على أيّ تفكيرٍ فرديّ بمثل هذا التضامن مع الآخر. وقد انسحب هذا النوع من التفكير والتراجع عن خدمة الآخر على قطاعاتٍ واسعةٍ من المفكّرين والباحثين، وحتى على كثيرٍ من المؤسّسات المعنية بمثل هذه القضايا.

لم يعدّ مقبولًا بالنسبة الى مؤسسات العولمة أنْ ينتظر أحدٌ أحدًا. الضعيف ينسحب من السباق. في المدرسة يجب أنْ نفصل المتفوقين عن الطلاب العاديين، وأنْ نعزل ذوي المستويات الدنيا. أي لا يجب أنْ تتعايش في صفٍ واحدٍ ومكانٍ واحدٍ قدرات مختلفة. إنّه منطق المصنع

والمصرف الذي انسحب على المؤسسات الأخرى. لا يمكن الصبر على الضعيف لكي يتحسن ويتقدّم. ولا يمكن للقوي والمقتدر أنْ يمدّ يد المساعدة لمن يحتاجها حتى يواصل الجميع بقدراتهم وطاقاتهم المختلفة معًا في المدرسة أو في المصنع أو في أيّ مكانٍ آخر يلتقي فيه الناس.

وفي البيت بات عاديًّا أنْ يعيش المسنون خارج أسرهم، في أماكن خاصّة بهم؛ لأنّ وجودهم يعيق حركة الأبناء من النساء والرجال عن الذهاب الى العمل وفي تحصيل المال الذي بات أهم من برّ الوالدين. لقد فككت قيم الحداثة العلاقات العائلية، وعلاقات التضحية والوفاء، وعلاقات التضامن والتماسك التي يعيش في ظلها أفراد الأسرة من الفئات العمرية كافة: الطفل والشاب والمسن والحفيد والقريب. انصرف الناس الى شؤونهم الفردية الخاصة. باتت هذه ثقافة تنتشر بقوةٍ وتكاد تصبح ثقافة عادية وطبيعية، ويصبح الاعتراض عليها مستغربًا.

"فتاريخ الحداثة الغربية، كما يقول زيغمونت باومن، هو تاريخ صعود النزعة الفردانية في مجتمعات الغرب، وصولًا إلى ما يسميه باومان بمجتمع الأفراد. إذ أصبح البشر أحرارًا من الداخل، ليس فقط في قبول الحقيقة الإلهية كما عند مارتن لوثر أو في الاختيار الأخلاقي عند كانط، بل أيضا أحرارًا في خلق القيم والأخلاق ذاتها من دون أيّ مرجعيةٍ مجتمعيةٍ أو سياسيةٍ أو دينية. لقد باتت النزعة الفردانية التي خلقت الغرب الحديث الليبرالي كما نعرفه اليوم، وحشًا منفلتًا لا عقال له، وتحطم في طريقها جميع شبكات الأمان والتضامن الاجتماعي والفعالية السياسية، وتخلق في المقابل شعورًا مؤلمًا وحادًا بالعزلة والهشاشة والخوف، كتتويج أخير وتراجيدي لمسيرة الفردانية الغربية..."[١٧].

قلبت زيارة الأربعين هذه المقاييس كلّها. في زيارة الأربعين الناس لا تعرف بعضها، لكنها تسعى نحو هدفٍ واحدٍ، وتسير في طريقٍ واحد. ولا أحدٌ يريد بدلًا أومقابلًا ماديًا لقاء ما يقدمه من خدمات لهؤلاء القادمين من انحاء العالم كافة. ما يجري هنا هو ما يتطلع إليه القرآن الكريم، في الكثير من آياته، من حثٍّ على استباق الخيرات، ومن ربط الإيمان بالعمل الصالح.

هـذا المنطـق (التراحمـي) يخالـف كلّ مـا انتجتـه الحداثـة مـن قيـم الربـح والخسـارة ومـن قيـم الحـرص والتنافـس، ومـن عـدّ الربـح المـادي قيمـةً لا تعلوهـا قيمـة. هنـا الأمـور معكوسـة تمامًـا؛ التنافـس هـو لخدمـة الـزوّار، وليـس لتحقيـق الربـح. السرعـة المطلوبـة هـي في توفـير مـا يحتاجـه الزائـر لكـي يشـعر بالأمـان والاطمئنـان، وليـس لتحقيـق أيّ عائـدٍ للطـرف المقابـل.

البعـد الايمـاني الدينـي هـو نقيـض تلـك القيـم كلّهـا التـي لا تـرى في الآخـر إلّا مسـتهلكًا أوهدفًـا لجنـي المـال. في زيـارة الأربعـين التنافـس لـه بعـده الإيجـابي. فهـو ليـس لإقصـاء أيّ أحـدٍ بـل للمسـارعة إلى خدمـة الضيـوف القادمـين مـن شـتى الأنحـاء. منطـق الأمورهنـا مختلـف تمامًـا. نحـن هنـا أمـام سـلوك (تراحمـي) يسـتند الى منطـق لا تعرفـه العولمـة ولا الحداثـة ومؤسسـاتها وقيمهـا. هـذا المنطـق يتصـل بالرغبـة في تحصيـل الأجـر والثـواب، وفي التطلـع الى (خدمـة زوار الحسـين). الهـدف هـو الحسـين مـن خـلال زوّاره. وهـدف الثـورة الحسـينية لم يكـن شـخصيًا ولا يبحـث عـن منفعـة فرديـة أو أسريـة، بـل كان هدفًـا إنسـانيًا قرآنيًـا لطلـب الإصـلاح، ومواجهـة الفسـاد والإنحـراف. ومـا بذلـه الإمـام الحسـين كان ذروة التفـاني في سـبيل قضيـة سـامية. نحـن هنـا أمـام مدرسـةٍ لهـا خصوصيتهـا في مبادئهـا وأصولهـا وبرامجهـا وأهدافهـا وفي النتائـج التـي يطمـح النـاس في الوصـول اليهـا[١٨].

(المجتمـع التراحمـي) الـذي يتشـكل دوريًـا في زيـارة الأربعـين هـو المجتمـع الـذي يقـدم أنموذجًـا لعلاقـات إنسـانية غـير ماديـة بـين الأفـراد، ولا تقـوم عـلى مجـرد المنفعـة، فهـي مثـل مـا كانـت أهـداف الإمـام الحسـين، والثـورة العاشـورائية. وعلاقـات المجتمـع التراحمـي ليسـت علاقـات عقلانيـة مجـردة، تخضـع لحسـابات تعاقديـة محضـة (أنْ يبحـث الإمـام الحسـين عـن مصلحتـه الذاتيـة، أو أنْ يرحـل أتباعـه وينصرفـوا عنـه حمايـة لأنفسـهم ولمنفعتهـم الخاصـة والشـخصية). والتراحـم بهـذا المعنـى هـو أبعـد مـا يكـون عـن الفردانيـة والذاتيـة بـل هـو يذهـب في اتجـاه معاكـس تمامًـا عندمـا يتحقـق مـن خـلال التعـاون والإيثـار. وهـذا مـا يحصـل تمامًـا في زيـارة الأربعـين.

فكـرة الحـق الفـردي والفردانيـة، وهـي أسـاس الحالـة التعاقديـة، قلبـت العلاقـات الاجتماعيـة والأسريـة رأسًـا عـلى عقـب. فالمـرأة هـي ذلـك الفـرد وليـس العضـو في أسـرة، والأمومـة، حالـة غـير منتجـة ماديًـا ولا تتفـق مـع التعاقـد، والعمـل المنـزلي لا قيمـة لـه وليـس (عمـلًا)؛ لأنّـه مـن دون

مقابل، ما يعني أنّه لا يتفق مع الحالة التعاقدية[١٩]. ما يحوّل العلاقات الأسرية إلى علاقات تناحرية وتنافسية، تغيب عنها قيم التواد والرحمة والتعاطف، في حين أنّ العلاقات الأسرية من منظور القرآن الكريم ينبغي أنْ تكون علاقات تراحمية بين الزوجين أنفسهم، وبين الأبناء والآباء؛ لأنّ الأسرة هي أساس الاجتماع الانساني. فقد جاء في سورة الروم: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[٢٠].

أما في طبيعة العلاقة التراحميّة المطلوبة بين الأبناء والآباء، فيأمر القرآن الكريم الأبناء حتى بعدم التأفف في التعامل مع الوالدين، كما تنص على ذلك الآية الكريمة: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٥).

والعلاقات في الأنموذج التراحمي لا تُختصر ببعدها الأسري كما جاء في الآيات السابقة، بل تمتد هذه العلاقات إلى المجتمع الأوسع الذي لا يعظّم قيم التملك والاقتناء والاستهلاك، بل يحثّ على الإنفاق وعلى عدم التشدد في إقتناء المال والثروة ، وعلى ذمّ (الذين يكنزون الذهب والفضة) ولا ينفقونها على الناس والمحتاجين وفي سبيل الله. إنّها رؤيةٌ حضاريةٌ وإنسانيةٌ مختلفةٌ كليًا، سوف يكون ما يجري في زيارة الأربعين أكثر انسجامًا مع هذه الرؤية القرآنية للإنفاق مما يُحب الإنسان، تجاه أخيه الإنسان. وسنلاحظ في سورة البقرة في القرآن الكريم كيفية تنظيم هذا الإنفاق في الآية ١٧٧ : ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[٢١].

هذا الإنفاق يجب أنْ يبدأ بذوي القربى، ثم اليتامى، ثم المساكين، ثم أبناء السبيل، ثم السائلين، وصولًا إلى من هم في الرقاب. هذا الإنفاق التراحمي يمتد إلى معظم أفراد المجتمع،

ولا يقتصر على الأقارب فقط. وكذلك في الأربعين لا تتوجه الخدمة أصلًا (وهي بمنزلة إنفاق) على الأقارب أو الأصدقاء أو الجيران، بل تستهدف هذه الخدمة أصلًا الزوار كافة، بغض النظرعن هويتهم الاجتماعية، أو جنسيّتهم. وهذا جوهر "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم".

تُقدّم زيارة الأربعين أنموذجًا أخلاقيًا اجتماعيًا استثنائيًا. فمن يشارك فيها وفي إدراة عملياتها كافة وفي تنظيم برامجها هم فئات الشعب كافة. ليس هناك متخصّصون وخبراء. وليس هناك رئيس أو زعيم أو مدير. وهذا شيء غريب في التعامل مع حشود تعد بالملايين. في كلّ بلاد العالم تحتاج مثل هذه الحشود إلى الآف العناصر للحماية ولحفظ الأمن ولمنع التصادم والاعتداءات. لكن في (ثقافة الاربعين) يتحول الجميع، لا فرق بين غني وفقير، أو بين مسؤول وغير مسؤول الى (خدّام). والخدّام ظاهرة تعرفها المقامات في إيران والعراق بشكل خاص عندما يتطوع شخصيات حتى من مواقع اجتماعية وثقافية عليا، ويحجزوا وقتًا لهم ليتمكنوا من خدمة الزوار، أو حتى لتنظيف ومسح أرضية هذه المقامات، والهدف هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ونيل الأجر والثواب من خلال خدمة الزوار في هذه المقامات. وهذا جوهر ما يتكرر في زيارة الأربعين.

وربما هذه هي المدرسة أو الظاهرة الوحيدة في العالم التي يتنافس فيها الناس لكي يكونوا في مواقع الخدمة، وليس في مواقع الرئاسة أوالزعامة أوالإمرة على الآخرين.

إنّ وجود مشاركين في زيارة الأربعين من مستوياتٍ اجتماعيةٍ وثقافيةٍ واقتصاديةٍ مختلفةٍ على قدم المساواة في المشقة وفي الحصول على الاهتمام والخدمة سوف يترك بلا شكّ تأثيراتٍ نفسيةً وثقافيةً مهمةً خصوصًا لدى الفئات الاجتماعية العليا أو المقتدرين ماديًا واقتصاديًا لجهة التخفف المعنوي والمادي من متعلقات هذا المنصب أو تلك القدرة، أو لجهة الشعور بالتضامن والتساوي مع الآخرين في المواقع الآخرى الأضعف أو الأقل قدرة. وهذا يضفي على هذه الممارسة ذات الهدف الديني بعدًا اجتماعيًا تضامنيًا مهمًّا، قد لا نلحظه في أيّ ممارسةٍ أخرى.

والمقصود هنا هو التغيير المتوقع الذي سيحصل لهؤلاء المشاركين على مستوى السلوك الاندماجي التشاركي في المجتمع، والذي سوف يؤدي لاحقًا إذا توفرت له الظروف المناسبة،

والبرامج الارشادية والدورات التدريبية الى تحوّلٍ ثقافيّ عميقٍ في العلاقات الاجتماعية والانسانية التضامنية في المجتمع. خصوصًا إنّنا أحوج ما نكون الى هذا السلوك التطوعي والتضامني في كثيرٍ من بلداننا العربية والاسلامية التي تعاني من ويلات الحروب وتداعياتها الأسرية والاجتماعية والنفسية.

في هذه الثقافة الأربعينية تتفاعل وتتوحّد كلّ أنواع الانتماء العشائري والاجتماعي والمناطقي على مستوى العراق. أي أنّ ما تفرقه السياسات والمصالح والخلافات في الحياة اليومية تجمعه زيارة الأربعين، ولو الى حين. وفي هذه المدرسة تتفاعل من خارج العراق كلّ الانتماءات العرقية والجغرافية بحيث تتحول الى ما يشبه (الحجّ) المصغّر، وإنْ كانت أعداد المشاركين تفوق بأضعاف أعداد الحجيج الى بيت الله الحرام. وفي مثل هذه المناسبة، وفي مثل هذه المدرسة ستكون فرصة التعرف على ما يجري في بلاد العرب والمسلمين أوسع وأسهل، من خلال التواصل والنقاش الحر مع زوار تلك البلاد.

إنّ إحياء الأربعين ومشاركة الملايين في المسيرات الى كربلاء لغايات الأجر والثواب وإحياء الأمر (أحيوا أمرنا) له تلك التداعيات الاجتماعية والتربوية والثقافية المهمة. وهي فرصةٌ غير مسبوقةٍ في أيّ مجتمعٍ لتطوير الوعي التطوعي الاجتماعي، ولإذابة الفروق العرقية والاجتماعية والمناطقية، من دون توقع أيّ أجر، أو أيّ مقابل مادي. وتستحق هذه الزيارة وما يجري فيها إعادة النظر في بعض التعريفات السوسيولوجية النمطيّة التي تسم المجتمع التقليدي بالتخلف والحديث بالمتقدم.

إنّ كلّ ما يجري في زيارة الأربعين السنوية يسمح بأنْ نعدّها أنموذجًا عن مجتمع تراحمي أراده الله سبحانه وتعالى بين الناس وطلب منهم أنْ يعملوا من أجله ليس على المستوى الأسري فقط ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾، بل وعلى المستوى الاجتماعي أيضًا "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم". وما يجري في هذه الزيارة يتيح للمشاركين فيها كافة الاستفادة من تلك القيم الثقافية والمعنوية والأخلاقية التي أنتجتها عاشوراء. إنّها فرصةٌ استثنائيةٌ تتكرر كلّ عامٍ يجتمع فيها الناس من كلّ المشارب والأقطار. وعندما يعود من شارك في هذه الزيارة الى بلده

والى مجتمعه، سوف يحمل معه في قلبه وعقله وفي جدانه، ما لقيه، وما شاهده من قيمٍ ومن سلوكيات التضحية، والصبر، والتعاون، والتحمل، والوفاء... وتقدّم الأربعين أنموذجها الأخلاقي وقيمها الثقافية التراحمية، المستمدة من مضامين الثورة العاشورائية ومن النصوص القرآنية، والتي تُعيد، خلافًا للحداثة وفردانيتها، وصل ما انقطع بين أبعاد الانسان الدينية والاجتماعية، والروحية، والمعنوية.

الهوامش

١- راجع على سبيل المثال كتاب ريشار، يان، الإسلام الشيعي، وكذلك مقالة حاتم اليعقوبي، كريم، "ثورة الإمام الحسين في منظور نخبة من المستشرقين".

٢- راجع على سبيل المثال تقرير "التكنولوجيات والقيم، الأثر على الشباب"، صادر عن المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي في المملكة المغربية، عدد ٣١ / ٢٠١٧.

٣- عتريسي، طلال، الجندر المخادع، ١٨٣.

٤- سميث، آدم، ثروة الأمم، ٢٠٠.

٥- روزنبلات، روجر، ثقافة الاستهلاك والحضارة والسعي وراء السعادة، ٨ و٢٧.

٦- كاسر، تيم، الثمن الباهظ للمادية، مقدمة الكتاب.

٧- مجموعة باحثين، جوهر الغرب، ٥٣٥.

٨- كاسر، تيم، الثمن الباهظ للمادية، ٩.

9- Morris Berman, The Reenchantment of the World, 12.

راجع أيضًا ، برمان، موريس، انحطاط الحضارة الأميركيّة.

١٠- توفلر، ألفن، صدمة المستقبل، ١٠.

١١- م.ن، ٥١و٥٤.

١٢- مجموعة باحثين، جوهر الغرب، ٥٦٨ و٥٧١.

١٣- المسيري، عبد الوهاب، "قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى"، ١٢.

١٤- عتريسي، طلال، الجندر المخادع، ١٨١.

١٥- روزنبلات، روجر، ثقافة الاستهلاك والحضارة والسعي وراء السعادة، ١٤-١٥.

١٦- عتريسي ، طلال، "العلوم الانسانية الغربية وليدة القطيعة الحداثيّة مع الدين"، ٣٠-٣١.

١٧- باومن، زيغمونت، "الحداثة السائلة".

١٨- جرادي، شفيق، الشعائر الحسينية من المظلومية الى النهوض، ١٣ و١٧.

١٩- عتريسي، طلال، الجندر المخادع، ١٦٧.

٢٠- الروم/ ٢٠.

٢١- البقرة/ ١٧٧.

المصادر والمراجع

* باومن، زيغمونت، الحداثة السائلة، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٦ .
* برمان، موريس، انحطاط الحضارة الأميركيّة، ترجمة: حسين الشوفي، ط١، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠١٠.
* تقرير "التكنولوجيات والقيم، الأثر على الشباب"، صادر عن المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي في المملكة المغربية، عدد ٣١ / ٢٠١٧.
* توفلر، ألفن صدمة المستقبل، ترجمة: محمد علي ناصف، ط٢، القاهرة، مكتبة الاسكندريّة، ١٩٩٠.
* جرادي، شفيق، الشعائر الحسينية من المظلومية الى النهوض، سلسلة أدبيات النهوض، بيروت، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية.
* روزنبلات، روجر، ثقافة الاستهلاك والحضارة والسعي وراء السعادة، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١.
* ريشار، يان، الاسلام الشيعي، بيروت، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.
* سميث، آدم، ثروة الأمم، بغداد، معهد الدراسات الاستراتيجية، د.ت.
* عتريسي، طلال، الجندر المخادع، بيروت، جامعة المعارف، ٢٠٢٣.
* عتريسي، طلال، العلوم الانسانية الغربية وليدة القطيعة الحداثيّة مع الدين، بيروت، مجلة جامعة المعارف، عدد ٤/ ٢٠٢١ .
* كاسر، تيم، الثمن الباهظ للمادية، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ٢٠١٧.
* مجموعة باحثين، جوهر الغرب، دراسة نقدية في المباني التأسيسية للحضارة الحديثة، بيروت، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٢٢ .
* المسيري، عبد الوهاب، قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، ط٢، القاهرة، دار نهضة مصر، ٢٠١١ .
* اليعقوبي، حاتم كريم، "ثورة الإمام الحسين في منظور نخبة من المستشرقين"، مجلة دراسات استشراقية، عدد ١٢ صيف ٢٠١٧ تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة.
* Berman, Morris, The Reenchantment of the World, Cornell University Press, 2nd Edition, 1998.

أثر العلاقات الاجتماعية في الحياة الطيّبة من منظور أهل البيت عليهم السلام -قراءة في كتاب العشرة من أصول الكافي-

محمدرضا الخاقاني (بيگ)

باحث في الفكر الإسلامي / جامعة طهران / ايران

ملخص البحث

من الجوانب المهمّة في الشريعة الإسلامية عامّة، والمذهب الجعفري خاصّة، البُعد الاجتماعي. لم تقتصر الأحكام الشرعية على الجانب الفردي من حياة المسلم فحسب، بل نجد في أبواب الفقه، أحكامًا كثيرة تنصبّ موضوعاتها على البُعد الاجتماعي لحياة الإنسان. ناهيك عن الوصايا الأخلاقية والأُسرية التي قد شحنت التراث الإسلامي، بما فيه التراث الشيعي الحديثي. من نماذج التركيز على البُعد الاجتماعي في التراث الإمامي، هو كتاب العشرة من أصول الكافي، تأليف الشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ). أورد الكليني في قسم الأصول من كتابه، قسمًا سمّاه (كتاب العشرة). في هذا القسم الذي يلي أبوابًا جاءت فيها روايات عن ترصين العقيدة الشيعية في التوحيد والإمامة وغيرها، جاء برواياتٍ عالج بها مسألة العلاقات الاجتماعية. بالنظر إلى الروايات المندرجة تحت هذا العنوان، نجد محاولةً تأسيسيةً من قِبَل الأئمة عليهم السلام، لاسيّما الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، في تعيين وترسيم معايير للعلاقة الاجتماعية للفرد الشيعي، في كلا المجتمعين الإسلامي والشيعي.

يحاول البحث الحاضر، من خلال القراءة في روايات كتاب العشرة، أن يبيّن النُّظُم العامّة التي بيّنها الأئمة عليهم السلام في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وتبيين مدى أثر العلاقات المبنية على أساس تلك القواعد في بناء حياة طيّبة. سيتحقّق هذا الهدف من عبر خطواتٍ عدّة، منها إطلالة على البيئة التي صدرت فيه روايات كتاب العشرة، وبيان منهج أهل البيت عليهم السلام في تحديد تلك النُّظُم، ثم تبيين العلاقات الاجتماعية من منظور الأئمة عليهم السلام ببيان القواعد العامّة التي بيّنوها، وماهية ونوع العلاقات الاجتماعية المرموقة للفرد الشيعي، وسُبُل بناء العلاقات الاجتماعية وتوطيدها. في الخطوة الأخيرة ونتيجةً للبحث، سيتمّ تبيين أثر العلاقات الاجتماعية في الحياة الطيّبة، حيث سيبيّن أنّ تلك الوصايا جميعًا هدفها السامي هو بناء مدينةٍ فاضلةٍ يستوطنها الفرد المسلم باحترامٍ سائد لجميع شرائح المجتمع الإسلامي، مهما كان الخلاف بينهما في شتّى المسائل.

المقدّمة

إنّ الشريعة الإسلامية منذ بدئها، لم يكن تركيزها على البُعد الفردي من حياة المرء المسلم فحسب، بل نجد في ضمن التعليمات الإسلامية عامة والنبوية خاصة، التوجّه إلى الشؤون الاجتماعية أيضًا. نجد في التعاليم الإسلامية كثيرًا في الأخلاق ومدارة الناس وحسن المعاشرة معهم. كما نجد هذه التوجّهات في الفقه الإسلامي، في أبواب العقود والمعاملات وما شابه ذلك من الأحكام الاجتماعية. نجد هذا التركيز والتوجّه في التراث الروائي المنقول عن الأئمة عليهم السلام أيضًا، ففي التراث الروائي الإمامي، هناك الكثير عن الأئمة ما ينصبّ تركيزها في البعد الاجتماعي لحياة الفرد الشيعي وما يختصّ بعلاقاته الاجتماعية. مِن المصادر التي اختصّ فيها بابٌ خاص بهذا الموضوع، كتاب الكافي تأليف ثقة الإسلام الكليني (ت ٣٢٩هـ). فقد جعل الكليني في كتابه بابًا فيه روايات عن المعصومين عليهم السلام ترتبط بعلاقات الاجتماعية، فسمّاه بـ (كتاب العشرة). والطريف أنّ ذلك قد جاء في قسم الأصول من كتابه، لا في الفروع أو الروضة.

البحث الحاضر، بعد تقديم مقدّمة عن كتاب الكافي والموضوعات التي جاء في طيّاته، يسعى إلى تقديم إطلالةٍ تحليليةٍ على مدى أثر العلاقات الاجتماعية في بناء حياةٍ طيّبةٍ من خلال القراءة في (كتاب العشرة) من قسم أصول الكافي. لا شكّ في أنّ تقديم ملخّصٍ عن أجواء صدور هذه الأحاديث وتبيين كون تزامنها مع تأسيس وتعيين حدود المجتمع الشيعي في عصر الصادقين عليهما السلام، سيكون له أثرٌ في فهم مدى الدقّة في تنظيم العلاقات الاجتماعية للفرد الشيعي في المجتمع الإسلامي آنذاك. كما أنّ تبيين المنهج المعتمد للأئمة عليهم السلام في سبيل تنظيم النُّظُم الاجتماعية للفرد الشيعي وتقديم إحصائية عن المعصومين عليهم السلام الذين رُويت عنهم الروايات في هذا الشأن، سيكون له حيّز في هذه الدراسة.

سيكون التركيز في هذا البحث، على تبيين أثر تنظيم العلاقات الاجتماعية في الواقع الاجتماعي والمحاولة المنهجية من قِبَل أهل البيت عليهم السلام في بناء حياةٍ اجتماعيةٍ طيّبة. حيث سيتمّ تقديم مضمون ما جاءت في روايات كتاب العشرة ضمن أبوابها، من تقديم قواعد عامّة للعلاقات الاجتماعية، وبنائها وفقًا لما جاء عن الأئمّة عليهم السلام. وسيتم بيان أثر العلاقات

الاجتماعية في الحياة الطيّبة، نتيجة لقراءة روايات كتاب العشرة من الكافي. حيث سيتمّ فيه بيان نقاط تتعلّق بمنهجية وصايا الأئمة ﷺ لمواليهم على وجه الخصوص، وللمسلمين عامّة مِن مراعاة الطبيعة البشرية واتّخاذها سبيلًا لنيل الكمال المطلوب. في الحقيقة، الذي ورد عن أهل البيت ﷺ في تبيين وتأسيس النُظُم والأساليب في سبيل بناء العلاقة الاجتماعية للفرد الشيعي، هي محاولةٌ لبناء مدينةٍ فاضلة، يعيش فيها المسلم بشتّى توجّهاته، متمسّكًا بالنهج الإسلامي القويم.

إطلالة على كتاب العشرة وبيئة الروايات فيه

إنّ الشيخ الكليني (ت. ٣٢٩هـ) يُعدّ من أهمّ محدّثي الإمامية، وهو صاحب مجموعةٍ روائيةٍ مهمّة تُسمّى الكافي. كان الكليني ينتمي إلى أسرةٍ علميةٍ سكنت مدنية (الري) فبهذا السبب لُقّب بالرازي. أُلّف الكافي بطلبٍ من أحد الشيعة حيث شكى جهل أهل عصره وبُعدهم عن العلم. من هذا المنطلق أكّد الكليني في مقدّمة كتابه على أهمّية العلم والتعلّم وخطّأ (الاستحسان والتقليد والتأويل من غير علم وبصيرة).

قد بُوّب الكافي على ثلاثة أقسام رئيسة: الأصول، الفروع، والروضة. احتوى القسم الأول على أبواب منها: العقل والجهل، فضل العلم، التوحيد، الحجة، الايمان والكفر، الدعاء، فضل القرآن والعِشرة. فقد جاء في هذا القسم بعض الأبواب الفقهية كالفيء والأنفال والخُمس. القسم الثاني الذي يختصّ بالفروع الفقهية، تمّ تدوينه على أساس الأبواب الفقهية. القسم الثالث يشتمل على أحاديث متفرّقة لم يمكن إدراجها في القسمين السابقين. بشكل عام، يحتوي كتاب الكافي على مجموعةٍ من الروايات في موضوعاتٍ كلامية، وأخلاقية، واجتماعيةٍ وتاريخية، إلى جنب الروايات الفقهية[1].

من ضمن أبواب قسم الأصول من كتاب الكافي، باب يُسمّى بـ(كتاب العِشرة)، فقد اختتم الكليني قسم الأصول من كتابه به. يحتوي كتاب العشرة على ٣٠ بابًا يجمعه موضوع العلاقات الاجتماعية. فضمن الروايات عن أهل البيت ﷺ، هناك تبيين قواعد عامّة عن الأصول والنُظُم في بناء العلاقة الاجتماعية للفرد الشيعي، في المجتمع الإسلامي. الذي يهمّ في البين ويؤكّد أهميّة كتاب العشرة، موقعه بين مجموعة مهمّة مِن موضوعات

تتعلّق بالعقيدة الإسلامية عامّة والشيعية خاصّة، مِن الاعتقاد بالتوحيد، ومباحث الإيمان والكفر، والاعتقاد بالإمامة، وخصوصيات الحجّة الإلهية على الناس. فهذا الباب، إنْ صحّ التعبير، يُعدّ خاتمةً لتلك المباحث.

بيئة الروايات

يحتوي (كتاب العشرة) ضمن أبوابه الثلاثين، على ٢٠٣ رواية عن أهل البيت عليهم السلام. النسبة الأعلى من هذه المجموعة رُويت عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، أي ما يربو عن ٨٣٪ من مجموع هذه الروايات. فـ ٧١٪ من التلك الروايات رُويت عن الإمام الصادق عليه السلام، وتتعلّق ١٢٪ من مجموع روايات باب العِشرة بالرواية عن الإمام الباقر عليه السلام. على هذا، إنّ النسبة الأعلى من روايات هذا الكتاب، صدرت في ظرف إمامة الإمام الصادق عليه السلام، أي المدّة بين عامي ١١٤-١٤٨هـ.

هذا الأمر يعني أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان في مرحلةٍ كان المجتمع الشيعي قد أخذ حدوده الثقافية والكلامية والفقهية فأصبح متميّزًا في الساحة الإسلامية، فركّز على تنظيم علاقات مواليه الاجتماعية. في طيّات روايات كتاب العشرة، نرى تأكيد الأئمة عليهم السلام، خاصة الإمام الصادق عليه السلام، على تنظيم نوع علاقة الفرد الشيعي مع المخالفين. فكثيرًا ما نجد في الأسئلة المتوجّهة إلى الإمام عليه السلام، لفظ (الناس). بالتدقيق في المواطن التي أُستخدم هذا اللفظ، نجد أنّ المقصود به المخالفين، فمثلًا نجد أنّه استخدم منعوتًا بـ"ممّن ليسوا على أمرنا"[٢]. في رواية أخرى، قال الراوي لأبي جعفر عليه السلام: "إنّ الناس يكرهون الصلاة على محمد وآل محمد في ثلاث مواطن ..." فأجاب عليه السلام: "مالهم؟ ويلهم، نافقوا لعنهم الله"[٣]. في روايةٍ أخرى بالإشارة إلى عقيدة التشبيه عند أهل الحديث، قال الرواي مخاطبًا الإمام عليه السلام: "إنّ الناس يكرهون هذه الجلسة ويقولون إنّها جلسة الربّ"[٤]. هذه النماذج تؤكّد المقصود من الناس في روايات هذا الباب على أقلّ التقادير، بالمخالفين.

المنهج

ماهو جدير بالذكر في البحث عن روايات باب العشرة، منهج أهل البيت عليهم السلام في تبيين العلاقات الاجتماعية لمواليهم. نجد منهج (الاستشهاد) ضمن روايات هذا الباب، فمثلًا نجد الأئمة عليهم السلام في سبيل توجيه مواليهم، يستشهدون بالسيرة النبوية أو سيرة أهل البيت عليهم السلام أو سيرة الأنبياء عليهم السلام والصالحين. يحتلّ الاستشهاد بالأحاديث النبوية وأسلوب تعامل النبي صلى الله عليه وآله في سيرته العطرة، القسم الأكبر في روايات هذا الباب. كما أنّ بيان نماذج من سيرة الإمام علي عليه السلام وبيان الروايات عنه عليه السلام، يكون في الدرجة الثانية من حيث كثرة الاستشهاد. بعد ذلك يأتي الاستشهاد بكلام الأنبياء عليهم السلام والصالحين، والتمسّك بسيرة الأئمة الماضين عليهم السلام وأحاديثهم.

نجد في طيّات أبواب كتاب العشرة، تبيين بعض الأحكام التي ترتبط بموضوع العلاقات الاجتماعية. فمثلًا حين يكون الموضوع مختصًّا بكيفية السلام على الآخرين، نجد أنّ الكليني قد جعل أبوابًا تحتوي على روايات فقهية في أحكام ذلك الموضوع؛ لذلك نجد أنّه قد أدرج أبوابًا تحت عناوين (من يجب أن يبدأ بالسلام)، (باب التسليم على النساء)، وغير ذلك من الأبواب[٥].

هناك أمرٌ ربما يمكن إدراجه ضمن مبحث المنهج في روايات هذا القسم، وهو استخدام الأمر الاجتماعي للوعي المذهبي لدى الشيعة. بهذا، سيكون الإلتزام بطقس معيّن يتعلّق بحدثٍ له جانب اجتماعي، محاولةً لترسيخ العقيدة وبيان غلط ما ذهب إليه المخالفون للمجتمع الشيعي. ضمن الأبواب التي ضمّنها الكليني في كتاب العشرة، هو (باب العُطاس والتسميت). في بادئ الأمر، يبدو أنّ مضمون هذا الباب يشير إلى التسميت عند عطاس أحدٍ في المجلس. لكن حينما يُدقّق في تلك الروايات، نجد أنّ هناك اختلاف بين الإمامية وسائر المسلمين من أهل السُنّة، حول كون التسميت أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وآله عند العطاس، سُنّةً نبوية. في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام، قال الراوي له: "إنَّ عندنا قومًا يقولون ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله في العطسة نصيب". فأجاب الإمام عليه السلام: "إنْ كانوا كاذبين، فلا نالهم شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله"[٦]. في روايةٍ أخرى وحينما قال شخصٌ من الأصحاب للباقر عليه السلام عن كراهة الناس عن الصلاة على محمد وآله في بعض المواطن منها العطسة، فأجاب عليه السلام وخالفهم بشدّة: "ما لهم؟ ويلهم، نافقوا لعنهم الله"[٧].

بهذا البيان يتّضح التأكيد على التسميت حين العطاس من قِبَل الإمام الصادق عليه السلام، إذ إنّه حين رأى عطسة رجل ولم يسمّته أحد، قال مستنكرًا سكوتهم: "ألا تسمّتون؟ ألّا تسمّتون؟!"[٨]. أو في رواية أخرى حيث استشهد جعفر بن محمّد عليه السلام بحديث نبوي مؤكّدًا التسميت عند العطاس: "إذا عطس رجل فسمّتوه ولو كان مِن وراء الجزيرة"[٩]. بهذه الخطوة نرى أنّ طقسًا اجتماعيًا قد جُعل وسيلةً لإبراز العقيدة وحفظ السمة الشيعية.

العلاقات الاجتماعيّة من منظور أهل البيت عليهم السلام

لقد مرّ آنفًا عن الظرف الزمني والاجتماعي للمجتمع الشيعي الذي فيه انصبّ تركيز الأئمّة عليهم السلام على تنظيم علاقة مواليهم الاجتماعية فيما بينهم من الشيعة وما بينهم وبين سائر المسلمين. كما أشرنا مختصرًا إلى المنهج التأسيسي الذي اتّخذوه تجاه تبيين تلك النُّظُم وتأسيسها، وهناك أمرٌ آخر كان يُمكن إدراجه تحت منهجية أهل البيت عليهم السلام تجاه تنظيم العلاقات الاجتماعية، لكنّنا لأجل أهمّيته أخّرناه وسنفرد له موضوعًا في هذا البحث، ألا وهي (القواعد العامّة للعلاقات الاجتماعية). فجعْل وتأسيس قواعد عامّة للعلاقات الاجتماعية، يُعدّ أيضًا من جمله المنهج الذي اتّخذه الأئمة عليهم السلام في سبيل تبيين علاقة الفرد الشيعي مع مجتمعه وطريقة تعايشه فيه.

القواعد العامّة

نجد في المرويات عن الأئمة عليهم السلام التي جاء بها الكليني في كتاب العشرة، بعض الروايات صدرت على نحو العموم، حيث تؤسّس قواعد عامّةً يجب جعلها نصب العين في سبيل بناء العلاقات مع المجتمع. في رواية التي قد افتتح به الكليني كتاب العشرة، بعد أن بيّن الإمام الصادق عليه السلام مدى أهمّية مشاركة الشيعة في الحياة الاجتماعية، قدّم قاعدةً عامّةً ناظرةً إلى طبيعة الإنسان الاجتماعية وواقع حال الفرد بوصفه جزءًا من المجتمع. قال الصادق عليه السلام: "إنّه لا بدّ لكم مِن الناس. إنّ أحدًا لا يستغني عن الناس حياتَه والناس، لابدّ لبعضهم من بعض"[١٠]. إن أخذنا المقصود من "الناس" في هذه الرواية منطبقًا على المخالفين، كما مرّ سابقًا، فالإمام عليه السلام بهذا البيان يؤكّد على حاجة الفرد الشيعي إلى غيره ممّن لا يشترك معه في العقيدة، في سبيل تأمين حياة مستقرّة له. كما يتبع عليه السلام كلامه بتقديم قاعدةٍ عامّةٍ ناظرةٍ

إلى طبيعة الإنسان، من دون لحاظ ما كان دينه ومذهبه، فقد أشار إلى حاجة نوع الإنسان بعضهم إلى بعض وأكّد على طبيعة البشر الاجتماعية حيث لا يتمكّن مِن العيش بمفرده.

في روايات أخرى قدّمت قواعد عامة، نجد الإشارة إلى طريقة تحسين العلاقات الاجتماعية وما يجب الكفّ عنه تجنّبًا من توابعها غير المحمودة. في رواية، نرى أنّ الانقباض عن الناس ومواجهتهم بوجه غير مرحِّب، يكسب العداوة[١١]. فوفقًا لهذه الرواية، حُسن الخُلق الذي قورن بنصف العقل أو كماله - كما سيأتي - يكسب المحبّة، وباتّخاذ عكسه وهو الانقباض عن الناس، سيكون الناس أعداء المرء. فهذا ممّا يؤثّر لا محالة على علاقة الإنسان الاجتماعية بالآخرين، فيعرقل هين العيش وبناء حياة طيّبة.

الأمر الآخر ضمن هذه الروايات، موقع الفرد في المجتمع وما يؤثّر على جعل الإنسان في أعين أفراد مجتمعه في موقعٍ مرموقٍ اجتماعيًا، وتبيين سبيل تحسين المرء موقعه الاجتماعي في البيئة المدنيّة التي يعيشها. سبق أنْ قلنا إنّ الإنسان كائنٌ اجتماعيّ في حدّ ذاته، فلا بدّ أن يؤثّر على مجتمعه والأفراد الذين يرتبط بهم أو يتأثّر منهم. هذا ما قاله الإمام عليه السلام مستشهدًا بقول عيسى بن مريم عليه السلام: "إنّ صاحب الشرّ يُعدي، وقرين السوء يُردي، فانظر مَن تُقارِن"[١٢]. فالشّر له عدوى، يُعدي الآخرين ويؤثّر عليهم تأثيرًا مخرّبا[١٣]، ومن جهة أخرى وبسبب ذلك، إنّ قرين السوء يجعل المرء على شفى حفرة التهلكة. من هذا المنطلق، النظر في اختيار القرين واختيار الأفضل في ذلك، يؤثّر على موقع الإنسان في المجتمع، بأنْ يكون من الأخيار أو الأشرار. وفقًا لهذا المعنى ومن هذا المنطلق، نجد أنّ الإمام الصادق عليه السلام يحذّر مواليه من اصطحاب أهل البدع، إذ يكونوا في أعين الناس واحدًا منهم. ففي سبيل ذلك قد استشهد عليه السلام بحديث نبوي حيث قال صلى الله عليه وآله: "المرء على دين خليله وقرينه"[١٤].

العلاقات الاجتماعية

في روايات كتاب العشرة من الكافي، نجد أنّ الإمام عليه السلام يقدّم نصائح ترسم خارطة الطريق لمواليه في حياتهم الاجتماعية. في باب سُمّي بـ(ما يجب من المعاشرة)، نجد الإمام الصادق عليه السلام، بالنظر إلى طبيعة الإنسان الاجتماعية، يحثّ مواليه من الشيعة على أنْ يؤدوا دورًا في المجتمع وألّا يجعلهم الإختلاف في العقيدة في معزلٍ عن المجتمع والمشاركة الاجتماعية.

نجد في طيّات هذا الباب، الحثّ على الورع والإجتهاد في الساحة الاجتماعية، نيلًا لمرضاة الله سبحانه. أداء الأمانة وحُسن المعاشرة أيضًا من النقاط التي تمّ التأكيد عليها من قِبَل الإمام عليه السلام. دعا جعفر الصادق عليه السلام مواليه إلى الاقتداء بأئمّتهم عليهم السلام وأنْ يعملوا وفق ما يعملون عليهم السلام من عيادة المرضى، وشهادة الجنائز، والشهادة للناس وعليهم، وصلة الأقارب والعشائر وأداء الحقوق. العمل وفق ذلك والسعي إلى الإتزام بالورع، يجعل الشيعة متميّزين في قبيلتهم وعشيرتهم، فيكونون زينةً بين أقاربهم. فهذا الأمر، كما بيّنه الإمام الصادق عليه السلام، يكون في نظر الآخرين أثر تأديب الأئمة عليهم السلام لمواليهم[١٥].

وفقًا لهذه الروايات، إنّ حُسن الخلق في تعامل الفرد مع أفراد بيئته الاجتماعية، أمرٌ ذو أهميّة كبرى. ففي هذه الروايات نجد بأنّ التحبّب إلى الناس والتودّد إليهم هو المطلوب[١٦]، فبذلك يكون المرء محبوبًا عند الناس وبجلب مودّتهم. عُدّ هذا الأمر نصفَ العقل[١٧]، إذ الإنسان بمجاملة الناس وكفّ يد غضبه وسطوة لسانه عنهم، سيكفّ أيدي كثيرة عن نفسه[١٨]. فوجود المودّة هذه، يقرّب الناس بعضهم إلى بعض، وإنْ بعدوا في النسب وعدم وجودها يبعّد الناس بعضهم عن بعض، وإنْ قربوا في النسب[١٩]، فيكون حسن الخلق وطيب السريرة هنا بمنزلة وجه الجمع الذي يفوق النسب، النسب الذي طالما سبّب اتّحاد المجتمع العربي.

هناك أمرٌ آخر في نوع الدور الذي يمثّله الفرد الشيعي في المجتمع، وهو أنْ يكون (يده العليا) على الآخرين، كما قال الإمام الباقر عليه السلام[٢٠]. فمعنى كون يد المرء العليا على الآخرين، هو أن لم يكن سائلًا بل يكون معطيًا دائما[٢١]. هذا الأمر يدلّ بالإلتزام، على حثّ الفرد الشيعي على اختيار المهن والعمل الاقتصادي كي يكون متمكّنًا. فربما نظرًا إلى هكذا روايات نجد أغلب الرواة من أصحاب الأئمة عليهم السلام، خصوصًا في عهد الصادقين عليهما السلام فما بعد، لهم مهنة يستخرجون قوتهم منها[٢٢].

كون اليد الشيعية العليا، نظرًا إلى بيئة الأحاديث في كتاب العشرة، يبدو مختصًّا في معاملة الفرد الشيعي مع من يختلف معه في العقيدة. هناك أوامر وتوصيات يخصّ الحياة الاجتماعية داخل المجتمع الشيعي نفسه. نجد في هذا الصنف من الروايات، وصايا الإمام عليه السلام باحترام

الفقير وحفظ ماء وجهه، وإقراض المحتاج وإعانة الضعيف[٢٣]. كما أنّ هناك توصيات على احترام مَن ذهب مذهب التشيّع من إعظام وتوقير وعدم الفرقة والمخالفة، كما نجد النهي عن البُخل والحسد[٢٤]. هذه التوصيات، تستوجب تقوية بُنى المجتمع الشيعي وتزيد من التماسك بين أفراده.

من جملة توصيات الأئمة عليهم السلام الاجتماعية، ترتبط باحترام الركائز الثقافية في المجتمع العربي والإسلامي. إنّ الكَرَم من الصفات المحمودة لدى العرب قبل الإسلام والتي أكّد الإسلام على حَمدِ وجودِها أيضًا. من هذا المنطلق، نجد عند الأئمة عليهم السلام تأكيدًا على إكرام الكريم، مهما كان اعتقاده وديانته، مستشهدًا بتكريم النبي صلى الله عليه وآله عَدي بن حاتِم قبل أنْ يسلم. كما تمّ ذلك بنقل حديث نبوي قال صلى الله عليه وآله فيه: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه"[٢٥]. من جُملة الركائز الثقافية في المجتمع العربي، هو تكريم الشيخ وذي الشيبة الكبير. هذه النقطة ممّا أصبحت موضع اهتمام الأئمة عليهم السلام في وصاياهم الاجتماعية التي ترتبط بالعلاقات من هذا النوع. نجد أنّ توقير ذي الشيبة جُعل من إجلال الله سبحانه، فبسببه يؤمن الإنسان من فزع يوم القيامة. وفي روايةٍ أخرى، عدم توقير ذي الشيبة الكبير في الإسلام عُدّ من علامات المنافق[٢٦].

بناء العلاقة الاجتماعيّة

لم تكن العلاقة الاجتماعية تُبنى أو تُستحسن بشكل تلقائي، بل هناك مستلزمات ووسائط تشكّل العُلقة أو تساعد توثيقها وتضعيفها. مِن أهمّ الوسائط التي تشكّل العلاقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، هي الصداقة. في المجتمعات الحضرية والمدنية، تكون الصداقة لها السهم الأوفر في تشكيل العلاقات، فتفوق حتّى على النسب خصوصًا في البيئة المدنيّة. في البيئة نفسها، نجد دور الجوار أيضًا من سُبُل تحسين العلاقات الاجتماعية. كذلك المجالس التي تجمع أفراد المجتمع فتوثّق علاقاتهم. في هذا القسم، نحاول تسليط الضوء على روايات كتاب العشرة التي تندرج تحت هذه الموضوعات الثلاثة.

الصداقة

الصديق والصاحب مِن المفاهيم التي كانت موضع اهتمام الأئمة عليهم السلام اهتمامًا كبيرًا، حيث نجد في كتاب العشرة أنّ هذا المفهوم قد استوعب بابين تحت عنواني (باب من يجب مصادقته ومصاحبته)، و(باب من تكره مجالسته ومرافقته). وجه أهميّة القرين والصاحب كما أشرنا سابقًا، كامن في تأثير وتأثّر الفرد في مواجهة مجتمعه. هذه الروايات تتضمن الصفات التي يجب أنْ تكون في الصديق والمصاحب، والصفات التي لا تنبغي أنْ تتوفر فيه:

أما صفات الصديق: هناك خمس صفات عدّها الإمام الصادق عليه السلام لِمَن يستحقّ أنْ يُسمّى صديقًا: ١- أنْ تتساوى سريرته وعلانيته. ٢- أنْ يرى مصلحته ومصلحة صديقه واحدة، فيزينه ما يزين صاحبه، ويشينه ما يشينه. ٣- ألّا يغيّره تغيير الأحوال من وِلاية ومال. ٤- ألّا يمنع صديقه ما يقدر عليه، فيبذل لصديقه ما يتمكّن. ٥- أنّه مع وجود هذه الخصال، لا يترك صديقه عند النكبات والحوادث الطارئة عليه[٢٧]. أيضًا ومِن الخصال المحمودة في صديق، هو النُصح. فنصيحة الناصح تارةً تكون مؤلمةً إنْ انتقد خصلةً أخلاقيةً أو سلوكيةً لدى المرء. فالناصح المُبكي أولى بأنْ يُتبع من الغاشّ المضحِك[٢٨]. نحو ذلك في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث جعل أحبّ الإخوان لديه من أهدى له عيوبه[٢٩]. فوفقًا لهذه الروايات نجد النُصح مِن أحسن صفات الصديق.

الصديق القديم، الذي جرّبه المرء بمرور الزمن، هو مَن يجب أن تستمرّ الصداقة معه وأن يُصحَب. لا مَن صحبته جديدة غير مجرّبة، لم ينشأ جراء الصداقة الطويلة له أمان وميثاق وذمة[٣٠]. كذلك، يجب على المرء أنْ يكون حذِرًا تجاه مَن كان مِن أوثق الناس عنده، فلا يفشي له أسراره مخافة أنْ ينقله إلى غيره[٣١]. ممّا يهمّ في المقام، مسألة النسب، فالموقع الاجتماعي والنسب لِمَن يُتّخذ مصاحبًا وجليسًا، من الصفات التي ينبغي مراعاتها. إنّ العبيد والسفلة، وفقًا لما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، لا ينبغي أنْ يُتّخذوا صديقًا، إذ يُرتقب خيانتهم وخذلانهم وخُلف وَعدهم[٣٢].

هناك أيضًا توجّه إلى المنافع التي يكسبها الإنسان مِن علاقته مع الآخرين. فمصاحبة العاقل، وإنْ لم يكن كريمًا، لكنّ فيها نفع من عقله. فالنفع من العقل، هي الاستعانة

بمشورته في الأمور. كذلك لاينبغي ترك مصاحبة الكريم، فإنْ لم يكن ذا عقل كالعاقل، لكنّ المرء ينتفع بكرمه بالإستعانة من عقل نفسه. أمّا اللئيم الأحمق، فلا نفع في مصاحبته، إذ لم يكن فيه كرم ينتفع به أو عقل يشوره في أموره[٣٣].

الصحبة والصداقة لم تكن مداها وأثرها في الحياة الفانية فحسب، بل أثرها يمتدّ إلى ما بعد الموت. وفقًا لرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، سيتمثّل أصحاب الشخص له عند موته، فإنْ كانوا خيارًا، يتمثّل له خيرًا، وإنْ كانوا شرارًا، سيتمثّل له شرّا[٣٤]. ربما التمثيل بالخير والشرّ، يشير إلى التأثّر المرء بقُرَنائه، فقَرين الخير يسحب الإنسان، من دون أنْ يعلم إلى الخير، وقرين الشرّ يُذهب الإنسان إلى وادي الشر. فعليه، ربما هذا السرّ الكامن، كما أشرنا سابقًا، في مدى التركيز والتوجّه إلى تبيين صفات الصديق وأمر الصداقة والصحبة من قِبَل الأئمة عليهم السلام.

أشرنا سابقًا إلى أنّ المجتمع يقيس الإنسان بقُرنائه، فإنْ كانوا خيارًا يعدّونه خيّرا، وإنْ كانوا شرارًا يعدّونه شرّيرا[٣٥]. كذلك نجد في بعض روايات الباب، أنّ المجالسة مع بعض الأصناف يميت القلب، منهم الأنذال والأغنياء[٣٦]. من هذا المنطلق، نجد أنّه مِن الصفات المذمومة للصاحب، وممّا لا ينبغي مجالستهم وفقًا لما ورد عن جعفر الصادق عليه السلام عن جدّه الإمام علي عليه السلام على نحو الآتي: الماجن[٣٧]، والفاجر، والأحمق والكذّاب. فمن توابع صداقة الماجن هو أنّه يُبعد صديقه عن دينه؛ فيكون مقاربته جفاءً وقسوة، وتردّده عارًا. أمّا صداقة الأحمق، فعلى أنّه لا يمكن الانتفاع بعقله ومشورته، لا يجلب لصاحبه نفعًا. فإنْ أراد الأحمق نفع صاحبه، لا ينتج إلّا ضررًا. والكذّاب، فلا يهنئ العيش معه، إذ ينقل حديث صديقه إلى غيره فيُشعل نيران الفتن[٣٨].

في مجموعةٍ من الروايات التي تتحدّث عن مسألة الصديق والصداقة، نجد ترسيم سبل لتحكيم هذه العُلقة فيما بين أفراد المجتمع. نجد في قسمٍ مِن هذه الروايات أنّ إحدى الخطوات الأساسية في تحكيم الصداقة، هو أنْ يفصح المرء بحبّه لصديقه. فقال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد: "إذا أحببتَ رجلًا فأخبِرهُ بذلك، فإنّه أثبت للمودّة بينكما"[٣٩]. مع أنّه في بيان العلاقات الاجتماعية قد ورد عن الأئمة عليهم السلام، في مجاملة الناس والتودّد إليهم،

لكن في باب الصداقة والصُحبة، نجد التأكيد على المحبّة التي تنبع عن صميم القلب. فنجد في سلسلة من الروايات في هذا الباب، كون التوجّه إلى حكم القلب وسيلةً لمتحيص خلوص الودّ والحبّ المتبادل، حيث جاء مرارًا أنّ المرء إنْ أراد أن يعرف نقاء حبّه تجاه صديقه، أنْ يرجع إلى ما في قلبه تجاهه[٤٠].

حُسن الجوار

إنّ من الأمور التي ترتبط بالحياة الاجتماعية، مسألة حُسن الجوار والمجاورة. قد اختصّ باب من كتاب العشرة بهذا الموضوع، حيث أفرد الشيخ كليني بابًا سمّاه (باب حقّ الجوار)، جاء فيه عن الأئمة عليهم السلام روايات تندرج ذيل هذا المبحث. هناك رواية عن النبي صلى الله عليه وآله صدرت في بدء الهجرة النبوية إلى يثرب، حيث كان ممّا كتب رسول الله صلى الله عليه وآله بين المهاجرين والأنصار، أنّ الجار كالنفس وأنّ حرمة الجار على جاره، كحرمة أمّه[٤١]. كما أنّ هناك روايات تشتمل على التحذير من جار السوء، وأثره في كَدَر صفاء العيش[٤٢].

في رواياتٍ أخرى، نجد الإمام عليه السلام يبيّن معنى حُسن الجوار، حيث ينفي انحصار كون معناه كفّ الأذى عن الجار، بل معناه يشمل أيضًا تحمّل أذى الجار والصبر عليه[٤٣]. كما أنّ الإمام الباقر عليه السلام بِنَقل قضية وقعت في العصر النبوي، يؤكّد هذا المعنى حيث أمَر النبي صلى الله عليه وآله بالصبر، مَن كان يشكو أذى جاره[٤٤]. في مقامٍ آخر، نجد أنّ حُسن الجوار عُدّ من قوائم الإيمان، حيث نجد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، يتضمّن إشارةً إلى تاريخ العصر النبوي، فقد قام جمعٌ من الصحابة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله ينادون بين المسلمين بأعلى أصواتهم: "لا إيمان لَمن لم يأمن جاره بوائقَه"[٤٥]. في رواياتٍ أخرى نجد أنّ مّمن يؤمن بالله واليوم الآخر، هو مَن لا يؤذي جاره[٤٦]، أو أنّ ما أعلن جعفر الصادق عليه السلام إلى أصحابه بأنّه "ليس منّا من لم يُحسن مجاورة من جاوره"[٤٧]، إلى غيره مِن كون أمان الجار بوائق الشخص، مِن صفات المؤمن[٤٨].

لم تكن الروايات ناطقةً بكفّ الأذى عن الجار مصداقًا لحُسن الجوار فحسب، بل نجد هنالك تفاصيل أكثر في بعض روايات الباب. نقل الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله روايتين، تبيّن مصداقًا آخر من مصاديق حُسن الجوار وما يترتّب عليه اجتماعيًا. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "ما آمن بي مَن باتَ شبعان وجارُهُ جائع". في حديث آخر جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: "ما مِن أهل قريةٍ

يبيت فيهم جائعٌ ينظر الله إليهم يوم القيامة"[٤٩]. في روايةٍ أخرى، أنّ الإمام الصادق عليه السلام بيّن نموذجًا من هذا القبيل، حيث روى قصّة يعقوب عليه السلام حين ذهب منه بنيامين فزاد همّه وغمّه، فأوحى له الله سبحانه يذكّره عليه السلام أنّه ذبح شاةً وشواها، ولكن لم يعطِ منها شيئًا إلى جاره الذي كان صائمًا، فما جرى عليه عليه السلام من ذهاب بنيامين، كان عقوبةً لذلك. فكان يعقوب عليه السلام بعد ذلك ينادي بالغداء والعشاء أنْ يأتي الناس إليه[٥٠].

الأمر الأهم في المقام هو آثار حسن الجوار الاجتماعية، إذ نجد في الروايات أنّ من آثار ذلك "زيادة الأعمار وعِمارة الديار"[٥١]، وكذلك الزيادة في الرزق[٥٢]. بالنظر إلى مصاديق حُسن الجوار التي تمّت الإشارة إليها أعلاه، يُمكن تبيين ذلك بالمفهوم المعاصر على (التكاتف الاجتماعي)، الذي تقوم به الشعوب تجاه نظرائهم في المجتمع. تكون هذه الوصايا تأخذ نطاقًا واسعًا من حيث جغرافيا المجتمعي، حين نجد في الروايات نفسها تحديدًا لنطاق الجار أو ما يُسمّى بالجار. قد ورد في الرواية أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد قام بتحديد أنّه أربعون دارًا من كلّ جهة، شمالًا وجنوبًا وغربًا وشرقا، يُسمّى جارًا له الحقوق الذي مرّ[٥٣].

بهذا المعنى، الذي مرّ مِن حقّ الجار ولزوم مراعاته من قِبَل أفراد المجتمع، سيكون له نطاق عملٍ شامل. فمن هذا المنطلق، إنْ طُبّقت هذه الوصايا، يكون الديار عامرًا، وبديار عامر، سيكون الرزق واسعًا وكذلك بشمول التكاتف الاجتماعي من قِبَل أفراد المجتمع، ستقلّ نسبة الفقر وسيزداد الأعمار. ربما هذا المراد من الآثار الاجتماعية لحُسن الجوار، الذي يُعدّ من مصاديق العلاقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

المجالس

إنّ مِن مسلتزمات الحياة الاجتماعية، حضور مجالسٍ يجتمع فيه أفراد المجتمع. فهناك مجالس تُعقد بحضرة الملوك أو رجال الحُكم، أو مجالس يختصّ بشريحة خاصّة من شرائح المجتمع، يجتمعهم المهنة التي يمتهنونها كالشعر، أو نسب يجمعهم كمجالس لعشيرة أو قبيلة معيّنة. في حياة العرب، على الخصوص في الشعوب الحضرية منهم لا البدوية، للمجالس موقع خاص، امتدّ من عصر الجاهلي وإلى يومنا هذا في المجتمعات العربية. فكلّ قبيلةٍ أو شريحةٍ من المجتمع، أو حاكم أو سلطان أو وزير، له مجلسٌ يحضره ذوو الحاجة أو ذوو

المكانة أو الإبداع، يتداولون فيه أفكارهم أو حاجاتهم. هناك نماذج كثيرة في التاريخ، فيه أسماء للمجالس، كـ (دار الندوة) لقريش أو (سقيفة بني ساعدة) للخزرج، التي شهدت حوادث ووقائع تاريخية. إذًا، للمجالس موقعٌ خاص، له عُمق تاريخي مستمر في الثقافة العربية والإسلامية.

في الروايات التي دوّنها الشيخ الكليني في كتاب العشرة، نجد أبوابًا اختصّت بشؤون المجالس، تحتوي على وصايا في كيفية السلوك فيها. نجد ضمن هذه الأبواب ما فيها عن كيفية الجلوس في المجلس من خلال تقديم نماذج من السيرة النبوية أو سيرة المعصومين عليهم السلام[٥٤]. كما أنّ هناك عن كيفية التعامل مع الضيف[٥٥] إلى كيفية السلوك في المجالس العامة[٥٦].

ضمن هذه الأبواب التي تتضمّن كيفية العلاقات الاجتماعية، من خلال تبيين كيفية السلوك في المجالس، باب تعلّق بمسألة المداعبة والضحك، حيث نجد ضمن رواياتها أنّ هناك رُخصةً بل حثّ المؤمن على المزاح. مع ذلك، تعيّن الروايات نفسها حدًّا لذلك حيث بالتأكيد على مراعاة الإعتدال، تحذّر من الإفراط في المفاكهة. نجد في هذه الروايات بعض آثار كثرة الضحك، من إماتة القلب، إذهاب ماء الوجه وايراث الضَّعينة.[٥٧]

في قسمٍ آخر من الروايات التي ترتبط بآداب المجالس، هي الروايات التي تؤكّد على مراعات الأمانة بالنسبة إلى ما يجري أو يُقال في المجالس. قد ورد عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: "المجالس بالأمانة"[٥٨]. في باب آخر نجد النهي عن المناجاة بين شخصين، في مجلس يضمّ الآخرين. إذ هذا الأمر يسبّب الحزن والغمّ لهم[٥٩]. مراعاة الاحترام بالصمت والاستماع عندما يتحدّث شخص آخر، أيضًا من وصايا الروايات في هذا الباب. جاء عن أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: "من عَرَض لأخيه المسلم المتكلّم في حديثه، فكأنّما خَدَش وجهَه"[٦٠].

في الروايات التي أُشير إليها أعلاه، نجد الحذر كلّ الحذر، من ايجاد أسباب سوء الظنّ بين أفراد المجتمع. إنْ أردنا تعيين وجهًا مشتركًا بين مضمون هذه الروايات، نجد أنّ الذي تشترك المضامين فيه، هو عدم فعل ما يؤدّي إلى سوء الظن. فسوء الظن، ابتداء الفتن، كما جاء في الدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام: "قد ملك الشيطان عناني في سوء الظن"[٦١].

النتيجة: أثر العلاقات الاجتماعية في الحياة الطيّبة

نتيجةً لما سبق، يُمكن تبيين بعض النقاط حول روايات (كتاب العشرة)، التي ركّزت على تأسيس قواعد للعلاقات الاجتماعية. في روايات هذا القسم، نجد التأكيد على مسايرة الإنسان طبيعته الاجتماعية. بالتركيز على الركائز الأخلاقية الراسخة في المجتمع العربي والإسلامي، أخذت هذه الوصايا طابعًا واقعيًا، تنظر إلى واقع الإنسان وواقع المجتمعات الإنسانية. تنظر هذه الوصايا إلى الشرائط المادّية التي تحيط الإنسان في واقع حياته. فهي في الحقيقة محاولةٌ في جعل مادية الحياة وسيلةً لإيصال الإنسان إلى الكمال.

في توصيات الأئمة ﷺ لمواليهم في الدرجة الأولى، وللمسلمين عامّة في الدرجة الثانية، نرى التأكيد على الدور الاجتماعي الذي يمثّله المرء في مجتمعه. التأكيد على الدور الاجتماعي للشيعة في المجتمع الإسلامي والظهور اللائق في المجتمع متحلّيًا بالصفات الأخلاقية المحمودة ومراعاة التقوى، مِن الأمور التي تؤكّد توجّه الأئمّة ﷺ إلى العلاقات الاجتماعية. كما أنّه ضمن الروايات نفسها، نجد التأكيد على إيفاء دور فعّال في الساحة الاجتماعية والتجنّب عن الإعتزال بدواعٍ مذهبية أو اختلاف في العقيدة مع الآخرين.

ممّا هو جدير بالذكر في وصيا الأئمة ﷺ الاجتماعية، هي مواكبة تلك الوصايا مع واقع المجتمع. نجد في هذه الوصايا الانتباه إلى البيئة المدنيّة المعاصرة للأئمة ﷺ، على الخصوص في عصر الصادقين ﷺ. هذه الحقبة الزمنية قد شهدت تغييرًا جذريًا إلى حدٍّ ما، في الحياة الاجتماعية. هذه الحقبة قد شهدت بناء المدن على نطاقٍ مختلفٍ عمّا كان في الحجاز أو في مدن كيثرب/ المدينة، مكة، الطائف وغيرها من المدن. في المدن الحجازية أو ما بُني في الفترة المبكّرة من تاريخ الإسلام كما يُلاحظ في الكوفة، التركيبة السكّانية التي بُنيت المدن شيئًا فشيئًا على أساسها، كان الأساس فيه النسب أو النظام قبلي. والحال نجد في المدن التي بُنيت فيما بعد كبغداد، أو التغييرات التي حصلت في مدن بُنيت في الفترة المبكّرة في تاريخ الإسلامي كالمدينة أو البصرة أو الكوفة، لم يكن الأساس فيه النسب، بل هناك أمور أخرى عرقية أو صناعية أو حتّى مذهبية - كما في الكرخ - جُعلت أساسًا لتكوين المدن وبالتبع المجتمعات. في هكذا مجتمعات نجد العلاقات الاجتماعية تُبنى أو تُوطّد على منوال مختلف

تمامًا عمّا سبقته العصور. هنا يكمن التأكيد على حُسن الجوار أو تكوين الصداقات أو حُسن الأخلاق وسيلة لتحقّق علاقةٍ اجتماعيةٍ طيّبة، تُبنى على أساس حياةٍ اجتماعيةٍ طيّبة.

التأكيد على توطيد العلاقات الاجتماعية، سواء كانت مع المخالفين في العقيدة أم في المجتمع الشيعي نفسه، مِن تجليل وإعظام مَن يذهب مذهب التشيّع، من طرائف هذه الروايات. إن تمّ إجراء هذه التوصيات، التي تؤكّد على الركائز الأخلاقية المحمودة في المجتمع العربي عامّة، والمجتمع الإسلامي خاصّة، يسبّب تشكيل نواة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي، مهما كانوا مختلفين في التوجّهات السياسية والدينية والعِقَدية. هذه الركائز تمثّل قطبًا يدور حوله رحى المجتمع فيسبّب التكاتف ومساندة الاجتماعيتين، حيث يصبح المجتمع بتخطّي هذه الخطوات مجتمعًا فيه كثيرٌ من المشتركات تجتمع حولها. هذه الخطوات، تجعل المجتمع الإسلامي يدًا واحدةً في مواجهة التحدّيات الخارجية، وإنْ كانت تختلف فيما بينها في بعض وجهات النظر. في الحقيقة، هذا الهدف، يبدو هو الذي يسعى الأئمة عليهم السلام لتحقيقه: بناء مدينة فاضلة يستوطنها الفرد المسلم ويحيا فيه حياةً طيّبة، مع أنّه ربما يختلف مع أخيه في الدين أو نظيره في الخلق، في بعض الإتّجاهات.

الهوامش

١- شبيرى زنجانى، سيد موسى، و سيد محمد جواد شبيرى زنجانى، "پرونده كلينى و كافى"، ١١- ١٧.
٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٦٣٦، ح٤.
٣- م.ن، ٢/ ٦٥٥ ح١٠.
٤- م.ن، ٢/ ٦٦١ ح٢.
٥- م.ن، ٢/ ٦٤٦-٦٥١.
٦- م.ن، ٢/ ٦٥٤، ح٨.
٧- م.ن، ٢/ ٦٥٥، ح١١.
٨- م.ن، ٢/ ٦٥٤، ح٧.
٩- م.ن، ٢/ ٦٥٣، ح٢.
١٠- م.ن، ٢/ ٦٣٥، ح١.
١١- م.ن، ٢/ ٦٣٨، ح٥.
١٢- م.ن، ٢/ ٦٠٤، ح٤.
١٣- هناك اختلاف في معنى لفظ "يُعدي" في الرواية. فالمولى صالح المازندراني (ت. ١٠٨١هـ) يرى معناه الظلم والعِداء (المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، ١١/ ٨٦)، لكن الفيض الكاشاني يرى معناه العَدوى والانتشار (الفيض الكاشاني، الفيض، الوافي، ٥/ ٥٧٨).
١٤- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٦٤٢ ح١٠.
١٥- م.ن، ٢/ ٦٣٥-٦٣٦.
١٦- م.ن، ٢/ ٦٤٢، ح١ و ٦٤٣، ح٤.
١٧- م.ن، ٢/ ٦٤٣، ح٤-٥.
١٨- م.ن، ٢/ ٦٤٣، ح٢ و ٦.
١٩- م.ن، ٢/ ٦٤٣، ح٧.
٢٠- م.ن، ٢/ ٦٣١، ح١.
٢١- المجلسي، محمّد باقر، مرآة العقول، ١٢/ ٥٢٩.
٢٢- افلاكيان و پيشوايى، "مشاغل و حرف اصحاب و راويان ائمه اطهار عليهم السلام تا پايان غيبت صغرا"، ٣١- ٤٢.
٢٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٦٣٧، ح٣.
٢٤- م.ن، ٢/ ٦٣٧، ح٤.
٢٥- م.ن، ٢/ ٦٥٩ "باب إكرام الكريم".
٢٦- م.ن، ٢/ ٦٥٨ "باب إجلال ذي الشيبة المسلم".
٢٧- م.ن، ٢/ ٦٣٩، ح٦.
٢٨- م.ن، ٢/ ٦٨٣، ح٢.

٢٩- م.ن، ٢/ ٦٣٩، ح٥.

٣٠- المجلسي، محمّد باقر، مرآة العقول، ١٢/ ٥٣٢. ما هو يمكن المناقشة في معنى المختار من الحديث، معنى لفظ "تلاد" فيه، إذ جاء في الرواية: "عليك بالتلاد، وإيّاك وكلّ محدث لا عهد له". في المصادر اللغوية جاء معنى التلاد مرادفًا للمال القديم الذي نما عند صاحبه (ابن عباد، إسماعيل، المحيط في اللغة، ٩/ ٢٧٧). إنّ العلامة المجلسي في تعليقه على هذا الحديث، بعدما جاء بالمعنى الذي جاء في المتن، أردف معنى آخر له وهو بمعنى الشيخ في مقابل الشاب. هناك احتمال آخر قد احتمله البعض في المقصود من لفظ "التلاد". فالمقصود منه هو من تمسّك بالخلافة القديمة عن النبي صلى الله عليه وآله مباشرة لأمير المؤمنين عليه السلام، لا ما أحدث الناس بعد وفاته صلى الله عليه وآله بانحراف مسير الخلافة إلى من لم يستحقه (المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، ١٢/ ٣٢٧-٣٢٨). بالنظر إلى الموضوع الذي تحته أورد الشيخ الكليني هذه الرواية، يبدو أن هذا الزعم من معنى التلاد، غير الذي فهمه صاحب الكافي، إذ جاء به ذيل موضوع صفات الصديق والصاحب، فالمعنى الذي أورده العلامة المجلسي أوّلًا، يبدو أقرب إلى ما كان مراد الشيخ الكليني من ادراج هذه الرواية، وبالتالي إلى المعنى الصحيح له.

٣١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٦٣٨-٦٣٩، ح٤.

٣٢- م.ن، ٢/ ٦٤٠، ح٥.

٣٣- م.ن، ٢/ ٦٨٣، ح١.

٣٤- م.ن، ٢/ ٦٣٨، ح٣.

٣٥- م.ن، ٢/ ٦٤٢، ح١٠.

٣٦- م.ن، ٢/ ٦٤١، ح٨.

٣٧- الذي لا يبالي ما فعل (الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ٦/ ١٥٥).

٣٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٦٣٩-٦٤٠، ح١؛ كذلك راجع، ص٦٤١، ح٧.

٣٩- م.ن، ٢/ ٦٤٤ "باب إخبار الرجل أخاه بحبّه".

٤٠- م.ن، ٢/ ٦٥٢-٦٥٣ "باب نادر".

٤١- م.ن، ٢/ ٦٦٦، ح ٢.

٤٢- م.ن، ٢/ ٦٦٨-٦٦٩، ح١٥-١٦.

٤٣- م.ن، ٢/ ٦٦٧، ح٩.

٤٤- م.ن، ٢/ ٦٦٨، ح١٣.

٤٥- م.ن، ٢/ ٦٦٦، ح١.

٤٦- م.ن، ٢/ ٦٦٧، ح٦.

٤٧- م.ن، ٢/ ٦٦٨، ح١١.

٤٨- م.ن، ٢/ ٦٦٨، ح١٢. جاء في ذيل الرواية، حيث سأل الراوي ما المراد بالبوائق، فأجاب الإمام عليه السلام: "ظلمه وغَشمه".

٤٩- م.ن، ٢/ ٦٦٨، ح١٤.

٥٠- م.ن، ٢/ ٦٦٦-٦٦٧، ح٤-٥.
٥١- م.ن، ٢/ ٦٦٧-٦٦٨، ح٧-٨ و ١٠.
٥٢- م.ن، ٢/ ٦٦٦، ح٣.
٥٣- م.ن، ٢/ ٦٦٦، ح١؛ كذلك انظر: ٦٦٩ "باب حدّ الجوار".
٥٤- م.ن، ٢/ ٦٦١-٦٦٣ "باب الجلوس" و "باب الإتّكاء والإحتباء".
٥٥- م.ن، ٢/ ٦٥٩ "باب حقّ الداخل".
٥٦- م.ن، ٢/ ٦٦٠ "باب المناجاة".
٥٧- م.ن، ٢/ ٦٦٣-٦٦٥ "باب الدعابة والضحك".
٥٨- م.ن، ٢/ ٦٦٠ "باب المجالس بالأمانة"، ح١-٢.
٥٩- م.ن، ٢/ ٦٦٠ "باب في المناجاة"، ح١-٢.
٦٠- م.ن، ٢/ ٦٦٠، ح٣.
٦١- زين العابدين، الصحيفة السجادية، ١٥٢.

المصادر والمراجع

* زين العابدين، علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، ١ ج، ايران- قم، دفتر نشر الهادى، ١٣٧٦ش.

* افلاكيان، مجيد، و مهدى پيشوايى. "مشاغل و حرف اصحاب و راويان ائمه اطهار عليهم السلام تا پايان غيبت صغرا"، تاريخ اسلام در آينه پژوهش، ١٣٩٢، عدد ٣٥ ISC (ص٢٢، ٢٧-٤٨).

* الفراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين، ٩ ج، ايران- قم، مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩.

* الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي، ٢٦ ج، ايران-اصفهان، كتابخانه امام امير المؤمنين عليه السلام، ١٤٠٦.

* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨ ج، ايران- طهران، دارالكتب الإسلامية، ١٤٠٧.

* المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، ١٢ ج، ايران-طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨.

* المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول صلى الله عليه وآله، ٢٦ ج، إيران-طهران، دارالكتب الإسلامية، ١٤٠٤.

* شبيرى زنجانى، سيد موسى، و سيد محمد جواد شبيرى زنجانى، "پرونده كلينى و كافى"، كتاب ماه دين، ش١١، (١٣٨٧ش)، صص ١٣٠-١٣١.

* صاحب بن عباد، اسماعيل، المحيط في اللغة، ١١ ج، لبنان- بيروت، عالم الكتب، ١٤١٤.

موانع الحياة الطيّبة في ضوء الفطرة والعقل

الدكتور علي خضر الشكري

أستاذ جامعي / جامعة الكوفة

ملخص البحث

لما كان تعقّل معنى المنع من الشيء موقوفًا على معرفته والإحاطة بمبادئه التصورية فقد بيّن البحث مفهوم الحياة الطيّبة لتدور رحاه في مضمار ما يمنع الإنسان من الهناء بحياة طيّبة، وقد اتفق للباحث سبرُ غور ذلك عن طريق النظر إلى العقل والفطرة، فتناول العقلَ وما يعنيه والمساحة التي يشغلها في معترك الحياة وما يترتب على تغييبه من مآسي وسقوط في شباك النفس الأمارة بالسوء، وكيف يكون العقل أسيرًا تحت الهوى الذي صار أميرًا، فعندما يغيب العقل تهدد الحياة الطيّبة بالزوال، أمّا الفطرة فتم استجلاء المراد بها قرآنيًا وما يعني البحث من جوانب تأثيرها في المنع من الحياة الطيّبة، وذلك بالنظر الى الغرائز الأربع الحاكية عن الفطرة في عالم التكوين، وهي غريزة حب التدين وما يترتب عليها من حس عبادي ومراقبة لله المقتدر وما يؤول إليه الأمر عند إقصاء ذلك الحس، وغريزة حب الاستطلاع وما يؤديه التفاعل معها من اكتشافات تذلل الصعوبات وما ينتجه الإخلال بها من متاعب، وغريزة حب الخير وما تستتبعها من أخلاق حميدة وآثار ضدّها في المنع من طيب الحياة، وغريزة حب الجمال وما ينتج عنها من فنون توشح ثوب الحياة برونق جذاب وما يترتب على إهماله من استيحاش؛ لأنّ الحديث عن الحياة إنّما يعني البحث فيه هو الإنسان، ومعلوم أنّه مزود بمقومات حياته وديمومة استقراره ماديًا ومعنويًا، ومن أهمّ المقومات الفطرة، ومن فطرته ما أُودع فيه من الغرائز المذكورة، ولولاها لتعثر الوجود الإنساني واضطرب، كما هو عليه اليوم في غير واحد من أصقاع المعمورة بسبب إخلاله بالجانب الفطري أو لانطماس هذا الجانب بسبب الوسط الاجتماعي السيء تارةً أو التربية الفاسدة تارةً أخرى، فانتظم البحث في مباحثه وما تضمنته من مطالب ساعيًا وراء الكشف عن موانع الحياة الطيّبة متوسلًا إلى ذلك بالنصّ القرآني تارةً وبالحديث الشريف تارةً أخرى، متخذًا من المنهج التحليلي بابًا لتحريك أدوات البحث المعرفية.

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

يُعدّ سعي الإنسان نحو حياةٍ طيّبةٍ كريمةٍ من أهم الأهداف الراجحة لديه، وقد تقومت هذه الحياة الطيّبة بالقيام بما أراده الله من الإنسان في دار الامتحان وبالانتهاء عمّا نهاه عنه، والمنطلق لذلك هو التزام العقل والاستجابة لنداء الفطرة.

وهناك تساؤلات مفادها: ما المراد بالفطرة، وهل يمكن أن تفسد؟ ما موقع العقل في وجود الإنسان وهل يمكن أن يُستَعبَد العقل ويستبعد من موقع القيادة في الكيان البشري؟ وإذا كان ذلك ممكنًا فماهي الأسباب التي تقف وراءه، وإذا كانت الحياة الطيّبة قائمةً على الاتساق مع نداء الفطرة والاحتكام إلى العقل ففي حال غياب ذلك يصير الإنسان إلى ضنك المعيشة، فما أسباب المنع من الحياة الطيّبة، هذه التساؤلات وما يمكن أنْ يتفرع عنها حاول البحث الإجابة عليها بوساطة المنهج التحليلي مرةً والاستقرائي أخرى، فانتظم البحث في مدخل ومبحثين وخاتمة بأهم ما تمخض عن البحث من نتائج تلتها جريدة المصادر والمراجع.

مدخل

مراد البحث من الفطرة والعقل:

الفطرة و العقل دعامتا الهداية الداخلية (الذاتية) في الكيان البشري، فالفطرة هي "الجِبِلَّة المتهيئة لقبول الدين"[١]، والعقل هو الحجة الباطنية الثانية في كيان الإنسان وبه يثاب الإنسان وعليه يُعاقَب[٢]، إلا إنّ كلاً منهما عرضة للفساد والعطب.

أما عوامل فساد الفطرة فبعضها نفسية مثل الميل إلى العبث واللامبالاة وعدم الالتزام بالمسؤوليات وغير ذلك، وبعضها اجتماعية تتمثل بالوسط الفاسد تارةً وبسلوكيات من يدّعي الصلاح تارةً أخرى فتحصل ردة الفعل السلبية، وبعضها فكرية، وبعضها عبارة عن شبهات وأوهام لم يتم الرد عليها لقصور في القدرة على التفكير والاستدلال، يضاف إلى ذلك التربية الفاسدة فهي الأخرى عامل من الأهمية بمكان في الوصول إلى إفساد الفطرة.

وأما العقل فيمكن أن يُغيَّب تحت وطأة الشهوات وهيمنتها، ولاسيّما أن دوره يقتصر

على الإرشاد والتوجيه، والتحذير والتنبيه لا أكثر، فيستحيل هذا السيد عبدًا لدى النفس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "وكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ"(٣)، ويقول عليه السلام: "مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ"(٤)، من هنا كان لا بدّ من هدايةٍ خارجيةٍ تمثّلت بالرسل والأنبياء والأوصياء، ليقوموا بالدور الأساس الذي عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذكره أحوال بني آدم وكيف جهلوا حق الله وأشركوا به وتركوا عبادته بقوله: "فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ؛ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ"(٥)، فالأنبياء اضطلعوا بمهمة استيداء الفطرة، وإثارة العقل ليرجع الإنسان إلى جادة الحق والصواب وليحقق الهدف من وجوده.

مفهوم الحياة الطيّبة:

إنّ تعقّل معنى المنع من الشيء موقوفٌ على معرفة ذلك الشيء والإحاطة بمبادئه التصورية، وكما يقال تعرف الأشياء بأضدادها، وعليه سيكون ما يمنع من الحياة الطيّبة واضح المعالم إذا وقفنا على معنى الحياة الطيّبة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾(٦)، وفي قوله سبحانه: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٧)، ويُستجلى المعنى بوضوح في قوله عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**﴾(٨) والتدرج الدلالي في الآيات الكريمة يوضح أنّ الحياة الطيّبة إنّما مِلاكها أمران: أوّلهما الإيمان بمعناه الذي حددته الآية الثالثة، وثانيهما العمل الصالح المبني على ذلك الإيمان لتكون الخاتمة صلاح البال وطيب الحياة، ومن هذا المنطلق القرآني يكون الايمان والعمل الصالح علةً تامةً للحياة الطيّبة، فإذا فُقِدَ الأمران أو أحدهما زال المعلول لزوال علته، وعليه سيتناول المبحث الأول ما يتعلق بمنشأ الإيمان ومظاهره الشرعية وما يترتب عليها فعلًا أو تركًا بشكل إجمالي في الحديث عن الفطرة.

المبحث الأول: آثار الفطرة مانع من الحياة الطيّبة

الحديث عن الحياة إنّما يعنينا فيه هو الإنسان، ومعلوم أنّه مزودٌ بمقومات حياته وديمومة استقراره على مختلف الصعد سواء المادية منها أم المعنوية، وتلك المقومات هي في واقعها متمثلة بالفطرة والعقل كما تقدم، ومن فطرة الانسان ما أودع فيه من الغرائز، ولولاها لتعثر الوجود الإنساني واضطرب، كما اضطرب اليوم في غير واحدٍ من أسقاع المعمورة بسبب إخلاله بالجانب الفطري أو لانطماس هذا الجانب بسبب الوسط الاجتماعي السيء أو التربية الفاسدة، وعليه سينطلق المبحث إنْ شاء الله من النظر الى الغرائز الأربع المودعة في الكيان البشري وهي غريزة حب التدين، وغريزة حب الاستطلاع، وغريزة حب الخير، وغريزة حب الجمال[٩]، وما يترتب على إغفالها من آثار.

المطلب الأول: غريزة التديّن:

إنّ أدنى إعمال للذهن في أحوال الإنسان منذ أبعد العصور قِدَمًا إلى يومنا هذا يوقف الباحث على حقيقة فطرية الدين وأنّه ذو جذرٍ غريزي في الإنسان عبّر عنه بمختلف صور التقديس عبر تأريخه الطويل، ومن المعلوم أنّ الأمور الفطرية لا تتأثر بالظروف السياسية أو الاقتصادية أو الجغرافية أو التربوية بحيثُ تزيلها، نعم ربما تضعفها أو تعطل فاعليتها نسبيًا إلا إنّ تلك الظروف مهما عتت وقست لا طاقة لها على استئصال أمر فطري ومن ذلك الشعور الديني؛ لا لشيء، إلّا لأنّ الدين مشاعر مودعة في الإنسان من حيث هو إنسان في عالم الجِبِلّة والتكوين.

وفي حكم المفروغ منه أنّ هناك ملازمة بين الدين و نشأة الحضارة، وأنّ الدين خصلةٌ من الخصال التي تميز الفكر الإنساني، بل إنّ من العسير تصوّر وجود مجتمعٍ غابرٍ خلا من التديّن إلا إذا عُدّ مجتمعًا قد غلب عليه العجز أو البلاهة [١٠]، ويبلغ الشعور الديني ذروته في سن السادسة عشرة حسب نظرية استانلي هال، ولإلياد مرسيا كلمة رائعة في هذا المجال إذ يقول: "أن تكون – أو بالأحرى – أن تصبح إنسانًا يعني أنْ تكون متدينًا"[١١]، وفي العام ٢٠٠٥ نشر البروفيسور دين هامر Dean Hamer كتابه (جين الرب) The God Gene الذي اقترح فيه فرضية الجين الإلهي لدى كلّ إنسانٍ، موضّحًا أنّ جينًا معيّنًا يُسمّى

ناقل أحادي الأمين الحويصلي، وعلّل كيفية ربط الإيمان بجينات البشر وتهيئتهم للتجارب الروحية والصوفية[١٢].

وقد تعاملت المنظومة الفكرية الإسلامية مع موضوع التديّن بواقعية ومن منطلقات وجدانية فهي ترى أن الشعور الديني يستيقظ في باطن كلّ إنسان كبقية الأحاسيس الباطنية من دون حاجة إلى تعليم أو إرشاد، فكما يشعر الإنسان في مرحلة ما بميل شديد إلى أُمور، كالجاه أو الثروة أو الجمال أو الجنس، تلقائيًا ودون تعليم، كذلك يستيقظ في باطنه ميل إلى الله تعالى وإحساس تلقائي يدفعه بدون إرادته إلى التفتيش عنه، وهو إحساس يتعاظم ويتجلّى أكثر فأكثر أثناء البلوغ، حتّى أنّ علماء النفس يتّفقون في أنّ بين أزمة البلوغ و القفزة المفاجئة في المشاعر الدينية في الفرد ارتباطًا وتلازمًا لا ينكر، ومن الدلائل القاطعة على أنّ التدين أمر غريزي هو ظهور الميل المفاجئ إلى الدين وإلى الله ومسائل الإيمان دون تعليم أو توجيه ـ إلّا إنه علينا ألّا نغفل عن أنّ هذا الشعور شأنه شأن المشاعر الإنسانية الأخرى لو لم يحظ بالمراقبة الصحيحة والرعاية اللازمة يمكن ـ بل من المحتم ـ أن يكتنفه التقلب والانحراف ومما يثبت فطرية الشعور الديني انتشاره في كل زمان ومكان فإنّه لو لم يكن نداءً باطنيًا تحركه الفطرة لوجب وجوده في مكان دون آخر، وفي شعب دون شعب أو طبقة دون أخرى، وعليه فلا تأثير للسياسة أو الاقتصاد أو الجغرافيا في أصل نمو هذا الشعور.

وقد تجلّت فطرية الدين في ما ورد في القرآن الكريم وما جاء على لسان النبيّ الأكرم ﷺ، والعترة الطاهرة عليهم السلام، فقد تظافرت الآيات صادحة بهذه الحقيقة، فقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾[١٣]، ويقول تبارك وتعالى في موضع آخر منها: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾[١٤] وفي معرض الإجابة عمّن خلق الناس يحكي الباري تعالى عنهم قائلًا: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهم لَيَقُوْلُنَّ الله فَأَنَّى يُؤفَكون**﴾[١٥].

إذن فذلك الصوت المدوّي في أعماق الإنسان والذي يدعوه إلى البحث عن خالقه والتعرّف عليه والوقوف على ما يأمر به وما ينهى عنه وما يدعو إليه، هو نداء الفطرة الذي تضمنه قول الله سبحانه: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**

عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١٦).

ومن أجلى مظاهر الدين العبادة بما تتضمنه من أنواع فمنها العبادة الجسمية ومنها المالية ومنها الفكرية، ومن المعلوم أنّ الطريق إلى السكينة الروحية وطمأنينة القلب أنْ يكون الإنسان مستحضرًا وجودَ خالقه في كلّ آنٍ من آنات حياته؛ ليستمدّ منه القوة والشعور بالأمان، يقول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾(١٧).

إنّ الأفعال العبادية على اختلافها ولاسيّما الصلاة والصيام، والذِّكر على تعدد أنحائه من تهليل أو تسبيح أو حمد أو استغفار أو صلاة على النبي وآله ﷺ لها كبير التأثير في الحصول على حياةٍ طيّبةٍ ملؤها الدفء والانسيابية مع توليد القدرة على مواجهة مصاعب الحياة ــ التي لا بدّ منها في دار البلاء والامتحان ــ بحكمة ورويّة وروح مفعمة بالصبر، وفي الجهة المقابلة لهذه الحالة نجد الإعراض عن ذِكر الله تعالى ــ بمعنى عدم المبالاة بالدين وما يقتضيه ــ يمثل السبب المؤدي إلى ضنك العيش وأنْ يكون الإنسان تحت سطوة العُقَد النفسية وانحراف الطبع فيكون نهبًا للأفكار الشريرة والأوهام الخبيثة، وقد رصد القرآن الكريم هذه الحالة فيقول المولى تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾(١٨)، ولا يخفى ما لمخالفة الشريعة وارتكاب المحرمات من آثار على الصعيد النفسي والاجتماعي والاقتصادي ولو بعد حين، ناهيك عن أنّ بعض المعاصي تكون متسعة التأثير بحيث إنّها تكوينًا لم تكن لتقتصر بأثرها السلبي على مرتكبها فقط وإنّما تعم المجتمع الذي يحوي ذلك العاصي، ومن ذلك كما في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾(١٩). وهذا النصّ القرآني يحمل رسالة تهديدٍ شديدة اللهجة محذّرة من مغبة ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى أنْ يصبح الأمر بالمعروف وكذلك النهي عن المنكر ظاهرةً اجتماعيةً عامةً لكي يتحقق المراد من تشريعهما، فالفرد كما يقال لا يتمكن في الغالب من كسر قرار حكومي أو اجتماعي، إلاّ إنّ المجتمع أو الجماعة الكبيرة كما عليه ما يعبّر عنه بجماعات الضغط في البرلمانات يمكن لهذا المجتمع إنْ اتّحدت كلمة أبنائه ولتلك الجماعة أنْ يكسرا القرار وأنْ يحوّلا المسار.

وقد ورد في أحاديث النبي ﷺ وعترته الطاهرين عليهم السلام أنّ المجتمع إذا انتشرت فيه الفاحشة عمّه الوباء والوجع، فقد جاء في سنن ابن ماجة حديث رسول الله ﷺ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[٢٠].

المطلب الثاني: غريزة حب الاستكشاف[٢١]:

كلنا يلحظ في الطفل وفي مراحل حياته الأولى تلك الحركة الاستكشافية الفطرية فمن حركة يديه باحثًا عن ثدي أمه بعد قليل من ولادته، حتى إذا ما كبر قليلًا وجَدّ في الزحف فتارةً نجده تحت السُلّم وأخرى ربما وجدناه عند الباب أو تحت السرير، إنّها غريزة البحث وحب الاستطلاع والاكتشاف هي من تحركه، ولولا إعمال هذه الغريزة لبقي الإنسان كهوفيًا إلى يوم الناس هذا، وما تزال خالدةً في أذهاننا تفاحةُ نيوتن وقِدْرُ جيمس واط اللذان غيّرا مجرى الحياة، والإنسان الذي يأخذ بأسباب العلم ويستثمر الكون استثمارًا حكيمًا فلا ريب، ستذلل الصعاب بين يديه، وعلى خلاف ذلك نجد الشعوب التي ابتليت بالإعراض عن الأخذ بأسباب العلم والمعرفة ولا سيما في جانب العلوم الصِّرفة بما فيها من طب وفيزياء وغيرها نجدها شعوبًا تمرغت بوحل التخلف وما يجرّه من ويلات، فالأمراض تارةً والنكوص النفسي في الشخصية وشعورها بالحقارة تارةً أخرى، إلى ضياع حقوقها وحقوق الأجيال القادمة من بعدها.

وفي الرؤية الإسلامية دعوةٌ صريحةٌ إلى العلم والاكتشاف ولا سيّما إن الله تعالى قد طوَّع الكون وذلّل ما فيه ليستثمره الإنسان بيده وعقله، وقد أثنى على أهل العلم في كتابه العزيز قائلًا: ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[٢٢] وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: "اطلبوا العلم ولو بالصين؛ فإنّ طلب العلم فريضةٌ على

كل مسلم"[٢٣] ويقول الإمام الصادق عليه السلام: "لو علم الناس ما في طلب العلم، لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج"[٢٤]، وإذا كان هذا حال أهل العلم في نظر صاحب الشريعة فانظر إلى حال أهل الجهل، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "من لم يصبر على ذلّ التعلّم ساعةً بقي في ذلّ الجهل أبدًا"[٢٥]. وفي الروايات الشريفة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ورد أنّ الجهل داء وعياء، بل أنّه أدوأ الأدواء[٢٦] وأنّه أعظم المصائب[٢٧]، يقول الإمام الحسن عليه السلام: "دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام وهو يجود بنفسه لما ضربه ابن ملجم، فجزعت لذلك، فقال لي: أتجزع؟ فقلت: وكيف لا أجزع وأنا أراك على حالك هذه؟! فقال عليه السلام: ألا اعلمك خصالًا أربع إنْ أنت حفظتهن نلت بهن النجاة، وإنْ أنت ضيعتهن فاتك الداران؟ يا بني! لا غنى أكبر من العقل، ولا فقر مثل الجهل، ولا وحشة أشدّ من العجب، ولا عيش ألذّ من حسن الخلق"[٢٨]، ويكفي الجهل سوءًا أنّ من ثماره الخلق المذموم والشكّ واللهو[٢٩] وناهيك بهذه الثلاثة أسبابًا لنكد العيش وإبعادًا عن مساحة الحياة الطيّبة.

ثُم إنّ حياة الجاهل محفوفةٌ بالمآسي والآلام وإنّ صحبته عناء[٣٠]، كما إنّ أغلب مصائب العالَم مصدرها الجهلاء، يقول الإمام الجواد عليه السلام: "لو سكت الجاهل ما اختلف الناس"[٣١]، وأنّه محل لأنْ تغّره الدنيا، ولا يخفى على العقلاء ما يترتب على ذلك من آثار، ومأساة الجاهل مأساة مستدامة، وفي هذا المجال يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "إذا شاب الجاهل شبّ جهله"[٣٢].

إنّ التأمل في ما تقدّم يوقفنا أمام تصورٍ واضح المعالم عن طبيعة الحياة في ظلّ الجهل، وكيف أنّ الجهلاء بمنزلة الأموات وسط الأحياء، ولا سيما إذا تم النظر إلى ما يجره الجهل في مختلف المجالات، فالتخلف تارةً والنزعات القومية أو العنصرية أو العشائرية تارةً أخرى، وهذا في الحقيقة وجه مروّع لحياة بائسة تنطبع بالأحزان والويلات.

المطلب الثالث: غريزة حبّ الخير

إنّ هذه الغريزة منبثقة بلا شك من فطرة الصلاح التي فطر بارئ الكون هذا الوجود عليها، وجعل منها دافعًا ومحركًا باتجاه سامي الخصال وجميل الأفعال، وفي هذا المجال يذكر الشيخ السبحاني ما نصه: "وهي منشأ ظهور الأخلاق، ومعتمد الفضائل والسجايا

الإنسانية والصفات النفسانية المتعالية، وهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى أن يحب بني نوعه ويطلب العدل، والحقّ، والسلام، وهي التي توجد في المرء نوعًا من الميل الفطري الباطني إلى الأخلاق النبيلة والسجايا الحميدة، ونفورًا من الرذائل والصفات الذميمة"[٣٣].

ولا يخفى أن الأزمة التي يعيشها إنسان اليوم هي في واقعها أزمة أخلاق، فقد ابتعد الإنسان في أزماننا هذه عن عالم الفضائل وسدر في غيّه لاهثًا وراء شهواته بصورة حيوانية مقيتة، ومن أجل ذلك ارتكب القتل والتشريد والإفقار ومصادرة الحريات حتى صار على مشارف حيونة وجوده الإنساني الكريم.

وإذا كانت الفطرة الإنسانية تنادي بالأخلاق الحميدة فهذا يعني مناداتها بإعمال ثمار القوى المنتجة لحميد الأخلاق وتحذيرها من الإخلال بالتعامل معها، فمن المعلوم لدى علماء الأخلاق أن هناك أربع قوى، إنْ تعامل الإنسان معها بوعي وحكمة أنتجت الخير الخير كله في السلوك والمشاعر، وهي القوة الغضبية التي إنْ اعتدلت أثمرت الشجاعة وإنْ حصل فيها تفريط أدّت بالإنسان إلى الجبن، وفي حالة الإفراط فالمحصلة هي التهور. وأمّا القوة الثانية فهي قوة الشهوة التي إنْ اعتدلت أثمرت العفة، وإنْ حصل التفريط بها حصل الخمول، وإنْ صار الأمر إلى الإفراط وقع الإنسان في الشراهة. والثالثة هي قوة العلم التي تثمر الحكمة عند اعتدالها، وينتج الجهل في حال التفريط فيها، وإنْ حصل الإفراط نتجت البرجزة، وتأتي قوة العدل التي لا تقبل الإفراط والتفريط فالإنسان إمّا أنْ يكون عادلًا وإمّا ظالمًا في كل حالٍ من الأحوال التي تواجهه[٣٤].

وبناءً على ما تقدم فإنّ الحياة في ظلّ الجبن هي حياة الخضوع والذلّ والمهانة، فمع وجود هذا الخُلُق الذميم تستباح الأعراض وتُهتك الحرمات وتُسلب الخيرات وتعيش الشعوب على مائدة الفقر والجهل والانحطاط في مختلف المستويات، فهو مانع قوي من الحياة الطيّبة الكريمة، وكذا في ظلّ التهور تكون العواقب وخيمة البلوى على الأفراد وكذا الشعوب، والحوادث بين يديك.

والإنسان الذي تسيره الشهوات الجامحة مستجيبًا لها بإفراط فإنّه كشارب ماء البحر لا يزيده شربه إلّا عطشًا، وكم من شابٍ أو شابةٍ وقعا فريسةً لهياج تلك النزعة وكم من

مجتمع شرّع تلك السلوكيات الأخلاقية المنافية للفطرة فهو اليوم على حافة الهاوية، ومن جهة أخرى أبت الفطرة الإنسانية إلّا أنْ يتعامل الإنسان مع غريزته وألّا يُهملها، ففي إهمالها ما لا يقلّ خطرًا عن الإفراط فيها، فلو أهمل الإنسان غريزة الشهوة فلا أكل ولا شرب ولا ملبس ولا تناسل ولا ولا ... لاستحالت الأرض بعد حين من الزمن قاعًا صفصفًا.

أما قوة العلم وما يترتب عليها من ايجابيات في حال الاعتدال، فقد تقدّم في المطلب السابق ما يتعلق بالجهل المترتب على التفريط بتلك الغريزة، أمّا الحديث عن قوة العدل فهو حديث ذو شجون، فإنّ مآسي الشعوب في أغلبها إنّما ترجع إلى ظلم الحكام وطاغوتيتهم، ثم إنّ العلاقة وطيدة بين الأرض والسماء وتتجلى تلك العلاقة في النظر إلى أحوال الحكام فإنّ الحاكم الظالم سبب في القحط والجدب، وكم من الحكام حتى في أزماننا هذه مَن ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**﴾[٣٥]. فوجود الظالمين في أي مجتمع مانع من الحياة الطيّبة، ولذلك نجد أئمّة أهل البيت عليهم السلام لا يجدون للحياة مع الظالمين أدنى قيمة، قال الإمام الحسين عليه السلام: "إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برمًا"[٣٦].

المطلب الرابع: غريزة حبّ الجمال

إنّ هذه الغريزة المودعة تكوينًا في كياننا الإنساني هي منشأ كلّ ما نراه من فنونٍ جميلة في حياتنا من رسمٍ أو زخرفةٍ أو تصميم أو خطّ أو غيرها من الفنون[٣٧].

وهي بعدُ ذلك الباعث العجيب على نزوع الإنسان إلى التجمّل والترتيب والتدبير الشكلي الذي يؤثر نفسيًا على سلوك الإنسان ويشعره بالسعادة النسبية في دار الابتلاء.

الزينة والتجمّل في النصوص القرآنيّة

لقد تظافرت النصوص القرآنية على إظهار البعد الجمالي في الحياة، سواء أكان ذلك في الإنسان ذاته أم في الآيات الآفاقية من سماء وغيرها، يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾[٣٨]، ويقول سبحانه: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[٣٩]، ويقول تعالى: ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ**

هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [٤٠]، ولما ذكر سبحانه المنافع المترتبة على الأنعام بقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٤١]، أردف ذلك بالإشارة إلى البعد الجمالي قائلًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [٤٢]، والأمر ذاته في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٤٣]. فقد لُحِظ جانبا المنفعة والجمال معًا في هذا الموضع كذلك، ولم يغفل مجال الحلية والجمال في الملبس من بعد فائدة المطعم إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٤٤]، وفي بيان مشروعية التزيّن والتمتع بنعم الله تعالى جاءت الآية المباركة بأوضح صورة قائلة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٤٥].

إذن فنحن أمام دعوةٍ للتأمّل في لوحة الوجود البديعة بألوانها بتركيبها المتقن بمختلف جوانبها الباعثة على البهجة والسرور، كما هي مشعرة بعظمة المنشِئ سبحانه. ولإيليا أبي ماضي في هذا المجال أبيات رائعة، إذيقول:

من ذا يكافئ زهرةً فوّاحةً ... أو من يجازي البلبل المترنّما
لو لم تفحْ هذي وهذا ما شَدَا ... عاشت مذممةً وعاش مذمما
يا صاح خذ علم المحبّة منهما ... إنّي وجدت الحبّ علماً قيّما
أحبب فيغدو الكوخ كونًا نيّرا ... وابغض فيبدو الكون سجنًا مظلما

الزينة والتجمّل في السُنّة الشريفة

إذا كان الكتاب العزيز قد عزّز هذا الأمر في النفوس فإنّ السُنّة الشريفة على لسان النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام هي الأخرى صدحت بما يلفت نظرنا إلى الآثار المترتبة على البعد الجمالي في الحياة، فهي تارةً تدعونا إلى ما يحقّق الطمأنينة والبهجة، وتحذرنا تارةً أخرى من مغبة التفريط بذلك، يقول النبي الأكرم: "إنّ الله تعالى جميل يحبّ الجمال، ويحبّ أنْ يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس"[٤٦]، وهو القائل: "إنّ الله يحبّ من

عبده إذا خرج إلى إخوانه أنْ يتهيّأ لهم ويتجمّل"[٤٧]، ويرشدنا ﷺ إلى بعض مواطن جمال الهيأة بقوله: "ليأخذ أحدكم من شاربه والشعر الذي في أنفه، وليتعاهد نفسه، فإنّ ذلك يزيد في جماله"[٤٨]، وقد جاء في كنز العمال للمتقي الهندي حديث لرسول الله ﷺ فيه دعوة للجمال والتجمل إلى الدرجة التي يكون فيها أهل الإيمان مثالًا للجمال والحسن بين سائر الناس، ونصّ الحديث: "أحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتى تكونوا كأنّكم شامةٌ في الناس"[٤٩].

ولم يكن الوصي وأبناؤه الطاهرون عليهم السلام بمنأى عن هذا الميدان فقد جاءت الأحاديث عنهم تترى موجهة للناس نحو ما يصلح شأنهم في هذا المجال الخطير، فأمير المؤمنين عليه السلام يقول: "الصورة الجميلة أوّل السعادتين"[٥٠]، ويقول الإمام الصادق عليه السلام: "البس وتجمّل؛ فإنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال، وليكن من حلال"[٥١]، وفي حديثٍ أوسع دلالة يقول عليه السلام: "إنّ الله يحبّ الجمال والتجمّل، ويبغض البؤس والتباؤس، فإنّ الله إذا أنعم على عبده نعمة أحبّ أنْ يرى عليه أثرها، قيل: كيف ذلك ؟ قال: ينظّف ثوبه، ويطيّب ريحه، ويجصص داره، ويكنس أفنيته حتى أن السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر، ويزيد في الرزق"[٥٢].

وعند التأمّل نجد أنّ الزينة تنقسم على أربعة أقسام: المادية، والمعنوية، والفعلية، والقولية. وتتمثل هذه الأربعة بالخواتم، والقلائد، والمجوهرات، والعطور، والكحل، وغير ذلك، والأخلاق الحميدة، والدين، والنسب، والشرف، والحياء، والأعمال الخيرية، وامتهان مهنة محللة شريفة، والكلمة الطيّبة، والمنطق اللساني البنّاء.

ولا يخفى أنّ الإخلال بأيّ نوعٍ من الأربعة يؤدّي إلى الحرمان من الحياة الطيّبة كلًا أو بعضًا، ولا سيما أنّ كلّ نوع ممّا تقدّم ينقسم على محلل ومحرم، فالرجل أو المرأة إنْ هما التفتا إلى أهمية الزينة، وعملا وفقها بما لا يتنافى مع الشرع المقدّس صارت الحياة إلى الدعة والسعادة، ويا لها من مأساةٍ كبرى عندما ينعدم التعامل معها بإيجابية، أو يكون هناك تفريط بها بالمقدار الذي يجعل من الحياة جافةً بائسةً، وخاصة مع توفر الإمكانات اللازمة، فكم من رجلٍ وصل إلى مع زوجته إلى ما يعبَّرُ عنه بالطلاق العاطفي بسبب عدم التزين بما تقدم، فالإسلام يدعو إلى عدم تعطيل المرأة، كما تقدم في حديث الإمام الصادق عليه السلام،

ويدعوها للتزين في حدود الشرع، فلّما يجد الزوج شريكة الحياة مبتعدة تمامًا عن الزينة المادية، فلا قلادة ولا خاتم ولا عطر ولا ولا... يتولّد بداخله شعور بالاستيحاش ونضوب الميل ــ وكما تقدم أنّ هذا يزداد مع إمكان الزوجة القيام بذلك ــ فحريّ بالمرأة أنْ تكون طيّبة الريح، وكذا طيّبة الطبيخ كما ورد في الأحاديث الشريفة، ومنها: "خير نسائكم الطيّبة الريح، الطيّبة الطبيخ التي إذا أنفقت أنفقت بمعروف، وإنْ أمسكت أمسكت بمعروف، فتلك عالم من عمال الله وعامل الله لا يخيب ولا يندم"(٥٣)، والأمر ذاته في الرجل، وقد أولى الإسلام العطر أهمية حتى ترتب عليه أجر أخروي فقد ورد في الحديث الشريف: "ركعتان يصليهما متعطّر أفضل من سبعين ركعةً يصليهما غيرُ متعطر"(٥٤).

المبحث الثاني: أسباب المنع من الحياة الطيّبة

فيما تقدّم تبينت خارطة الطريق ــ بشكل إجمالي ــ نحو حياة طيّبة، وهنا ينبغي للبحث أنْ يستعرض جملة من الموانع التي تؤدّي إلى نكد الحياة وخلوّها من البهجة والهناء، وقد قُيِّضَ للبحث في ضوء ما تقدّم أنْ يرصد الموانع في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الإعراض عن ذكر الله تعالى:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾(٥٥)، فالإعراض عن ذكر الله تعالى يعني الانسياق وراء الدنيا ولهوها وشهواتها ومخالفة حدود الشرع المقدس والإخلاد إلى الأرض بحيث تكون الحياة ضيقة، "وذلك أنّ من نسي ربّه، وانقطع عن ذكره لم يبق له إلا أنْ يتعلّق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له، و يهتم بإصلاح معيشته، والتوسّع فيها والتمتع منها، والمعيشة التي أوتيها لا تسعه سواء كانت قليلة أم كثيرة؛ لأنّه كلّما حصل منها، واقتناها لم يرض نفسه بها، وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أنْ يقف منها على حدٍّ، فهو دائمًا في ضيق صدرٍ وحنقٍ ممّا وجد متعلّق القلب بما وراءه، مع ما يهجم عليه من الهم والغم والحزن والقلق والاضطراب، والخوف بنزول النوازل، وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب"(٥٦)، والحقيقة أنّ هذا الإعراض ربما نجم عن عدم إعمال العقل وعدم الاستجابة لنداء الفطرة، إذ لو

تأمّل الفرد في أحكام الشريعة المقدسة لوجد أنّ الله عزّ وجلّ ما أوجب أمرًا إلّا وفيه مصلحة عظيمة وما حرّم شيئًا إلّا وفيه مفسدة شديدة، فسَدَرَ في غيِّهِ، فتمرّغ بوحل المعاصي والبعد عن ألطاف المولى تعالى.

ولو استعرض البحث الآثار الدنيوية السلبية لمخالفة الشريعة في أحكامها التكليفية وتعاليمها التربوية بنحوٍ تفصيلي لخرج عن الهدف الذي يصبو إليه، ولاحتيج إلى مؤلَّفٍ ضخمٍ في أبواب وفصول، وعليه سيعمد إلى ذكر أمثلةٍ إجماليةٍ في هذا المجال استيفاءً للفائدة:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: "في كتاب علي عليه السلام ثلاث خصال لا يموت صاحبهن أبدًا حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها"(٥٧)، وفي مخالفة الشريعة بارتكاب الزنا قال الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: "للزاني ستُّ خصال، ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة، أمّا التي في الدنيا فيذهب بنور الوجه، ويورث الفقر، ويعجل الفناء، وأمّا التي في الآخرة فسخط الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار"(٥٨)، وأيّ حياةٍ هانئة تلك التي تكون في ظل تلك الخصال؟ وفي بيان الآثار الدنيوية لسبعة من الذنوب جاء عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "الذنوب التي تغيّر النعم البغي، والذنوب التي تورث الندم القتل، والتي تنزل النقم الظلم، والتي تهتك الستر شرب الخمر، والتي تحبس الرزق الزنا، والتي تعجل الفناء قطيعة الرحم، والتي ترد الدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين"(٥٩).

وبنحوٍ عامٍّ فإنّ الذنوب تؤدّي بآثارها الوضعية إلى أنْ تكون الحياة في جوٍّ مأساوي مليء بالمتاعب وشتّى الأمراض، يقول الإمام الصادق عليه السلام: "أما إنّه ليس من عرقٍ يضرب، ولا نكبةٍ ولا صداع، ولا مرضٍ إلّا بذنب؛ وذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿**وما أصابَكُم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير**﴾. قال: ثم قال: وما يعفو الله أكثر ممّا يؤاخذ به"(٦٠). كما أنّ كفر النعم يؤدّي إلى الفقر وفقدان الأمان، يقول الله سبحانه: ﴿**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾(٦١).

المطلب الثاني: سوء الخلق:

وهذا ميدانٌ واسعٌ، ولكن البحث سيقتصر على نماذج من الأخلاق السيئة التي تحول

دون الحياة الطيّبة، ومنها:

مثلث الشقاء: الكبر والحرص والحسد:

إنّ أولى ما ينبغي للبحث في هذا الموضع الوقوف عليه ما يمكن التعبير عنه بمثلث الشقاء المتمثّل بما حذّر منه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بقوله: "هلاك الناس في ثلاث: الكبر والحرص والحسد، فالكبر هلاك الدين وبه لُعن إبليس، والحرص عدو النفس وبه أُخرج آدم من الجنة، والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل"(٦٢)، وناهيك بهذه الثلاثة من المهلكات مبعثًا للعناء وصدًّا عن حياة طيّبة كريمة.

اتباع الهوى:

لطالما حذّر أئمّةُ أهل البيت عليهم السلام من الهوى وآثاره المهلكة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: "إنّما أخاف عليكم اثنتين: اتّباع الهوى وطول الأمل؛ أمّا اتّباع الهوى فإنّه يصدُّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة"(٦٣)، وقال عليه السلام: "وكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِير"(٦٤). وهو القائل عليه السلام: "أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ"(٦٥).

إنّه الهوى وما أدراك ما الهوى حيث يغيب العقل وتستفحل الشهوة وتستبعد الحكمة، فليس حريًا بالعاقل إلاّ أنْ يحكّم عقله، وإلّا فستلقي به الأهواء في وادي الضياع السحيق، والهوى يقف حاجزًا أمام الحياة الطيّبة ويوهم الإنسان بصورٍ خادعةٍ، فكم من امرأةٍ اقترنت برجلٍ بدافع هذا الهوى، وكم من رجلٍ كذلك، وقد فاتهما تحكيم العقل واستماع نداء الفطرة، وكثيرون أولئك الذين غرّتهم الصورة الجميلة وأهملوا المضمون النفيس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من تزوّج امرأةً لا يتزوّجها إلّا لجمالها لم يرَ فيها ما يحبّ، ومن تزوّجها لمالها لا يتزوّجها إلّا وكَلَهُ اللهُ إليه، فعليكم بذات الدين"(٦٦).

البخل:

وهذا الخلق السيّئ ثمرةٌ من ثمار سوء الظن بالله تعالى، ولا يختلف اثنان في أنّ كثيرًا من المشاكل بين الزوجين يقف البخل وراءها، وفي الأغلب لدى أزواج لم يتحلّوا بالكرم فأوحشوا لون الحياة، غافلين أو متغافلين عن أنّ "النظر إلى البخيل يقسي القلب"(٦٧)، و"أقلّ الناس راحةً البخيل"(٦٨)، و ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله تحذير شديد اللهجة للبخلاء وإشادة

بالكرام إذ يقول ﷺ: "السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة بعيدٌ من النار، والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنة، قريبٌ من النار"[٦٩].

الطمع:

الطمع آفةٌ من آفات الشر، ويكفيه مذمومية أنّه يورث الذل، ويخرج من الإيمان[٧٠]، وعن علي بن الحسين (صلوات الله عليهما) قال: "رأيتُ الخيرَ كلَّهُ قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس"[٧١].

الحقد:

وحسبه سوءً أنّ "أقلّ الناس راحةً الحقود"[٧٢].

الكسل:

يعدُّ الكسل من الأخلاق الذميمة وقد وردت في شأنه أحاديث عن العترة الطاهرة منها: "الكسل يضرُّ بالدين والدنيا"[٧٣]، وكم جرّ الكسلُ ضياعًا لفرص العيش الرغيد والحصول على المراتب العالية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "من دام كسلُهُ خابَ أملُهُ"[٧٤].

يضاف إلى ما تقدّم أخلاق ذميمة من شأنها إعاقة مسير قافلة الحياة الطيّبة، منها الأنانية والغضب والملل والجبن الذي يعدُّ منقصةً كبيرةً، والجهل ـ كما تقدّم في الحديث عن غريزة حبّ الاستطلاع ـ وبصورة عامة كانت الأخلاق السيئة وما زالت وستبقى في عالم الابتلاء الدنيوي من أكبر العوائق دون العيش الهنيء، وحادثة أم سعد بن معاذ بين أيدينا مع جلالة قدر هذا الصحابي الجليل " فلما أن سوى التربة عليه قالت أم سعد: يا سعد هنيئًا لك الجنة، فقال رسول الله ﷺ: "يا أم سعد، مه لا تجزمي على ربّك فإنّ سعدًا قد أصابته ضمّة"، قال: فرجع رسول الله ﷺ، ورجع الناس فقالوا له: يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد، إنّك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء، فقال ﷺ: "إنّ الملائكة كانت بلا رداء ولا حذاء فتأسيت بها"، قالوا: وكنت تأخذ يمنة السرير مرةً، ويسرة السرير مرةً، قال: "كانت يدي في يد جبرئيل؛ آخذُ حيث يأخذ"، قالوا: أمرت بغسله وصلّيت على جنازته ولحدته في قبره ثم قلت: إنّ سعدًا قد أصابته ضمّة! قال: فقال ﷺ: "نعم، إنّه كان في خلقه مع أهله سوء"[٧٥].

المطلب الثالث إهمال التهيئة:

للتهيئة أهمية بالغة في استقرار الأسرة والحياة الزوجية، فضلًا عن الشعور بالمقبولية في الوسط الاجتماعي ومردوداتها الإيجابية على النفس وابتهاجها، وما يترتب على التفريط بها وإهمالها من آثار سلبية مدمّرة لكيان الفرد والأسرة والمجتمع، فكم من أسرةٍ أتى إهمالُ التهيئةِ والتجمّلِ على بنيانها من القواعد، يقول الإمام الرضا (عليه السلام)، وقد سأله الحسن بن الجهم: خضبتَ؟ قال: "نعم، بالحناء والكتم، أما علمت أنّ في ذلك أجرًا؟ إنّها تحبّ أنْ ترى منك مثل الذي تحبّ أنْ ترى منها ــ يعني المرأة في التهيئة ــ ولقد خرجن نساء من العفاف إلى الفجور ما أخرجهن إلّا قلة تهيئة أزواجهن"(٧٦).

وهكذا كلّ ما يترتب على ما تقدّم من أنواع الزينة من آثار للحياة الطيّبة على الصعيد الفردي أو الأسري أو الاجتماعي فإنّ تركه أو التفريط به يشكّل مانعًا من الحياة الطيّبة الآمنة، فما ضرّ الرجل والمرأة أنْ يتزيّنا بعد أنْ عرفا ما يجرّه ذلك من خير؟!

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ المرء يشتري الملبس ولا يراعي فيه البعد الجمالي فيجد تأثير ذلك سلبًا في علاقته مع زوجته أو رئيسه في العمل أو ردود فعل الشارع المحرجة إزاء هذا المنظر، وما يجرّه ذلك من تعبٍ نفسي وإرباك في المزاج لهذا الشخص، وكم من الناس من أنفق الملايين في بناء بيت إلّا إنّه لم يحسن مراعاة الأبعاد الجمالية في ذلك حتى بدا ما بناه وكأنّه سجن رهيب، والحال إنّ فطرته تنادي بالجمال، ولكنه لم يستجب.

المطلب الرابع: موانع متفرقة

هذه موانع متعدّدة يجمعها الجهل والإهمال وعدم السيادة على الذات، وقد شكّلت بمجموعها حزمةً من العوائق دون الحياة الطيّبة، وهي سبعة:

١ .عدم الإحاطة بمعرفة الحقوق والواجبات:

يُعَدُّ الجهل بمنظومة الحقوق والواجبات من أهم موانع الحياة الطيّبة، فكم زوجةٍ توهّمت حقوقًا لها على الزوج وما كانت تلك المتوَهمات حقوقًا قط، وكم من زوجٍ أثقل كاهل زوجته بأمورٍ كان يرى أنّها من واجبها اتجاهه وهي ليست كذلك؟ فانهار بسبب ذلك أعظم بناء بني في الإسلام، وهذا ليس في نطاق الأسرة ومكوناتها فحسب، بل في

مجمل علاقات الأفراد مع بعضهم وسط المجتمع.

٢.سوء الاختيار:

الملاحظ أنّ أغلب حالات الطلاق، إنّما تكمن أسبابها في سوء الاختيار سواء من قبل الزوج أم الزوجة، وكثير من علاقات الصداقة التي جرت على أصحابها الويلات يقف وراءها سوء الاختيار عند تغييب العقل وانطماس الفطرة، فالمرأة الحمقاء وصديق السوء كانا وما يزالان من أشدّ الآفات فتكًا في بناء الحياة الطيّبة.

فعن رسول الله ﷺ: "إيّاكم وتزوّج الحمقاء، فإنّ صحبتها بلاء وولدها ضياع"(٧٧)، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنّ صديق الجاهل في تعب، وأنّه معرّض للعطب وأنّ أحكم الناس من فرّ من جهال الناس، وأنّ قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل، وكانوا عليهم السلام يقولون: "كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل"(٧٨).

٣.سوء ادارة الوقت:

لما كان رأس المال الحقيقي للإنسان هو عمره فحريّ بالإنسان العاقل ألّا ينفق ساعاته إلّا فيما يحقق له السعادة الأبدية في غده الأخروي، يقول الإمام الحسين عليه السلام: "ياابن آدم إنما أنت أيام كلما انقضى يوم ذهب بعضك"(٧٩)، ورحم الله الدمستاني إذ يقول:

أنفاسُ عمرِكَ أثمانُ الجنان فهل تشري بها لهبًا في الحشرِ يشتعلُ

ويقول آخر:

دقّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لهُ إنّ الحياةَ دقائق وثواني

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذِكْرُ للإنسانِ عمرٌ ثاني

إنّ الانهماك بالسهر والغياب عن الأسرة بلا مبرر ليس تضييعًا للوقت والعمر فحسب، بل هو تهديد لكيان الأسرة بالدمار، حتى أنّ هذا الحال يؤدّي بالفرد أحيانًا إلى فقدان فن التعامل مع الأسرة، فتتسم الحياة عندها بالجفاف العاطفي، وفقدان الدفء الأسري، ومن المآسي السلوكية أنْ يوجد ربّ الأسرة أو الأم أو الأبناء في البيت إلّا إنّ ذلك الوجود يكون وجودًا شكليًا، وجودًا جسميًا مجردًا عن فعاليات الروح وتأثيرها، ناهيك عن سوء استعمال وسائل التواصل التي استحالت في أحيان كثيرة إلى وسائل للتقاطع.

فسوء إدارة الوقت مبدد للعمر ومهدد بضياع الألفة بين الزوجين أو بين الأبوين والأبناء، وقد أشار علماء الاجتماع إلى ضرورة الجلوس مع العائلة ما لا يقل عن ٢٠ دقيقة خالصة لهم، وفي حديث للإمام الكاظم عليه السلام: "اجتهدوا في أنْ يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات"[٨٠].

٤. إهمال تنظيم الجانب الاقتصادي:

إنّ كثيرًا من المشاكل الاجتماعية المنغّصة للعيش يقف وراءها الجانب المالي، وهناك أناسٌ لم يراعوا هذا الجانب إمّا لشبهة الزهد الناجمة عن اختلاط المفاهيم لدى بعض الناس وخاصّة من أنصاف المتعلّمين أو أنصاف المتدينين، أو لتكاسلهم في النهوض بواقع أسرهم الاقتصادي، ولا يخفى أنّ التوسعة على العيال من المستحبات، وأنّ مجالات العمل مختلفة ولا سيّما في التجارة المندوب إليها وأنّ تسعة أعشار الرزق فيها، وهَبْ أنّ الأسرة لسببٍ أو لآخر عانت من الضيق المالي فيبقى التوكّل على الله والرضا بما قسم بلسم جراح للمتعففين، وكذلك يحتل التدبير في أمر المعيشة مكانةً مهمةً في ميدان تذليل تلك الصعوبات الخانقة ففي الحديث: "لا عقل كالتدبير"[٨١]، ومن الحلول مراعاة سلم الأولويات في رصد احتياجات الفرد أو الأسرة.

٥. عدم مراعاة العدالة في الجانب العاطفي ومديات الاهتمام بين أفراد الأسرة:

يشكل عدم مراعاة العدالة عقبةً كؤودًا أمام الطمأنينة الفردية والأسرية والمجتمعية، وقد دلّت التحقيقات الجنائية على أنّ كثيرًا من نَزَعات الإجرام كان سببها التفريق الفاحش في التعامل مع الأبناء، وربما كان الاهتمام بالذكور دون الإناث أو أحد الأبناء على الآخرين أو بنت دون أخرى من غير مبرر عقلائي، فيتمرد الفرد عندما تُثار فيه نزعة الشر وروح التعويض والانتقام.

وقد اهتمت الشريعة الإسلامية بمسألة التعامل بعدالة مع الأبناء، حتى إنّ الأب إذا قبّل ولده هذا فليقبّل ذاك، بل حتى في نظراته حين يتحدث فليراعِ توزيعه لتلك النظرات،

وهـذا خُلُـق سـامٍ حتـى فيـما بـين النـاس جميعًـا.

٦.علو سقف الطموحات على الإمكانات المتاحة:

مـن الملاحـظ وجدانيًـا أنّ كثـيرًا مـن النـاس ولا سـيّما في الأوسـاط الشـبابية والطلابيـة تنتابهـم حـالات الكآبـة والإحبـاط والشـعور الدائـم بالضيـق، ويرجـع ذلـك في الأعـمّ الأغلـب إلى ذلـك البَـونِ الشاسـع بـين إمكاناتهـم المتاحـة وسـقف مـا يطمحـون إليـه، وهـذا في أكثـر مـن جهـة، فالوضـع الاقتصـادي مـرّة والاسـتيعاب الذهنـي أخـرى ومطلـق جهـات الإمكانـات والطموحـات، والحـال أنّ الإنسـان عليـه أنْ يتحلّى بالحكمـة في هـذه المـوارد، وأنْ يتلفـع بالقناعة، ويسـتثمر طاقاتـه عـلى محدوديتهـا بـما يحقـق لـه النجـاح وراحـة البـال.

٧.الوسط غير الملائم مع إمكان التغيير:

يـرى البحـث أنّ الوسـط الاجتماعـي والبيئـة بمختلـف أبعادهـا حتـى الجغرافيـة منهـا أو المناخيـة يمثّـل عامـلًا مـن الأهميـة بمـكان في التأثـير عـلى حيـاة الفـرد، ولا سـيّما بالنظـر إلى تركيبتـه النفسـية والجسـمية، ففـي حـال كـون ذلـك ممّـا يسـبب لـه ضيقًـا ونكـدًا فحـريّ بالإنسـان عندهـا أنْ يعمـل عـلى تغيـير ذلـك المحيـط، ويجـدُّ في البحـث عـن وسـطٍ اجتماعـي تسـوده العدالـة الاجتماعيـة إلى حـدٍّ مـا، وتعـمُّ أهلـه الأخـلاق السـامية ومـا إلى ذلـك ممّـا يتكفـل بالانتقـال بـه مـن حالـة البـؤس والمعانـاة إلى حالـة السـعادة والهنـاء، فالحيـاة تحـت وطـأة الظالمـين لا قيمـة لهـا، يقـول أبـو عبـد الله الحسـين عليه السلام: "وإنّي لا أرى المـوت إلّا سـعادة والحيـاة مـع الظالمـين إلّا برمًـا"[٨٢]، وقـد قطـع الإسـلام العظيـم حجّـة مـن يدعـي الاسـتضعاف والبقـاء تحـت نـير الـذل في غـير واحـدة مـن آيـات الكتـاب العزيـز، قـال الله تعـالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[٨٣]. ومـن السـنن التاريخيـة في حركـة الأنبيـاء والأوصيـاء الهجـرة كـما في هجـرة نبينـا الكريـم صلى الله عليه وآله لمـا لم تعـد مكـة وسـطًا ملائـمًا لنشـر رسـالة الإسـلام وكـما في هجـرة ابراهيـم عليه السلام مـن قبـل وهجـرة موسـى عليه السلام عـلى سـبيل المثـال للحـصر، وفي هـذا يقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام: "ليـس بلـدٌ بأحـقّ بـك مـن بلـد، خيـرُ البـلاد مـا حملـك"[٨٤]، وكـم مـن طاقـةٍ هُـدِرت في وسـطٍ لم يُعِـرْ لهـا أدنـى قيمـة، يقـول الشـاعر العبـاسي أبـو الفـرج ابـن هنـدو:

قوِّضْ خيامَك من أرضٍ تُضام بها وجانب الذلَّ إنّ الذل يُجتنبُ
وارحلْ إذا كانت الأوطانُ منقصةً فمَنْدَل الهند في أوطانه حطبُ

خاتمة بأهم نتائج البحث:

١. لما تبيّن أنَّ الفطرة عرضةٌ للفساد والانطماس فعلى الإنسان أنْ يحذر ممّا يؤدي إلى ذلك.

٢. إنّ الاستجابة لنداء الفطرة هو مقتضى صفاء السريرة وتحكيم العقل، فينبغي عدم الالتفات إلى ما يعارض هذا الأمر من شبهاتٍ وإنْ بدت لتغيّر الأحوال غير متسقة مع ما عليه أغلب الناس.

٣. إنّ السعادة النسبية في دار الابتلاء لا بدّ فيها من نظرةٍ شموليةٍ للمجالات المختلفة، فتلك السعادة لم تكن لتقتصر على المال؛ فَرُبَ جوانب معنوية أتاحها الشرع المقدّس من شأنها أنْ تنتقل بالمرء إلى مستوى حياتي مرموق.

٤. إنّ اختلاط المفاهيم أحيانًا وعدم وضوحها تارةً أخرى يستدعي إعادة نظر كثير من الناس في تعاليم الشريعة المقدسة وأحكامها ولا سيّما لائحة الحقوق والواجبات التي من شأنها أنْ تحدد مسارات الإنسان، وتُعَرِّفَه ما له ليسعى لطلبه والحصول عليه، وما يجب عليه فيؤدّيه بطمأنينة ورضا.

٥. من الضروري بمكان لكلّ عاقل أنْ يتعرَّف على إمكاناته الذاتية والمكتسبة، ويرسم سقف طموحاته ومشاريعه على أساسها تجنبًا لحالة الاكتئاب والإحباط.

٦. إنّ الاطلاع على سيرة أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم ومفرداتها منجمٌ مليء بالجواهر والدرر في كلّ مجالات الحياة، فما أحرى بالمسلمين قبل غيرهم أنْ يرِدوا تلك الحياض النقية.

والحمد لله أولًا وآخرًا

وصلّى الله على القادة الهداة إلى السعادتين نبيّنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

الهوامش

١- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، ١٠٩٤.
٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، كتاب العقل والجهل، ح ١.
٣- نهج البلاغة، الشريف الرضي: الكلمات القصار، ٢٠١.
٤- م.ن، ٢٠٩.
٥- نهج البلاغة، الشريف الرضي: بَابُ الْمُخْتَارِ مِنْ خُطب مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأوامره ونواهيه وكلامه الجاري مجرى الخطب: الخطبة ١.
٦- النحل/ ١١٢.
٧- النحل/ ٩٧.
٨- محمد/ ٢.
٩- السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، ١/ ٥٥.
١٠- إلياد، مرسيا، المقدس والعادي، ١٢.
١١- إلياد، مرسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٩.
١٢- انظر: جين الرب، دين هامر، مدير وحدة التنظيم والهيكل الجيني في معهد السرطان القومي الأمريكي Hamer, Dean, The gode gene.
١٣- العنكبوت/ ٦١.
١٤- م.ن/ ٦٣.
١٥- الزخرف/ ٨٧.
١٦- الروم/ ٣٠.
١٧- الرعد/ ٢٨.
١٨- طه/ ١٢٤.
١٩- الأنفال/ ٢٥.
٢٠- ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، باب العقوبات، ح ٤٠١٩.
٢١- السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، ١/ ٥٩.
٢٢- المجادلة/ ١١.
٢٣- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال: ٢٨٦٩٧.
٢٤- ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن زين الدين، عوالي اللآلي، ٤/ ٦١، ح ٩.
٢٥- م.ن، ١/ ٢٨٦، ح ١٣٥.
٢٦- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ١٠٩٥.
٢٧- م.ن، ٢٨٤٤.
٢٨- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٧٨ / ١١١ / ٦.
٢٩- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ١٠٥٤٧، ٧٢٥، ٢٦٧.

٣٠- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ١٨.
٣١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٧٥/ ٨١.
٣٢- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ١١٢٥.
٣٣- السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن: ١/ ٥٩.
٣٤- شبر، عبدالله، الأخلاق، ٥٨-٥٩.
٣٥- إبراهيم/ ٢٨.
٣٦- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٤/ ١٩٢.
٣٧- السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، ١/ ٦٠.
٣٨- الحجر/ ١٦.
٣٩- ق/ ٧.
٤٠- النمل/ ٦٠.
٤١- النحل/ ٥.
٤٢- م.ن/ ٦.
٤٣- م.ن/ ٩.
٤٤- فاطر/ ١٢.
٤٥- الأعراف/ ٣٢.
٤٦- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال، ح ١٧١٦٦.
٤٧- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مكارم الأخلاق، ٣٥.
٤٨- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٣/ ١٠٩.
٤٩- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال، ح ١٧١٦٤.
٥٠- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ٧٥٥١.
٥١- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج٥، باب استحباب التجمل وكراهة التباؤس، ح ٥٧٤١.
٥٢- م.ن، ج٥، باب استحباب التجمل وكراهة التباؤس، ح ٥٧٤٦.
٥٣- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ٢٠ باب استحباب اختيار الجارية التي لها عقل وأدب، ح ٦.
٥٤- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مكارم الأخلاق، ٤٢.
٥٥- طه/ ١٢٤.
٥٦- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان: تفسير الآية المباركة.
٥٧- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج٢١، باب تحريم قطيعة الأرحام، ح١.
٥٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٥، باب الزاني، ح٣.
٥٩- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٧٠/ ٣٧٤.

٦٠- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢، باب الذنوب، ح٣.
٦١- النحل/ ١١٢.
٦٢- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٧٥/ ١١١.
٦٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢، باب اتباع الهوى، ح٣.
٦٤- نهج البلاغة، الشريف الرضي: الكلمات القصار، ٢٠١.
٦٥- م.ن، ٢٠٩.
٦٦- الفتال النيسابوري، محمد بن أحمد، روضة الواعظين، ٣٧٤.
٦٧- م.ن، ٢١٤.
٦٨- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٠/ ٣٠٠.
٦٩- م.ن، ٦٨/ ٣٥٥.
٧٠- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٢، باب الطمع، ح١ و ح٤.
٧١- م.ن، باب الاستغناء عن الناس، ح٣.
٧٢- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٧٥/ ٣٧٣.
٧٣- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٧٥/ ١٨٠.
٧٤- الآمدي، عبد الواحدبن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ١٠٦٢٧.
٧٥- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ٦/ ٢٢٠.
٧٦- م.ن، ٧٣/ ١٠٢.
٧٧- الحسني الراوندي، فضل الله بن علي، النوادر، ١١٦.
٧٨- الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ٩٧٥٣.
٧٩- الديلمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، الديلمي، ٩٣.
٨٠- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ٤٠٩-٤١٠.
٨١- نهج البلاغة، الشريف الرضي: ٧٩٧.
٨٢- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٤/ ١٩٢.
٨٣- النساء/ ٩٧.
٨٤- نهج البلاغة، الشريف الرضي/ ٨٨٦.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

* ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن زين الدين، عوالي اللآلي، إيران ـــ قم، انتشارات سيد الشهداء عليه السلام، ١٤٠٥هـ .

* ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليهم، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط٢، مؤسسة النشر الاسلامي (التابعة) لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٣٦٣ش- ١٤٠٤ق.

* ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، لبنان- بيروت، دار الفكر.

* إلياد، مرسيا، المقدس والعادي، ترجمة عادل العوى، بيروت ـــ لبنان، التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٩.

* ـــــــــــ، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ١٩٨٦.

* التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم و درر الكلم، إيران - قم، انتشارات مكتب التبليغ الإسلامي، ١٣٦٦ هـ ش.

* الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١، بيروت، دارالكتاب العربي، ١٤٠٥هـ .

* الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، ط٢، ايران - قم المشرفة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٤ هـ .

* الحسني الراوندي، فضل الله بن علي، النوادر، تحقيق: سعيد رضا علي عسكري، ط١، ايران ـــ قم، دار الحديث، ١٣٧٧هـ .

* الدّيلمي، الحسن بن أبي الحسن محمد، إرشاد القلوب المنجي من عمل به من أليم العقاب، تحقيق: السّيّد هاشم الميلاني، إعداد، مركز الأبحاث العقائدية.

* السبحاني، جعفر، مفاهيم القرآن، ط٣، ايران- قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

* الشبر، عبد الله، الأخلاق، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة/ شعبة التحقيق، ط ١، ١٤٢٩هـ ـ - ٢٠٠٨م.

* الشريف الرضي، محمد بن الحسين نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، إعداد: مركز الأبحاث العقائدية.

* الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط١، لبنان ـــ بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٧م.

* الطبرسي، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل، مكارم الاخلاق، ط٦، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.

* الفتال النيسابوري، محمد بن حسن، روضة الواعظين، تقديم محمد مهدي السيد حسن الخرسان، قم - إيران، منشورات الرضي، بلا.

* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طبعة دار الكتب الإسلامية.

* المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩ م.

* المجلسي، محمد باقر، بحارالأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، بيروت - لبنان، طبعة مؤسسة الوفاء، ط ٢، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

* 20. Hame, Dean, The gode gene, Department of biology, San Francisco, California, U S A, Anchor, 2005.

طلب الراحة ودوره في المنع من الحياة الطيّبة في روايات أهل البيت عليهم السلام

الشيخ عليّ سعدون الغزيّ

باحثٌ في الفكر الإسلامي وأُستاذ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على خير خلقه محمّد وآله الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم حتّى قيام يوم الدين.

إنَّ ممّا اهتمّ به أهل البيت عليهم السلام في تعاليمهم الدينيّة التربويّة هو تنظيم حياة الإنسان من أجل جعله على الطريق الصحيح الموصل إلى خاتمة سعيدة وطيّبة، وقد تضمنت تلك التعاليم إحاطةً بجميع شؤون الحياة وتفصيلاتها، فتجد فيها ما يُرشد إلى الشأن النفسيّ للإنسان، والاجتماعي العامّ، والخاصّ (العائليّ)، والاقتصاديّ، والسياسيّ، والتربويّ.

كما تناولت تعاليمهم ما يتعلّق بالحياة الإنسانيّة من جهة مقتضياتها التي تؤدّي إلى نتائج طيّبة، أو غير طيّبة، وبيّنت العلل والأمراض التي يمكن أنْ تواجّه الإنسان في مسيرته الحياتيّة، وكيف يمكن مواجهتها والتغلُّب عليها.

ومن تلك الأمراض والعلل: الخوف، والحسد، البخل، والنميمة، والسخط، والغضب، ومنها طلب الراحة، الذي يهدف بحثنا للوقوف عليه في تعاليمهم، المرويّة عنهم عليهم السلام.

وبعد متابعةٍ لجملةٍ من مروياتهم عليهم السلام في هذا الشأن، تمّ تصنيف البحث إلى أربعة فصول، وخاتمة:

الفصل الأوّل: الراحة مفهومًا وموقعًا.

الفصل الثاني: موجبات الراحة ومقابلها.

الفصل الثالث: وعي حبّ الراحة وأثره.

الفصل الرابع: الراحة الأخرويّة.

خاتمة: تضمنت تلخيص ما حوته الفصول الأربعة، وبيان أهمّ نتائجها.

الفصل الأوّل: الراحة مفهومًا وموقعًا

الراحة من المفردات واضحة المعاني، ولعلّه من هنا نجد اللغويّين جعلوها مفسّرةً لبعض المفردات الأخرى كـ(الدعة)[1]، و(السبت)[2]، و(الجمام)[3]، و(الفَرجة)[4].

ويظهر من بعضهم عطف (السكون) عليها عطفًا تفسيريًا[5]، فهي السكون، والظاهر أنَّ ذلك هو ما يقصده الخليل بقوله: "الراحة: وجدانك روحًا بعد مشقة"[6].

وقد عرّفها ابن ميثم البحرانيّ بقوله: "الراحة: السكون عن الحركات المتبعة حسيّةً كانت أو عقليّةً"[7].

وللراحة موقع مميّز في حياة الإنسان فهو يجعلها هدفًا لما يقوم به من جهدٍ وكدٍّ في حياته، فهو يعمل ويجمع المال من أجل استحصال الراحة، هذا ما نجده ظاهرًا للعيان في حياة بني البشر، وقد نصّ عليه الإمام زين العابدين عليه السلام حينما قال لأحد جلسائه: "اتقِ الله، وأجملْ في الطلب، ولا تطلبْ ما لم يُخلق؛ فإنَّ من طلب ما لم يُخلق تقطّعت نفسه حسرات، ولم ينلْ ما طلب. ثمّ قال: وكيف يُنال ما لم يُخلق!" فقال الرجل: وكيف يُطلب ما لم يُخلق؟ فقال: "من طلب الغنى والأموال والسعة في الدنيا فإنَّما يطلب ذلك للراحة، والراحة لم تُخلق في الدنيا، ولا لأهل الدنيا، إنَّما خُلِقت الراحة في الجنة، ولأهل الجنة، والتعب والنصب خُلِقا في الدنيا، ولأهل الدنيا، وما أُعطي أحدٌ منها جفنةً[8] إلاّ أُعطي من الحرص مثليها، ومن أصاب من الدنيا أكثر كان فيها أشدّ فقرًا؛ لأنَّه يفتقر إلى الناس في حفظ أمواله، ويفتقر إلى كلّ آلةٍ من آلات الدنيا، فليس في غنى الدنيا راحة، ولكن الشيطان يوسوس إلى ابن آدم، أنَّ له في جمع [ذلك] المال راحةً، وإنَّما يسوقه إلى التعب في الدنيا، والحساب عليه في الآخرة.

ثمّ قال عليه السلام: كلا، ما تعب أولياء الله في الدنيا للدنيا، بل تعبوا في الدنيا للآخرة. ثمَّ قال: ألا ومن اهتمّ لرزقه كُتِبَ عليه خطيئةٌ، كذلك قال المسيح [عيسى] عليه السلام للحواريين. إنَّما الدنيا قنطرة فاعبروها، ولا تعمروها"[9].

والحديث يُعطي عدّة معانٍ متعلّقة بالراحة، فهو مضافًا لتأكيد كون الراحة هدفًا للإنسان في ما يطلبه من هذه الحياة من وراء تعبه وكدّه، بيّن الأمور الآتية:

أوّلًا: أنَّ الراحة لم تُخلق مطلقًا في الدنيا، لا لأهل التديُّن والإيمان، ولا لأبناء الدنيا وطلّابها. وسنقف -إنْ شاء الله تعالى- أكثر عند هذه النقطة في الفصل الثالث.

ثانيًا: أنَّ من يطلب الراحة في الدنيا فهو يطلب أمرًا غير موجودٍ أصلًا، وبالتالي لا يكون نصيبه من هذا الطلب إلّا الخيبة والخسران.

ثالثًا: أنَّ من شؤون هذه الدنيا، ولازمها الذاتيّة -حسب تعبير المناطقة- هو التعب والنصب، سواء لأهل الدنيا أم لأهل الآخرة.

رابعًا: أنَّ أهل الدنيا أشدّ فقرًا فيها؛ لأنّهم كلّما جمعوا أموالًا احتاجوا إلى غيرهم في حفظها.

خامسًا: أنَّ طلب الراحة في الدنيا إنَّما هو من أوهام الشيطان ووساوسه، فيُخيّل للإنسان أنَّها واقع يمكنه أن يُصيبه.

سادسًا: أنَّ طلب الراحة يجعل من العبد طالبًا للدنيا وعمرانها، ولم يتعامل معها على أنَّها مجرّد معبر وطريق.

سابعًا: أنَّ أهل الآخرة لم يتعبوا في الدنيا من أجل الدنيا أبدًا، وإنَّما تعبوا في الدنيا من أجل الآخرة.

ثامنًا: ليس مجرّد طلب الراحة يعدّ طلبًا ضائعًا، بل حتّى الاهتمام بالرزق -الذي يكون عادةً سبيلًا لطلب الراحة- يُعدّ خطيئة؛ لأنَّ الرزق أمر مقسوم، بيد حكم عادل، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "إنَّ الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، ولو أنَّ أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت"[١٠].

تاسعًا: أنَّ الراحة خُلِقت للآخرة، وفي الآخرة، فمن أراد أنْ يطلبها فليطبها فيها، وسيأتي -إنْ شاء الله تعالى- تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

الفصل الثاني: موجبات الراحة ومقابلها

قد بيّنت النصوص المروية عن أهل البيت عليهم السلام أنَّ هناك أسبابًا توجب تحصيل الراحة، ومثلها لتحصيل التعب، والنصب، وهي:

أوّلًا: اليقين والرضا، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "إنّ الله -بعدله وقسطه-

جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشكّ والسخط"[١١].

والمقصود به -ظاهرًا- اليقين بحكمة الله تعالى وعدله، وأنّه لا يظلم عباده، وأنّ ما يقدره لهم هو في مصلحتهم المناسبة لشأنهم وظرفهم، وبالتالي يكون العبد راضيًا عن الله سبحانه وما قسمه له، فلا يُجهد نفسه في تحصيل ما لم يُخلق أصلًا، وهو الراحة الدنيويّة من خلال جمعه وحرصه، كما أوضح ذلك حديث الإمام زين العابدين عليه السلام المتقدِّم.

وفي قبال ذلك جعل -عزَّ وجلَّ- الهم والحزن، وهما أمران ملازمان للتعب والنصب المقابل للراحة، جعلهما في شكّ العبد بعدل الله سبحانه وحكمته، وبالتالي السخط ممّا قُدِّر له من رزق مادي في هذه الدنيا، يجده في نفسه أقلّ من طموحه في تحقيق الراحة والسعادة الموهمة له. وروي عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال لأمير المؤمنين عليه السلام: "يا عليّ، من استولى عليه الضجر رحلت عنه الراحة"[١٢].

ثانيًا: الاقتصار على الكفاف من العيش، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة قوله: "من اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، وتبوء خفض الدعة، والرغبة مفتاح التعب"[١٣].

فإنَّ ممّا يُقلل على الإنسان مجهود الهم والتعب في تحصيل الراحة الموهمة له هو أنْ يرضى بأنْ يعيش على الكفاف من متطلبات العيش بعيدًا عن طلب ملاذ الدنيا، التي تتطلّب منه مزيد كدّ وتعب في تحصيل ما يمكّنه من توفير ذلك؛ ولذا كان في قباله الرغبة في المزيد من ملاذها مفتاحًا للتعب والنصب. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: "مطلوبات الناس في الدنيا الفانية أربعة: الغنى، والدعة، وقلّة الاهتمام والعزّ. فأمّا الغنى فموجود في القناعة، فمن طلبه في كثرة المال لم يجده، وأمّا الدعة فموجودة في خفة المحمل، فمن طلبها في ثقله لم يجدها. وأمّا قلّة الاهتمام فموجودة في قلة الشغل، فمن طلبها مع كثرته لم يجدها. وأمّا العزّ فموجود في خدمة الخالق، فمن طلبه في خدمة المخلوق لم يجده"[١٤].

ثالثًا: القناعة، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: "لو تميّزت الأشياء كان الكذب مع الجبن، والصدق مع الشجاعة، والراحة مع اليأس، والتعب مع الطمع، والحرمان مع الحرص، والذل مع الدين"[١٥].

وروي عن الصادق عليه السلام قوله: "حُرِم الحريصُ خصلتين، ولزمته خصلتان: حُرِم القناعة فافتقد الراحة، وحُرِم الرضا فافتقد اليقين"[١٦].

فإنَّ من يحرص على الدنيا وتفاصيل العيش فيها لا يجد من نفسه قناعةً في ما عنده من النعم، بل يجد من نفسه أنَّه يطلب المزيد منها، فلا يستشعر في نفسه الراحة والسعادة فيما عنده من نِعم الله، وكذلك هو لم يجد من نفسه الرضا فيما رزقه الله -عزَّ وجلَّ-، بل يطمح بأزيد منه، فلا يستشعر في نفسه اليقين بأنَّ ما اختاره الله سبحانه له من الرزق هو الأنسب به وبحاله.

رابعًا: مخالفة الهوى، فقد روي أنَّه سُئِلَ الإمام الكاظم عليه السلام فـ"قيل له: أين طريق الراحة؟، فقال عليه السلام: في خلاف الهوى"[١٧]. فإنَّ النفس الإنسانيّة بطبعها تميل إلى طلب المزيد من ملاذ الدنيا، فمن خلاف هذا الميل من نفسها، وروّضها على خلافه يكون قد سلك طريقًا إلى الراحة، حيث يُبعد عن نفسه ما يدفعها للمشاق والمتاعب، وبخلاف من سار مع هواه، واستجاب له في طلب المزيد من ملاذ الدنيا فإنَّه يسلك بها طريق الهم والحزن والتعب.

خامسًا: ترك مخالطة الناس، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: "طلبت الراحة فما وجدت إلّا بترك مخالطة الناس"[١٨].

والمقصود منه -ظاهرًا- هو أنَّ مخالطة الناس بأصنافهم مدعاة للتشبه بهم، وسلوك سبيلهم، وبالتالي الانجرار وراء الرغبة في طلب مزيد ملاذ الدنيا، والحرص عليها؛ طلبًا للراحة الموهمة، الموجبة لمزيد من التعب والحزن والهم. بخلاف مجانبة مخالطتهم، فإنَّها تُقلّل من تأثر بهم في سلوك سبيهم، والوقوع في حبال طلب الراحة الموهمة لهم.

سادسًا: الزهد في الدنيا، فقد روي عن الإمام الهادي عليه السلام قوله: "أوحى الله إلى بعض الأنبياء: أمّا زهدك في الدنيا فتعجلك الراحة"[١٩]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: "الزهد في الدنيا الراحة العظمى"[٢٠]، وقوله: "من أحبّ الراحة فليؤثر الزهد في الدنيا"[٢١]، وقوله: "ثمرة الزهد الراحة"[٢٢].

الزهد في حقيقته جامع لكُلّ ما تقدّم من أسباب الراحة الحقيقية، فهو يتضمن اليقين، والرضا، والكفاف، والقناعة، ومخالفة الهوى، وعدم مخالطة الناس، ولعلّه من هنا وصِفت

الراحة معه بـ(العظمى)، وأنّها (ثمرة الزهد)؛ لكونها مضمونة التحقّق، ومستوعبة لجميع مقتضياتها فكانت عظمى. وفي قبال ذلك الرغبة في الدنيا فالتعب العظيم ثمرتها.

هذا والملاحظ أنَّ جملة الأسباب المتقدِّمة في روايات أهل البيت عليهم السلام للتعب وعدم الراحة قد ذكرتها بعض كتب علم النفس[٢٣].

الفصل الثالث: وعي حبّ الراحة وأثره

إنَّ ممّا يدفع الإنسان نحو التجنُّب عن الأمور القبيحة هو وعيه لها، وإدراكه لآثارها، فكُلّما كان واعيًا بقبح الشيء، ومدركًا لآثاره السلبيّة كان أسرع في تركه والاجتباب عنه، بل ويكون أضمن له في الاستمرار بتركه؛ لأنَّه ترك عن معرفة ووعي.

وقد أرشدتنا أحاديث أهل البيت عليهم السلام إلى وعي (حبّ الراحة وطلبها)، وبيّنت لنا آثاره، فنبّهتنا إلى أنَّ الراحة أمر لم يُخلق في الدنيا أصلًا، حتّى لأهل الدنيا، فضلًا عن أهل التديُّن والإيمان، وأنَّ الراحة الدنيويّة إنَّما هي من أوهام الشيطان وتسويلاته؛ ليوقع بالإنسان في شراك الدنيا وزخارفها.

وإنَّ من آثارها ولوازمها التعب، والسخط، والضجر، والشكّ، وعدم القناعة، والرغبة في الدنيا، وعند هذه الأخيرة ينبغي الوقوف أكثر؛ حيث يظهر من أحاديثهم عليهم السلام أنَّ حبّ الراحة مرتبةٌ من مراتب حبّ الدنيا، الذي هو رأس كلّ خطيئة، فقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنَّه سُئِلَ عن "أيّ الأعمال أفضل عند الله؟، قال: ما من عمل بعد معرفة الله -عزَّ وجلَّ- ومعرفة رسوله -صلّى الله عليه وآله- أفضل من بغض الدنيا؛ فإنَّ لذلك لشعبًا كثيرة، وللمعاصي شعب، فأول ما عصى الله به الكبر، معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، ثمَّ الحرص، وهي معصية آدم وحواء عليهما السلام حين قال الله -عزَّ وجلَّ- لهما: ﴿**فَكُلا مِن حَيثُ شِئتُما وَلا تَقرَبا هـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظّالِمينَ**﴾[٢٤]، فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة، وذلك أنّ أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه، ثمّ الحسد، وهي معصية ابن آدم، حيث حسد أخاه فقتله، فتشعّب من ذلك: حبّ النساء، وحبّ الدنيا، وحبّ الرئاسة، وحبّ الراحة، وحبّ الكلام، وحبّ العلوّ والثروة، فصرنَ سبع خصال، فاجتمعنَ كلهنَّ في حبّ الدنيا، فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة

ذلك: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئةٍ، والدنيا دنياءان: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة"[٢٥].

ونصّت بعض الأحاديث على أنَّ حبّ الراحة من المعاصي الأولى التي عُصِي الله تعالى بها، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: "إنَّ أوّل ما عُصِي الله به ستٌّ: حبّ الدنيا، وحبّ الرياسة، وحبّ الطعام، وحبّ النساء، وحبّ النوم، وحبّ الراحة"[٢٦].

ولذا نجد أنَّ الإمام الصادق عليه السلام حينما سأله أحدهم أنْ يدعو له برزق في دعةٍ وراحةٍ رفض أنْ يستجيب لطلبه، وأمره في أنْ يسعى في طلب الرزق من أسبابه الطبيعيّة، وذلك فيما رواه: "أيّوب أخو أُديم بيّاع الهرويّ، قال: كنا جلوسًا عند أبي عبد الله عليه السلام إذ أقبل العلاء بن كامل، فجلس قُدام أبي عبد الله عليه السلام فقال: ادع الله أنْ يرزقني في دعة، فقال: لا أدعو لك، اطلب كما أمرك الله -عزَّ وجلَّ-"[٢٧].

بل روي أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يُشهد الملائكة بأنَّه راضٍ عن عبدٍ لم يطلب الراحة من بلاء قد أصابه[٢٨].

الفصل الرابع: الراحة الأخرويّة

قد اتّضح من جميع ما تقدّم من أحاديث أهل البيت عليهم السلام: أنَّ الراحة التي تقصدها الأحاديث وتدفع نحوها هي الراحة الأخرويّة فهي ثمرة ما تقدّم من أسبابها.

فقد روي أنَّه سُئِلَ الإمام الكاظم عليه السلام: "متى يجد عبدٌ الراحة؟، فقال عليه السلام: عند أوّل يوم يصير في الجنة"[٢٩]، وروي فيما أوحى الله تعالى به لنبيّه داود عليه السلام: "يا داود! إنّي... وضعت الراحة في الجنة، وهم يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها"[٣٠].

وروي أنَّه كان من دعاء الإمام الكاظم عليه السلام الذي يواضب عليه: "اللهم إنّي أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب"[٣١].

وإنَّ العبد يضمن شطرًا مهمًا من الراحة الأخرويّة بعقيدته الحقّة، فقد روي أنَّ رسول الله ﷺ أنَّه قال لأصحابه بعد أنْ رأى منهم جفوةً لأمير المؤمنين عليه السلام: "يا معشر الناس، هؤلاء أهل بيتي تستخفّون بهم، وأنا حيٌّ بين ظهرانيكم، أما والله لئن غبت عنكم فإنَّ الله لا يغيب عنكم، إنَّ الرَوح والراحة، والبشر والبشارة لمن ائتمّ بعليٍّ وتولاه، وسلّم له وللأوصياء من ولده"[٣٢].

الخاتمة

يتلخّص من البحث المتقدِّم عدّة نقاط:

١-أنَّ الراحة مطلبٌ للإنسان في حياته الدنيا، وهي لم تُخلق أصلًا فيها، حتّى لأهل الدنيا.

٢- أنَّ طلب الراحة من وسوسة الشيطان وتسويلاته؛ ليوقع العباد في حبائل الدنيا.

٣- أنَّ طلب الراحة مرتبةٌ من مراتب حبّ الدنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة.

٤- أنَّ لطلب الراحة الدنيويّة آثار سلبيّة عديدة، من التعب، والضجر، والشكّ، والسخط، وعدم القناعة، وحبّ الدنيا، وعكسه ترك طلبها المتولِّد من اليقين، والرضا، والقناعة، والكفاف، وترك مخالطة الناس، والزهد.

٥- أنَّ الوعي بعدم خلق الراحة في الدنيا ينبغي أنْ يكون نفسه سببًا في الكفّ عن طلبها.

٦-أنَّ الراحة الحقيقية هي الراحة الأخرويّة، والتي يضمنها العبد باعتقاده الحقّ، وتحلِّيه بأسبابها المارة من اليقين والرضا وأخواتهما.

٧-أنَّ من العناصر المقوّمة للحياة الطيّبة ومن معالمها المهمّة في روايات أهل البيت عليهم السلام هو ترك حبّ الراحة الدنيويّة وطلبها.

الهوامش

١- العسكريّ، أبو هلال، جمهرة الأمثال، ٢/ ٢٤٩.
٢- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ١/ ٢٥٠.
٣- م.ن، ٥/ ١٨٩٠.
٤- ابن سيدة المُرسّي، علّي بن إسماعيل، المخصّص، ٥/ ١٣٧.
٥- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ٣/ ١٤٠، والعسكريّ، أبي هلال، التلخيص، ١/ ١٠٤.
٦- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ٣/ ٢٩٣.
٧- البحراني، ميثم بن علي، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، ١٠٢.
٨- وعاء يُشبع أكثر من عشرة أشخاص، "قال الكسائيّ: أعظم القصاع الجفنة، ثمَّ القصعة تليها، تشبع العشرة، ثمَّ الصحفة تشبع الخمسة، ثمَّ المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثمَّ الصحيفة، مصغرًا، تشبع الرجل". الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٤/ ٥.
٩- الصدوق، محمد بن علي، الخصال، ٦٤/ ح٩٥.
١٠- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٥٧/ ح٢.
١١- م.ن، ٢/ ٥٧/ ح٢.
١٢- الصدوق، محمد بن علي، الخصال، ٢٣٠/ ح٧٢.
١٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨/ ١٩.
١٤- الصدوق، محمد بن علي، الخصال، ١٩٨/ ح٧.
١٥- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ٢٠/ ٣٢٧/ حكمة ٧٣٩.
١٦- الصدوق، محمد بن علي، الخصال، ٦٩/ ح١٠٤.
١٧- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ٣٧٠.
١٨- النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل، ١١/ ١٩٢/ ح١٨.
١٩- ابن شعبة الحرانّي، الحسن بن علّي، تحف العقول، ٤٥٥.
٢٠- الواسطيّ، علّي بن محمّد الليثيّ، عيون الحكم والمواعظ، ٤٧.
٢١- م.ن، ٤٣٤.
٢٢- م.ن، ٢٠٧.
٢٣- رسل، برتراند، غزو السعادة، ١٣، وما بعدها.
٢٤- الأعراف/ ١٩.
٢٥- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٣١٦-٣١٧/ ح٨.
٢٦- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن، ١/ ٢٩٥/ ح٤٥٩.
٢٧- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٥/ ٧٨/ ح٣.

٢٨- التحصين/ ٢٥.
٢٩- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ٣٧٠.
٣٠- الحلي، ابن فهد، عدة الداعي و نجاح الساعي، ١٦٦.
٣١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٣/ ٣٢٣/ ح١٠.
٣٢- الصدوق، محمّد بن علّي، أمالي، ١٧٣/ ح١٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
* ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبه الله (المعتزليّ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط١، نشر: دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٩م.
* ابن جنّي، أبوالفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: عبد المجيد هنداويّ، بيروت، لبنان، نشر: دار الكتب العلميّة، الطبعة: الثالثة.
* ابن سيدة المُرسيّ، عليّ بن إسماعيل، المخصّص، تحقيق: خليل إبراهيم جفّال، ط١، بيروت، لبنان، نشر: دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٩٦م.
* ابن شعبة الحرانيّ، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: عليّ أكبر غفاري، ط٢، بقم- إيران، نشر: مؤسسة النشر الإسلاميّ، التابعة لجماعة المدرسين، ١٤٠٤هـ.
* البحراني، ميثم بن علي، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، تحقيق: مير جلال الدين الحسينيّ، نشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة بقم.
* البرقيّ، أحمد بن محمّد، المحاسن، تحقيق: جلال الدين الحسينيّ، ط١، نشر: دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧٠هـ.
* الجوهريّ الفارابيّ، إسماعيل بن حمّاد، تاج اللُغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، بيروت، لُبنان، نشر: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ.
* الحلّي الأسدي، أحمد بن محمّد، التحصين من صفات العارفين من العزلة والخمول بالأسانيد المتلقاة من آل الرسول، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ط٢، ١٤٠٦هـ.
* ـــــــــ، أحمد بن محمّد، عدّة الداعي ونجاح الساعي، صحّحه وعلّق عليه: أحمد الموحديّ القميّ.
* رسل، برتراند، غزو السعادة، تعريب: سمير شيخانيّ، ط١، بيروت، لبنان، نشر: دار الأمير للثقافة والعلوم، ١٩٩٥م.
* الزبيديّ، محمّد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، نشر: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، ١٩٦٥م.
* الصّدوق، محمد بن علي، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاريّ، نشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قُم المُقدّسة، ١٤٠٣هـ.
* ـــــــــ، أمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، ط١، قم، إيران، مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ.
* العسكريّ، أبو هلال، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق: عزّة حسن، ط٢، بيروت، لبنان، نشر: دار صادر، ١٩٩٣م.
* ـــــــــ، جمهرة الأمثال، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط٢، بيروت، لبنان، نشر: دار الجليل،١٩٦٤م.
* الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السامرائيّ، بيروت، لبنان، نشر: دار ومكتبة الهلال.
* الكُلينيّ، محمّد بن يعقوب، الكافي، صححه وعلّق عليه: عليّ أكبر غفاريّ، ط٣، طهران، نشر: دار الكُتُب الإسلاميّة، ١٣٦٧ش.
* النوريّ الطبرسيّ، حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ط١، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ.
* الواسطيّ، عليّ بن محمّد الليثيّ، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسنيّ البيرجنديّ، ط١، قم، إيران، نشر: دار الحديث.

أثر الذنوب في فقدان الحياة الطيّبة
الإعراض عن الذكر أنموذجًا

الشيخ صباح عباس حسن
باحثٌ وأستاذٌ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

ملخص البحث

يتناول بحثنا الموسوم: (**أثر الذنوب في فقدان الحياة الطيّبة**) موضوعًا من المواضيع التي لها مساس بواقع حياة الإنسان، وما ينتابها من مشاكل ومنغصات يعاني منها في مسيرته التي يعيشها. و تضمّن البحث بعد ذكر مقدمةٍ وتمهيدٍ، المباحث التالية: المبحث الأول: نظرة إلى معنى مفردات العنوان، شرحنا فيه معنى العنوان بشكلٍ مختصر، والمبحث الثاني: الذي خصّص لذكر النصوص المحذّرة من خطورة الإعراض عن الذكر، وأمّا المبحث الثالث: فقد تبلور في ذكر الآثار المترتبة على الإعراض عن الذكر، وكان هدفنا منه هو إثبات فقدان الحياة الطيّبة نتيجة الإعراض عن الذكر، وفي المبحث الرابع: تناولنا إشكالات الموضوع وذكرنا الإجابة عنها. وقد ذكرنا في الخاتمة بعض النقاط المهمة التي خرجنا بها من خلال البحث.

المقدّمة

إنّ السنن الإلهية ـ التي تَعني مجموعة القوانين التي وضعها الله عزّ وجلّ في الحياة وجعل الكون خاضعًا لها وسائرًا على أساسها ـ وإنْ عُبر عنها في كلمات العلماء بأنّها: من الأمور الثابتة غير المتبدلة، والمستمرة غير المتوقفة عند زمان معين أو مكان محدد، إلّا إنّها في الواقع إنْ نظرنا إليها من زاوية تبعيتها لأسبابها ضمن القانون الكوني العام توصلنا إلى أنّ بعضًا منها ثابتٌ وسارٍ على جميع المخلوقات، ويصدق عليه عنوان الثبات والاطراد على سائر المخلوقات، كما في سنة التغير والتبدل الذي يطرأ على سائر المخلوقات، أو الفناء والموت الذي لم يستثن أحدًا من المخلوقين مهما كانت منزلته عند الله عزّ وجلّ وقربه منه، حتى إنّه تعالى خاطب نبيه ـ وهو أقرب المخلوقات إليه ـ قائلًا: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾[1]. فلم يستثنِ أحدًا من هذا القانون الإلهي العام، بل كلّ مخلوقٍ لا بد أنْ يموت مهما طال به الأمد، ولكن إذا نظرنا إلى بعضها بالقياس إلى بعض وجدنا أنّ الصنف المتقدّم ذكره سارٍ في الكون وغير خاضعٍ للمتغيرات، بينما نجد بعض السنن التي تتبع الأسباب في تغيرها وتحولها يمكن إطلاق التغير والتبدل عليها والقول بأنّها تختلف وتتبدل من عصرٍ إلى عصر ومن مكانٍ إلى مكان، فالرزق والأمان والعمر الطويل وغيرها من الأمور إنّما تتبع الأسباب التي تؤثر فيها تأثيرًا إيجابيًا أو سلبيًا؛ ولهذا فقد جاءت النصوص المشجعة على بعض الأفعال المؤثرة في هذه السنن، كما عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: "**إنّ الصدقة لتدفع سبعين بليةٍ من بلايا الدنيا مع ميتة السوء، إنّ صاحبها لا يموت ميتة السوء أبدًا مع ما يدخر لصاحبها في الآخر**"[2].

وبعبارةٍ أخرى: إنّ السنن الإلهية إذا نظرنا إليها بمجموعها وجدنا أنّها غير قابلةٍ للتخلّف عن أسبابها وعللها، وغير قابلة للتغيير والتأخر عن أسبابها، فمتى حصل السبب المؤثّر في وجودها وُجدت من دون تخلف ولا تأخر؛ وعندئذٍ أمكننا التعبير عنها بأنّها ثابتةٌ ومطرّدة، بينما إذا نظرنا إلى كلّ واحدةٍ منها نظرةً فرديةً صح التعبير عن بعضها أنّها متغيرةٌ وتابعةٌ لتغير السلوك الإنساني المؤثر فيها إيجابًا أو سلبًا، بخلاف بعضها الآخر الذي لا دخالة لأفعال الإنسان في وقوعه وتحققه، بل تكون جاريةً في المخلوقات مهما حاولوا الفرار منها.

وعلى هذا الأساس، فإذا علم الإنسان أنّ بعض السنن الإلهية تابعةٌ لتصرفاته وأفعاله، فسوف يدفعه ذلك إلى توفير الأسباب التي تؤثّر في تغيير مجرياتها في ضوء النظام الذي تخضع لها، ولا يتغلب عليه اليأس والاستسلام تحت يافطة التفكير السلبي الذي يستحوذ على الإنسان، فهذه إحدى الثمرات المترتّبة على معرفة الفرق بين السنن الثابتة والمتغيرة.

تمهيد

من الحقائق المهمة المتعلقة ببحثنا هي الحقيقة القائلة: إنّ السعي لتوفير الحياة الطيّبة من الأمور الفطرية لدى الإنسان، فإنّ بني البشر مهما تفاوتوا في مستوياتهم واختلفوا في نمط تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة إلا إنّهم يتّحدون في سعيهم لتوفير حياةٍ هانئةٍ وعيشٍ يُؤمِّن لهم الراحة المنشودة لدى نوع الإنسان، وإنْ كان لكلٍّ منهم نمطه المختلف وطريقته الخاصّة في فهم معنى السعادة والحياة الطيّبة، وفي الحقيقة فإنّنا ومن خلال الواقع الذي نعيشه نتوصل إلى أنّ جميع أفراد الإنسان يسعون إلى تحصيل الحياة التي يعيشون من خلالها في جوٍّ هانئ، وما يوفّر لهم الراحة النفسية المنشودة، فحتى الطفل الصغير حينما ينمو ذهنه ويتوسّع إدراكه لمعنى الحياة تجده يسعى للحصول على الحياة الطيّبة وفقًا لمدركاته البسيطة التي يتصوّر من خلالها حصوله على ما به سعادته، وهكذا تبدو المسألة أكثر وضوحًا في الإنسان حينما ينمو شيئًا فشيئًا، فيزداد سعيه وطلبه للحياة الطيّبة كلّما امتد به الزمن، وانفتح على العالم بشكل أكبر، وهنا يبدأ مفترق الطرق بين أبناء البشر، تبعًا للايدلوجية التي يؤمن بها؛ فمن كانت الحياة الدنيا غاية همّه فإنّه يحاول جاهدًا أنْ يؤمِّن سعادته فيها، وأمّا من امتدّ نظره إلى أبعد من ذلك؛ فحينئذٍ يسعى لتوفير السعادة بما يتماشى مع ما يعتقد به، ولهذا السبب وصف القرآن الكريم الإنسان بقوله: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا**﴾[٣]. على ما ذكر بعضهم في تفسير الآية المباركة[٤]، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**وإذا أذقنا الإنسانَ منّا رحمةً فرحَ بها**﴾[٥].

وفي المحصلة فيمكن الاستدلال على فطرية السعي لتوفير الحياة الطيّبة بالأمرين التاليين:

١. الحرص؛ فإنّ صفة الحرص ترجع في حقيقتها إلى طلب النفع والفائدة، بغض النظر عن كونها صفةً مذمومةً فيما لو زادت عن حدّها المقرّر لتُخرج صاحبها من التوكل على

الله، كما في بعض النصوص الدينية [٦]، فهذه الصفة الذميمة دليلٌ على حبّ الخير للنفس والسعي لتحصيل السعادة، وإنْ أدّى ذلك إلى الوقوع في الضرر نتيجة الحرص المفرط[٧]. ولا شكّ في أنّ الانسان الذي لا يؤمن باليوم الآخر ليس له هم سوى الحصول على العيش الرغيد الذي يؤمن له الراحة نفسية في هذا العالم، وهذا ما لا يحتاج إلى برهنة، وبسبب ذلك يتغلب عليه الحرص الشديد.

٢. حب الكمال؛ إذ إنّ هذه الصفة من الصفات الدالة بوضوح على فطرية حبّ الحياة الطيّبة والسعي لتوفيرها، كما أنّها من الصفات الممدوحة التي تُعد حافزًا مهمًّا في الإنسان للتغلب على الصعاب التي يواجهها في حياته؛ فإنّ حبّ الكمال والرقي هو السلوة الوحيدة التي تدفع بالإنسان نحو فعل ما يجلب له الخير وإنْ كان عملًا شاقًّا ومتعبًا، فحتى من يمارس الرياضات الجسمية إنّما يقوم بذلك لكي يحصل على النفع المترتّب على هذه الأفعال، وقد ذكر بعض الأعلام كلامًا حول هذه الحقيقة، بقوله: "... إنّ الإنسان مجبولٌ في بدو خلقته وأصل طبيعته على حبّ الكمال، واقتناء الخيرات واجتناب الشرور، وهو صبغة الله التي لا أحسن منها، وفطرة الله التي فطر الناس عليها"[٨].

والمهم في المقام هو الوصول إلى أنّ السعي لتوفير الحياة الطيّبة والحصول عليها من الأمور الفطرية التي لا يزهد بها أحدٌ من الناس كائنًا من كان، فإنّ الطبيعة البشرية تسعى لتحصيل الكمال، وبما أنّ الكمال يحقّق السعادة والحياة الطيّبة، فحتى الأنبياء والرسل والأولياء وكبار الزهاد والرهبان، إنّما يزهدون بالدنيا ابتغاء حصولهم على الكمال الذي يقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ ويمنحهم الراحة النفسية (أو الحياة الطيّبة) بوساطة تغلّبهم على النفس الأمّارة بالسوء من جهة، والوصول إلى المراتب العليا والمقامات الرفيعة.

كما أنّ فكرة الإيمان باليوم الآخر التي يحملها الإنسان المعتقد بالديانات السماوية لا تتنافى مع السعي إلى طلب الحياة الطيّبة في الدنيا، شريطة ألّا تؤثر على مصيره في عالم الآخرة؛ لأنّ النصوص الدينية بأنماطها كافة - كالروايات وغيرها من الأدعية - جاءت لتعلّم العبد على طلب ما يُؤمّن له العيش الهانئ، بل حثت على السعي لتحصيله، وذمّت الأشخاص الذين لا يهتمون بهذا الجانب من الحياة، وهذا ما يفسّره قول الإمام الكاظم عليه السلام: "**اعمل لدنياك**

كأنّك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدًا"[٩]. وحينما نقرأ أدعية الأيام الواردة عن الامام زين العابدين عليه السلام نجدها حافلة بهذه المعاني المهمة، كما في قوله عليه السلام: "**اللهم اجعل أوّل يومي هذا صلاحًا، وأوسطه فلاحًا، وآخره نجاحًا، وأعوذ بك من يومٍ أوله فزع، وأوسطه جزع، وآخره وجع**"، وقوله عليه السلام: "**اللهم اقضِ لي في الخميس خمسًا، لا يتّسع لها إلّا كرمك، ولا يطيقها إلّا نعمك: سلامةً أقوى بها على طاعتك، وعبادةً أستحق بها جزيل مثوبتك، وسعةً في الحال من الرزق الحلال، وأنْ تؤمنني في مواقف الخوف بأمنك، وتجعلني من طوارق الهموم والغموم في حصنك...**"[١٠]، وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تحثّنا على طلب الخير في الدنيا والآخرة.

وبين هاتين الصفتين ـ أعني: صفة الحرص وحبّ الكمال ـ يتأرجح أغلب أفراد الإنسان، كلٌّ حسب إدراكه وفهمه لمعنى الحياة الحقيقية.

ولمّا كانت الحياة الطيّبة تتوقف على عنصرين مهمين ـ وقد جعل الله عزّ وجلّ كلا هذين العنصرين بيد الإنسان ـ وهما:

الأول: الأفعال والأسباب التي توفر الحياة الطيّبة، والتي تكون بمنزلة المقتضي أو العلة التامة لتحققها، كما في أفعال الخير والعمل الصالح.

الثاني: التخلص من الموانع التي تقف عائقًا في طريق تحقق الحياة الطيّبة، وهي الأفعال السيئة التي لها دور في فقدان الحياة الطيّبة والتي حذرت منها النصوص الدينية.

لذا سيكون مصبّ حديثنا في هذا البحث حول تشخيص الموانع المؤثّرة في فقدان الحياة الطيّبة، وذلك ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: نظرة إلى معنى مفردات العنوان

المبحث الثاني: النصوص المحذرة من خطورة الإعراض عن الذكر

المبحث الثالث: الآثار المترتبة على الإعراض عن الذكر

المبحث الرابع: إشكالات الموضوع والإجابة عنها

الموضوع: ولمّا كان الإنسان يحرص على توفير حياة طيّبة ويسعى لتحصيلها ـ وفقًا لما أثبتناه في المقدمة المذكورة آنفًا ـ فمن الطبيعي أنْ تستوقفه المقولة التي اختيرت لأنْ تكون

عنوانًا لهذا البحث، ألا وهي (أثر الذنوب في فقدان الحياة الطيّبة)، لكي يتعرف على سبل التخلّص من هذه الموانع، وفي ضوء ذلك فالبحث يقع في المباحث الآتية:

المبحث الأول: نظرة إلى معنى مفردات العنوان

مع أنّ العنوان الذي صُدِّر به البحث يبدو واضحًا للوهلة الأولى من النظر إليه، إلّا إنّه من الضروري أنْ نلقي نظرةً سريعةً على المعنى التركيبي له، خصوصًا إذا أخذنا بنظر الاعتبار المعاني المتعدّدة لبعض مفرداته، كما في مفردة الحياة الطيّبة، فإنّ ذلك يحتّم علينا ذكر المراد من العنوان قبل الدخول في صلب البحث؛ ولذا فإنّنا نذكر الأمور التالية:

١. الأثر: إنّ المعاني المرادة من مفردة الأثر متعددة وكثيرة إلّا إنّ من معانيه المرتبطة ببحثنا هو ما ذكره بعض علماء اللغة من أنّه: "... ما بقي من رسم الشيء وضربة السيف ..."[١١]. فيقال: "أثَّر فيه تأثيرًا: تَرَكَ فيه أثَرًا. والتَّأثيرُ: إبقاءُ الأثر في الشيء"[١٢]. فيتضح من ذلك أنّ الأثر لغةً هو ما ترك علامةً في الشيء الذي وقع عليه، سواء أكان الأثر ملموسًا ومشاهدًا بالحواس ـ كما في ضربة السيف والجراحات التي تكون في جسد الإنسان، وآثار الأقدام على الأرض وغير ذلك من الآثار المحسوسة ـ أم غير محسوسة كما في الصفات التي تكتسبها الأشياء المدركة نتيجة تأثرها بشيء آخر يحمل الصفات القابلة للانتقال، كالطبائع والصفات التي تنتقل من شيء إلى شيء آخر.

٢. الذنب: تُطلق مفردة الذنب ويُراد منها في اللغة الاتباع؛ ولذلك قالوا: إنّ الذنب في اللغة "ما يتبعه الذم، أو ما يتتبع عليه العبد من قبيح فعله؛ وذلك أنّ أصل الكلمة الاتباع"[١٣]، بمعنى أنّ الفعل السيئ له تبعةٌ قبيحةٌ تعقبه وتبقى تلاحق فاعله.

٣. الفقدان: عُرِّف الفقد بأنه: "عدم الشيء بعد وجوده، فهو أخصّ من العدم؛ لأنّ العدم يقال فيه وفيما لا يوجد"[١٤]. ومعنى ذلك أنّ الفقدان هو الحالة التي تكون للشيء الذي كان موجودًا ثم يفتقد نتيجة الأسباب المؤثّرة في انعدامه وضياعه.

٤. الحياة: ذكر بعض الأعلام أنّ الحياة تعني العيش[١٥]، وقد ذكر الراغبُ الأصفهاني عدة معانٍ للحياة قائلًا: "الحَياةُ تُسْتَعْمل على أَوْجُهٍ: الأولى: للقوَّةِ النامِيَةِ المَوْجودَةِ في النَّباتِ والحَيوانِ، ومنه قيلَ: نَباتٌ حيٌّ ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ**﴾. والثانية: للقوَّةِ

الحسَّاسةِ، وبه سُمِّي الحيوانُ حيوانًا. والثالثة: للقوَّة العاقلةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَو من كانَ مَيِّتًا فأَحْيَيْناه**﴾... والرابعةُ: عبارة عن ارتفاع الغمِّ... والخامسة: الحياة الأخرويَّة الأبديَّة، وذلك يتوصلُ إليها بالحياة التي هي العقل والعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿**يا لَيْتَني قدَّمْت لحيَاتِي**﴾، يعني به الحياة الأخرويَّة الدائمة. والسادسة: الحياة التي يُوصَفُ بها البارِي تعالى، فإنَّه إذا قيلَ فيه تعالى: إنَّه حيٌّ فمعناه لا يصحُّ عليه الموتُ وليس ذلك إلاَّ لله تعالى"[١٦].

ولعل ضيق الأفق لدى بعض بني البشر والاقتصار في فهم الحياة على بعض هذه المعاني هي التي ولَّدت نظرةً مختلفةً تجاه الحياة بين أفراد المجتمع؛ فتجد معنى الحياة الطيّبة (أو السعيدة) مختلفًا بين مدرسة وأخرى، بل بين شخص وآخر أيضًا، وكلٌّ بحسب الفهم الذي توصل إليه ونظرته تجاه الحياة والهدف الذي لأجله خلق الإنسان، وهذا ما سوف نتناوله في المفردة الأخيرة من العنوان.

٥. الطيّبة: طيب الشيء هو ملائمته للغرض الذي يريده صاحبه منه[١٧]، وقد ذكر العلامة المصطفوي أنّ: "الأصل الواحد في المادّة: هو ما يكون مطلوبًا ليس فيه قذارة ظاهرًا ولا باطنًا، ويقابله الخبث وهو ما يكون فيه قذارة ظاهرًا أو باطنًا، وهو مستكره في نفسه. وهذا المعنى يختلف باختلاف الموضوعات، فالطيب في كلّ شيء بحسبه وبمقتضاه: كالطعام الطيّب، وعيش طيّب، وزوجة طيّبة، وكلام طيّب، ومكان طيّب، وجنّة طيّبة، ونفس طيّب، ورائحة طيّبة، ورزق طيّب، وشجرة طيّبة، وصعيد طيّب"[١٨].

وبما أن الحياة الطيّبة وردت في الآية القرآنية؛ فلا بدّ من إشارةٍ مختصرةٍ إلى بعض ما ذكر في كتب التفسير، فقد ذكر الملا فتح الله الكاشاني في تفسيره قائلًا: "﴿**فَلَنُحْيِيَنَّه حَياةً طيّبة**﴾. في الدنيا يعيش عيشا طيّبا، فإنّه إنْ كان موسرًا فظاهر، وإنْ كان معسرًا يطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة، وتوقّع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر، فإنّه إنْ كان معسرًا فظاهر، وإنْ كان موسرًا لم يدعه الحرص وخوف الفوات أنْ يتهنّأ بعيشه. وعن ابن عبّاس: الحياة الطيّبة الرزق الحلال. وعن قتادة: يعني بها في الآخرة. وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه"[١٩]. وقد دلت النصوص على أنّ هذه الحياة وإنْ كانت تحمل من اللذات والطيّبات ما لا يعدّ ولا يحصى، وأنّها لذات سائغة وجائزة للجميع ضمن القوانين

التي سنّها لنا الدين الإلهي، إلا أن في الواقع ليست هي المقصودة للإنسان، وإنّما يفترض على الإنسان أنْ يكون همّه ما يُؤمِّن مصيره في الآخرة التي عبّر عنها الباري عزّ وجلّ في قوله: ﴿وإنَّ الدارَ الآخرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ﴾[٢٠].

والنتيجة التي نخرج بها من مجموع ما تقدّم هو: أنّ معنى العنوان هو (ما يتركه الفعل المذموم من أثرٍ في إضاعة السعادة).

المبحث الثاني: النصوص المحذِّرة من خطورة الإعراض عن الذكر

ولمّا كان الدين الإسلامي دستورًا متكاملًا لتنظيم حياة الإنسان وسلوكه، فقد تصدّى لبيان كافة الجوانب التي لها علاقة بالإنسان منذ مبدأه إلى مآله؛ ولذا فقد جاءت النصوص الدينية لبيان الأثر السلبي المترتب على الإعراض عن الذكر؛ محذِّرةً من خطورة هذا السلوك، ومبينةً ما له من أثرٍ سلبي في تغيير مسار الإنسان وحياته الدنيوية والأخروية، وتأثيره في فقدان الحياة الطيّبة، وهذه النصوص هي:

أولًا: الآيات القرآنية

وردت مفردة الإعراض عن الذكر وما يرادفها من ألفاظ في كتاب الله عزّ وجلّ ضمن آياتٍ متعددة، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾[٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[٢٤]. وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾[٢٥]. وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعرَضَ أَكثَرُهُم فَهُم لَا يَسمَعُونَ﴾[٢٦]. وقوله تعالى: ﴿فَإِن أَعرَضُوا فَقُل أَنذَرتُكُم صَعِقَةً مِّثلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٢٧]. وقوله تعالى: ﴿قُل مَن يَكلَؤُكُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحمَنِ بَل هُم عَن ذِكرِ رَبِّهِم مُّعرِضُونَ﴾[٢٨]. وقوله تعالى: ﴿مَّن أَعرَضَ عَنهُ فَإِنَّهُ يَحمِلُ يَومَ القِيَمَةِ وِزرًا﴾[٢٩]. وقوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلكِتَبِ

يُدعَونَ إِلَى كِتَبِ ٱللَّهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيق مِّنهُم وَهُم مُّعرِضُونَ﴾ [٣٠].

إلى غير ذلك من الآيات التي تضمّنت مفردة الإعراض أو ما يرادفها من مفردات مثل مفردة التولّي والنكوص وأشباهها.

دلالة الآيات المحذِّرة:

من الواضح أنّ الآيات المباركات تحذِّر العباد من الإعراض عن الذكر، وتبيّن لنا أنّ عواقبه وخيمة جدًا، وتبعث في نفوس القارئ عدة تساؤلات حول الحقائق التي لا بدّ من معرفتها في هذه الآيات، وقبل كلّ شيء فإنّنا إذا أردنا أنْ نكون في مأمنٍ من هذه النتائج التي ذكرت في الآيات المذكورة آنفًا فلا بدّ أنْ نفهم أولًا ما هو المقصود من الإعراض عن الذكر؟ وهذا ما سوف نسلّط الضوء عليه هنا:

معنى الإعراض عن الذكر

يمكننا ذكر بعض المحتملات في تفسير الآيات القرآنية:

المحتمل الأول: إنّ الإعراض عن الذكر هو عدم الأخذ بالقرآن وما جاء به من تحذير وإنذار، فإنّ كلمة الذكر يفهم منها القرآن الكريم، وبطبيعة الحال فإنّ المقصود من الإعراض عن الذكر بهذا المعنى يراد منه الإعراض عمّا تضمنه الذكر وما جاء به من رسائل البشارات والتحذير والإنذار، ويمكن أنْ نستدلّ لهذا المحتمل ببعض الآيات المباركة، كما في قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** [٣١]. وكذلك قوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [٣٢]. وقوله تعالى: **﴿وَهَـذَا ذِكرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلنَـهُ أَفَأَنتُم لَـهُ مُنكِـرُونَ﴾** [٣٣]. وقوله: **﴿وَإِنَّـهُ لَذِكْـرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ﴾** [٣٤]. وكذلك بقية النصوص التي أشارت إلى تسمية القرآن بالذكر.

وقد وردت في هذا الصدد عن الأئمّة عليهم السلام نصوصٌ تدلّ على هذا المعنى، كما عن أبي بَصير قال: "**سَمِعتُ أبا عبدِ الله عليه السلام يَقولُ: مَن ماتَ وهُوَ صَحيحٌ موسِرٌ لَم يَحُجّ فَهُوَ مِمّن قالَ اللهُ عَزّ وجَلّ: ﴿ونَحشُرُهُ يَومَ القِيامَةِ أعمى﴾... قُلتُ: سُبحانَ الله! أعمى؟! قالَ: نَعَم، إنّ اللهَ عَزّ وجَلّ أعماهُ عَن طَريقِ الحَقّ**" [٣٥]. وفي ضوء ذلك؛ فإنّ تطبيق الإمام الصادق لهذه الآية على من ترك فريضة الحج يدلّ على أنّ بإمكاننا تطبيقها على موارد أخرى تركها المكلَّف،

فقد طبقها الإمام الصادق عليه السلام: في رواية أبي بصير أيضًا قال: "**عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾. قال: يعني به ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، قلت: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، قال: يعني أعمى البصر في الآخرة؛ أعمى القلب في الدُّنيا عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، قال: وهو متحيّر في القيامة...**" [٣٦]. فإنّ التطبيق المتعدّد للآية الكريمة يرشدنا إلى أنّ ما هذه إلّا موارد وأفراد تشملها مفردة الذكر، وإنْ اختلفت في مستواها شدةً وضعفًا.

المحتمل الثاني: ولمّا كانت كلمة الذكر قد وردت في الآية الأولى ـ وبعض الآيات الأخرى ـ منسوبةً إلى الله عزّ وجلّ فمن الممكن أنْ تجعل هذه النسبة المراد منها هو المعنى الآتي: أن الإنسان الذي يبتعد عن الله عزّ وجلّ سوف يكون في حالةٍ حرجةٍ لا تطاق؛ لأنّ مَن يبتعد عن الله لا يبقى له ملجأ يلتجئ إليه، وحتى الأشياء التي يخال له أنّها تنفعه وتخلّصه في الشدائد فإنها سرعان ما يتبدد أمله بها، ويتحوّل اعتقاده إلى العكس من ذلك، ويتوصل إلى أنّه كان في خيالٍ لا واقع له، ويمكن أنْ نستدلّ لهذا المحتمل بقوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [٣٧]. أو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾ [٣٨]. وقوله: ﴿**وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَومَينِ فَلَا إِثمَ عَلَيهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثمَ عَلَيهِ لِمَنِ ٱتَّقَى وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعلَمُوا أَنَّكُم إِلَيهِ تُحشَرُونَ**﴾ [٣٩]. وكذا قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ إِنِّي أَحبَبتُ حُبَّ ٱلخَيرِ عَن ذِكرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَت بِالحِجَابِ**﴾ [٤٠]. فهذه الآيات ونظائرها تبين أنّ المراد من الإعراض عن الذكر هو الابتعاد عن الله والالتجاء إلى ما سواه من الأسباب الموهمة بأنّها هي التي تجدي نفعًا، ومن دونها لا يمكن للإنسان أنْ يجتاز الأزمات والمحن التي تواجهه.

ثانيًا: الروايات الشريفة

إنّ النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام في ذمّ التارك أو الناسي لذكر الله عزّ وجلّ كثيرةٌ جدا، وهي وإنْ لم يكن جميعها متضمنًا لمفردات موضوع بحثنا (الإعراض عن الذكر) بالصراحة، إلّا إنّها متّحدة مع ما ورد في الآيات الكريمة من حيث الآثار والنتائج المترتبة على هذا الفعل، فقد جاءت لتحذّر من خطورة ترك الذكر ونسيان الله عزّ وجلّ، وأنّ هذا الشيء يورث الحسرة والندم على الإنسان، وهذه المفردات، إلّا إنّها تصلح أنْ تكون مفسِّرةً للمراد

من الإعراض عن الذكر، وفيما يلي نذكر بعض النماذج منها ـ توخيًا للاختصار ـ وهي:

ما وصف به النبيّ صلى الله عليه وآله العبدَ الذي يحبّه الله عز وجل قائلًا: "... **وكرَّهه مجالسة المعرضين عن ذكر الله**" [٤١]. وما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "**فيما ناجى الله تعالى موسى** عليه السلام: **يا موسى لا تنسني على كلّ حال، ولا تفرح بكثرة المال، فإنّ نسياني يقسي القلوب، ومع كثرة المال كثرة الذنوب**" [٤٢]، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: "**ما من قوم اجتمعوا في مجلسٍ فلم يذكروا اسم الله عز وجل ولم يصلّوا على نبيّهم صلى الله عليه وآله إلّا كان ذلك المجلس حسرةً ووبالًا عليهم**" [٤٣]، كما روي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: "... **وأستغفرك من كلّ لذّةٍ بغير ذكرك**" [٤٤]، وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الصدود لأوليائي؟ فيقوم قومٌ ليس على وجوههم لحم، فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنّفوهم في دينهم، ثم يؤمر بهم إلى جهنم**" [٤٥]. وغير ذلك من الروايات الكثيرة التي يطول المقام بنقلها.

المبحث الثالث: دلالة النصوص على فقدان الحياة الطيّبة نتيجة الإعراض عن الذكر

قبل الحديث عن الآثار المترتبة على الإعراض عن الذكر تجدر بنا الإشارة إلى المراتب المختلفة للحياة الطيّبة، فإنّنا إذا نظرنا إلى منزلة الحياة الدنيا بالقياس إلى عالم الآخرة فحينئذٍ سوف يتّضح لنا مرتبة الحياة الطيّبة في بالقياس إلى ما يتنعم به الإنسان في الحياة الآخرة، كما أنّ في كلّ عالمٍ من العالَمين الدنيوي والأخروي توجد مراتب ودرجات للحياة الطيّبة، فقد يعيش أحدهم حياةً يصدق عليها عنوان (الحياة الطيّبة)، إلّا إنّها أقلّ مراتبها ودرجاتها، فيما تجد غيره من الناس يعيش حياةً طيّبةً بأعلى مستوياتها الدنيوية ـ على كلّ المعاني التي تفسّر فيها الحياة الطيّبة في الدنيا، أي: سواء أفسرت بأنّها القناعة بما رزقه الله في الحياة الدنيا [٤٦]، أم الرزق الحلال الذي ينزله الله عز وجل على عباده [٤٧]، والذي عبر عنه تعالى: من غير احتساب [٤٨]. أم غيرهما من المعاني التي ذكرت في تفسير الحياة الطيّبة ـ وبين هذا وذاك توجد مراتب متعددة، وتصبح هذه الحقيقة أكثر وضوحًا إذا نظرنا إلى ما تقدّم في حديثنا عن المعنى الحقيقي للحياة الطيّبة والأسباب المؤدّية إلى توفرها.

بعد هذه الديباجة المختصرة ندخل في صلب الموضوع، وهو الآثار المترتبة على الإعراض

عن الذكر والتي تؤدي إلى فقدان الحياة الطيّبة، وفي الواقع فإنّ الإعراض عن الذكر يترتب عليه آثارٌ فرديةٌ وأخرى اجتماعية، وفي كلّ قسمٍ منهما تارةً تؤدّي هذه الآثار إلى فقدان الحياة الطيّبة بشكلٍ مباشر، أو تكون سببًا في فقدانها بالواسطة، وذلك ما سوف نذكره في النقطتين الآتيتين:

النقطة الأولى: الآثار الاجتماعية

إنّ نظام العقاب الجماعي من الأنظمة العقلانية التي نشهدها في حياتنا بين حينٍ وآخر، وذلك حينما يصل الأمر إلى درجةٍ من الخطورة البالغة في العصيان تارة، أو يتوقع أنْ يؤول الأمر إلى التشجيع على الجرأة على سيادة من وجب علينا طاعته فيما لو لم يكن هناك رادعٌ يقف في وجه العاصي، وهذا النمط من العقاب قد مارسه الباري عزّ وجلّ لردع عباده عن ارتكاب المعصية التي قد تنتهي إلى إحدى النتيجتين السالفتين، ولذلك نجد الآثار الآتية:

١. انقطاع الرزق: فإنّ من العقوبات الإلهية على المجتمع المعرض عن الذكر أنْ يبتليه الله عزّ وجلّ بنقص الرزق وتبديل النعم، كما قال تعالى: ﴿**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾ (٤٩). بعد أنْ كانوا منعمين بجنتين كما في الوصف القرآني القائل: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ (٥٠)، فإنّ إعراضهم عن ربّهم وعدم شكرهم أدّى بهم إلى زوال نعمتهم وتبدلها بأشجار لا فائدة فيها، وقليل من السدر الذي فيه من النفع القليل أيضًا، ولكن هذا السدر قليلٌ من جهة وبالقياس إلى جنتيهم لا يساوي شيئًا ممّا فقدوه (٥١)، ولا شكّ في أنّ الحياة التي يعيشها المجتمع الذي تبدّل نعمته من الرخاء إلى الشدة والضيق في العيش لا تسمّى حياةً طيّبة، وهذا ما لا حاجة إلى التدليل عليه.

٢. وقوع العذاب الجمعي: فإنّ المجتمع الذي يعرض عن ذكر الله عزّ وجلّ يكون محلًا لوقوع النقمة الإلهية، ولا يستحق البقاء، وقد حكى الله تعالى في كتابه عن العذاب الدنيوي الذي وقع على مجتمعاتٍ كثيرةٍ في الأزمنة الغابرة، ومن بين الآيات التي حذّر الباري عزّ وجلّ من مغبة الإعراض هو قوله تعالى: ﴿**فَإِن أَعرَضُوا فَقُل أَنذَرتُكُم صَعِقَةً مِّثلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾

(٥٢). فإنّ إعراض هذين القومين أدّى بهم إلى الهلاك الجماعي بالصاعقة النازلة عليهم، وهذا الحدث يفقدهم الحياة الطيّبة على جميع المعاني المذكورة للحياة الطيّبة.

ومن خلال النصوص الروائية يستفاد أنّ هذه الأمة آمنة من العذاب الدنيوي الذي حلّ بالأقوام السابقة ما دام النبي ﷺ موجودًا في عالمهم، لكن مع رحيله ﷺ فقد رفع هذا الأمان، كما يعبر أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: "**كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رُفع أحدهما، فدونكم الآخر فتمسكوا به. أمّا الأمان الذي رُفع فهو رسول الله ﷺ. وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**" (٥٣).

وليس خافيًا فإنّ العذاب الجماعي في الدنيا قد يكون بوساطة هلاكهم تارةً، وأخرى بوقوع ظاهرةٍ عامةٍ تشمل سائر أفراد المجتمع، وهذا ما تضافرت فيه النصوص الكثيرة المحذّرة من ترك بعض الواجبات المهمة التي تؤدّي إلى تسلّط الظالمين عليهم، والاستيلاء على مقدراتهم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "... **لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم**" (٥٤)، ونظائرها من الروايات الكثيرة في هذا الشأن.

٣. فقدان السند الغيبي والوقوع في المحن: فمن الأمور التي لا نقاش فيها هو وجود محنٍ نقع فيها ونواجهها في حياتنا اليومية، ولا شكّ في أنّ السلوة الوحيدة للإنسان هو العامل الغيبي الذي يؤمن به فيتوجّه إليه لتخليصه من المحن، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿... **لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا...**﴾ (٥٥)، ومن منا لم يشعر باللطف الإلهي في مواقف الشدة التي تمرّ عليه؟ وقد أخبر الله عزّ وجلّ أنّ المعرضين عن ذكر الله عزّ وجلّ يفتقدون هذا العنصر في حياتهم في كثيرٍ من الأحيان، بل حتى لو توجّهوا إلى بارئهم في ساعات المحنة وطلبوا منه الخلاص والعون فإنّهم يعرضون بعد ذلك، وحينئذٍ فلا يستجاب لهم فيما لو وقعوا في محنةٍ أخرى، وهذا ما يمكن استفادته من قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا**﴾ (٥٦). فحينما نسلّط الضوء على الآية المباركة نجد أنّ الاستدلال بها يكون من خلال عقد الإيجاب الذي أكده تعالى في قوله: حينما

يمرّ الإنسان بظروفٍ عصيبةٍ فلا يستطيع أي شيء إنقاذه من محنته وإنْ التجأ إليه باعتقاد أنّه مخلّصه إلّا الله عزّ وجلّ، فالحالة الحرجة التي يمرّ بها الإنسان لا يقوى على خلاصه منها لا الأموال ولا أيّ شيء آخر ما خلا الله تعالى، فحينما يفتقد الإنسان هذا العنصر الغيبي فسوف يكون في حالةٍ حرجةٍ لا يخلّصه منها غير الله، وبما أنّه لا يتوجّه إلى الله ولا يدعوه أو يطلب منه فيما لو كان معرضًا عنه تعالى فسوف يبقى في الشدّة والضيق الذي يمرّ به.

ومن خلال التعبير القرآني عن الحالة التي تمرّ على الناس في البحر نستفيد أنّها تتحدّث عن فقدان الاستقرار والطمأنينة الجماعية؛ فلهذا تصنف هذه الآية ضمن الآيات الدالة على الآثار السلبية للإعراض عن الذكر التي تؤدّي إلى فقدان الحياة الطيّبة بشكل مباشر.

وهناك آياتٌ أُخر يمكن الاستدلال بها على الآثار الاجتماعية المترتبة على الإعراض عن الذكر، إلّا أنّنا نكتفي بهذا المقدار من الآثار الاجتماعية مخافة الإطالة.

النقطة الثانية: الآثار الفردية

لعلنا لا نجانب الحقيقة إذا ادعينا أنّ العقوبات الفردية تكون أشدّ وقعًا وإيلامًا على الإنسان من العقوبات الجماعية؛ وذلك لأنّ الشخص الذي تقع عليه عقوبةٌ ما إذا شعر بأنّ هناك من يشاركه في المعاناة والألم فإنّ هذا بحد ذاته يخفف عليه من وقع المشكلة والمصيبة، وأمّا إذا شعر بالوحدة والتفرّد بالعقوبة والمشكلة فعندئذٍ سوف يكون ذلك مصيبةً ومعاناةً أخرى تضاف إلى ما هو فيه من مصيبة؛ وحينئذٍ يصعب عليه تحمّل عقوبة كهذه.

ومن خلال القراءة المتأنية في النصوص المتضمنة لمفردة الإعراض عن الذكر نجد أنّ هناك آثارًا سلبية يواجهها الفرد نتيجة إعراضه عن الذكر، وهذه الآثار تسهم في فقدان الحياة الطيّبة، أو حسب التعبير القرآني: تجعل نصيبه من العيش ما يوصف بقوله تعالى: ﴿**فإنّ له معيشةً ضنكًا**﴾، ولمّا كانت هذه النتائج والآثار لا تطال غير الفرد ذاته ـ ويبقى من حوله في مأمنٍ منها وإنْ كان من أقرب الناس إليه ـ أمكننا تسميتها بالآثار الفردية، وهذه الآثار هي:

أ-الآثار الفردية المباشرة لفقدان الحياة الطيّبة:

١-**فقدان الحياة الطيّبة**: فمن أوضح النصوص الدالة على أثر الإعراض عن الذكر في فقدان الحياة الطيّبة بشكل مباشر هو قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً**

ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (٥٧). والاستدلال بها يتوقف على ذكر الأمور التالية:

أولًا: المعنى المعيشة

من خلال الآيات التي تعرضت لمفردة المعيشة نفهم أنّ المعنى المنساق منها هو تارة الحياة الدنيوية، وأخرى الحياة الآخرة، وفي ثالثةٍ ما يعمّهما معًا بوساطة الإطلاق الذي يشمل كلا المعيشتين، فقد ورد في قوله تعالى: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾** (٥٨). وكذلك قوله تعالى حول التفاوت الطبيعي بين الناس: **﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾** (٥٩)، وقوله تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾** (٦٠)، وفي ضوء الآيات المتقدّمة نستفيد أنّ المعيشة إذا وردت مقيدةً في جهةٍ من جهات الحياة حينها تكون صريحةً في إرادة المعنى المقصود منها، وإنْ وردت غير مقيدةٍ فنستفيد من إطلاقها على شمول كلا المعنيين، ولمّا كانت الآية الواردة في مقام الاستدلال مطلقةً فتشمل الحياة الدنيا والآخرة، وإنْ كان هناك ما يمكن أنْ يدل على صرفها إلى الحياة الدنيا، وهو ذكر الآثار الأخروية بعد التصريح بالعيش الضنك، ما يعني أنّ هذه المعيشة أريد منها المعيشة الدنيوية.

ثانيًا: المقصود من الضنك في اللغة

إذا رجعنا إلى المعنى اللغوي لمفردة الضنك نتوصل إلى أنّ معناه: "الضِّيقُ من كلّ شيء، الذكر والأُنثى فيه سواء" (٦١).

ثالثًا: آراء المفسّرين في معنى الآية

ذكرت عدّة آراء في معنى الآية الكريمة، ونحن نشير إليها بشكلٍ مختصر:

الرأي الأول: إنّ المراد من المعيشة الضنك ضيق حياته في عالم الدنيا، وقد ذهب إلى هذا الرأي أغلب كبار المفسرين كالقمّي في تفسيره، الطبرسي وغيرهما (٦٢)؛ وذلك؛ لأنّه "غير موقن بالخلف، فعيشه منغّص"، وقد نسب هذا الرأي إلى ابن عبّاس (٦٣)، وهو لا ينفي أنْ يكون العيش الضنك في عوالم أخرى أيضًا، إلا إنّ المهم هو إثبات أنْ يكون العيش الضنك ممكنًا في الدنيا، على عكس من لم يتعقل إمكانية انطباق المعيشة الضنك في الدنيا.

الرأي الثاني: إنّ المراد من المعيشة الضنك هو عذاب القبر، وذلك: "لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ يقتضي أنّه عذاب القبر"، وهذا ما قاله أبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وأبو صالح، والسدي، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ(٦٤).

الرأي الثالث: إنّ المراد من قوله تعالى: ﴿مَعِيشَةً ضَنكاً﴾، هو عذاب جهنم وما يأكله فيها من ضريع وزقوم؛ لأنّ مآل الإنسان المعرض عن ذكر الله عز وجل إلى جهنم وإنْ تنعّم في الدنيا (٦٥).

وهناك آراء أخرى قد ترجع إلى بعض الآراء السابقة في حقيقتها فلا داعي لذكرها.

وبعد هذه النقاط فإنّنا نخلص إلى أنّ المعيشة الضنك سوف يمرّ بها المعرض عن ذكر الله عز وجل على كلّ الأقوال، وهي على الضدّ من الحياة الطيّبة، فتصلح أنْ يطلق على هذا الأثر أنّه من أوضح الآثار المترتبة على الإعراض عن الذكر.

٢-شموله بالعقوبة الأخروية: فإنّ من الآثار المباشرة التي تفقد الإنسان الحياة الطيّبة هو وقوع في العذاب، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ (٦٦). فإنّ الوزر معناه الثقل، أي: يحمل حملًا ثقيلًا من الإثم والذنوب يشقّ عليه حملها(٦٧)، ولا شكّ في أنّ الإنسان إذا كان بهذه الحال فإنّه لا يكون في حياةٍ طيّبة.

ب . الآثار الفردية المسبّبة لفقدان الحياة الطيّبة:

١-ملازمة الشيطان له: من الآثار الخطيرة التي تُفقد المعرض عن الذكر في نهاية المطاف الحياة الطيّبة هو أنّ الشيطان يصبح ملازمًا وقرينًا له، كما في قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٦٨). فإنّ هذه الآية الكريمة يمكننا أنْ نستدلّ بها على مجموعةٍ من الآثار السلبية المترتبة على الإعراض عن الذكر، ومن أهمّها وأوضحها فقدان الحياة الطيّبة، فإنّ من يكون الشيطان قرينًا له سوف ينكد عليه عيشته؛ ولذا فقد حذّرنا الله تعالى من اتخاذ الشيطان؛ لأنّه عدو للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿... إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٩)، ولا شك في أنّ الذي يكون عدوه قرينه ومرافقًا له فسوف يهلكه ويوقعه في المخاطر، وهذا الشيء سوف يفقده الحياة الطيّبة التي يحتاج إليها كلّ إنسان.

٢-الحرمان من الهداية: من الطبيعي جدًّا أنْ يحتاج الإنسان إلى التعلّم والمعرفة مهما بلغ من

العلم، وهذا القانون يسري على جميع البشر إلّا من أخلصهم الله لنفسه وعلّمهم من علمه، وبما أنّ العلم والمعرفة يتبعان الأسباب المتكونة من وجود المقتضي ورفع المانع؛ فإنّ من أهمّ الموانع التي تقف دون الحصول على المعرفة هو الإعراض عن الذكر، كما يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾ (٧٠).

٣-يحشر يوم القيامة أعمى: إنّ نعمة الإبصار من النعم الإلهية التي لا يدرك معناها حقّ الإدراك والمعرفة إلّا من فقدها، فلو تخيّل أحدنا أنّه لا يملك هذه الحاسّة ولو للحظاتٍ قليلةٍ حينها يعرف قيمتها، ويكفينا أنْ نغمض أعيننا دقائق قليلة ونتحرّك من مكانٍ إلى آخر لندرك مرارة فقدان هذه الحاسة، ولأهمية هذه الحاسّة فقد أخبرنا الله (عزَّ وجلّ) أنّ من يعرض عن الذكر سوف يحشر يوم القيامة أعمى، فقال: ﴿... **وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ (٧١). حتى أنّ الإنسان ولشدّة غرابة الموقف الذي يمرّ به يعترض على الله أو يتساءل مستفسرًا بقوله: ﴿... **رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا**﴾ (٧٢)، فهذه الحالة تسلب الإنسان الحياة الطيّبة أو العيشة الراضية.

٤-الشمول بقانون الإهمال والتجاهل: هناك حالة يلمسها كلّ واحدٍ منّا في حياته، وهي قسوة الإهمال والتجاهل، فإذا دخل أحدنا إلى مكانٍ ووجد أنّ الحاضرين لم يعيروا له اهتمامًا بالمستوى المناسب فحينئذٍ سوف ينتابه شعور بالإهانة، وهذا الأمر الذي يشعر به حتى لو كان الاهتمام دون المستوى، فكيف إذا أحسّ بالتجاهل والإهمال التامين الذين يجعلاه كالمعدوم بينهم؟ فإنّ هذا الشعور يكون في أعلى مستوياته، وسوف يفقده الراحة والاستقرار، ويحاول أنْ يغادر المكان الذي أُهين فيه بهذه الطريقة البشعة، ولكن الأنكى في الأمر إذا وجد نفسه غير قادرٍ على ترك المكان وأنّه مضطرٌ إلى البقاء في هذا المكان إلى الأبد، وسوف يلازمه هذا الإهمال والتجاهل طول حياته، فإنّه يموت كمدًا، وهذا ما يواجهه المعرض عن الذكر حينما يقول له الباري جلّ وعلا: ﴿**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾ (٧٣).

إنّ إثبات هذه الآثار من خلال الآيات المباركة يغنينا عن البحث في الآثار المترتبة على

الإعراض عن الذكر أو نسيان ذكر الله ﷻ في الروايات الشريفة لعائدية ما ذكر فيها إلى هذه الآثار التي ذكرناها في هذا المبحث.

المبحث الرابع: إشكالات الموضوع والإجابة عنها

بعد أنْ انتهينا من الحديث عن أثر الذنوب في فقدان الحياة الطيّبة ولاحظنا أنّ هناك مجموعةً من الآثار المؤدّية إلى هذه النتيجة الخطرة يبقى لدينا بعض الإشكالات التي تواجه القارئ، وفيما لو لم يجد إجابةً وافيةً لها فسوف تمنعه من الإيمان بهذه الحقيقة، فلا بدّ من ذكرها والإجابة عنها لنرى هل أنّ هذه الإجابات مقنعةٌ ووافيةٌ لإبطال هذه الإشكالات أو أنّها غير مجدية، وهذه الإشكالات هي:

الإشكال الأول: إنّ الواقع الخارجي يتنافى مع النظرية التي ذُكرت في هذا البحث، إذ إنّ المجتمعات التي تعصي الله ﷻ ـ كما في المجتمع الغربي والذي أعرض عن الدين وعن التكاليف الإلهية ـ متنعمة في الحياة الدنيا، ومن هذا المنطلق فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ المعيشة الضَنْك إنّما تكون في القبر، وهذا ما ذهب إليه مَن يُعد من كبار مفسّري بعض المدارس، كمجاهد [٧٤]، وقد عدّ بعضهم هذا المعنى أوْلى من بقية المعاني وأظهر منها، مستدلًّا بالأمور التي عليها الكافر والعاصي في الحياة الدنيا [٧٥].

وقد ذكر العلّامة الطباطبائي هذا الإشكال قائلًا: "وقيل: المراد بالمعيشة الضَنْك عذاب القبر وشقاء الحياة البرزخية بناءً على أنّ كثيرًا من المعرضين عن ذكر الله ربما نالوا من المعيشة أوسعها، وألقت إليهم أمور الدنيا بأزمتها؛ فهم في عيشةٍ وسيعةٍ سعيدة..." [٧٦]. فمهما بلغ من العيش الرغيد والسعة في الرزق إلّا أنّه يعاني من ضَنْك العيش وألوان الحرص والقلق والهموم والعذاب النفسي في أمور دنياه التي لا همّ له في سواها[٧٧]

الجواب عن الإشكال: إنّ المعاني التي يمكن تصوّرها للمعيشة الضَنْك تارةً تكون على أساس المعايير المادية والمقاييس الظاهرية، وأخرى تعود إلى ما هو أعمق وأدق من ما يشاهده الإنسان من مظاهر مغرية يمتلكها بعض الناس، ولا شكّ في أنّ كثيرًا من الناس الذين يبدو حالهم في نعيمٍ ظاهري حينما تطلع على حالهم تجدهم يعانون من ضيق العيش والضَنْك الذي لم يمرّ به أسوأ المعدمين من الناس، وهذا ما تؤكّده النصوص الدينية، فقال

تعالى: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ (٧٨)، كما تبين أنّ العامل الوحيد ذكر الله عزّ وجلّ: ﴿... **أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (٧٩)، وقد ذكر العلّامة الطباطبائي في صدد الإجابة عن هذا الإشكال قائلًا: "... وفيه أنّه مبنيٌّ على مقايسة معيشة الغني من معيشة الفقير بالنظر إلى نفس المعيشتين والإمكانات التي فيهما، ولا يتعلّق نظر القرآن بهما من هذه الجهة البتة، وإنّما تبحث الآيات فيهما بمقايسة المعيشة المضافة إلى المؤمن وهو مسلح بذكر الله والإيمان به، من المعيشة المضافة إلى الكافر الناسي لربّه المتعلّق النفس بالحياة الدنيا، الأعزل من الإيمان، ولا ريب أنّ للمؤمن حياةً حرةً سعيدةً يسعه ما أكرمه ربّه به من معيشة وإنْ كانت بالعفاف والكفاف أو دون ذلك، وليس للمعرض عن ذكر ربّه إلّا عدم الرضا بما وجد والتعلّق بما وراءه"(٨٠).

الإشكال الثاني: في ضوء التفريق بين الوعد الإلهي والوعيد نخلص إلى النتيجة التالية: وهي أنّ هذه النتائج التي ذكرت للإعراض عن الذكر لا يمكن أنْ تكون حتمية؛ لأنّها من الوعيد الإلهي الذي لا يجب على الله أنْ يفي به، بخلاف الوعد الإلهي الواجب الوفاء به من قبله تعالى، كما هو مُقرّر في محله (٨١)، وإذا لم تكن حتميةً فمن الممكن ألّا يترتب الأثر الذي توعّد الله عزّ وجلّ به المُعرِض عن الذكر.

الجواب عن الإشكال: يمكن الإجابة عن هذا الإشكال بعدّة نقاط:

الأول: من خلال النصوص الدينية ووفقًا لما قُرّر في كلمات العلماء نتوصل إلى أنّ ليس كلّ وعيدٍ لا يجب الوفاء به، فهناك نمطٌ من الوعيد الواقع والمتحقّق من دون شكٍّ ولا ريب كما لو قرن بالتأكيد من الله عزّ وجلّ على وقوعه وحصوله، سواء من خلال إحدى أدوات التأكيد كما يقول تعالى: ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ (٨٢). وكذلك قوله تعالى: ﴿**فإنّ له معيشةً ضنكًا**﴾. أو بالتصريح بأنّ ما يرتكب من ذنبٍ لا يمكن غفرانه، كما في قوله تعالى: ﴿**إنّ الله لا يغفر أنْ يُشرك به**﴾ وفي هذه الآثار التي ذكرت قد جاء التأكيد على بعضها من جانب كما في الأداة التي تم استخدامها في الجملة أي أداة التوكيد (إنّ) فقال تعالى: ﴿**فإنّ له معيشةً ضنكًا**﴾. بل إنّ الإعراض عن الذكر هو عبارةٌ عن الكفر والشرك

الـذي صرّحـت الآيـة الكريمـة بأنّـه لا يغفـره الله عزّ وجلّ.

الثـاني: إنّ كثـيرًا مـن النتائـج التـي ذكرهـا الله تعـالى هـي أثـرٌ تكويني للإعـراض عـن الذكـر، وليـس مـن الوعيـد الإلهـي لكـي يـأتي احتـمال عـدم ترتـب الأثـر عـلى هـذا الفعـل الـذي حذّرنـا الله تعـالى منـه. خصوصًـا إذا أخذنـا بنظـر الاعتبـار الـرأي القائـل: إنّ العقوبـة ليسـت هـي سـوى تجلّيـات الأعـمال يـوم القيامـة، ولا شيء وراء هـذه الآثـار يـوم القيامـة، وعـلى هـذا الأسـاس فـإنّ كلّ عمـلٍ سـوف يتجسّـد عـلى حقيقتـه يـوم القيامـة.

الخاتمة

بعد أنْ أكملنا مشوارنا في هذا البحث استطعنا أنْ نجيب عن السؤال التالي: ما هي العلاقة بين الذنوب وفقدان الحياة الطيّبة؟ وقد وجدنا أنّ للذنوب أثرًا كبيرًا في فقدان الحياة الطيّبة، وذلك بعد أنْ عرفنا معنى الذنوب والحياة الطيّبة، وبعد أنْ جمعنا النصوص المحذّرة من خطورة الإعراض عن الذكر والذي يعدّ من الذنوب التي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم في آياتٍ متعددةٍ ذكرت الآثار المتعددة والمؤدية إلى فقدان الحياة الطيّبة، وقد كانت هناك إشارة في الروايات الواردة عن النبي صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام إلى هذا الفعل المؤثّر سلبًا في الحياة التعيسة، كما عرفنا أنّ هناك بعض الشبهات التي لا ترقى إلى مستوى الإشكال على هذا الموضوع وأنّ علماءنا قد أجابوا عنها بأجوبةٍ وافية.

الهوامش

١- الزمر/ ٣٠.
٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٤/ ٦.
٣- المعارج/ ١٩.
٤- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ٢٠/ ١٣.
٥- الشورى/ ٤٨.
٦- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٢١.
٧- م.ن، ٢/ ٢٨٩، و٢٩٠.
٨- البروجردي، حسين، تفسير الصراط المستقيم، ٣/ ٦٥.
٩- الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ٣/ ١٥٦.
١٠- الصحيفة السجادية، أدعية الإمام زين العابدين، ٥٥٤ وما بعدها.
١١- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ٢/ ٥٧٥.
١٢- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، ٦/ ٧.
١٣- العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، ٢٤٤.
١٤- م.ن، ص٤٠٩.
١٥- الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ٤/ ١٤٤.
١٦- الراغب، الحسين بن محمد، المفردات في غريب الحديث، ١٣٩.
١٧- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ٣/ ١٧٥.
١٨- المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ٧/ ١٥١.
١٩- الكاشاني، فتح الله، زبدة التفاسير، ٣/ ٦٠٦.
٢٠- العنكبوت/ ٦٤.
٢١- طه/ ١٢٤.
٢٢- الزخرف/ ٣٦.
٢٣- الإسراء/ ٦٧.
٢٤- الكهف/ ٥٧.
٢٥- سبأ/ ١٦.
٢٦- فُصِّلَت/ ٤.
٢٧- فُصِّلَت/ ١٣.
٢٨- الأنبياء/ ٤٢.
٢٩- طه/ ١٠٠.
٣٠- آل عمران/ ٢٣.
٣١- الحجر/ ٦.

٣٢- الحجر/ ٩.
٣٣- الأنبياء/ ٥٠.
٣٤- الزخرف/ ٤٤.
٣٥- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٤/ ٢٦٩.
٣٦- م.ن، ١/ ٤٣٥.
٣٧- البقرة/ ١٥٢.
٣٨- الأحزاب/ ٤١.
٣٩- البقرة/ ٢٠٣.
٤٠- ص/ ٣٢.
٤١- النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل، ٨/ ٤٦٤.
٤٢- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٤٩٨.
٤٣- م.ن، ص٤٩٧.
٤٤- الصحيفة السجادية، أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام، ٤١٩.
٤٥- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٢/ ٣٥١
٤٦- القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ١/ ٣٩٠.
٤٧- الطوسي، محمد بن الحسن، البيان في تفسير القرآن، ٦/ ٤٢٤.
٤٨- كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا* ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾. الطلاق/ ٢-٣.
٤٩- سبأ/ ١٦.
٥٠- سبأ/ ١٥.
٥١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ٣/ ٩٥.
٥٢- فُصِّلَت/ ١٣.
٥٣- خطب أمير المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة، ٤/ ١٩.
٥٤- م.ن، ٣/ ٧٧.
٥٥- التوبة/ ٤٠.
٥٦- الإسراء/ ٦٧.
٥٧- طه/ ١٢٤.
٥٨- القصص/ ٥٨.
٥٩- الزخرف/ ٣٢.
٦٠- القارعة/ ٧.
٦١- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٠/ ٤٦٢.
٦٢- أُنظر: القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ٢/ ٦٥. الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ٢/ ٥٠٦. الكاشاني، فتح الله، زبدة التفاسير، ٤/ ٢٨٦. وغيرها من المصادر التفسيرية.

٦٣- الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ٧/ ٢١٩.
٦٤- م.ن.
٦٥- أُنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ٧/ ٦٤.
٦٦- طه/ ١٠٠.
٦٧- أُنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ٧/ ٢١٩. الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ٧/ ٦٤.
٦٨- الزخرف/ ٣٦.
٦٩- يس/ ٦٠.
٧٠- الكهف/ ٥٧.
٧١- طه/ ١٢٤.
٧٢- م.ن/ ١٢٥.
٧٣- م.ن/ ١٢٦.
٧٤- ابن شهرآشوب، محمد بن علي، متشابه القرآن ومختلفه، ٢/ ٩٩.
٧٥- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٦/ ٢٨٣.
٧٦- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٤/ ٢٢٥.
٧٧- الزحيلي، وهبة، التفسير الوسيط، ٢/ ١٥٥٧.
٧٨- آل عمران/ ١٤٠.
٧٩- الرعد/ ٢٨.
٨٠- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٤/ ٢٢٥.
٨١- الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ٧/ ١٩٧. المدني، علي خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ١/ ٥٠٢.
٨٢- الأنعام/ ١٣٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
* الصحيفة السجادية.
* ابن شهرآشوب، محمد بن علي، متشابه القرآن ومختلفه، الناشر: شركت سهامى طبع كتاب، ١٣٢٨هـ.
* البروجردي، حسين، تفسير الصراط المستقيم، تحقيق : صحّحه وعلّق عليه: الشيخ غلام رضا ابن علي أكبر مولانا البروجردي، الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، ١٤١٦ - ١٩٩٥ م.
* الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط٤، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار العلم للملايين، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م.
* الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير.
* الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ط٢، الناشر: دفتر نشر الكتاب، ١٤٠٤هـ.
* الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، تحقيق: علي شيري، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤ - ١٩٩٤م.
* الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق : تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
* الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.
* الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، تحقيق: مؤسّسة النشر الإسلامي، ط١، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٨هـ.
* الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: تقديم: الشيخ خليل الميس/ ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ - ١٩٩٥ م.
* الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ط٢، الناشر: مرتضوي، ١٣٦٢ ش.
* العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي، ط١، قم، الناشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٢هـ.
* القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، ط٣، قم ـ إيران، الناشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ.
* الكاشاني، فتح الله، زبدة التفاسير، تحقيق: مؤسسة المعارف، ط١، قم ـ إيران، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤٢٣هـ.
* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط٥، طهران، الناشر: دار الكتب الإسلامية ، ١٣٦٣ ش.
* المدني، علي خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، تحقيق: السيد محسن الحسيني الأميني، ط٤، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٥هـ.
* المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط١، الناشر: مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١٧هـ.
* النوري، الميرزا حسين، مستدرك الوسائل، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط١، بيروت ـ لبنان، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨ - ١٩٨٧ م.

تداعيات الحرب الناعمة في عصر ما قبل الظهور على الحياة الطيّبة قراءة تحليلية

الشيخ الدكتور وليد حميد فرج الله

باحثٌ في الفكر الإسلامي وأستاذٌ جامعيّ / جامعة الكوفة / النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام، وهدانا بلطفه ومنّه وفضله إلى الحياة الطيّبة الهانئة السعيدة. والصلاة والسلام على خير الأنام، منقذ البشرية من التعاسة والشقاء إلى السعادة والهناء، بإذن ربّهم سيّدنا وحبيبنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين الهداة المهديين.

أسباب اختيار البحث: الحاجة الفعلية في بلداننا العربية والإسلامية، وفي عالمنا المعاصر لمعرفة تداعيات الحرب الناعمة على الحياة الطيّبة التي أرادها الله تعالى لبني آدم، وضرورة وضع البرامج والخطط الكفيلة لمواجهة تلك الحرب ومعالجة تداعياتها، وليحيا الناس حياةً طيّبةً كريمة مباركة.

مشكلة البحث: التساؤلات المتعلّقة بالحرب الناعمة وتداعياتها على الحياة الطيّبة، وكيفية الإفادة من هَدي القرآن الكريم والسُنّة الشريفة، في معالجتها ورفع آثارها، وتحويلها من تحدٍّ خطيرٍ إلى فرصةٍ تصحيحيةٍ نافعةٍ لجميع بني البشر في طريق كمالهم المنشود.

جدوى البحث: إنّ تداعيات الحرب الناعمة في عصر ما قبل الظهور على الحياة الطيّبة تستحق البحث والدراسة والنظر والتأمل، لخطورتها العظيمة؛ لأنّها تكرّس حياة الألم والمعاناة والتسلط والاستعباد من جهة، وتحول دون حياة الإيمان والتقوى والاستقامة والسعادة من جهة أخرى، ويتضمّن البحث في ذلك كلّه إضافاتٍ معرفيةً تتجلّى في الكشف عن حقيقة الحياة الطيّبة وتحقيق أهدافها المرسومة.

أسئلة البحث: وتتفرّع على موضوع البحث تساؤلات جوهرية، أهمها: ما مفهوم الحياة الطيّبة؟ وما فلسفتها؟ وما حقيقة تلك الحرب الناعمة؟ وما أثرها في الحياة الطيّبة خصوصًا في عصرنا هذا؟ وما كيفية مواجهة الحرب الناعمة لتحقيق الحياة الطيّبة؟ وما الإنجازات المأمولة في ذلك؟

أهداف البحث: البرهنة على أنّ (الحياة الطيّبة) مشروع الوحي الإلهي لإسعاد الإنسان في دنياه وآخرته، وأنّ (الحرب الناعمة) وسيلة شياطين الإنس والجن للإطاحة بهذا المشروع وإبداله بمشروع (الحياة المادية اللادينية)، وليتردّى الإنسان في شقاء دائم نتيجة ما يسعون،

وأنّ حكم العقل والنقل والفطرة واحدٌ في وجوب التصدّي للحرب الناعمة واجتثاث تداعياتها الكارثية.

أهمية البحث: يبيّن البحث خطورة تداعيات الحرب الناعمة على الحياة الطيّبة المنشودة، والمنهج الإسلامي الأصيل لمعالجة تداعياتها الخطيرة، ووضع ذلك أمام أنظار علماء الدين ومفكّريه، والحوزات العلمية، وأساتيذ الجامعات، والمعاهد العلمية المختصة، والمراكز البحثية، ولينهض الجميع بمسؤولياتهم (كلٌّ من موقعه وبحسبه)، وامتثال التكليف الشرعي لرعاية وتنمية الحياة الطيّبة وفق ما أمر الله تعالى به.

فرضيات البحث: الحياة الطيّبة مشروع إلهي ، بأصوله ومبادئه ، وقواعده وضوابطه وأهدافه ، مفعم بالأمل ، إنساني في نزعته وقيمه ، صالح في كل زمان ومكان ، وهو نظام يضمن خير الإنسان وسعادته ورفاهه ، ولكن الحرب الناعمة التي تشنها قوى الظلام عليه تسعى لإبدال الحياة الطيّبة بحياة الشقاء والنصب بتداعياتها الرهيبة.

حدود البحث ومجتمعه: لما كان موضوع البحث (تداعيات الحرب الناعمة في عصر ما قبل الظهور على الحياة الطيّبة)، فإنّ حدود البحث الزمانية كلّ عصر قبل الظهور المقدس يشهد حرباً ناعمةً ضد الحياة الطيّبة، والمكانية جميع البلدان والأقطار المستهدفة، وحدوده المجتمعية الأمم والشعوب بمجتمعاتها المختلفة عمومًا، والشعوب الإسلامية بمجتمعاتها المتعددة.

منهج البحث: لما كانت (الحياة الطيّبة) مشروعًا معرفيًّا سلوكيًّا تربويًّا إيمانيًّا، والحرب الناعمة ضده وتداعياتها عليه بأوجهٍ متعددة: فكرية تضليلية، ونفسية خادعة، فاقتضى أنْ يكون منهج البحث منهجًا وصفيًّا تحليليا نقديًّا، للحصول على نتائج علمية دقيقة.

هيكلية البحث: التعريف بالحياة الطيّبة وتداعيات الحرب الناعمة عليها في عصر ما قبل الظهور؛ ولذا فإنّ هيكلية هذا البحث تتم في مقدمة تبيينية، وأربعة مطالب: أولها البحث في مفهوم الحياة الطيّبة وفلسفتها، وثانيها: البحث في حقيقة الحرب الناعمة، وثالثها: البحث في آثار الحرب الناعمة في مشروع الحياة الطيّبة، ورابعها: البحث في **المعالجات الإسلامية لتداعيات الحرب الناعمة على الحياة الطيّبة**، وخاتمة البحث: نتائج علمية، وتوصيات موضوعية.

المقدمة

في عصر ما قبل الظهور المقدس، وفي عالمنا المعاصر الطابع العام لحياة الإنسان الاضطراب والوجل والتعقيد، تحت طائلة الضغوط والمشاكل، فيحبس الإنسان أنفاسه الضيقة ممزوجة بآهات حرّى، في برنامج يومي مليء بالتوتر والقلق والخوف والوجل والكآبة ، فلا سعادة في حياتنا المعاصرة ، ومن تحت أنقاض هذا الركام يعلو صوت في أعماق النفس الإنسانية .. ألهذا خلقنا الله تعالى؟

ويأتينا الجواب من أنوار الوحي الإلهي (كلا) الله خلقنا للسعادة لا للشقاء، ولنحيا حياة طيّبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [1]، ولكن الإنسان بإرادته وسلوكه وأفعاله، اختار حياة الألم والعذاب والمعاناة، عندما أعرض عن المنهج القويم الذي وضعه الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [2]، وسبب هذا وذاك حربٌ ناعمةٌ تشنها قوى الظلام، من شياطين الجن والإنس، لكي لا ينعم الناس بحياةٍ طيّبة، بل ليعيشوا المعاناة في حياة البؤس والشقاء.

ولتبيين الحقيقة في ذلك كلّه نوجز البحث في المطالب الآتية:

المطلب الأول ـ مفهوم الحياة الطيّبة وفلسفتها:

خلق الله تعالى الإنسان وكرّمه ليحيا حياةً طيّبةً سعيدةً هانئةً في رعاية الله عزّ وجلّ ولطفه، ولكن الإنسان لن ينال ذلك إلّا بهدي الوحي الإلهي، وعلى أيدي من اصطفاهم الله تعالى لهداية عباده، يقول الإمام الصادق عليه السلام : "عليكم بآثار رسول الله صلى الله عليه وآله، وسنته وآثار الأئمّة الهداة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله من بعده وسنتهم، فإنّه من أخذ بذلك فقد اهتدى ومن ترك ذلك ورغب عنه ضلّ؛ لأنّهم هم الذين أمر الله بطاعتهم وولايتهم" [3]، وقد مهدت العناية الإلهية كلّ السبل لسعادة الإنسان في الحياة الطيّبة الكريمة.

والحقيقة ــ التي يحاول الظلاميون طمس معالمها ــ أنّ (الحياة الطيّبة) مشروع رسالات الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعًا، ومنذ أكثر من أربعة عشر قرنًا دعا الوحي الإلهي (القرآن الكريم، والسنة الشريفة) إلى الحياة الطيّبة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ**

﴿وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [٤]، وقد بذل رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام الجهود الجبارة، بل والنفس والنفيس من أجل أنْ يحيا الناس الحياة الطيّبة.

فعلى الإنسان (الفرد والمجتمع) معرفة حقيقة (الحياة الطيّبة)، معرفةً واعيةً موضوعية، والعمل الجاد على تفعيل الطبيعة الخيّرة للإنسان، لتهيئة متطلبات تلك الحياة، وتحويلها إلى واقعٍ حياتي يعيشه الإنسان، كلّ إنسانٍ في مشارق الأرض ومغاربها.

والحياة الطيّبة: هي الحياة المطلوبة المحببة، النقية من الشوائب والعيوب، المتزينة بالإيمان والعمل الصالح، الخالية من المشاكل، المطابقة لإرادة الله تعالى ومشيئته، ولهذا فهي الحياة الملائمة للإنسان، والتي تسري الطهارة فيها إلى جميع شؤونها، فتسدّ الطريق على ملوّثات الحياة المادية وأدرانها، وليصل الإنسان فيها إلى الكمالات اللائقة، ولكن هذا مشروط بشرطين لازمين:

أولهما: حسن الفعل، أي أنْ يكون الفعل حسنًا.

ثانيهما: حسن الفاعل، أي أن يكون الفاعل إنسانًا طيبًا ذكرًا كان أم أنثى [٥].

فالحياة الطيّبة مشروعٌ إلهيٌ مفعمٌ بالسعادة والخير والإطمئنان والوئام، والأمن والأمان، والرفاه والسلام، ومن لطف الله تعالى بعباده أنْ وفّقهم إليه، بعد أنْ استخلفهم في الأرض ليمتثلوا تكليفهم الشرعي، وليرتقوا في مدارج الكمال، ولينالوا كمالهم المنشود حيث السعادة الدائمة الأبدية.

ولكن شرطه العمل الصالح الذي يجب على الإنسان، كلّ إنسانٍ (رجلًا كان أم امرأةً وفي كلّ زمان ومكان)، أنْ يعمله (كلّ حسب تكليفه)، وفق أحكام الشريعة الإلهية التي تنظّم شؤون الإنسان في حياته، لتحقيق طمأنينة الفرد وسعادته، وتلبية حاجاته ومتطلّباته العقلية والروحية والجسدية، وليتحقق البناء الاجتماعي واستقرار المجتمع، ورفاهية الشعوب وسعادة الأمم.

فالحياة الطيّبة التي حملها الوحي الإلهي هي الحياة الهانئة التي تضمّ سعادة الدنيا والآخرة، ويتحقّق فيها الرفاه المادي، والتسامي الروحي، والاستقرار النفسي، والأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان، والعدالة والتنمية، وسعادة الفرد والمجتمع، والتعامل الأخلاقي النبيل، وإشباع جميع حاجات الإنسان وتلبية متطلباته بالوسائل المشروعة [٦].

وبتأمّلٍ موضوعي يتبين لنا: أنّ الإيمان بالله تعالى ملازمٌ للحياة الطيّبة، فلا حياة طيّبة إلا بالإيمان الراسخ، والاستقامة على الجادة المقدّسة، تحقّق سعادة الإنسان الفعلية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾ (٧)، وبذلك يتحقق السلام الداخلي في أعماق النفس، ويعم الشعور بالسعادة لأسباب، أهمّها:

١ ـ التسليم المطلق بقضاء الله وقدره، والرضا بجميع ما أعطى الله وما منع، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: "ارضَ بما قسم الله لك تكن مؤمنًا" (٨).

٢ ـ التسليم بأنّ كلّ ما يأتي من الله خيرٍ محض، وبهذا سوف يعمل الإنسان جاهدًا على تحويل صعاب الحياة الدنيا إلى فرص للفوز بالسعادة الأبدية.

٣ ـ العمل الصالح النافع لكلّ ما هو خير بجدٍ ونشاطٍ وحيوية، قال تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (٩).

٤ ـ دوام التواصل مع الله تعالى، ولتكون حركية الإنسان في واقع الحياة لله عز وجل، بل وحتى مشاعره كالحبّ في الله (١٠).

ولذا فإنّ أهمّ مقوّمات الحياة الطيّبة ما يأتي:

١ ـ سلامة العقيدة

٢ ـ صلاح العمل

٣ ـ حسن الخلق

وللحياة الطيّبة ثمار يانعة، منها:

١ ـ الهداية للحق، وانتشار الدين والتدين.

٢ ـ التأييد الإلهي والتسديد والتثبيت.

٣ ـ وفرة الخيرات، وتدفق البركات والرحمات الإلهية غير المتناهية.

٤ ـ الأمن والأمان والاستقرار، وزوال الهم والقلق والخوف والحزن.

٥ ـ التخلص من الظلمات، والسير على نور وبصيرة.

٦ ـ دوام السعادة، وشيوع المحبّة والمودّة في المجتمع البشري.

٧ ـ القوة والعزة والمنعة.

٨ ـ التمكين والاستخلاف في الأرض.

٩ ـ حسن الختام [١١]

وإذا ما تحولت الحياة الطيّبة من النطاق الفردي إلى النطاق الاجتماعي، بأنّ يتعاون أفراد المجتمع الإنساني؛ لأنّ يحيا الجميع حياةً إيمانيةً طيّبة، فسوف تتحقق تزكية النفوس في جوانبها الفردية والاجتماعية، فتنتج تنمية شاملة، وترقيًا كاملًا، وتكاملًا تامًّا، وتطوّرًا وتساميًا، وبتسخير الطاقات الذاتية والموارد المتاحة والإمكانات الموجودة [١٢].

لقد بيّن لنا الوحي الإلهي (القرآن الكريم، والسنة الشريفة) أساس عوائق الحياة الطيّبة بأنها اتباع خطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [١٣].

ولما كان الشيطان عدوًّا للإنسان فلن يدع الإنسان يهنأ في حياةٍ طيّبة، بل يدفع بالإنسان إلى حياة الذل والبؤس والشقاء، فإذا أراد الإنسان أنْ يحيا حياةً طيّبة، لا بدّ له من أنْ يتّخذ الشيطان عدوًّا فعليًّا له ما دام حيًّا، فلا هدنة ولا صلح مع الشيطان أبدًا، قال رسول الله ﷺ: "يا بن مسعود، اتخذ الشيطان عدوًّا، فإنّ الله تعالى يقول [١٤]: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ " [١٥].

وإذا علمنا أنّ آليات الشيطان في تنفيذ عدائه للإنسان تتجلى في الوسوسة والغواية والإضلال (وهي أفخاخه، وفتنه، وسهامه)، تبيّن لنا أنّ وسيلته في ذلك حرب ناعمة ضدّ بني آدم عمومًا وضد المؤمنين الذين يسعون إلى الحياة الطيّبة خصوصًا، يقول الإمام الصادق عليه السلام: "لقد نصب إبليس حبائله في دار الغرور، فما يقصد فيها إلّا أولياءنا" [١٦].

المطلب الثاني ـ حقيقة الحرب الناعمة:

لمّا كان الشيطان (سواء كان من شياطين الجنّ أم من شياطين الإنس) في صراعٍ دائم مع الخير؛ لأنّه لا يريد إلّا الشر، فلا بدّ من منازلته الخيّرين من ولد آدم، ومع أنّ لكلّ منازلةٍ مع الفرد الخّير ومجتمع الخيّرين ظروفها وملابساتها وتداعياتها، إلّا أنّه في عصرنا هذا (عصر ما قبل الظهور المقدّس) أخطر أدوات تلك المنازلة (الحرب الناعمة)؛ لأنّها هجوم مبرمج على نفسية الإنسان (الفرد والمجموع)، وعقله ودينه وقيمه وثقافته وعاداته وتقاليده وتراثه، لتطويع إرادته واستلاب ذاته وطمس دينه، والسيطرة عليه سيطرةً كاملةً تدريجيةً، وتوجيهه وجهةً شيطانية.

وترتبط الحرب الناعمة بالقوّة الناعمة ارتباطًا وثيقًا إلى حد التداخل بينهما، حتى عدّهما كثيرٌ من الباحثين شيئًا واحدًا، في حين عدّهما بعض الباحثين أمرين مختلفين اختلافًا طفيفًا [١٧]، ومهما يكن من أمر يمكننا إجمال حقيقة الحرب الناعمة بما يأتي:

أولًا ـ تعريف الحرب الناعمة وأهدافها:

الحرب الناعمة: هي الهجوم المبرمج على نفسية العدو (في موضوع بحثنا الإنسان المسلم)، وعقله ودينه وقيمه وثقافته وعاداته وتقاليده وتراثه (سواء كان العدو فردًا أم جماعة، أو شعبًا أم أمة، أو طائفةً أم مذهبًا) [١٨] لغرض:

أ ـ تطويع إرادة المسلمين (فرادى وجماعات) لدفعهم إلى إحداث تغييرٍ جوهريّ في نظام حياتهم أفرادًا ومجتمعات، بتخليهم عن نمط الحياة الإسلامية، وقبولهم بنمط الحياة الغربية عمومًا والأمريكية على وجه الخصوص بجميع صورها وأبعادها وتفاصيها وجزئياتها [١٩].

ب ـ إحداث التفكك والوهن والارتباك في المجتمعات الإسلامية، وجعلها فريسة مخططات وأهداف قوى الظلام الشيطانية، ممّا يمهد للسيطرة على المسلمين، وتوجيههم الوجهة المقصودة بتغيير تمسّكهم بالإسلام الحنيف عقيدة وشريعة، وإبعادهم عن القيم والنظم الإسلامية، ووأد تطلعاتهم وآمالهم في الحياة الطيّبة الكريمة [٢٠].

وبناءً على تعريف الباحث الاستراتيجي الأميركي (جون كولينز) الحرب الناعمة بأنّها: " عبارة عن استخدام الإعلام والتخطيط، للتأثير على ثقافة العدو وفكره، بما يخدم حماية الأمن

القومي الأميركي، وتحقيق أهدافه، وكسر إرادة العدو"[٢١]، ممّا اقتضى تسخير جميع الإمكانيات المتوفرة لدى القوى الغربية (مادية، وإعلامية، وثقافية، وتكنولوجية)، للتأثير على الثقافة الإسلامية (وأهم مفاصلها الحياة الطيّبة وفق هدي القرآن الكريم والسنة الشريفة)، فلا يتحقق الأمن القومي للدول الغربية (حسب رؤيتهم) إلّا بجعل حياة المسلمين حياة تستنسخ نمط الحياة الغربية، بانحرافاتها الفكرية، وفلسفتها المادية الإلحادية، وطبيعتها القائمة على الحيوانية، والشذوذ الجنسي، والانفلات المطلق من الدين والقيم والأخلاق.

ثانيا ـ تكتيكات الحرب الناعمة ووسائل تأثيرها:

إنّ أهم تكتيكات ووسائل تأثير قوى الظلام في حربها الناعمة ضد الحياة الطيّبة ما يأتي[٢٢]:

١ ـ الدعاية المضللة لخداع الشعوب الإسلامية المستهدفة من أجل دفعها للتشكيك في أصول دينها، وزعزعة عقائدها، وخلخلة ركائزها الفكرية والاجتماعية، وإسقاط رموزها الدينية وزعزعة الثقة بهم، وبلبلة أفكار جماهيرها، وبث برامج لتضليل الوعي وحرف المشاعر، وإرباكها بصراعات ونزاعات، وأزمات داخلية وخارجية، بهدف أنهاك قواها، وأحداث حالة من التآكل والاهتراء الذاتي، تمهيدًا لإسقاطها، وتغيير حياتها من الحياة الإسلامية الطيّبة إلى الحياة الغربية اللادينية.

٢ ـ بثّ اليأس والإحباط، وممارسة التهديد والإكراه (ويطلق عليه أسلوب العصا)، وذلك بافتعال الأزمات في مفاصل حياة المسلمين، وتحميل نظم الحياة الإسلامية مسؤولية ذلك، واتهامها بالجمود والرجعية والانغلاق، وإثارة القلق في نفوس المسلمين، بنشر الإشاعات المغرضة[٢٣] كادعائهم بأنّ نظم الحياة الإسلامية لا تواكب التقدم الحضاري، ولا تلبّي متطلبات الإنسان لا في حاضره ولا في مستقبله.

٢ ـ ممارسة الإغراءات والعطاءات (ويطلق عليه الجزرة)، وذلك بتقديم نمط الحياة الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا، على أنّها حياة الرفاه الاقتصادي والسعادة الفردية والمجتمعية، والتي تشبع حاجات الإنسان، وتلبي متطلباته في الحياة المرفّهة.

٣ ـ ممارسة الإغواء والتزيين والإعجاب (ويطلق عليه الاجتذاب)، وذلك بالاستمالة الهادئة، والجذب النفسي، والإغواء الفكري، بتسويق سرديات المقارنة بين واقع الحياة في

البلدان الإسلامية (التي تعاني أصلًا من سياسات التهميش والإفقار والإذلال والتجويع والحصار، والتي ساعدت قوى الظلام نفسها على تطبيقها في البلدان الإسلامية)، وبين واقع الحياة المادية في البلدان الغربية (التي بيدها مقدرات الأمم والشعوب، بسبب هيمنتها وجبروتها وتسلطها وإمكانياتها)، لزرع فكرةٍ خبيثةٍ خطيرةٍ في أذهان الناس مضمونها:

أ ـ الحكم على نظام الحياة في الإسلام على أنّه نظام استبدادي رجعي متخلّف، بسبب خضوعه للتشريعات والأعراف والتقاليد الدينية بزعمهم.

ب ـ الحكم على نظام الحياة في الغرب على أنّه نظام مدني حضاري متقدّم، بسبب خضوعه للقوانين المدنية وللنظم التنويرية حسب قولهم [٢٤].

ثالثا حقائق الحرب الناعمة:

يمكننا إيجاز أهم حقائق الحرب الناعمة ضد الحياة الطيّبة بما يأتي :

١ ـ الحرب الناعمة استراتيجيةٌ دقيقةٌ وخطيرة، وهي خلاصة تراكم مجموعةٍ من سياسات وأفكار الدول الغربية، التي جرى تطبيقها على المجتمعات الإسلامية في مراحل تاريخيةٍ متعاقبة، وفي ظلّ أوضاعٍ دوليةٍ مختلفة.

٢ ـ الحرب الناعمة (من بين أمور أخرى) غزوٌ ثقافيّ واسع يستهدف ذهنية الإنسان المسلم أينما كان، وهجومٌ نفسيّ منظّمٌ على أعماقه، ومعركةٌ فكريةٌ شاملةٌ ضد الإسلام ومبادئه وقيمه، وتبدأ الحرب الناعمة بهدوء، فهي هادئةٌ غير ظاهرة، كما أنّها تدريجية تتقدم بانسيابية تدريجية دون أنْ ينتبه إليها أحد، فتتم التحولات الثقافية وتغيير الهوية بهدوء زاحف تدريجي [٢٥].

٣ ـ تبدأ معركة الحرب الناعمة مع الرأي العام الإسلامي، بمقولاتٍ تشكيكيّة، وإيحاءاتٍ لا دينية، تمهيدًا للانقضاض على الدين والقيم والثقافة والأعراف والتقاليد والنظم الاجتماعية ونحوها.

٤ ـ الحرب الناعمة أكثر تأثيرًا وفاعليةً من الحرب الصلبة، وتحقق أهدافها بأقل كلفة، وتصل إلى غاياتها بصمت وبلا ضجيج، وتستهدف العقائد والقيم والعواطف والمشاعر، والحياة الإسلامية الطيّبة بجميع أبعادها.

٥ ـ تتميز الحرب الناعمة بالشمولية؛ لأنّها تسعى إلى التأثير على جميع أفراد وأطياف المجتمع

الإسلامي دون استثناء، وخصوصًا الفئات العمرية اليانعة (الأطفال، والمراهقين، والشباب).

٦ ـ تتميز أدوات الحرب الناعمة بسعة انتشارها، فدخلت جميع البيوت، واستهدفت جميع الأفراد بلا استثناء، من خلال الفضائيات والانترنت والهواتف الخلوية وجميع وسائل التواصل والاتصال، في ظلّ عولمةٍ إعلاميةٍ وثقافيةٍ ومعلوماتيةٍ فوريةٍ ومفتوحةٍ ومتفاعلةٍ ومترابطةٍ بشكلٍ لا سابق له [٢٦]، الأمر الذي وظّف لينعكس سلبًا على حياة المسلمين وعلى مشروع الحياة الطيّبة في الإسلام.

المبحث الثالث : آثار الحرب الناعمة في مشروع الحياة الطيّبة:

إنّ آثار الحرب الناعمة على مشروع (الحياة الطيّبة) آثارٌ عميقةٌ وخطيرةٌ وهائلة؛ لأنّها تؤدّي في المجتمع الإسلامي المستهدف إلى انقلابٍ عقديّ ثقافي ـ أي ردّة عن الإسلام الحنيف ـ (إنْ لم يحصّن منها)، وتؤدّي في أعماق الإنسان المسلم المتلقي إلى تغيير الهوية ليصبح لا دينيًّا (إنْ لم يتصدّ لها)، ومن تلك الآثار الخطيرة النتائج الكارثية الرهيبة والتي تمتد آثارها لأجيال قادمة، وأهمها [٢٧]:

١ ـ صناعة وتسويق الدجل في المجتمعات الإسلامية، وتزييف حقائق الدين، وطمس معالم الحق، وشرعنة الباطل، لإحداث زلازلٍ متلاحقةٍ مستمرةٍ في واقع حياة المسلمين، تؤدّي بهم إلى التحلل من نظام الحياة الإسلامية الطيّبة والانقلاب عليها.

٢ ـ صناعة الفكر المنحرف، والفرق الضالة المشبوهة، لهدم الإسلام من الداخل، وإضلال الشعوب الإسلامية، وإبعادها عن الإسلام المحمدي الأصيل، لتحقيق أهداف من بينها: إيجاد اختلالاتٍ بنيويةٍ في حياة المسلمين الواقعية، لتنفيرهم من الحياة الطيّبة الإيمانية التي أرادها الله تعالى لهم، ولتتحول حياتهم إلى حياةٍ ماديةٍ شهوانية لا دينية.

٣ ـ إعداد وتدريب المنحرفين فكريًّا ودينيًّا وسلوكيًّا، والمشعوذين والشاذين، للتمويه على الناس، وإغوائهم، وتجهيلهم، وتضليلهم، باستعمال الوسائل المؤثرة: كالمال، والإعلام، والشعوذة، والتجهيل، والمخدرات، والجنس، ونحوها، لإجتثاث القيم والأخلاق من نظم حياة المسلمين، ومحو المبادئ الإسلامية من ذاكرة الإنسان المسلم، وطمس العادات والتقاليد والثقافة الإسلامية.

٤ ـ التشكيك في أصول الدين ومبادئه وأحكامه، وإثارة الشبهات حول الإسلام الحنيف عقيدةً وشريعةً ونظمًا وسلوكًا، ونشر المقولات الرافضة للأصالة والمبادئ [٢٨]، والدعوة إلى الانفلات من الضوابط التي تحكم سلوك الفرد والمجتمع، بذرائع واهية، وشعارات براقة خادعة، منها: (حرية الرأي)، و (الثقافة التنويرية)، و(نقد التراث) و(الحق الشخصي).

٥ ـ الترويج لتشويه الإسلام المحمدي الأصيل بوسائل متعددة، أهمها:

أ ـ تزييف الحقائق بادعاءاتٍ باطلة، ومقولاتٍ شيطانية، كمقولة (تاريخية الإسلام) زاعمين أنّ الإسلام على ما كان عليه في عصر النص، وفي القرون التي تلته، لا يلبي متطلبات الحياة المعاصرة، داعين إلى إبداله بما يسمونه بـ (الإسلام المدني)، المصنّع غربيًّا وأمريكيًّا، والذي يتبنى مفاهيم الثقافة الغربية، وقيمها، وفلسفتها، ونظام حياتها اللادينيي، بما في ذلك شرعنة المثلية والشذوذ والانحراف ونحوها، بذريعة الحرية الشخصية ونحوها.

ب ـ تعكير صفو الحياة الإسلامية بإحداث الأهوال والفظائع، والخطوب والكوارث، وذلك بصناعة الموت والكراهية والذبح والتكفير والحقد الأعمى، وارتكاب أعمال السلب والنهب والفساد المالي والإداري، وإلصاق كل ذلك بالتشريع الإسلامي، مدّعين زورا وبهتانا أن جميع ذلك من لوازم نظام الحياة الإسلامية، وهذا بزعمهم حقيقة الحياة الطيّبة في الإسلام.

ت ـ إذكاء الفتن في المجتمعات الإسلامية، والعمل الجاد على تقاتل المسلمين فيما بينهم، والإسراف في سفك الدماء، وانتهاك الأعراض والحرمات والمقدسات، ولتتحول حياة المسلمين إلى جحيم لا يطاق، وبالتالي العمل على بث الشعور بأنه لا خلاص إلا بالتخلي عن نظام الحياة الإسلامية، واستلهام نمط الحياة في الغرب وتطبيقه في بلدان العالم الإسلامي، ولتصبح حياة المسلمين حياة مادية لا دينية، بل وإلحادية [٢٩].

وقد اختزلت الأحاديث الشريفة ويلات زمن الفتن وعصر التدجيل بالنصّ المتواتر: (تمتلئ ظلمًا وجورًا)، كما حذّر الإمام الصادق عليه السلام المسلمين من كوارث الحياة اللاإسلامية التي يسعى الشياطين في زمن الفتن إلى تقديمها بديلًا عن الحياة الطيّبة الكريمة، التي بيّنها الدين الإلهي والشريعة الإسلامية الغراء، بقوله عليه السلام: "ألا تَعلَمُ أنَّ مَن انتَظَرَ أمرَنا، وَصبَرَ على مَا يَرى مِن الأذَى والخَوفِ، هو غَدًا في زمرتِنَا؟ فإذا رأيتَ الحَقَّ قد مَاتَ وذَهَبَ

أهلُه، والجَورَ قد شَمَلَ البِلادَ، ورأيت القُرآنَ قد خُلِقِ، وأُحْدِثَ فيه مَا ليس فيه، ووِجّه عَلى الأهوَاءِ، ورأيت الدِّينَ قد انكَفَا كَمَا ينكفئ الإناءُ، ورأيت أهلَ الباطِلَ قد استعلَوا على أهلِ الحَقِ، ورأيت الشَرّ ظَاهِرًا لا يُنْهَى عنه ... وأعلام الحَقِّ قد دُرِسَتْ، فَكُنْ على حَذَرٍ، واطلبْ من الله النجاةَ "[٣٠].

المبحث الرابع ـ المعالجات الإسلامية لتداعيات الحرب الناعمة على الحياة الطيّبة

وللفوز بالحياة الطيّبة الكريمة التي أرادها الله تعالى لعباده، لا بدّ من التصدّي للحرب الناعمة، ومعالجة تداعياتها، بوعيٍ تام، وعلمٍ نافع، وعملٍ صالح، ومسؤوليةٍ فرديةٍ وجماعية، ولا يكفي في ذلك التصدّي وحده، بل لا بد من الانتصار فيها على قوى الظلام، التي تشنّها حربًا ناعمةً شعواء على الإسلام والمسلمين.

ولكن لا نصر في الحرب الناعمة (كما في غيرها) إلّا بالخلاص الحقيقي، ولن يكون إلّا بسفينة النجاة الإلهيّة التي تعبر بالناس إلى الحياة الطيّبة، كما بيّنها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وهم أئمّة أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، الذين رسموا منهجًا تكامليًا شموليًّا دقيقًا، يجب على الأمّة بأفرادها ومجاميعها ونخبها وقياداتها ومؤسساتها، تطبيقه تطبيقًا تامًّا كاملًا وخصوصًا في زماننا هذا، وكما يأتي[٣١]:

١ ـ إعداد جميع المؤمنين لتحصيل علوم الإسلام (وخصوصًا العقائد والأحكام والنظم والأخلاق) من مصادرها الأصيلة، ومعرفة الحياة الطيّبة في الإسلام معرفة علمية واعية بالدليل والبرهان، واكتساب المهارات اللازمة في الوعي والتثقيف والإعلام والخطاب المعاصر، وامتثال التكليف الشرعي في الدفاع الفكري والثقافي عن الإسلام (عن أصوله ومبادئه، وعقائده، وشريعته، ونظمه، وقيم)، والتثقيف بالحياة الطيّبة بجميع المهارات اللازمة (الكتب والمؤلفات، ورسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه، والبحوث والمقالات والدراسات، والندوات والتغريدات، والخطب والتوجيهات والإرشادات، والحوارات والنقاشات والمناظرات) وباستعمال جميع الوسائل المتاحة (كمواقع الانترنيت، ومنصات التواصل الاجتماعي، واللقاءات المباشرة، وغيرها)، مع التأكيد على أنّ الحكم الشرعي في ذلك:

أ ـ وجوب معرفة وتعلم وتعليم علوم الدين وجوبًا فوريًّا عينيًّا على كلّ مسلم ومسلمة، ويلزم منه وجوب معرفة الحياة الطيّبة معرفةً علميةً واعية، والتثقيف بها في مشارق الأرض ومغاربها، وتعريفها للناس كافة المسلم منهم وغير المسلم على حدٍّ سواء؛ لأنّ الجميع مخاطب بها؛ ولأنّها مطلب إنساني عام وضرورة ملحة لجميع بني البشر.

وكذلك وجوب الدفاع عن دين الله تعالى وجوبًا فوريًّا عينيًّا على كلّ مسلمٍ ومسلمةٍ وبجميع الإمكانيات المتاحة وفي كلّ زمانٍ ومكان، بما في ذلك وجوب الدفاع عن الحياة الطيّبة في الإسلام، بل والسعي إلى تطبيقها في واقع الحياة، ليحيا جميع الناس حياةً طيّبةً سعيدة.

٢ ـ توحيد الجهود الفردية بعمل جماعي مؤسساتي: للتصدّي للأفكار المنحرفة، والفلسفات الإلحادية، والحركات المشبوهة، ووسائل الحرب الناعمة التي تستهدف الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكًا ونظمًا وأخلاقًا، والمسلمين بلدانا وشعوبًا وقيمًا وثقافةً وحضارةً وحياةً، وهذا الأمر يتطلب تقوية روابط المؤمنين الاجتماعية والأسرية في وحدةٍ إيمانيةٍ واحدة، وفي حياةٍ طيّبةٍ كريمة [٣٢].

٣ ـ رصد الرؤى والأفكار التي تستهدف الحياة الطيّبة الإيمانية، وما يتعلّق بها من أحداثٍ ووقائع عالميةٍ وإقليمية، وتحليلها ونقدها وتمحيصها وفق ضوابط الوحي الإلهي، للحكم عليها في مشروع الخلاص الإلهي.

٤ ـ تدريب المسلمين (بل وغيرهم أيضًا) على إقامة الحياة الطيّبة تدريبًا توعويًا، وصناعة الجمهور المستعدّ؛ لأنّ يحيا هذه الحياة وفق هدي الوحي الإلهي، وتثقيف الجميع بالإسلام المحمدي الأصيل، وضرورة الإيمان به في عصر ما قبل الظهور (كما هو الحال في كل عصر) للانتقال ببني البشر من حياة الألم والمعاناة والاضطهاد إلى حياة السعادة والكرامة والتقوى، وهذا يتطلّب من الجميع علماء ومتعلمين وغيرهم، دراسةً وبحثًا وتحقيقًا في جميع ذلك، وتثقيفًا شموليًا تكامليًا واعيًا، لتبصير البشرية وتهيئتها للانتصار في الحرب الناعمة تربويًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا وحركية على قوى الظلام الشيطانية.

٥ ـ ترسيخ الإيمان بأصول الدين الحنيف، وتوحيد الله وطاعته، والعمل بأحكام شريعت، وتقوية الالتزام الديني، وتزكية النفس وتهذيبها، وتنمية الذات وتربية الفرد والمجتمع،

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى، ورفع المظالم ودفعها، والصبر والإخلاص والتقوى والطاعة، وتحمل مسؤولية الانتظار.

٦ ـ بثّ روح الأمل في نفوس الناس، ليتمكن الإنسان من اختراق معاناة الحياة في الحاضر، ورؤية الحياة الطيّبة في المستقبل الواعد، فتتبدد ظلمات اليأس التي تكتنف حياة الإنسان في عالمنا المعاصر الذي تسوده الويلات والخطوب.

٧ ـ تربية الأجيال الإسلامية تربية إيمانية خالصة، بالتمسّك بالكتاب الكريم والسُنّة الشريفة وفق منهج أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وحتى تتصف تلك الأجيال بالبصيرة واليقين، والإقبال على الله تعالى، والشجاعة والجرأة والذوبان في ذات الله تعالى، وفي كنف ذلك تحيا تلك الأجيال الحياة الطيّبة المتحرّرة من العبودية لغير الله عزّ وجلّ.

٨ ـ تنمية شعور الشباب في الأعماق ذكورًا وإناثًا بأنّ كلّ فردٍ منهم مكلّف بالتمسّك بالكتاب الكريم والسُنّة الشريفة وهدي أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والدعوة إلى الله تعالى لإحداث التغيير الإيجابي في حياة الفرد والمجتمع والعالم، وإعداد جيلٍ مؤمنٍ واعٍ يسعى جاهدًا لنيل الحياة الطيّبة.

٩ ـ تربية جميع المكلّفين على الجرأة والقوة والصلابة، تأسّيًا بالأنبياء والأئمّة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، الذين كانوا يدعون إلى الحياة الطيّبة، وتحفيز المؤمن المعاصر على الثبات والصمود في حياته، ومواجهة صناعة الإلحاد والإنحراف (كل من موقعه وبحسبه في كلّ وقتٍ ومكان ــ وخصوصًا في البيت والمدرسة والمسجد والمجتمع ــ) [٣٣]، ومقاومة الانهيار والسقوط الفردي والجماعي حتى وصول المدد الإلهي بالخلاص الانقاذي على يد الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وفي دولته عليه السلام سوف تزدهر الحياة، ويسود الأمن والأمان والاطمئنان، ويعمّ الرفاه، ويكثر الرزق، وتخصب الأرض، وتينع الثمار، وتكثر الخيرات، وتنعم وترتع البهائم، وأنّ دولته (عجّلَ اللهُ فرَجَه) تقوم على العدالة والحق والسلام والوئام، وهي (الحياة الطيّبة) التي هي حلم الإنسان وأمنيته [٣٤].

خاتمة البحث (النتائج والتوصيات):

نستنتج من مطالب البحث خطورة الحرب الناعمة وتداعياتها السلبية على الحياة الطيّبة، وضرورة مواجهتها والانتصار عليها، لتتحقق المصلحة العامة للجميع في حياةٍ هانئةٍ سعيدة، وأنّ تلك المواجهة واجب شرعي وعقلي ووجداني، وتوصلنا من مطالب البحث إلى نتائج وتوصيات نوجزها بما يأتي:

أوّلًا ـ النتائج:

١ ـ خلق الله تعالى الإنسان ليحيا حياةً طيّبةً سعيدةً هانئةً في الدنيا والآخرة، ولينال الإنسان هذه الحياة عليه أنْ يمتثل أوامر الله تعالى ويتجنب نواهيه.

٢ ـ مع أنّ الحياة الطيّبة أمل منشود لكلّ إنسان، إلّا إنّ الإنسان يضلّ طريقها عندما ينجذب إلى وساوس الشياطين، فيتردى في حياة البؤس والشقاء.

٣ ـ إنّ (الحرب الناعمة) من أخطر وسائل الشياطين في عصرنا هذا (عصر ما قبل الظهور المقّدس) للإطاحة بمشروع الوحي الإلهي في الحياة الطيّبة.

٤ ـ إنّ أهم تكتيكات ووسائل تأثير قوى الظلام في حربها الناعمة ضد الحياة الطيّبة (وفق هدي الوحي الإلهي)، ما يأتي:

أ ـ الخداع والتضليل والتدليس والكذب والافتراء والتزوير، للتشكيك في الإسلام الحنيف، وزعزعة العقيدة، والطعن في الشريعة، تمهيدًا لطمس معالم الحياة الطيّبة في النظم الإسلامية، وإبدالها بالحياة الغربية اللادينية.

ب ـ الإغواء والتزيين والإعجاب للإغراء بنمط الحياة الغربية عمومًا والأمريكية خصوصًا على أنّها حياة الرفاه والتي تشبع حاجات الإنسان وتلبّي متطلباته في الحياة المرفّهة.

ت ـ تصوير نظم الحياة في الإسلام زورًا وبهتانًا، على أنّه نظام استبدادي رجعي متخلف، والادعاء بأنّ واقع الحياة الإسلامية التعقيد والجمود والبؤس والانغلاق.

٥ ـ إنّ الضرورة الشرعية والعقلية والأخلاقية والتاريخية تحتم على جميع المسلمين (كلّ من موقعه وبحسبه) لا بدية التصدّي للحرب الناعمة ومواجهة تداعياتها بجميع الوسائل المتاحة، ومنها:

أ ـ تحصين جميع أفراد الأمة بتعليمهم علوم الدين (وخصوصًا العقائد والأحكام والنظم والأخلاق) من مصادرها الأصيلة، وتثقيفهم بالحياة الطيّبة في الإسلام تثقيفًا علميًّا واعيًا

بالدليل اليقيني والحجة المنطقية، وبلغة عصرنا هذا.

ب ـ رصد الرؤى والأفكار التي تستهدف الحياة الطيّبة الإيمانية، وما يتعلّق بها من أحداث ووقائع عالمية وإقليمية، وتحليلها ونقدها وتمحيصها وفق ضوابط الوحي الإلهي، للحكم عليها في مشروع الخلاص الإلهي .

ت ـ إعداد جيلٍ مؤمنٍ واعٍ يسعى جاهدًا لنيل الحياة الطيّبة، وتدريب المسلمين (بل وغيرهم أيضًا) على إقامة الحياة الطيّبة تدريبًا توعويًّا، وصناعة الجمهور المستعد لأنْ يحيا هذه الحياة وفق هدي الوحي الإلهي.

ث ـ بثّ روح الأمل في نفوس الناس، ليتمكن الإنسان من اختراق معاناة الحياة في الحاضر، ورؤية الحياة الطيّبة في المستقبل الواعد.

ثانيًا ـ التوصيات:

أخلص من البحث هذا بتوصيتين أضعهما أمام أنظار الجميع:

الأولى: أنْ تتولى المراكز الدينية وفي مقدمتها العتبات المقدّسة والمراكز البحثية التابعة لها، وكذلك الجامعات ومعاهد الدراسات العليا ومراكز البحوث والدراسات، دراسة وتحليل تداعيات الحرب الكونية الناعمة ضد الحياة الطيّبة في الإسلام، ووضع البرامج والخطط الكفيلة لتحصين مجتمعاتنا الإسلامية من تداعياتها الكارثية، والنهوض بمشروعٍ ريادي رقابي تصحيحي يحقّق الأهداف السامية المأمولة في هذا الصدد.

الثانية: إيجاد نخبةٍ من علماء العراق ومفكّريه وأساتيذ الجامعات وخطباء المنبر الحسيني، تتحمّل مسؤولياتها فيما يأتي:

١ ـ التثقيف بتداعيات الحرب الناعمة على الحياة الإسلامية الطيّبة، والعمل الجاد على تفعيل الطبيعة الخيّرة للإنسان المتلقي، لتوجيهه إلى تحصين نفسه ومتعلقية من تلك التداعيات، وإرشاده إلى أنْ يسعى جاهدًا لأنْ يحيا حياةً طيّبةً كريمةً كما أرادها الله تعالى لعباده.

٢ ـ وضع الحلول الناجعة أمام أنظار أصحاب القرار في بلدان العالم الإسلامي، ليتسنى للجميع (كلّ من موقعه وعلى قدر طاقته ووفق مسؤوليت) المساهمة الفاعلة في ذلك، وبما يتحقق معه النصر المبين في الحرب الكونية الناعمة.

الهوامش

١- النحل / ٩٧.
٢- مريم / ١٢٤.
٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الروضة من الكافي، ٨ / ٤٢٦.
٤- الأنفال / ٢٤.
٥- أكبري، حسن علي، الحياة الطيّبة ـ الهدف الغائي للتربية والتعليم، ٣٥، و ٤٠ ـ ٤٦.
٦- م.ن، ٩٠ وما بعدها.
٧- فصلت / ٣٠ ـ ٣١.
٨- الواسطيّ، عليّ بن محمّد الليثيّ، عيون الحكم والمواعظ، ص٧٥.
٩- التوبة / ١٠٥.
١٠- المطلق، عبد المحسن بن علي، الحياة الطيّبة أو قاموس السعادة في الإسلام، ١٢ وما بعدها.
١١- أكبري، حسن علي، الحياة الطيّبة ـ الهدف الغائي للتربية والتعليم ص٥١ ـ ٥٢، وأبو عقيل، محمد بن حسن، الحياة الطيّبة، ٧ وما بعدها، و: ٢٧٣وما بعدها.
١٢- أكبري، حسن علي، الحياة الطيّبة ـ الهدف الغائي للتربية والتعليم، ٤٥.
١٣- البقرة / ١٦٨ ـ ١٦٩.
١٤- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مكارم الأخلاق، ٥٧٥.
١٥- فاطر / ٦.
١٦- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ٢١٨.
١٧- مركز الحرب الناعمة للدراسات، مدخل إلى الحرب الناعمة، الطبعة الأولى، ٩ وما بعدها.
١٨- الزين، أ. حسن محمد، نحو استراتيجية إسلامية لمواجهة الحرب الناعمة، ص١٤.
١٩- مركز الحرب الناعمة للدراسات، مدخل إلى الحرب الناعمة، ٢٣ وما بعدها.
٢٠- مرادي، حجة الله، أدوات الحرب الناعمة بحث منشور في كتاب الحرب الناعمة قراءة في أساليب التهديد وأدوات المواجهة، ١٤٠وما بعدها.
٢١- الزين، أ. حسن محمد، نحو إستراتيجية إسلامية لمواجهة الحرب الناعمة، ١٣.
٢٢- الحاج حسن، علي محمد، الحرب الناعمة الأسس النظرية والتطبيقات، ٧٨ وما بعدها.
٢٣- م.ن، ٤٩ وما بعدها.
٢٤- مركز الحرب الناعمة للدراسات، مدخل إلى الحرب الناعمة، ٣١ ـ ٣٩.
٢٥- الحاج حسن: علي محمد، الحرب الناعمة الأسس النظرية والتطبيقات، ٩وما بعدها.
٢٦- م.ن، ١٨ وما بعدها.
٢٧- مركز قيم للدراسات، كيف نواجه الحرب الناعمة، ١١ وما بعدها.
٢٨- البنا، فؤاد، العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة، ٢٤٨ وما بعدها.

٢٩- حمدان، محمد، الحرب الناعمة، ٤٤ وما بعدها.

٣٠- الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ١٦ / ٢٧٥.

٣١- الآصفي، محمد مهدي، الانتظار الموجّه، ١٣ وما بعدها.

٣٢- مركز الحرب الناعمة للدراسات، مدخل إلى الحرب الناعمة، ٤٤ وما بعدها.

٣٣- حمدان، محمد، الحرب الناعمة، ٤٩ وما بعدها.

٣٤- الشيرازي، صادق الحسيني، نعمة الرضا في عصر الظهور، ٧ وما بعدها.

المصادر والمراجع

* ابن شعبة، الحسن بن علي بن الحسين الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، تقديم وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، ط٧، بيروت، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م.
* أبو عقيل، محمد بن حسن، الحياة الطيّبة، ط١، جازان ، الناشر: مؤسسة أبعاد، ١٤٣٢ هـ.
* الآصفي، محمد مهدي، الانتظار الموجّه، ط٥، النجف الأشرف، الناشر: مجمع أهل البيت (عليهم السلام)، ٢٠١٠ م.
* أكبري، حسن علي، الحياة الطيّبة: الهدف الغائي للتربية والتعليم، ترجمة: فاطمة شوربا، ط١، بيروت، الناشر: مركز الأبحاث والدراسات التربوية، ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩ م.
* البنا، فؤاد، العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة، ط١، القاهرة، الناشر: دار النشر والتوزيع الإسلامية، ٢٠٠٦.
* الحاج حسن، علي محمد، الحرب الناعمة الأسس النظرية والتطبيقات، ط١، كربلاء المقدسة، الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ـ العتبة العباسية المقدسة، ١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م.
* الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ط٤، قم المقدسة، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ١٤٣٨ هـ.
* حمدان، محمد، الحرب الناعمة، ط١، بيروت، الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠ م.
* الزين، أ. حسن محمد، نحو استراتيجية إسلامية لمواجهة الحرب الناعمة، بحث منشور في كتاب الحرب الناعمة (المفهوم ـ النِشأة ـ وسبل المواجهة)، ط١، بيروت، الناشر: مركز قيم للدراسات، لا . ت.
* الشيرازي، السيد صادق الحسيني، نعمة الرضا في عصر الظهور، ط١، قم، الناشر: مؤسسة الرسول الأكرم الثقافية، ١٤٢٩ هـ.
* الطبرسي، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، الكويت، الناشر: مكتبة الألفين، لا. ت.
* الكليني، محمد بن يعقوب، الروضة من الكافي، صححه وقابله وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، ط١، طهران، الناشر: دارالكتب الإسلامية، ١٣٨٩ هـ.
* مرادي، حجة الله، أدوات الحرب الناعمة بحث منشور في كتاب الحرب الناعمة قراءة في أساليب التهديد وأدوات المواجهة، ط١، بيروت، الناشر: مركز قيم للدراسات، ٢٠١٣.
* مركز الحرب الناعمة للدراسات، مدخل إلى الحرب الناعمة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤ .
* مركز قيم للدراسات، كيف نواجه الحرب الناعمة، ط١، بيروت، الناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ٢٠١٢ م.
* المطلق، عبد المحسن بن علي، الحياة الطيّبة أو قاموس السعادة في الإسلام، الرياض، الناشر: مكتبة التوبة، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م.
* الواسطي، علي بن محمد الليثي، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين الحسني البيرجندي، ط١، قم المقدسة، الناشر: دار الحديث، ١٣٧٦ هـ ش.

الحياة الطيّبة في الدولة المهدوية

الشيخ حسين عبد الرضا الأسدي

باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

ملخص البحث

يهدف البحث إلى ذكر نماذج من مفردات الحياة الطيّبة في ظلّ دولة الإمام المهدي عجل الله فرجه، على مختلف الصعد الثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها، من خلال استعراض النصوص الروائية الواردة في هذا الصدد، والمروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، والواردة في بعض النصوص العامية كذلك.

وقد تناول ذلك في تمهيد في بيان الحياة الطيّبة في التراث الديني. ومبحثين، تناول المبحث الأوّل المبادئ العامة لحكومة الإمام المهدي عجل الله فرجه. من خلال استعراض الأحاديث المبينة لتلك الأسس والمبادئ، التي تمثّل منطلقات الدولة المهدوية وبناها العلمية والعملية التحتية، مثل العمل بكتاب الله تعالى وسُنّة المعصومين عليهم السلام، القضاء والتطبيق العادل لأحكام الإسلام. وعالمية الحكومة، والبحث الثاني: سلّط الضوء على مفردات الحياة الطيّبة في ظل الدولة المهدوية.

ويخلص البحث إلى أنّ ما سيأتي به الإمام المهدي عجل الله فرجه سيمثّل حلم الأنبياء والمرسلين بالتطبيق الكامل الشامل للدين الإلهي، وبطريقةٍ غير مسبوقة النظير، حتى أنّ الناظر في النصوص الواردة فيها يُخيل إليه أنّه يعيش في جنةٍ لكن على الأرض.

مصطلحات البحث والكلمات المفتاحية (الحياة/ الطيّبة/ الدولة المهدوية):

١ - الحياة:

تُطلق الحياة ويُراد منها معانٍ عديدة[1]، من قبيل النمو في حياة النبات، والإحساس في الحيوان، والإدراك في الإنسان، وتختلف مراتبها باختلاف الموجود الذي يتصف بها، فهي ذات مراتب طوليّة مشككة، وتتكامل بتكامل الموجود الذي يتّصف بها، فالحياة في الحيوان أكمل منها في النبات، وفي الإنسان أكمل منها في الحيوان، وفي الخالق أكمل منها من المخلوق، على أنّ علم الكلام أثبت أنّ الحياة في الخالق (جلّ وعلا) حياةٌ مطلقةٌ لا متناهية، وبالذات لا بالغير، والتفاصيل في ذلك العلم.

وتطلق الحياة بإطلاقاتٍ مجازيةٍ أخرى، من قبيل: الراحة، فإنّ من يعيش مرتاحًا يُقال عنه حيٌّ مجازًا، وقد يكون الإنسان متصفًا بالحياة الحيوانية (النمو الإحساس)، بل

والإنسانية (الإدراك)، إلّا أنّه لعدم راحته يكون هو والميت سواء، وفي هذا المعنى قيل:

ليس من مات فاستراح بميت * * * إنّما الميت ميّتُ الأحياءِ

وتطلق أيضًا على الحضارات التي تقوم على وفق نظريات يُعمل بها في الواقع، بمعنى أنّ أيّ حضارةٍ لا بدّ أنْ يكون عندها نظريات معينة، فإذا ما طُبّقت تلك النظريات على أرض الواقع، والتزم بها أتباع تلك الحضارة، وأخذت بالنمو والتوسّع وتسويق نفسها من خلال أتباعها ومن خلال نظرياتها ذات الأثر الإيجابي على أرض الواقع، كانت تلك الحضارة حيّة، وإلّا، فهي حضارةٌ ميّتة، ذات بضاعةٍ كاسدة.

والمقصود من الحياة في هذا البحث هو هذا المعنى الأخير، فهي حياة حضارة تطرح نظريات، يُعمل بها على أرض الواقع، وتأخذ بالنمو والتوسع حتى لا تبقى أرضٌ إلّا وينادى فيها بلا إله إلّا الله، وسيدخل العدل بيوت الأرض بلا استثناء.

وفي ذلك روي عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ - في سياق حديثه عن قيام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف -: "أَمَا وَالله لَيَدْخُلَنَّ عَلَيْهِمْ عَدْلُهُ جَوْفَ بُيُوتِهِمْ كَمَا يَدْخُلُ الْحَرُّ وَالْقُرُّ[٢]" [٣].

وفي رواية أبي جعفر عليه السلام: ولا تبقى أرضٌ إلّا نُودي فيها بشهادة أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا رسول الله، وهو قوله: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**[٤]﴾ [٥].

٢- الطيّبة:

قال الراغب الأصفهاني: أصل الطَّيِّبِ: ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطَّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الَّذي يجوز فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يستوخم، وإلَّا فإنّه - وإنْ كان طَيِّبًا عاجلًا - لم يَطِبْ آجلًا... والطَّيِّبُ من الإنسان: من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلَّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال...[٦].

فالمقصود من الطيّبة في البحث: الحياة التي تنعكس إيجابًا على الأفراد، بحيث تخلو من المكدّرات، فلا يكون هناك إلّا ما تستلذّ به النفس، وما تطمح له العين، وما ينعكس

بالأخلاق الفاضلة والعلم النظري والسلوك العملي المطابق له على الإنسان.

٣- الدولة المهدوية:

بعيدًا عن الاصطلاحات التي ذُكرت للدولة، وأنواعها، وأركانها، وبعيدًا عن تعقيدات التعريفات، فإنّ المقصود من الدولة المهدوية هنا هو الآتي:

أ- الزمن الذي تنتهي فيه الغيبة الكبرى للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ويظهر بشخصيته الحقيقية للعلن.

ب- انتهاء حكم غير أهل البيت عليهم السلام وعدم تسنمهم أي منصب سياسي في حكومة العالم، وما يلازمه من انتهاء الحروب العلنية ضد الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ج- تسنّم الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف حكم الدولة العالمية، وتقسيمه دول الأرض إلى (٣١٣) إقليمًا أو محافظةً أو ما شابه هذه المصطلحات، وهو المستفاد من بعض النصوص الدالة على أنّه عجل الله تعالى فرجه الشريف سيُعيّن أصحابه الخاصين الثلاثمائة وثلاثة عشر حكّامًا على الأرض، فقد روي عن المفضَّل بن عمر، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: "كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى القَائِمِ عَلَى مِنْبَرِ الكُوفَةِ وَحَوْلَهُ أَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا عِدَّةُ أَهْلِ بَدْرٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ الألوِيَةِ، وَهُمْ حُكَّامُ اللهِ فِي أَرْضِهِ عَلَى خَلْقِهِ..."[٧].

د- أنّ القانون التشريعي الرسمي هو القانون التشريعي الإسلامي، وتحت رعاية الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بما يملكه من صفة العصمة تجنبه الخطأ مطلقًا، وبما زوّده الله تعالى من علم لدنّي يكشف له الواقع، وبما يحيط به من أصحاب وأنصار مخلصين تمام الإخلاص.

وحينها، سيبدأ الإمام عليه السلام بتطبيق النظام الذي أشار القرآن الكريم إلى نتيجته الدنيوية حينما قال عزّ وجلّ: ﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾[٨].

فتحصل:

أنّ المقصود من البحث هي الإشارة إلى التطور الحضاري للدولة العالمية التي يحكمها الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وتفجيره الطاقات بما يصبّ في تذليل الصعوبات في الدنيا، وفتح منافذ الرفاهية على أعلى مستوياتها، الأمر الذي يُخيّل لقارئ الروايات أنّ الناس يعيشون في الجنة، إلا أنّها جنة أرضية، على جميع المستويات الثقافية والاقتصادية والأمنية وغيرها.

تمهيد: الحياة الطيّبة في التراث الديني:

أشار القرآن الكريم في آيةٍ واحدةٍ من آياته الكريمة، إلى أنّ الحياة الطيّبة تكون لمن آمن وعمل صالحًا، فقال عزّ من قائل: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (٩).

وقد تعددت المعاني في المقصود من هذه الحياة الطيّبة، ونذكر منها الآتي:

المعنى الأول: أنّ الحياة الطيّبة هي القناعة:

وهو مفاد ما روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سُئِلَ عَنْ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فَقَالَ عليه السلام: "هِيَ الْقَنَاعَةُ" (١٠).

المعنى الثاني: أنها الحصول على ما يُحب الإنسان، بشرط أن لا يكون عن طريق ما يكره الله تعالى:

وهو مفاد ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: "فَأَحْيِنِي حَيَاةً طَيِّبَةً تَنْتَظِمُ بِمَا أُرِيدُ، وتَبْلُغُ مَا أُحِبُّ مِنْ حَيْثُ لَا آتِي مَا تَكْرَه، ولَا أَرْتَكِبُ مَا نَهَيْتَ عَنْه" (١١).

المعنى الثالث: أنّها حياة السرور والكرامة وتمام العيش:

وهو المستفاد من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: واجعلني ممّن أطلت عمره، وحسّنت عمله، وأتممت عليه نعمتك، ورضيت عنه، وأحييته حياةً طيّبةً في أدوم السرور وأسبغ الكرامة، وأتم العيش (١٢).

ويجمع هذه المعاني أنّ الحياة الطيّبة هي الحياة التي تقوم وفق طاعة الله تعالى، المتمثلة بالقناعة بالرزق، وهذه القناعة لا تنافي طلب الحلال، وإنْ كان بالحصول على كل ما يحب الإنسان، فالمهم أنْ يكون الطلب بالحلال، وأنْ تكون الحياة كريمة.

ويبدو أنّ المقصود من الحياة الطيّبة - وفق سياق الآية الكريمة - هي الحياة التي تكون نتيجة للالتزام بالإيمان والعمل الصالح، فيقال: "الحياة الطيّبة في هذه الدنيا هي النتاج الطبيعي للعمل الصالح النابع من الإيمان، أي أن المجتمع البشري سيعيش حينها حياة هادئة مطمئنة ملؤها الرفاه والسلم والمحبة والتعاون، بل وكل ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانية، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة

الأهـواء والأنانيـة التـي تمـلأ الدنيـا ظلامًـا وظلامـات" [١٣].

وهـذا هـو المعنـى المقصـود في محل البحث، فـإنّ النصوص واضحـة في أنّ الإمام المهـدي عليه السلام وبعد أن يبسـط نفـوذه عـلى كلّ ربوع الأرض، سـيتوجّه النـاس إلى عبادة الله تعالى والعمـل الصالح، بحيث تكـون الصبغـة العامـة لهـم هي ذلـك، ومن ثم، فـإنّ القـرآن الكريم وبحسـب آية الاسـتقامة المتقدمة، وعـد بـأنّ الأثـر التكويني للالتـزام بالقانون الإلهي هو توفـير أنواع النعم وصنـوف الرفاهية في الحياة، الأمـر الـذي كُنّـي عنه في الآيـة بأنّ الله تعالى يُسـقي الناس مـاءً غدقًا.

وسنعرف أهم المفردات في تلك الحياة الطيّبة من خلال البحث إنْ شاء الله.

ومنـه يُعلـم: أنّ المقصـود مـن الآيـة هـي الحيـاة الطيّبـة في الدنيـا، وهـذا لا يمنـع مـن وجـود حيـاةٍ طيّبـةٍ في الآخـرة كـما هـو واضـح، فـما فُسّـرت بـه الآيـة مـن كـون المقصـود منهـا هـي الحيـاة بعـد المـوت صحيـح إذا كان عـلى نحـو التطبيـق وذكـر مصـداق غـير حـصري، أمـا لـو قُصـد حـصر التفسـير بهـا فقـد عرفـت عـدم سـلامته، وأنّ سـياق الآيـة والنصـوص الـواردة واضحـة في أنّ المؤمـن الـذي يعمـل صالحًـا يحصـل عـلى حيـاة طيّبـة في الدنيـا، وهـذا البحـث يريـد بيـان أنّ أهنـأ الحيـاة الطيّبـة في الدنيـا تكـون في زمـن ظهـور الإمـام المهـدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

البحث الأول: المبادئ العامة لحكومة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

هنـاك مبـادئ عامـة حكتهـا النصـوص الشريفـة، وتقتضيهـا ضرورات الديـن والمذهـب، سـتكون هـي الأساسـات العامـة لدولـة الظهـور المبـارك، ومـن خلالهـا ينطلـق الإمـام الحجـة عجل الله تعالى فرجه الشريف لتطبيـق النظـام الأكمـل، ومـن ثـم توفـير الرفاهيـة والحيـاة الطيّبـة للبـشر.

المبدأ الأول: العمل بكتاب الله تعالى وسنة المعصومين عليهم السلام:

لـكلّ نظـامٍ دسـتور يمثّـل البنـى التحتيـة والجـذور الأساسـية لـكل تشريعاتـه وتفريعاتهـا، وأيّ تشريـعٍ لا يرجـع في تخومـه إلى ذلـك الدسـتور يُعـدّ مخالفـةً لـه، ولا يجـب العمـل بـه، بل تلـزم معارضته والإطاحـة بـه، وهـذا أمـرٌ عقلائـي في حـدّ نفسـه، وقـد جـرت سـيرة الـدول والأنظمـة عليـه.

الدولـة المهدويـة لهـا دسـتورها الخـاص الـذي تنبـع منـه بقيـة التشريعـات، ويتمثّـل ذلـك الدسـتور بمصدريـن أساسـيين، ترجـع إليهـا بقيـة المصـادر:

المصدر الأول: القرآن الكريم.

المصدر الثاني: سُنّة النبي الأكرم ﷺ والمعصومين الطاهرين، بما يشمل قولهم وفعلهم وتقريرهم.

أما مصدرية القرآن الكريم فلا كلام فيها وفي كونه مصدرًا بالمطلق، وإنْ كان هناك نقاشٌ فليس في أصل صدروه ولا في مصدريته، ولا في حجية نصوصه، إنّما الكلام - لو كان - في حجية ظواهره لغير المعصومين عليهم السلام، حيث ذهب بعض - وهو ما نُسب إلى الإخباريين - إلى أنّ ذلك مختص بالمعصومين عليهم السلام، وأنّ الحجة علينا هو النصّ فقط، على أنّ هذا المبنى نوقش في محله في علم أصول الفقه، وأثبت العلماء أنّ ظواهره كنصوصه حجّةٌ علينا، نعم، وفق شروط وضوابط خاصّة ذُكرت هناك.

وأما مصدرية السُنّة، فلا إشكال ولا ريب في حجيّة سُنّة النبيّ الأكرم ﷺ بالمطلق، وهو مبني على عصمة النبي الأكرم ﷺ التي نصّ عليها القرآن الكريم في أكثر من آية، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[١٤]، فضلًا عن الأمر الصريح بطاعته ﷺ بالمطلق، قال عز من قائل: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾.[١٥]

نعم، العامة ذهبوا إلى عدم عصمته ﷺ بالمطلق، وهو بحث تم تفصيله في علم الكلام.

وأما سُنّة المعصومين عليهم السلام، فهي حجة وبالمطلق عند أتباع المذهب الحق، وهم في ذلك يستندون إلى أدلةٍ مستفيضة، بل بعضها قرآنية، ويكفي أنّ الرسول ﷺ أمر بالرجوع إليهم على حدّ الرجوع إلى القرآن الكريم في حديث الثقلين المتواتر لدى الفريقين.

فحجيّة السُنّة بهذا المعنى ممّا لا خلاف فيه بين أبناء المذهب الحق.

وقد دلّت النصوص على أنّ دولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف تستند في تشريعاتها إلى هذين المصدرين، على أنّ الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف كما هو واضح آخر الأئمة المعصومين عليهم السلام، فهو بنفسه يمثل مصدر التشريع.

عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام وأَتَاه رَجُلٌ فَقَالَ لَه: إِنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتِ رَحْمَةٍ اخْتَصَّكُمُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى بِهَا فَقَالَ عليه السلام لَه: "كَذَلِكَ نَحْنُ والْحَمْدُ للهِ، لَا نُدْخِلُ أَحَدًا فِي

ضَلَالَةٍ ولَا نُخْرِجُه مِنْ هُدًى، إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَذْهَبُ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَجُلًا مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، يَعْمَلُ بِكِتَابِ الله، لَا يَرَى فِيكُمْ مُنْكَرًا إِلَّا أَنْكَرَه" (١٦).

وفي ما يتعلق بإحياء سنة النبي الأكرم ﷺ روي عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عليهما السلام، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "الْقَائِمُ مِنْ وُلْدِي اسْمُهُ اسْمِي، وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي، وَشَمَائِلُهُ شَمَائِلِي، وَسُنَّتُهُ سُنَّتِي، يُقِيمُ النَّاسَ عَلَى مِلَّتِي وَشَرِيعَتِي، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى كِتَابِ رَبِّي عزّ وجلّ، مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَانِي، وَمَنْ أَنْكَرَهُ فِي غَيْبَتِهِ فَقَدْ أَنْكَرَنِي، وَمَنْ كَذَّبَهُ فَقَدْ كَذَّبَنِي، وَمَنْ صَدَّقَهُ فَقَدْ صَدَّقَنِي، إِلَى الله أَشْكُو الْمُكَذِّبِينَ لِي فِي أَمْرِهِ، وَالْجَاحِدِينَ لِقَوْلِي فِي شَأْنِهِ، وَالْمُضِلِّينَ لِأُمَّتِي عَنْ طَرِيقَتِهِ، ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٧]"(١٧).

وفي حديث جامع يُبين فيه الإمام الصادق عليه السلام أن العمل بالإسلام ومصادره بمعنى الكلمة وكما يريده الله تعالى لا يكون إلا على يدي الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، حيث روي أنه عليه السلام قال لبريد: "يَا بُرَيْدُ، لَا والله، مَا بَقِيَتْ لله حُرْمَةٌ إِلَّا انْتُهِكَتْ، ولَا عُمِلَ بِكِتَابِ الله ولَا سُنَّةِ نَبِيِّه فِي هَذَا الْعَالَمِ، ولَا أُقِيمَ فِي هَذَا الْخَلْقِ حَدٌّ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ الله وسَلَامُه عَلَيْه، ولَا عُمِلَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا"، ثُمَّ قَال عليه السلام: "أَمَا والله لَا تَذْهَبُ الأَيَّامُ واللَّيَالِي حَتَّى يُحْيِيَ اللهُ الْمَوْتَى ويُمِيتَ الأَحْيَاءَ، ويَرُدَّ اللهُ الْحَقَّ إِلَى أَهْلِه، ويُقِيمَ دِينَه الَّذِي ارْتَضَاه لِنَفْسِه ونَبِيِّه، فَأَبْشِرُوا، ثُمَّ أَبْشِرُوا، ثُمَّ أَبْشِرُوا، فوالله مَا الْحَقُّ إِلَّا فِي أَيْدِيكُمْ" (١٨).

المبدأ الثاني: القضاء والتطبيق العادل لأحكام الإسلام.

لا تكون الشريعة ذات ثمرة من دون تطبيقٍ عادلٍ على الجميع، وفق مقتضيات المصالح والمفاسد العامة، والتي - حسب المفترض - يحددها الحاكم الأعلى للدولة ومن ينوب عنه ويقوم مقامه بتعيين منه، وفي الدولة المهدوية حيث إنّ الحاكم الأعلى هو الإمام المعصوم، وحيث إنّ من ينوب عنه هم أصحابه الخلّص، حينها سيكون التطبيق للشريعة على مستوى عالٍ من الشفافية، بحيث يضمن الأفراد عدم التعدي على حقوقهم وعدم سلبها، ووجود أذنٍ صاغية لشكاواهم لو كانت.

وتتجلّى هذه العدالة بكون الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف معصومًا، فيكون قضاؤه حقًا لا باطل

معه، وهو ما عبّرت عنه بعض النصوص بأنه يحكم بحكم داود، من دون بينة، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "... المهدي يحكم بحكم داود ولا يريد بيِّنة"[١٩].

هذا، وقد حصل الاتفاق بين المذاهب الإسلامية كافة على أنّ القاضي يجوز له أنْ يحكم بعلمه فيكون العمل بحكم داود ليس خارجًا عن الحكم الإسلامي وإنّما هو نمطٌ خاصٌّ يدخل في ضمن صلاحيات القاضي.

إن مسألة حكم الحاكم بعلمه ليست خارجة عن الأطر العامة للقوانين الإسلامية، ونذكر في هذا المجال بعضًا من الكلمات:

قال السيِّد الخوئي (قدس سره): "كما أنَّ للحاكم أنْ يحكم بين المتخاصمين بالبيِّنة وبالإقرار وباليمين، كذلك له أنْ يحكم بينهما بعلمه"[٢٠].

وهكذا عند العامَّة، حيث بنى كثيرٌ منهم على صحَّة حكم القاضي بعلمه وعدم احتياجه إلى بيِّنة، بل إنَّه يجوز له مخالفة البيِّنة إذا علم الواقع، وننقل هنا بعض كلماتهم:

قال محيي الدين النووي: "... على الصحيح أنَّ القاضي يقضي بعلمه"، وقال: "... وإذا علم القاضي عدالة الشاهد أو فسقه عمل بعلمه في قبوله وردِّه..."[٢١].

وقال زكريا الأنصاري: "... ولا يقضي (أي القاضي) بخلاف علمه وإنْ قامت به بيِّنة، وإلَّا لكان قاطعًا ببطلان حكمه، والحكم بالباطل محرَّم..."[٢٢].

وهكذا يكون حكمه وفق ما يريده الله تبارك وتعالى بلا أدنى ريب، وهو ما عبرت عنه بعض النصوص بأنّه يقوم بالحق، فقد روي عن محمد بن عجلان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "إذا قام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف دعا الناس إلى الإسلام جديدًا، وهداهم إلى أمر قد دثر فضلّ عنه الجمهور، وإنما سمي القائم مهديًا لأنّه يهدي إلى أمر قد ضلّوا عنه، وسمي بالقائم لقيامه بالحق" [٢٣].

والمقصود هو قيامه بالحق المطلق، وعلى جميع المستويات، وبهذا الإطلاق اختلف عليه السلام عن قيام غيره بالحق، إذ ما من أحد يقوم بالحق إلّا ويكون نسبيًا، في منطقة من الأرض دون غيرها، وفي مجموعة من الناس دون جميعهم، ولا يكون قيام بالحق المطلق وعلى جميع المستويات إلّا عند ظهوره عجل الله تعالى فرجه الشريف، وقد أشارت بعض النصوص إلى أن الله تعالى سيقطع حجة

كل من يدّعي أنّه لو أمسك الحكم لعدل مثل عدالته عليه السلام، حيث روي عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: "دَوْلَتُنَا آخِرُ اَلدُّوَلِ، وَلَنْ يَبْقَ أَهْلُ بَيْتٍ لَهُمْ دَوْلَةٌ إِلَّا مُلِّكُوا قَبْلَنَا، لِئَلَّا يَقُولُوا إِذَا رَأَوْا سِيرَتَنَا: إِذَا مُلِّكْنَا سِرْنَا مِثْلَ سِيرَةِ هَؤُلَاءِ، وَهُوَ قَوْلُ اَللهِ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]"(٢٤).(٢٥)

وقد عبّرت بعض النصوص عن ذلك الحق المطلق بتعبير آخر، مفاده أن ما سيأتي به يكون غير ما سبقه، فقد روي عَنْ أَبِي خَدِيجَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اَللهِ عليه السلام، قَالَ: "إِذَا قَامَ اَلْقَائِمُ عليه السلام جَاءَ بِأَمْرٍ غَيْرِ اَلَّذِي كَانَ"(٢٦).

ومن ثَمّ سيكون حكمًا عادلًا يسري على الجميع مهما كانت درجة قربه منه عليه السلام الأمر الذي حكته النصوص بألفاظٍ مختلفة، تحكي عن أنّه عليه السلام لا يُجامل في الحق، فيُجريه على الجميع مهما كانت درجة قربه منه، ومن ثم إذا رأى الناس ذلك من الحاكم، لا شكّ في أنّهم سيعملون على تطبيق القانون بحذافيره، خوفًا من أنْ تنالهم العدالة التي تقتضي معاقبة المخالف، لئلا يحدث التسيب والفوضى وعدم الالتزام بمقتضيات القانون.

وفي نصٍّ آخر يُبين أنه عليه السلام سيأخذ سبعين رجلًا، يبدو من النص أنّهم ذوو جاه بين الناس، ولكنّهم يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله، وهم بهذه الصفة يكونون من أئمّة الضلال الذين وعدهم الله تعالى بالعذاب حينما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾(٢٧).

وهذا المعنى هو ما جاء فيما روي عَنْ مَالِكِ بْنِ ضَمْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: "يَا مَالِكَ بْنَ ضَمْرَةَ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا اخْتَلَفَتِ الشِّيعَةُ هَكَذَا - وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ وَأَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ؟". فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ عليه السلام: "الْخَيْرُ كُلُّهُ عِنْدَ ذَلِكَ، يَا مَالِكُ عِنْدَ ذَلِكَ يَقُومُ قَائِمُنَا فَيُقَدِّمُ سَبْعِينَ رَجُلًا يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله فَيَقْتُلُهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمُ اللهُ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ"(٢٨).

فلاحظ أنّ الرواية تقول بأنّ الله تعالى يجمع أمرهم على أمرٍ واحدٍ بعد أنْ يقتل الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف أولئك السبعين، وهذا يؤكّد ما ذكرناه من أنّهم ممّن يجتمع الناس على رأيهم، أو ممّن يكون لهم تأثير على فئةٍ كبيرةٍ من الناس، بحيث يكون قتلهم عاملًا من عوامل وحدة الناس على الحق.

وعلى كلّ حال، فقيامه ﷺ بالحق، وتطبيقه العادل لقانون السماء، هو ممّا اتفقت عليه كلمة العامة والخاصة؛ ولذا تجد أنّ وصفه بأنّه (يملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما ملئت ظلمًا وجورًا) ممّا ورد عند جميع من ذكره، بل هو وصف يتبادر مع ذكره عليه السلام.

المبدأ الثالث: حكومة عالمية.

تختلف توجهات الدول باختلاف توجهاتها الداخلية والخارجية، ولا ريب أنّ وجود دول أخرى إلى جنبها يفرض عليها تصرفات معينة، كالتنافس معها، ومحاولة حماية نفسها من تدخلاتها، وقد تعمل الدولة على نقل المشاكل إلى خارج أراضيها بإلقائها إلى أراضي دول أخرى، وغيرها من الإشكاليات التي تحدث جرّاء وجود دول متعددة، والواقع خير شاهد.

أمّا إذا كانت الدولة واحدةً على الأرض، بنحو تنعدم معها الدول الأخرى، وتدخل جميع أقاليم الأرض تحت لوائها هي فقط، حينها سيكون توجه الدولة ونظرها إلى تنظيم أمورها الداخلية فحسب، إذ الفرض أنّه لا توجد دولة أخرى تنافسها.

من جهة أخرى فإنّ إدارة دولة بهذه الضخامة لا تُتاح لأيّ إنسانٍ إلّا إذا كان ذا مواصفات استثنائية، بحيث يتمكن من ضبط الأمور وإدارة المشاريع وتطبيق الدستور على جميع مناطق نفوذه، خصوصًا إنّه يهدف إلى التطبيق العادل الذي يشمل الجميع، والذي ينعدم معه الظلم بأقل صوره، فإنّه قد يكون ضربًا من الخيال بالقياس إلى ما نجده في صفات البشر العاديين.

إلا إنّ مثل هذا الخيال يُصبح واقعًا حقيقيًا إذا كان قائد الدولة رجلًا إلهيًا بمواصفاتٍ غيبيةٍ ضخمة، تتمثل بالنصّ الإلهي على تعيينه واختياره، وبالعلم اللدني، وبالعصمة، وما يتفرع عن هذه الصفات من الولاية التكوينية، وكل هذه المواصفات قد أثبتها علم الكلام بما لا يبقى معه محل للريب لمن تفكر وتأمل فيها.

أضف إليه، تواجدُ قادة أفذاذ مخلصين معه، كما ورد في النصوص.

ومن هنا، فقد نصت الروايات على أن دولة الإمام المهدي ﷺ هي دولة عالمية، بمعنى أنّها الدولة الوحيدة التي سيكون حكم الأرض - كل الأرض - بيدها، وسيهدف الإمام

المهدي عجّل الله فرجه إلى رفع لواء دولته على كلّ ربوع الكرة الأرضية، وما يستلزمه ذلك من عمل جادٍّ لتطبيق الدستور العادل فيها، ومن ثم سيعيش جميع البشر عدالته وقسطه، الأمر الذي سيمثل مدخلًا من مداخل السعادة والحياة الطيّبة لكل البشر بلا تمايز عنصري أو عرقي أو مذهبي، فكل الناس على دينٍ واحد، وكلّهم على مذهبٍ واحد، وتحت قيادةٍ واحدة.

والنصوص الدالة على عالمية الدولة المهدوية عديدة، ومنها الروايات التي ذكرت تأويل آية التمكين الإلهي في الأرض بهم عليهم السلام، وحيث إنّ الألف واللام في كلمة (الأرض) جنسية، فتدلّ على العموم، ممّا يعني أنّ المقصود عموم الأرض لا بقعة خاصة فيها.

ومن ذلك ما روي عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ولله عاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[٢٩]. قال: "هذه [الآية] لآل محمّد. المهديّ وأصحابه، يملّكهم اللهُ مشارق الأرض ومغاربها، ويظهر الدّين، ويميت اللهُ عزّ وجلّ به وبأصحابه البدع والباطل، كما أمات السّفهة الحقّ، حتّى لا يُرى أثر من الظّلم، ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. ﴿**ولله عاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾"[٣٠].

وممّا يدلّ على ذلك أيضًا ما روي عن أبان بن تغلب عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ولله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[٣١]، قال عليه السلام: "فينا والله، نزلت هذه الآية"[٣٢].

وعلى هذا المنوال الروايات المتواترة من الفريقين في أنّه عليه السلام يملأ الأرض قسطًا وعدلًا بالتقريب المتقدم نفسه، ومن روايات العامة في هذا المعنى ما رواه القندوزي في ينابيعه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إنّ عليًا إمام أمتي من بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي إذا ظهر يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا..."[٣٣].

والروايات في هذا المجال أكثر ممّا ذكرنا بكثير، نكتفي بهذه النماذج.

مصير غير المسلمين في الدولة المهدوية:

أمّا ما هو مصير غير المسلمين أو من لا يعتقد بإمامته عليه السلام، فهذا له بحث مستقل، ونشير إليه إشارةً سريعةً في هذا المجال:

لا ريب في أنّ الخطوة الأولى التي سيقوم بها عليه السلام تجاههم هو العمل على هدايتهم، وذلك من خلال فتح باب النقاش العلمي معهم، والعمل على إقناعهم بالحق، وبهذا سيمهد الطريق لهداية قسم من أتباع الديانات والمذاهب الأخرى، وهو عمل عقلائي فضلًا عن كونه شرعيًا، وممّا يشير إلى قيامه بهذه الخطوة هو ما ورد من أنّه سيعمد إلى الجلوس مع أهل الديانات ويحاجّهم بكتبهم التي يؤمنون بها، غايته أنه يملك النسخ غير المحرفة التي تثبت حقانيته وحقانية الدين الإسلامي، وفي ذلك رويَ عن الإمامِ الصادقِ عليه السلام أنَّه قال: "... فإنَّما سُمّيَ المهدي؛ لأنَّه يهدي لأمرٍ خفي، يستخرجُ التوراةَ وسائرَ كُتُبِ الله من غارٍ بأنطاكية، فيحكمُ بينَ أهلِ التوراةِ بالتوراة، وبينَ أهلِ الإنجيل بالإنجيل، وبينَ أهلِ الزبورِ بالزبور، وبينَ أهلِ الفرقانِ بالفرقان..."[٣٤].

هذا فضلًا عن إظهار بعض الكرامات والقدرات لديه ولدى أتباعه أمام الآخرين، علّه ينفع في هدايتهم، وهو أمرٌ يشير إلى تعدد الطرق التي يستعملها عليه السلام من أجل هداية الناس مهما كان توجههم، ومن ذلك ما روي من أنه عليه السلام يرسل جنودًا إلى القسطنطينية (إسطنبول حاليًا) يمشون على الماء، مما يُسبب في فتح المدينة سلمًا ومن دون قتال، فقد روي عن الإمامِ الباقرِ عليه السلام قال: "إِذَا قَامَ الْقَائِمُ بَعَثَ فِي أَقَالِيمِ الْأَرْضِ فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ رَجُلًا، يَقُولُ: عَهْدُكَ فِي كَفِّكَ، فَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ لَا تَفْهَمُهُ وَلَا تَعْرِفُ الْقَضَاءَ فِيهِ فَانْظُرْ إِلَى كَفِّكَ وَاعْمَلْ بِمَا فِيهَا".

قَالَ: "وَيَبْعَثُ جُنْدًا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَإِذَا بَلَغُوا الْخَلِيجَ كَتَبُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ شَيْئًا وَمَشَوْا عَلَى الْمَاءِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمُ الرُّومُ يَمْشُونَ عَلَى الْمَاءِ قَالُوا: هَؤُلَاءِ أَصْحَابُهُ يَمْشُونَ عَلَى الْمَاءِ، فَكَيْفَ هُوَ؟ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَفْتَحُونَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْمَدِينَةِ، فَيَدْخُلُونَهَا، فَيَحْكُمُونَ فِيهَا مَا يُرِيدُونَ"[٣٥].

أضف إلى هذا كلّه، نزول النبي عيسى عليه السلام وصلاته خلفه عجل الله فرجه كما اتفقت عليه النصوص الخاصة والعامة، فإنّ له أثرًا في هداية جمع كبير من المسيحيين، حيث يرون نبيهم يأتم بالإمام المهدي عجل الله فرجه ويدعو إليه، فقد روي عن رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله أنَّه قال: "... المهدي الذي يملؤها قسطًا وعدلًا كما مُلِئَت جورًا وظلمًا، والذي بعثني بالحقِّ نبيًّا، لو لم يبقَ من الدنيا إلَّا يوم واحد، لطوَّل الله ذلك اليوم، حتَّى يخرج فيه ولدي المهدي، فينزل روح الله

عيسى بن مريم فيُصلّي خلفه، وتشرق الأرض بنوره، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب"[٣٦].

أمّا إذا لم تنفع معهم هذه الطرق - وغيرها مما لم نذكره هنا أو لم يصل إلينا في النصوص - فيُحتمل أمران - تبعًا للنصوص في هذا المجال؛ إذ إنّها مختلفة - وهما:

الأمر الأول:

أنْ يُسمح لهم بالبقاء على أديانهم ومذاهبهم، ويتعامل معهم معاملة أهل الجزية، فيبقون تحت ولاية الدولة المهدوية، ولكن لا يُسمح لهم بإظهار أي مظاهر مخالفة لنظام الدولة التشريعي، ولعلّ ممّا يدلُّ على ذلك ما رويَ عن رسولِ الله ﷺ: "من أبغضنا أهلَ البيتِ بعثه اللهُ يهوديًا، قيل: يا رسولَ الله، وإنْ شهدَ الشهادتين؟ قالَ: نعم، إنّما احتجبَ بهاتين الكلمتينِ عن سفكِ دمه، أو يؤدّي الجزيةَ وهو صاغر، ثم قالَ: من أبغضنا أهلَ البيت بعثه اللهُ يهوديًا. قيل: وكيفَ يا رسولَ الله؟ قال: إنْ أدركَ الدجّالَ آمنَ به" [٣٧].

وقد أشارت بعض النصوص إلى أنّه يُخرجهم إلى مناطق خاصة بهم، ولعلّه لأجل ألّا يؤدي اختلاطهم بسائر المؤمنين بتشكيكهم أو اختلاط الحق عليهم، فقد روي عن سَلَّامِ بْنِ الْمُسْتَنِيرِ قَالَ: "سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يُحَدِّثُ: إِذَا قَامَ الْقَائِمُ عَرَضَ الإِيمَانَ عَلَى كُلِّ نَاصِبٍ، فَإِنْ دَخَلَ فِيه بِحَقِيقَةٍ، وإِلَّا ضَرَبَ عُنُقَه أَوْ يُؤَدِّيَ الْجِزْيَةَ [٣٨]، كَمَا يُؤَدِّيهَا الْيَوْمَ أَهْلُ الذِّمَّةِ، وَيَشُدُّ عَلَى وَسَطِهِ الْهِمْيَانَ، ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الأَمْصَارِ إِلَى السَّوَادِ" [٣٩].

الأمر الثاني:

ألّا يسمح لأيّ أحدٍ إلّا بأنْ يعتنق الإسلام، ومذهب الحق؛ لأنّه بعد اكتمال الحجة، وإثبات الحق بالدليل القطعي، وإظهار الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الكرامات المتنوعة التي لا تُبقي لمعتذر عذرًا، فلا مجال للإنكار ولا للمخالفة، ومن يخالف يجري عليه حكم الشريعة المناسب.

فقد رويَ في شأنِ النبي عيسى عليه السلام ما يدلُّ على أنّه عليه السلام يحملُ الناسَ على الإسلامِ ولا يقبلُ منهم الجزية، فقد رويَ عن رسولِ الله ﷺ: "ويكونُ عيسى في أمّتي حكمًا عدلًا، وإمامًا مُقسطًا، ويدقُّ الصليب[٤٠]، ويقتل الخنزير[٤١]، ويضع الجزية... "[٤٢].

أي: يحملُ الناس على دينِ الإسلام، فلا يبقى ذِمّي تجري عليه الجزية [٤٣].

وقال العلّامة المجلسي (قدس سره) في ذيل هذه الرواية: وقوله (ويضع الجزية) معناه أنّه يضعها من أهل الكتاب، ويحملهم على الاسلام، فقد روى أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله في نزول عيسى عليه السلام: "ويهلك في زمانه الملل كلّها إلا الإسلام، ويهلك الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون... "(٤٤).

وتخصيص النبي عيسى عليه السلام بالذكر لأجل تواتر النصوص بنزوله مع الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وصلاته خلفه، ولكثرة أتباعه اليوم، فيكون دوره مهمًا في هداية الناس إلى الحق.

وممّا يدلُّ أيضًا على أنّه عجل الله تعالى فرجه الشريف لا يقبلُ الجزيةَ منهم هو ما رويَ عن أميرِ المؤمنين أنّه قال: "فإنَّ اللهَ (تبارك وتعالى) لن يذهبَ بالدُنيا حتى يقوم مِنّا القائم، يقتلُ مُبغضينا، ولا يقبلُ الجزية، ويكسرُ الصليبَ والأصنام، ويضعُ الحرب أوزارها، ويدعو إلى أخذِ المالِ فيقسمه بالسوية، ويعدلُ في الرعية"(٤٥).

ومنه: ما رويَ عن أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام: "ولا تبقى أرضٌ إلا نوديَ فيها شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وهو قوله: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾(٤٦)، ولا يقبلُ صاحبُ هذا الأمر الجزيةَ كما قبلَها رسولُ الله صلى الله عليه وآله، وهو قولُ الله: ﴿**وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله**﴾(٤٧)، قالَ أبو جعفر عليه السلام: يُقاتلون والله حتى يوحَّد اللهُ ولا يُشرَك به شيئًا، وحتى تخرج العجوزُ الضعيفةُ من المشرقِ تُريدُ المغربَ ولا ينهاها أحد، ويخرجُ اللهُ من الأرضِ بذرها، وينزلُ من السماءِ قطرها... "(٤٨).

فهذه الرواياتُ واضحةٌ في أنَّ الإمامَ المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سيحملُ الجميعَ على أنْ يكونوا مسلمين، ولن يقبلَ منهم غيره، وذلك لكمالِ الحُجّةِ ووضوحِها عليهم، فلا يبقى أحدٌ معارضًا للإسلامِ إلّا المُعاند والمُلحد، وهو بلا ريب سيكونُ مُحاربًا للإمامِ ومُعترضًا عليه، فلا سبيلَ له إلا الإسلام أو القتل.

الجمعُ بينَ الروايات:

لاحظنا أنَّ الرواياتِ بعضَها يُشيرُ إلى قبولِ الإمامِ المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف الجزيةَ من أهلِ الكتاب، وبعضها يقولُ بأنّه لا يقبلُ الجزية ويحملهم على الإسلام رغمًا عنهم، فما وجهُ الجمعِ بينَ

هـذه الروايـات؟

الجواب:

يمكن ذكر وجهين:

الوجه الأول:

إنّـه ﷺ يقبـلُ الجزيـةَ مـن غـيرِ النواصـبِ ومـن غـيرِ الذيـن يقاتلونـه، وأمّـا النواصـبُ ومـن يرفـعُ السـلاحَ بوجهـه ﷺ فإنّـه لـن يقبـلَ منـه الجزيـة، وسـوف يُقاتلهـم أو يُسـلمون.

ولعـلَّ ممّـا يُشـيرُ إلى وجـهِ الجمـعِ هـذا هـو مـا رويَ عـن أبي بصـير عـن أبي عبـدِ الله عليه السلام قـال: قـال عليه السلام لي: "يـا أبـا محمـد، كأنّي أرى نـزولَ القائـمِ ﷺ في مسـجدِ السـهلةِ بأهلـه وعيالـه... قلـت: فـما يكـونُ مـن أهـلِ الذمّـةِ عنـده؟

قال عليه السلام: يُسالمُهم كما سالمهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله ويؤدّون الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون.

قلت: فمنْ نصبَ لكم العداوة؟

فقـال عليه السلام: "لا يـا أبـا محمـد، مـا لمـن خالفنـا فيـه في دولتِنـا مـن نصيـب، إنَّ اللهَ قـد أحـلَّ لنـا دماءهـم عنـد قيـامِ قائمنـا، فاليـوم مُحـرّمٌ علينـا وعليكـم ذلـك، فـلا يغرنّـك أحـد، إذا قـامَ قائمُنـا انتقـمَ للهِ ولرسـولِه ولنـا أجمعـين" (٤٩).

الوجه الثاني:

إنّـه في أوائـلِ زمانِـه عليه السلام يقبـلُ الجزيـة، وبعـدَ أنْ تسـتتبَّ لـه الأمـورُ وتتضـحَ الحُجّـةُ ويبـينَ الحـقُّ بنحـوِ القطـعِ واليقـين، فإنّـه لا يقبـلُ منهـم إلا الإيـمانَ أو القتـل.

وإليـه الإشـارةُ مـن المازنـدراني في شرحـه لروايـةِ سـلام بـن المسـتنير المتقدمـة، حيـث قـالَ في شرحهـا:

والمُـرادُ بحقيقـةِ الإيـمان: الإيـمانُ الخالـص، وبالناصـبِ: غـير الإماميـة مـن فـرق الإسـلام، وفي هـذا الخـبرِ دلالـةٌ عـلى أنّـه عليه السلام يقبـلُ الجزيـةَ منهـم إنْ لم يؤمِنـوا إيمانًـا خالصًـا، إلاّ أنّـه ضعيـفٌ، وعـلى تقديـرِ العمـلِ بـه، فلعـلَّ الجمـعَ بينـه وبـينَ مـا رويَ مـن أنّـه يضـعُ الجزيـةَ عنـدَ ظهـوره أنّـه يضعُهـا عـن أهـلِ الكتـابِ - فإنّهـم حينئـذٍ بمنزلـةِ الحـربي- لا يرفـعُ عنهـم السـيفَ حتـى يؤمنـوا أو يُقتلـوا. واللهُ أعلـم.(٥٠)

وعلى كلّ حال، فبعد الاعتقاد بعصمة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف لا يبقى شكٌّ في أنّه يتعامل مع الجميع وفق مقتضيات الحق والمصلحة العامة، وبما يُرضي الباري (جلّ وعلا)، وبما يرجع بالسعادة إلى الجميع، ومن ثم تحقيق الحياة الطيّبة على الأرض.

البحث الثاني: من مفردات الحياة الطيّبة في ظل الدولة المهدوية:

كل من يتابع التراث الديني في ما يتعلق بدولة العدل الإلهي، يجد أنّه قد خصّص قدرًا معتدًا به من النصوص لبيان ما سيكون في تلك الدولة، من خيراتٍ وبركاتٍ وراحة بالٍ وحياةٍ طيّبة، وهو أمر ليس بدعًا من طريقة الشريعة في تحفيز الأتباع على الالتزام بالدين وعلى العمل لأجل الوصول بالمجتمع إلى درجة من المقبولية لدى الخالق (جلّ وعلا)، ولذا نجد أنّ هناك كمًا كبيرًا من الآيات الكريمة قد نصّت على ما لا أذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر من النعيم في جنة الخلد، والآيات وإنْ ذكرت إلى جنب ذلك العذاب وما سيواجهه المذنبون من آلام ومخاطر، إلا أنّها لم تغفل أبدًا التركيز كثيرًا على ذكر النعيم المقيم، على مستوى نعيم البدن، وعلى مستوى نعيم الروح.

الأمر ذاته هو ما وجّهت النصوص الدينية مقدارًا مهمًا من اهتمامها نحوه فيما يتعلّق بدولة العدل الإلهي، ففي الوقت الذي ذكرت أنه عليه السلام سيكون شديدًا مع المنحرفين بعد أنْ يفتح لهم باب التوبة، ويعمل على هدايتهم بمختف الطرق، وإنْ كانت هي طريقة (ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم)؛ ولذلك يجلس مع أهل الديانات ليناقشهم بمحتوى كتبهم، كما ورد هذا المعنى في بيان تسميته عجل الله تعالى فرجه الشريف بالمهدي، إذ روي عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: "... فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، فإنّما سُمّي المهدي؛ لأنّه يهدي لأمرٍ خفي، يستخرج التوراة وسائر كتب الله من غار بأنطاكية، فيحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل الفرقان بالفرقان..."[٥١].

أو كانت بمستوى إظهار الكرامات التي لا يمكن لغير المعصوم أنْ يأتي بها، كما ورد هذا المعنى في ما يفعله الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف مع الحسني أمام جيشه الجرار، ففي رواية: "ويلحقه الحسني في اثني عشر ألفًا، فيقول له: أنا أحقُّ منك بهذا الأمر، فيقول له: هات علامة،

هـات دلالـة، فيومـئ إلى الطـير فيسـقط عـلى كتفـه، ويغـرس القضيـب الـذي بيـده فيخضـرّ ويعشوشـب، فيُسـلِّم إليـه الحسـني الجيـش، ويكـون الحسـني عـلى مقدمتـه..."[٥٢].

عـلى كلّ حـال، فـإنّ الإمـام عليه السلام في الوقـت الـذي يكـون شـديدًا في هـذا الجانـب، فإنّـه أيضًـا سـيعمل عـلى أنْ يجعـل النـاس يعيشـون حيـاةً مسـتقرةً مطمئنـةً هادئـةً دافئـةً خاليـةً مـن المشـاكل والأمـراض والفقـر والجهـل، حيـاة ملؤهـا العنفـوان والطيـب والـرزق والعطـاء والتعـاون، هـي - كـما أسـلفنا - جنـة أرضيـة.

والمفـردات التـي تـدل عـلى هـذه الحقيقـة كثـيرة جـدًا، لكـن سـنختار بعـض العنوانـات المتعلقـة بهـا، كنـماذج تحكيهـا بـكل وضـوح، ضمـن المفـردات الآتيـة:

المفردة الأولى: مكافحة الجبابرة وإماتة الظلم.

يقـضُّ مضاجـعَ كثـيرٍ مـن النـاس - اليـوم وأمـس - وجـودُ المتسـلّطين عـلى رقابهـم، أو عـلى مصـادر أرزاقهـم، فالظلمـة - كانـوا ومـا زالـوا - يعملـون عـلى إشـغال شـعوبهم بـما يجعلهـم يفقـدون التركيـز عـلى متابعـة ظلـم الظلمـة، وبـما يجعلهـم منشـغلين بتوفـير مـا يسـدّ رمقهـم، ولا يهمهـم بعـد ذلـك مـن تسـلط عليهـم أو كيـف تسـلط عليهـم، وشـعار الظلمـة في ذلـك: (جـوّع كلبـك يتبعـك)[٥٣]!

لقـد اتبـع الظلمـة عـلى طـول خـط التاريـخ أسـاليب متنوعـة لذلـك، منهـا مـا تقـدم، ومنهـا التنظـير إلى نظريـات معينـة وتسـويقها عـلى أنّهـا هـي الحـق، والتـي تكـون نتيجتهـا ضرورة الرضـوخ لحكـم الظـالم مهـما كان، بـل وتبريـر ظلمـه بمقـولات تنسـب إلى الديـن، وعـلى كلّ حـال، فقـد تعـدّدت أسـاليب الظلمـة في تبريـر ظلمهـم، وتمريـره عـلى النـاس، وإرغامهـم عـلى القبـول بـه، ولـذا بقيـت الأرض تئـنّ مـن ظلمهـم، ومـا زال عـدد المظلومـين في ازديـاد، ومـا زالـت القـوى الكـبرى تتحكـم بمصائـر الشـعوب.

ذلـك كلّـه ليـس أبديًـا، وليـس خالـدًا، فـإنّ الوعـد الإلهـي صرّح مـذ بدايـة الإسـلام ﴿**كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[٥٤]. غايتـه أنّـه يكـون في الوقـت المناسـب حسـب العلـم والحكمـة الإلهيـة، وهـو مـا يكـون عـلى يـدي المنقـذ الإمـام المهـدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، والنصـوص الدالـة عـلى ذلـك كثـيرة جـدًا، ومنهـا النصـوص المتواتـرة لـدى الفريقـين مـن أنّـه يمـلأ الأرض

قسطًا وعدلًا بعدما ملئت ظلمًا وجورًا، ومنها النصوص الخاصة الدالة على ذلك ومنها ما روي عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا كان عند خروج القائم، ينادي منادٍ من السماء: أيّها الناس، قُطع عنكم مدة الجبارين، وولي الأمر خير أمة محمد ﷺ، فالحقوا بمكة..."(٥٥)

وواحدٌ من أفراد الظلمة والجبابرة ممن سيقضي عليهم الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه هو الشيطان، إذ روي عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمّار، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، قال له وهب: جُعلت فداك، أيّ يوم هو؟ قال: "يا وهب، أتحسب أنّه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إنَّ الله أنظره إلى يوم يُبعَث فيه قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة، وجاء إبليس حتَّى يجثو بين يديه على ركبتيه، فيقول: يا ويله من هذا اليوم، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك يوم الوقت المعلوم"(٥٦).

ويمكن أنْ يكون بمعنى القتل الحقيقي، ويمكن أنْ يكون بمعنى قتل الجذور التي يُحرِّكها إبليس في داخل الإنسان، فينتفي الحافز لاتّباع خطواته. وهذا ما يُفسِّر لنا وصول المجتمع الإنساني عمومًا إلى مرحلة عالية من العبادة والإخلاص في العمل لله تعالى.

وصرحت بعض النصوص بأنّ الظلم سينعدم تمامًا زمن ظهوره عليه السلام، فقد روى القندوزي في ينابيعه في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾(٥٧) عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام قال: "هذه الآية نزلت في المهدي وأصحابه، يملّكُهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ويُظهر الله بهم الدين، حتى لا يُرى أثر من الظلم والبدع"(٥٨).

وعلى كلّ حال، فهذا الأمر من الوضوح بمكان، فلا نحتاج إلى الإطالة بذكر النصوص الدالة عليه.

المفردة الثانية: عموم الأمن:

إنّ زوال الظلم والجبابرة، وهيمنة المعصوم على دفة الحكم، ووجود القادة والجنود المخلصين في دولته، يلازم تحقق مفهوم آخر، وهو الأمن، ووضع الشيء في موضعه، وعدم

أخذ شيء إلّا بحق، وعدم الخوف من أي ظالم.

العدل والأمن زمن الظهور سيشمل الجميع بلا استثناء، فأمن الطرق متوفر، وأمن المرأة على نفسها موجود، وهكذا في كلّ مناحي الحياة.

والأمر المثير للتعجب، أنّ الأمن الذي سيكون زمن الظهور لا يختص بالبشر، وإنّما يعم حتى الحيوانات، وهو ما ذكرته النصوص - الخاصة والعامة - بوضوح.

عن أميرِ المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "...ولو قد قامَ قائمُنا لأنزلتِ السماءُ قطرها، ولأخرجتِ الأرضُ نباتها، ولذهبَ الشحناءُ من قلوبِ العباد، واصطلحتِ السباعُ والبهائمُ، حتى تمشي المرأةُ بينَ العراقِ إلى الشام لا تضعُ قدميها إلا على النبات، وعلى رأسِها زينتها (زنبيلها) لا يُهيجها سبعٌ ولا تخافه".[٥٩]

وعن ابن عباس في قوله (تعالى): ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٦٠] قال: "لا يكونُ ذلك حتى لا يبقى يهوديٌ ولا نصرانيٌ ولا صاحبُ ملّةٍ إلا دخلَ في الإسلامِ، حتى أمنَ الشاةُ والذئبُ والبقرةُ والأسدُ والإنسانُ والحيةُ، وحتى لا تقرض فأرةٌ جرابًا..."[٦١]

وفي سفرِ إشعيا جاء: "...إِنَّمَا يَقْضِي بِعَدْلٍ لِلْمَسَاكِينِ، وَيَحْكُمُ بِالإِنْصَافِ لِبَائِسِي الأَرْضِ، وَيُعَاقِبُ الأَرْضَ بِقَضِيبِ فَمِهِ، وَيُمِيتُ الْمُنَافِقَ بِنَفْخَةِ شَفَتَيْهِ، لأَنَّهُ سَيَرْتَدِي الْبِرَّ، وَيَتَمَنْطَقُ بِالأَمَانَةِ، فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْحَمَلِ، وَيَرْبِضُ النِّمْرُ إِلَى جِوَارِ الْجَدْيِ، وَيَتَآلَفُ الْعِجْلُ وَالأَسَدُ وَكُلُّ حَيَوَانٍ مَعْلُوفٍ مَعًا، وَيَسُوقُهَا جَمِيعًا صَبِيٌّ صَغِيرٌ، تَرْعَى الْبَقَرَةُ وَالدُّبُّ مَعًا، وَيَرْبِضُ أَوْلاَدُهُمَا مُتَجَاوِرِينَ، وَيَأْكُلُ الأَسَدُ التِّبْنَ كَالثَّوْرِ، وَيَلْعَبُ الرَّضِيعُ فِي (أَمَانٍ) عِنْدَ جُحْرِ الصِّلِّ، وَيَمُدُّ الفَطِيمُ يَدَهُ إِلَى وَكْرِ الأَفْعَى (فَلاَ يُصِيبُهُ سُوءٌ)..."[٦٢]

إنّ هذا المعنى (فيما يخص اصطلاح الحيوانات المفترسة مع فرائسها) في الوقت الذي يمكن أنْ يكون بالمعجزة، يُمكن حمله على تطور وسائل ترويضها، بحيث لا تتجاوز على بقية الحيوانات، وحقيقة الحال فيها عند الظهور تنكشف، أدركنا الله وإياكم به.

وعلى كلّ حال، فهذا أمرٌ من شأنه أنْ يضيف دفئًا للحياة وإحساسًا بالطمأنينة، وشعورًا بالرضا، مما يجعل منها لوحةً خضراء لا تجد فيها النفس إلا ما يسرّها.

المفردة الثالثة: تنمية العلم والثقافة:

لا تجد حضارةً تريد أنْ تتربع على عرش القلوب وكرسي الحكم ما لم تكن مستندةً إلى العلم والمعرفة، فالأمة لا تنمو مع الجهل، والحياة لا تستمر معه، إنّما هو العلم، مصباح يكشف الظلمات، وبه تتطور الحياة، وهو أمرٌ بديهي وجداني، ومن ثم فإنّ السعادة لا تكون مع الجهل، ولا مع التخلف، وأيّ حضارةٍ ترنو إلى إضفاء السعادة على حياة أتباعها لا بدّ لها من العلم والمعرفة، مشفوعةً بالعمل على وفق المناهج المعرفية المطروحة.

نعم، هذا لا يعني الخلود لأيّ حضارةٍ قامت على العلم والمعرفة، ما لم يكن ذلك مصحوبًا بالإيمان بالله تعالى، هكذا كانت سُنّة الله تعالى في هذه الدنيا؛ ولذا ذكر القرآن الكريم حضاراتٍ كبيرةً طُمست وأُهلكت؛ لأنّها لم تكن مؤمنةً بالله تعالى، كقوم عاد، وأصحاب الأيكة، وغيرهم، ولسنا في صدد بيان ذلك، إنّما هي إشارة سريعة.

وعلى كل حال، فإنّ الدولة المهدوية ليست دولةً متخلفة، ولا دولة تقف بالضد من العلم، بل إنّها دولة العلم، إلى جانب العمل، وهما - أعني العلم والعمل- ركنا التطور ومركب الحضارة وسلم النجاح، والنصوص الدالة على هذه الحقيقة أكثر من أنْ تُحصى، إلّا أنّه سيُركَّز هنا على تبويبها منهجيًا حسب ما يسمح به البحث.

إنّ النصوص المستقبلية تحكي لنا تطورًا هائلًا في العلوم والمعارف، على وفق منهجيةٍ منطقيةٍ علميةٍ وغيبية، يترأس إدارتها الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويمكن تنقيط تلك المنهجية بالآتي:

أولًا: ترؤس الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف عملية التطوير الذهني والمعرفي:

وتسنمه هذا الموقع من شأنه أنْ يأتي بأفضل الطرق في سبيل تحقيق ذلك؛ لأنّه الإمام المعصوم، وصاحب العلم اللدني، فلا ريب في إتيانه بما هو الأفضل مطلقًا في تحقيق هذا الأمر.

وفي ذلك روي عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: "إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ اللهُ يَدَه عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ، فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ، وكَمَلَتْ بِه أَحْلَامُهُمْ" (٦٣).

هذا التعبير واضح في أن الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف سيكون على رأس العمل العلمي والأخلاقي في دولته المباركة، ومن ثَمّ سيعمل على جمع العقل وإكمال الأحلام والأفهام، بما سيمهد لنشر

العلم والمعرفة بطريقة لم يسبق لها نظير.

ترؤس الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف عملية التطوير الذهني، سيؤدي إلى الانفتاح العلمي الهائل الذي لم يسبق له نظير، بحيث يكون كلّ ما وصل إليه العلم إلى يومنا هذا - الذي نرى فيه قفزات مهولة وآخرها الذكاء الاصطناعي- جزءًا يسيرًا ممّا سيأتي به عليه السلام، وهو ما ورد صريحًا فيما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "العلم سبعة وعشرون حرفًا، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف أخرج الخمسة والعشرين حرفًا، فبثّها في الناس، وضمّ إليها الحرفين، حتى يبثّها سبعة وعشرين حرفًا" (٦٤).

وهذا سيؤدي إلى الوصول بالعلم والمعرفة إلى غايتها وآخرها ونهايتها، فصحيح أنّ العلوم كثيرة جدًا، إلّا أنّ الإنسان لما كان متناهيًا، وله قدرات محدودة وقابليات لها سقف تنتهي إليه، فالعلوم التي يتمكن من إدراكها أيضًا تكون محدودةً بحدود تلك السُقف والقابليات، والوصول بالمعلوم والمعارف إلى غايتها القصوى الممكنة للبشر لا يكون إلا على يدي الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهذا يعني أنّ العلم والمعرفة التي ستصل إليها البشرية زمن ظهوره عجل الله تعالى فرجه الشريف هي أقصى وآخر محطة يمكن أنْ تحصل في الدنيا، وهو ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه من أنّ الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سيختم كل العلوم التي سيفتحها هو عليه السلام، فقد روي عنه عليه السلام أنّه قال لكميل بن زياد: "يا كميل ما من علم إلّا وأنا أفتحه، وما من سرٍّ إلّا والقائم عجل الله تعالى فرجه الشريف يختمه"(٦٥).

وكلّ ذلك سيؤدي إلى الوصول بالمجتمع إلى الرقي العلمي، الأمر الذي عبّرت عنه بعض النصوص بإتيان الناس الحكمة، بنحوٍ أنّ المعارف تصل مبلغًا يجعل المرأة تحكم بكتاب الله تعالى، وهذا التعبير يشير إلى نمو المعرفة - خصوصًا الدينية منها - لدى مختلف طبقات المجتمع، فقد روي عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: "... وَتُؤْتَوْنَ الْحِكْمَةَ فِي زَمَانِهِ، حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَقْضِي فِي بَيْتِهَا بِكِتَابِ الله تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله"(٦٦).

ثانيًا: تطوّر الإدراك لدى المؤمنين:

يتطوّر الإدراك عند المؤمنين بنحو تكون عندهم القدرة على رؤية ما وراء المادة، وبيانه:

نحن مقيّدون بعالم المادة وأحكامه، فلا نرى إلا بشروط، ولا نرى إلّا المادي، بل لا

نـرى كلّ مـادي، وإنّـما نـرى مـا يُمكـن للعينـين أنْ تلتقطـه؛ ولذلـك احتجنـا إلى المجاهـر - عـلى اختلافهـا - لرؤيـة الماديـات الصغـيرة والدقيقـة.

نحـن لا نـرى إلّا الماديـات؛ ولـذا لا نتمكـن مـن رؤيـة الملائكـة، رغـم تواجدهـا بيننـا، خصوصًـا في أوقـات وأماكـن العبـادة، وبعيـدًا عـن تفصيـل أسـباب ذلـك، فـإنّ القـدر المتيقـن منهـا هـو أنّ مـدارك عمـوم البـشر لم تصـل إلى مسـتوى خـرق حجـاب المـادة وتجـاوزه وصـولًا إلى إدراك المعنويـات والمجـردات، رغـم وجـود القابليـات عـلى ذلـك، إلا أنّ هنـاك موانـع عديـدة تمنـع مـن ذلـك، منهـا الذنـوب، ومنهـا عـدم التوفـر عـلى الطـرق المناسـبة لتجـاوز حـدود المـادة.

الرسـل كانـوا يـرون الملائكـة، وربـما رآهـم بعـض الأوليـاء، ولا نريـد ذكـر الشـواهد عـلى ذلـك؛ لأنّهـا ليسـت محـل البحـث، المهـم أنْ نشـير إلى بعـض النصـوص تـصرح بـأنّ مـدارك المؤمنـين سـتتطور زمـن الظهـور المبـارك، بحيـث يتمكنـون مـن التواصـل المبـاشر مـع الملائكـة، وبحيـث يصبحـون بمقـام يأمـرون الملائكـة في قضـاء حوائجهـم، ولا غرابـة، فـإنّ إمامهـم هـو المهـدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وهـو الـذي سـيكمل عقولهـم وأحلامهـم.

وتواجـد الملائكـة لخدمـة المؤمنـين لا شـك في أنّـه يدخـل في سـياق توفـير الحيـاة الطيّبـة للمؤمنـين، وأيّ حيـاة!

إنّها حيث تكون الملائكة مستعدةً لقضاء أي حاجة يريدها المؤمن.

رويَ عـن أبي الحسـن الرضـا عليه السلام قـال: "إذا قـامَ القائـم، يأمـرُ اللهُ الملائكـةَ بالسـلامِ عـلى المؤمنـين، والجلـوسِ معهـم في مجالسـهم، فـإذا أرادَ واحـدٌ حاجـةً أرسـلَ القائـمَ مـن بعـضِ الملائكـةِ أنْ يحملـه، فيحملـه الملـكُ حتـى يـأتيَ القائـم، فيقـضي حاجتـه، ثـم يـرده. ومـن المؤمنـين مـن يسـيرُ في السـحاب، ومنهـم مـن يطـيرُ مـع الملائكـة، ومنهـم مـن يمـشي مـع الملائكـة مشـيًا، ومنهـم مـن يسـبقُ الملائكـة، ومنهـم مـن تتحاكـمُ الملائكـةُ إليـه، والمؤمنـون أكـرمُ عـلى اللهِ مـن الملائكـة، ومنهـم مـن يُصـيّرُه القائـمُ قاضيًـا بـين مائـةِ ألـفٍ مـن الملائكـة"[٦٧].

ثالثًا: تطور الصناعات:

إنّ عصـب الحيـاة المدنيـة هـي الصناعـة، وتقديـم ابتـكارات جديـدة مـؤشر لنجاحهـا، وتسـهيل عقبـات الحيـاة مـن خـلال الآلـة أضحـى اليـوم هدفًـا يسـعى إليـه الجميـع، بحيـث أصبـح مقيـاس

الرقي والتقدم هو تقدم الصناعة وتنوع الابتكارات.

الدولة المهدوية لن تغفل هذا الجانب، وستقدم الصناعة أفضل ما يمكن تقديمه من أجل تسهيل حياة الناس والانتقال بها إلى حياة اليسر والنعمة والرفاهية، وهو أمر قد حكته النصوص بمختلف التعبيرات.

وقبل أنْ نذكر بعض النصوص نشير إلى قضيةٍ مهمةٍ في عموم مثل هذه الروايات، وهي:

أنّ فهم تلك النصوص يمكن أنْ يكون على أحد نحوين:

الأول: الفهم الحرفي لها، وذلك بأنْ نحمل الألفاظ الواردة فيها على معانيها التي وضعت لها، من دون حملها على الكنايات أو المجاز وما ناظر هذه الأساليب البلاغية.

وحينئذٍ، إنْ أمكن فهم معانيها بما يتلاءم مع القانون الطبيعي للحياة، أخذنا به، وإلا فنحملها على المعجزة.

الثاني: أنْ نفهم الكناية من تلك النصوص، وأنّ المقصود الجدّي للمعصوم حينما ذكر تلك الألفاظ هي الإشارة إلى التطور الصناعي الهائل، غايته أنّ الناس في زمن صدور النصّ لم يكن بوسعهم فهم التطور الهائل؛ ولذا استعمل المعصوم الألفاظ التي يفهمون معانيها، ولكنّه كان يقصد معاني متناسبةً مع التطور

وسيتبين معنى هذين النحويين عند عرض بعض النصوص في ذلك.

وعلى كلّ حال فالنصوص الدالة على تطور الصناعة وما يلحق بها كثيرة، نختار منها عنوانين:

الأول: ديمومة النور والضياء، بحيث يُستغنى عن ضوء الشمس.

فقد روي عن المفضل بن عمر الجعفي، قال: "سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربّها، واستغنى العباد عن ضوء الشمس، وصار الليل والنهار واحدًا، وذهبت الظلمة... "[٦٨].

يُمكن أنْ نفهم المعنى الحقيقي لألفاظ هذه الرواية، ويكون المعنى أنّ الله تعالى بقدرته التكوينية المطلقة، يذهب بالظلمة، ويُبقي النور مستمرًا، إلا أن الراجح هو حملها على معنى آخر متناسب مع التطور العلمي والصناعي، وهو: أنْ تتطور شبكات الكهرباء

-أو طاقة أخرى ستُكتشف في وقتها- بحيث تستمر الإضاءة ليلًا، بحيث يستغني الناس عن الشمس؛ لأنّ الإضاءة قوية ومستمرة، وتعبير الرواية بأنّ العباد يستغنون عن ضوء الشمس لعله يؤيد هذا المعنى.

الثاني: تطوّر وسائل التواصل:

نشهد اليوم قفزات علمية هائلة في شبكات الاتصال والتواصل، إذ أضحى العالم كقرية صغيرة، يمكن أنْ تزور وتطلع على أيّ جزء منها بنقرة على شاشة بين يديك، وما زال التسابق مستمرًا لتقديم ابتكارات جديدة في هذا الشأن.

النصوص تشير إلى تطوّرٍ كبيرٍ في التواصل زمن الظهور، ما ورد فيها يُمكن فهمه بكلّ يسر بعد أنْ رأينا التطور العلمي الهائل في التواصل والاتصال؛ ولذا لا يتعب الفكر كثيرًا في إمكان حملها على القانون الطبيعي لا الإعجاز الخارج عن قدرات البشر، نعم، هذا لا يعني أنْ ما يأتي به ﷺ مشابهٌ للموجود في عصرنا، وإنّما لا شك في أنّه سيكون أرقى بكثير، خصوصًا إذا تذكرنا رواية تقدم العلوم والإتيان بأجزاء العلم كلّها وبثّها بين الناس.

عن أبي عبدِ الله ﷺ أنّه قال: "إنَّ قائمَنا إذا قامَ مدَّ اللهُ لشيعتِنا في أسماعِهم وأبصارِهم، حتى يكونَ بينهم وبينَ القائمِ بريد، يُكلِّمُهم ويسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه" (٦٩).

فهذه الروايةُ تقول: بأنّ المسافة بينَ المؤمنِ وبينَ الإمامِ ﷺ ستكونُ في زمنِ الظهور بمقدار (بريد) أي أربعة فراسخ، أي ما يقربُ من (٢٠ كم)، ومع ذلك يسمعونَ الإمامَ وينظرونَ إليه، وربما يكون (البريد) مثالًا لا موضوعية له، فيكون المقصود هو سماع الإمام ورؤيته من مسافات بعيدة.

وفي روايةٍ أخرى إضافة (لا) قبل (يكون) أي هكذا: "حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الْقَائِمِ بَرِيدٌ، يُكَلِّمُهُمْ فَيَسْمَعُونَ ويَنْظُرُونَ إِلَيْه وهُوَ فِي مَكَانِه" (٧٠).

والمقصودُ حينئذٍ هو أنَّ التواصُلَ بينهم يكونُ من دونِ حاجةٍ إلى (بريد) أي رسول يتوسّطُ في نقلِ كلامِ بعضهم إلى بعضهم الآخر.

وروي عن أبي عبدِ الله ﷺ أنّه قال: "إنَّ المؤمنَ في زمانِ القائمِ وهو بالمشرقِ ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغربِ يرى أخاه الذي في المشرق" (٧١).

والروايةُ واضحةٌ في أنَّ بُعدَ المسافات لن يُشكِّلَ مانعًا من التواصُلِ المُباشرِ بينَ المؤمنين زمن الظهور المبارك.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: "إذا قامَ القائمُ بعثَ في أقاليمِ الأرضِ في كُلِّ إقليمٍ رجلًا يقول: عهدُك في كفّك، فإذا وردَ عليك أمرٌ لا تفهمه ولا تعرفُ القضاءَ فيه، فانظرْ إلى كفّك واعملْ بما فيها... "(٧٢).

فهذا النص يشير إلى وجود شيء عند المؤمن يجيبه عن كلّ سؤال يرد عليه، ولعله من خلال جهاز متطوّر، أو لعلّه بالمعجزة (إذا أبى أحدهم عن فهم الرواية بما يتناسب مع القانون الطبيعي).

المفردة الرابعة: الرفاهية الاقتصادية:

التدهور الاقتصادي، وعدم استقرار أسعار الصرف، وتذبذب القوة الشرائية للعملات، وعدم توفر وحدات سكن كافية للجميع، والديون، والفقر، وعدم وجدان الأساسيات فضلًا عن الكماليات، مشاكل كانت وما زالت تجثم على صدور كثير من بني البشر، وكابوس أرعب المستيقظين فضلًا عن النائمين، وفي الوقت ذاته، أضحت الرفاهية الاقتصادية حلمًا ورديًا يخدع الظلمة به مستضعفي بني آدم، حينما يرسمون لهم لوحات منها على ورق الخيال، وينسجون لهم قصورًا فارهة على قارعة الوهم، فحقنوهم من مصل الأوهام والخديعة ما جعلهم يفدون أنفسهم لأجلهم، فأضحوا كذاك الذي باع دنياه وآخرته بدنيا غيره!

الأمل لم ينقطع، والحلم لا بدّ أنْ يتحقّق، والرفاهية الاقتصادية وعد إلهي وعد به المنتظرين والمؤمنين يحقّقه لهم حال ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ليكون الاقتصاد أحد الجوانب التي سيوليها عليه السلام أهميةً قصوى، لينسى الناس آنذاك ما مرّوا به من زلازل اقتصادية، وليناموا على رغد العيش في ظلّ دولته المباركة، وليعيشوا حياةً طيّبةً لا تشبهها حياة دنيوية البتة.

وتحدثنا النصوص الدينية عن أنّ الرفاهية الاقتصادية ستكون على أعلى مستوياتها إبان الظهور المبارك، وأنّ تلك الرفاهية ستكون بمستوى ينتعش المجتمع من جميع النواحي،

وحتى تتضح الصورة نذكر الآتي:

أولًا: تدفق الخيرات التكوينية بين يدي الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف:

هناك خيراتٌ كامنةٌ في الأرض، وأخرى عالقةٌ في السماء، تنتظر اليوم الموعود لتنفض عنها تراب التاريخ، وتخرج لبني آدم فتكون في خدمتهم.

هناك ثرواتٌ هائلةٌ في باطن الأرض، وهناك أرض كانت وما زالت عطشى ترنو لقطرات السماء لتغيثها من الظمأ، وإذا أمطرت السماء، وخرجت كنوز الأرض، فإنّ أحد أهم ما يترتب على ذلك هو انتعاش الزراعة من جهة، وتوفر الموادّ الأولية للصناعات من جهة ثانية، وسيولة القوة الشرائية - بالبيع والشراء أو المقايضة أو أي طريقة أخرى - من جهةٍ ثالثة.

وتلك الأمور كلّها ستكون حاضرةً عند الظهور المقدّس، حيث صرّحت النصوص الخاصة والعامة بأنّ الأرض ستخرج كنوزها، وأنّ السماء ستنزل قطرها، لتنتعش الأرض ومن فيها ببركات ذلك.

فقد روي عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام يقول: "القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب... "(٧٣).

وعن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام: "وتظهر الأرض كنوزها حتى يراها الناس على وجهها، ويطلب الرجل منكم من يصله بماله ويأخذ منه زكاته فلا يجد أحدًا يقبل منه ذلك، استغنى الناس بما رزقهم الله من فضله" (٧٤).

ثانيًا: إعادة تقسيم الثروات:

في تقارير عالمية، أنّ الثروات محبوسةٌ تحت أيدي نسبة ضئيلة جدًا من البشر "وبحسب التقرير فإنّ أغنى ١ بالمئة في العالم يمتلكون ٤٦ بالمئة من جميع الأصول الخاصة، في حين أنّ أغنى ١٠ بالمئة يمتلكون ٨٢ بالمئة من الثروة العالمية"(٧٥).

ومن ثم، فإنّ الثروات لم توزع بطريقةٍ عادلةٍ على البشر، وقد عمل القانون الإسلامي على التكافل الاجتماعي بتشريعه النفقات الواجبة منها والمستحبة، حتى أنّ بعض النصوص

عدّت فقر الفقراء بسبب منع الأغنياء من إعطاء ما عليهم من حقوق، فقد روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: "إِنَّ اللهَ سُبْحَانَه فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِه [مَنَعَ. خ.ل] غَنِيٌّ، واللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ" (٧٦).

وروي عنه عليه السلام أنّه قال: "إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، وإن جاعوا وعروا وجهدوا فبمنع الأغنياء، وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه" (٧٧).

من هذا يُعلم أنّ أحد أسباب تفشي الفقر بين الناس هو انحصار الثروة بيد القلائل منهم، وعيش البقية منهم على فتات وكسرات خبزهم.

ولعلّه لأجل ذلك، تذكر بعض النصوص الروائية أنّ الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف عندما يظهر، فإنّه سيأخذ الأموال من الناس، وأنّه سيتعامل مع الظلمة والكفرة منهم ممن يعاند ويطغى بالقوة، بحيث يخرجه صاغرًا من أرضه وأملاكه، ومن تلك النصوص:

عن عمر بن يزيد قال: سمعتُ رجلًا من أهل الجبل يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن رجل اخذ أرضًا مواتًا تركها أهلها فعمرها وأكرى أنهارها وبنى فيها بيوتًا وغرس فيها نخلًا وشجرًا؟ قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: "كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: من أحيا أرضًا من المؤمنين فهي له، وعليه طسقها، يؤدّيه إلى الامام في حال الهدنة، فإذا ظهر القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف فليوطّن نفسه على أنْ تؤخذ منه" (٧٨).

والطسق: كلمة فارسية معربة، وتعني: خراج الأرض (٧٩).

والهدنة: الصلح والموادعة بين المسلمين والكفار وبين كل المتحاربين (٨٠).

والمقصود من زمان الهدنة في الرواية هو زمن ما قبل ظهوره عجل الله تعالى فرجه الشريف، بقرينة المقابلة بينه وبين زمن ظهوره عجل الله تعالى فرجه الشريف في ذيلها.

وعلى كلّ حال فالرواية واضحة في أمر المؤمنين بتوطين النفس على تسليم الأرض وما يملك للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وهذا - كما قلنا - يدخل تحت خطة إعادة تقسيم الثروات.

وفي نصٍّ آخر يبيّن أنّ الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سيتعامل في هذا الشأن مع فئتين من الناس:

فئة المؤمنين، وهؤلاء سيأخذ منهم خراج الأرض ويُبقي الأرض تحت أيديهم.

وفئة الكافرين، وهؤلاء سيُخرجهم من الأرض صاغرين.

وفي ذلك روي عَنْ عُمَرَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: رَأَيْتُ مِسْمَعًا بِالْمَدِينَةِ وقَدْ كَانَ حَمَلَ إِلَى أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام تِلْكَ السَّنَةَ مَالًا، فَرَدَّه أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام. فَقُلْتُ لَه: لِمَ رَدَّ عَلَيْكَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام الْمَالَ الَّذِي حَمَلْتَه إِلَيْه؟ قَالَ: فَقَالَ لِي: إِنِّي قُلْتُ لَه حِينَ حَمَلْتُ إِلَيْه الْمَالَ: إِنِّي كُنْتُ وُلِّيتُ الْبَحْرَيْنَ الْغَوْصَ، فَأَصَبْتُ أَرْبَعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وقَدْ جِئْتُكَ بِخُمُسِهَا بِثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وكَرِهْتُ أَنْ أَحْبِسَهَا عَنْك، وأَنْ أَعْرِضَ لَهَا وهِيَ حَقُّكَ الَّذِي جَعَلَه اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي أَمْوَالِنَا. فَقَالَ عليه السلام: "أَوَمَا لَنَا مِنَ الأَرْضِ ومَا أَخْرَجَ اللهُ مِنْهَا إِلَّا الْخُمُسُ يَا أَبَا سَيَّارٍ؟! إِنَّ الأَرْضَ كُلَّهَا لَنَا، فَمَا أَخْرَجَ اللهُ مِنْهَا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَنَا". فَقُلْتُ لَه: وأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ الْمَالَ كُلَّه. فَقَالَ عليه السلام: "يَا أَبَا سَيَّارٍ، قَدْ طَيَّبْنَاه لَكَ وأَحْلَلْنَاكَ مِنْه، فَضُمَّ إِلَيْكَ مَالَكَ، وكُلُّ مَا فِي أَيْدِي شِيعَتِنَا مِنَ الأَرْضِ فَهُمْ فِيه مُحَلَّلُونَ، حَتَّى يَقُومَ قَائِمُنَا فَيَجْبِيَهُمْ طَسْقَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، ويَتْرُكَ الأَرْضَ فِي أَيْدِيهِمْ، وأَمَّا مَا كَانَ فِي أَيْدِي غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ كَسْبَهُمْ مِنَ الأَرْضِ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَقُومَ قَائِمُنَا، فَيَأْخُذَ الأَرْضَ مِنْ أَيْدِيهِمْ ويُخْرِجَهُمْ صَغَرَةً" (٨١).

علمًا أننا في هذا البحث لسنا في مقام الفتوى ولا من أهلها، إنّما هو استنطاق للنصوص في هذه المفردة، وربما هناك طريقة معينة يستعملها الإمام عليه السلام في تقسيم الثروة غير ما يبدو لنا من النصوص، بحيث تكون النصوص كنايةً عن تقسيم الثروة بطريقةٍ أخرى، والله العالم.

إنْ قلت: أليس هذا ظلمًا، لا بدّ أنْ ننزّه المعصوم عنه؟

قلت: إنّ الجواب يكمن في السؤال نفسه، فما دام هو عليه السلام معصومًا، فلا ريب أنّ ما سيفعله موافق للأمر الإلهي، وهو موضع رضاه جلّ وعلا، ومن ثم لا بدّ أنْ يكون لحكمةٍ بالغة؛ لأنّه معصوم.

على أنّ الذي يبدو من النصوص أنّ هذه عملية - كما تبين من العنوان - هي إعادةٌ لتقسيم الثروات؛ ولذا تذكر النصوص أنّ الغنى سيملأ القلوب، وأنّ صاحب الزكاة لا يجد فقيرًا ليعطيه زكاة امواله، وأنّ الفقر سينعدم، وأنّ من يريد مالًا فإنّه سيجد الخزائن مفتحةً له ليأخذ منها بغير حساب، ضمن عملية ستتبين لاحقًا إن شاء الله.

ويبدو أنّ المقصود من هذه النصوص هو أنّ الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف سيفعل ذلك في بداية ظهوره

وقبل استقرار الدولة أمنيًا واقتصاديًا، وإلّا، فإنّه سيقوم بتوزيع الثروات على كلّ الناس، وهو ما سنذكره الآن.

ثالثًا: توزيع الثروات على الناس عمومًا:

بتتبع النصوص الواردة في هذا المضمار، يظهر أنّ الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف سيعمد إلى سياسة مالية لا نظير لها، ليوصل أفراد المجتمع جميعًا - ومن دون استثناء - إلى حالةٍ من الغنى، بحيث يستغنون معها عن الأموال، وهذه السياسة تتضمن:

١) توزيع مرتبات نصف شهرية.

٢) توزيع مرتبات نصف سنوية.

فقد روي عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: "كَأَنِّي بِدِينِكُمْ هَذَا لَا يَزَالُ مُتَخَضْخِضًا[٨٢]، يَفْحَصُ بِدَمِهِ[٨٣]، ثُمَّ لَا يَرُدُّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا رَجُلٌ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَيُعْطِيكُمْ فِي السَّنَةِ عَطَاءَيْنِ، وَيَرْزُقُكُمْ فِي الشَّهْرِ رِزْقَيْنِ، وَتُؤْتَوْنَ الْحِكْمَةَ فِي زَمَانِهِ، حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَقْضِي فِي بَيْتِهَا بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله"[٨٤].

٣) توزيع الأموال على الناس عمومًا بالسوية.

٤) فتح الخزائن لمن يريد مالًا ليأخذ كل ما يحتاج إليه.

فقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أبشركم بالمهدي، يبعث في أمتي على اختلاف من الناس، وزلزال، فيملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت جورًا وظلمًا، يرضى عنه ساكن السماء، وساكن الأرض، يقسم المال صحاحًا".

فقال له رجل: ما صحاحًا ؟

قال صلى الله عليه وآله: "بالسوية بين الناس".

قال صلى الله عليه وآله: "ويملأ الله قلوب أمة محمد غنىً، ويسعهم عدله، حتى يأمر مناديًا فينادي، فيقول: من له في المال حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلّا رجل واحد، فيقول: أنا، فيقال له: ائت السادن - يعني الخازن - فقل له: إنّ المهدي يأمرك أنْ تعطيني مالًا، فيقول له: احث. فيحثي، حتى إذا جعله في حجره وأبرزه في حجره ندم، فيقول: كنت أجشع أمة محمد نفسًا، أو عجز عني ما وسعهم، فيرده فلا يقبل منه، فيقال له: إنا لا نأخذ شيئًا أعطيناه"[٨٥].

المفردة الخامسة: تقوية البنى التحتية للدولة:

تمثّل البنى التحتية عنصرًا مهمًا من عناصر قياس التقدم الحضاري، وسببًا من أسباب راحة المجتمع؛ لأنّها تدخل في موجبات الاستقرار العام، وهذا أمرٌ واضح.

إنّ البنى التحتية التي ستكون في الدولة المهدوية كثيرة، منها ما تقدمت الإشارة إليه - خصوصًا ما يتعلق بانتشار الأمن والعدل والاطمئنان على الحقوق وعدم الخوف من سلبها -، ومنها عناوين أخرى سنقتصر - اختصارًا - على العناوين الآتية:

أولًا: تقوية الروابط الاجتماعية وفق الإخاء الديني:

كلّما قويت الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع، اقترب الجميع من الطمأنينة والراحة، فالرجل - مثلًا - عندما يُسافر سيكون مطمئنًا على عياله لو كان مرتاح البال من جهة جيرانه ألّا يؤذوهم، فضلًا عما لو كان متيقنًا من أنّهم لن يتركوا عياله محتاجين، وهكذا على جميع المستويات الأخرى.

النصوص المهدوية صرحت في أكثر من مناسبة على أنّ الروابط الاجتماعية ستكون على أعلى مستوياتها المتصورة زمن الظهور، بنحو سيعدّ الفرد كلّ أفراد المجتمع عائلته، يحميهم ممّا يحمي أباه وأمه وزوجته وولده، ويدفع عن الجميع ما يدفع عنهم، وفي ذلك روي عن أبي عبد الله أنّه قال: "إن أصحاب القائم يلقى بعضهم بعضا كأنهم بنو أب وأم، وإنْ افترقوا عشاء التقوا غدوة" (٨٦).

وعن إسحاق بن عمار قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فذكر مواساة الرجل لإخوانه ما يجب له عليهم، فدخلني من ذلك أمرٌ عظيم، فقال عليه السلام: "إنّما ذلك إذا قام قائمنا وجب عليهم أنْ يجهزوا إخوانهم وأنْ يقوُّوهم" (٨٧).

وفي نصٍّ آخر بيّن الإمام الباقر عليه السلام أنّ المزاملة الحقيقية تحصل زمن ظهور القائم عليه السلام، فقد رويَ عَنْ بُرَيْدٍ العِجْلِيِّ، قَالَ: قِيلَ لأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّ أَصْحَابَنَا بِالكُوفَةِ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ فَلَوْ أَمَرْتَهُمْ لأَطَاعُوكَ وَاتَّبَعُوكَ، فَقَالَ: "يَجِيءُ أَحَدُهُمْ إِلَى كِيس أَخِيهِ فَيَأْخُذُ مِنْهُ حَاجَتَهُ"؟، فَقَالَ: لا، قَالَ عليه السلام: "فَهُمْ بِدِمَائِهِمْ أَبْخَلُ".

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: "إِنَّ النَّاسَ فِي هُدْنَةٍ، نُنَاكِحُهُمْ وَنُوَارِثُهُمْ، وَنُقِيمُ عَلَيْهِمُ الحُدُودَ، وَنُؤَدِّي

أَمَانَاتِهِمْ، حَتَّى إِذْ قَامَ القَائِمُ جَاءَتِ المُزَامَلَةُ، وَيَأْتِي الرَّجُلُ إِلَى كِيس أَخِيهِ فَيَأْخُذُ حَاجَتَهُ لاَ يَمْنَعُهُ"(٨٨).

ويبدو أنَّ المعنى اللُغوي للزميلِ والمُزاملة: يعني الرفاقةَ والصداقةَ الخالصة، مأخوذٌ من قولهم: زامله: أي صارَ عديلَه على البعيرِ والمحمل فكانَ هو في جانبٍ وصاحبُه في الجانبِ الآخر، فهما سيّان عدلان لا يستقيمُ ولا يثبتُ أحدُهما إلّا بوجودِ الآخر، ولا يستقرُّ المحملُ إلّا بتوازنِهما وتساويهما في الأثقالِ والأزوادِ وغير ذلك(٨٩).

ولعله يُستفادُ منه أنَّ واحدًا من أسبابِ الغِنى زمنَ الظهور هو هذا التكافُلُ الاجتماعي على أعلى مُستوياته.

ثانيًا: أمن الطرق:

تقدم أنّ الأمن سيكون على أعلى مستوياته زمن الظهور، وقد بيّنت الروايات أنّ الأمن لا ينحصر على المناطق التي يقطن فيها الناس، بل إنّه يشمل حتى الطرق التي عادة ما تكون موطئ قدم قطاع الطرق وملجأهم ونقطة انطلاقهم، وتذكر بعض النصوص أنّ المرأة تسير في مناطق تعدّ اليوم من المناطق الخطرة؛ كونها صحراوية، فيُحتمل وجود قطاع الطرق فيها، أو الحيوانات الكاسرة، إلا أنّها تسير يومذاك بكل اطمئنان ولا تخاف من بشر ولا من حيوان، فقد روي عن أميرِ المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "...ولو قد قامَ قائمُنا لأنزلتِ السماءُ قطرها، ولأخرجتِ الأرضُ نباتها، ولذهبَ الشحناءُ من قلوبِ العباد، واصطلحتِ السباعُ والبهائمُ، حتى تمشي المرأةُ بينَ العراقِ إلى الشام لا تضعُ قدميها إلا على النبات، وعلى رأسِها زينتها (زنبيلها) لا يُهيجها سبعٌ ولا تخافه"(٩٠).

وفي نصٍّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه: "والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء اليمن إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئبُ على غنمه، ولكنكم تعجلون" ((٩١)).

ثالثًا: تطوّر الصحة والعلاج:

تعدّ المشكلة الصحية واحدةً من أهم المشاكل التي تقضّ مضاجع الجميع، إمّا من جهة عدم وجود العلاج، وإمّا من جهة وجوده مع عدم وجود ما يتمكن به من شرائه، فضلًا عن الفزع من الأمراض التي لا علاج لها، ومن الأمراض التي ما زالت يد الدهر

تخفيها علينا، بل إنّ الخوف - كما نشاهده اليوم - حاصل حتى من صناعة بعض الأمراض والفيروسات لأجل مآرب لا يعلم بها إلا الله تعالى.

تلك المخاوف كلّها ستنتهي عند ظهور المولى عجّل الله تعالى فرجه الشريف، فالأمراض ستنعدم، والعاهات ستذهب، فقد رويَ عن الإمامِ عليٍ بن الحسين عليه السلام أنّه قال: "إذا قامَ القائمُ أذهبَ اللهُ عن كُلِّ مؤمنٍ العاهة، وردَّ إليه قوته" (٩٢).

وفي نقلٍ آخر عنه عليه السلام قال: "إذا قامَ قائمُنا أذهبَ اللهُ عن شيعتِنا العاهة، وجعلَ قلوبهم كزُبُرِ الحديد، وجعلَ قوّةَ الرجلِ منهم قوّةَ أربعين رجلًا..." (٩٣).

وهذا الارتفاع إمّا يكون بمعنى أنَّ الحالةَ العامةَ للناسِ هي الصحة، وإنْ كانتِ الأمراضُ موجودة، لكنّها قليلةٌ جدًا، بحيث لا تُعطى رقمًا مُهمًّا في مقياسِ الصِحةِ العالمي لو صحَّ التعبير، أو بمعنى أنَّ الأمراضَ يُحكَمُ عليها بالارتفاعِ والإذهابِ بسبب: أنَّ الطبَّ تطوّرَ جدًا، وأنّه وَجَدَ علاجًا لكُلِّ مرض، فلا مرضَ إلا وله علاجٌ ناجعٌ وسريعُ المفعول، فلا يمرضُ الإنسانُ إلا ويتمكّنُ من علاجِ المرضِ ورفعه بكُلِّ سرعةٍ ويُسر، وفي هذه الحالةِ يُعبّرُ بارتفاعِ كُلِّ الأمراضِ مجازًا، على أنّه يمكن أنْ يراد منها الموجبة الكلية وذهاب الأمراض تمامًا عن جميع الناس، فهذا ما لا يُستبعد في جنة الظهور الأرضية.

رابعًا: توسعة الطرق وتنظيم السير:

واحدة من مشاكل الحياة اليوم هي ضيق الطرق وعدم استيعابها للناس وآلاتهم، ممّا أدى إلى حدوث كثيرٍ من الحوادث التي تذهب على إثرها الكثير من النفوس والأموال، ولكن في زمن الظهور ستنتهي هذه المشكلة أيضًا؛ لأنّ الإمام عليه السلام سيوسع الطرق الرئيسة (والتي عبرت عنها بعض النصوص بالطريق الأعظم)، وينظم الحركة فيها بحيث تقلّ كثيرًا - إنْ لم تنعدم - مشاكل السير والطرقات.

أضف إليه: أنّ من مشاكل الطرق اليوم هي التجاوزات التي تحصل عليها من بعض، كإبراز البناء أكثر من حدّه بحيث يدخل على الطريق المارّ، وفتح منافذ المياه على الطرقات ممّا يؤدي إلى تلوثها والتقليل من صلاحيتها بل إلى تلفها والإضرار بها في بعض الأحيان، ذلك كلّه سيمنعه الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف ليجعل الطريق سالكة من دون أي معوقات.

وفي ذلك روي عن أبي جعفر عليه السلام: إذا قام القائم... ووسّع الطريق الأعظم، وكسر كلّ جناحٍ خارج في الطريق، وأبطل الكنف والميازيب إلى الطرقات [٩٤].

وفي مقام تنظيم السير وتطبيق قوانينه، يأمر الإمام عليه السلام أصحاب المركبات (وقد عبر عنهم النص بالفرسان) بالسير في وسط الطريق، فإنْ سار في أطرافه ودهس شخصًا فعليه الدية، ويأمر الناس بالسير في أطرافه، فإنْ ساروا في وسطه ودُهسوا فلا دية لهم، فقد روي عن علي بن سويد، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: إذا قام قائمنا عجل الله فرجه قال: "يا معشر الفرسان، سيروا في وسط الطريق، يا معشر الرجال، سيروا على جنبي الطريق، فأيّما فارس أخذ على جنبي الطريق فأصاب رجلًا عيبٌ ألزمناه الدية، وأيّما رجل أخذ في وسط الطريق فأصابه عيبٌ فلا دية له" [٩٥].

ختام واعتذار:

إنّ البحث عن جوانب الحياة الطيّبة في الدولة المهدوية أوسع من أن تحيط به هذه الوريقات، واستقصاءها يخرج بها عن البحث إلى الكتاب؛ لذا اقتصرت على هذه الجوانب واختصرت بعضها خوفًا من الخروج عن الهدف.

نتائج البحث:

١- يعالج البحث عنوان الحياة الحضارية الطيّبة لجميع أفراد المجتمع عند ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف واستقرار دولته، وتفجيره الطاقات بما يصبّ في تذليل الصعوبات في الدنيا، وفتح منافذ الرفاهية على أعلى مستوياتها، الأمر الذي يُخيّل لقارئ الروايات أنّ الناس يعيشون في الجنة، إلا إنّها جنةٌ أرضية، على جميع المستويات الثقافية والاقتصادية والأمنية وغيرها.

٢- مُهّد للدخول في البحث - بعد بيان الكلمات المفتاحية للبحث - بذكر الحياة الطيّبة في التراث الديني، من خلال تتبع النصوص التي فسّرت ذلك، وقد وجدنا أنّها تفسرها بالقناعة، وبالحصول على ما يُحب الإنسان، بشرط أنْ لا يكون عن طريق ما يكره الله تعالى، وبالسرور والكرامة وتمام العيش، وكلّها ستوجد في الحياة في كنف الدولة المهدوية.

٣- المبادئ العامة لحكومة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هي: العمل بكتاب الله تعالى وسُنة النبي صلى الله عليه وآله، والقضاء والتطبيق العادل لأحكام الإسلام، وأنّ الحكومة المهدوية حكومة عالمية.

٤- إنّ مفردات الحياة الطيّبة في الدولة المهدوية كثيرةٌ جدًا، وأهمها:

أ) مكافحة الجبابرة وإماتة الظلم.

ب) عموم الأمن.

ج) وتنمية العلم والثقافة (وهذا الأمر يتم عبر: ترؤس الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف عملية التطوير الذهني والمعرفي، والانفتاح العلمي الهائل الذي لم يسبق له نظير، بحيث يتم الوصول بالعلم والمعرفة إلى غايتها وآخرها ونهايتها، وبالمجتمع إلى الرقي العلمي، حتى يتطور الإدراك لدى المؤمنين، فضلًا عن تطور الصناعات).

د) الرفاهية الاقتصادية، حيث ستتدفق الخيرات التكوينية بين يدي الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وسيقوم عجل الله تعالى فرجه الشريف بتقسيم الثروات، وتوزيعها على الناس عمومًا.

هـ) تقوية البنى التحتية للدولة، وذلك عبر تقوية الروابط الاجتماعية وفق الإخاء الديني، وأمن الطرق، وتوسيعها وتطبيق قوانينها بدقة، وتطور الصحة والعلاج.

٥- البحث اقتصر على ما تسعه اوراقه، وإلا فيمكن توسعته أكثر ممّا ذُكر، وما ذُكر فيه نماذج من مفردات الحياة الطيّبة كما أُشير إليه.

الهوامش

١- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ١٣٨.
٢- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح (ج ٢/ ص ٧٨٩/ مادَّة قرر): (القُرُّ - بالضمِّ -: البرد).
٣- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ص ٣٠٧، ب١٧، ح١.
٤- آل عمران/ ٨٣.
٥- العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ٢/ ٦٠.
٦- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: (طيب).
٧- الصدوق، محمد بن على، كمال الدِّين، ص ٦٧٢ و٦٧٣/ باب ٥٨/ ح ٢٤).
٨- الجن/ ١٦.
٩- النحل/ ٩٧.
١٠- نهج البلاغة، ٤/ ٥١، الحكمة رقم (٢٢٩).
١١- من دعاء يوم عرفة للإمام زين العابدين عليه السلام.
١٢- ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، ١/ ١٧١.
١٣- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٣١٦.
١٤- النجم/ ٣ و٤.
١٥- الحشر/ ٧.
١٦- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨ / ٣٩٦، ح٥٩٧.
١٧- الصدوق، محمّد بن علّي، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٤١١ ب٣٩ ح٦، ورواه الطبرسي في إعلام الورى (ج ٢/ ص ٢٢٧).
١٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٣ ص ٥٣٦ - ٥٣٨ بَابُ أَدَبِ الْمُصَدِّقِ، ح١.
١٩- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ٣٢٨ و٣٢٠/ باب ٢٠/ ح ٧.
٢٠- الخوئي، أبو القاسم، مباني تكملة المنهاج، ١/ ١٢، مسألة ٨.
٢١- النووي، محيي الدين بن شرف، المجموع شرح المهذب، ١٢/ ١٥٠.
٢٢- الأنصاري، زكريا، فتح الوهّاب، ٢/ ٣٦٩
٢٣- المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد، ٢/ ٣٨٣.
٢٤- رواه النيلي: في منتخب الأنوار المضيئة (ص ٣٤٠ و٣٤١) عن أحمد بن محمّد الأيادي يرفعه إلى أبي صادق باختلاف يسير.
٢٥- الطوسي، محمد بن الحسن، الغيبة ص٤٧٢ ح٤٩٣.
٢٦- م.ن، ص٤٧٣ ح٤٩٤ رواه المفيد: في المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد (ج ٢/ ص ٣٨٤)، وفيه: (جاء بأمر جديد) بدل (جاء بأمر غير الذي كان).
٢٧- القصص/ ٤١ و ٤٢.
٢٨- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة ص ٢١٤ ب١٢ ح١١. ورواه: ابن عقدة الكوفي، أحمد بن محمد،

فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، ص ١٢٦ و١٢٧/ ح ١٢٢).
٢٩- الحج/ ٤١.
٣٠- الأسترآبادي، شرف الدين علي الحسيني، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، ١/ ٣٤٣، ح٢٥.
٣١- الحج/ ٤١.
٣٢- الكوفي، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفي، ص ٢٧٣ و ٢٧٤، ح ٣٦٩/ ٢.
٣٣- القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودي لذوي القربى، ٣/ ٣٩٧.
٣٤- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥١/ : ٢٩، ح ٢، عن علل الشرائع، ١/ ١٦١، باب ١٢٩/ ح ٣.
٣٥- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ٣٣٤ و٣٣٥/ باب ٢١/ ح ٨.
٣٦- الصدوق، محمّد بن عليّ، كمال الدين وتمام النعمة، ٢٧٩ و٢٨٠/ باب ٢٤/ ح ٢٧.
٣٧- قال في هامش المصدر: لعل هذا في أوائل زمانه عليه السلام وإلا فالظاهر من الأخبار أنّه لا يقبل منهم إلا الإيمان أو القتل.
٣٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨/ ٢٢٧، ح ٢٨٨.
٣٩- دق الشيء: أي صار دقيقًا. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ٤/ ١٤٧٥ (دقق) ولعل المراد: أنّه يكسر الصليب بحيث لا يبقى من جنسه شيء، راجع ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، ٢/ ١٣٦٢ [هامش المصدر].
٤٠- البرقي، أحمد بن محمد، المحاسن،١/ ٩٠، باب ١٦ - عقاب من أنكر آل محمد عليهم السلام حقهم وجهل أمرهم/ ح ٣٩
٤١- لعل المراد: يحرم أكله، أو يقتله بحيث لا يوجد في الأرض ليأكله أحد، أنظر: ابن ماجة، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، ٢/ ١٣٦٢ [هامش المصدر].
٤٢- ابن طاووس، علي بن موسى، الملاحم والفتن، ص ١٧٢-١٧٣ باب ١٨٧ ح ٢٣٤.
٤٣- هامش المصدر.
٤٤- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥٢/ ٣٨٣.
أقول: ويُحتمل أنْ يكون المراد من وضع الجزية هو إثباتها عليهم، وإلزامهم بدفعها، بقرينة أنه يدق الصليب ويقتل الخنزير، ممّا يعني أنه سيُجري عليهم أحكام الإسلام فلا يسمح لهم بإظهار ممارسات الكفر وأنه يتم التعامل معهم تعامل أهل الذمة، فيأخذ الجزية منهم. وحينها تكون الرواية المذكورة من شواهد الأمر الأول المتقدم.
٤٥- الصدوق، محمّد بن عليّ، الخصال، ٥٧٨ - ٥٧٩ أبواب السبعين وما فوقه لأمير المؤمنين عليه السلام سبعون منقبة لم يشركه فيها أحد من الأئمة/ ح١.
٤٦- آل عمران/ ٨٣.
٤٧- الأنفال/ ٣٩
٤٨- العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ٢/ ٦٠ - ٦١.

٤٩- المشهدي، محمد بن جعفر، المزار، ١٣٥، باب ٥ ذكر ما ورد من الفضل في مسجد السهلة/ ح٧.
٥٠- المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، ١٢ / ٣٠٣ - ٣٠٤.
٥١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥١/ ٢٩/ ح ٢، عن علل الشرائع ١: ١٦١/ باب ١٢٩/ ح ٣.
٥٢- ابن طاووس، علي بن موسى، الملاحم والفتن، ٢٩٥ و٢٩٦.
٥٣- في مجمع الأمثال للميداني (ج١، ص١٧٣): قال المفضل: أول من قال ذلك ملك من ملوك حمير، كان عنيفًا على أهل مملكته يغصبهم أموالهم ويسلبهم ما في أيديهم، وكانت الكهنة تخبره أنّهم سيقتلونه فلا يحفل بذلك، وإنّ امرأته سمعت أصوات السوّال فقالت: إنّي لأرحم هؤلاء لما يلقون من الجهد ونحن في العيش الرغد، وإنّي لأخاف عليك أنْ يصيروا سباعًا، وقد كانوا لنا أتباعًا، فردّ عليها: جوّع كلبك يتبعك. وأرسلها مثلًا، فلبث بذلك زمانًا ثم أغزاهم فغنموا ولم يقسم فيهم شيئًا، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه - وهو أميرهم -: قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروج الملك منكم أهل البيت إلى غيركم، فساعدونا على قتل أخيك واجلس مكانه، وكان قد عرف بغيه واعتداءه عليهم، فأجابهم إلى ذلك، فوثبوا عليه فقتلوه، فمرّ به عامر بن جذيمة وهو مقتول - وقد سمع بقوله جوّع كلبك يتبعك - فقال: ربما أكل الكلب مؤدبه، إذا لم ينل شبعه، فأرسلها مثلًا.
٥٤- المجادلة/ ٢١.
٥٥- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد، ٢٠٨ و ٢٠٩.
٥٦- العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، ٢/ ٢٤٢/ ح ١٤.
٥٧- الحج/ ٤١.
٥٨- القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى، ٣، ٢٤٣، ب٧١، ح٢٩.
٥٩- الصدوق، محمّد بن عليّ، الخصال، ٦٢٦ حديث أربعمائة.
٦٠- التوبة/ ٣٣.
٦١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥١ / ٦١.
٦٢- التوراة والإنجيل، ١١٢٩ و ١١٣٠.
٦٣- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١ / ٢٥ كِتَابُ الْعَقْلِ والجَهْلِ ح٢١.
٦٤- الحلي، الحسن بن سليمان، مختصر بصائر الدرجات، ١١٧.
٦٥- ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ١٧١.
٦٦- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ٢٤٥، ١٣، ح٣٠.
٦٧- الطبري، محمد بن جرير، دلائل الامامة، ص٤٥٥، ح٤٣٤، ٣٨.
٦٨- م.ن، ص ٤٥٤، ح (٤٣٣ / ٣٧).
٦٩- الحلي، الحسن بن سليمان، مختصر بصائر الدرجات، ١١٧.
٧٠- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ٨ / ٢٤٠ - ٢٤١، ح٣٢٩. وجاء في الهامش: البريد: أربعة فراسخ وفي بعض النسخ [لا يكون] فالمراد بالبريد الرسول أي يكلمهم في المسافات البعيدة بلا رسول وبريد.
٧١- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥٢/ ٣٩١.

٧٢- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ص٣٣٤، بَاب ٢١ ح٨.
٧٣- الصدوق، محمّد بن علّي، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٣٠ و٣٣١، ب٣٢، ح١٦.
٧٤- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد، ٢/ ٣٨١.
٧٥- من منشور بعنوان (رغم أزمات الاقتصاد.. عدد مليونيرات العالم سيواصل الارتفاع) نُشر على موقع: العربية نيوز سكاي.
٧٦- نهج البلاغة، ٤/ ٧٨، الحكمة رقم ٣٢٨.
٧٧- الهندي، علي المتقي بن حسام، كنز العمال، ٦، ٥٢٨، ح(١٦٨٤٠).
٧٨- الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ٤/ ١٤٥، ح (٤٠٤ / ٢٦).
٧٩- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ١٠/ ٢٢٥.
٨٠- ابن الأثير، مجد الدين، النهاية، ٥ / ٢٥٢.
٨١- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ١/ ٤٠٨ بَابُ أَنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا لِلإِمَامِ عليه السلام، ح٣.
٨٢- المتخضخض: المتحرِّك. راجع: لسان العرب، ٧/ ١٤٣/ مادَّة خضض). وفي بعض النُّسَخ وبحار الأنوار: (موليًا).
٨٣- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥٢/ ٣٥٢: (يفحص: أي يسرع بدمه، أي متلطِّخًا به من كثرة ما أُوذي بين الناس. ولا يبعد أنْ يكون في الأصل (بذنبه) أي يضرب بذنبه الأرض سائرًا، تشبيهًا له بالحيَّة المسرعة).
٨٤- النعماني، محمد بن إبراهيم، ص ٢٤٥، ب١٣، ح٣٠.
٨٥- المقدسي، يوسف بن يحيى، عقد الدرر في أخبار المنتظر، ١٦٤ و ١٦٥.
٨٦- الطبري، محمد بن جرير، دلائل الامامة، ص٥٦٢، ح٥٢٦.
٨٧- الصدوق، محمّد بن علّي، مصادقة الإخوان، ص ٣٦، باب مواساة الإخوان بعضهم لبعض، ح٣.
٨٨- المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص، ٢٤، ونقله: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥٢/ ٣٧٢ بلفظ المزاملة.
٨٩- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٥٢/ ٣٧٢.
٩٠- الصدوق، محمّد بن علّي، الخصال، ٦٢٦، حديث أربعمائة.
٩١- ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن زين الدين، عوالي اللآلي، ١/ ٩٨، الفصل ٦، ح١٣.
٩٢- النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، ص٣٣٢، بَاب ٢١ ما جاء في ذكر أحوال الشيعة عند خروج القائم عجل الله تعالى فرجه وقبله وبعده. ح٢.
٩٣- الصدوق، محمّد بن علّي، الخصال، ٥٤١، ح ١٤.
٩٤- الفتال النيسابوري، محمد بن أحمد، روضة الواعظين، ٢٦٤.
٩٥- الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، ١٠/ ٣١٤، ب٢٨، ح (١١٦٩ / ١٠).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
* نهج البلاغة: الشريف الرضي، ضبط نصّه الدكتور صبحي صالح، ط١، بيروت، ١٣٨٧هـ.
* ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن زين الدين، عوالي اللآلي، ط١، ايران ـــ قم، انتشارات سيد الشهداء، ١٤٠٣هـ .
* ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ط٤، قم – إيران، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٦٤ ش.
* ابن المشهدي، محمد، المزار، تحقيق: جواد القيّومي، ط١، قم، نشر القيّوم، ١٤١٩هـ.
* ابن شعبة الحرانيّ، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق عليّ أكبر الغفّاري، ط٢، قم، مؤسَّسة النشر الإسلامي، ١٤٠٤هـ.
* ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، لبنان- بيروت، دار الفكر.
* ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، قم ـ إيران، مطبعة نشر أدب الحوزة، محرم الحرام ١٤٠٥هـ.
* ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، ط١، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٤ هـ.
* ـــــــــــ، الملاحم والفتن، ط ١، أصفهان، مؤسَّسة صاحب الأمر، ١٤١٦هـ.
* الأصفهاني، أبو الفرج، مقاتل الطالبين، تحقيق: كاظم المظفّر، ط٢، النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٣٨٥هـ.
* الأنصاري، زكريا، فتح الوهاب، ط١، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،١٤١٨ - ١٩٩٨ م. الكوفي، ابن عقدة، فضائل أمير المؤمنين، تحقيق: تجميع عبد الرزاق محمد حسين فيض الدين.
* البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، تحقيق: جلال الدين الحسيني المحدّث، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٧٠هـ.
* التوراة والإنجيل، موقع arabicbible
* الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق : أحمد عبد الغفور العطار، ط٤، بيروت ـ لبنان، الناشر: دار العلم للملايين، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م.
* الحسيني، شرف الدين، تأويل الآيات الظاهرة، ط ١، قم، الناشر: مدرسة الإمام المهدي، ١٤٠٧هـ.
* الحلّي، الحسن بن سليمان، مختصر بصائر الدرجات، ط١، النجف الأشرف، منشورات المطبعة الحيدرية،١٣٧٠هـ.
* الخصيبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى، ط٤، بيروت، مؤسَّسة البلاغ، ١٤١١هـ.
* الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي، مباني تكملة المنهاج، ط٢، قم، المطبعة: العلمية، ١٣٩٦.
* الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، مؤسسة الحلبي.
* الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٢، الناشر: طليعة النور، ١٤٢٧.
* السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، مصر، الناشر: السعادة، ١٣٧١هـ.
* الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تحقيق: عليّ أكبر الغفّاري، قم، جماعة المدرِّسين، ١٤٠٣هـ.
* ـــــــــــ، علل الشرائع، تقديم محمد صادق بحر العلوم، النجف الأشرف، منشورات مكتبة الحيدرية، ١٣٨٥هـ -١٩٦٦م.
* ـــــــــــ، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق عليّ أكبر الغفّاري، قم، مؤسَّسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

* ـــــــــــ، مصادقة الإخوان: تحقيق واشراف: السيد على الخراساني الكاظمي، الناشر: مكتبة الإمام صاحب الزمان العامة.

* الطبرسي، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ط١، قم، الناشر: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ١٤١٧هـ.

* ـــــــــــ، الاحتجاج، تحقيق: محمّد باقر الخرسان، دار النعمان، ١٣٨٦هـ.

* طبرى آملى، محمد بن جرير، دلائل الإمامة، ط١، قم، مؤسَّسة البعثة، ١٤١٣هـ.

* الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق، حسن الخرسان، ط٣، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٦٤ش.

* ـــــــــــ، الغيبة، تحقيق: عبد الله الطهراني، عليّ أحمد ناصح، ط ١، قم، مؤسَّسة المعارف الإسلاميَّة، ١٤١١هـ.

* العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق هاشم الرسولي المحلّاتي، طهران، المكتبة العلمية الإسلاميَّة. بلاتاريخ.

* الفتال النيسابوري، محمد بن حسن، روضة الواعظين، تقديم محمد مهدى السيد حسن الخرسان، قم – إيران، منشورات الرضي، بلا.

* القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، ط١، الناشر: دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤١٦.

* الكليني، محمد بن يعقوب، الروضة من الكافي، صححه وقابله وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، ط١، طهران، الناشر: دارالكتب الإسلامية، ١٣٨٩ هـ.

* الكوفي، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفي، تحقيق محمّد الكاظم، ط ١، طهران، مؤسَّسة طبع ونشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١٠هـ.

* المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، تحقيق: الشعراني، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ.

* المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩.

* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط٢، المصحَّحة، بيروت، مؤسَّسة الوفاء، ١٤٠٣هـ.

* المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت، ط٢، بيروت، دارالمفيد، ١٤١٤هـ.

* المقدسي الشافعي، يوسف بن يحيى بن علي السلمي، عقد الدرر في أخبار المنتظر "عج"، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، تعليق: الشيخ علي نظري منفرد، نشر: دار نصائح، الطبعة ١٤١٦ هـ.

* المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

* الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، الناشر: المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة، ١٣٦٦ ش.

* النجفي، السيد بهاء الدين، منتخب الأنوار المضيئة، تحقيق: مؤسسة الإمام الهادي ﷺ، ط١، قم، الناشر: مؤسسة الإمام الهادي ﷺ، ١٤٢٠ – ١٣٧٨ ش.

* النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، تحقيق: فارس حسّون كريم، ط ١، الناشر: أنوار الهدى، ١٤٢٢هـ.

* النووي، محيي الدين بن شرف، المجموع شرح المهذب، الناشر: دار الفكر.

نمط الحياة الطيّبة بين الإسلام والغرب

(دراسة مقارنة)

أ.د. حسن خليل رضا

باحثٌ في العلوم العقلية والدينيّة / أستاذٌ في الجامعة اللبنانية

المقدّمة

يشترك البشر في مجالات التكيّف التي ينتمون إليها، فينتهجون من ضروب السلوك ما يمكن التنبّؤ بوجهة خياراته، ويصوغون من الأفكار والمفاهيم والتصوّرات ما يدور في فلك التواؤم والانسجام الحَاكِيَيْنِ عن وحدة النوع الذي يندرجون تحته.

وتكاد الظواهر الاجتماعية - بمدلولها الأعمّ - تتناسخ، حاملةً صبغة المطابقة أو المضارعة، في مختلف البيئات التي تشهدها، سواء اتّسمت بالتفاعل والانفتاح، أم انطوت على مسارات خبراتها الخاصّة، إلى الحدّ الذي يغلب فيه الحكم على الشكل والمظهر، طبقًا لبؤرة التأويل التي يرصد الناقد من خلالها نمط الحياة المخبوزة في ذات الآخر، واستجابةً لهويّة الإسقاط التي تضفي على المشهد معنًى مفارقًا لطبيعته، يمثّل الوجه اليوتوبيّ المعدوم، أو الغائب عن بيئة الانتماء، أكثر من حكايته - في الواقع - عمّا تستبطنه التماعات الأقنعة التي تحجب الآخر، ما دام متلبّسًا بالصرامة التكوينيّة لهذا التصنيف.

فإلى أيّ حدّ يمكن وَسْمُ الحياة التي صاغ الإسلام ضوابطها ومعالمها وأنساقها بالطيب، حيث يفيض به المتعالي على عبده الذي يجمع بين خصلتي الإيمان الحقيقيّ والعمل الصالح، في الوقت الذي قد نرى هذا المرء نفسه يتطلّع إلى طيب النمط الذي رسمه المجتمع الغربيّ لهذه الحياة فكرًا وممارسةً، وكأنّه الفردوس الذي يجتذب كينونته، ويحثّه على تجاوز واقعه؟

ربّما لا تكون المقارنة بين الإسلام والغرب منصفةً إلّا في إطارها الكلّيّ، بينما تنأى التفاصيل في ذاتها عن هذا المطلب، نظرًا إلى كون تعاليم الإسلام تشكّلُ لُبْنَاتٍ أصيلةً في الصرح الذي أعلاه، فضلًا عن غيرها من العناصر التي جُمِعَت من أنحاء شتّى، وقد أضيفت إليها خصوصيّات خبراته وتجاربه التي انفرد بها، غير أنّ التصوّر لا يعني أنّ الغرب صنيعة الإسلام، وإنّما يُعَدّ مُسهمًا في حضارته، فلا يعطي التداخل صورة نقيّة عمّا ينفرد به الواحد عن الآخر، بل يدعو التقاطع والاشتراك عادة إلى الإعلاء من شأن المواطن التي يلازمها هذا الاتّصاف.

وتأسيسًا على هذا الموقف، يمكن طرح جملةٍ من التساؤلات التي يتمحور البحث حولها:

١- أين تكمن المفارقة الأبستمولوجيّة بين استحضار السماء في تعاليم الإسلام التي يفضي الالتزام بها إيمانًا وسلوكًا إلى الحياة الطيّبة، واستحضار الخبرة القائمة على توالف التجارب التي راكمها المجتمع الغربيّ، سعيًا وراء طيب هذه الحياة، ما دامت لُبنة العناصر التي تتألّف منها هذه الحياة مشتركةً في تعبيرها عن حاجات البشر وتدابيرهم وخياراتهم؟

٢- كيف نفسّر رُجحان طيب الحياة الإسلاميّة، وهي تعتضد بالخيال الذي يستشرف المستقبل الميتافيزيقيّ، على طيب الحياة التي تلتزم غلاف المادّيّة، ثمّ تلجم الخيال في حدود التحكّم بالواقع؟

٣- لماذا تختلف الأنساق الميتافيزيقيّة التي بناها الإسلام، لتكون الجسد الذي تنبض الحياة الطيّبة داخله، عن الأنساق الميتافيزيقيّة التي بناها العقل الغربيّ، لتكون الحيّز الذي قد يناط به إضفاء الطيب على هذه الحياة؟

٤- ما خصوصيّة القيم المتعالية التي يطرحها الإسلام في سعيه إلى تطهير الفرد والأسرة والمجتمع، بغية تحضير البنية السفلى للحياة الطيّبة، إذا ما قيست بالقيم التي يحرص المجتمع الغربيّ على غرسها في أبنائه فكرًا وسلوكًا؟

وتوخّيًا لتقديم إجابات منطقيّة؛ سوف يعتمد البحث ثالوثًا منهجيًّا، يتمثّل في التحليل والمقارنة والنقد. يُعوَّل على الأوّل في التعرّف إلى المكوّنات والعناصر المعرفيّة التي تقوم عليها الحياة الطيّبة في المجتمعيْنِ: الإسلاميّ والغربيّ؛ ويُطوّع الثاني في كشف جوانب الاتّفاق والافتراق التي تتمخّض عنها خصوصيّة نمط الحياة الطيّبة في الإسلام، بينما يُناط بالثالث بيان التهافت في الخيار الغربيّ لنمط الحياة الطيّبة، فضلًا عن التأسيس لقراءةٍ عميقةٍ في خيارات النمط الإسلاميّ لهذه الحياة، عقب محاكمة البدائل الممكنة على صعيد المسار نفسه.

أوّلًا: غائيّة الحياة الطيّبة في غَوْر المشروع البشريّ فكرًا وممارسةً

يدرك المرء ذاته في خضمّ إحاطته بالعالم المحايث له، فلا يغيب عن أفق تبصّره حضورُهُ المؤقّتُ في المركّب الجسديّ الذي يعطيه هويّته الشخصيّة في نطاق النوع، بمقدار ما يحدّه في بؤرة الرصد التي يتطلّع منها إلى الغيريّ؛ وإنّما ينطلق من حبكته المعقّدة إلى مهمّة رفيعة المعنى، تتمثّل في اتّخاذ قرارات تكيّفه مع الوسط الذي ينتظم في الأساس منه، وذلك من طريقِ آليّاتٍ، يفرضها التناغم الطبيعيّ بين الذات والموضوع.

ولو كان حضوره - بصحبة هذه الخاصّيّة المائزة - قائمًا في عتمة مركّب آخر، نظير الكائنات الصدفيّة أو الرخويّة أو الحرشفيّة، يدبّره بحكمة ودراية؛ لتغايرت تجربته، وتباينت قراراته، واختلفت أفعاله، بحكم الاستعدادات المتوافرة لديه، وقابليّة بيئته للانقياد لها.

ولا ينفكّ هذا المركّب عن بنية جينيّة [1]، تمُلي عليه نظامها في صورة شبه تكراريّة، بل تكاد تتحكّم بمساره وفق متطلّبات النوع، تاركةً للفروق الفرديّة قنوات ضيّقة، لا تتجاوز الخيارات المتاحة من هذه البيئة، إلّا في نطاق الطفرة التي تُفْقِدُهُ وجهًا من هويّته على الأقلّ؛ ولا يبعد أنْ تكون لها بصمات قهريّة غير مطلقة في الفكر والسلوك، تقلّص - إلى حدّ كبير - من مساحة التفويض.

ولكنّ الأمر لا يقتصر على هذا البعد الممتدّ من الكائن البشريّ، وإنّما يسيل باتجاه البعد الذي يتقوّم بطبيعة الحالات النفسيّة والحوادث العقليّة، حتّى لدى منكري الثنائيّة من المادّيّين، وعلى رأسهم دعاة نظريّة الانبثاق [2].

وتكاد آليّة التكيّف التي تلوذ بها الكائنات الحيّة عمومًا في سعيها إلى حفظ ذاتها ونوعها، سواء تحقّق ذلك منها بالفطرة، أم بالرويّة، تعبّر عن المشتقّ الموازي لسُنّة الحياة الطيّبة لدى الناطق خاصّة، فإنّها تمضي على وفق الطبيعة التي رأى شيلنغ في نظامها العقلَ متحجّرًا[3].

بَيْدَ أنّ الفارق يُشرق من كون عالم الإنسان مبنيًّا على الإدراك الذي تتيحه قوّته الناطقة، والممارسة التي تخبزُهَا الإرادة المتّصلة بهذا الإدراك؛ ما يضفي على التكيّف طابعًا واعيًا، ليغدو خيارًا قصديًّا.

فالحياة الطيّبة ثمرة، يمكن للمرء أنْ ينالها في طول عنايته بالأسباب المفضيّة إلى إينعها ونضجها وقطافها، حيث تُتوّج بها الإرادة التكيفيّة الواعية والمدركة، بمجرد أنْ تتدفّق في

الأثلام المؤدّية - بلغة التكوين والنظام - إلى الجذور التي تمدّها - على المستويين: الفردي والجماعي - بمقوّمات النموّ، و موجبات الاستمرار.

وعلى الرغم من أنّ الإثمار خارج بذاته عن إرادة الراغب أو الزارع، مهما بلغت عنايته بالأسباب، فإنّ إداركه للنسق الذي تجري وفقه القوانين والنواميس والسنن، يدفعه باستمرار إلى السعي والعناية والانتظار، ولا سيّما بعد أنْ ألفاها مطابقةً لمخرجات تجاربه، ومسامتةً للخبرات التي تراكمت لدى نظائره.

وعلى هذا الأساس، من الطبيعيّ أنْ يتحرّى العاقل عن الحياة الطيّبة، موغلًا في استحضار مقدّماتها وعواملها وأسبابها، وأنْ يُرخي لفكره زمام الإبداع، فيشرّع الأحكام والقوانين والوصايا ابتغاء تحقيقها، وينظّر لأنماطها ومكوّناتها وشروطها، ويهيّئ في نطاق الممارسة الفرديّة والجماعيّة ما يدعم مشروع إرسائها بأساليب عديدة، ملتفتًا إلى عنصر الاتّصال فيها، فإنّه من ضروب الحرمان أنْ يتطلّع إلى أحوال آنيّة منها، تتلاشى بمجرّد أنْ تنقطع عواملها.

وقد ازدحمت في مدارات هذا الغرض طروحاتٌ خصبةٌ وغنيّة، لمّا يسكت العقل البشريّ عن المَخْر في عبابها، والنَّهْل من معنيها، في إدارته للمركّب الذي قد ينصاع له في حدود ما يتاح تكوينًا من حرّيّة ممكنة على صعيد الفعل والسلوك، حيث أناطت السعادة بالأخلاق [٤]، وتفنّنت في صوغ مدارجها القيميّة التي تفضي إلى يفاع الفضيلة والانسجام والخير الأسمى، ولو في نطاق الفرديّة، ثمّ جرت السياسيّة - بما يفيض به رحمها من قوانين وأنظمة - بين السعف الذي يظلّل درب هذه السعادة في نطاقها الجماعيّ، فكانت دولة العناية الضمادَ الذي يخفّف من آلام المواطنين اللائذين بها؛ لتغدو المعاناة التي تقرضُ حياةَ الفرد موضعَ اهتمام رفيع في المجال العامّ.

وقد طرح الإسلام دلوه في جوف هذه الركيّة، فلم يرجئ وعده للمؤمن بطيب الحياة إلى اليوم الآخر، وإنّما أكّد إمكانيّة بلوغ رتبة من هذا الغرض في الدنيا نفسها، حيث يجني المؤمن من أعماله الصالحة محصولًا دنيويًّا في طول سعيه إلى الحصاد الأخرويّ.

ويمكن استظهار هذا المدلول من برعم التصنيف الذي ساقه الإمام عليّ بن أبي

طالب ﷺ لعمل الإنسان في دنياه، حيث ركن إلى تقويم بُعْده الغائيّ المُسْتَبْطَن في غيابة التصوّر القبليّ، والمعنى المُدْرَك، والإرادة القصديّة، متأمّلًا وجهة هذا العمل قبل وقوعه في الخارج، وانقطاعه عن مِغْزَل صاحبه، وترتّب المسؤوليّة على تبعاته، قائلًا: "**اَلنَّاسُ فِي اَلدُّنْيَا عَامِلاَنِ: عَامِلٌ عَمِلَ فِي اَلدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يُخَلِّفُ اَلْفَقْرَ وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ؛ وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي اَلدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، فَجَاءَهُ اَلَّذِي لَهُ مِنَ اَلدُّنْيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ اَلْحَظَّيْنِ مَعًا، وَمَلَكَ اَلدَّارَيْنِ جَمِيعًا، فَأَصْبَحَ وَجِيهًا عِنْدَ اَللَّهِ، لاَ يَسْأَلُ اَللَّهَ حَاجَةً، فَيَمْنَعُهُ**" (٥).

ويبتني منطق هذا الدين على أساس أنّ منبع كلّ من الوجود والتشريع واحد، ولا بُدّ من أنْ تسري الثقة إلى الأخير من التأمّل في مظاهر الأوّل، فضلًا عمّا يدخل في حيّز التسليم من كون الواجب الذي برأ الإنسان، وأعطاه من حرّيّة الفعل مقدارًا، يمتلك الدراية الكاملة بحاجاته وإمكاناته ومقوّماته النوعيّة، فهو المنجم الحقيقيّ للتعاليم التي يناط بها توجيه حياته، بما يكفل له اسباغ الطيب عليها.

ومن الطبيعيّ أنْ تشهد المقاربات الإسلاميّة ضروبًا من التعارض والاختلاف، وهي تفتّش بين وريقات النصوص التراثيّة عن براعم الحياة الطيّبة، نظرًا إلى طبيعة المادّة التي تتشكّل منها المعرفة الدينيّة، فضلًا عن أدواتها وآلياتها والروافد التي تبثّ فيها الحيويّة والاستمرار، استنادًا إلى سياقات الاجتهاد والمعاصرة.

ومهما يكن، فإنّ كلّ مشروع بشريّ، يحظى بالتلقّف، ويلتهم التفكير، ويُدرج في خيارات الممارسة، بدءًا من الفلسفات الشرقيّة، ومرورًا بالشرائع السماويّة، ووصولًا إلى العلوم والفلسفات الغربيّة الحديثة؛ يستهدف الخلاص من العذابات والآلام والشرور، بوصفه الشرط الذي لا يستغنى عنه في التأسيس العمليّ ليوتوبيا الحياة الطيّبة.

ثانيًا: مفارقات الحياة الطيّبة بين رافديّة الوحي وتراكم الخبرة البشريّة

ربّما لا يحظى تعبير الحياة الطيّبة بالذيوع الذي لامسته ألفاظ أو تعابير أخرى، نظير السعادة التي تتقاطع معها في زوايا دلاليّة عديدة، وتنساب إلى مختلف البيئات الثقافيّة، قاطنة في جوار مصطلحات أخرى، كانت قد اجْتُرِحَتْ في رحاب أفقها التراثيّ الخاصّ؛

غير أنَّ تجاوز قشرتها إلى لباب المدلول المرادف لها، يكشف كونها مكوّنًا افتراضيًّا حاضرًا - ولو بالقوّة والإمكان - على مستوى النوع برمّته.

والحقيقة أنّ لخيال البشر دورًا وسيطًا في تمثّل فكرة الحياة الطيّبة، إذ يربط بينها وبين الخبرة المتمخّضة عن العيان والتجريب، فيحيّد عن غربالـه الزؤانَ، ويُراكم في الوقت نفسه حنطة هذه الحياة، ثمّ يوغل في إضفاء المثاليّة عليها، حتّى تغدو مستحيلة التحقّق في عالمنا المحسوس، ولا سيّما أنّ قوانين الحياة نفسها تأبى الامتلاء، ولا تقدّم لجلجامش أكثر ممّا قدّمته لأنكيدو في الأسطورة السومريّة [٦].

ويستجيب هذا الخيال بشكل طبيعيّ لحاجات صاحبه، متوسّلًا المقاربات التي تسدّ رمق فضوله، وتجتذب أمانيه، فَيُيَمِّم شطر الموروث الثقافيّ الذي ينقاد إليه بصورةٍ غير واعية، وقد يقترض من الأغيار ما يلبّي هذا الغرض، عندما يُصاب بأعراض الجفاف.

لا انفصام للخبرة التي راكمها المجتمع الغربيّ حول الحياة الطيّبة فكرًا وممارسةً، عن تعاليم المسيحيّة في العصر الوسيط، ولا سيّما تلك التي رُسِمَتْ في مؤلّفات أوغسطين، وأريجنا، وتوما الأكوينيّ، موفّقة بين تراث الإغريق، ونصوص العهدين، وتدابير الكنيسة؛ فإنّ هذه الروح لا تزال سارية في أروقته، تؤجّج أوارها التأويلات اللاهوتيّة المعاصرة، فضلًا عن الفلسفات التي شكّلت فيها الميتافيزيقا حجر الرحى، نظير ما نتلمّسه في كتابات كانط وفختـه وهيغل وغيرهم، وهم يعيدون نِجارة أخشابها في بناء هيكل جديد، يُرَاهَن عليه في نقد العقل، وفهم الواقع، واستشراف المستقبل، وخاصّة أنّ هذه المشيمة هي المستقرّ المؤقّت لنطفة الحياة الطيّبة.

وإذا كان في المجتمع الغربيّ فريق، ما فتئ يتطلّع إلى الحياة الطيّبة من هذه النافذة، فيوفّق بين طاعتين: إحدهما لقيصر، والأخرى لله [٧]، مصغيًا إلى نبوءات اليوم الآخر، إنْ على صعيد الإيمان، أو على صعيد السلوك؛ فإنّ شريحة واسعة منه استجابت لتطلّعات أخرى، معرّبة عن وثوقها بتراكم الخبرة البشريّة، حيث ابتنت على مشاريع فكريّة، أكبّت على هدم الميتافيزيقا، محدثةً طلاقًا أنطولوجيًّا بين الموروث في هذا المجال، والواقع الماديّ الذي شكّل المعطى النهائيّ لخطابها.

ولا يقف الأمر عند حدود ما نطق به القرن التاسع عشر على لسان ماركس وانجلز ونيتشه وغيرهم، فإنّ المشهد لم يحجب وجوديّة كيركجارد المؤمنة التي تأخذ حرارتها من المثاليّة، بل يتخطّاه إلى القرن العشرين، ومطلع القرن الحادي والعشرين؛ ليبصر في الفلسفات الوجوديّة والتحليليّة والوضعيّة المنطقيّة والبراجماتيّة والتفكيكيّة وسواها مراسم دفن للميتافيزيقا في تراب التراكيب اللغويّة والمنطقيّة، وقد أعطى للعلوم الإنسانيّة والاجتماعية والوضعيّة مشروعيّة الفطام عن السماء والدين والتراث؛ لتمضي على صراط العلوم التجريبيّة الموسومة بالدقّة والحياد، والتي غدا الرهان عليها في توفير الحياة الطيّبة القِبْلَةَ الحقيقيّة للمجتمع الغربيّ، مؤيَّدًا بمنجزات الطفرة التكنولوجيّة الآخذة في الانفجار، على الرغم من الانفكاك بين طبيعة المسارين، وعدم قابليّة الفيزياء نفسها لاختزال القوانين البيولوجيّة [٨]، فكيف هي الحال بالنسبة إلى مسألة اختزال الأحوال النفسيّة والاجتماعية في القوالب التي يمليها هذان العلمان؟!

ولمّا كان الطابع المادّيّ قد غلب على المشهد الرسميّ في المجتمع الغربيّ، في محاولة منهم لاحتضان التنوّع والاختلاف، فقد أُقصي البعد الميتافيزيقيّ عن غمرة الممارسة، واستُعيض عنه بتصوّرات ومقاربات وتشريعات مشتّتة من الفكر الإنسانيّ، والتجارب التي احتفّت به، فباتت الحياة الطيّبة قائمة في حدود هذه الرؤية؛ لقناعة هذا المجتمع بأنّ بيئة المجال العامّ شرط أساس لتحقيقها، إنْ من زاوية ما توفّره من تشريعات حقوقيّة متقدّمة في النضج، أو من زاوية ما تكرّسه من ضمانة لتطبيقها بعدل ومساواة وكفاءة بين المواطنين بمختلف شرائحهم.

ويكشف التعديل والتطوّر المستمرّان لبنية النظام الغربيّ وقوانينه وتشريعاته عن رغبةٍ عميقةٍ في بلوغ طيب هذه الحياة، استنادًا إلى الاستقراء الميدانيّ المتجدّد دائمًا لميول المواطنين وحاجاتهم واتّجاهاتهم، وهذا ما يتضمّن اعترافًا ضمنيًّا بغموض المسلك الدقيق الذي يفضي إلى هذه الغاية القصوى، والحاجة المتواصلة إلى انتهاج مسلك تقويم الخلل.

ولم يغب عن ذهن هذا المجتمع أنّ المجال الفرديّ يمثّل متعلّق الطيب في هذه الحياة، فسكب عنايته عليه، ولم يفته أنْ يغرس فيه - بوساطة نظامه التربويّ - الوجهة

الأبستمولوجيّة التي تتّسق مع خيارات المجال العامّ، لعلّ في هذا التدبير توحيدًا للرؤية، وإرساءً لمنظومة مشتركة من القناعات، وتوفيرًا لمقوّمات السعادة في كينونة الفرد الذاتيّة، ومسار الجماعة التضامنيّ.

وفي المقابل، يتّجه الإسلام إلى هذا الداخل قبل أنْ يولي الخارج عنايته، بناءً على ما يراه من أنّ التغيير في المجال العامّ يتوقّف على التغيير في المجال الخاصّ، تبعًا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾[٩]، فإنّ الإيمان شرط لازم لتحقيق الحياة الطيّبة، نظرًا إلى ما يرصفه في الباطن البشريّ من سكينة وطمأنينة وثبات، لا يلبث أنْ يفيض مودّة ورحمة وسَكَنًا في رحاب الأسرة، خالقًا النواة الأولى للاجتماع البشريّ، ثمّ يأخذ مسارًا مجتمعيًّا، يقوم على مبدأ التضامن الأخويّ؛ ليتشكّل المجتمع الإسلاميّ - على هذا الأساس- في صورة بنيان مرصوص، يعترف فيه المؤمن بكونه لُبْنَةً ضروريّةً في الأعمدة التي يركن إليها.

ولا تطيب الحياة بمجرّد أنْ يشعّ الإيمان في أرجاء القلب بمؤدّاه النظريّ، فقد روي عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: "**الْإِيمَانُ عَقْدٌ بِالْقَلْبِ، وَلَفْظٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ**"[١٠]، ولا يبلغ المرء هذه الأكمة بإملاءاتٍ ذوقه، بل يحتاج إلى البوصلة التي تصوّب وجهته، وتدرأ التناقض بين إيمانه وسلوكه، ولا يكون ذلك في منطق الإسلام إلّا على أساس رافديّة الوحي، فهو الذي يزوّد الخبرة البشريّة بمعايير وتعاليم ووصايا متعالية، يُناط بها بلوغ السعادة في الدارين، حيث تأخذ قوّتها وعلوّها وقداستها منه، ومتى أضفى الالتزام بها صفة الصلاح على عمل المؤمن، توّج هذا المعطى باكتساب الحياة الطيّبة، طبقًا لصرامة السنّة التي عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[١١].

وربّما يُدرك الراصد تقاطعًا بالغًا في عناصر الحياة الطيّبة لدى الإسلام والغرب على حدّ سواء، ما دام كلّ منهما يتّجه إلى التعبير عن حاجات البشر وتوقهم إلى أمشاج المثال، وتمثّل الخيارات التجاوزيّة التي تُرْسَم أمامهم، بغضّ النظر عن أسبقيّة الإسلام، وسُنّة الاقتراض المعرفيّ، وتداخل المجتمعات، غير أنّ الأمر يأخذ طابع المفارقة بين النسقين في

المباني التي يتأسّسان عليها، فضلًا عن مدلول هذه العناصر، ومنبعها، وهيكلها، وترتيبها، وقوّتها، والأغراض المرصودة فيها؛ ما يدعو إلى الحوار الدائم بين هذين المسارين، فضلًا عن ضرورة الركون إلى التفضيل على مستوى الخيارات النسقيّة التي يتمسّكان بها إجمالًا وتفصيلًا، تبعًا للصرح المعرفيّ المثبت في حياض كلٍّ منهما.

ثالثًا: طِيْب الحياة من غلاف المادّيّة إلى رحابة المستقبل الميتافيزيقيّ

استقرّ في رؤية الغرب لطيب الحياة الدورانُ في غلاف المادّة، فكرًا وممارسةً، إذ إنّ على نظام الدولة أنْ يوفّر للفرد والجماعة خصوبة البيئة، فلا تغدو مقوّمات الحياة الأساسيّة موضع تهديد، ولا سيّما أنّ بلوغ الكمالات على هذا الصعيد يفتقر إلى تعاون وتضامن وانسجام، يفوق طاقة الأفراد، فيحمّل الجماعة مسؤوليّة احتضانهم، بمقدار ما يحمّلهم مسؤوليّة الانتظام الهادف في نسيج هذه الجماعة.

وقد أمعنت الطروحات الغربيّة في تقديم الخيارات أو البدائل الممكنة، مستوعبةً شتّى المجالات السياسيّة والاقتصاديّة والتربويّة والاجتماعية والأخلاقيّة وغيرها، فبلغت من التضخّم مستوى غير مسبوق كمًّا ونوعًا، أملى عليها مهمّة الخوض في محاكمتها؛ لانتخاب الأصحّ من بينها، وإخضاعه لضوابط التجريب، واعتماده في مجرى الممارسة الفعليّة.

لم تمنع هذه التدابير من بقاء جزرٍ روحيّة في ذلك المجتمع، غير أنّها غير فاعلة، ولا يمكن أنْ تحدث انقلابًا حقيقيًّا فيه، ما دامت أمواج المادّة تطغى على المشهد العامّ، وتأخذ بمجامع القلوب، وتصادر مستويات الوعي، فلا تمنح الذات الفرديّة فرصة للاختلاء بطبيعتها، ولا وقتًا للإنصات إلى صفائها؛ ما يفقدها إكسير الحياة الطيّبة بمعناها الحقيقيّ، وهو الخيال الذي يُرفد الذات ببصيرة تأويليّة، تستشعر الخلود بما يتجاوز سطح المادّة، ويوغل في رحابة الباطن، ويحشو الأشياء بمعانٍ لا سياج لتداعيها.

وجدير بالإشارة أنّ الخيال الغربيّ ذو غورٍ عميق، وتنوّع مهيب، واتّساع مذهل، أتاح لحضارته أنْ تقفز فوق أسوار السرد الأسطوريّ نفسه، إلّا أنّه ظلّ رهين المادّة، يحفر في جسدها، ويجوب سماءها، ويوغل في قوانينها، ويطالع ظواهرها، ويفتّش معابدها بكرةً وأصيلًا، إلى الحدّ الذي تحوّلت فيه إلى معطى الوجود الوحيد. ولا يبعد أنْ يكون هذا المسار

سرّ التقدّم الذي وصلت إليه، ما دامت قد أقصت الغيب عن دائرة اهتمامها، بوصفه النتاج المماثل قيمةً للمحتوى الشعريّ أو الموسيقيّ، يعبّر بصورة غير ناضجة أو مكتملة عن الشعور بالحياة (١٢).

وانطلاقًا من هذا التصوّر، يغدو الواقع الماديّ بمنزلة الميدان الحقيقيّ لإبداعات العقل الغربيّ، حيث تُوكل إليه مهمّة انتخاب صور الممارسة الجديرة بالإرساء والتبنّي في مختلف المجالات، استنادًا إلى معايير مرنة، يشتقّها من حاجة المواطن وميوله واتّجاهاته، على أساس أنّه المعنيّ فعلًا بحدود التصوّر اليوتيوبيّ للحياة الطيّبة.

وكأنّ هذا المسلك يتنكّر لحاجاتٍ عميقةٍ في جبلّة الكائن البشريّ، تدفعه إلى اللّوذ بالدين والإيمان والروحانيّة، وقد يدعمها المكوّن الجينيّ، إنْ ثبتت علاقته بخيارات الفعل والسلوك؛ لكونه حيّدها عن أفق انشغالاته، وإنْ أقرّ حرّيّة التديّن - اعتقادًا وممارسةً - في نطاق الخبرة الشخصيّة التي لا تمسّ ببنية المجال العامّ.

ويُسجَّل للإسلام تمكّنه بالفعل من تجاوز هذه المشكلة، إذ أولاها أهمّيّة بالغة، وبنى على أساسها رؤيته للحياة الطيّبة، فإنّ الاعتقاد بحقيقة عالم الميتافيزيقا هو الذي يفتح أفق المستقبل على فكرة الخلود، فلا تغدو هذه الدنيا فضاء الوجود الوحيد، وإنّما يكون المرء مسكونًا فيها بفكرة البعث والبقاء، على غرار مسكونيّته منذ ولادته بشيخوخة الموت؛ لكون الحياة لا تطيب في واقع الأمر، مهما توافرت فيها مقوّمات الرفاه والإشباع، إلّا إذا اطمئنّ صاحبها إلى استمرار هذه المقوّمات، فإنّ الشعور بتلاشيها وزوالها يعكّر عليه صفوها، ويحول من دون استمتاعه بها؛ فلا غرابة في أن يوصي الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام أصحابه بالاستحضار الدائم للموت في أطوار حياتهم؛ لئلّا يكون الإغفاء عنه باعثًا إلى اقتراف الشرور، وملازمة الشهوات، ونسيان المعاد، حيث يقول: "**أُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِي مَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ، فَكَفَى وَاعِظًا بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ**" (١٣).

ومتى التفت هذا المرء إلى كونها قبسًا ممّا ينتظره في عالم الآخرة، سرى إليه طيب هذه الحياة، ولزم عن إيمانه وعمله الصالح اكتسابه أولى ثمار الغاية البعيدة المترتّبة على خلقه،

وقد يرقى به الوَجْد إلى أن يردّد في قرارة نفسه ما يدعو به الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام ربّه، فيقول: "... **وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ صَالِحِ الأَعْمَالِ عَمَلًا، نَسْتَبْطِئُ مَعَهُ الْمَصِيرَ إِلَيْكَ، وَنحْرِصُ لَهُ عَلَى وَشْكِ اللِّحَاقِ بِكَ، حَتَّى يَكُونَ الْمَوْتُ مَأْنَسَنَا الَّذِي نَأْنَسُ بِهِ، وَمَأْلَفَنَا الَّذِي نَشْتَاقُ إِلَيْهِ، وَحَامَّتَنَا الَّتِي نُحِبُّ الدُّنُوَّ مِنْهَا**"(١٤).

وإذا كانت حياة الإنسان محكومةً بقوانين ثابتة على مستوى أفراد النوع برمّتهم، تتعاقب عليها أطوار من الوهن والمرض والعجز والشيخوخة، وتساورها الهموم والشكوك وألوان المعاناة، حتّى يقطعها الموت بمعاييره المبهمة، فإنّ ذلك لا يعني بالضرورة الحرمان من طيب الحياة؛ لأنّ طيبها لا يقتصر على قابليّة هذا الخارج لخدمتها، ولا لتوفير العناصر المادّيّة لها، وإلّا لأدرك ذوو الاحتياجات الخاصّة في دول العناية الغربيّة مستوًى رفيعًا من هذا الطيب، وإنّما يفتقر إلى الإيمان بالبعد الغيبيّ الذي يسمح لصاحبه بتأويل الواقع، وإعادة إخراجه وتنظيمه وصياغته في صورة موائمة لتطلّعاته، فضلًا عن استشراف الحياة التي يبلغ فيها الطيب ذروة الإمكان خارج عالم الكون والفساد.

ويحرص الإسلام على تأجيج خيال المؤمن بما يتجاوز حدود هذا العالم، نظرًا إلى إيمانه بواقعيّته، وكونه حتميّة مستقبليّة، يَفِدُ إليها الإنسانُ مثقلًا بما قدّمت يداه في هذه الدنيا، فيعمد إلى تفسير الحوادث الظاهرة من خلال ربطها بالبواطن والغيوب، ويُمعن في تأويل النصوص القرآنيّة والروائيّة وفق أدوات أصيلة ودخيلة، تنقله إلى تمثّل ذلك العالم واستحضاره، ولا يستغربنّ ناقدٌ إنْ عثر على الفكرة ونقيضها لدى مفكّري الإسلام، عندما يعمدون إلى تأويل النصّ بما يخدم مقولاتهم، فبينما أصرّ ابن سينا على إثبات المعاد الروحانيّ، مؤوّلًا النصّ القرآنيّ بما يصبّ في هذا الغرض(١٥)، ألفينا صدر الدين الشيرازيّ يطرح إخراجًا تأويليًّا مغايرًا لهذا النصّ، مثبتًا وقوع المعاد الجسمانيّ، وإنْ كان صوريًّا، ليس من سنخ العناصر التي يتركّب منها هذا الجسم (١٦)؛ وبينما أصّر الأشاعرة على استفاده الكسب من الآيات الدّالة على صدور الفعل من الإنسان، فتمسّكوا بظاهر بعضها، وأوّلوا ما لم يطابقها بدقّة (١٧)، ألفينا المعتزلة يحذون حذوهم في آليّة الاستظهار والتأويل؛ لإثبات دلالتها على التفويض (١٨).

وربّما يوحي عدم اقتصار الإسلام على العناية بالجانب الماديّ من حياة الإنسان، كما هو المشهد الغالب في المجتمع الغربيّ، بكونه يرجئ تحرّيه عن الحياة الطيّبة إلى الآخرة، ولا يعطي لهذه الدنيا قيمة وازنة، غير أنّ هذا التصوّر لا يعبّر عن حقيقةٍ موقفه، بدليل عنايته بالتعاليم والوصايا والتشريعات التي تعطي لهذه الحياة معنًى، فهو يهتمّ بالآخرة في طول اهتمامه بهذه الدنيا، إذ يرى الحياة الطيّبة نسقًا متّصلًا، تومض شرارته في رحاب هذا العالم، ثمّ يزيد اضطرامها إلى حدّ الاكتمال في العالم الآخر.

ويدعم هذه الرؤية ما بذره الإمام علي بن الحسين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثماليّ من عباراتٍ سامقة، تستدرّ معالم الحياة الطيّبة ومظاهرها ومؤشراتها الدنيويّة من ضرع الغيب، مسلّمةً بكونِ الباري وحدَهُ القادرَ على توفيرها، حيث يقول: "**اللهُمَّ** (...) **أَعْطِنِي سُؤْلِي فِي نَفْسِي وَأَهْلِي وَوالِدَيَّ وَوُلْدِي وَأَهْلِ حُزانَتِي وَإِخْوانِي فِيكَ، وَأَرْغِدْ عَيْشِي، وَأَظْهِرْ مُرُوَّتِي، وَأَصْلِحْ جَمِيعَ أَحْوالِي، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ أَطَلْتَ عُمْرَهُ، وَحَسَّنْتَ عَمَلَهُ، وَأَتْمَمْتَ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ، وَرَضِيتَ عَنْهُ، وَأَحْيَيْتَهُ حَياةً طيّبة فِي أَدْوَمِ السُّرُورِ، وَأَسْبَغِ الكَرامَةِ، وَأَتَمِّ العَيْشِ**" (١٩).

رابعًا: تقابل الغرب والإسلام إزاء النسق الميتافيزيقيّ للحياة الطيّبة

لمّا كانت الحياة الطيّبة في الإسلام منطويةً على مساحةٍ غير محدودةٍ من الإيمان بالميتافيزيقا، سواء من جهة حاجتها الدائمة إلى تأويل الظواهر والحوادث والمفاهيم، لإضفاء دلالات متعالية عليها، أم من جهة تطلّعها إلى الأبديّة التي تتجاوز الحضور المحدود في صياصيّ هذا العالم، فإنّها تقابل التصوّر الغربيّ لها، بسبب تركيزه في الغالب على دائرة الفيزيقا، فضلًا عن تعامله معها على أساس أنّها الحضور الممتلئ.

ولكنّ ثمّة موقفًا في المجتمع الغربيّ يغاير ما يطفو على سطحه من زبد المادّيّة ورغوتها، يولي الميتافيزيقا أهمّيّةً كبيرة، سواء كان دينيّ الاعتقاد، أم شرقيّ النزعة، أو مثاليّ المذهب؛ حيث يتقاطع إلى حدّ كبير مع رؤية الإسلام للحياة الطيّبة، إنْ على مستوى هيكليّتها العامّة، أو على مستوى المفردات التي تنتظم منها.

يشتمل هذا الموقف على قدرٍ غير مكتملٍ من بنية الشرط الأوّل للحياة الطيّبة في المنطوق القرآنيّ، وهو الإيمان الذي تتعدّد متعلّقاته، لتشمل الله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر، حيث لا يستغرق الإيمان وفق المنهج المسيحيّ مثلًا غير عدد محدود من هذه المتعلّقات، وفي صيغ تحتاج إلى إصلاحٍ بنيويّ عميقٍ في نظر الإسلام، ولا سيّما على صعيد النسق الدليليّ الذي ترتكز عليه.

ولو أخذنا وجهًا آخر من تمثّلات هذا الموقف، وهو الإيمان الكانطيّ؛ لألفيناه يميل إلى الاعتقاد بوجود الله وخلود النفس، على نحو المصادرة؛ ليستقيم النسق الأخلاقيّ الذي شيّد أركانه [٢٠]، فلا يتّسع إلى سائر العناصر التي أدرجها العموم القرآنّي في الشرط الأوّل لتحقّق الحياة الطيّبة.

ويُظهر هذا التقريب المفارقة بين التصوّرين الإسلاميّ والغربيّ في تقديم النسق الميتافيزيقيّ الذي يشكّل الخلفيّة الإيمانيّة للحياة الطيّبة، إنْ من زاوية المنهج الذي يتوسّله، أو من زاوية المحتوى الذي يمتلئ به.

ولهذا الأمر صلةٌ وثيقةٌ بالشرط القرآنيّ الثاني لانبثاق الحياة الطيّبة، وهو التلبّس بالعمل الصالح، غير أنّ اتّصاف هذا العمل بالصلاح يفتقر إلى معيار مرجعيّ ثابت، يبتني على كاشفيّة الوحي، حيث يُؤَسَّس على منظومة التعاليم والوصايا والتشريعات التي يفيض بها.

وعلى الرغم من اختلاف نظرة الإسلام إلى العمل الصالح عن نظرة الغرب إليه، فإنّ هناك حيّزًا من التقاطع والاشتراك بين تَيْنِكَ النظرتين، ينطلق من الوصايا العشر التي فصّلها العهد القديم [٢١]، وصدّقها العهد الجديد [٢٢]، ويصل في بعض مقارباته إلى النظريّات الأخلاقيّة المعاصرة، سواء كانت روحها مستمدّة من التأمّل الفلسفيّ المحضّ، أم محتوى التشريعات السماويّة، وكانت متطلّعة إلى المسؤولية عن الآخر، أو قائمة على مبدأ الحيطة والحذر إزاء منجزات التقانة، وكانت منفتحةً على مبدأ الاعتراف بما يستوعبه من تنوّع واختلاف، أو مؤسّسة على مقتضيات المضمون التواصليّ.

وإذا كان صلاح العمل في الرؤية الغربيّة خاضعًا لمعايير متحرّكة، إنْ على أساس التأويل الهرمينوطيقيّ لبعض التعاليم المغروسة في النصوص المقدّسة، أو على أساس القيمة التي يعطيها العرف التداوليّ لأنماط السلوك أو الفعل، وقد تشهد تبدّلًا خاضعًا لشروط المكان والزمان والأفراد المعنيّين به؛ فإنّ هذا الصلاح يحمل في الرؤية الإسلاميّة قيمة واحدة، تبعًا

لمعايير ثابتة، لا يعتريها تغاير إلّا في الثبوت والفهم والتشخيص، فإنّه لا يمكن الاجتهاد في مقابل النصّ، ولا تجاوز الخطوط الثابتة للتشريع، ولا التنكّر للقيم التي حرص الإسلام على ترسيخها فكرًا وممارسةً.

وقد نحكم على العمل الصادر عن الغرب دولةً أو مجتمعًا بالصلاح؛ لمطابقته التصوّرَ الذي يُدرجه الإسلام في قائمة الفضائل، بغضّ النظر عمّا إذا كان فضاء هذا العمل داخليًّا أو متّجهًا إلى الآخر المختلف، فإنّ لكلّ مجتمعٍ آلياته وضوابطه ومعاييره التي يحاكم من خلالها صور السلوك، فيحكم عليها بالحسن أو القبح، والخير أو الشر، غير أنّه لا ينبغي إغماض الطرف - في حقيقة الأمر - عن الاختلاف البنيويّ في الركيزة التي يقوم عليها هذا العمل، فإنّ هناك فرقًا بين إغاثة الملهوف استجابة للحسّ الإنسانيّ الذي يحثّ عليه الشرع، مصحوبًا بحفظ كرامة هذا الإنسان وحرّيّته، وإغاثته استجابةً للمصلحة أو المنفعة التي يراها النظام في هذا الخيار، مصحوبًا بالمنّ والاستعلاء ونيّة الاستعمار.

وتبرز ثمرة هذا التمييز في بنية المنظور الذي يضفي على العمل صفة الصلاح؛ لأنّه في صورة الابتناء على الإيمان يغدو مادّة لاكتساب الحياة الطيّبة بمدلولها القرآنيّ، وفي صورة عدم ابتنائه على هذا الإيمان قد يجلب قبسًا من البهجة والسرور لدى الفاعل والقابل من غير أنْ يشكّل خيطًا ملوّنًا في عروة هذه الحياة. وقد اجترح الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام من هذه الثمرة معادلةً، سوّى من خلالها بين ما قد يحصل عليه المتّقون وأهل الدنيا في عالم المادّة، ثمّ جعل الربح للمتّقين وحدهم في الآخرة، فكتب إلى محمّد بن أبي بكر، بعد أن ولّاه على مصر وأعمالها، كتابًا، أمره أن يقرأه على أهلها: "**وَاعْلَمُوا أَنَّ اَلْمُتَّقِينَ حَازُوا عَاجِلَ اَلْخَيْرِ وَآجِلَهُ، شَارَكُوا أَهْلَ اَلدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ اَلدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ، أَبَاحَ لَهُمُ اَللَّهُ فِي اَلدُّنْيَا مَا أَبْقَاهُمْ بِهِ، وَأَغْنَاهُمْ**" (٢٣).

وجدير بالإشارة أنّ هذا التمايز لا يحول من دون تحقّق الحياة الطيّبة لدى الإنسان الغربيّ الذي يجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وإنْ لم يرتكز فيها على رؤية الإسلام، فإنّ الإطلاق في قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (٢٤)، يستوعب جميع المصاديق، ولا يختصّ

بالمسلمين وحدهم، وإنْ كانوا يشكّلون وجه الصدارة فيها.

ويجري هذا الحكم على المسلم الذي لا يقترن إيمانه بالعمل الصالح، فإنّه لا يدخل في أسوار هذا الإطلاق، إذ لا يحقّق له هذا الإيمان وحده طيب الحياة، بل قد يكون الناقوس الداخليّ الذي يخيفه عند حدوث القوارع الصغرى، ويعكّر عليه صفو حياته، حتّى يعيده إلى صوابه، ويملي عليه الالتزام بضوابط العمل الصالح، وفق ما قرّرته تعاليم الشريعة، وأوصت بمراعاته تذكيرًا أو تصديقًا.

ولا يغيبنّ عن الذهن أنّ نظرة الإسلام إلى الميتافيزيقا تقوم على المخزون الثقافيّ الذي تحاورت معه، ثمّ اعتضدت به في إيصال مفاهيمها وتصوّراتها إلى المتلقّي، حتّى رسخ في ذهن من آمن به كونُ القرآن إلهيّ المصدر بلفظه ومعناه، في مقابل التصوّر الغربيّ الميتافيزيقا، حيث شكّل العهدان لدى المسيحيّة مثلًا مضمونًا مقدّسًا، كتبه بشر مختلفون، لكنّهم كانوا مؤيّدين بالروح القدس [٢٥]، ثمّ لم يرَ كثير من فلاسفة الغرب المعاصرين منطقًا جديرًا بالقبول والتسليم في سرديّات هذا الدين، فبنى المثاليّون منهم، والمتمسّكون بأستار اللاهوت خاصّة، أنساقًا ميتافيزيقيّة غير شاهقة، ينتابها الحذر، ويلّفها الجدل، نظرًا إلى ارتسامها في أفق واسع الجانبين من الإنكار والتقويض اللذين انهالا عليها، واستهدفا جذورها.

خامسًا: دور القيم الإسلاميّة المتعالية في التطهير الرساليّ وإنتاج الحياة الطيّبة

يكاد العمل الصالح يستغرق مجمل الأفعال التي تأخذ باعثها أو مشروعيّتها من وحي السماء، ما دامت مدوّنةً على خلفيّة الإيمان؛ وهذا ما يعني الاستناد إلى مختلف التعاليم التي جاء بها الإسلام، إنْ على نحو الإلزام الوجوبيّ والتحريميّ، أو على نحو الندب بمعناه الأعمّ؛ ما يعني شمولَ الأحكام والآداب والوصايا والقيم المتعالية، سواء كانت متعلّقة بالفرد، أم بالأسرة، أم بالمجتمع، حيث تنظّمها في بنيتها الداخليّة، وتوجّهها في روابطها الخارجيّة، وفق الغرض الأسمى الذي يتجسّد في بناء المجتمع الرساليّ، أو إقامة الدولة العادلة.

وجليّ ما تكرّسه منظومة القيم الإسلاميّة من أعمال محكومة بالحسن والخير والفضيلة، حتّى لدى الناقد المنصف الذي لا ينتمي إلى هذا الدين. ويكفي أنْ نمثّل لذلك بما ورد

من نصوص ذات مدلول اقتصاديّ، تعظّم من قيمة التصدّق والإقراض دنيويًّا وأخرويًّا، نظير ما روي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، حيث قال: "**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ (...)، وَاسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ (...)، وَهِيَ تَقَعُ فِي يَدِ الرَّبِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ الْعَبْدِ**" [٢٦]؛ وقال: "**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ أَقْرَضَ مُؤْمِنًا، يَلْتَمِسُ بِهِ وَجْهَ اللهِ، إِلَّا حَسَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَهُ بِحِسَابِ الصَّدَقَةِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ مَالُهُ**" [٢٧]... وما ورد من نصوص ذات مدلول عسكريّ، تغرس في نفوس المجاهدين أخلاقيّات الحرب، نظير ما رواه الإمام الصادق عليه السلام أيضًا من أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان "**إِذَا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ سَرِيَّةً، دَعَاهُمْ، فَأَجْلَسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: (...) لَا تَغُلُّوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا صَبِيًّا، وَلاَ اِمْرَأَةً، وَ لاَ تَقْطَعُوا شَجَرًا، إِلاَّ أَنْ تُضْطَرُّوا إِلَيْهَا...** " [٢٨].

ولا تتقطّع النظائر التي تتجلّى على مختلف المستويات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية والتربويّة وسواها، فإنّه يُناط بها تقديم لوحة، تمتاز بالجمال، والأصالة، وسموّ معناها ووظيفتها في صميم النهج الرساليّ.

تُعدّ هذه المنظومة الأساس الذي يغرس قداسة هذا الدين ورفعته في نفوس البشر، إنْ لم يحجبها غمامٌ عن فئة المخاطبين، سواء تشكّل هذا الغمام من قصديّة التشويه، أو شذوذ الفهم والتشخيص، ولا سيّما أنّها تأخذ صورتها المثاليّة من صورتها الكليّة، فلا يمكن التعامل معها وفق منطق الانتقاء الجزئيّ؛ لأنّ في ذلك غُبْنًا لقيمتها التناسقيّة والانسجاميّة التي أُخذت بالحسبان في أصل عمليّة التقنين.

إنّ لهذه القيم الإسلاميّة المتعالية دورًا بارزًا في عمليّة التطهير المعنويّ لشخصيّة المسلم، فهي تؤهّله؛ ليكون مواطنًا أو عنصرًا رساليًّا فاعلًا ومنتجًا في المجتمع الإسلاميّ، يمارس وظائفه بروحٍ قرآنيّةٍ مزدانةٍ بالبرّ والعدل والإحسان، بوصفه خليفة الله في عمارة أرضه.

ويعبّر التطهير - في مدلوله المجازيّ - عن عمليّة تنقية السلوك من أدران الغرائز والشهوات والأهواء التي تمنع صاحبها من بلوغ الكمالات، وتعرقل ارتقاءه إلى مستوى المسؤوليّة الرساليّة. ولا يتاح هذا الغرض إلّا من خلال تفريغ هذا السلوك من الرذائل، واستبدال الفضائل بها؛ ما يجعل من منظومة القيم الإسلاميّة ركيزة الأنماط السلوكيّة

الرفيعة التي ينبغي استحضارها، واللوذ بأفيائها، نظرًا إلى كونه إكسير الخلاص الذي تلقّاه الإنسان من ربّه، لعلّه يشكّل النور الذي يسعى بين يديه يوم النشور، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[٢٩].

ويأخذ هذا التطهير رتبة الوسيط بين هذه المنظومة القيميّة وإنتاج الحياة الطيّبة، إذ إنّ للقيم الإسلاميّة المتعالية دورًا جوهريًّا أيضًا في إنتاج هذه الحياة، استنادًا إلى شرطيّة العمل الصالح فيها، وكونه يختزل في مدلوله هذه القيم، فمتى حرص المؤمن على العمل الصالح، وحوّله إلى طَبْع وسِمَة ومَلَكَة لديه، أوجد لنفسه مقوّمات الحياة الطيّبة، بانتظار أنْ يتوّج سعيه باكتسابها.

وربّما يتحوّل هذا الطيب من سياق الفرديّة إلى المجال العامّ، عندما يصبح العمل الصالح جزءًا ركينًا من سلوك المجتمع وممارسته، يضاف إلى جذوة الإيمان الحقيقيّ؛ لنكون بذلك أمام مجتمع يتدبّر شؤونه في الدنيا، متطلّعًا في ما يؤدّيه من عمل إلى نصاعة آثاره الدنيويّة والأخرويّة على حدّ سواء.

الخاتمة

إنّ للإسلام رؤيته التي يطرحها حول النمط الذي ينبغي أنْ تكون عليه الحياة الطيّبة، كما أنّ للغرب رؤيته التي تقابلها أيضًا في هذا المجال؛ وليس الاتفاق بينهما في تفاصيل عديدة، تعود إلى المكونات الجزئيّة لكلّ منهما، بمانعة من وجود تمايز على مستوى المشهد الكلّي الذي يقدّمانه، فإنّ كلًّا منهما يبني هذا المشهد بشكل مخروطيّ في ضوء القبليّات والتصوّرات المعرفيّة التي سبق له أنْ سلّما بها، أو برهنا عليها.

ولمّا شيّد الإسلام تفاصيل هذه الرؤية على أساس محوريّة الميتافيزيقا، ولم يرَ في الوجود الماديّ غير مزرعة للآخرة، لا يشكّل حقيقة نهائيّة، فإنّه جعل من الإيمان الحقيقيّ والعمل الصالح الحصانين اللّذين يقودان عربة الكينونة البشريّة نحو طيب هذه الحياة، سواء في صيغتها المحدودة بالموت، أم في صيغتها المتطلّعة إلى الخلود.

وليس غريبًا أنْ ينتهج الغرب خيارًا آخر، ما دام يقيم رؤيته على محوريّة العالم المادّيّ،

ولا يولي الآخرة عناية إلّا في نطاق الإيمان الفرديّ لدى بعض مواطنيه، فمن الطبيعيّ أنْ يصبّ إمكاناته وطروحاته واهتماماته على الإنسان في حدود حضوره المادّيّ في هذا العالم.

ويمكن تفسير تطلّع كثير من المسلمين إلى نمط الحياة الطيّبة في المجتمعات الغربيّة، أو بالأحرى في الدول التي تُوِّجَتْ بها نضالات هذه المجتمعات، بتخلّي هذه الفئة عن مسؤوليّاتها، بعد استهانتها ببنية المجتمع الإسلاميّ الذي تنتمي إليه، وضمور ثقتها بقدرته على النهوض، فضلًا عن ضعف آليّة إعدادها معرفيًّا وثقافيًّا ونفسيًّا.

يضاف إلى ذلك أنّ من طبيعة الإنسان، بغضّ النظر عن دينه وجنسه وقوميّته، أنْ يستحضر الجوانب الناقصة أو المعدومة من حياته، متطلّعًا إلى تحقيقها أو اختيارها بفضول كبير، ويزيد الأمر حدّة عندما تجتاحه أحاديّة التصوّر، فيبصر في تجربة المجتمع الآخر ما يفتقده، مُعرضًا عينيه عن الجوانب الثريّة في بيئته، كما هي الحال عند المسلم الذي يُذْهَل بريادة الغرب للتكنولوجيا، في مقابل الغربيّ الذي يُذْهَل بريادة التجارب الروحيّة في المجتمعات الشرقيّة، فإنّ لدى كلٍّ منهما شغفًا يدفعه إلى إضافة عنصر جديد إلى خبرته، لعلّه يكون الخيار الذي يرجو التزامه، أو الاستمرار في التفاعل معه.

وقد يعظم هذا الشعور عند المسلم نتيجة ما يعانيه مجتمعه من وهن أو انكفاء، تراكم عبر قرون، صاحبه حرص الغرب على تعزيز إمكاناته، وتطوير نظمه، وإسراج طموحه، حتّى تمكّن من إحراز قصب السبق في تأسيس حضارته، مستفيدًا من معالم الحضارات الأخرى، ومنها الحضارة التي طالما دأب الإسلام على تشييد أركانها.

الهوامش

١- شميث، جينا، عصر علوم ما بعد الجينوم، ٨١ وما بعدها.
٢- زيدان، محمود، في النفس والجسد، ١٨٨- ١٩١.
٣- بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ٢/ ٢٨ و٥٨٠.
٤- أرسطو طاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ١/ ١٦٧ وما بعدها.
٥- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ١٩/ ١٥٧.
٦- أونيني، سين ليقي، ٧٢ وما بعدها.
٧- العهد الجديد، إنجيل مرقس: ١٢/ ١٢- ١٧.
٨- روزنبرج، أليكس ودانييل ماك شي، فلسفة البيولوجيا، ١٦٧- ٢١٧.
٩- الرعد/ ١١.
١٠- الصدوق، محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ١/ ٢٠٥.
١١- النحل/ ٩٧.
١٢- كارناب، رودولف، البناء المنطقيّ للعالم والمسائل الزائفة في الفلسفة، ٥٦٩ وما بعدها.
١٣- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، ١٣/ ٩٩.
١٤- الصحيفة السجّاديّة الجامعة، ١٩١.
١٥- ابن سينا، الحسين بن عبدالله، الرسالة الأضحويّة في أمر المعاد، ١٢٠ وما بعدها؛ والإشارات والتنبيهات، ١/ ١١٩ وما بعدها.
١٦- الشيرازيّ، محمّد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة، ٩/ ٢١١ وما بعدها؛ ومفاتيح الغيب، ٦٨٥ و٧٥٢.
١٧- بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميّين، ٥٥٥- ٥٦١.
١٨- المعتزليّ، عبد الجبّار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، ٣٢٣ وما بعدها.
١٩- الصحيفة السجّاديّة الجامعة، ٢٣٠.
٢٠- كانط، إمانويل، نقد العقل العمليّ، ٢١٥- ٢١٧.
٢١- العهد القديم، سفر الخروج: ٢٠/ ٢- ١٧؛ وسفر التثنية: ٥/ ٦- ٢١.
٢٢- العهد الجديد، إنجيل متّى: ١٩/ ١٦- ٢٢؛ وإنجيل مرقص: ١/ ١٧- ٢٢؛ وإنجيل لوقا: ١٨/ ١٨- ٢٣.
٢٣- الطوسي، محمد بن الحسن، الامالي ، ح١، ص٢٦.
٢٤- النحل/ ٩٧.
٢٥- ماهر إسحاق، شنودة، مخطوطات الكتاب المقدّس بلغاته الأصليّة، ١٠.
٢٦- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، باب فضل الصدقة/ ح٥، ٤/ ٣.
٢٧- الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ح٢، ١٨، ص٣٣٠.
٢٨- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، باب وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام في السرايا/ ح١، ٥، ص٢٧.
٢٩- الحديد/ ١٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
* ابن أبي الحديد المعتزليّ، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، القاهرة – مصر، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٦٧م.
* ابن سينا، الحسين بن عبدالله، الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسيّ، تحقيق سليمان دنيا، ط١، القاهرة – مصر، دار المعارف، ١٩٧٥م.
* ـــــــــــ، الرسالة الأضحويّة في أمر المعاد، تحقيق حسن عاصي، ط١، بيروت – لبنان، المؤسّسة الجامعيّة، ١٩٨٧م.
* أرسطو طاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه إلى الفرنسيّة بارتلمي سانتهلير، وإلى العربيّة أحمد لطفي السيّد، ط١، القاهرة – مصر، دار الكتب المصريّة، ١٩٢٤م.
* إسحاق، شنودة ماهر، مخطوطات الكتاب المقدّس بلغاته الأصليّة، ط١، القاهرة – مصر، مطبعة الأنبا رويس الأوفست، ١٩٩٧م.
* الحرّ العامليّ، محمّد بن الحسن: تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ط٤، قم – إيران، مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، ١٩٩٣م.
* الصدوق، محمّد بن عليّ: عيون أخبار الرضا عليه السلام، تعليق حسين الأعلميّ، ط١، بيروت – لبنان، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، ١٩٨٤م.
* الطوسيّ، محمّد بن الحسن: الأمالي، تحقيق مؤسّسة البعثة، ط١، قم – إيران، دار الثقافة، ١٩٩٣م.
* الكلينيّ، محمّد بن يعقوب: الكافي، تحقيق علي أكبر غفّاري ومحمّد آخوندي، (ط٤)، طهران – إيران، دار الكتب العلميّة، ١٩٨٦م.
* المعتزليّ، القاضي عبد الجبّار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم العثمان، ط١، القاهرة – مصر، مكتبة وهبة، (١٩٩٦م).
* أونيني، سين ليقي، ملحمة جلجامش، ترجمها عن الإنجليزيّة أنور الموسويّ، ط١، بغداد – العراق، دار أقواس للنشر، ٢٠١٥م.
* بارتون، بروس؛ وآخرون، التفسير التطبيقيّ للكتاب المقدّس، ترجمة وليم وهبة وغيره، ط١،القاهرة – مصر، شركة ماستر ميديا، ٢٠٠٢م.
* بدوي، عبد الرحمن مذاهب الإسلاميّين، ط١، بيروت – لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٩٦م.
* ـــــــــــ، موسوعة الفلسفة، ط١، قم – إيران، منشورات ذوي القربى، ٢٠٠٦م.
* روزنبرج، أليكس؛ و ماك شي، دانييل، فلسفة البيولوجيا – مدخل معاصر، ط١، القاهرة – مصر، المركز القوميّ للترجمة، ٢٠١٨م.
* زيدان، محمود، في النفس والجسد – بحث في الفلسفة المعاصرة، ط١، بيروت – لبنان، دار النهضة العربيّة، ١٩٨٠م.
* زين العابدين، الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجّاديّة الجامعة، إشراف محمّد باقر الأبطحيّ، ط١، قم – إيران، مؤسّسة أنصاريّان للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.
* شميث، جينا، عصر علوم ما بعد الجينوم، ترجمة مصطفى فهمي، ط١، القاهرة – مصر، المركز القوميّ للترجمة، ٢٠١٠م.
* الشيرازيّ، محمّد بن إبراهيم، مفاتيح الغيب، ط١، بيروت – لبنان، مؤسّسة التاريخ العربيّ، ٢٠٠٨م.
* الشيرازيّ، محمّد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية

في الأسفار العقليّة الأربعة، ط٢، قم- إيران، منشورات طليعة النور، ٢٠٠٧م.
* كارناب، رودولف، البناء المنطقيّ للعالم والمسائل الزائفة في الفلسفة، ترجمة يوسف تيبس، ط١، بيروت - لبنان، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠١١م.
* كانط، إمانويل، نقد العقل العمليّ، ترجمة غانم هنّا، ط١، بيروت - لبنان، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠٠٨م.

الحاكميّة ودورها في بناء الحياة الحضارية الطيّبة للأمة

السيد الدكتور علي محمد جواد فضل الله

أستاذٌ في الحوزة العلمية ومحاضرٌ جامعي في الفلسفة والكلام / جامعة المصطفى / لبنان

ملخص البحث

لا شك في أنّ مسألة الحاكمية والسلطة هي وليدة كون الإنسان إجتماعيًا بطبعه وفطرته. ومن هنا أدّت الحاكمية والولاية دورًا خطيرًا في حياة المجتمعات الإنسانية ومنها المجتمع الإسلامي، منذ حاكمية الرسول ﷺ وإلى يومنا الحاضر. وممّا يدلّ على أهميّة الحاكمية ومحوريتها في الحياة الاجتماعية والفردية للناس، أنّ انتظام الحياة العامة إجتماعيًا وثقافيًا وتربويًا وإقتصاديًا وأمنيًا ورفاهيًا و... مرهونٌ غالبًا بالعامل السياسي سلبًا أو إيجابًا. فمسألة الحاكمية والسلطة لها تأثيرها الكبير على البناء الحضاري للأمم والشعوب. فعندما يكون الحكم حكمًا عادلًا رشيدًا حكيمًا، عندها ينعكس ذلك على واقع الناس وحياتهم ومعيشتهم وحريتهم وتقدمهم العلمي والثقافي من خلال ما يوفر الحُكم حينذاك من مناخاتٍ إيجابيةٍ تسمح بتفجير الطاقات والإبداعات في مختلف العلوم والفنون وبالتالي يجد كلّ فردٍ من أفراد الأمة بركات ذلك من خلال ما تتيحه السلطة العادلة من تكافؤ الفرص والإستفادة من كلّ الإستعدادات والطاقات والقابليات الموجودة عند أبناء الأمة، دون أي مانعٍ أو معيقٍ قد يقف حائلًا أمام الاستفادة من استعدادٍ هنا أو طاقةٍ إبداعيةٍ هناك. فهذه الموانع القاتلة للطاقات والقابليات غالبًا ما تنمو في ظلّ أجواء حاكميةٍ ظالمةٍ فاسدة، تضع الأمور في غير مواضعها، طبقًا لحسابات خاصة ومصالح ذاتية لا تمت لمصلحة الأمة بصلة. وهذا ما يكون في الكثير من الأحيان من العوامل السلبية والمدمرة لحاضر الشعوب ومستقبلها.

المحور الأول: الحكومة وضرورتها في الواقع الاجتماعي

الاجتماع البشري وحتمية الحكم

إن الإنسان بطبيعته ميّالٌ للإجتماع مع باقي أفراد نوعه[1]؛ ولذا فإنّنا نجد لديه نزوعًا نحو الحياة الاجتماعية، سواء قلنا إنّ هذه النزعة الاجتماعية هي غاية كلية عامة يندفع نحوها الإنسان فطريًا، فتكون وليدة طبيعته وذاته[2]، أم إنّه نزوع اضطراري تمليه عوامل خارجية فيكون الاجتماع غايةً ثانويةً لا غاية أولية بحسب التعبير الفلسفي، أم إنّه نزوعٌ انتخابي فتكون غايته فكريةً تمليها القوة العقلية المدركة للإنسان، وبالتالي لا تكون غايةً طبيعية[3]. وكيفما كان، وانطلاقًا من هذا النزوع البشري نحو الإجتماع نجد أنّ الإنسان- إضافةً إلى

نزوعه الطبيعي الفطري لنظيره[٤] لا يستطيع إشباع احتياجاته المتعددة بمفرده، فلا بدّ له من معاونة بني جنسه؛ وذلك لأنّ الله تعالى قد خلق الناس متفاوتين ومختلفين في الكفاءات والإمكانات الجسمية والروحية والعقلية والعاطفية، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في مجالات معينة، وبهذه الطريقة جعل جميع الناس محتاجين ومندفعين إلى الارتباط ببعضهم البعض، من خلال عمليات الأخذ والعطاء القائمة على أساس قوانين ونظم توزع الأعمال والفوائد والحقوق والواجبات[٥]. ومن هنا، فقد ذهب مسكويه إلى أنّ الإجتماع البشري هو شرط ضروري لتحقيق السعادة لدى البشر. فهو يقول: " تحصيل السعادة لا يتم إلّا بالاجتماع "[٦].

وها هو "أفلاطون" (٣٤٧ ق.م) يعتبر أنّ الدولة تنهض من انعدام الإكتفاء الذاتي عند الأفراد"[٧]. فيقول في جمهوريته:" إنّ المرء لا يستغني عن إخوانه، هذا هو منشأ الهيئة الاجتماعية والدولة "[٨]. ويقول على لسان سقراط:" أرى أنّ الدولة تنشأ لعدم استقلال الفرد بسد حاجاته نفسه وافتقاره إلى معونة الآخرين"[٩]. وقد عدّ أفلاطون أيضًا الإنسانَ هو الأصل في كيان الدولة، وأنّ الفوضى لا تعم إلّا إذا تخلّى الإنسان عن القانون، وبذلك يحل الحكم الفردي الإستبدادي. وقد وافقه على ذلك أرسطو في مؤلفه (السياسة) معتبرًا أنّ الإنسان حيوان سياسي[١٠]. وفي هذا المجال يقول الفارابي (٣٣٩ هـ) في مدينته الفاضلة :" وكلّ واحدٍ من الناس مفطور على أنّه محتاج في قوامه وفي أنْ يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة، لا يمكنه أنْ يقوم بها كلّها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له بهذه الحال؛ فلذلك لا يمكن أنْ ينال الإنسان الكمال الذي لأجله جُعلت الفطرة الطبيعية إلّا باجتماعات جماعةٍ كثيرةٍ متعاونين... ولهذا كثرت أشخاص الإنسان، فحصلوا في المعمورة من الأرض، فحدثت منها الجماعات الإنسانية"[١١].

ويقول ابن سينا (٤٣٨هـ): " إنّه من المعلوم أنّ الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنّه لا يحسن معيشته لو انفرد وحده شخصًا واحدًا يتولى تدبير أمره من غير شريك يعاونه على ضروريات حاجاته، وأنّه لا بدّ من أنْ يكون الإنسان مكفياً بآخر من نوعه، يكون ذلك آخر أيضًا مكفياً به وبنظيره ...فإذا كان هذا ظاهرًا فلا بدّ من وجود الإنسان وبقائه من

مشاركته، ولا تتم المشاركة إلّا بمعاملته... ولا بدّ في المعاملة من سُنّةٍ وعدل، ولا بدّ للسُنّة والعدل من سانٍّ ومعدّل ولا بدّ أنْ يكون هذا بحيث يجوز أنْ يخاطب الناس ويلزمهم السُنّة، ولا بدّ من أنْ يكون هذا إنسانًا"[١٢] . ولا يعني افتراض كون الإنسان ذا ميولٍ إجتماعية، انصهاره وذوبانه في بوتقة الحياة الاجتماعية، بل تبقى لديه دوافعه ونوازعه الفردية، التي تتيه وراء الأنانية والاستغراق في حب الذات، فيؤدّي هذا الاختلاف في النوازع والميول بين البشر إلى التفتت والانشقاق في الحياة الاجتماعية. فانطلاقًا من ذلك ولكي تصفو الحياة الاجتماعية من اضطراب الميول والنوازع وتأخذ مجراها، ولكي تُكفل حريات الأفراد وتُحمى من شتّى أنواع الإكراهات، كان لا بدّ من قيام سلطةٍ إجتماعيةٍ تكون فوق النزوات الشخصية التي تعصف بكيان الأمة. يقول يحيى بن عدي (٣٦٤هـ): " فالناس مطبوعون على الأخلاق الرديئة، منقادون للشهوات الدنيئة؛ ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن والسياسات المحمودة، وعظم الإنتفاع بالملوك الحَسني السيرة ليردعوا الظالم عن ظلمه، ويمنعوا الغاصب عن غصبه، ويعاقبوا الفاجر على فجوره، ويقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره"[١٣]. أضف إلى ذلك أنّه لا بدّ للمجتمع كي يصل إلى مُثله العليا وأهدافه المرسومة له، وتوجيه نشاطه وتفعيله، وتثمير جهوده وايناعها، وبالتالي ارتقائه وعروجه من حالة التخلف إلى التطور والتحضر[١٤]، لا بدّ له من أجل ذلك كلّه من أمرٍ معينٍ وصيغةٍ لها وضعية خاصّة توجّهه نحو أهدافه، وتسهر على تحقيق غاياته، وقد اصطلح المفكرون على تسميتها بـ(السلطة السياسية العليا للجماعة)[١٥] أو (النظام السياسي) أو (الحاكمية) ما شئت فعبّر.

وهكذا ومن خلال ما تقدّم، نجد أنّ الحاكمية كانت ولا تزال وليدة الحاجة الاجتماعية عبر مر العصور، إذ عُدَّت ضرورةً فطريةً للإجتماع البشري[١٦].

المحور الثاني: الإسلام ونظام الحكم

بعد أنْ وقفنا على ضرورة الحكم للاجتماع البشري، نريد تسليط الضوء على موقف الإسلام من مسألة الحكم. فهل الإسلام دينٌ ودولةٌ أم أنّه دينٌ فقط؟ على قاعدة "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[١٧] ، كما هو الحال في المسيحية التي تطغى عليها "سمة روحية صرف، وهي تهيب

بالإنسان إلى العزوف عن الحياة الدنيا ليُطهَّر من الإثم والخطيئة"[١٨]. وهكذا كان الفصل في المسيحية بين الديني والدنيوي (السياسي). يقول السيد المسيح عليه السلام-على ما نقل عنه-"إنّ مملكتي ليست من هذا العالم"[١٩].

وعندما نقف مع الحاكمية في الإسلام نجد أنّ لهذا العامل السياسي شأنًا خطيرًا في انشقاق المسلمين وانقسامهم شيعًا وأحزابًا إلى حدٍّ جعل الشهرستاني يقول: "ما سُلّ سيفٌ في الإسلام على قاعدةٍ دينية، مثل ما سُلَّ على الإمامة في كلّ زمان"[٢٠].

أضف إلى ذلك، فإنّ للحاكمية – عند بعض الفرق الإسلامية- دورها الخطير والحاسم في صلب العقيدة والتشريع الإسلامي فهي ليست بالأمر الطارئ على واقع الشريعة بل هي من المسائل التي لها مدخلية في كلّ مواطن التشريع، لا بل حتى في أدق تفاصيله وجزئياته، "فقضية الحكم ليست قسمًا من أقسام الشريعة الإسلامية وفصلًا من فصولها، وبابًا من أبوابها، وإنّما هي طبيعةٌ فيها، ونتيجةٌ لها، وسمةٌ فيها، تتولّد منها تولّد الثمرة من الشجرة والضوء من الشمس"[٢١]. وقد يستدلّ على ذلك من هدي الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وآله الأطهار، فعن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية"؟ قال: "نعم"، قلت: جاهليةً جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه؟ قال: "جاهلية كفر ونفاق وضلال"[٢٢]. وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "كل من دان الله عز وجل بعبادةٍ يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، والله شانئ لأعماله، ومثله كمثل شاةٍ ضلت عن راعيها وقطيعها...لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردها، فبين هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها، وكذلك والله يا محمد من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل ظاهر عادل، أصبح ضالًا تائهًا، وإنْ مات على هذه الحالة مات ميتة كفرٍ ونفاق، واعلم يا محمد أنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله، قد ضلّوا وأضلّوا... "[٢٣]. وانطلاقًا ممّا تقدّم، نجد أنّ الإمامة عند أهل البيت عليهم السلام هي من الأركان الأساسية التي تقوم عليها العقيدة والتشريع الإسلامي بنحو إنّها تكون هي الميزان والمعيار للأعمال والمعتقدات، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّه قال: "كلُّ من دان الله عز وجل بعبادة يُجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله،

فسعيه غير مقبول وهو ضالٌّ متحيّر، والله شانئٌ لأعماله- إلى أنْ قال- وإنْ مات على هذه الحال مات ميتة كفرٍ ونفاق... "[٢٤]. بمعنى أنّ جميع أعماله وعباداته ذهبت أدراج الرياح؛ لأنّها افتقدت شرطًا أساسيًا في مقوماتها، هو بمنزلة الروح المنبثّ فيها، والذي يخرجها عن منزلتها العدمية شرعًا، جاعلًا لها المقبولية عند الله تعالى وهذا الشرط هو الإمامة.

والآن لا بدّ لنا أنْ نسأل: لمن الحاكمية في الإسلام؟ أي من له الحقّ بالأمر والنهي والحلّ والعقد على مستوى التشريع؟ والجواب الذي لا يشوبه تردّد هو أنّ الله تعالى هو الحاكم الأعلى، فالأمة لا تملك سلطةً تشريعيةً بمعزل عن شريعة الله ولا سلطة قضائية بمعزلٍ عن قضاء الله، فالله وحدَه يملك، وحدَه يشرع، وحدَه يأمر[٢٥]. ومن هنا فإنّ الأصل الأولي، العقلي والنقلي، في مسألة السلطة على البشر هو عدم مشروعية ولاية أحدٍ على أحدٍ من البشر "والولاية الوحيدة والثابتة بحكم العقل والنقل، هي ولاية الله تعالى وحده دون غيره، وهي ولايةٌ تكوينيةٌ تشريعية، وليس لأحدٍ من البشر والملائكة ولاية على أحدٍ في عرض ولايته تعالى، وبصورةٍ موازية لها، وهذا الأصل الأصيل تعبيرٌ - في الوجود والحياة والزمن - عن حقيقة التوحيد الخالص والمطلق في الألوهية والخالقية والحاكمية، ولا يمكن الخروج هذا الأصل إلّا بدليل قاطع"[٢٦]. وقد ثبت بالدليل القاطع المحكم والجلّي ما يقيّد هذا الأصل الأولي بولاية النبيّ على المؤمنين[٢٧]، قال تعالى: ﴿**النَّبِيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب/ الآية: ٦] وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[٢٨].

إلى هذا فإنّه يظهر من أدلّة ثبوت الولاية للنبي ﷺ ثبوت كلا القسمين من الولاية، أعني -أ- الولاية العامة، -ب- والولاية في الأمور العامة. ومرجع الولاية في الأمور العامة إلى أنّ السلطة القضائية والتنفيذية بيد النبي ﷺ فالأولى من قبيل فصل الخصومة بين المتخاصمين، وحقّ نصب القيّم على أموال الغائب والقاصر فهذه كلّها ترجع إلى النبي ﷺ، ونستفيد ذلك من خلال القرآن الكريم والسُنّة النبوية الشريفة. أمّا الثانية فهي تشتمل على وظائف متعدّدة منها السلطة على إجراء الأحكام الجزائية كالحدود والتعزيرات. وأمّا الولاية العامّة فهي عبارةٌ عن الولاية المطلقة للنبيّ ﷺ بالنسبة للأموال والأنفس، ويعني ذلك وجوب

اتّباع أوامره ونواهيه - ولو لزم من ذلك إتلاف النفس والمال - وذلك لأجل التوصّل للمصالح العامة أو مواجهة المفاسد العامة[٢٩]. وأمّا بعد حقبة النبوة وولايتها على جماعة المسلمين فقد وقع الخلاف بينهم حول طبيعة الحكم من حيث مصدر الشرعية له، وقد تبلور اتجاهان حول ذلك: -١- اتجاه يقول بأنّ الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار، وهذا ما ذهب إليه أهل السُنّة، فتعيين الإمام عندهم قد انحصر في الطرق التالية:

-أ- انتخاب أهل الحَلّ والعَقد -ب- العهد من الإمام السابق. -ج- الدعوة إلى النفس أو الاستحواذ على السلطة[٣٠]. وقد ذهبوا إلى أنّ النبيّ ﷺ لم يبين طريقةً معينةً للاستخلاف، وبالتالي فإنّ الإمامة لم تكن نابعةً من نظريةٍ سياسيةٍ دينيةٍ منصوص عليها، بل كانت وليدة حاجة الدين إليها بما هي - أي الإمامة والسياسة- أمر مختلف عنه وعرفي. ويستند فقهاء أهل السُنّة في تقويمهم للكثير من الأحكام السياسية للرسول ﷺ بأنّها كانت عن اجتهاد، لا عن نصٍّ ووحي، إلى أمورٍ ثلاث: -١- أنّ الرسول ﷺ لم يبيّن أحكام السياسة كما بيّن أحكام الدين - ٢- أنّه لم يستخلف-٣- أنّه كان يستشير أصحابه، بل لقد أمر الله تعالى بذلك، قال تعالى: ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾[٣١].

والاتجاه الآخر وهو القائل بأنّ الإمامة تثبت بالنصّ والتعيين، وهي رئاسةٌ عامّةٌ في أمور الدين والدنيا نيابةً عن النبيّ ﷺ[٣٢]. وقد مثّله الشيعة الإمامية، "الذين لا يفرّقون بين أمور السياسة وفرائض الدين، والذين يرون أنّ أحكام السياسة لا تقلّ شأنًا عن تشريعات الدين"[٣٣]. ودليلهم ينحصر في وجهين: (الأول): أنّ الإمام معصوم، والعصمة أمرٌ خفي، لا يعلمها إلّا الله تعالى، فوجب عندها أنْ يكون نصبه من قِبَلِه. (الثاني) أنّ الرسول ﷺ أرشد أمّته في أدق الأمور في حياتهم، وعلّمهم الكثير من الأمور المندوبة. أضف إلى ذلك أنّه إذا سافر عن المدينة يومًا أو يومين استخلف فيها من يقوم بأمور المسلمين، ومَن هذه حاله، لا يمكن أنْ يُنسب إليه إهمال أمته وعدم إرشادهم في أجلِّ الأشياء وأعظمها قدرًا وأكثرها فائدة وحاجة، وهو منصب الولاية على أمورهم، فوجب من سيرته ﷺ نصب إمام بعده، والنصّ عليه وتعريفهم إيّاه[٣٤].

المحور الثالث: الحكومة في الإسلام بين الإثبات والنفي:

نُفاة الحاكمية في الإسلام:

لقد شذّ بعض المسلمين، وقالوا بعدم وجوب الإمامة رأسًا لا بالعقل ولا بالشرع، ومن هؤلاء (النجدات) من الخوارج، و(أبو بكر الأصم وهشام الفوطي) من المعتزلة. ووجهة نظرهم، أنّه إذا تواطأت الأمة على العدل، و تعاطوا الحق بينهم، ونفذوا أحكام الله تعالى، لم يُحتج حينئذٍ إلى إمامٍ ولا يجب نصبه[٣٥].

والذي حملهم على مذهبهم هذا، هو الفرار عن السلطة والملك، ولما يتبعها من استطالة وتغلّب واستمتاع بالدنيا، ولما رأوه في الشريعة من ذمّ ذلك، والترغيب في رفضه. ولكن هذا الطرح قد واجه كثيرًا من الردود، إذ ذهب بعضهم في ردّه على ذلك بأنّ الشرع لم يذم المُلك لذاته، ولم يُحذّر منه، وإنّما ذمّ توابع الملك، من المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات، وبالمقابل أثنى على العدل والنَّصَفَةَ، وإقامة مراسم الدين والذب عنه، وأوجب بإزائها الثواب وهذه كلها من توابع الملك. وكذلك فقد كان لداوود وسليمان عليهما السلام الملك، وهما من أنبياء الله تعالى. أضف إلى ذلك أنّ ما ذهبوا إليه منافٍ لما التزموا به، من وجوب إقامة أحكام الشريعة وهذا لا يحصُل إلا بالعصبية والشوكة، والعصبية مقتضية بطبيعتها للملك فيحصل الملك وإنْ لن يُنصَّب إمام[٣٦].

إلى هذا فقد ذهب بعض المعاصرين أمثال علي عبد الرزاق، وطه حسين إلى أنّ رسالة النبي صلى الله عليه وآله هي رسالة لا حكم، ودين لا دولة. فولاية الرسول على قومه ولاية روحية، منشؤها إيمان القلب الذي يتبعه خضوع الجسم، وأمّا ولاية الحاكم فهي ولاية مادية تعتمد إخضاع الجسم، من غير أنْ يكون لها بالقلوب اتّصال، فتلك ولاية هداية إلى الله، وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة، وعمارة الأرض تلك للدين، وهذه للدنيا، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية، ويا بعد ما بين السياسة والدين[٣٧]. وهكذا "فإنّ محمدًا- يقول علي عبد الرزاق- ما كان إلا رسولًا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة وإنّه لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله ملك ولا حكومة، وأنّه صلى الله عليه وآله لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يُفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان إلّا رسولًا كإخوانه الخالين من الرسل، وما

كان ملكًا ولا مؤسس دولة، ولا داعيًا إلى ملك"[٣٨]. ويتابع عبد الرازق تأكيده لذلك فيرى أنّ " تلك الوحدة العربية التي وجدت زمان النبي ﷺ لم تكن وحدةً سياسيةً بأيّ وجهٍ من الوجوه ولا كان فيها معنى من معاني الدولة والحكومة، بل لم تَعْدُ أنْ تكون وحدةً دينيةً خالصةً من شوائب السياسية ... يدلك على هذا سيرة النبي ﷺ فما عرفنا أنّه تعرض لشيء من سياسة تلك الأمم الشتيتة، ولا غيَّر شيئًا من أساليب الحكم عندهم... (و) إذا تأملت وجدت أنّ كلّ ما شرّعه الإسلام، وأخبر به النبي المسلمين، من أنظمة وقواعد وآداب لم يكن في شيء – كثير ولا قليل – من أساليب الحكم السياسي، ولا من أنظمة الدولة المدنية "[٣٩] . وذهب طه حسين مذهب عبد الرازق في الفصل بين الدين والسياسة، معتبرًا أنْ لا فرق بين الإسلام والمسيحية في مسألة الحكم؛ فنظام الحكم أيام النبي ﷺ لم يكن مفروضًا من السماء، لا رأي للناس فيه، بل إنّ الإسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ثم يخلي بعد ذلك بينهم وبين أمورهم ، تمامًا كالمسيحية ويذكر طه حسين – في المقام – قول السيد المسيح عليه السلام "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[٤٠].

ولكن، ما ذهبوا إليه فيه كثيرٌ من التعسّف والشطط عن روح الدين والشريعة، وواقع التجربة وممارسة القيادة للنبيّ ﷺ في المجتمع الإسلامي الأول.

ومن هنا، فلا بدّ لنا أنْ نعدّ محاولة كلٍّ من علي عبد الرازق وطه حسين في فصل الدين عن السياسة وليدة الجو العام الذي أعقب سقوط الخلافة العثمانية وظهور الدول القطرية، وما استتبع ذلك من غزو فكري أوروبي، كان مطلبه فكّ الإرتباط بين (الدولة)، وبين الدين، وبالتالي استدعاء (التنوير – الغربي– العلماني) لذلك، ولجعل الدين شأنًا عقائديًا شعائريًا لا علاقة له بنظم وسياسة العمران البشري. وهكذا وعندما تحقق الحلم التاريخي الغربي بتقسيم العالم الإسلامي، كان لا بدّ من تبرير هذا الواقع بالفكر، عبر خلق وفاقٍ بين الثقافة الإسلامية (العصرية)، وبين الدولة القطرية العلمانية[٤١].

وأريد الإشارة إلى أنّي لست هنا في مقام الردّ عليهما، لكون وجهة البحث مختلفة عن ذلك؛ ولأنّ العلماء والمفكّرين قد أطالوا الردّ على مثل هذه الآراء وتفنيدها وإظهار بطلانها وغرابتها عن روح الإسلام[٤٢].

ونحن هنا سنحاول الاستدلال على واقعية وأساس الحكومة في الإسلام، ومن ثم على حاكمية الرسول ﷺ من خلال الممارسة التاريخية؛ وذلك من أجل تسليط الضوء على هاتين النقطتين وبالتالي للرد - بشكل عام- على ما ذهب إليه الأستاذان. ومن هنا، فإذا ألقينا نظرةً على التشريع الإسلامي لوجدنا أنّ الأحكام والمناهج الإسلامية، تقتضي وتفرض بنفسها قيام دولة وحكم، وذلك لجهتين: الأولى: أنّ الإسلام يدعو وفي أكثر من نصّ[٤٣] - آية وحديث - إلى الوحدة بين أبنائه وأتباعه، وبالمقابل ينهى عن الفرقة والاختلاف، حتى عرف الإسلام بأنّه بني على كلمتين (كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة). ومن المعلوم أنّ الوحدة والاجتماع لا يمكن أنْ تتحقق إلّا بوجود جهازٍ يجمع شتات الآراء ويوفق بين المصالح، ويحافظ على العلاقات، فلولا هذا الجهاز (الدولة) لذهب كلّ فريقٍ مذهبًا، وتمزق المجتمع أشتاتًا، وعادت الوحدة اختلافًا[٤٤].

الثانية: أنّه إذا كان الحديث القرآني عن (العقيدة) يدلّ على أن لا سيطرة للرسول ﷺ على قلوب المعتقدين لها والمطالبين بها؛ لأنّ القلوب لا تخضع لموازين السيطرة والجبر والإكراه، إذ لا إكراه في العقيدة وما على الرسول فيها إلا البلاغ، فنحن نجد في المقابل أنّ آيات التشريع في المجالات المختلفة: الحقوقية والاجتماعية والمالية، قد جاءت بوجوب إقامتها على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، ولم تقف فقط عند حدود البلاغ، فهي أنزلت عليه لكي يقيمها، الأمر الذي يعني وجوب إقامة (سلطة/ دولة) التنفيذ والإقامة للشريعة وحدودها وأحكامها. وهكذا فإنّ أحكام التشريع تدلّ بصميم ذاتها على أنّ تشريعها افترض وجود حاكم يقوم بتنفيذها ورعايتها، إذ لا يعقل سنّ مثل هذه القوانين دون وجود قوةٍ مجرية وسلطةٍ تنفيذية تتعهد إجراءها وتتولى تطبيقها[٤٥].

المحور الرابع: ملامح حكومة النبيّ ﷺ في الحقبة المدنية

والآن سنقف على بعض معالم الدولة الإسلامية التي أقامها الرسول ﷺ، وكذلك على حاكميته وممارسته للقيادة السياسية في الجماعة الإسلامية الأولى.

وقبل ذلك نريد أنْ نقف على الخلفية القرآنية لهدفية اختيار النبي للحكم والقيادة. فنحن إذا رجعنا إلى المسؤولية البشرية في الإسلام، لوجدنا أنْ لا معنى لها بدون الاختيار والحرية.

فالإنسان قد هداه الله تعالى سبل الصلاح كما هداه سبل الفساد، يقول تعالى ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا** ﴾[٤٦]. وهكذا ولأجل هذه الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان، إذ أعطاه إمكانية الخير والشر بنحو تتعادلان فيه، كان هناك إمكانية لوقوع الفساد والشر في الممارسة البشرية؛ ولذا فإنّ الله تعالى لم يهمل الإنسان بل تولى سبل تربية هذا الخليفة وتعليمه لكي يضع قدره ومصيره ، وينمي وجوده. ومن هنا علم الله تعالى آدم الأسماء كلها، ووضع للإنسان قانون تكامله، من خلال خط آخر يجب أن يسير إلى جانب خط الخلافة، وهو خطّ الشهادة الذي يمثل القيادة الربانية الرسالية، أي قيادة الأنبياء والأوصياء في الأرض. فخط الشهادة إذن يجسّده ويمثّله شهيدٌ رباني يحمل إلى الناس هدى الله تعالى، ويعمل من أجل تحصينهم من الضلال والإنحراف[٤٧]، فيصل الإلهي بالبشري، ويضع المتعالي في سياق التاريخ عبر النصّ الذي انتظم هو في سياقه، والذي يمنح وجودهما شرعيته المتعالية[٤٨].

إلى ذلك فقد تجلّت الدولة الإسلامية، وبالتالي قيادة النبيّ لها في أمورٍ عديدة، تدلّ على أنّ النبي ﷺ هو أوّل من أقام حكومة إسلامية، وبنى قواعدها، وباشر أمورًا هي من صميم العمل السياسي والنشاط الإداري والحكومي، ومن هذه الأمور:

١- أنّه ﷺ عقد ميثاقًا سُمّي الصحيفة أو الكتاب[٤٩] بين أصحابه، وبين الطوائف والقبائل الأخرى، كاليهود وغيرهم، وهذا الميثاق ، يشكل في الحقيقة أوّل دستورٍ للحكومة الإسلامية، فهذا الدستور حدّد طبيعة التركيبة الداخلية للأمة وعدّها أمةً من دون الناس لها شخصيتها المستقلة، ونصّ على حقوقهم وواجباتهم بوصفهم مواطنين، وكذلك حدّد موضوع السلطة في الدولة الإسلامية من أجل تنظيم أمور الأمة، وكذلك نصّ على النظام القانوني الذي يخضع له الجميع المتمثل في الشريعة والتي هي مرد كلّ نزاع. وأكد الدستور (الصحيفة) على وجوب التناصر والمساواة بين جميع الفئات المشتركة في الدولة، وعلى منع الولاء لأعدائها، والتكامل داخل كلّ فئة، وكذلك حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية[٥٠].

٢-وجود قائد وحاكم للدولة، وهو النبيّ ﷺ وقيادته تجلّت في تعيينه للولاة والقضاة

على الأقاليم التابعة للدولة، وكذلك في عزلهم، وتجلّت في قيادته للجيش بنفسه أو تعيينه قائدًا له، وفي فصله بين المنازعات أو تعيين من يفصلها، وكذلك في تعيينه نوابًا له على عاصمته (المدينة) إذا غادرها وكذلك في مراسلاته (الدبلوماسية) وبعثه السفراء إلى قيصر وكسرى وملك الحبشة وغيرهم، وكذلك في معاهداته كصلح الحديبية مثلًا[٥١].

٣- وجود عاصمة للدولة، وكانت العاصمة مدينة يثرب فيها يقيم الرئيس أو الحاكم (وهو الرسول هنا)، ومستشاروه (مجلس شورى) من صحابته وإليها تفد الوفود، ومنها تنطلق الجيوش والبعثات[٥٢].

هذه بعض جوانب مظاهر الحكومة الإسلامية لقيادة النبيّ محمد ﷺ. فما مرّ يدلّ وبشكل لا لبس فيه على التشاكل والتماهي بين الدين والدولة، فسيطرة الدين لا تعني مطلقًا غياب الدولة.

- طبيعة الحكم في الدولة الإسلامية زمن رسول الله ﷺ:

وانطلاقًا من ذلك وقع البحث في الفكر السياسي الإسلامي حول طبيعة الحكم في الدولة الإسلامية زمن رسول الله ﷺ، فتعددت الآراء حول ذلك، فذهب بعضٌ إلى أنّ طبيعة الحكم كانت تستند إلى الشورى، بما هي أصلٌ ثانٍ للنظام الإسلامي بعد النصّ، وهكذا فدولة الإسلام هي دولة الشورى[٥٣]. وذهب بعضٌ آخر إلى كون الحكم زمن الرسول كان ثيوقراطيًا، فكما يقضى في أمور الدين بالوحي كذلك في مسائل السياسة[٥٤]. وذهب آخر إلى أنّ الحكم زمن الرسول ﷺ كان ثيوقراطيًا في أجلِّ المسائل السياسية والأحداث التاريخية التي لها أثر في بناء الدولة أو مسار التاريخ، وكان بالمقابل ديموقراطيًا (شورويًا) في الأحداث العرضية أو المسائل الدنيوية البحتة كمسألة تأبير النخل مثلًا[٥٥]. وهناك من عدّ أن "حكومة الإسلام ليست مطلقة، وإنّما هي دستورية، ولكن لا بالمعنى الدستوري المتعارف، الذي يتمثل في النظام البرلماني أو المجالس الشعبية[٥٦]، وإنّما هي دستورية، بمعنى أنّ القائمين بالأمر يتقيّدون بمجموعة الشروط والقواعد المبيّنة في القرآن والسُنّة، والتي تتمثل في وجوب مراعاة النظام، وتطبيق أحكام الإسلام وقوانينه"[٥٧].

المحور الخامس: الحكومة العلوية: التجربة النموذجية للحاكمية

عندما يدرس الباحث نظام الحكم العلوي فإنّه يقف أمام تجربةٍ متميزةٍ ورائدةٍ على مستوى الحاكمية في الإسلام، بل لا نبالغ إنْ قلنا بريادتها وتألقها على المستوى الإنساني العام، لما امتازت به هذه التجربة من قيادةٍ فريدةٍ ونموذجيةٍ بخصائصها وصفاتها الذاتية، أَضْفَت على هذا الحكم فرادته واستثنائيته، إضافة لما تنطوي عليه هذه التجربة من تطبيق دقيق لمبادئ الإسلام وتعاليمه ونظرته وفلسفته في إدارة شؤون الحياة العامة والخاصة بما ينسجم مع رؤيته الوجودية الكونية في عمارة الحياة وبنائها طبقًا لموازين الآخرة وضوابطها ومحدداتها، ممّا يجعل من هذه التجربة تجربةً إلهيةً وازنت بين متطلبات الحياة وضروراتها ورسالة السماء وموجباتها. وهكذا كانت حاكميته عليه السلام رسالية أضفت على مادية الحياة مشربًا روحيًا ومذاقًا معنويًا، وعمقًا أخلاقيًا جعل من هذه التجربة نبراسًا ومنهجًا يحتذى في كيفية تدبير شؤون الناس وإدارة حياتهم، بعيدًا عما هو معروف ومعتاد في عالم الحكم والسياسة من مكرٍ وخديعةٍ وظلمٍ وتجبرٍ وتسلطٍ، تُستباح به حياة الناس وتهدر به حقوقهم وكراماتهم.

ونحن هنا – وباختصار يتناسب المقام – سنقف عند أهم تجلّيات التجربة العلوية في الحكم وإدارة شؤون الأمة وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: الحاكمية: أهميتها وفلسفتها

لقد جاءت كلمات أمير المؤمنين لتؤكّد أهمية الحاكمية والسلطة ومحوريتها في الحياة الاجتماعية للإنسان، وضرورتها للاجتماع البشري بنحو لا يمكن تخطيها وتجاوزها حتى لو تم ذلك على حساب بعض الصفات والشروط الأساسية في الحاكم من وجهة النظر الإسلامية؛ وذلك لما في الحكومة من مصلحةٍ وخيرٍ عميمٍ من انتظام الحياة الاجتماعية ورخائها ونشر الأمن وسيادة القانون، وهذا لا يقاس – بالمقابل – بحالة الفوضى وسيادة قانون الغاب. وهذا المعنى يطالعنا في موقف الإمام علي عليه السلام في نزاعه مع الخوارج لما سمع قولهم: (لا حكم إلّا لله)، فقال عليه السلام: "**كلمة حقٍّ يُراد بها باطل. نعم إنّه لا حكم إلّا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلّا لله، وإنّه لا بدّ للناس من أميرٍ، بَرّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلّغ الله فيها الأجل، ويُجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ بع للضعيف من القوي، حتى يستريح به برٌّ، ويُستراح من فاجر**"(٥٨).

ولأجل ما تمثّله الحكومة من نشرٍ للعدل وإحقاقٍ للحق وخدمةٍ للخلق، وإقامةٍ لمناهج الدين وما يتولّد عن ذلك من صلاح الزمان وقطع دابر الظلم والعدوان، لأجل ذلك كان حقّ الوالي على الرعية وحقّ الرعية على الوالي من أعظم الحقوق التي افترضها الله سبحانه لبعض الناس على بعضهم الآخر. يقول الإمام علي عليه السلام حول ذلك: "**ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقًا افترضها لبعض الناس على بعض... وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعية وحقّ الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كل، فجعلها نظامًا لأُلفتهم وعزًا لدينهم، فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعية. فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه، وأدّى الوالي إليها حقّها، عزَّ الحقُّ بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السُنن؛ فصلح بذلك الزمان، وطُمِع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء**"(٥٩).

والسلطة والمسؤولية في النهج العلوي هي تكليفٌ وأمانةٌ ملقاةٌ على عهدة الحاكم، وهذا ما جسدته كتب الإمام عليه السلام إلى عماله على الأمصار، ومنها كتابه إلى الأشعث بن قيس عامله على آذربيجان الذي جاء فيه: "**وإنّ عملك ليس لك بطُعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مُسترعَى لمن فوقك، ليس لك أنْ تفتات في رعية، ولا تخاطر إلّا بوثيقة...** "(٦٠).

بالنظر إلى ما تقدّم فإنّ الحاكمية والسلطة في النهج العلوي هي وسيلةٌ وليست غايةً في ذاتها؛ هي وسيلة لإحقاق الحق ونشر العدل وإقامة معالم الدين، وإظهار الصلاح والإصلاح في الواقع الاجتماعي والفردي للأمة. وعليه فإنّ طلب الحكم وإقامته وتأسيس دعائمه ليس غاية بذاته كما قد يحصل في أغلب الأزمنة والعصور على يد طلّاب السلطة والجاه والنفوذ واالتجبُّر، بل هو وسيلةٌ لأجل ما تقدّم من الغايات الهادفة والنبيلة في البناء والإصلاح وإحياء الأمة حياةً طيّبةً ساميةً تنقلها إلى أطوار تكاملية في سيرورتها الحضارية وهدفيتها الوجودية. وهذا ما جاء واضحًا في منهاج وكلام أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث يقول عليه السلام: "**اللهم إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منا منافسةً في سلطان، ولا التماسَ شيءٍ من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك**"(٦١).

وهذا ما تحدّثنا عنه سيرتُه، وقد كان حاكمًا على بلاد المسلمين، فقد دخل عليه عبد الله بن العباس وهو يخصف نعله فقال له عليه السلام ما قيمة هذا النعل، فقال ابن عباس: لا قيمة له، فقال عليه السلام: "**والله فهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً**"(٦٢).

المبحث االثاني: العدالة في الحكم

لقد احتلّت العدالة مكانةً مركزيةً في النهج السياسي عند الإمام علي عليه السلام. فهي قطب الرحى، ومن رحمها تنبثق المواقف وترتسم السلوكيات وتحدد الأهداف في الحكم والسياسة. ومن هنا، فلا مساومة في مسألة العدالة عند علي عليه السلام، حتى ولو كان ذلك على حساب الأقارب والأصحاب وذوي النفوذ والتأثير في الواقع الاجتماعي والحياتي للناس. وهذا ما نتلمسه فيما فعله الإمام علي عليه السلام في قطائع عثمان بن عفان التي حباها لمن لا يستحق، إذ خطب في ثاني يوم من بيعته في المدينة فقال عليه السلام: "**ألا إنّ كلّ قطيعةٍ أقطعها عثمان، وكلّ مالٍ أعطاه من مال الله فهو مردودٌ في بيت المال، فإنّ الحق القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تُزوج به النساء، ومُلك به الإماء لرددتهُ، فإنّ في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق**"(٦٣). ولمّا عاتبه بعضهم على التسوية في العطاء، قال: "**أتأمروني أنْ أطلب النصر بالجور فيمن وُلّيت عليه، والله ما أطور به ما سمر سمير، وما أمَّ نجمه في السماء نجمًا، لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنّما المال مال الله**"(٦٤).

بل إنّ تولي الإمام عليه السلام نفسه لزمام الخلافة وإدارة شؤون الناس كان بدافع رفع الظلم وبسط العدل، ولولا ذلك لألقى حبل الخلافة على غاربها، ولما كانت تعدل عنده شيئًا. يقول عليه السلام: "**أما والذي فلقَ الحبّةَ وبرأَ النسمةَ، لولا حضورُ الحاضر وقيامُ الحجّة بوجود الناصر، وما أخذَ اللهُ على العلماء ألّا يقارّوا على كَظّةِ ظالمٍ ولا سَغَب مظلوم، لألقيتُ حبلَها على غاربها، ولسقيتُ آخرها بكأس أولِها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز**"(٦٥).

ومن آيات عدله قصته مع أخيه عقيل التي تعطينا صورةً مشرفةً عن الحاكم في شدة مراقبته وخوفه من الله سبحانه، وعدم محاباته لأحد حتى أقرب الناس إليه، عندما يتعلق الأمر بالتصرف في أموال المسلمين وحقوقهم، بالرغم ممّا يظهر من كلام عليه السلام علي من فقر

أخيه المتقع وحاجته الماسّة لما يسدّ فيه رمقه ورمق عياله، ولكن جاء موقف علي عليه السلام ليُؤثِر حقّ الجماعة والأمة على حقّ الأفراد، والانتماء للدين والحقّ على الإنتماء العائلي والفئوي، وليقدّم جانب الأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقه على جانب العاطفة الإنشائية والمشاعر الخاصة. يقول علي عليه السلام: "**والله لقد رأيتُ عقيلًا وقد أملقَ حتى استماحني من بُرّكم صاعًا، ورأيت صِبيانه شُعث الشعور، غُبر الألوان من فقرهم كأنّما سودت وجوههم بالعِظْلِمِ، وعاودني مؤكدًا وكرر عليّ القول مرددًا، فأصغيت إليه سمعي، فظنّ أنّي أبيعه ديني وأتبع قيادَه، مفارقًا طريقي، فأحميتُ له حديدةً، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضجّ ضجيج ذي دنفٍ من ألمها، وكاد أنْ يحترق من مِيسمها، فقلت له: ثكِلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدةٍ أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نارٍ سجّرها جبارها لغضبه؟! أتئن من الأذى، ولا أئن من لظى؟!**"(٦٦).

بل إنّ قبول الهدية من جهة الحاكم في عرف علي عليه السلام ونهجه في الحكم، هي من التجاوزات الكبيرة والمنكرات العظيمة، يقول لأحدهم عندما أراد تقديم هدية له: "**هبِلتك الهَبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟! أمختبطٌ أنت أم ذو جِنة أم تهجر؟! والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أنْ أعصي الله في نملةٍ أسلبها جِلب شعيرة ما فعلت، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقةٍ في فم جرادةٍ تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى!** "(٦٧). وعندما استقلَّ كلٌّ من طلحة والزبير عطاءه عمّا كانا عليه من عطاء زمن عمر بن الخطاب، قال لهما الإمام بعد حوارٍ، حاسمًا موقفه في مسألة العطاء: "**فوالله ما أنا وأجيري هذا إلّا بمنزلة واحدة، وأومأ بيده إلى الأجير**"(٦٨).

المبحث الثالث: الحاكم وحقوق الإنسان:

إذا كانت الحكومة العلوية هي حكومة العدل، فهذا يعني أنها الحكومة التي تحفظ حقوق الناس وتصون كرامتهم ولا تساوم في حريتهم وأمنهم ومصالحهم وكل ما يؤدي إلى ارتقاء الإنسان وكماله. فالحاكم للرعية في المنظور العلوي هو كالوالد لولده لطفًا ورعايةً. يقول علي عليه السلام في عهده لأحد ولاته-الأشتر النخعي-: "**ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما**"(٦٩)

وتـأتي في مقدمـة هـذه الحقـوق حـق الحيـاة والمحافظـة عليهـا وعـدم التهـاون فيهـا. ومـن هنـا نجـد الإمـام عـلي عليه السلام يتشـدد في ذلـك أيُّـما تشـدد، ويـرى أن سـفك الدمـاء بغـير حـق هـي أكثـر الأشـياء مدعـاة للِنقمـة ولـزوال النعمـة، وأول مـا يُحكـم بـه عـلى المـرء يـوم القيامـة، وهـي مدعـاة لوهـن الحكـم وزوالـه. يقـول عليه السلام في عهـده للأشـتر النخعـي عاملـه في مـصر: "**إيـاك والدمـاءَ وسـفكَها بغـير حلهـا، فإنـه ليـس شيء أدعـى لنِقمـة ولا أعظـم لتبعـة ولا أحـرى بـزوال نعمـة وانقطـاع مـدة مـن سـفك الدمـاء بغـير حقهـا. والله سـبحانه مبتـدئ بالحكـم بـين العبـاد فيـما تسـافكوا مـن الدمـاء يـوم القيامـة. فـلا تقويـنَّ سـلطانك بسـفك دم حـرام، فـإن ذلـك لمـا يُضعفـه ويوهنـه بـل يزيلـه وينقـل، ولا عـذر لـك عنـد الله ولا عنـدي في قتـل العمـد لأن فيـه قَـوَد البـدن**"[٧٠].

ولا تقـف المسـألة عنـد حفـظ حيـاة النـاس، بـل إنّ عـلى الحاكـم في حكومـة عـلي عليه السلام أنْ يقـدِّر نفسـه بضعفـة النـاس، وأنْ يشـاركهم مـكاره الدهـر وطوارقـه، ويكـون أسـوةً لهـم في خشـونة العيـش. يقـول عـلي عليه السلام: "**إنّ الله فـرض عـلى أئمّـة العـدل أنْ يُقَـدِّروا أنفسـهم بضعفـة النـاس كيـلا يَتبيَّـع بالفقـير فقـره**"[٧١]. ويقـول عليه السلام: "**أأقنـع مـن نفسـي أنْ يُقـال أمـير المؤمنـين ولا أشـاركهم في مـكاره الدهـر، أو أكـون أسـوةً لهـم في جشـوبة العيـش**"[٧٢].

وعـلى الحاكـم في حكومتـه عليه السلام وشُرعتـه أنْ يكـون لـين الجانـب سـهل العريكـة، عـادلًا حتـى في اللحـاظ والنظـرة بـين النـاس، وأنْ يكـون قلبـه ممتلئًـا رحمـةً وحبًـا ولطفًـا بهـم. ففـي عهـده لمحمـد بـن أبي بكـر قلَّـده مـصر يقـول عليه السلام: "**فاخفـضْ لهـم جناحَـك، وألِـنْ لهـم جانبَـك، وأبسـطْ لهـم وجهَـك، وآسِ بينهـم في اللحظـةِ والنظـرةِ حتـى لا يطمـعَ العظـماءُ في حيفـك لهـم، ولا ييـأسَ الضعفـاءُ مـن عدلـك بهـم**"[٧٣]، ويقـول في عهـدٍ آخـر - للأشـتر النخعـي- "**وأشـعرْ قلبَـك الرحمـة للرعيـة والمحبـةَ لهـم واللطـفَ بهـم، ولا تكونـنَّ عليهـم سـبعًا ضاريًـا تغتنـم أكْلَهـم، فإنّهـم صنفـان: إمّـا أخٌ لـك في الديـن وإمّـا نظـيرٌ لـك في الخلـق، يفـرط منهـم الزلـل، وتعـرض لهـم العلـل، ويؤتـى عـلى أيديهـم في العمـد والخطـأ، فأعطهـم مـن عفـوك وصفحـك مثـل الـذي تحـبّ أنْ يعطيـك الله مـن عفـوه وصفحـه**"[٧٤]. إلى هـذا فإنّنـا نـراه عليه السلام يؤكّـد عـلى الحاكـم ضرورة النظـر في شـؤون الطبقـة المسـتضعفة والاهتـمام بحالهـم والعمـل عـلى رعايـة مصالحهـم وحفـظ حقوقهـم. يقـول عليه السلام: "**اللهَ**

اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لا حيلةَ لهم، والمساكين، والمحتاجين، وأهل البؤسَ والزَّمنى، فإنّ في هذه الطبقة قانعًا ومعترًا. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسمًا من بيت المال... وكلٌّ قد استُرعيت حقَّه فلا يشغلنّك عنهم بطر، فإنّك لا تُعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تُشخص همّك عنهم، ولا تصعّر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتَحقِره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكلٌّ أعذر إلى الله في تأدية حقّه إليه. وتعهّد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن ممّن لا حيلةَ له ولا يَنصِب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كلّه ثقيل... واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا تفرِّغ لهم فيه شخصك... وتُقعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرطك، حتى يكلمك متكلّمهم غير متتعتع، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: لن تُقدّس أمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقُّه من القوي غير متتعتع. ثم احتمل الخُرْق منهم والعِيَّ، ونحِّ عنك الضيق والأَنَفَ، يبسطِ الله عليك بذلك أكناف رحمته... "(٧٥).

ولأجل اهتمامه بحقوق الناس، ورفع الظلم عنهم، فقد أنشأ الإمام علي عليه السلام، بيتًا للمظالم مخصّصًا لأولئك الذين لا يتمكنون من الوصول إلى السلطة، وكان عليه السلام يُشرف بنفسه على ما فيه من رسائل ولا يدع أحد يصل إليه (٧٦). يقول جورج جرداق "وكان الناس يتوافدون عليه إذا جلس للنظر في المظالم. وكانوا يتوافدون عليه في ساعات راحته الخاصة فيبشّ لهم في الحالتين، ويكرمهم ويستمع إلى ظلامتهم فيرفعها من فوره لا إبطاء ولا تأجيل. وكم عزلَ من والٍ لاعتدائه على أحد الناس ولو أقل اعتداء، وكم هدّد من والٍ بالعزل بظلامة يرفعها أحدهم إليه، وكم وبّخ من والٍ أشدّ توبيخ لما بدر منه من ميلٍ إلى الاستعلاء على الناس أو إلى بخسهم أشياءهم"(٧٧)

إضافةً الى ما تقدم، تطالعنا في حكومة الإمام علي عليه السلام مسألة المساواة بين الناس وعدم التمييز بين أفراد المجتمع وطبقاته، وذلك في مختلف المجالات والأصعدة الحياتية، سواء المساواة في الوظائف أم الضرائب أم أمام القضاء أم القضاء أم العطاء... فحكومة علي عليه السلام

هي حكومة المساواة بين الناس بكل أبعادها؛ فالمساواة في الوظائف[٧٨] تعني أن لا محاباة ولا أثرة لأحد على أحد من قرابة أو جِهوية أو محسوبية، وإنما المعيار هو الأمانة والكفاءة. يقول علي عليه السلام: "**ثم انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختبارًا، ولا تولّهم محاباةً وأُثرة، فإنّهما جماع من شُعب الجور والخيانة، وتوخَ فيهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقَدَم في الإسلام المتقدمة، فإنّهم أكرم أخلاقًا، وأصح أعراضًا، وأقلّ في المطامع إشرافًا وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا**"[٧٩]. ويوصي عليه السلام في اختيار بعض الموظفين: "**ثم لا يكن اختيارك إيّاهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإنّ الرجال يتعرفون لِفراسات الولاة بتصنّعهم وحسن خدمتهم، وليست وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما وَلُوا للصالحين قَبْلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرًا، وأعرفهم بالأمانة وجهًا، فإنّ ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولمن وَليت أمره**"[٨٠].

وأما الضرائب فقد كانت في نظر علي عليه السلام موقوفةً على عمارة الأرض واستصلاحها، وكذلك فهي مشروطةٌ ومرهونةٌ برخاء الناس ويُسرّهم ومقدرتهم على أدائها، والناس بعد ذلك هم متساوون فيها دون أيّ تمييزٍ أو تفاوتٍ فيما بينهم، نعم بشرط عدم ارهاق كاهلهم بها وتحميلهم فوق استطاعتهم وطاقتهم كما كان يحصل قبل عهد الإمام علي عليه السلام. فهي تؤخذ برفق وإحسان، وحتى دون إكراه لمن يقدم بين يديه عذرًا على عدم أدائها، فالذي يحكم بجباية الضرائب هو الصالح العام للأمة، فهي منهم وعوائدها تعود عليهم[٨١].

يقول علي عليه السلام في عهده للأشتر النخعي: "**وتفقّدْ أمرَ الخراج بما يصلح أهله... وليكنْ نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ... ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، و لم يستقمْ أمره إلّا قليلًا. فإنْ شكوا ثقلًا أو علةً أو انقطاع شِرب أو بالّة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أنْ يَصلح به أمرُهم**"[٨٢].

وأما المساواة أمام القضاء فهي من المرتكزات الأصيلة التي لا تقبل المساومة في الحكومة العلوية، فإضافة إلى ما يجب أنْ يكون عليه القاضي من الرحمة والرأفة بالناس، وعدم المهادنة في الحقوق وإجراء العدالة، إضافة لذلك فإنّ الناس يجب أنْ يكونوا سواسية أمام القضاء

دون تفريق وتمييز بين قريب أو بعيد، غني أو فقير، شريف أو وضيع، مسلم أو غير مسلم، وهكذا... وهذا ما طبّقه وأجراه علي عليه السلام على نفسه ضاربًا بأروع الأمثلة في المساواة بين الناس أمام القضاء، فقد مَثُلَ أمام القاضي- وكان عليه السلام حينذاك حاكمًا عامًا على المسلمين- في قضية درع له استولى عليه أحد رعيته، حيث وقف الحاكم والخليفة إلى جنب المحكوم على حد سواء أمام العدالة وحكم القضاء. وهذا ما كان قد حدث مع علي عليه السلام في خلافة عمر عندما خاصمه أحد الناس إلى عمر، فقال عمر: قف يا أبا الحسن بجانب خصمك، فتأثر علي لذلك، وبين لعمر عندما سأله هن ذلك علّةَ تأثره بقوله: "**رأيتك لم تسوِّ بيني وبينه، إذ عظمتني بالتكنية ولم تكنّه**"(٨٣).

يقول علي عليه السلام في عهده للأشتر فيما يتصل بأمر الحكم والقضاء: "**ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممّن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلّة ولا يحصَر من الفيء إلى الحقّ إذا عرف، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرّمًا بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممّن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء**"(٨٤). ومن خلال هذا التشدّد في صفات القاضي وأحواله، نلمح مدى الحرص الشديد عند الإمام علي عليه السلام على المحافظة على حقوق الناس وعدم التفريط في مصالحهم ومكتسباتهم، وفي إقامة حياتهم على أسس العدل والمساواة والتناصف. وهذا مرهونٌ بسلامة القضاء واستقامته في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياة الناس أفراد أو جماعات.

مضافًا إلى ما تقدّم، تطالعنا في حكومة علي عليه السلام مسألة المساواة في العطاء وعدم التمييز بين أفراد المجتمع وطبقاته بعكس ما كان سائدًا في حكومة من سبقه، وخاصة في عهد عمر بن الخطاب، الذي كرس نزعة التفاوت في العطاء، حيث فضّل البدريين على غيرهم، وفضل الأنصار على غيرهم، وفضّل العرب على العجم، وغير ذلك من أوجه التفضيل. وهذا ما أوجد الطبقية والرأسمالية بين المسلمين. ولعلّ هذه المسألة كانت من أعظم المشاكل التي واجهها أمير المؤمنين علي عليه السلام في حكمه، ولعل نزعته في المساواة وعدم التفرقة بين طبقات المجتمع كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تخاذل العرب عن اتباعه

ونصرته، كما ذهب إليه المدائني[٨٥]. وعندما طُلب من علي عليه السلام الرجوع عن هذه السياسة في المساواة قال وبنحوٍ حاسم: "**أتأمروني أنْ أطلب النصرَ بالجور... لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله**"[٨٦].

بالإضافة إلى مسألة الحاكمية وحقوق الإنسان، تأتي مسألة الحرية في الحكومة العلوية كأحد الأسس الأصيلة والمرتكزات الثابتة التي يُبنى عليها الحكم وتُمارس من خلالها وفي فضائها الرحب السلطة وإدارة شؤون الناس. فالحرية في النهج العلوي متأصلة تأصل الذات الإسلامية القرآنية في شخص علي عليه السلام، فنجده يقول في وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام: "**ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًا**"[٨٧]. وقد تجلّت هذه النزعة في احترام الحريات وصونها في النهج العلوي منذ اليوم الأول لهذه الحاكمية، حيث نجد أنّ عليًا عليه السلام لم يُلزم أحدًا بأخذ البيعة منه، بل ترك للناس الحرية في ذلك، ومن المعروف في المقام أنّ جملة من الصحابة قد تخلّفوا عن بيعته عليه السلام ومع ذلك لم يتعرضوا جراء ذلك لأيّ مضايقةٍ أو إكراهٍ في عهد علي عليه السلام[٨٨].

وانطلاقًا ممّا تقدم، فقد كان أعداء علي عليه السلام ومخالفوه يعيشون في رحابة عدله وما منحه للناس من حريةٍ واسعة. فنجده متحملًا - وبرحابة صدر لا مثيل لها بين حاكم ومحكوم - كلّ ما يصدر من هؤلاء من قولٍ وفعلٍ مسيء ومتعدٍ على مقامه ولم يعرض لهم بأيّ سوء. فنرى أحدهم مثلًا ــ ابن الكوّاء ــ وهو من ألد خصومه يقطع على الإمام خطابه ويتلو قوله تعالى: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ فردّ عليه الإمام بقوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**﴾، ولم يتخذ الإمام عليه السلام بحقّه أيّ إجراء عقابي. وجاءه أحد الخوارج فقال له: يا علي والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك وإنّي غدًا مفارقك، فحاججه الإمام ولطف به وخلى سبيله[٨٩]. وعندما مرّت امرأة ورمقها أصحاب علي بنظراتٍ المريبة خاطبهم عليه السلام في ذلك مرشدًا وموجهًا، فأُعجب بكلامه بعض الخوارج فقال: قاتله الله كافرًا ما أفقهه! فوثب القوم عليه ليقتلوه، فقال لهم علي عليه السلام: "**رويدًا، إنّما هو سبٌّ بِسبّ، أو عفوٌ عن ذنب**".[٩٠]

ومع كلّ ما كان يصدر عن مناوئيه وأعدائه فلقد كان علي عليه السلام يُحسن لهم ويرفق في

معاملتهم تمامًا كباقي أفراد الأمة. فقد كان يعطي الخوارج وغيرهم من معارضيه نصيبهم من الفيء أسوةً بباقي الناس، وقد أفسح لهم المجال في حرية التنقل والسفر. نعم كانت هذه الحرية مشروطة بعدم الإخلال بأمن الناس والمجتمع ومصالحهم و بأنْ تكون منسجمة مع الموازين الشرعية الإسلامية. ومن هنا فالإمام عليه السلام لم يحارب الخوارج حتى استحلوا دماء المسلمين وأوغلوا في سفكها، وفي التعدي على أملاك الناس وحرياتهم.

ومن اللافت في المقام عند كلامنا عن الحرية في حكومة الإمام علي عليه السلام أنّه لم يكن ليُكره أحدًا من أفراد رعيته على جهاد وقتال حتى في أدقّ ساعات العسر والشدة، عند محاربته للناكثين (أهل الجمل)، والقاسطين (معاوية وأتباعه في صفين)، والمارقين (الخوارج في النهروان)، بل كان يحثّهم على القتال متوجّهًا إلى عقولهم بمنطق الحجّة والبرهان وإلى قلوبهم بما فيها من حميّةٍ وغيرةٍ وأنفة[٩١].

ومن خلال ما مرّ معنا حول حقوق الإنسان في النهج العلوي يتبين لنا ما امتازت به الحكومة العلوية عن كلّ ما سبقها وتلاها من أنظمةٍ ورؤى سياسيةٍ وصولًا إلى العصر الحديث وظهور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يلتقي مع مبادئ الحكم العلوي، وإنْ بقيت للمبادئ العلوية في حقوق الإنسان الكثير من الامتيازات والإلماعات عمّا وصلت إليه البشرية في مسألة الحقوق الإنسانية، هذا مع سبق هذه المبادئ لتلك الحقوق والقوانين بقرون متمادية. وهكذا فإنّ الحكومة العلوية هي حكومة الإنسان، وجدت لأجل كماله وسعادته دنيا وآخرة. ففي هذه الحكومة العادلة تتقرر القاعدة التالية بلا أي لبسٍ أو تأويل: الحاكم للرعية وليست الرعية للحاكم.

المبحث الرابع: الحاكم وولاته

لأجل أهميّة الولاة (العمّال) في إدارة شؤون الحياة العامة للناس، وخطورة مركزهم وسعة سلطاتهم التي يتمتعون بها، نرى علي عليه السلام يتشدّد في اختيارهم وصفاتهم التي تؤهلهم لهذا المنصب الحسّاس؛ فيجب ألّا يكون اختيار الولاة محاباة وخاضعًا لرغبة الحاكم وميوله وأهوائه المصلحية أو العائلية أو الجهوية؛ فإنّ ذلك هو الظلم عينه، والخيانة للأمة ومصالحها، بل يجب أنْ يكون على أساس اتصافهم بالكفاءة والاستقامة ومن أهل

البيوتات الصالحة والسابقة في الإسلام؛ لأنّ مثل هكذا بيوتات وعائلات غالبًا ما يكون أفرادها أكثر أخلاقًا ونبلًا وإعراضًا عن الطمع في متاع الدنيا وزخارفها، وأبعد نظرًا وتبصرًا في وضع المجتمع وحاجاته ومتطلباته. فالولاية في عُرْف علي عليه السلام أبعد ما تكون عن المتنطحين للسلطة والنفوذ والتعالي على الناس، فهي تكليف وليست تشريفًا، بل خدمةً للناس وسهرًا على مصالحهم وراحتهم وازدهارهم[٩٢]. يقول عليه السلام: "**ثم انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختبارًا، ولا تولّهم محاباةً وأثرة، فإنّها جِماعٌ من شُعب الجور والخيانة. وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقَدم في الإسلام المتقدمة، فإنّهم أكرم أخلاقًا وأصحّ أعراضًا، وأقلّ في المطامع إشرافًا، وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا**"[٩٣].

وفي دولة العدل العلوي لا يُكتفى بهذه الشروط للوالي كضمانةٍ له في عمله وإدارته، بل لا بدّ من مراقبته كي يكون ذلك دافعًا له نحو الأمانة واللطف بالرعية والابتعاد عن الظلم والفساد. وهذا ما يعرف اليوم في الدول المعاصرة بنظام التفتيش والمراقبة. يقول علي عليه السلام: "**ثم تفقّدْ أعمالَهم وابعثِ العيونَ من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإنّ تعاهدك في السرّ لأمورهم حَدوةٌ لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية**"[٩٤]. ولا بدّ لهؤلاء الولاة من تأمين عيشٍ كريمٍ لهم يكون فيه صلاحهم لكي لا يتعدوا عمّا تحت أيديهم من أموال عامة. يقول علي عليه السلام: "**ثم أسبغ عليهم الأرزاق؛ فإنّ ذلك قوّةً لهم على استصلاح أنفسهم، وغنًى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجّةً عليهم إنْ خالفوا أمرَك أو ثلموا أمانتَك**"[٩٥].

إلى هذا، فإنّ ثبت على والٍ فسادٌ أو خيانةٌ أو سرقةٌ أو رشوة، فإنّ العقوبة يجب أنْ تكون شديدة، فعلي عليه السلام لا تأخذه في الله لومة لائمٍ يقول تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[٩٦]. وهذا كان ديدن علي عليه السلام مع ولاته وعمّاله عن الأمصار حيث نجد في نهج البلاغة كثيرًا من كتبه إلى عماله فيها - إضافة إلى الإرشاد والتوجيه- تقريع وتوبيخ وعزل أو تهديد بالعزل والإقالة. يقول علي عليه السلام في ذلك: "**فإنْ أحدٌ منهم بسط يدَه إلى خيانةٍ اجتمعت بها عليه عندك أخبارُ عيونك، اكتفيت بذلك شاهدًا؛ فبسطت عليه العقوبةَ في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلّة ووسمته بالخيانة، وقلّدته عار التهمة**"[٩٧].

المبحث الخامس: الحكومة العلوية وقوانين الحرب

لقد عمل الإمام علي عليه السلام خلال مدّة حكومته على بلورة قواعد للحرب تُعدّ مثاليةً ورائدةً في ذلك الزمان، بل وحتى زماننا هذا. وقد عمد عليه السلام إلى تطبيق هذه القواعد والقوانين الحربية على نفسه وألزم بها جيشه وأصحابه. وقد تجلّت هذه القواعد والآداب بصورةٍ إنسانيةٍ بهيةٍ وزاهية، جعلت من علي عليه السلام رائدًا في أنسنة الحرب من خلال ما التزمه من معايير ومبادئ وآداب قتالية وحربية. وهذا الأمر نتلمسه في الكثير من مواقفه عليه السلام وكلماته. فمن آيات فروسيته وإنسانيته أنّه لم يبتدئ قومًا بقتال قط، إلّا بعد وعظهم وإرشادهم، عسى أنْ يؤوبوا لرشدهم ويرجعوا عن غيهم، ويهتدوا عن ضلالتهم. فالحرب عند علي عليه السلام ليست مطلوبةً لإظهار غلبةٍ هنا، وتحقيق نفوذٍ وسطوة هناك، أو بلوغ مصلحةٍ دنيويةٍ زائلةٍ كما هو الحال عليه في أغلب حروب البشر قديمًا وحديثًا، ومنها حروب مناوئيه عليه، بل إنّ منطق الحرب عند علي عليه السلام هو لإحقاق حقٍّ مهدور، وإزهاق باطلٍ قائم، وردع المعتدين، وإرجاع الحقوق السليبة إلى أهلها.

وحول ما تقدّم يقول علي عليه السلام: "**فوالله ما دفعتُ الحرب يومًا إلّا وأنا أطمع أنْ تلحق بي طائفةٌ فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبُّ إليَّ من أنْ أقتلها على ضلالها وإنْ كانت تبوء بآثامها**"[٩٨]. وها هو يقول: "**اللهم إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منا منافسةً في سلطان ولا التماس شيءٍ من فضول الحطام، ولكن لنرُد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتُقام المعطلة من حدودك**"[٩٩].

وهذا ما كانت عليه سيرته مع أصحاب الجمل عندما أرسل إليهم رسله ليعظهم ويذكرهم ويرشدهم عسى أنْ يعودوا عن غيّهم ويؤوبوا لرشدهم، ولكنهم ردّوا عليه ذلك، وصمّوا آذانهم [١٠٠]، وعلى الرغم من ذلك لم يبتدئهم عليه السلام بقتال حتى كانوا هم المبادرين لحربه والمعتدين على جنده وصحبه[١٠١].

وتتجسد مبادئ علي عليه السلام في الحروب من خلال توصياته المتكرّرة بعدم قتل جريحٍ أو مدبرٍ أو تمثيلٍ بجثة أو كشف عورة، فقد نادى الناسَ في حرب الجمل: "**أيّها الناس لا تقتلوا مدبرًا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورةً، ولا تهيجوا امراةً، ولا تمثّلوا بقتيل**"[١٠٢].

ومن ترفّعه وعلو نفسه أنّه إذا وضعت الحرب أوزارها كان يعفو عن خصومه وأسراه، ويطلق سراحهم ولا يعاقبهم مع قدرته على ذلك، وهذا ما فعله مع أهل البصرة[١٠٣]، وكذلك مع بعض عتاة أعدائه ومناوئيه كمروان بن الحكم وغيره من الأسماء المعروفة، ممن كانت لهم اليد الطولى في حرب الجمل وتأليب الرأي العام ضده[١٠٤].

ومن فروسيته وشهامته في ميادين القتال أنّه عليه السلام لما غلب أهل الشام على الماء وأجلاهم عن المشرعة التي منعوه وجنده منها، لم يعاملهم بالمثل ويمنع عنهم الماء، بل وقال لمعاوية: "**إنّا لا نكافيك بصُنعك، هلمّ إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء**"[١٠٥]. ولو أنّ عليًّا منعهم من الماء كما أشار عليه بذلك بعض أصحابه، وأنْ يُهلك أعدائه عطشًا، لكان لواقعة صفين كلام آخر، ولكن هيهات أنْ تسقط القيم والمبادئ العلوية من أجل النيل من عدو هنا أو الظفر في جولة من الوغى هناك، فقيَم علي عليه السلام ومثله ومبادئه لا تنازل عنها ولا مساومة عليها في شخصيته عليه السلام أيًّا كان الثمن، لما يمثله علي عليه السلام من تجسيد لهذه الصفات الكمالية التي لا تقبل التجزئة والتفرقة بحسب المواقف والمراحل. وهذا من الدروس العلوية البليغة التي أرادها علي عليه السلام أنْ تكون نهجًا ومَعلَمًا تهتدي به الأجيال وتتربى على أساسه الأهم.

وقد بلغت رحمته عليه السلام الذروة في تعامله مع أعدائه، حيث لم يستثنِ منها حتى قاتله ابن ملجم، الذي كان يُوصي وُلده بالإحسان إليه مأكلًا وشربًا ومعاملة... فإن قُتل من ضربته، فقد أوصى علي عليه السلام أهله بأن لا يقتلوا إلا قاتله ضربة بضربة، ولا يسفكوا بسببه دما بريئة ولا يمثلوا بالرجل. يقول علي عليه السلام: "**يا بَني عبد المطلب لا أُلفينَّكم تخضون دماءَ المسلمين خوضًا تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين، ألا لا تقتلنَّ بي إلّا قاتلي. انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة، ولا تمثّلوا بالرجل، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيّاكم والمُثلة ولو بالكلب العقور**"[١٠٦].

إلى هذا، واستكمالًا لما تقدّم، تستوقفنا في السياسة العسكرية عند الإمام علي عليه السلام كيفية اختياره لجنده وقادة جيشه، وتشدده في صفاتهم وأحوالهم، واشتراطه أنْ يكونوا من أصحاب البيوتات والأحساب. فالجند وقادتهم عند علي عليه السلام يجب أنْ يحملوا وعيًا إيمانيًا دينيًا على مستوى الفكر والسلوك. وأنْ يكونوا أصحاب قلوبٍ نقيةٍ غير ملوثة، وعقولٍ

حليمةٍ تبعدهم عن الغضب والانفعال الذي يخرجهم عن الحق، وأنْ يكونوا رحماء بالضعفاء، أشدّاء على الأقوياء[١٠٧]. يقول علي عليه السلام: "**فولّ من جنودك أنصحَهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبًا، وأفضلهم حِلمًا ممّن يُبطئ عن الغضب ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء**"[١٠٨]. وهذه الصفات لا بدّ لها من بيوتاتٍ صالحةٍ لها سوابق وأيادٍ فاضلة على واقعها الاجتماعي. يقول علي عليه السلام: "**ثم ألصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنّهم جِماعٌ من الكرم وشُعب من العرف**"[١٠٩].

ونحن نجد أنّ هذه الصفات والشروط التي افترضها علي عليه السلام في جنده وقادتهم تأتي ضروريةً ومنسجمةً في آنٍ مع مبادئه وآدابه –التي تقدم ذكرها– في الحرب، فهذه الشروط والصفات تؤهّل القادة وجنودهم؛ لأنّ يطبّقوا المثل والآداب والمبادئ العلوية في حروبهم وسلوكهم مع الآخرين.

الحاكمية العلوية وبناء الحياة الحضارية الطيّبة:

من خلال ما تقدّم معنا من محاور الحاكمية العلوية وربطًا لها بالحياة الحضارية الطيّبة التي ينشدها بنو البشر في مسيرتهم الوجودية حاضرًا ومستقبلًا، نجد أنّ منظومة الحكم عند الإمام علي عليه السلام بمختلف مواردها ومحاورها تؤدّي إلى هذا المعنى المراد وهو التجسيد الحضاري للإسلام وتحقيق الحياة الطيّبة والسعيدة للإنسان. ففي جميع المراحل التي عرضنا لها في الحكومة العلوية، من ضرورة الحكم وفلسفته، والتي تقوم على أساس مصلحة الناس وتأمين حياةٍ كريمة لهم، إلى التزامه جانب العدالة وعدم مهادنته فيها، إضافة إلى احترام حقوق الرعية، من حقّ الحياة إلى حقّ ممارسة الحرية بكلّ مجالاتها، شرط مراعاتها للموازين الإسلامية، إلى المساواة أمام القضاء والمساواة في العطاء من بيت مال المسلمين، إلى التأكيد على مبدأ الرحمة واللطف بالناس، وخصوصًا الطبقات المستضعفة والفقيرة، هذا إضافة إلى حرصه على كيفية اختيار الحكام والولاة لكونهم أمناء على مصالح الناس وسعادتهم وأمنهم ورخائهم؛ ولذا فالحاكم هو في خدمة الناس وليس الناس في خدمة الحاكم.

هذا إضافةً إلى آدابه ومبادئه في الحروب والمعارك وطريقة اختياره وانتقائه للجنود

والقادة العسكريين بما يحفظ للناس كرامتهم ويؤمن حقوقهم ويجعل من الحرب - وعلى الرغم من قساوتها- أكثر نبلًا وإنسانية، نجد - من خلال كل ما تقدّم – أنّ الحاكمية في المفهوم العلوي هي حاكمية إحيائية للناس، أمةً وأفرادًا، وبكافة المناحي والمجالات الحياتية المختلفة. فالهدف والغاية من الحكم هو أنْ تحيا الأمّة حياةً طيّبةً رغيدةً وسعيدة، الكل يأخذ حقّه غير منقوص، ويعطي بحسب إمكاناته واستعداداته. ذلك كلّه في سبيل ارتقاء الإنسان الى المستوى اللائق به من حيث حريته وكرامته ومعيشته وصولًا إلى كماله المنشود، وبالتالي تحقيق التقدّم الحضاري للأمة المبني على مرتكزات المعنى والروح إلى جانب الأبعاد المادية بمختلف مجالاتها وتجلياتها. وجدلية المادة والروح هذه تعطي للمسيرة الإنسانية هدفيتها التي يجب أنْ ترتسم على ضوء أنّ إحياء الدنيا وعمارتها يكون طبقًا لشروط الآخرة ومعاييرها ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[١١٠].

المحور السادس: مميزات الدولة الإسلامية ووظائفها

لعل الدولة في المفهوم الإسلامي هي الوحيدة من بين أنظمة الحكم في العالم التي تمتاز بتكفّل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. فلا تقتصر كغيرها من الأنظمة السياسية وبإيديولوجياتها المختلفة بالنهوض بالحياة المادية للإنسان ورفاهيتها ورخائها، دون الإلتفات إلى المصير الوجودي الأخروي للإنسان، إذ نجد أنّ بعض الأنظمة السياسية تعدّ المصير الأخروي ليس من مسؤولية الدولة بل يقع على عاتق الدين، بمعنى آخر هو مسألةٌ فرديةٌ شخصيةٌ لا تتدخل بها الدولة ولا توليها اهتمامها.

وعلى كلّ حال، فإنّ حال الدولة في الإسلام يختلف وبشكلٍ جذري عمّا هو مطروح في النظريات والإيديولوجيات السياسية قديمًا وحديثًا، إذ إنّ من مميزات الدولة في الإسلام المُواءمة بين الحاجات المادية الدنيوية والحاجات الروحية المعنوية الأخروية، وذلك استجابةً للبعدين المادي والروحي الذي تنطوي عليهما الطبيعة البشرية، فلا يمكن إهمال أحدهما لحساب الآخر، وإلّا لاختلت المسيرة التكاملية للإنسان التي تسعى إلى تطوير قدراته واستعداداته المادية والروحية معًا، بغية الوصول إلى سعادته الحقيقية في الآخرة والتي تتحدد على ضوء نشاطه وسلوكه الدنيوي الذي يجب أنْ يكون منسجمًا مع موازين الآخرة

ومحدداتها وقوانينها يقول تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[١١١].

مميزات الدولة في الإسلام:

وانطلاقًا ممّا تقدّم، فإنّ من أهم خصائص ومميزات الدولة في الإسلام، أنّها دولةٌ عقديةٌ إيديولوجية. فهي دعوةٌ إنسانيةٌ عامّة، تتجاوز، الحدود الإقليمية والخصائص القومية[١١٢]، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١١٣]. إلى هذا فإنّ الدولة في الإسلام ليست ضرورةً شرعيةً فقط، بل هي ضرورةٌ حضاريةٌ في الواقع الإسلامي المعاصر، وذلك لما تمثّله الدولة ومؤسساتها من ضرورة لإنضاج العمل الرسالي، وتثمير لواقعيته الحركية في مختلف الميادين والساحات الفكرية والإيديولوجية والعلمية. فالدولة كمركب حضاري تتجلّى فيه التعاليم والأفكار والمبادئ الإسلامية، لها أثرٌ كبيرٌ على أفراد الأمة من تفجير طاقاتهم وإظهار استعداداتهم المتنوعة، وإنقاذهم من التبعية والضياع، وكذلك توجيه الأمة وترشيد حركتها[١١٤].

وتأسيسًا على ما تقدّم فقد أجاد السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رحمه الله تعالى)، فيما أفاده حول المميزات الحضارية للدولة الإسلامية حيث رأى أنّ الدولة الإسلامية تتميز بتركيبها العقائدي من جهة وبأثرها العقدي والنفسي على الفرد والمجتمع المسلم من جهة ثانية.

الجهة الأولى: التركيب العقائدي للدولة الإسلاميّة

١-جدليّة التركيب العقائدي للدولة وهدف مسيرتها:

إنّ الدولة الإسلامية بما أنّها دولة عقائدية فهي تتخذ من الله سبحانه- بما يمثّله من إطلاقٍ ولا محدودية -هدفًا للمسيرة الإنسانية، وذلك من خلال جعل أخلاق الله تعالى وصفاته اللامحدودة- من العدل والعلم والقدرة والرحمة والجود- كمعالم لهذا الهدف العظيم. ولمّا كان الإنسان نسبيًا ومحدودًا، وهو يسير نحو هدفٍ مطلقٍ ولا محدود، فهذا يعني أنّ المسيرة الإنسانية كلما سارت في طريقها نحو هدفها انفتحت على آفاق جديدة تزيد حركية المسيرة تطوّرًا وإبداعًا[١١٥].

يقول الصدر: " فالتركيب العقائدي للدولة الإسلامية الذي يقوم على أساس الإيمان بالله وصفاته، ويجعل من الله هدفًا للمسيرة وغاية للتحرك الحضاري الصالح على الأرض، هو التركيب العقائدي الوحيد الذي يمدّ الحركة الحضارية للإنسان بوقود لا ينفد"(١١٦).

٢ – جدلية التركيب العقائدي للدولة وبعدها الأخلاقي:

ولكي تتحقق الأهداف العظمى والسامية للدولة الإسلامية، من إحقاق الحق وإقامة موازين العدل في الحياة، كان لا بدّ من صياغة الفرد وتربيته تربية عقائدية لها انعكاس أخلاقي على نفسيته وسلوكيّاته، لكي يعيش الفرد كامل الشعور بالمسؤولية والواجب الملقى على عاتقه، وليتحمّل مشاق البناء الصالح من تضحية وجهد وأذى. وعليه، فإنّ هذه الصياغة والتربية للفرد المسلم تتجه نحو تحديد وتركيز مفهومه ونظرته للدنيا وامتدادها الأخروي. فالفرد يجب أنْ يكون سيّدًا للدنيا لا عبدًا لها، مالكًا لخيراتها وطيّباتها لا مملوكًا لها. وبالتالي لا بدّ أنْ تتجه تطلعاته نحو حياةٍ أوسع وأغنى من هذه الحياة، عندها تغدو كلّ تضحيةٍ على هذه الأرض رخيصةً أمام ما ينتظره في ذلك العالم الآخر الأبدي الذي أعدّه الله سبحانه للمؤمنين المتقين(١١٧).

٣ – جدلية التركيب العقائدي للدولة وأبعادها السياسية:

ومن مميزات التركيب العقائدي للدولة الإسلامية مدلولاته وأبعاده السياسية. ومن هذه المداليل والأبعاد:

أولًا: استئصال الدولة الإسلامية لكل علاقات الاستغلال بين الإنسان وأخيه الإنسان. وذلك في جميع مجالات الحياة السياسية، والاقتصادية، والفكرية. وهذا ما يؤدّي إلى توفير طاقة الإنسان المستغِل إضافةً إلى طاقة الإنسان المستغَل. فالأول بعد أنْ كانت طاقته وإمكاناته تتبدّد من خلال تشديد قبضته على من يستغلّه، فإنّ هذه الطاقة والإمكانيات تعود – في ظل الدولة الإسلامية – إلى وضعها الطبيعي، وتتحوّل إلى طاقاتٍ للبناء والعمل. وأمّا الثاني فقد كانت طاقاته تذهب لحساب مصالح المستغلِّين الشخصية، لزيادة أموالهم ومتاعهم الدنيوي، بينما في ظلّ الدولة الإسلامية تعود هذه الطاقة لخير الجماعة البشرية(١١٨).

ثانيًا: واقع حال الحاكمين في الدولة الإسلامية، فإنّهم يعيشون في حياتهم الخاصة كما

يعيش كلّ المواطنين العاديين في الدولة، إنْ من حيث المسكن أو المعيشة أو السلوكيات والتعاطي مع الآخرين.

وهذا كلّه ممّا يؤلّد حافزًا وزخمًا روحيًا كبيرًا عند مواطني الدولة الإسلامية، ممّا يجعل الفرد يشعر بأنّ استجابته لعملية البناء التي تقوم بها الدولة هي استجابةً لكرامته وعزّته على الأرض[١١٩].

ثالثًا: ومن المميزات السياسية للمنحى العقائدي للدولة الإسلامية، تعاملها على الساحة الدولية على أسس وموازين تختلف تمامًا عمّا هو متعارفٌ ومعهودٌ في السياسات الدولية وفقًا للمنظور الغربي لها، والذي يقوم على استغلال الشعوب ونهب ثرواتها، أو على أساس ما يسمّونه بالمصالح المتبادلة. فهذا ممّا لا وجود له في قاموس الدولة الإسلامية التي ترتكز علاقاتها في الساحة الدولية على مبادئ أخلاقية إسلامية، أساسها الحقّ والعدل ونصرة المستضعفين ولا شكّ في أنّ تعامل الدولة الإسلامية على الساحة الدولية بهذه الروح يؤدي عالميًا إلى إيقاظ الضمير الإنساني وتوعيته على مفاهيم العدل والحق وتحريكه للإسهام في مسيرة العدل على الأرض[١٢٠].

الجهة الثانية: الأثر العقدي والنفسي للدولة الإسلامية على الفرد والمجتمع:

ومن مميّزات الدولة الإسلامية في هذا المجال:

١-أنّ هذه الدولة وعبر أطروحتها ورسالتها الإسلامية، تحوِّل عقيدة الإنسان المسلم من عقيدةٍ باهتةٍ مفرّغةٍ من محتواها الثوري والتغييري والحضاري، وخاصّة عندما يعيش الإنسان المسلم في ظلّ أنظمةٍ وأطرٍ حضاريةٍ غير منبثقة فكريًا وإيديولوجيًا من الإسلام، إلى عقيدةٍ إيجابيةٍ وفاعلةٍ في عملية البناء الحضاري الجديد، وذلك لما تجسّده الدولة الإسلامية من أطروحةٍ عقائديةٍ توحيديةٍ لله تعالى، وأمرٍ بالمعروف ونهيّ عن المنكر، فتتحقّق بذلك أمّة الشهادة والوسطية التي تعني المسؤولية الخارجية عن العالم كلّه. وعليه، لا يعود الإنسان المسلم يعيش الانشطار والتجزئة كما هو حاله في ظل الدول والأنظمة التي تحمل أطروحاتٍ فكريةً وإيديولوجيةً غريبة عن ذهنيته وتفكيره ووجدانه، حيث يعيش التناقض السلوكي بين ما يؤمن به وما يطبقه في الواقع الحياتي المعيوش. ففي ظلّ الدولة الإسلامية

تعود للإنسان المسلم وحدته الحقيقية، وانسجامه الكامل بين ما يؤمن به من عقيدةٍ ومفاهيم، وما يمارسه من تطبيق[١٢١].

٢-أنّ الدولة الإسلامية عندما تقدّم للفرد المسلم حاكمية رسول الله ﷺ ودولته، وكذلك الحال تقّدم سيرة علي عليه السلام في السلطة وممارسة الحكم، كنموذجٍ يُحتذى، ومثالٍ أعلى، ومقياسٍ موضوعي يحكم المسلم على أساسه باستقامة المسيرة أو انحرافها، فهذا الأمر يكون – حينئذٍ – من أهم العوامل التي تدفع الإنسان المسلم إلى البذل والعطاء في عملية البناء الحضاري التي تضطلع بها الدولة الإسلامية؛ وذلك لما يمثّله هذا النموذج والمثال الأعلى من حالةٍ شعوريةٍ عميقةٍ في وجدان المسلم وعواطفه، ممّا تهيّىء له الجو النفسي والطمأنينة الداخلية للسير في عملية البناء الكبير. وهذا بخلاف ما لو كانت الأمثلة والنماذج مستوردةً ومسقطةً من خارج الفضاء الفكري والنفسي والشعوري للإنسان المسلم كما هو الحال في الأنظمة الديموقراطية والاشتراكية والمادية والشيوعية، فإنّه – حينئذٍ – لا يتم التفاعل البنّاء مع طروحاتها؛ لأنّ الإنسان المسلم لا يملك إزاءها إلاّ رؤى باهتة ومتهافتة[١٢٢].

٣-أنّ تفجير طاقات الأمة، وقيادتها في معركة البناء الحضاري تتوقّف على وجود النظام والدولة الإسلامية؛ لما تتمتع به من نظافةٍ مطلقة، وعدم ارتباط بالمستعمرين، ولارتكازها على الإسلام بما يمثّله من عنوان لشخصية الأمة ومفتاحًا لأمجادها. وأما في حالة التجارب الاستعمارية، وكذلك تجارب بعض الأنظمة المستمدَّة فكريًا وحضاريًا منها. فإنّ هذه التجارب ظلّت عاجزةً عن تفجير طاقات الفرد المسلم، وقيادته في معركة البناء؛ وذلك لما أوجده الاستعمار في نفوس أبناء الأمة من حالة اتّهامٍ وشكٍّ وقلقٍ أدّت به إلى الإحجام عن معطياته التنظيمية وأطروحاته السياسية والاجتماعية[١٢٣].

٤-إذا كان الإنسان الغربي وعبر تاريخه مشدودًا إلى الأرض والمادة بعيدًا عن الروحانيات والمعنويات، فإنّنا نجد بالمقابل الإنسان الشرقي – وبفعل تربيته على يد رسالات السماء – ينظر إلى عالم الغيب ويتفاعل معه قبل أنْ ينظر إلى الأرض وعالم الماديات. وهذا ما أنتج عنده موقفًا سلبيًا اتجاه الحياة المادية تجلّى ذلك تارة بمظاهر الزهد وأخرى بالقناعة وثالثة بالكسل. وهنا يأتي دور الدولة الإسلامية للعمل على التوفيق بين نزعة المسلم للدين

والسماء وبين نظرته إلى الحياة والأرض، وذلك عبر تقديم المفهوم الصحيح للإنسان عن السماء، وإسباغ طابع العبادة والواجب على العمل في الأرض؛ لكونه مظهرًا من مظاهر الاستخلاف الإلهي للإنسان على الكون. وهذا ما يعطي الإنسان طاقةً إيجابيةً وبنّاءةً لعمارة الأرض وإحيائها، وفي الوقت نفسه يشكل ضمانةً لعدم تحول طاقة الإنسان من طاقة بناء إلى طاقة استغلال. ومن خلال هذه النظرة للحياة في إطار الدولة الإسلامية يتحول الزهد من مفهومه السلبي الذي يُبعد الإنسان عن دوره في الخلافة إلى مفهومه الإيجابي الذي يجعل من الإنسان سيدًا للدنيا لا عبدًا لها، ويحصّنه من غائلة التحول إلى طاغوت يستغل الآخرين[١٢٤]. ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[١٢٥].

٥-إيجادها الإنسجام بين التشريعات والقوانين التي تُعتمد لتنظيم الحياة الاجتماعية وبين العقيدة. وهذا الانسجام يُعدّ ضروريًا لتطبيق تلك القوانين والالتزام بها، وهذا لا يتحقّق إلّا في إطار النظام الإسلامي؛ لأنّ الأنظمة والتشريعات الأخرى غير الإسلامية لا تنطوي – بنظر المسلم – على الحرمة والقداسة، لعدم وجود مبررٍ شرعي لها[١٢٦].

٦- إيجادها للتوافق بين الجانب الروحي والجانب الاجتماعي في حياة الإنسان المسلم. هذا التوافق الذي لا يمكن أنْ يتحقق له في ظلّ الأنظمة الوضعية التي لا تراعي الجوانب الروحية للإنسان من علاقته بربه، واهتمامه بأخلاقه وقيمه ومُثُله. وهذا ما يولِّد التناقض والتعارض في حياة الإنسان المسلم، بين ما يؤمن به روحيًا وما يلتزم به علميًا في حياته الاجتماعية. وإزالة هذا التعارض لا يتم إلا على أساس قاعدة واحدة هي الإسلام[١٢٧].

وظيفة الدولة الإسلامية ومهامها:

وهنا نلتقي مع السيد الشهيد محمّد باقر الصدر في ترسيم وظائف الدولة الإسلامية عبر مجالين أساسين: المجال الأول الوظائف الداخلية، والمجال الثاني الوظائف الخارجية.

أما الوظائف الداخلية فهي تستهدف[١٢٨]:

أولًا: تطبيق الإسلام في مختلف مجالات الحياة.

ثانيًا: إضفاء روحية الإسلام، وتجسيد حقيقته في واقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية

للمواطنين، وذلك من خلال تكريس الضمان الاجتماعي الذي يكفل حدًّا أدنى من الرفاه لجميع أفراد المجتمع، وكذلك تحقيق التوازن الاجتماعي في المعيشة، والقضاء على الفوارق الطبقيّة فيها، وإعادة توزيع الثروة بالأساليب المشروعة التي تنسجم مع مقتضيات العدالة الاجتماعية في الإسلام[١٢٩].

ثالثًا: العمل على البناء الثقافي والرسالي للمواطنين، وتربية شخصيتهم تربية عقائدية[١٣٠].

وأما الوظائف الخارجية للدولة فهي تستهدف[١٣١]:

أولًا: الدعوة إلى الدين الإسلامي، وحمل رسالته في العالم كافّة.

ثانيًا: مناصرة الحق والعدل في القضايا الدولية، وتقديم المثل الأعلى للإسلام من خلال ذلك.

ثالثًا: الوقوف إلى جانب المستضعفين والمظلومين في الأرض، ومقاومة الاستعمار والطغيان، وبخاصة في العالم الإسلامي

الدولة الإسلامية والبناء الحضاري للحياة الطيّبة:

من خلال ما تقدّم معنا حول خصائص الدولة الإسلامية ومميزاتها ووظائفها وأهدافها، فقد ظهر جليًا أهمية الدولة الإسلامية وضرورتها لأيّ عمليةٍ تطوريةٍ حضاريةٍ على المستوى الفردي أو الاجتماعي الإسلامي، فالحياة الطيّبة بكلّ أبعادها ومجالاتها مرهونةٌ ببناء نظامٍ إسلامي يأخذ على عاتقه إرتقاء الحياة العامة للمسلمين على المستوى الروحي والمادي معًا، فالدولة الإسلامية ومن خلال تركيبها العقائدي وانعكاس ذلك على أهدافها القصيّة المبدعة والخلاقة إضافة إلى انعكاس ذلك على الجانب الأخلاقي وتأثيره على المستوى النفسي السلوكي، أضف إلى تأثير التركيب العقائدي على واقع الأمة السياسي بما يتصل بكفّ يد المستغلين والظالمين، وكذلك تقديم الوجه الإنساني للحياة السياسية على المستوى الدولي بعيدًا عن لعبة المصالح والنفوذ المعهودة في السياسات الدولية، هذا إضافةً إلى وظيفة الدولة الإسلامية في تجسيد حقيقة الإسلام في واقع الحياة بمختلف مجالاتها الاقتصادية والثقافية والتربوية بما يسهم في خلق الحياة النموذجية المثالية الطيّبة المزدهرة على مختلف الأصعدة والجوانب الفردية والاجتماعية في الواقع الإسلامي.

المحور السابع: الحاكم الإسلامي، الصفات والخصائص

هنا سنتوقف عند الصفات الأساسية التي ذكرها الفقهاء والأعلام المسلمون للحاكم الإسلامي، حيث نتبيّن من خلال هذه الصفات مدى أهمية اشتراطها في الحاكم وانعكاسها على واقع الحياة الاجتماعي والحضاري للأمة، ومدى أثر ذلك على بناء الحياة الطيّبة للناس وازدهارها ورقيّها وتقدمها على مختلف المستويات والمجالات.

وهنا تطالعنا عدّة صفاتٍ مهمةٍ ومحوريةٍ في شخصية الحاكم، والمرجع في تحديد هذه الصفات إمّا العقل، وإمّا الكتاب والسُنّة. ومن الصفات التي يحددها العقل والعقلاء في الحاكم أنْ يكون:

١-عاقلًا.

٢-عالمًا بعمله.

٣-قادرًا عل إيجاد وتحصيل العمل على وجهه.

٤-أمينًا كفوءًا يُعتمد عليه.

ونلحظ أنّ هذه الشروط عامّةٌ لكلّ حاكمٍ مهما كانت ملّته ومعتقداته، وعليه فالحاكم الإسلامي يجب - وبحكم العقل والوجدان - أنْ تتوفر فيه إضافةً إلى صفة العقل صفة العلم بالقانون والشريعة الإسلامية؛ لأنّه سيمارس حكمه من خلال تطبيقها[١٣٢] فالجاهل بالقانون لا يمكنه أنْ يحكم به، هذا إضافةً إلى وجوب كونه مؤمنًا ومعتقدًا بما يحكم به، أي أنْ يكون الحاكم مسلمًا مؤمنًا[١٣٣]. أضف إلى ذلك صفة القدرة على الولاية وإدارة الأمور وتدبيرها على الوجه الأفضل والأحسن[١٣٤].

ويُضاف إلى ذلك من الصفات أنْ يكون أمينًا مستقيمًا؛ أي أنْ يكون عادلًا[١٣٥] ذا سجلٍ عدلي نظيفٍ بحسب تعبير القوانين المعاصرة[١٣٦].

هذا كله إضافةً إلى وجوب عدم اتصاف الحاكم بالبخل والحرص والجفاء للناس، وألّا يصانع ويداهن في إحقاق الحق، ولا يضارع الظالمين في عمله؛ لأنّ هذه الصفات لا تنسجم مع رعاية مصالح الأمة، والسهر على ازدهارها وتقدمها، حتى وإنْ لم تصل هذه الصفات إلى الحدّ الذي يضرّ بالعدالة ويخِلّ بها.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في أحد كلماته: "**وقد علمتم أنّه لا ينبغي أنْ يكون الوالي على الفُروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيلُ فتكونَ في أموالهم نَهمته، ولا الجاهل فيضلّهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدِّوَل فيتخذ قومًا دون قوم ، ولا المرتشي في الحكم فيذهبَ بالحقوق ويقف دون المقاطع، ولا المعطّل للسُنّة فيُهلك الأمة**"(١٣٧). وقال عليه السلام في كلامٍ آخر له: " **لا يقيم أمر الله سبحانه إلّا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع** "(١٣٨).

هذا إضافةً إلى بعض الصفات التي اشترطها بعض الأعلام، مثل الذكورة، وطهارة المولد، والبلوغ، وسلامة الأعضاء والحواس، والحرية والقرشية(١٣٩).

ولأنّ الحكومة هي رعاية لشؤون الناس وتدبير لأمورهم وسهر على راحتهم نجد الإمام علي عليه السلام يحذر من تولي أمر الأمة السفهاء والفجار، يقول عليه السلام: "**ولكنّني آسى أنْ يلي أمر هذه الأمة وسفهاؤها وفجارها، فيتّخذوا مال الله دولًا، وعباده خَولًا، والصالحين حربًا، والفاسقين حزبًا**" (١٤٠).

ومن هنا، ولأهمية موقع الحاكم وتأثيره على الحياة الاجتماعية بكلّ مناحيها وآفاقها، ولأنّ الحاكمية هي لطفٌ في المولَّى عليهم، فإنّ الحاكم يجب أنْ يكون قدوةً وأسوةً للناس يربّي ويعلّم نفسه قبل غيره، ويكون تعليمه وتربيته بسلوكه وعمله قبل لسانه، يقول علي عليه السلام: "**من نَصَب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم**"(١٤١). وهو الذي يقول : "**أأقنع من نفسي أنْ يُقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوةً لهم في جشوبة العيش**"(١٤٢). وقال عليه السلام: "**إنّ الله فرض على أئمّة العدل أنْ يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّن بالفقير فقره**"(١٤٣).

جدلية العلاقة بين الحاكم والحياة الحضارية الطيّبة للأمة

من خلال ما تقدّم من التشدد في صفات الحاكم، يظهر لنا حرص الإسلام على انتقاء حكامه وولاته لما لهذا المنصب من صلةٍ وطيدة ببناء المجتمع وحضارته. فالحياة الطيّبة للأمة مجتمعًا وأفرادًا، وبناء الصرح الحضاري لها لا يمكن أن ينفصل عن طبيعة الحكم

وصفات الحاكم وخصائصه، فممارسات الحاكم وسيرته وطريقة تصرفاته وتدبيره وإدارته للأمور، لها الإنعكاس الحاسم على حياة الناس حاضرهم ومستقبلهم، فإن كان سلوكهم مراعيًا للموازين الشرعية، ومنسجمًا مع ما يجب أن يتصف به من الخصائص والمميزات المتقدمة كان حال الأمة وواقعها طيبًا مزدهرًا ذا وجهةٍ حضاريةٍ، يسير في مدارج التقدم والكمال، وأما إن كان سلوكه وتعاطيه متجاوزًا للحدود والمعايير الشرعية غير مراعٍ لما يجب أن يتصف ويتحلى به من صفات، فإن واقع حال الأمة حياتيًا وحضاريًا سيكون واقعًا منكوسًا متداركًا في دركات الإنحطاط والتخلف.

المحور الثامن: جدلية العلاقة بين الحاكم والمحكوم

من الأمور المركزية في حياة الدولة ومصير الأمم هي إشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم، الراعي ورعيته؛ فكلما كانت هذه العلاقة متواشجةً وقويةً ومنسجمةً، وقام كلٌّ منهما بأداء حق الآخر دون إجحاف أو تقصير، يستقيم أمر الحاكم والمحكوم، وتنتظم أمور الدولة وتصلح شؤون الأمة، ويعمّ العدل ويرتفع التظالم بين الناس وتطبق أحكام الدين، وتقوى الدولة وييأس الأعداء من النيل منها. وعلى العكس من ذلك حين يُجحف الوالي برعيته ولا تؤدّي الرعية حقّ واليها، فإنّ ذلك من أظهر معالم فساد المجتمع وتحلل الدولة، وانتشار الظلم والفساد، والإدغال في الدين.

يقول علي عليه السلام: "**ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقًا افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها، ويوجب بعضها بعضًا، ولا يُستوجب بعضها إلّا بعض. وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعية وحقّ الرعية على الوالي. فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلٍّ فجعلها نظامًا لألفتهم وعزًّا لدينهم. فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعية. فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه، وأدّى الوالي إليها حقّها، عزَّ الحقُّ بينهم، وقامت، مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن فصلح بذلك الزمان، وطُمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء. وإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة. وظهرت معالم الجور. وكَثُرَ الإدغال في الدين. وتُركت محاج السنن. فعُمل بالهوى. وعُطلت الأحكام. وكثرت**

علل النفوس. فلا يُستوحش لعظيم حقٍّ عُطِّل . ولا لعظيم باطلٍ فُعّل. فهنالك تَذل الأبرار وتعزّ الأشرار، وتَعظُمُ تبعات الله عند العباد"(١٤٤).

- حق الحاكم على الرعية وحق الرعية على الحاكم

يرى علي عليه السلام أنّ من حقّ الرعية على الحاكم، أنْ يُقَدم النصيحة لهم، ويوفّر احتياجاتهم المعيشية، ويؤمِّن لهم تربيةً وتعليمًا يقيهم الجهل والإنحراف، وأمّا حقّ الحاكم على رعيته، فأنْ يكونوا أوفياء نُصحاء له، لا يخونون ولا يغدرون، وأنْ يلبّوا نداءه ويسرعون لإجابته إذا دعاهم، ويكونون أهل طاعة إذا أمرهم. يقول علي عليه السلام: **"أيّها الناس إنّ لي عليكم حقًّا ولكم عليّ حقّ. فأمّا حقّكم علي فالنصيحة لكم. وتوفير فيئكم عليكم وتعليمكم؛ كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا. وأمّا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب. والإجابة حين أدعوكم. والطاعة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم"**(١٤٥).

وفي كلامٍ آخر له عليه السلام حول حق الرعية وحق الحاكم، يرى الإمام عليه السلام أنّ من حقّ الرعية على الحاكم ألّا تبطره النعمة ولا تبعده عن رعيته، بل يجب أنْ يكون ذلك مدعاةً إلى دنوّه منهم وعطفه عليهم. وحقّ الرعية على الحاكم ألّا يكتمهم سرًا إلّا في الحرب؛ لأنّ الحرب خدعة، وألّا يدع مشاورتهم في الأمور كلّها إلّا ما كان للشارع فيها حكمٌ، فيكون حكم الله هو النافذ دون المشورة، فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق. ومن حقّ الرعية على الحاكم أنْ يؤدّي إليهم حقوقهم، وأنْ يكونوا جميعًا في الحق متساويين.

وبمقابل هذه الحقوق للرعية، تأتي حقوق الوالي التي هي في حقيقتها ومآلها تعود إلى الصالح الاجتماعي العام، ولرفاهية الأمة وازدهارها وتقدّمها، وليس فيها عوائد ذاتية على الحاكم لخدمة مصالحه وتحقيق مآربه. وهنا يرى الإمام علي عليه السلام أنّ من حقّ الحاكم على الرعية ألّا يتأخّروا ولا يتلكأوا إذا دعاهم، ولا يتهاونوا في صلاح وإصلاح، وأنْ يخوضوا الشدائد في سبيل إحقاق الحق. يقول عليه السلام: **"أمّا بعد، فإنّ حقًّا على الوالي ألّا يغيّره على رعيته فضلٌ ناله، ولا طولٌ خُصّ به، وأنْ يزيده ما قسم الله له من نِعَمِه دنوًّا من عباده وعطفًا على إخوانه. ألا وإنّ لكم عندي ألّا أحتجز دونكم سرًا إلّا في حرب، ولا أطوي دونكم أمرًا إلّا في حكم. ولا أؤخر لكم حقًّا عن محَلِّه، ولا أقف به دون مقطعه، وأنْ تكونوا**

عندي في الحقّ سواءً، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة، ولي عليكم الطاعة، وألّا تنكصوا عن دعوة، ولا تفرطوا في صلاحٍ، وأنْ تخوضوا الغمرات إلى الحق"(١٤٦).

وبهذا المعنى ما ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام حين سُئل ما حقّ الإمام على الناس؟ قال: "**حقّه عليهم أنْ يسمعوا له ويطيعوا**". قال السائل: فما حقّهم عليه؟ قال عليه السلام: "**يقسم بينهم بالسوية، ويعدل في الرعية**"(١٤٧).

طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم:

لا بد أنْ تكون هذه العلاقة بين الحاكم ورعيته محكومة عبر ضوابط ومحدِّدات يجب توفّرها بغية تقديم الوجه الحضاري والإنساني الراقي والعادل لنظام الحكم الإسلامي، ومن جملة هذه الضوابط:

-أ- الرحمة واللطف:

من آيات التعامل الإنساني بين الحاكم ورعيته، ومن مميزات الحكم الحضارية أنْ يكون الحاكم على سلوكيات الراعي وتعاطيه اللطف والرحمة برعيته، وإظهار المحبّة لهم والإشفاق عليهم، بحيث يكون قلبه مسكونًا بهذه المعاني والقيم، في سجيةٍ من سجاياه وخصلةٍ من خصاله. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام لعامله على مصر: "**وأشعرْ قلبَك الرحمةَ للرعية والمحبّةَ واللطفَ بهم. ولا تكونّ عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان إمّا أخٌ لك في الدين وإمّا نظيرٌ لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أنْ يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك**"(١٤٨).

-ب-المشاركة والمخالفة وعدم الاحتجاب:

إنّ الرحمة واللطف اللذين يجب أنْ يطبعا حال الحاكم مع رعيته، لا بدّ أنْ ينعكسا على سلوكياته وتعاطيه معهم؛ إذ يجب على الحاكم أنْ يستمع لذوي الحاجات ويتفرغ لمطالبهم بعيدًا عن الحاشية والجند كي يُسمعوا الحاكم شكواهم واحتياجاتهم دون خوف أو تردد. يقول علي عليه السلام في عهده للأشتر النخعي واليه على مصر: "**ولا تصعّر خدّك لهم، وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممّن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل**

الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه"(١٤٩).
ويقول ﷺ: "**واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسًا عامًا فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك، حتى يكلمك متكلّمهم غير متتعتع**" (١٥٠).

ومن هنا يجب على الوالي ألّا يحتجب عن رعيته؛ لأنّ ذلك ينعكس عليه باختلال في رؤيته وتقويمه للأمور، وجهله بأحوال رعيته، وكذلك يكون سببًا لانصراف قلوب الرعية عنه وسخطها عليه. يقول علي ﷺ في عهده لواليه: "**وأمّا بعد، فلا تطوّلن احتجابك عن رعيتك، فإنّ احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلّة علمٍ بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويُشاب الحق بالباطل، وإنّما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحقّ سمات تُعرَف بها ضروب الصدق من الكذب**"(١٥١).

-ج- طلب رضا الرعية دون الطبقة الخاصة:

لّما كان الحكم في الإسلام هو لصالح الشعب، ولأجل تكامله وإحيائه حياةً طيّبةً كريمة، كان لزامًا أنْ تكون من أساسيات الحكم الإسلامي أنْ يراعي جانب عامة الناس دون خاصتهم؛ لأنّ عامة الناس هم قوام الحياة الاجتماعية بكلّ أبعادها ومناحيها، على عكس الطبقة الخاصّة التي غالبًا ما تكون – وعلى خلاف العامة- متطلبة أكثر من حقوقها، ترى لنفسها امتيازات على غيرها ليست جديرة بها، فهي تكره العدل والإنصاف، تخذل عند الشدّة والملمات. يقول علي ﷺ لواليه على مصر: "**وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ وأعمّها في العدل وأجمعها لرضى الرعية، فإنّ سُخط العامة يُجحف برضا الخاصّة، وإنّ سخط الخاصّة يُغتفر مع رضا العامة. وليس أحدٌ من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرًا عند الإعطاء. وأبطأ عذرًا عند المنع، وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من أهل الخاصّة وإنّما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم**"(١٥٢).

-د- الشفافية في التعاطي مع الرعية:

وبغية توطيد العلاقة بين الحاكم والرعية، لا بدّ أنْ تحكم هذه العلاقة الشفافية والوضوح، وخاصّة لأجل تبرير ما قد تظنّه الرعية من ظلمٍ وحيفٍ من قِبَلِ الحاكم، وهذا يكون فيه ترويضًا للنفس وحملها على العدل وعلى الرفق بالرعية. يقول علي عليه السلام: "**وإنْ ظنَّت الرعية بك حيفًا فأصحر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك؛ فإنّ في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقًا برعيتك، وإعذارًا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق**" (١٥٣).

-هـ - عدم الخُلْف وعدم إظهار المن والتفضل على الرعية:

ومن آداب الحكم وموجباته التي لا بدّ أنْ يتحلّى بها الحاكم وتنطوي عليها سجيته عدم التمنن على الرعية فيما يعطيه وينفقه، وعدم خُلفِه في وعوده التي يقطعها للناس، فإنّ ذلك أمرٌ أساسي في واجباته وحقّ للرعية عليه. يقول علي عليه السلام: "**وإيّاك والمنَّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيُّد فيما كان من فعلك أو أنْ تعدهم فتُتبع موعدك بخُلفك، فإنّ المنّ يبطل الإحسان، والتزيّد يذهب بنور الحق، والخُلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: ﴿كبر مقتًا عند الله أنْ تقولوا ما لا تفعلون﴾**"(١٥٤).

-و- المساءلة والمحاكمة للحاكم والنهي عن تعظيمه:

وهنا نقف عند مسألتين مهمتين وحساستين في علاقة الحاكم بالمحكومين:

المسألة الأولى: فيما يتصل بحالة الإعظام والإكبار من قِبَلِ الرعية لواليها بما يخرج عن موازين الحقّ ومراسيم الشرع وآداب احترام الإنسان وكرامته. وهذا ما يحدث كثيرًا وعلى مر التاريخ وصولًا إلى عصرنا الحاضر. وهي قضيةٌ جديرةٌ بالتوقف عندها؛ لكونها تعكس مدى نظرة المجتمع لزعيمه وحاكمه، وبالمقابل مدى نظرة الحاكم لأمته ورعيته. فإنّ مظاهر الإجلال والإحترام عندما تطغى عن حدها المتعارف والمقبول فإنّها تغدو مظهرًا من مظاهر العبودية والدونية من قبل الناس لحاكمها، ومن جهةٍ أخرى فإنّ مقبولية هذه السلوكيات عند الحاكم تعكس تضخمًا في شخصيته ونزوعًا ذاتيًا نحو العظمة والترفع على الناس. وهذا كلّه بعيدٌ كلّ البعد عن المعنى الحقيقي للحاكمية والسلطة التي يريدها الدين وتمليها الأخلاق الإنسانية والحضارية لأيّ أمةٍ من الأمم.

وعليه فإنّ هذا التعاطي الفوقي سينعكس لزامًا على وضعية الأمة وحياتها وتكاملها، فهي ليست مسألةً شكليةً، بل جوهرية لما تُنبي عنه من عدم أهلية الحاكم لسوس الرعية وإدارة شؤونها والحفاظ على مصالحها بأمانة وتجرد، وبالمقابل تدلّ على تدني الوعي عند الأمة، وعدم أهليتها للاختيار الصالح لرُعاتها وأولياء أمورها. ومن هنا جاء نهي علي عليه السلام للرعية عن هكذا سلوك في تعاطيها معه زمن خلافته على الأمة. يقول عليه السلام: "**فلا تكلّموني بما تُكلّم به الجبابرة، ولا تتحفظوا منّي بما يُتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنّوا بي استثقالًا في حقٍّ قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي...** "[١٥٥].

المسألة الثانية: وهي مسألةٌ تتعلّق بمحاسبة ومساءلة الحاكم. وهنا نجد أنّ الإسلام قد انتقل في علاقة الأمة بحاكمها إلى مستوياتٍ عظيمةٍ وخلّاقةٍ تجعل من الرعية حكمًا ومراقبًا ومسائلًا لراعيها، وهذه من أهم ما يمكن أنْ ترتقي إليه علاقة الحاكم مع رعيته، وهي التي تبعد شبح السلطوية والتفرّد بالرأي والدكتاتورية عن طبيعة الحكم؛ لأنّه حينئذٍ يدرك الحاكم أنّه مسؤول ومحاسب ومراقب أمام الناس، فليس من حقه أنْ يفعل ما يريد وما تمليه عليه نفسه وشهواته ومصالحه. ومن خلال ذلك يمكن للأمة أنْ تحافظ على مصالحها وحقوقها وكرامتها واستقلالها، وتحيا حياةً طيّبةً حضارية؛ لأنّ الحكم عندها يكون لمصلحة الرعية، ويكون الحاكم منضبطًا ومراقبًا لنفسه وسلوكه في أي خطوة يريد أنْ يقدم عليها. إلى هذا، فلا شكّ في أنّ ما أسلفناه يُعد المقياس الحضاري لأيّ أمةٍ تريد العزة والرقي والتكامل والحياة الطيّبة الكريمة. وهذا ما أراد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام أنْ يربّوا الأمة عليه في تعاطيها مع ولاتها وقادتها وحكامها بأنْ يكون التعاطي على أساس التناصح والتسديد والمساءلة البناءة والمنتجة؛ كي لا تقع الأمة فريسة الاستبداد السياسي والديني، كما نجده في حاضرنا وكذلك في ماضينا، عندما كان الناس ينظرون إلى الحاكم على أنّه ظلّ الله تعالى على الأرض، وأنّه تجب إطاعته ولو كان منحرفًا فاسقًا.

ومن هنا جاءت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله لتؤكّد على الأمة أنْ تكون صاحبة حضورٍ ومشاركةٍ وفاعليةٍ ومسؤوليةٍ في كلّ مناحي حياتها وأوجهها المتنوعة. فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم"[١٥٦]. وورد عنه قوله ﷺ: "ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"[١٥٧]. ومن هنا نجد عليًا عليه السلام يشدد على هذه المسألة، ويريد تربية الأمة عليها وتنشئتها طبقًا لها ووفقًا لمعاييرها يقول عليه السلام: "**ولا تظنّوا بي استثقالًا في حقٍّ قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي، فإنّه من استثقل الحق أنْ يقال له أو العدل أنْ يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحقٍّ أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفس بفوق أنْ أخطئ، ولا آمن من ذلك من فعلي إلّا أنْ يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني**"[١٥٨].

وفي الواقع، فإنّ هذا هو أدب القرآن الكريم الذي أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يربي الأمة عليه، فهو يخاطب رسوله الكريم محمد ﷺ بقوله ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[١٥٩]، وفي مقام إظهار مزايا الجماعة المسلمة ومميزاتها والثناء عليها قال تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[١٦٠].

الحاكم بين إطاعته والخروج عليه

لقد وقع الخلاف بين علماء المسلمين من العامّة حول جواز إطاعة الحاكم الظالم وعدم الخروج عليه بالقوّة وإزاحته عن الحكم. فقد ذهب بعضهم إلى وجوب إطاعة الحاكم الظالم الجائر وعدم جواز الخروج عليه، واستند في ذلك إلى بعض الأحاديث المروية في صحيح مسلم وغيره، وذهب آخرون إلى عدم جواز إطاعته ووجوب الخروج عليه في حالة انحرافه وطغيانه وخروجه عن الموازين الشرعية[١٦١]. ولكن حقيقة الحال هي عدم جواز الإطاعة للحاكم الظالم الجائر، وجواز بل وجوب الخروج عليه ضمن شروط وضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه من الأمور الواضحة على مستوى القرآن الكريم والسُنّة الشريفة وسيرة المعصومين من آل محمد ﷺ. فمسألة عدم جواز إطاعة الحاكم الظالم الجائر الفاسق في جوره وعصيانه هي من المسائل التي لا إشكال فيها، حيث ورد النهي والإشارة إلى سوء العاقبة جراء إطاعتهم والركون إليهم. يقول تعالى: ﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ**﴾[١٦٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾[١٦٣].

وورد عن رسول الله ﷺ: "**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**"[١٦٤] وورد عنه ﷺ: "**من أرضى سلطانًا جائرًا بسخط الله خرج من دين الله**" [١٦٥].

وأمّا فيما يتعلّق بجواز الخروج على الحاكم بل ووجوبه، فقد استدلّ العلماء بجملةٍ من الأدلة آيات وروايات وسيرة المعصومين[١٦٦]، تشكّل ـ على الأقل - بمجملها دلالةً واضحةً على وجوب الخروج على الحكام الطغاة، والعمل على عزلهم وإقصائهم عن موقعهم وسلطتهم. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ جواز بل وجوب الخروج على الحاكم لا يتحقّق إلّا عندما يكون الحاكم قد خرج عن الأهلية الشرعية التي خوّلته ممارسة السلطة؛ أي يكون قد خرج عن الموازين الشرعية التي يجب على الحاكم مراعاتها، بأنْ صار حكمه مبنيًا على الإستبداد واتباع الهوى، ومصداقًا للجور والفساد، وانطبق عليه عنوان الطاغوت. فحينئذٍ يجب العمل- وبحسب مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- على إزاحته والخروج عليه. والظاهر هنا- وبحسب الفقهاء- أن في هذه الحالة ينعزل قهرًا بعدم مشروعية حكمه وسلطته[١٦٧].

المحور التاسع: التربية السياسية وضرورتها في الإحياء الحضاري للأمة

وبعد عرضنا لبعضٍ من أهم معالم ووجوه السياسة والحكم في الإسلام، ننتهي إلى محور هام وأساسي يتصل بتربية الأمة وتنشئتها وتثقيفها بالثقافة السياسية التي من خلالها تستطيع أنْ تحقّق نهضتها وحضارتها وتمدنها، وأنْ تنعم بحياةٍ طيّبةٍ صالحةٍ ترتقي بها إلى مصاف الأمم المتقدمة والشعوب المتحضرة.

كيف لنا أنْ نحول نظرية الحكم تلك من إطارها النظري الجذاب إلى واقعٍ عملي ينسكب في وعي الأمة ووجدانها، بما يؤثّر في اختياراتها وقراراتها وتبصّرها في غاياتها أهدافها الحياتية والمصيرية، فيما يتصل بإدارة شؤونها، وتدبير أمورها على مختلف الأصعدة والمجالات؟

وللإجابة عن هذا السؤال المفصلي الذي ترتكز عليه فاعلية المنظومة السياسية الإسلامية، نقول بكلمةٍ واحدة: لا بدّ من عملٍ تربويّ جادٍ ورساليّ يهدف إلى تكريس ثقافة ووعي سياسي على المستوى الفردي والاجتماعي، وبالتالي لا يكون مقتصرًا ـ كما هو عليه الآن ـ على بعض النخب والمثقّفين من أصحاب الفكر والقلم، بل يتعداه لكي يكون ثقافةً اجتماعيةً عامة تتحول فيما بعد إلى سلوكٍ وعملٍ تغييري متجسّدٍ في أرض الواقع.

ودعوتنا هذه نابعةٌ من خلال ما تمثّله السلطة السياسية ونظام الحكم من ضرورة دينية

إسلامية، تدخل في رأس قائمة الأحكام الأساسية وذات الأولوية على مستوى التطبيق والتنفيذ في الحياة العامة للمسلمين، لما تمثّله من ضرورةٍ حضاريةٍ إنسانية، بحيث- وكما مر معنا في المحاور السابقة- فإنّ البناء الحضاري للأمة مرهونٌ بالنظام السياسي الحاكم فيها، فلا يمكن أنْ نفكّر بحضارةٍ إسلاميةٍ وحياةٍ طيّبةٍ مزدهرة دون بناء نظامٍ عادلٍ حكيمٍ يخشى الله سبحانه في ممارساته، ويجعل لمراقبة الناس ومحاسبتهم له نصيبًا وافرًا في فعله وسلوكياته.

وعليه، فإنّ هكذا ضرورة وأهمية لنظام الحكم ومدى انعكاسه على حياة الناس سلبًا أو إيجابًا هي جديرةٌ بأنْ يُعطى لها الاهتمام الكافي على مستوى التربية والإعداد والتوجيه الاجتماعي العام. وهذا اللون من التربية السياسية يدخل في دائرة أهم الأحكام الإسلامية وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّ تربية الأمة وتوجيهها نحو اختيار الحاكم الرشيد الرسالي والذي يذكرها بنهج نبيّها محمد ﷺ وعلي عليه السلام وأبنائه الطاهرين، هو لونٌ من ألوان الأمر بالمعروف، فبناء الدولة هو من أبرز مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن هنا، فعندما نريد لهذه المنظومة السياسية الإسلامية بمحاورها ومعالمها التي تقدّمت معنا أنْ تخرج من دائرة النظر والفكر والجدال إلى دائرة العمل والتطبيق، فلا بدّ لها أنْ ترى النور من خلال نوافذ أساسية ثلاثة:

النافذة الأولى: التربية الأسرية، لما تمثّله الأسرة من مصنع الأجيال، فهي التربة الأولى التي فيها تنبت خصاله وصفاته وملامح شخصيته المستقبلية. وعليه فإنّ للأسرة دورًا فاعلًا في التربية السياسية لأفرادها، فكما تربّي الأسرة أفرادها على جملةٍ من الآداب الاجتماعية، والأحكام الشرعية، فمن الجدير بها، أنْ تربّي أبناءها- وبالقدر المستطاع - على أهمية وخطورة السلطة والحكم، وأنّ الحاكم إنْ كان أمينًا عادلًا حكيمًا رحيمًا كفوءًا له أثر حاسم على حياة الناس وازدهارها وتقدمها بحاضرها ومستقبلها، وأنّ هذا الحاكم لا بدّ أنْ يلتزم بالشريعة الإسلامية وألّا ينحرف عنها، وفي حال إنحرافه وطغياته لا بدّ أنْ يتحرّك الوجدان الفردي والاجتماعي لردعه ونهيه ضمن معايير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ لم يرعوِ فلا بدّ من العمل وبمختلف الأساليب والطرق لإزاحته وخلعه عن السلطة؛ لأنّه حينئذٍ يمثل تهديدًا للأمة ولمصالحها ولحياة أبنائها. نعم إنْ هذه الثقافة الأسرية تحتاج إلى وعي وإدراك

من القيمين عليها من الآباء والأمهات وذلك بأنْ يكون لها هذه الثقافة والوعي والبصيرة مشفوعًا بالإحساس العميق بضرورة التوجيه والتربية على هذا الصعيد، لا أقل – إنْ لم يكن ذلك من جهة الدافع الديني العقائدي البحت – لما تمثّله السلطة الصالحة الرشيدة من مصلحةٍ أكيدةٍ لحياة أبنائها وسعادتهم وتأمين مستقبل سعيد وزاهر لهم.

النافذة الثانية: وهي التربية المدرسية والأكاديمية الجامعية. وهنا يجب أنْ تدخل التربية السياسية بمعالمها وأوجهها المتنوعة كواحدةٍ من المواد الدراسية الأساسية، فكما للتربية الدينية أهميتها وضرورتها بحيث تُقدَّم ضمن البرامج التدريسية في المدارس والمعاهد والكليات الجامعية، كذلك فإنّ التربية السياسية هي فرعٌ أساسي ومحوري من هذه التربية الدينية، بل لا بدّ أنْ تكون لها الأولوية على غيرها ممّا يُعرض ويُقدَّم؛ لأنّه من خلال تجسيد التربية السياسية في واقع حياتنا عبر تمظهرها بنظام حكم إسلامي عادل، نستطيع حينئذٍ أنْ نطبق كلّ أحكام الدين ومفاهيمه وعقائده الحقة. ومن هنا، ولأجل هذه الأهمية لا بدّ من عملية إعدادٍ تثقيفي وتوعوي منذ المراحل الإعدادية والثانوية وانتهاءً بالمرحلة الجامعية، بحيث يجب أنْ يزوّد الطالب بكلّ مرحلةٍ من هذه المراحل بالتثقيف السياسي الذي يتناسب مع قدراته وملكياته الفكرية العامة، مع المحافظة في جميع هذه المراحل على وحدة الهدف والغاية التي من أجلها يتمّ هذا الإعداد والتوجيه والتربية، وهي خلق وعيٍ فكريّ وإحساسٍ وجداني شعوري عميق، يلامس القلب مع الفكر، بأنّ مصلحة الأمة إنْ على المستوى الفردي أو الاجتماعي مرهونة بنظام الحكم السائد، وأن لا سبيل إلى النهوض والرقي والتقدم إلى الحياة الطيّبة دنيًا وآخره، إلّا عبر تحقيق نظامٍ إسلامي يأخذ بعين الاعتبار مصلحة الناس قبل مصلحة الحاكم، ويكون همُّ الحكم وإمكاناته مسخّرة فقط وفقط للناس وسعادتهم وتكاملهم المادي والروحي، أي- وبكلمة واحدة- أنْ تكون الولاية لطفًا في المولّى عليهم.

هذا كلّه يجب أنْ يَرْكُز في وعي الناشئة، ومنذ نعومة أظافرها، تتربى عليه وينطوي وجدانها على معناه وأهميته. أضف إلى ذلك، أنّه لا بدّ في العملية التربوية هذه- وعلى اختلاف مراحلها – أنْ نبرز المزايا الإنسانية والمعنوية الجاذبة في المنظومة الإسلامية للحكم،

وأنْ نؤكّد على تمايزها وفرادتها أمام كل الأطروحات والنظريات السياسية الموجودة في الواقع السياسي البشري، وأنّها هي الضامن الوحيد لكرامة الإنسان وحريته ورفعته الوجودية، إضافةً لما تشكّله من سلامة روحية وأخروية، وهذا ما تفتقده كلّ الأطروحات السياسية الوضعية. فإنّ غاية ما قد تضمنه تلك الأطروحات هي السعادة الدنيوية المادية فقط. وعليه، فإنّ الأطروحة السياسية الوحيدة في العالم التي تضمن سعادة الدارين، الدنيا والآخرة هي الأطروحة السياسية الإسلامية، وبحسب المعايير والوجوه التي تَقدَّم بعضٌ من أهم مرتكزاتها معنا من خلال المحاور المتقدمة.

ومن هنا فلا بدّ من تربية الأمة على إدراك المعنى الحقيقي لمفهوم الدولة الإسلامية وما تنبني عليه من أسسٍ عقائديةٍ وأخلاقيةٍ ودينيةٍ تنعكس على وظائفها ودورها وآدائها على المستوى الداخلي، الفردي والاجتماعي، وعلى المستوى الخارجي في مواقفها وعلاقاتها مع العالم من حولها دولًا وشعوبًا فلا بدّ من تنشئة وتربية إجتماعية تجعل من المجتمع يعي ويتحسس هذا البعد الفكري الحضاري التمدني للدولة الإسلامية مع مقارنة ذلك فيما هو موجود وراهن من دول ذات رؤى وضعية لا ترتقي إلى هذا المستوى العميق الذي نجده في الدولة الإسلامية من حيث اهتمامها بكلّ أبعاد الإنسان الروحية والمادية معًا، وليس - كما هو عليه الحال في أغلب أنظمة العالم - الاقتصار فقط على الجانب المادي دون المعنوي والروحي.

النافذة الثالثة: التربية الاجتماعية، وذلك عبر مختلف الفاعليات والنشاطات الاجتماعية التي تنهض بها مؤسّسات وجمعيات وأندية ومحاضرات وخطب وإعلام مرئي ومسموع ومقروء إلى جانب وسائل التواصل الاجتماعي والتي لها دورها الفاعل والخطير في واقعنا الراهن والمعاصر، على مستوى صناعة وتوجيه الرأي العام الاجتماعي والفردي. فهنا علينا ــ كمهتمين بواقع هذه الأمة وحريصين على مستقبلها وبناء حضارتها ــ أنْ نؤدّي رسالتنا التربوية السياسية، من خلال ما تقدّم معنا آنفًا من معالمها ومفاصلها وغاياتها القصيّة، وذلك بغية صناعة رأي عام وتربيته ضمن معايير ومحددات سياستنا المرجوة والبناءة، بحيث ننقل المجتمع من حالة التخبط والجهل باختياراته وانتخابه لحكامه ومسؤوليه إلى

حالة التبصر والعلم بمن هو جدير بحكمه والتحكم بمصيره.

وينبغي علينا - وفي جميع مراحل هذه العملية التربوية السياسية - أنْ نستحضر واقعنا وماضينا، كي يتّضح لنا، بما لا لبس فيه مدى أهمية الحكم وخطورته على حياة الأمة ومستقبلها. فهذه الأمة وعبر تاريخها وحقبها المختلفة ووصولًا إلى واقعها الراهن عانت ألوان العذاب والويلات والمهانات، فشكّلت أنظمة الحكم المتوالية وعبر تاريخها محطاتٍ حاسمةً في رسم معالم بؤسها وتخلفها وانتكاستها وتراجعها على المستوى الحضاري العام وفي مختلف الأصعدة والمجالات. فقد لعبت السلطة دورًا أساسيًا في عملية التشتيت والتمزق الذي عاشته هذه الأمة وعبر تاريخها المديد وحتى عصرنا الحاضر. فتاريخنا، بل وحاضرنا، هو تاريخ الحاكم وسلطته، صبغه بلونه وطَبَعه بمزاجه وهواه، الذي غالبًا ما كان هوى عصبيةٍ ودماء، ومزاج انحرافٍ عن جادّة الحقّ والشريعة والدين.

مضافًا إلى ما تقدّم، فلا بدّ من التوقف عند المدّة الزمنية التي يجب أنْ يتولى فيها الحاكم ممارسة السلطة، وذلك لما لهذه المسألة من حساسيةٍ وانعكاسٍ نفسي وفكري على الأمة أفرادًا وجماعات. فالحاكم يجب أنْ يخضع لقانون التغيير والتبدل الطبيعي في هذا الوجود، وألّا يكون استثناءً لهذه القاعدة. فإنّ تغيير الحاكم - مهما كانت قدراته ومواهبه وملكاته - لا بد أنْ يكون أولويةً في أي نظام حكم إسلامي؛ وذلك لما في هذا التغيير من إبعاد شبح الاستبداد والاستئثار بالسلطة من قبل الحاكم؛ لأنّ هذا الاستئثار يؤدّي إلى الابتعاد عن روحية الحكم في الإسلام وطبيعته التي تؤكّد على وجوب عدم اتصاف الحاكم بالشغف للحكم والسلطة والمقام والمنصب، وإلّا لابتعدنا عن فلسفة الحكم في الإسلام وكونه لطفًا في المولّى عليهم وليس استئثارًا وطمعًا في منصب من هنا أو جاه من هناك. أضف إلى أنّ الإستمرار في الحكم في مدى زمني طويل وغير منظور، سينعكس بطبيعة الحال على نفسية الحاكم ونظرته إلى من حوله؛ بأنْ يؤدّي به ذلك إلى انتفاخ في الشخصية ونرجسية في ممارسة السلطة، وهذا غالبًا ما يحدث للحكام ممّا يفتح بابًا خطيرًا أمامهم نحو الطغيان والاستفراد بالحكم، ممّا يأخذنا إلى مسارٍ انحرافي بالكامل عن واقع حال الدولة الإسلامية وأبعادها الروحية والمعنوية والحضارية العامة.

إضافة إلى ما قد يؤدّي هذا الاستئثار بالحكم إلى نزعة توريث السلطة لدى الحاكم وجعلها في الأولاد أو أقاربه من بعده.

هذا من جهة الحاكم وأمّا من جهة الرعية فإنّ تغيير شخص الحاكم لا بدّ أنْ يكون له انعكاس على نفسية المحكوم وإعطائه الإحساس الصادق بأنْ تولّي السلطة ليس لمصلحةٍ شخصيةٍ وليس امتيازًا أو تشريفًا، وإنّما هو مسؤولية وأمانة يجب تحمّلها وأداؤها بكلّ إخلاصٍ وجدارة، وهذا ممّا يسهم كثيرًا في التفاعل الإيجابي بين الحاكم ورعيته، بعكس ما لو ظهر على الحاكم آثار وأمارات الطمع والهوى بالسلطة والحكم.

وكذلك فإنّ تغيير الحاكم وتبدّله يفسح المجال أمام إبراز واكتشاف الطاقات والاستعدادات الكامنة في الأمة على هذا الصعيد، والعمل على الاستفادة منها وتوظيفها للصالح العام.

نعم قد يُقال هنا إنّه ليس عندنا دليلٌ شرعي من آيةٍ أو روايةٍ يُلزم بذلك، وإنّ صفات الحاكم المؤهِّلة له هي الضامن لاستقامته وعدم انحرافه، وبالمقابل فإنْ فُقدت بعض هذه الصفات المؤهلة منه فإنّه ينعزل قهرًا عن الحكم. والجواب نعم، ولكن هذا لا يعني إسقاط العوامل والاعتبارات المتقدّمة من الحسبان، طالما هي اعتبارات عقلائية تنسجم مع موازين الشريعة وروحيتها ولا تخالفها. نعم وفي حالاتٍ تاريخيةٍ استثنائية قد يفرض الواقع عدم تغيير الحاكم لما له من مؤهلاتٍ وحيثياتٍ بحيث لا يسد الفراغ في الحكم غيره، وعند ذلك تسقط المحاذير العقلائية المتقدّمة من عدم التغيير ويصبح وجوده ضرورةً ومصلحة للأمة.

هذا كله لا بدّ أنْ يؤخذ بعين الاعتبار والتوقف الملي في أيّ عمليةٍ تربوية، كي نُري الأجيال الصاعدة، كم هو كبير الفرق بين ما ننشده من سياسةٍ وحكمٍ وبين ما هو سائد في عالمنا الإسلامي وإلى هذا الحين؛ وذلك بغية تَحَسُّب الأخطار المحدقة بواقع هذه الأمة ومستقبلها، لأجل العمل على تغيير هذا الواقع المقيت والمتردي والمنكوس بغية الوصول إلى واقع سياسي يُرجع الأمة إلى أصالتها الحقيقية وهويتها الوسطية المتمايزة والشاهدة على الأمم، أمة الوسطية والاعتدال. حينها نحقق حلم بناء الحضارة الإسلامية الذي يدغدغ العقول والقلوب، ونحيا حياةً طيّبةً ملؤها السعادة والرخاء والطمأنينة. حينذاك نحقّق أمة

الإسلام كما أرادها الله سبحانه ونبيه الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، أمة التمهيد لإمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف، أمة ذات حضارةٍ جاذبةٍ لأهل الأرض جميعًا، تُريهم عظمة الإسلام، وصحة نهجه، وجميل حضارته ومزاياه.

خلاصة المطاف:

وخلاصة لما تقدّم فقد تم استعراض مسألةٍ مهمةٍ وجوهريةٍ في الحياة الاجتماعية لبني البشر، ألا وهي مسألة السلطة والحاكمية ومدى انعكاسها على الواقع الحياتي للناس. حيث تم التطرّق وعبر تسعة محاور إلى بعضٍ من أهم معالم المنظومة الإسلامية في الحكم، حيث بدأنا بفلسفة الحكم وضرورته للاجتماع البشري ومدى أهميته لتكفل استمرارية وجود الجماعة البشرية ولضمان سعادتها وإحيائها حياةً طيّبة. ومن ثم تطرقنا إلى طبيعة الحكم في الإسلام، ووجه الاختلاف فيه بين السُنّة والشيعة. وعرضنا لمن شذّ من الأمة بقوله إمّا بعدم ضرورة وجود نظام حكمٍ من الأساس وإمّا عدم وجود نظامٍ سياسيّ في الإسلام. ومن ثم تم التعرض لبعضٍ من ملامح حكومة النبيّ ﷺ ومزاياها في المدينة المنورة مع ردّنا على المشككين بذلك، وعطفنا بعد ذلك للحديث عن التجربة العلوية النموذجية في الحكم، حيث تم التطرّق لأهم مفاصل ومعالم الفكر العلوي في الحكم، ابتداءً من فلسفة الحكم وضرورته عنده عليه السلام مرورًا بعدله في الحكم إلى مسألة الحاكمية، والحفاظ على الإنسان وحقوقه وكرامته وحريته إلى قضية الحاكم واختياره لولاته، والتشدد في صفاتهم وسجاياهم لما لذلك من انعكاسٍ على حياة الناس ومصالحها وسعادتها، وانتهاءً بموقف الإمام علي عليه السلام من الحرب وقوانينها وفلسفته لها التي تنطوي على نظرةٍ إنسانيةٍ عميقةٍ تختلف عن نظر الكثير من أهل الفكر والنظر والفلسفة في شرق الأرض وغربها لطبيعة الحرب وأهدافها وطريقة إدارتها.

وانتهينا بعد هذا التجوال السريع في الفكر السياسي العلوي إلى أنّ الحاكمية عنده هي في خدمة الإنسان ولأجل إحيائه حياةً طيّبةً سعيدة ترفل بالرفاه والطمأنينة وخير الدنيا والآخرة كلّه. وبعد ذلك فقد تم التعرض لمميزات الدولة في الإسلام ولأهم وظائفها، حيث وجدنا أنّ الدولة الإسلامية لها مميزاتها العقائدية والدينية والأخلاقية التي تمتاز بها

عن مختلف أنواع الحكومات الوضعية، والتي لها انعكاس مهم على واقع حياة الناس بمختلف أوجهها ومجالاتها. وقد ظهر لنا ضرورة الدولة كشرطٍ أساسيّ للبناء الحضاري للأمّة ولإحيائها الحياة الطيّبة التي أرادها الإسلام لأبنائه وأتباعه.

وبعد ذلك تم التطرّق إلى صفات الحاكم وخصائصه حيث وجدنا أنّ الحاكم من خلال صفاته وخصائصه هو قدوة وأسوة للناس، وأنّ الحاكمية تغدو من خلال ذلك لطفًا في المولّى عليهم بما يصب في مصلحة الأمّة وتقدّمها وإحيائها الحياة الطيّبة المتكاملة. وبعد ذلك تم التعرض إلى جدلية العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وقد أبرزنا من خلالها حق الحاكم على الرعية وحق الرعية على الحاكم، حيث يجب أنْ تطبع هذه العلاقة الرحمة واللطف والمخالطة والمشاركة للرعية، وأنْ يكون همُّ الحاكم رضا العامة من الرعية دون خاصتهم. هذا إلى جانب مسألة مهمة وهي محاسبة الحاكم ومساءلته وإرشاده ونصيحته من قبل الرعية، وألّا تتعامل معه كما يُتعامل مع الجبابرة، والطغاة، بل هو واحد منهم له ما لهم وعليه ما عليهم.

وقد تم التعرض بعد ذلك إلى مسألةٍ أثيرت في الفكر السياسي والفقهي الإسلامي وهي إطاعة الحاكم وإشكالية الخروج عليه. حيث وجدنا أنّ الإطاعة هي حقٌّ من حقوق الحاكم العادل على رعيته، وأمّا مسألة الخروج عليه فهذا لا يكون إلّا في حال فسقه وطغيانه وخروجه على الضوابط والمعايير الإسلامية. وهذا الأمر يدفع غائلة التسلط والديكتاتورية من الحاكم، ويبيح للرعية وضع حدود وضوابط لعمله وسلوكه.

وأخيرًا تعرّضنا إلى مسألةٍ جوهريةٍ على مستوى الأثر العملي لهذا البحث وهي مسألة التربية السياسية التي يجب أنْ تتربى عليها الأمة بغية أنْ تؤتي نظرية الحكم الإسلامية أكُلَها على أتم وجه، وأنْ تكون منطلقًا إلى حياةٍ طيّبةٍ وبناءٍ حضاري إسلامي، تعيش في ظلاله الأمة في مسيرةٍ تكامليةٍ، تزاوج بين المادة والروح في حركةٍ خلّاقةٍ مبدعةٍ لتكون حضارتنا منطلقًا جاذبًا يشع بأنوار الفكر والعلم والثقافة للإنسانية جمعاء.

الهوامش

١- يقول الطبطبائي: "فوجود المجتمع لا ينفكّ عن وجود الأفراد ونسبة المجتمع إلى الأفراد كنسبة الصورة إلى المادة". الطباطبائي، محمد حسين، نظرية السياسة والحكم في الإسلام، ١٥.

٢- يقول ثامسطيوس: الإنسان بالطبع يميل إلى الإجتماع والأنس. انظر: السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، ١٨١. وقال أرسطو (ت٣٢٢ ق.م): "إنّ الإنسان بالطبع كائن اجتماعي". انظر: السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ١٤.

٣- مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، ١٣-١٤.

٤- السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، ١٨١.

٥- مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، ١٦وقارن السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، ١٨١

٦- مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق، ٣٧.

٧- فلو، أنطوني، أفلاطون، بحث ضمن: أعلام الفكر السياسي، ١٤.

٨- أفلاطون، الجمهورية.

٩- م.ن، ٥٦.

١٠- أباظة، إبراهيم دسوقي، والغنام، عبد العزيز، تاريخ الفكر السياسي، ١٣.

١١- الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، ١١٧.

١٢- ابن سينا، الحسين بن علي، الشفاء، ٤٤١.

١٣- السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، ١٨٠

١٤- لقد عدّ أرسطو العلة الغائية النهائية للدولة المدنية هي الخير الأعظم، وبالتالي العيش الحسن، بأنْ يحيا الناس حياةً كاملةً سعيدة. انظر: وولف، فرانسيس، أرسطو والسياسة، ٤١.

١٥- ليلى، محمد كامل، النظم السياسية، الدولة والحكومة، ١٧.

١٦- شمس الدين، محمد مهدي، في الاجتماع السياسي الإسلامي، ٦٥.

١٧- إنجيل متى، فصل ٢١و٢٢، قارن: عبد المولى، محمود، أنظمة المجتمع والدولة في الإسلام، ١٥٥.

١٨- شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ٢٢.

١٩- إنجيل يوحنا، فصل ١٨ و٣٦.

٢٠- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ١/ ٢٢.

٢١- شمس الدين، محمد مهدي، في الإجتماع السياسي الإسلامي، ١٧، انظر كذلك: محمد عطا، المتوكل، المذهب السياسي في الإسلام، ١٦٦

٢٢- الكليني، أصول الكافي، ١/ ٢٨٢.

٢٣- الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ١/ ١٣٠-١٣١.

٢٤- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ح١، ١/ ١١٨.

٢٥- غارودي، روجيه، وعود الإسلام، ٨٥.

٢٦- شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ٤٣١.

٢٧- م.ن.

٢٨- النساء/ ٥٩. حتى إنّ الشافعي رأى أنه لو لم ينزل غيرهذه الآية لكفى في مادة الدولة الإسلامية راجع: الغنوشي، راشد، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ١٠٩.

٢٩- السيستاني، علي، محاضرات في اختلاف الحديث، ٤٣ و٤٥.

٣٠- شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ٢٣١، انظر الملل والنحل، ١/ ٢٤.

٣١- آل عمران/ ١٥٩ وانظر: صبحي، أحمد محمود، النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية (بحث)، مجلة عالم الفكر، ١٣٦.

٣٢- الحلي، الحسن بن يوسف، النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، ٩٣ وكذلك انظر: الركابي، إياد بن إبراهيم، رسالة في التوحيد والسياسة، بحث حول فلسفة الإمامة، ١٤١-١٤٧.

٣٣-صبحي، أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، ٥٨.

٣٤-الطوسي، نصير الدين، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ٣٩٢-٣٩٣. وكذلك قارن الملل والنحل، ٢٤ و٢٦٥.

٣٥-ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة، ١٩٢. كذلك قارن: صبحي، أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، ٦٩. وكذلك قارن: غليون، نقد السياسة الدولة والدين، ١١٣.

٣٦- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة، ص١٩٢-١٩٣.

٣٧- عبد الرازق، علي، الإسلام وأصول الحكم، ٦٩.

٣٨- م.ن، ٦٤-٦٥

٣٩- م.ن، ٨٣-٨٤.

٤٠- صبحي، أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية، ٥٦.

٤١- عمارة، محمد، خلفيات مخطط علمنة الإسلام والعمران، ٢١.كذلك انظر: مقالة صبحي، أحمد محمود، النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية، ١٧٥.

٤٢- انظر مثلًا الريس، محمد ضياء الدين، الإسلام والخلافة في العصر الحديث نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم، وكذلك انظر: البيومي، محمد رجب، الإسلام وأصول الحكم في الميزان، ٣٣-٦٤، وكذلك انظر: عمارة، محمد، الإسلام وأصول الحكم.

٤٣- قال تعالى: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبلَ فتفرّق بكم عن سبيله﴾ (الأنعام/ ١٥٣)، وقال تعالى: ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعًا ولا تفرّقوا﴾ (آل عمران/ ١٠٣)، وقال النبي صلى الله عليه وآله: "من أتاكم وأمركم جميع (مجتمع) على رجل واحَد، يريد أنْ يشقّ عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه". وقال علي عليه السلام: "والزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة..."، نقلًا عن: السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ٢٢.

٤٤- السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ٢١-٢٣.

٤٥- عمارة، محمد، هل تراجع "الشيخ علي عبد الرازق فعلا عن آرائه؟"، كذلك انظر السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ٢٣، وانظر: الخميني، روح الله، الحكومة الإسلامية، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٨، وانظر: ليلة، محمد كامل، النظم السياسية الدولة والحكومة، ٤٣٠-٤٣٢.

٤٦- الإنسان/ ٣ .

٤٧- الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، ١٥٦-١٥٧. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الخط بقوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعًا فإمّا يأتينّكم مني هدًى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. (البقرة / ٣٨).

٤٨- السيد، رضوان ، الأمة والجماعة والسلطة، ٩-١٠.

٤٩- راجع حول اختلاف تسميتها: الحميدي، خالد بن صالح، نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال الصحيفة المدنية، ٥٩-٦٠.

٥٠- الغنوشي، راشد، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ٩٤-٩٥. كذلك انظر: شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ٥٣١-٥٣٩. كذلك انظر: السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ١٧، وكذلك انظر: عمارة، محمد، "خلفيات مخطط علمنة الإسلام والعمران"، ٢١.

٥١- يعقوب، أحمد حسين، النظام السياسي في الإسلام، ٢٧١-٢٧٤. وكذلك انظر : شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ٥٤٢-٥٩٩. كذلك انظر : السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ١٧-١٩

٥٢- يعقوب، أحمد حسين، النظام السياسي في الإسلام، ٢٧١-٢٧٤. وكذلك انظر : شمس الدين، محمد مهدي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ٥٤٢-٥٩٩. وكذلك انظر: سبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ص١٧-١٩

٥٣- الغنوشي، راشد، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ١٠٨

٥٤- صبحي، أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، ص٥٨ وص٦٣ على التوالي.

٥٥- م.ن، ٥٨ وص٦٣ على التوالي.

٥٦- انظر حول روح النظام الإسلامي وواقعه والفرق بينه وبين باقي الأنظمة المعروفة في عصرنا: الفاضلي، علي، النظام الإسلامي في واقعه، ١٣-٣٧.

٥٧- الخميني، روح الله، الحكومة الإسلامية، ٤١

٥٨- عبده، محمد، شرح نهج البلاغة، ١/ ٩١.

٥٩- نهج البلاغة، ٣/ ١٩٨-١٩٩.

٦٠- م.ن، ٣/ ٦.

٦١- م.ن، ٢/ ١٣.

٦٢- م.ن، ١/ ٨٠.

٦٣- م.ن، ١/ ٤٦.

٦٤- م.ن، ٢/ ٦-٧.

٦٥- م.ن، ١/ ٣٦-٣٧.

٦٦- م.ن، ٢/ ٢١٧-٢١٨.

٦٧- م.ن، ٢/ ٢١٨.

٦٨- ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، ١/ ٣١٥ - نقلًا عن الشيرازي، محمد الحسيني،

الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، ٦٣-٦٤.
٦٩- نهج البلاغة، ٣/ ٩١-٩٢.
٧٠- م.ن، ٣/ ١٠٧-١٠٨.
٧١- م.ن، ٢/ ١٨٨.
٧٢- م.ن، ٣/ ٧٢.
٧٣- م.ن، ٣/ ٢٧.
٧٤- م.ن، ٣/ ٨٤.
٧٥- م.ن، ٣/ ١٠٠-١٠٢.
٧٦- القرشي، باقر شريف، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ١١/ ٣١.
٧٧- جرداق، جورج، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية "بين علي والثورة الفرنسية"، ٢/ ٢٦٢.
٧٨- جرداق ، جرج، علي صوت العدالة الإنسانية، ٢/ ٢٧١-٢٧٥.
٧٩- نهج البلاغة، ٣/ ٩٥.
٨٠- م.ن، ٣/ ٩٨-٩٩.
٨١- قارن حول ذلك: جرداق ، جرج، علي صوت العدالة الإنسانية، ٢/ ٢٦٧-٢٧١ كذلك ص٢٩٧-٢٩٨
٨٢- نهج البلاغة، ٣/ ٩٦-٩٧.
٨٣- انظر حول ما تقدم: جرداق ، جرج، علي صوت العدالة الإنسانية، ٢/ ٢٥٠-٢٥١. وكذلك انظر: جرداق ، جرج، حول القضاء في العهد العلوي، ٢/ ٢٤٧-٢٦٧.
٨٤- نهج البلاغة، ٣/ ٩٤.
٨٥- القرشي، باقر شريف، مجموعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ١١/ ٣٨-٣٩.وكذلك قارن: م.ن، ٢٣٤-٢٣٥.
٨٦- نهج البلاغة، ٢/ ٦-٧. قارن كذلك حول مساواته بين الناس، طي ، محمد، الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ١٢٣-١٣٢.
٨٧- نهج البلاغة، ٣/ ٥١.
٨٨-جرداق، جرج، علي صوت العدالة الإنسانية (علي وحقوق الإنسان)، ١/ ١٦٠-١٦١.
٨٩- القرشي، باقر شريف، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ١١/ ٢٢٦ .
٩٠- نهج البلاغة، ٤/ ٩٨-٩٩.
٩١- انظر في تعامله عليه السلام مع خصومه: جرداق، جرج، علي صوت العدالة الإنسانية "علي وحقوق الإنسان"، ١/ ١٧١-١٧٤.
٩٢- قارن حول الحاكم وولاته: شمس الدين، محمد مهدي، دراسات في نهج البلاغة، ٨٥-٩٣.
٩٣- نهج البلاغة، ٣/ ٩٥.
٩٤- م.ن، ص٩٦.
٩٥- م.ن، ص٩٥-٩٦.

٩٦- البقرة/ ١٧٩.
٩٧- نهج البلاغة، ٣/ ٩٦.
٩٨- م.ن، ١/ ١٠٤.
٩٩- م.ن، ٢/ ١٣.
١٠٠- المفيد، محمد بن محمد، النصرة لسيد العترة في حرب البصرة، ١٦٢-١٦٦.
١٠١- م.ن، ١٧٣-١٧٧ .
١٠٢- المفيد، محمد بن محمد، النصرة لسيد العترة في حرب البصرة، ١٧٧.
١٠٣- م.ن، ٢١٤-٢١٥.
١٠٤- م.ن، ٢٠٠-٢١٨.
١٠٥- المِنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ١٩٣.
١٠٦- نهج البلاغة، ٣/ ٧٧-٧٨.
١٠٧- انظر حول نظرية علي عليه السلام في الجند والعسكر: شمس الدين، محمد مهدي، دراسات في نهج البلاغة، ٦٢-٧٣.
١٠٨- نهج البلاغة، ٣/ ٩١.
١٠٩- م.ن.
١١٠- القصص/ ٧٧.
١١١- م.ن.
١١٢- الصدر، محمد باقر، الأسس الإسلامية، ضمن بحث: الفضلي، عبد الهادي، الأسس الإسلامية عرض وبيان لما وضعه الشهيد الصدر من أصول للدستور الإسلامي، ٣١٨-٣١٩.
١١٣- سبأ/ ٢٨.
١١٤- الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، ١٦٥.
١١٥- م.ن، ١٦٧-١٦٨
١١٦- م.ن، ١٦٨.
١١٧- م.ن، ١٦٩-١٧٠.
١١٨- م.ن، ١٧٣.
١١٩- م.ن، ١٧٤-١٧٦.
١٢٠- م.ن، ١٧٦-١٧٧.
١٢١- م.ن، ١٨٠-١٨٣.
١٢٢- م.ن، ١٨٣ - ١٨٥.
١٢٣- م.ن، ١٨٥-١٨٦.
١٢٤- م.ن، ١٨٩ - ١٩٢.
١٢٥- الحج/ ٤١.

١٢٦- الصدر، محمدباقر، النظام الإسلامي مقارنًا بالنظام الرأسمالي والماركسي، ١٤٤.
١٢٧- م.ن، ١٤٤-١٤٥.
١٢٨- الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، ٢٠-٢١.
١٢٩- ولعلّ الصدر من أوائل المفكرين المسلمين الذين نظّروا وبحثوا بالتفصيل في طبيعة دور الدولة الإسلامية ومهامها في إدارة العملية الاقتصادية في المجتمع المسلم. يُنظر حول دور ومسؤولية الدولة في الاقتصاد الإسلامي عند الصدر: الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، ٦٥٩-٦٨٦. وكذلك انظر: الصدر، الإسلام يقود الحياة، ١١١-١١٧.
وكذلك: الصدر، بحث بعنوان: "دور الدولة في الإقتصاد الإسلامي"، مجلة رسالة الإسلام، العدد ٩-١٠، ١٩٦٨، ضمن: بحوث إسلامية ومواضيع أخرى، ٩٨-١٠٧.
١٣٠- يقول الصدر حول وظيفة الدولة فيما يتعلق بالبناء الفكري والرسالي للفرد المسلم: "فالدولة الإسلامية لها وظيفتان: إحداهما: تربية الإنسان على القاعدة الفكرية، وطبعه في اتجاهه وأحاسيسه بطابعها. والأخرى: مراقبته من خارج، وإرجاعه إلى القاعدة إذا انحرف عنها عمليًا". الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، ٤٥.
١٣١- الصدر، محمدباقر، الإسلام يقود الحياة، ٢١.
١٣٢- وقد استدلّ على صفة العلم بآيات وروايات منها ما ورد عن علي عليه السلام قوله " أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فإنْ شغب شاغبٌ استعتب، فإنْ أبى قوتل": نهج البلاغة، ٢/ ٨٦.
١٣٣- ومن الآيات التي استدلوا بها على ذلك قوله تعال :﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ (آل عمران/ ٢٨).
١٣٤- وممّا استدل به على ذلك من الآيات قوله تعالى حكاية عن يوسف النبي عليه السلام: ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم﴾ (يوسف/ ٥٥)
١٣٥- واستدلوا على شرط العدالة بقوله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قال إنيّ جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ (البقرة/ ١٢٤). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله "لا تصلح الإمامة إلّا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم". الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ح٨، ص٣٠٧.
١٣٦- انظر حول ما تقدّم من صفات الحاكم: منتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ١/ ٢٧٥—٢٧٧.
١٣٧- نهج البلاغة، ٢/ ١٤.
١٣٨- م.ن، ٤/ ٢٦.
١٣٩- انظر منتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه، ١/ ٣٦٩. كذلك انظر المصدر نفسه حول اتفاق أهل السُنّة على معظم هذه الصفات، ١/ ٢٧٣.
١٤٠- نهج البلاغة، ٣/ ١٢٠.

١٤١- نهج البلاغة، ٤/ ١٦.
١٤٢- م.ن، ٣/ ٧٢.
١٤٣- م.ن، ٢/ ١٨٨.
١٤٤- نهج البلاغة، ٢/ ١٩٨-١٩٩.
١٤٥- م.ن، ١/ ٨٤.
١٤٦- م.ن، ص٧٩-٨٠.
١٤٧- الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، باب١٦١، ح١، ص٣٠٥.
١٤٨- نهج البلاغة، ٣/ ٨٤.
١٤٩- م.ن، ١٠٠-١٠١.
١٥٠- م.ن، ١٠١-١٠٢.
١٥١- م.ن، ١٠٣-١٠٤
١٥٢- م.ن، ٣/ ٨٦.
١٥٣- م.ن، ٣/ ١٠٥.
١٥٤- م.ن، ٣/ ١٠٩.
١٥٥- نهج البلاغة، ٢/ ٢٠١.
١٥٦- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٣، ١، ح٥٥، ص٧٥.
١٥٧- م.ن، كتاب الإمارة، رقم الحديث ١٨٢٩.
١٥٨- نهج البلاغة، ٢/ ٢٠١.
١٥٩- آل عمران/ ١٥٩.
١٦٠- الشورى / ٣٨.
١٦١- انظر الخلاف حول إطاعة الحاكم وعدم جواز الخروج عليه: منتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ١/ ٥٨٠- ٥٨٩.
١٦٢- الشعراء / ١٥١-١٥٢.
١٦٣- هود / ١١٣.
١٦٤- الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، كتاب الأمر والنهي، باب ١١، ج١٦، ح٧، ص١٥٤.
١٦٥- م.ن، كتاب الأمر والنهي، باب ١١، ج١٦، ح٤، ص١٥٣.
١٦٦- انظر حول ذلك: منتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه، ١/ ٥٩٥-٦١٨.
١٦٧- انظر: منتظري، حسين علي، دراسات في ولاية الفقيه، ١/ ٥٩٤-٥٩٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
* نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار الهدى الوطنية، بيروت.
* أباظة، إبراهيم دسوقي، والغنام، عبد العزيز، تاريخ الفكر السياسي، بيروت، دار النجاح.
* ابن سينا، الحسين بن عبد الله، الشفاء، تح: محمد يوسف موسى، سليمان دنيا، سعيد زايد، بيروت، دار السرور.
* أفلاطون، الجمهورية، الكتاب الثاني، ترجمة حنا خباز، بيروت، دار القلم.
* الإمام الخميني، روح الله، الحكومة الإسلامية، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
* جرداق، جورج، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية "بين علي والثورة الفرنسية"، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٠م.
* الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٣، بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ٢٠٠٨م.
* الحلي، الحسن بن يوسف، النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، شرح المقداد السيُّوري، ط١، دار الأضواء، بيروت.
* الحميدي، خالد بن صالح، نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال الصحيفة المدنية، ط١، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤.
* الركابي، إياد بن إبراهيم، رسالة في التوحيد والسياسة، بحث حول فلسفة الإمامة، مؤسسة البلاغ، ١٩٨٨م.
* السبحاني، جعفر، معالم الحكومة الإسلامية، ط١، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٤م.
* السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة، ط٢، بيروت، دار إقرأ، ١٩٨٦م.
* السيستاني، علي، محاضرات في اختلاف الحديث، عام ١٣٩٦هـ، غير مطبوعة، بقلم هاشم الهاشمي.
* شمس الدين، محمد مهدي، دراسات في نهج البلاغة، ط٣، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨١م.
* ـــــــــ، في الاجتماع السياسي الإسلامي، ط١، بيروت، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر.
* ـــــــــ، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ط٣، إيران، قم، دار الثقافة للطباعة والنشر.
* الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ط١، بيروت، دار السرور، ١٩٤٨.
* الشيرازي، محمد الحسيني، الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، ط١، بيروت، مؤسسة الفكر الإسلامي، ، ١٩٩٣.
* صبحي، أحمد محمود، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩١.
* الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، ط٢، بيروت، التعارف، بيروت، ١٩٨٧
* ـــــــــ، الإسلام يقود الحياة، بيروت، دار التعارف، بيروت
* ـــــــــ، بحوث إسلامية ومواضيع أخرى، ط١، بيروت، التعارف، بيروت.
* ـــــــــ، فلسفتنا، ط٢، بيروت، التعارف، بيروت ١٩٩٨
* الطباطبائي، محمد حسين، نظرية السياسة والحكم في الإسلام، ترجمة: محمد مهدي الآصفي. بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٢م.
* الطوسي، نصير الدين، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، شرح العلامة الحلي، ط٢، منشورات شكوري، قم، ١٤١٣هـ.
* طي، محمد، الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ط١، الغدير، ١٩٩٧.

* عبد الرزاق، علي، الإسلام وأصول الحكم، ط٢، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٢٥م.
* عبد المولى، محمود، أنظمة المجتمع والدولة في الإسلام، طرابلس الغرب، الدار العربية للكتار.
* غارودي، روجيه، وعود الإسلام، ط١، بيروت، الدار العالمية للطباعة والنشر، ١٩٨٤.
* الغنوشي، راشد، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣.
* الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، قدّم له وعلّق عليه البير نصري نادر، ط٦، بيروت، دار المشرق.
* الفاضلي،علي، النظام الإسلامي في واقعه، ط١، بيروت، شركة شمس المشرق، ١٩٩٣م.
* القرشي، باقر شريف، موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ط١، الكوثر، ٢٠٠٢.
* كرانيستون، موريس، أعلام الفكر السياسي، ط٣، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩١م.
* الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ط١، بيروت، دار المرتضى، ٢٠٠٥م.
* ليلى، محمد كامل، النظم السياسية: الدولة والحكومة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٩.
* المتوكل، محمد عطا، المذهب السياسي في الإسلام، ط٢، بيروت، مؤسسة الإرشاد والإسلامي.
* مسكويه، أحمد ابن محمد، تهذيب الأخلاق، تحقيق: حسن التميم، ط٢، بيروت، مكتبة الحياة، ١٣٩٨هـ.
* مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، تحقيق: محمد علي آذَرشَب، ط١، بيروت منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى لمؤسسة البعثة.
* المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، النصرة لسيد العزة في حرب البصرة، ط١، الدار الإسلامية، بيروت، ٢٠٠١.
* منتظري، حسين، دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ط٢، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٨م.
* المنقري، نصر بن مزاحم، واقعة صفين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٣٨٢هـ.
* وولف، فرانسيس، أرسطو والسياسة، تج : أسامة الحاج، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات.
* يعقوب، أحمد حسين، النظام السياسي في الإسلام، بيروت، الدار الإسلامية

*** الجرائد والمجلات**

* صبحي، أحمد محمود، النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية، مجلة عالم الفكر.
* البيومي، محمد رجب، الإسلام وأصول الحكم في الميزان، مجلة الأزهر، صفر ١٤١٤هـ.
* عمارة، محمد، خلفيات مخطط علمنة الإسلام والعمران، جريدة الحياة، سنة ١٩٩٣، العدد ١١٢٠١.
* ـــــــــــ، "هل تراجع الشيخ علي عبد الرازق فعلًا عن آرائه؟"، جريدة الحياة، ١٩٩٣، العدد ١١٢٠٣.
* الفضلي، عبد الهادي، الأسس الإسلامية عرض وبيان لما وضعه الشهيد الصدر من أصول للدستور الإسلامي، مجلة المنهاج، عدد ١٧، ٢٠٠٠.
* ـــــــــــ، عودة إلى كتاب "الإسلام وأصول الحكم"، جريدة الحياة، ١٩٩٣، العدد ١١٢٠١- ١١٢٠٨.

الحياة والموت في عاشوراء: (إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جميلاً)

أ.د. بتول زين الدين

دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال / أستاذةٌ جامعية في كلّية الإعلام

الجامعة اللبنانية / لبنان

ملخص البحث

في هذا البحث نتعرّف على الحياة بمعناها القرآني، ومعنى الحياة الطيّبة في القرآن الكريم وكيفيّة انعكاسها في كربلاء، فنوضّح معالم الحياة الطيّبة المستوحاة من واقعة عاشوراء ومجالس العزاء.

ينقسم البحث إلى محورين:

المحور الأوّل: الحياة في القرآن الكريم: ﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا، فَلَنُحْيِيَنَّهُ**﴾.

المحور الثاني: الحياة والموت في عاشوراء: ﴿ **إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جيلًا**﴾.

المحور الأوّل: الحياة في القرآن الكريم: ﴿**مَا يُحْيِيكُمْ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا، فَلَنُحْيِيَنَّهُ**﴾

إذا أردنا فهم الحياة بالمعنى القرآني لها، يتبادر إلى ذهننا عدّة آيات قرآنيّة، أبرزها:

- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال/ من الآية ٢٤].
- ﴿**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [يس/ ٧٠].
- ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل/ ٩٧].

نبدأ بتوضيح معنى الحياة الطيّبة من خلال الآية الأخيرة: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل/ ٩٧]. الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه، فالجملة بلفظها دالّةٌ على أنّ الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحًا بحياةٍ جديدةٍ غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة[1].

وهي تتضمّن وعدًا جميلًا للمؤمنين إنْ عملوا عملًا صالحًا وبشرى للإناث أنّ الله لا يفرّق بينهن وبين الذكور في قبول إيمانهن، ولا أثر عملهن الصالح الذي هو الإحياء بحياةٍ طيّبةٍ والأجر بأحسن العمل[2] . و(الحياة الطيّبة) هي الحياة التي يمتلك فيها الإنسان قلبًا مطمئنًا وروحًا مؤمنة، ولا ريب في أنّ هذا الإنسان لا يعرف الخوف ولا يعتريه الحزن. تبيّن الآية أنّ مثل الإنسان الفاقد الإيمان والعمل الصالح كمثل الجسد الميّت لا روح فيه:

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيّبة)[٣]، و(الحياة الطيّبة) في هذه الدنيا هي النتاج الطبيعي للعمل الصالح النابع من الإيمان، أي أن المجتمع البشري سيعيش حينها حياةً هادئةً مطمئنةً ملؤها الرفاه والسلم والمحبة والتعاون، بل وكلّ ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانية، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانيّة التي تملأ الدنيا ظلامًا وظلامات[٤].

الإنسان الذي يحيا حياةً طيّبةً يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزة واللذة والسرور ما لا يقدر بقدر. وهو مستغرقٌ في حياةٍ دائمةٍ لا زوال لها، ونعمةٍ باقيةٍ لا نفاد لها، ولا ألم فيها، ولا كدورة تكدّرها، وسعادة لا شقاء معها[٥]. فهي حياةٌ حقيقيّةٌ جديدةٌ يفيضها الله سبحانه عليهم. ومنها أنّها الحياة الدنيوية المقارنة للقناعة والرضا بما قسم الله سبحانه فإنّها أطيب الحياة.[٦]

وإذا ربطنا الحياة الطيّبة بحالة الاطمئنان لدى الإنسان ننتقل لتفسير الآية الكريمة: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد/ ٢٧]. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨]. فنجد أنّه لا مجال للاضطراب هنا، لا قلق حيال الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولا بسبب سوء تقدير الآخرين لجهودنا. توضّح لنا الآية أسباب عدم الطمأنينة، ثمّ تعلّمنا كيف نحصّلها من خلال ذكره تعالى كوقايةٍ ووسيلةٍ دفاعية.

والاطمئنان إلى الشيء السكون إليه، الإيمان واطمئنان القلب بذكر الله هو الإنابة وذلك من العبد تهيؤ يستعقب عطيّة الهداية الإلهيّة [٧]. يبيّن القرآن الكريم أقصر الطرق من خلال جملةٍ كبيرة المعنى، حيث يقول: ألا بذكر الله تطمئن القلوب! ولتوضيح هذا المعنى ومعرفة عوامل القلق والاضطراب لا بدّ من ملاحظة ما يأتي:

* يحدث الاضطراب مرةً بسبب ما يجول في فكر الإنسان عن المستقبل المظلم، لكن الإيمان بالله القادر المتعال الرحمن الرحيم الذي تكفّل برحمة عباده يمحو آثار القلق والاضطراب، ويمنحه الاطمئنان في مقابل هذه الأحداث، ويؤكّد له أنّك لستَ وحيدًا، بل لك ربٌّ قادرٌ رحيم.

* ومرةً يشغل فكر الإنسان ماضيه الأسود فيمسي قلقًا بسبب الذنوب التي ارتكبها والتقصير والزلاّت، ولكنّ بالنظر إلى أنّ الله غفّار الذنوب، وقابل التوبة، وغفور رحيم، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة وتجعله أكثر اطمئنانًا وتقول له: اعتذر إلى الله من

سوالف أعمالك السيّئة، واتّجه إليه بالنية الصادقة، (عفا الله عمّا سلف).

* ويمكن أنْ يكون أصل المشقّة هي التي تؤذي الإنسان، كالإحساس بتفاهة الحياة أو اللاهدفية، ولكن المؤمن بالله الذي يعتقد أنّ الهدف من الحياة هو السير نحو التكامل المعنوي والمادي، ويرى أنّ كلّ الحوادث تصبّ في هذا الإطار، سوف لا يحسّ باللاهدفية ولا يضطرب في المسيرة.

* ومن العوامل الأخرى أنّ الإنسان مرّةً يتحمّل كثيرًا من المتاعب للوصول إلى الهدف، ولكن لا يرى من يقيّم أعماله ويشكر له هذا السعي، وهذه العمليّة تؤلمه كثيرًا فيعيش حالةً من الاضطراب والقلق، وأمّا إذا علم أنّ هناك من يعلم بهذا السعي ويشكره عليه ويثيبه، فليس للاضطراب والقلق هنا محلٌّ من الإعراب.

فمن يعلم بأنّ كلّ مثقال ذرّةٍ من أعماله محسوبة ومكتوبة، سيكون قلبه مطمئنًا وباله مرتاحًا بالنسبة لما يقوم به. ومن يعلم أنّه مخلوقٌ بلطف الله ورحمته ﴿**إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾، لا بدّ أنْ يكون متفائلًا ومليئًا بالأمل. ومن يعلم أنّ طريقه واضح، وأنّ مستقبله أفضل من ماضيه ﴿**والآخرة خير وأبقى**﴾، يكون قلبه أكثر اطمئنانًا[٨]، مستمرًا بأطيب الحياة أو العيش وحسن المرجع، وبذلك يظهر اتصالها بما قبلها، فإنّ طيب العيش من آثار اطمئنان القلب.[٩]

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

بعد أنْ عرضنا معنى الاطمئنان في القرآن الكريم وكيفيّة تحصيله، لا بدّ أنْ نبيّن المعنى القرآني للحياة من خلال الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال/ من الآية ٢٤]. يدعونا الله في هذه الآية للاستجابة إلى دعوته للحياة بمعناها الحقيقي: (لِمَا يُحْيِيكُمْ)! وحيلولته سبحانه بين المرء وقلبه، يقطع منبت كلّ عذرٍ في عدم استجابته لله والرسول إذا دعاه لما يحييه[١٠].

في هذه الآية نتعرّف على الحياة بمعناها القرآني. الإسلام دعوة للحياة، هدف الإسلام هو الحياة على جميع الأصعدة، حيث يبعث الحركة في كلّ جوانب الحياة، ويحيي الفكر والثقافة والإحساس بالمسؤولية، ويوجد التكامل والرقي والوحدة والتألف، فهو إذًا يبعث الحياة في

البشرية بكلّ معنى الكلمة: الحياة المعنوية والمادية والثقافية والاقتصادية والسياسية، الحياة الأخلاقية والاجتماعية، وأخيرًا الحياة والعيش بالمعنى الصحيح على جميع الأصعدة.

كان الناس موتى قبل بزوغ الإسلام وفاقدي الحياة بمعناها القرآني، كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والماديّة، وكانوا بعيدين عن الحياة الإنسانية والمعنوية والعقلية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة[١١].

﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾

القرآن الكريم يجعل (الإيمان) هو (الحياة)، و(المؤمنين) هم (الأحياء)، و(الكفّار) هم (الموتى)، ففي جانب يذكر عنوان (حَيًّا)، وفي الطرف المقابل عنوان (الكافرين)، فهذه هي الحياة والموت المعنوي اللذان هما أعلى بمراتب من الموت والحياة الظاهريين. وآثارهما أوسع وأشمل، فإذا كانت الحياة والمعيشة بمعنى (التنفس)، و(أكل الطعام)، و(الحركة)، فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات، فهذه ليست حياةً إنسانيةً، الحياة الإنسانية هي تفتح أزهار العقل والفهم والملكات الرقيقة في روح الإنسان، وكذلك التقوى والإيثار والتضحية والتحكم بالنفس، والتحلي بالفضيلة والأخلاق، والقرآن ينمي هذه الحياة في وجود الإنسان.

والخلاصة: أنّ الناس ينقسمون حيال دعوة القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعةٍ حيّةٍ يقظة تلبّي تلك الدعوة، وتلتفت إلى إنذاراتها، ومجموعةٍ من الكفّار ذوي القلوب الميتة، الذين لا تؤمل منهم أيّة استجابةٍ أبدًا، ولكن هذه الإنذارات سبب في إتمام الحجة عليهم، وتحقّق أمر العذاب بحقهم[١٢].

إذًا، في الإنسان أنواع من الحياة والموت: النباتي، الحيواني. أمّا النوع الثالث من الحياة الخاص بالإنسان فقط، فهو (الحياة الإنسانية والروحية). وهو ما قصدته الروايات بقولها (حياة القلوب). إذ إنّ المقصود بالقلب هنا " الروح والعقل والعواطف " الإنسانية [١٣].

وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[١٤]. من مجموع هذه التعبيرات وتعبيرات كثيرة أخرى شبيهة لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياة والموت، هو ذلك المحور الإنساني والعقلاني، إذ إنّ قيمة الإنسان تكمن في هذا المحور.

إنّ أسباب الموت والحياة الروحية كثيرةٌ جدًّا، ولكن القدر المسلَّم به هو أنّ النفاق والكبر والغرور والعصبية والجهل والكبائر، كلها تميت القلب[١٥]. فمن لا يعبأ بظلامة المظلوم، ولا يلبّي نداء الحق، ويفكّر في نفسه فقط، ويعدّ نفسه غريبًا حتى عن أقرب الأقرباء، هل يعدّ إنسانًا حيًا؟

الجميل أنّ القرآن يعدّ الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياة الإنسانية أحياءً، ولكن الأحياء الذين ليس فيهم أيّ من آثار الحياة الإنسانية فإنّهم في منطق القرآن الكريم أموات أذلاء[١٦]. من هنا وصف القرآن الكريم الشهداء بالأحياء: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾، ﴿**ولكنْ لا تَشْعرونَ**﴾. والمقصود من الحياة في الآية هي الحياة البرزخية في عالم ما بعد الموت، لا الحياة الجسمانية والمادية. إذًا وحده المقتول في سبيل الله لا يموت.

يخبرنا الله في كتابه عن هدف خلقه للحياة والموت: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور**﴾ [الملك/ ٢].

في الزيارة الشعبانيّة للإمام الحسين عليه السلام نقول: "أشهد أنّك قُتِلتَ ولمْ تَمتْ، بل برجاء حياتِك حييتْ قلوبُ شيعتك". فأيّ موتٍ اختار الحسين عليه السلام في كربلاء؟ وكيف تنعكس معالم الحياة الطيّبة المستوحاة من واقعة عاشوراء على نمط الحياة؟ هذا ما سنجيب عنه في المحور الثاني الآتي.

المحور الثاني: معالم الحياة الطيّبة المستوحاة من واقعة عاشوراء

يقول المفكّر الفرنسي موريس دوكبري: "يقال في مجالس العزاء إنّ الحسين ضحّى بنفسه لصيانة شرف وأعراض الناس، ولحفظ حرمة الإسلام ولم يرضخ لقساوة وحقد يزيد، إذن تعالوا نتخذه لنا قدوةً، لنتخلص من نير الاستعمار، وأنْ نفضل الموت الكريم على الحياة الذليلة".

إذا أردنا الحديث عن معنى الحياة والموت بالمفهوم الحسيني يستحضر ذهننا كلمات مفاتيح عاشورائيّة قيلت في كربلاء: (إلّا قنطرة، إلّا سعادة، إلّا جميلًا).

إلّا قنطرة!

عشيَّة رحيله من مكّة وقف الحسين عليه السلام خطيبًا يقول: "خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة من جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف... ألا ومن كان باذلًا

فينا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحلٌ مصبحًا إنْ شاء الله "[١٧]. يشبّه الحسين عليه السلام الموت بالقلادة التي تعبّر عن معنيين يجتمعان فيها مع الموت: الإحاطة والجمال. الموت الذي تحدَّث عنه الإمام الحسين عليه السلام في نهضته جميل جمال القلادة حول جيد الفتاة. فهو يجمّل الفتاة ويلفّ عنقها. لذا ورد أنَّ الحسين عليه السلام في العاشر من المحرَّم كان كلَّما اشتدَّ عليه الأمر في كربلاء، واقترب من الشهادة سكنَتْ نفسه، وهدأَتْ جوارحه، وأشرقَ لونُه نورًا وبهاءً. قيل: انظروا إليه لا يبالي بالموت. فقال لهم الإمام الحسين عليه السلام: "صبرًا بني الكرام! فما الموت إلاَّ قنطرة يعبر بكم عن البؤس والضرَّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة" .[١٨] نظرة الإمام الحسين عليه السلام إلى الموت بأنّه (لقاء الله): "من كان فينا باذلًا مهجته، موطّنًا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا"[١٩] .لا عجب فأبوه الإمام علي عليه السلام يقول: "وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ"، فمفهوم الحياة الدنيا بالنسبة إليه وقيمتها أنها (مزرعة الآخرة)، وهو الذي يقول: "لدوا للموت"، مع أنّه يحثّنا على التخطيط بعيد المدى: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدًا"[٢٠].

إلاّ سعادة!

كتب الحسين عليه السلام في وصيّته وقبل حركته نحو كربلاء الآية الكريمة: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود/ ٨٨]. ورافقته في كلّ مرحلةٍ عدّة آيات قرآنيّة.

وإذا كان الهدف من إرسال الله عزّ وجلّ للرسول الحبيب صلى الله عليه وآله الرحمة للعالمين: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء/ ١٠٧]، وإذا كان الهدف من خروج الحسين عليه السلام إلى كربلاء الإصلاح في أمّة جدّه وإعادة الحياة للقيم التي دعا إليها الرسول صلى الله عليه وآله يصبح الإصلاح القيمي ثمنه البذل والتضحية للحفاظ على المعنى الحقيقي للحياة وفائض الرحمة؛ لأنّ ثمن ديمومة الرحمة تقديم القربان من هنا كانت المعادلة: إلّا رحمة، إلّا سعادة!

كان الهدف من ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ما قاله عليه السلام: "إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي" .ينتقد القرآن الكريم بشدّة الجبناء ويمدح المضحّين بأنفسهم والشجعان. وقد أثبت الإمام أنّه بحركةٍ واحدةٍ لوجه الله يمكن تغيير التاريخ والفصول وجعل الوردة الواحدة

ربيعًا دائمًا [٢١].

كانت القضية الإصلاح في الأمة والسعي إلى إحقاق الحق، فمزجت بين دور الرجل ودور المرأة في محاربة الظلم والوقوف في وجهه، أي أنّ ذلك الواجب لا يستثني أحدًا.

فالعزة ورفض الذّل من أوّليات القيم المحمديّة والثقافة العاشورائيّة. والعزّة تكون في ظلّ القرآن، وكذلك الرفاه والتقدّم المادي والمعنوي والأخلاق الفاضلة والقدرة والتغلّب على الأعداء، كلها في ظل القرآن[٢٢]. العزّة الواقعية والكاملة هي لله، ولكلّ من يختار أنْ يكون في جبهة الحق. وفي المواجهة بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، تكون العزّة لأولئك الذين يختارون أنْ يكونوا في جبهة الله، هذا هو المنطق القرآني ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾[٢٣]، ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٢٤].

في الزيارة الشعبانيّة نقول للحسين عليه السلام: "أَشْهَدُ اَنَّ هذِهِ التُّرْبَةَ تُرْبَتُكَ، وَهذَا الْحَرَمَ حَرَمُكَ، وَهذَا الْمَصْرَعَ مَصْرَعُ بَدَنِكَ لا ذَليلَ وَالله مُعِزُّكَ وَلا مَغْلُوبَ وَالله ناصِرُكَ"، ويقول الحسين عليه السلام: "موتٌ في عِزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلّ" [٢٥]. وقال عليه السلام لما عرضوا عليه الاستسلام والبيعة: "لا والله ، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد"[٢٦].

وفي كربلاء حينما خيّروه بين البيعة أو القتال، قال: "ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله ذلك لنا ورسولُهُ والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهرت، وأنوفٌ حميّة، ونفوسٌ أبيّة من أنْ نُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام" .[٢٧] وعند اندلاع معركة الطفّ كان يكرّ على صفوف العدو مرتجلًا[٢٨]، وبعد أنْ ودّع عياله، حمل على الميمنة وهو يقول: " أَلْمَوْتُ أَوْلَىْ مِنْ رُكُوْبِ الْعَارِ، وَالْعَارُ أَوْلَىْ مِنْ دُخُوْلِ النَّارِ".

ولَمَّا أحاط عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ بالإمامِ الحسينِ عليه السلام وأصحابهِ وأَيْقَنَ أَنَّهُمْ قَاتِلُوهُ، قَامَ عليه السلام فِي أَصْحَابِهِ خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، والْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ، لِيَرْغَبِ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ الله ، فَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، والْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا". إنّ السعادة كما عرفت تقابل الشقاوة [٢٩]؛ لأنّ الحرمان من الخير المادّي والمعنوي ينقض نظم الحياة ويحرم من الحياة الطيّبة، والتوفيق لهما توفيق للحياة الطيّبة.

وحول السعادة، ذكر أرسطو أنّ بعض الناس يحسب السعادة في اللّذة الحسيّة، وبعضهم في الجاه والشرف الاجتماعي، ويجدها الحكماء في التفكّر في الحقائق والغاية من الوجود، ويرى هو أنّها الغاية والخير الحقيقي من سلوك الإنسان وحياته الفعليّة[٣٠]، وفيما نقله ابن رشد عنه قوله: "السعادة للنّاس بما هم ناس إنّما هو اتصالهم بالعقل الذي تبيّن في كتاب النفس أنّه مبدأ محرّك وفاعل لنا"[٣١]. وقال الفارابي: "إنّ غاية الأخلاق هي نيل السعادة"[٣٢]. وذكر أنّ الإنسان يسعى لنيل الكمال والخير، وإذا ما فاز بالسعادة فليس وراءها غاية أعظم يطلبها، فهي الغاية في الخير[٣٣].

يقول أحد علماء النفس: إنّ الخوف من الموت يقود الإنسان إلى طرح الأسئلة التالية: لمَ، وإلى أين؟ ومعنى ذلك أنّ فكر الإنسان أكثر ما يشغله المصير النهائي للحياة البشرية[٣٤]. والإمام عليه السلام بذلك ليس خائفًا من الموت؛ لأنّه يمثّل لقاء الله ولقاء أوليائه، فهو عليه السلام مشتاق إلى أسلافه وهم أباؤه الذين سبقوه: جدّه صلى الله عليه وآله، وأمّه عليها السلام، وأبوه عليه السلام، ممثلًا ذلك الاشتياق بالشوق الذي خلّده التاريخ والقرآن الكريم، وهو اشتياق النبي يعقوب إلى ابنه يوسف عليه السلام الذي ابيضّت عيناه حزنًا على فراقه.

فعندما تكون الحياة مع الظالمين، لا يكون الموت إلّا سعادة! وعندما يُصبحُ الحقُّ مهملًا ويكونُ الباطلُ هو القاعدةُ المتَّبعةُ بين الناسِ، فإنّ المؤمنَ بين خياري الموتِ والحياةِ سوف يرى في الموتِ سعادةً وسوف يرى في الحياةِ ضيقًا وشدّةً، وهذا الأمرُ سوف يدفعُه إلى أنْ يبذلَ نفسَه للانتصارِ للحقِّ ومواجهةِ الباطلِ، فيكونُ في موتِه وشهادتِه قلبًا للموازين وتمهيدًا لعودةِ الحقِّ إلى مكانتِه التي جعلَه اللهُ فيها.

وإذا كانت ﴿**كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت**﴾[٣٥]: وكأنّ الموت نوع من الغذاء للإنسان والأحياء. فإنّ كلٌّ منا يتذوقه بحسبه. والتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، من يتذوق الطعام يتحقّق لديه الإحساس الكامل به، كلٌّ منا يتذوق الطعام بطريقة مختلفة عن الآخر.

إلّا إنّ ماهية الطعم الذي ذاقه القاسم بن الحسن عليه السلام يوم عاشوراء حتى قال لعمه الحسين عليه السلام عندما سأله كيف ترى الموت؟ غير معروفة لنا. إنّما الأمر في الكيفيّة، فعندما يسأل الحسين عليه السلام القاسم بن الحسن الذي لم يبلغ الحِلم: "كيف ترى الموت يا عمّ؟ فأجاب:

إنّي أرى الموت أحلى من العسل". فعندما تكون الحياة مع الظالمين، لم يعد يشكّل الموت إلّا سعادة! وعندما لم يرَ الحسين عليه السلام في الموت إلّا سعادة، لم ترَ أخته زينب في شهادته إلّا جميلًا!

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ (إلّا) أداة حصر، لم تقل كلّ ما رأيته جميل، لم يقل سعيد بل إلّا جميلًا، إلّا سعادة!

إلّا جميلًا!

عندما يُقال إنّ الدمّ انتصر على السيف في عاشوراء وفي واقعة كربلاء، وهو كذلك، فإنّ عامل هذا الانتصار هو زينب عليها السلام؛ وإلّا فإنّ الدمّ في كربلاء قد انتهى. واقعةٌ عسكرية تنتهي بهزيمةٍ ظاهرية لقوى الحقّ في ميدان عاشوراء. أما ذلك الشيء الّذي أدّى إلى تبديل هذه الهزيمة العسكرية الظاهرية إلى انتصارٍ قطعيٍّ دائم فهو زينب الكبرى عليها السلام بمفردها[٣٦]. على رغم كلّ تلك المصائب، حين أراد العدو أنْ يشمت بها، قالت: "ما رأيت إلاّ جميلًا"[٣٧]. هذه عزّة ولي الله[٣٨].

بعد ملحمة عاشوراء، سأل ابن زياد زينب (سلام الله عليها): كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ فقالت عليها السلام: "ما رأيت إلا جميلًا، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتختصمون عنده فانظر لمن الفلج يومئذ" فأي جميل هو هذا؟ لاحظوا هذا الجميل بما نُقل من أن زينب الكبرى لم تترك صلاة الليل حتى في ليلة الحادي عشر. طول مرحلة الأسر لم يضعف انقطاعها إلى الله وتوجهها إليه وتعلقها به، نعم، لم يقلّ بل ازداد. هذه المرأة هي القدوة[٣٩]. "هذه هي المرأة الّتي تُعدّ قدوةً، قدوةً لكلّ الرجال العظماء والنساء العظيمات في العالم. "خطبت بتلك القوّة، فحقّرت العدو وكذلك استهانت بالمصائب التي فرضها العدو. (حيث قالت له) أتريدون أنْ تغلبوا أهل بيت النبي (صلى) بخيالكم الباطل وتذلّونهم؟ ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤٠]. زينب الكبرى هي تجسيد للعزّة كما كان الحسين بن عليّ عليه السلام في كربلاء تجسيد للعزّة في يوم عاشوراء. هذه العين الناظرة إلى الله تشاهد حقيقةً جميلةً من تلك الواقعة ومن تلك الدماء المسفوحة ومن تلك المصيبة الجسيمة "ما رأيت إلّا جميلًا".

لقد رأى علي عليه السلام الله عزّ وجلّ في كلّ شيء: "ما رأيتُ شيئًا إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه"، ولم يجهله الحسين عليه السلام في شيء: "إلهي علمت باختلاف الآثار، وتنقلات الأطوار أنّ مرادك مني أن تتعرف إلى في كل شئ، حتى لا أجهلك في شيء" (من دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة)، وتشبّعت زينب (سلام الله عليها) من نظرات الله وأياديه وباتت تبحث عن جماله تعالى في كلّ فعل. فلم ترَ في أشد لحظات المحنة (إِلَّا جَمِيلًا)، فمن يثق بحبيبه يطمئن أنّه لن يصيبه منه إلّا الخير، فلم ترَ زينب من الله بعد فاجعة كربلاء إلّا جميلًا. تلك المصائب كلّها جميلةٌ في عين زينب الكبرى؛ لأنّها في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته، ولحفظ الإسلام، هذا العمل العظيم للملحمة الزينبيّة. لماذا إلّا جميلًا؟ لأنّ الهدف تحقق، تحلف زينب في خطبتها في الشام: "فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا".

وهنا تجدر الإشارة كيف تأسّت الأسيرات اللبنانيّات في فترة الاحتلال الإسرئيلي للبنان بواقعة عاشوراء[٤١]؛ فلدى اعتقال قوات الاحتلال الإسرائيلي لسيّدات لبنانيّات أثناء فترة الاحتلال (قبل التحرير عام ٢٠٠٠) كانت زينب عليها السلام، والحسين عليه السلام، والعباس عليه السلام، والسجاد، والكاظم عليهما السلام قدوتهن. تخبرنا إحداهن: "كنا نستحضر صبر السيدة زينب وأهل البيت عليهم السلام وكم تحمّلوا، فبمجرد أنْ تتخيلي أنّ السيدة زينب كانت أسيرةً تصبحين أكثر تحمّلًا. لذلك عشنا هذه الصلابة الحقيقة وشعرنا بها في الأسر، وما زلنا حتى اليوم حين نسمع مجلس السيدة زينب عليها السلام نعيش الحالة ذاتها، فكربلاء أصبحت مؤثرةً فينا أكثر بعد الاعتقال؛ لأنّ هذه المواقف عشناها، عانينا السبي والظلم". وتلفت أخرى فتقول: "كانوا يحاوطوني وأنا أتذكر السيدة زينب عليها السلام كيف كانت بأيدي الأعداء". وتقول ثالثة: "كنّا تقتدي بالإمام زين العابدين عليه السلام، كان أسيرًا وكان يقاوم بالقلم بعد أسره، وكانوا كلّما حرموه وسيلة من وسائل المقاومة يستبدلها بأخرى، وظل يقاوم".

تُذكّرنا عاشوراء كلَّ عام بالمعنى الحقيقي للحياة: "لا أرى العيش مع الظالمين إلّا برمًا". تُعلّمنا عاشوراء أنّ كلّ ذليلٍ هو ميتٌ مهما بلغ من العمر. وكلّ كريمٍ حيّ، بل يزداد حياةً بعد تضحيته بحياته لأجل القيم "وحياته بالبر أكثر من العمر". تأتي عاشوراء لتؤكّد لنا قول الرسول الحبيب صلى الله عليه وآله: "فوق كلّ ذي برٍ برٌ حتى يُقتل في سبيل الله فإذا قُتل في سبيل الله

فليس فوقه بر". وأن "موت الإنسان بالذّنوب أكثر من موته بالأجل، وحياته بالبرّ أكثر من حياته بالعمر" (الإمام الجواد عليه السلام).

تحيينا عاشوراء كلّ عامٍ بدل أنْ نحييها: العبّاس يرمي الماء، فيغدوا أميرًا للماء يحيي به الأنحاء الميتة في الأمّة.

الهوامش

١- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ١٢/ ٣٤١.
٢- م.ن، ١٢/ ٣٤١.
٣- النور، المجلّد ٤/ ٥٥٩.
٤- المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٨/ ٢٠٨.
٥-الطباطبائي، محمد حسين ، تفسير الميزان، ١٢/ ٣٤٢ (بتصّرف)
٦-. م.ن، ٣٤.
٧- م.ن، ١١/ ٣٥٣.
٨- قرائتي، محسن، تفسير النور، ٤/ ٣٤٢- ٣٤٧.
٩-. الطباطبائي، محمد حسين ، الميزان، ١١/ ٣٥٧.
١٠-م.ن، ٩/ ٤٦ - ٤٧
١١- قرائتي، محسن، تفسير النور، ٣/ ٢٧٨. (بتصّرف)
١٢- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/ ٢٣٣.
١٣- م.ن، ٢٣٤.
١٤- الأنعام/ ٣٦.
١٥- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/ ٢٣٥.
١٦- م.ن، ٢٣٦.
١٧-لمجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ٤٤/ ٣٦٦.
١٨-م.ن، ٦/ ١٥٤.
١٩-لمصدر السابق، ٤٤/ ٣٦٧.
٢٠- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، ١/ ٣٧، ح١٢٩.
٢١- قراءتي، محسن، "القرآن الكريم والامام الحسين عليه السلام"، إعداد جمعية القرآن الكريم، ملخص بتصّرف.
٢٢- السيّد علّي الخامنئي.
٢٣- فاطر/ ١٠.
٢٤- المنافقون/ ٨.
٢٥-بن شهر آشوب، محمد بن على، مناقب آل أبي طالب، ٤/ ٢٢٤.
٢٦- المفيد، محمدبن محمد، الإرشاد، ٢/ ٩٨.
٢٧-. ابن طاووس، على بن موسى، اللهوف، ٥٩.
٢٨- م.ن، ٧٠.
٢٩- الجوادي آملي، عبدالله، أدب فناء المقرّبين، شرح الزيارة الجامعة، في توضيح سعد من والاكم، ٨/ ١٥٢.
٣٠- أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ١/ ١٧٥ -١٩٠.

٣١- الفارابي، أبو نصر، تفسير ما بعد الطبيعة، ٣/ ١٦١٢.
٣٢- م.ن، السياسة المدنيّة، ٧٩.
٣٣- م.ن، الأعمال الفلسفيّة، ٢٢٧-٢٢٩. (بتصّرف)
٣٤- غالب، مصطفى، تغلب على الخوف، ٧٣.
٣٥- آل عمران/ ١٨٥.
٣٦- الخامنئي، علي، من خطابٍ له في ذكرى ولادة السيدة زينب ويوم الممرضة، ٢١-٤-٢٠١٠.
٣٧-ابن طاووس، علي بن موسى، اللهوف ص ١٦٠.
٣٨-من خطاب السيّد علي الخامنئي ٢٠/ ١١/ ٢٠١٣ م.
٣٩- من خطاب له ٠٨/ ٠٢/ ٢٠١٠م.
٤٠- المنافقون/ ٨.
٤١- للاطلاع على المزيد راجع كتاب: سكوكع، دحنون والزيتون! (حكاية معتقل بحياكة مطرّزات).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
* مفاتيح الجنان
* ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، قم، مكتبة العلامة، ١٣٧٩هـ.
* ابن طاووس، سيد علي بن موسى بن جعفر، اللهوف في قتلى الطفوف، دار المحجّة البيضاء، بيروت، ٢٠١٤م.
* أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، مطبعة دار الكتب المصرية، ٢٠١٧م.
* الآملي جوادي، عبدالله، أدب فناء المقرّبين، شرح الزيارة الجامعة، دار الإسراء للطباعة والنشر، ٢٠١٣.
* الخامنئي، علي، من خطاب له ٢٠/ ١١/ ٢٠١٣م، ومن خطاب له ٠٨/ ٠٢/ ٢٠١٠م، و٢١-٤-٢٠١٠
* الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، [التنقيح الثاني]، قم، دار الحديث، ١٣٧٥.
* زين الدين، بتول، "سكوكع، دحنون والزيتون!" (حكاية معتقل بحياكة مطرّزات)، تاريخ الأسيرات اللبنانيات في معتقل الخيام، الرابطة اللبنانية الثقافيّة، بيروت، لبنان، ٢٠٢٣م.
* الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي، ٢٠٠٦م.
* غالب، مصطفى، تغلب على الخوف، ط ٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١ م.
* قراءتي، محسن، القرآن الكريم والإمام الحسين عليه السلام، ط١، بيروت، جمعية القرآن الكريم، د، ت.
* ـــــــــــ، تفسير النور، ط١، بيروت، لبنان، دار المؤرخ العربي، ١٤٣٥ هـ.
* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، ط٢، بيروت، لبنان، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م.
* المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد، النجف الأشرف، الناشر: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢.
* المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، بيروت، لبنان، دار الولاء، ٢٠١٨م.